

الخطىك

فى سيرة ونفسية وشعره

بتكلم
ايلى حوى

داو القضاة
بيوت - بنان

الأخطا

في سيرته ونفسيته وشعره

بقلم
إيليا حاوي

دار الثقافة

بيروت - لبنان

المَرْجَع
في أعلام الأدب العربي

٤

الأخطايا

في سيرة نكرو ونفسيتيرو وشعره

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر

الطبعة الثانية

١٩٨١

الفصل الأول سيرته ونفسيته

- الباب الأول : تغلب قبيلة الأخطل
الباب الثاني : اسمه ونسبه
الباب الثالث : ولادته وفتوته ووفاته
الباب الرابع : ديانته
الباب الخامس : اتصاله بالخلفاء
الباب السادس : الأخطل وجرير والفرزدق
الباب السابع : النقد الذي ثار حوله

الباب الاول

تغلب قبيلة الأخطل

لا بدّ لمن يتعرّض لسيرة الأخطل وشعره من تمهيد في تاريخ التغلبيين ، قبل الإلمام بدراسته . فالأخطل كان شاعر تغلب بقدر ما كان شاعر بني أميّة ، وهو لم يُوطّد لنفسه في البلاط الأموي ، إلا لرفعه فيه صوت التغليبيين . وقد كان هؤلاء، منذ تاريخهم الأوّل ، يتنازعون سيادتهم وحرّيتهم ويصارعون اليمنيين عليها . ولعلّ قبائل معدّ ، جميعاً ، كانت تابعة لأهل اليمن^١ يفرضون عليهم الأتاوى ويسلبونهم حرّيتهم ، بعد أن انتشر الفساد في تلك القبائل ، ولم يُوفّق عقلاؤها إلى إصلاح أمرها ، إلا بتمليك حاكم عليهم من خارج بلادهم . ولقد ساروا إلى تبابعة اليمن الذين كانوا للعرب بمثابة الخلفاء للمُسلمين ، وطلبوا إليهم أن يُنقذوا فيهم ملكاً يُصلح من أمرهم ولا يتحزّب فيهم أو يستبد بهم . فملك عليهم حجر بن عمرو بن آكل المرار الذي ما عتمّ أن خرج على ما انتدب إليه واستبدّ بهم واستنزف أموالهم وزجرهم زجراً إلى طاعته . ولما أوفى الملك فيهم إلى الحرث بن عمرو اعتنق المزدكيّة^٢ ، استجابةً لدعوة قباذ بن فيروز ، ملك الفرس ، فملكه على الحيرة وعزل عنها المنذر بن ماء السماء . إلاّ أن كسرى انوشروان بن قباذ قتل مزدك^٣ وأصحابه^٤ وأعاد المنذر

١- ابن الأثير : الكامل ، مصر ، المطبعة الأزهرية ، ١ : ٢٩٩-٣٠١

٢- م-١-٣٠٥

٣- مزدك : هو مزدك بن باماذ صاحب الدعوة إلى المزدكية ، وهي بدعة ابتدعها في الجوسية -

انظر تاريخ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك . القاهرة ، ٢ : ٩٩

٤- تاريخ الكامل ، ٢٠٩ :

ابن السماء إلى عرش الحيرة ، وطلب الحرث بن عمرو ، وكان بالأنبار ، فهرب بأولاده وأمواله ، ولحق به المنذر بالخليل من تغلب وإياد ، فنجأ الحرث ، وأخذ بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار ، فيهم عمرو ومالك ابنا الحرث ، وقدموا بهم إلى المنذر ، فقتلهم^١ .

وقد كانت هذه الواقعة بداية التمرد على النفوذ اليميني ، اجتمعت معدّ إثرها حول « كُليب وائل بن ربيعة »^٢ قائدها يوم خزاز^٣ حيث فضّ جموع اليمينيين ، وهزمهم ، ومالت إليه معدّ ورأسته عليها كناصر لها في معركة الحيرة ، وجعلت له قسّم الملك وتاجّه وطاعته . ومن ثمّ تحرّرت من النفوذ اليميني عاينها .

وكان يقدرّ لهذا الاتحاد بين قبائل العرب ، أمام النفوذ اليميني ، أن يدوم وينمو ويتحوّل إلى مُلك ذي بسطة حقيقية ، لولا ما اعترى كليب بن وائل من غرور ، جعله يُبيح لنفسه ما يحرمه على الآخرين ، يُطلق لها عنانها ، فلا تراعي للجار حرمة ولا للضيف كرامته . وكان أن ضرب بسهمه ضرع ناقة سعد بن شمس بن طوق الجرمي^٤ ، إذ جاءت ترعى مع نُوق جساس بن مرّة ، فاغتاظ جساس ، وتعقّب كليب وائل حتى قتله^٥ . وأراد أخوه الشاعر « المهلهل » أن يثار لأخيه ، فوقعت بين بني تغلب وعلى رأسهم المهلهل ، وبني شيبان وعلى رأسهم الحرث بن مرّة ، حروب دامت أربعين سنة^٦ .

١- تاريخ الكامل ، ١ : ٢٠٩

٢- يرجع كليب وائل في نسبه إلى بني تغلب . الكامل م - ن ، ١ : ٢١٤

٣- خزاز : جبل ، وسمي به اليوم الذي وقع بين بني ربيعة واليمينيين ، وكان النصر فيه لبني ربيعة . الكامل م - ن ، ١ : ٢١٣

٤- كان سعد بن شمس بن طوق الجرمي ، نازلاً بالبسوس بنت منقذ التميمية ، خالة جساس بن مرّة .

٥- الكامل م - س ، ١ : ٢١٥

٦- م - ن ، ١ : ٢٢١

ويظهر أن هذه الأبيات سجلت لكلا الفريقين الامتياز في الإقدام والشجاعة والإصرار في طلب الثأر ، مما جعل المناذرة يسعون إلى تأليفهم واستغلالهم في حروبهم ، فالتفّ بنو بكر وتغلب حول المنذر بن ماء السماء ، فغزا بهم بني آكل المرار ، وجعل على بني بكر وتغلب ابنه عمرو بن هند .

وهكذا لم يكد التغلبيون يتحرّرون ويرفعون عنهم نير اليمينين ، حتى ساقنتهم الأحداث إلى مواجهة المناذرة الذين سيطروا عليهم وأخضعوهم ، واشتدّ عليهم عمرو بن هنداً واعتزّ بسلطانه ، إذ خيّل إليه أنّه لا طاقة لأيّ من الناس بمعارضته والتصديّ له ، وأنّه ليس ثمّة أية والدة تأنف من خدمة والدته لسؤدها به . ولقد أدّى به غروره إلى حتفه ، إذ تقول الرواية إنّه سعى في إذلال عمرو بن كلثوم ، زعيم تغلب ، باستخدام والدته في أداء حاجة لهند ، والدة الملك ، فانقضّ الشاعر نائراً وأجهز عليه وانتهب ماله وخيله وتولّى مع قومه إلى الشام ، حينما طُورِدوا بدم الملك^٢ . ولم تكن حالهم في ربوع الشام خيراً من قبل ، إذ حرّشوا بالغسانيين أو حرّش بهم هؤلاء بعد أن خشي كل منهم الآخر . وقد قيل إن عمرو بن حجر الغساني ، مرّ ببني تغلب ، فتلقاه عنهم عمرو بن كلثوم ، ولم يخرجوا له أو يحفّلوا به ، فقال له : يا عمرو ، ما منع قومك أن يتلقّوني ؟ فقال : إن قومي لم يستيقظوا لحرب قطّ ، إلا علا فيها أمرهم واشتدّ شأنهم ومنعوا ما وراء ظهورهم . فقال له : أيقاظ نومة ، ليس فيها حلم ، أجتثّ أصولهم وأنفي فلّهم إلى اليابس الجدّ والنازح الشمد^٣ .

وقد كانت هذه المجافاة كما قيل سبباً في إشعال حرب جديدة ، كتّب النصر فيها للتغلبيين . وهكذا ، فإن قبائل العرب ، جميعاً ، كانت تُرتَهَن ، حيناً ،

١-م-ن ، ١ : ٢٢٢

٢-م-ن ، ١ : ٢٢٦ الأصبهاني ، الأغاني ، ١١ : ٥٣ - ٥٤

٣-م-ن ، ١١ : ٥٨

إلى النفوذ الخارجي ، وتوالي حكماً أجنبياً يستبدون بها ، فتدرك بعض الاستقرار المشوب بالتحفز إلى الثورة ، ولا تعتم أن تنقض وتخلع عنها نيراً ليوثق نير جديد . فإذا عرفوا بعض الحرية والراحة ، ارتدوا ، بعضاً إلى بعض ، يتناحرون فيما بينهم ، وقيمون على خصامهم ، حتى يبعوا بثاراتهم التي كانت تتوالد ، ويستدعي بعضها البعض الآخر في حروب وأيام لا سبيل الآن إلى إحصائها . وفي صراع تلك القبائل ضد النفوذ الخارجي ، كانت تحالف وتجتمع ، فيتفق البكريون والتغليبيون ويحشدون على العدو حتى يرفعوا وطأته ويبدوا شمله ، حتى إذا كسروا شوكته وقتوا في عضده ، ارتدوا ، بعضاً إلى بعض ، ليستكملوا سلسلة الثارات فيما بينهم ، متناسين حلفهم وقرابته . وفي التقاتل القبلي كان الباعث يتباين عما كان عليه في حروبهم الخارجية . لقد كان يدفعهم إلى التغايز والتناحر حافز الشرف والثأر والفروسية الخالصة الهادفة إلى الانتصار والشعور بالتفوق ، فيما كان يحفزهم إلى التحالف على الأعداء الخارجيين الخطر المشترك المداهم .

ولقد ألمّ الأخطل بهذا التاريخ وزها به ، يشاهد بعض فصوله ويقصّ عليه أسلافه بعض رواياته ، فيعتزّ بعزّ القبيلة ويتحفزّ لمناجاة أشواطها ، مما نفضح في شعره تلك العنجهية الصامدة الشاغحة التي لم تكذّ تُدعن لما سارت عليه سائر القبائل عند ظهور الدعوة الإسلامية . وفضلاً عن ذلك كلفه ورث تراثاً من الشعر البطولي المتمثل فيما يشبه معلقة عمرو بن كلثوم ، حيث كان يخيل للتغليبيين في عنفوانهم البدائي ، أنهم أسياد عالمهم ، لا ينازعهم فيه منازع ولا يزعجهم عن بطولتهم أي غاز أو فاتح مُقتدر . وفي دراستنا لشعره نرى أنه كان يفيد من تاريخ قبيلته في المفاخر التي كان يستطرد إليها عبر مدائح وأهاجيه ومفاخره المباشرة ، معدداً أيامها وأبطالها زاهياً بها كل زهو .

الباب الثاني

— اسمه ونسبه —

لئن اتفق الرواة في نَسَب الأخطل ، فإن آراءهم تتباين في اسمه . فهو فيما أورده الأصبهاني ١ والآمدي ٢ وابن سلام ٣ وابن قتيبة ٤ « غياث بن غوث » . وهو عند البغدادي ٥ ، صاحب الخزانة ، غُوَيْث ، وليس غياثاً ، وقيل إن الاختلاف يقع في اسم الأب ، فهو غُوَيْث أو مُغِيث بدل غوث ، فيكون اسم الأخطل بذلك غياث بن غوث أو مُغِيث أو غُوَيْث .

أما نَسَبُه ، فليس ثمة تنازع بشأنه ، وإن كان بعض الرواة يقف عند جدِّه ، فيما يذكر بعضهم أجداداً آخرين من دونه . فالأصبهاني والآمدي يذكران له نحو خمسة عشر نسباً ، وهما يتفقان على أنه « غياث بن غوث بن الصَّلْت بن الطَّارِقَة » ، وقيل ابن سِيحان بن عمرو بن القَدْوَكْس ٦ بن عمرو بن مالك ابن جشم بن بكر بن حبيب بن غم بن تغلب ٧ . بينما اكتفى البعض الآخر بذكر نسيبتين أو ثلاثة كأبي تمام حيث قال في حماسته : « هو غياث بن غوث ابن الصَّلْت بن الطَّارِقَة التغلبي ٨ » وابن قتيبة الذي اكتفى بذكر اسم أبيه وقبيلته ، فقال : « هو غياث بن غوث من بني تغلب بن قَدْوَكْس ٩ » .

١ - الأصبهاني ، الأغاني ٨ : ٢٨٠

٢ - الآمدي ، المؤلف والمختلف ، مكتبة القدر ، ٢١

٣ - ابن سلام ، طبقات الشعراء ، مطبعة السعادة ، ١٦٠

٤ - ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج ٢ : ١٨٩

٥ - البغدادي ، خزنة الأدب ، المطبعة السلفية ، ١ : ٤١٥

٦ - القدوكس : الغليظ الجاني -

٧ - الأغاني ، ٨ : ٢٨٠ ، المؤلف والمختلف ، ٢١

٨ - أبو تمام ، الحماسة ، ج ٢ : ٣٩١

٩ - الشعر والشعراء ، ١٨٩

وكُنِيَ الأخطلَ أبا مالك وعُرِفَ أَنَّهُ مِنَ الأرقامِ ، وهم جماعة من التغلبيين الذين أُطْلِقَتْ عَلَيْهِم هذه التسمية ، إِذ شَبَّهَتْ عِيونَهُم بعيون الحيات ١ . ولقد أشار النعمان بن بشير إلى ذلك بقوله هاجياً الأخطل :

أَيْشْتُمْنَا عَبْدُ الأرقامِ ، ضِلَّةً فَمَاذَا الَّذِي تُجْدِي عَلَيْكَ الأرقامُ ٢

وغلب على شاعرنا كذلك لَقَبَ الأخطل ، وربما لزمه منذ حدوثه ، وقيل إن كعب بن جُعَيْلٍ كان أول من حكم عليه بِالْحَطَلِ ، لَمَّا بَلَغَهُ هِجَاؤُهُ له ٣ ، وإن كانت الروايات تتباين في زمن نشوب التهاجي الذي لحقه منه هذا اللَّقَب . ولقد عرض صاحب الأغاني أخباراً في هذا الشأن ، قد نلخص منها إلى أن الأخطل كان غلاماً حادَّ اللسان ، سريع الخاطر ، جريئاً ، حتى إنَّه لم يَهَبْ كعباً ، شاعر تغلب ، آنثذ ، بل تعرَّض له بالرَّغْم من مكانته في بني قومه وسائر الناس ، فضلاً عن شهرته كشاعر ، فلَمَّا يَقِف له شاعر آخر . ولَمَّا وفد كعب إلى بني قومه من الشام ، فمُدَّت له الحبال والأوتاد ، وملىء ما بينها غنماً ، تعظيماً له ، اغتاض الأخطل ، فأخرج الأغنام وطردها ، فسبه عتبة بن الزَّعَل ، وردَّ الغنم إلى مواضعها ، فأعاد الأخطل الكرة ، وكان ابن جعيل ينظر إليه ، فقال : إن غلامكم هذا لأخطل ، فلجَّ الهجاء بينهما منذ ذلك الحين .

وثمة رواية أخرى وهي تتباين مضموناً ، ومؤدَّاها أنَّ خلافاً نَشِبَ بين ابني جُعَيْلٍ وأمهما ، فأولجا الأخطل في أمره ، فقال :

لعمري إنني وابنِي جُعَيْلٍ وأمهما لأستارُ لئيمُ

١ - المؤلف والمختلف ، ٢١

٢ - خزائن الأدب ، ١ : ٤٠٤ ، الأغاني ، ٨ : ٢٨٠

٣ - طبقات الشعراء ، ١٦٠

فقال ابن جعيل : يا غلام ، إن هذا لَحَطْلٌ من رأيك ، ولولا أن أمي سمّيت أمك لركت أمك يحدو بها الرّكبان ، فلحقه من ذلك لقب الأخطل وكان اسم أميهما ليلى^١ .

ووجهُ التباين في الروایتين أن الأخطل يظهر في أولهما فتى مُشاكساً ، يتعرّض لما لا شأن له به ، ويفتاز ممّا لا وجه له في إغاضته ، بل إنّه تعمّد ذلك تعمّداً بما طُبِعَ عليه من طبايع المُراغمة والتحدّي . وقد تنهات الرواية الأولى إذا ما ألمّنا بما ألحق بها من قول بأن الهجاء لِحَجٍّ بين الشاعرين إثر ذلك . ففي جزء من الرواية يطالعنا كعب بلامح امرئ جليل القدر ، فائق القيمة الشعرية ، لا يحفل بمن دونه من شعراء قبيلته أو ما إليها ، ثمّ لا نعمّ أن نبصره ، وقد ناشب ذلك الغلام الغُفْل الهجاء ، حتى ظهّر عليه خصمه المتعمور ، وأحمد ذكره . ولعلّ الصواب في ذلك كلبه أن كعباً والأخطل توافعا في هجاء ، وأن الأخير تعرّض للأوّل عن رغبة في المظاهرة والمنافرة ، ليكتفّت إليه الأنظار ويقوم مقامه في القبيلة ، وبخاصّة أن كعباً كان قد اعتنق الإسلام ، متخلياً عن النصرانية التي اعتصمت بها تغلب اعتصاماً شديداً ، ولاقت من دونها الاضطهاد وربّما التّنكيل . وقد أقبلت على ذلك بنوع من الرّغبة في الاحتفاظ بشخصيتها وأولويّتها وسيادتها بين القبائل . وقد يخيّل إلي أن مثل ذلك السبب حريّ أن يثير الأخطل ، لأنّ التّغليبين كانوا يُضْمرون حفيظةً لكعب في ارتداده عن دينه وقيامه إلى جنب معاوية ، غير حافل بأبناء قومه .

ولئن أظهروا له بعض المودة والترحيب ، فقد كانوا يصندرون في ذلك عن التملق والرّغبة في الامتناع عن إثارته وإثارة الأمويين الذين يلوذ إليهم . أمّا ما تمحّل به الرواة وعزّوه إلى كلّ منهما في هذا الأمر ، فلا يعدو الميل إلى إضفاء الدّهشة والغرابة على كلّ خبر يتلونه ، كأنّهم لا يهدفون فيه إلى الحقيقة التي تظهر فيه ، بقدر ما يرغبون في الاستحواذ على لبّ القارىء واختلابه .

ولعل غلوهم في ذلك ساقهم في رواية أخرى إلى التأكيد بأنه كان غلاماً يافعاً ، حينما تحرّش بكعب ونازعه لواء الشّعر في القبيلة . فابن سلام يشير إلى أن كعب بن جعيل لما سمع القول التالي في هجائه :

سُمِّيتَ كَعْباً بِشَرِّ الْعِظَامِ وَكَانَ أَبُوكَ يُسَمِّي الْجُعْلَ
وَإِنَّ مَحَلَّكَ مِنْ وَائِلٍ مَحَلُّ الْقَرَادِ مِنْ اسْتِ الْجَمَلِ

قال : كنت أقول : لا يقهرني إلا رجل له ذكر ونبأ ، وقد أعددتُ هذين البيتين لأن أهجى بهما ، فغلب عليهما هذر الغلام^١ .

وأورد صاحب الأغاني كذلك خبراً يزعم أن أبا الأخطل هو أول من أطلق على ابنه هذا اللقب ، وقد كان ، آنذاك ، غلاماً يُقَرَّرُزم ، ذلك حين ضربه لما سمع من مهاجته لكعب بن جُعيل ، وقال له : أبقِرْزَمَتِكَ تريد أن تقاوم ابن جعيل !؟ وحضر كعب في حينه ، وسأل عن الأمر ، فقال له أبوه : لا تحفل به ، فإنه غلام أخطل^٢ . وثمة رواية أخرى أوردها صاحب الأغاني ، ولم ترد في أي مصدر آخر ، ومؤدّها أن عتبة بن الزّعل هو أول من أطلق على الأخطل لقبه ، وذلك حين أتى عتبة قومه في حمالة يسأل فيها ، فأخذ الأخطل يتكلم ، فقال عتبة : من هذا الغلام الأخطل^٣ ؟

ومهما يكن من أمر ، فإنّ هذه الروايات ، جميعاً ، تدلُّ على أن الشاعر لُقِّبَ بالأخطل لانتفاق هذا اللقب وما طُبِعَ عليه في شخصيته . فالخطل هو اضطراب الكلام^٤ . وابن دريد يزعم أنه لُقِّبَ كذلك لسفّهه واضطراب

١ - طبقات الشعراء ، ١٦٠ ،

٢ - الأغاني ، ٨ : ٢٨٢ ،

٣ - م - س ، ٨ : ٢٨٠ ،

٤ - الاشتقاق ، ١٦٠ ،

شعره^١ . والأصبهاني ينعتُه بالقول : « إن الأخطل السقيهِ^٢ » . أما السيوطي فيرى أن ذلك اللقب لحق به لصفة جسديّة فيه ، هي طول أذُنَيْهِ ، كما أنّه يُنَوّه بأنه قد يكون لحق به من بيت شعر قاله^٣ .

ولقد عُرِفَ غياث بن العوّث بالأخطل حتى غلب على لقب آخر ، ذكر البغدادي أن جريراً كان أوّل من أطلقَه عليه ، وهذا اللقب هو « دَوْبَلُ » أي الحمار القصير الذنّب ، بل قيل إنّه ولد الخنزير ، وقد لقبه جرير بذلك حين قال يهجوهُ :

بَكِّي دَوْبَلُ ، لا يَرَقَا اللهُ دَمَعَهُ أَلَا إِنَّمَا يَبْكِي مِنَ الذَّلِّ دَوْبَلُ؛

ويظهر أن الأخطل استاء من هذا اللقب وقال : والله ما سمّيتي أمي دوبلاً ، إلا نهاراً واحداً ، فمن أين سقط إلى هذا الخبيث^٥ ؟

ولقد أوردنا هذه الروايات ، جميعاً ، لنخلّص من لقب الشّاعر إلى الاستدلال من خلاله على نفسيّته . فإذا أسفَطْنَا ما حفلت به تلك الروايات من أساليب الدّهشة والإغراب ، فإنّنا نقع على حقيقة لا يكتنفها لبس أو ريب ، وهي أن غياثاً إنّما لُقّب بذلك اللقب لمعارضته أهله وبني قومه في أمور رأوا أن كلامه فيها مضطرب ، خاطيء ، خرج به عن العرف .

١- م- ن ، ١٦٠ ،

٢- الأغاني ، ٨ : ٢٨٠ - ٢٨١

٣- شرح شواهد المفني ، ٤٦

٤- خزنة الأدب ، ١ : ٤١٥

٥- طبقات الشعراء ، ١٦٦

وذلك يسوقنا إلى الاعتقاد بأن الأخطل كان رجل موقف يقفه ممّا يطرأ عليه . أو ممّا يخوض فيه ، لا يحفل برأي الآخرين ولا يتملّق لهم به ، كما أنّه كان يعاصيهم بما يراه ، وإن دُهِشوا له وصعقوا به . ومعظم الألقاب التي لحقت بالشعراء العرب ، كالتأبغة والحطيئة والمنتبي وما إليها ، كانت تدعو أولئك الشعراء بما أثير عنهم من طباع وخلّق لازمتهم ، ولم ينفكّوا عنها . ولعلّهم أطلقوا على شاعرنا لقبه للتدليل على الطبع الأظهر والأشدّ من طباعه ، ممّا يجعلنا نميل إلى القول بأنّه قد صحب الأخطل منذ فتوّته الأولى وعيّ حادّ بذاته وشعور بالتفوّق في الفِطنة والرأي على من دونه ، يعارضهم بقوله وفعله ، فيخرجون عليه بذلك ، ولا يخرج ، كأنّما يحكم عليهم بالغفلة ولنفسه بالفِطنة . وإننا إذ نطالع سيرته ، فيما بعد ، نرى أن طبع المُراغمة والعصيان لازمه طيلة حياته ، لم يتعرّض به لذويه وبني قومه وحسب ، بل للدّولة الأموية ، جميعاً ، يعيش في أحضانها ولا يعتنق دينها ولا يستدلُّ لها ، بل تراها يخرج عليها ويعالنها العصيان في احتسائه للخمرة ، وهو مقيم في البلاط ، وبجمله الصّليب على صدره لا يبرحه ولا يتخلّى عنه ، كأنّما كان يظاهر به الدولة في دينها . ومع أنّه لم يبلغ شأو المنتبي في هذا الأمر ، إذ قلّما صرّح عنه تصرّيحاً وجدانياً في شعره ، فقد صدر عنه في معظم ما قاله وما فعله ، حتى إن المرء لا يزال يعجب إلى يومنا بتلك الشخصية المتمرّدة المُشعبة بشعور العظمة ، لا تلين به حتى لمن كان يتولى أعظم السّطان .

الباب الثالث

ولادته وفتوته ووفاته

لا قبيل لنا بضبط تاريخ ولادة الأخطل ، إلا من خلال الأخبار والأشعار التي تشير إلى ذلك بنوع من الإشارة وإن تكن غامضة ، إذ لم نقع على خبر صريح في ذلك . فإذا قلنا إن الأخطل شهد خلافة معاوية ، فلأنَّ ثمة أخباراً تؤيد هذا الظن ، منها ما كان بين الأخطل وكعب بن جعيل من مهاجاة ، قدَّما ذكرها ، ولقد كان كعب شاعر معاوية ، وتوفي في خلافته^١ ، كما أنه التقى الأخطل وواقعه ، وهو فتى يُقَرِّزم ، كما رجَّحنا ذلك من قبل ، وخلافة معاوية دامت عشرين سنة^٢ رافقها الأخطل ، واجتاز بها مرحلة الشباب إلى الكهولة حيث ألمَّ به بعض الشيب فبدأ أشمط ، كما يشير إلى ذلك في مدح يزيد :

أَعْرَضَنَ مِنْ شَمَطٍ فِي الرَّأْسِ لَاحٍ بِهِ فَهَنَّ مِنْهُ إِذَا أَبْصَرَنَاهُ ، حَيْدُ

وحين أوفت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان سنة ثلاث وسبعين للهجرة^٣ كان الأخطل قد أصبح هرمًا سَقَطَتْ أَسْنَانُهُ ، كما نبيِّن ذلك من قول جرير ، حين سأله ابنه عنه : « أدركت الأخطل وله ناب واحد ، ولو أدركته وله ناب آخر لأكلني به »^٤ ، ومعظم أخبار الأخطل مع جرير ، جرت أحداثها في عهد عبد الملك بن مروان .

وتوفي الأخطل ، كما جاء في البداية والنهاية لابن كثير ، سنة اثنتين وتسعين^٥

١ - توفي كعب بن جعيل سنة ٥٥ هـ . انظر الزركلي الأعلام ، ٦ : ٨

٢ - ابن كثير ، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، ٩ : ٨٤

٣ - تاريخ الخلفاء ، ٨٣ - ٨٤

٤ - الأغاني ، ٨ : ٢٨٥

٥ - البداية والنهاية ، ٩ : ٨٤

أي في أواخر خلافة الوليد بن عبد الملك التي امتدت من سنة ست وثمانين إلى سنة ست وتسعين^١ ، فكم كان قد بلغ من العمر آنذاك؟

رجحنا أن الأخطل كان شاباً في عهد معاوية ، وكهلاً في عهد يزيد الذي لم تدم خلافته أكثر من أربع سنوات ، ممّا يدلّ على أن الأخطل كان قد شارف الأربعين أو تجاوزها ، قليلاً ، في نهاية خلافة معاوية . وفي نهاية خلافة عبد الملك وبداية خلافة الوليد ، سنة ست وثمانين ، يكون عمر الأخطل ما بين الستين والخامسة والستين ، ولا يتوفى سنة اثنتين وتسعين للهجرة ، إلاّ ويكون قد بلغ السبعين أو أكثر قليلاً .

ولقد أورد الأغاني^٢ أخباراً عديدة للأخطل مع هشام بن عبد الملك^٣ ، وقيل بل إنّه مدحه بشعر لم نَقَعْ له على أثر في ديوانه ، أو فيما رُوِيَ له . فإذا صحّت هذه الأخبار ، يكون الأخطل قد عمّر إلى ما بعد السنة المائة والخمس للهجرة . وهذا يؤيد قول السيوطي من أن الأخطل عمّر عمراً طويلاً . والله أعلم في ذلك كلّه . ولقد بذلنا هذا الأخبار ، وعالجناها لتبيين منها الفترة التي عايشها الأخطل والتي توافق فيها مع الأحداث والأشخاص ، لكي نستطلع أثر ذلك في شعره ، أو لكي نستضيء بها عليه . ولسنا نأسف كثيراً لعجزنا عن معرفة سني ولادته وموته بدقة وضبط ، إذ ليست غايتنا التاريخ بذاته بل الاستدلال منه .

وما وقعنا عليه بشأنهما يفي بغرض الدّراسة الفنية وإن كان يقصّر عن غاية الدراسة التاريخية الصّرف التي تعالج سيرة الشاعر كغرض قائم بذاته .

١ - تاريخ الخلفاء ، ٨٧

٢ - الأغاني ، ٨ : ٣٠٣ - ٣٠٤ ، ٣١٠

٣ - امتدت خلافته من سنة ١٠٥ هـ - ١٢٥ هـ . انظر الحنبلي ، شذرات الذهب ، ١٠ : ١٦٣

فتوته وشبابه : لم يُعْنِ الرَّوَاةَ العَرَبَ بِدَقَائِقِ سِرِّ الشَّعْرَاءِ وَمَا قَدْ يُنِيرُ لِلْبَاحِثِ العَوَامِلَ المَوْثُورَةَ فِي نَفوسِهِمْ وَطَبَاعِهِمْ ، وَلَمْ يُثَبِّتُوا إِلَّا الأَحْدَاثَ المَسْلِيَّةَ ، أَوِ المُدْهَشَةَ كَأَنَّهُمْ لَا يُعْنُونَ بِالتَّأْرِيخِ لِصَاحِبِ السِّيْرَةِ ، بِقَدْرِ مَا يُعْنُونَ بِسِرِّ نَوَادِرِهِ وَأَخْبَارِهِ الغَرِيبَةِ . فَلَسْنَا نَقْعُ فِيمَا أَوْفَى إِلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِ الأَخْطَلِ ، عَلَيَّ مَا يَوْضَعُ شَأْنَ وَالِدِهِ ، مِثْلًا ، فِي قَبِيلَتِهِ أَوْ فِي النَّاسِ أَوْ فِي حَالِهِ وَمَالِهِ ، وَيَكَادِ الرَّوَاةُ لَا يَشِيرُونَ إِلَيْهِ بِإِشَارَةٍ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ شَرَعَ بِمُهَاجَاةِ كَعْبٍ إِذْ شَكِيَّ إِلَيْهِ بِهَجَاتِهِ لَهُ ، فَلَمْ يَحْفَلْ بِهِ ، بَلْ جَعَلَهُ أَخْطَلِ الرَّأْيِ ، لَا شَأْنَ لَهُ .

أما والدته ، فنعلم أنها كانت تُدعى ليلي ، كما قدمنا ، من قبيلة إيساد النصرانية ، وأنها كانت تفيض عليه بحنانها ، وتغمره بالدلال وترقصه وتدعوه دَوْبَلًا ، إذ يبدو أنه كان يميل إلى القصر في صغره ، على شيء من الامتلاء في جسده . وكنا قد قدمنا أن جريراً أفاد من هذا اللقب وهجاه به ، وأن الشاعر عجب أن يتلقفه ، فيما لم تناده به أمه إلا يوماً واحداً . فإذا صحَّ زعم الشاعر ، لم يكن لنا أن نتخذ منه بيئته على دأب والدته وإمعانها في تدليله به . ولعل الصواب في ذلك ، أن الأخطل دهِسَ أن يتلقف جرير هذا اللقب ، فيما نشب بينهما الهجاء ، وكان شاعرنا قد طعن في السنِّ ووَحَّطَ رَأْسَهُ الشَّبَّ . وكان هذا اللقب قد سقط عنه ، ولم يتداول عليه منذ فتوته الأولى ، أي قبيل وفاة والدته . ومهما يكن ، فإن المهمَّ في ذلك كله ، أن الأخطل نشأ في مطلع عهده نشأة لين وحنان ، إذ كان وحيداً أمه وبكرها ، تؤثره بكلِّ عطف وتُعنَى به كلِّ عناية ، حتى إذا توفيت عنه ، أو تطلَّقتْ أو طلَّقتْ عن والده ، ألقى ذاته ، في غفلة منه ، بين يدي امرأة غريبة عن حياته وعواطفه ، لا تُعنَى به عناية أمه ولا تؤثره إيثارها ، فافتقد بذلك شعوره بلهفة العائلة والتفافها عليه من دون سواه ، ثم ما عتَمَّتْ زوج أبيه أن وضعت أولاداً لها ، فانصرفت إليهم عنه ، وآثرتهم بالموادة والرفق عليه ، فانتكست نفس ذلك الفتى وأخذ يُشَاغِبُهَا وَيَعَاصِيهَا وَيَتَفَتَّقُ بِكُلِّ

١ - الأغاني ، ٨ : ٣٨٠

٢ - المزهر ، السيوطي ، ٢ : ٢١٧

حيلة لإغاضتها واقتسام حظه مما كان يحظى به أخواه . ولقد ذكر صاحب الأغاني أن الأخطل لحظ يوماً عند امرأة أبيه شكوة من اللبن وجراباً فيه تمر وزبيب ، وكان جائعاً ، فتقدم إليها وقال متحجباً : « يا أمه ! آل فلان يزورونك ، وعندهم عليل ، فلو أتيتهم ، لكان أجمل وأولى بك » . وكان من واجبات النساء خاصة أن يعدن المرضى ، فقالت المرأة : جزيت خيراً ، يا بني ، لقد نبهت إلى مكرمة . وقامت فارتدت ثيابها ومضت إليهم ، فما كان منه إلا أن تلقف الشكوة والتهم ما فيها من اللبن ، وأخذ الجراب فأكل ما فيه من تمر وزبيب . فلما رجعت المرأة ، وعلمت بما جرى لها ، عمدت إلى خشبة تضربه بها ، فهرب وقال :

أَلَمَّ عَلَى عَنَبَاتِ الْعَجْوَزِ وَشَكْوَتِهَا مِنْ غِيَابِ لَمَمٍ
فَظَلَّتْ تُنَادِي ، أَيَا وَيْلَ لَهَا وَتَلْعَنُ ، وَاللَّعْنُ مِنْهَا أَمَمٌ

وقد علق ابن السكيت على البيتين ، فقال : « وهذا أول هجاء قاله الأخطل » .

وهذه الرواية مبذولة في معظم الكتب التي تناولت الأخطل في دراسة مستقلة أو عبر دراسات أخرى يتداولونها للتدليل على فطرة الهجاء التي طبع عليها وعلى حياة الحرمان التي قضاها يجنب زوج والده . إلا أنها تدل . بالإضافة إلى ذلك ، على نوع من الدهاء الذي قُسر عليه ذلك الغلام ليتدبر عيشه وينال من الطيبات التي كانت تُؤثر بها تلك المرأة أولادها . ونستدل منها . كذلك ، على حياة التقدير التي كان يخضع لها . بعد حياة رفق وحنان ، كما أنها تطلعنا على أنه راود الشعر منذ حداثة . ولقد وقع الرواة أحداثها بسباق متكامل مشوق ، مما يوحي لنا بأن بعض أحداثها قد وقع فعلاً ونميل إلى ترجيح دلالة الحرمان والفتنة المبكرة . إلا أن البيتين اللذين أُلحقا بها – واللذين يفترض أن يكون الأخطل قد ارتجلهما لتوه . إثر هربه من غضب تلك المرأة – قد زيدا فيما بعد أو أن

الرواة أضافوهما استكمالاً لعنصر الدهشة والإثارة وللتدليل على نبوغ الأخطل في الشعر ، وهو غلام فتي^٥ .

ووجه الغرابة في ذلك أن الأخطل قالهما فيما كان يولّي مُدبراً ، وهو في زحمة من أمره ، يتدبّر سبيل الخلاص .

وأياً ما كانت حال تلك الرواية من الصدق أو ما دونه ، فإن الباحث يأخذ بدلالاتها العامة ، لأنها تمثل واقعاً عاناه الشاعر وأثّرَ عنه ، دون أن يحسن الرواة أداءه إلاّ بتلك الصورة العجيبة ، المتكاملة الحلقات . ويهتّمنا من ذلك كلاًه * أن الأخطل عانى في فتوته شعور الانتباز والظلم ، وأنه افتقد الحنان ، فنشأ وهو يضغن بنوع من الضغن الأصمّ على زوج والده ووالده ، وربما على القدر الذي فجعه من خلالهما بطمأنينته وعيشه . ولقد أورد الأغاني^١ ، كذلك ، أن تلك المرأة كانت ترسله في رعاية أعتز لها ، ممّا يعزّز البيّنة بشأن امتهانها له * وقسوتها عليه . فإذا أضفنا إلى ذلك كلاًه ميّله إلى المراغمة ومعصاة الآخرين ومظاهرتهم برأيه نفع على وصف يمكن أن نخلص منه إلى الواقع النفسي الذي كان يعاينه فترتد . وقد لا نعدو الصّواب في القول إنّه كان منقبض النفس ، منطوباً عليها ، دفعه رفضه لواقعه والامتناع عن الرضا به ، إلى التأمّل الذاتي وتقدير قدر الأشياء وفقاً لما يطالعه عقله منها ، لا يحنل بمن دونه ، بل يُضمّر ويصرّح لهم بزرايته واحتقاره . وكنا قد ألمحنا ، قبلاً ، إلى تعرضه لابن جُعيل بهجاء فطّين انتزع به سمات الضّعة والإقذاع من اسم الشاعر واسم أبيه واستطرد بالصورة إلى أداء غايته في تحقير شأنه وثلبه . ولقد ذكر صاحب الأغاني بيتاً نظم كعب^٦ شطره الأول وأجاز الأخطل شطره الثاني ، نامياً إلى كعب أقبح الأفعال ،

دون تقيّة أو حرج ، كما أتت أبيات في هجاء كعب وأخيه وأمه وقومه^١ وهجاء نفسه في سياق هجائه لهما وأمهما ، ممّا يؤكد أنّه كان خبيث القريحة في مطلع عهده بالشعر ، وإن كان سائر شعره وأهاجيه لا تنمّ ، قطّ ، على مثل ذلك الشّعْر الكريه ولا على هذه المعاني المقدّعة . والأخطل نفسه صرّح بذلك إذ قال : ما هجوت أحداً ، قطّ ، بما تستحي العذراء أن تنشدني إياه^٢ . ولقد مهّدنا بذلك كلّهُ لتخلّص منه إلى القول بأن ما تطبّع عليه الشّاعر من طبع العنف واللّعنة والإقذاع ، قد تطعّم بنفسه ، فيما بعد ، واستحال إلى نقيض من الشّعور بالكبر وعظم القدر ، أمداًه بتلك العنجهيّة التي لا تزال تنفّح من روحها في مدائحه ومفاخره وأهاجيه ، بعد أن سقطت عنه وطأة الظلم والاضطهاد ، وبعدما بلغ غاية ما كان يبتغيه من سوؤدّد ومجد في بلاط عبد الملك . فلقد تنامى ميله إلى الهجاء ، عبّر الزّمن ، وتحول إلى اعتداد بالنفس ونزعة إلى الصّراحة والجرأة ، حتى إنّه لم يكن يخرج من يسأل أن الخليفة شيئاً من الخمر ، يتبلّل به ، قبل أن يباشر نشيد الشعر . وربّما ألفيناه ، حيناً ، يتعمّد الإساءة إلى سواه ، مدفوعاً بتلك الصّراحة العفوية التي تطبّع بها . فقد دخل على سعيد بن بيان بالكوفة وعنده برّة بنت هانيء التغلبيّ ، وكانت ذات جمال ودلّ ، فأكرمه سعيد

١ - الأغاني ، ٨ : ٣٨١ - ٣٨٢ ، قال في هجاء أم كعب :

هجا الناس ليلي أم كعب ، فمزقت
وقال في هجاء كعب وأخيه :

هجاني المتنتنان ابنا جميل
ولدتهم بعد إختوكم من است
وهجا ذاته وابني جميل وأمهما بالقول :

لمرك إنني وابني جميل
وهجا اللهازم قوم ابن جميل بقوله :

إن اللهازم لا تنفك تابمة ،
محلهم من بني تيم وإخوتهم

٢ - الأغاني ، ٨ : ٣١٧ - ٣١٨

واحتفل به ، ثم سأله : يا أبا مالك ، أنت تدخل على الملوك ، وتأكل معهم وتشرب ، فأين ترى هيئتنا من هيئتهم ، وهل ترى عيباً تنهانا عنه ؟ فأخذ الأخطل ينظر إلى برة وجمالها وإلى سعيد ودمامته وعوره ، ثم قال : « ما لبيتك عيب غيرك » ، فقال سعيد : « أنا ، والله ، يا نصراني ، أحقق منك ، حيث أدخلتك بيتي » . ومثل هذه الحادثة ساق صاحب الحماسة^٢ إلى اتهامه بالمجاهرة وعدم التستر .

إلا أن الباحث الذي قد يوفّق إلى تتبّع السّياق الداخلي لنفسية الأخطل يعجز عن تتبّع سياقها الفنّي ، ولم يغفل الرواة ، كما سنبيّن فيما بعد ، عن ذكر تأثره بالأعشى والنّابغة ومن إليهما ، لكنّهم لم يذكروا شيئاً عن نشأته الفنّية ، بحيث نكاد لا نعلم عمّن جمع ثقافته الشعريّة المتوغّلة إذ ألفيناه وهو فني مضطهد ، يرعى الأعز ولا يختلف إلى راوية أو ما إليه . وجلّ ما نقع عليه في ذلك أنّه أطلّ على عالم الشّعْر ، فجأة ، فيما انبرى إلى هجاء الأنصار ، بعد أن كان قد نظم أبياتاً ومقاطع في هجاء بعض الأنصار يطالعا فيها فنّ شعريّ متكامل الأداء ، متمالك لصنعة الشّعْر وأسرار العبارة ، ملّم بالتّاريخ ، قادر على تحويل مادّته والإفادة منها في ابتداع معانيه الهجائية ، ممّا يسوقنا إلى الاعتقاد بأن للأخطل حياة ثقافية أخرى ، لم نقع على دقائقها ، ولم تسجّل لنا وقائعها ، وقد أثرى بها موهبته وأخصبها . لهذا فقد لا نُغالي في القول بأن الأخطل كان طلّعة يتقصى في الشّعْر القديم ويحفظه ويتمثله ، وأنّه لم يُنفق صباحه ، قبل أن يلمّ بالبلاط الأموي في حياة الغفلة والرتابة ، لأنّه أطلّ على عالم الشّعْر ، وهو كامل الأهبة ، ملّمّ بأسراره وخفائاه ، وصناعته ، متمثّل لتجاربه ومعانيه وتقاليدِهِ . إلاّ أنّنا نعجز ، مع ذلك كلّهُ ، عن استقصاء هذا الأمر وتتبعه فيه بما روي عنه .

١ - الشعر والشعراء ، ١٩١

٢ - أبو تمام ، الحماسة ٢ : ٣٨

* ونكاد لا نحيط علماً من دون ما قدمنا عن سيرته، إلا أنه اقتضى أثر أبيه، فتزوج مرتين ، وأن امرأته الأولى هي المكناة أم مالك، وقد ذكرها واستعطف بدمعها يزيد في سبيل حمايته من الأنصار ، حيث قال :

وإنِّي غداً استعبرتُ أم مالكٍ لراضٍ من السلطانِ أن يتهدداً

وذلك يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأنه كان قد تزوج وأنجب قبل اتصاليه بالأمويين^١، ولعل زوجته كانت من بني قومه، وقد رزق منها ابناً آخر قتل في يوم البشر، كما أسر والده^٢. إلا أن عهده بتلك المرأة لم يدم طويلاً ، فطلّقها ، ثم عقد من جديد على امرأة طالق، وكان كلّ منهما يتحسّر على قرينه القديم، كما نرى في قوله :

كلانا على هم يبيتُ كأنما يجنّيه من مس الفراشِ قروحُ
على زوجها الماضي تنوحُ ، وإنني على زوجتي الأخرى. كذلك أنوح^٣

وليس لطلاق الأخطل آية دلالة خاصة في تلك البيئة، بالرغم من اعتناقه للمسيحية التي لم تكن لتردعه عمّا يشتهيهِ وتطيب به نفسه. ولئن لم يرد في كتاب النصارى نصّ على تحريم الحمره، فإنّها محرّمة بروح الدّعوة التي تدعو إلى انتباز الشهوة والمجون. إلا أن الأخطل لم يكن ليحمل ذلك كله محمل الجدّ، ولم يكن يتحرّج بأمر دينه أو يتأثر بمواقفه وتعاليمه في شعره، بل إن أثر التعاليم الإسلامية أظهر فيه، كما سنين، إذ اقتضيت عليه بطبيعة دوره السياسي. ولقد تشبّه بالأعشى في بعض ما أقبل عليه، استكمالاً لعدّة اللّهُو ، إذ كان ينعم بحياة خاصة إلى جانب حياته العائلية، فقد اقتنى داراً للضيافة، يقدم فيها الشّراب ويسمع غناء المغنّين والقيان، كما كان الأعشى قد ابنتى لنفسه معصرة في اليمامة وألحق به حاشية من الحوارى

١ - الروائع ، عدد ٣٤ ، ص ٢٠٢ ح

٢ - شعر الأخطل ، ٣٦٩

٣ - الأغاني ، ٨ : ٣٩٨

ومن إليهن. إلا أننا لسنا نقع فيما نظم الأخطل وفيما رُوي عنه على تلك الشهوة الحسية العارمة، العمياء التي تطالعا بها قصائد الأعشى. فالأخطل عرف اللهو ومتعة * الحمرة، لكنه لم يكن فاسقاً ملعوناً، بل إنه شاعر إيجابي، يحرص على القيم حرصاً شديداً ويتفاخر بها. فطبعه أقرب إلى عنجھية عمرو بن كلثوم منه إلى مجون امرئ القيس والأعشى وفسقهما. فالدار التي اقتناها كانت دار أنس ومنادمة على الحديث والشرب، يستضيف بها من يطراً من الأعراب النازلين في قومه ممن يعرفهم أو ممن يجهلهم. وقد ذُكر أن عكرمة الفياض مرّ به، وهو لا يعرفه، فقيل له: هذا رجل شريف، قد نزل بنا، فلما أسمى بعث إليه ودعاه إلى العشاء، ولما انتهيا منه، قال له: أتصيب من الشرب شيئاً؟ قال: نعم. قال: أيّه؟ قال: كلّه إلا شربك. فدعا له بشراب يوافقّه، وإذا عنده قيسنتان هما خاعة وبينة، وبينهما ستر، فغمز السّتر بقضيب في يده، وقال: غنياني بأردية الشّعر، فغنتاه. وكذلك استضاف الفرزدق في منزله دون أن يعرفه، وجعلا يتناشدان زمناً، وشربا معاً، ولم يعرف أحدهما الآخر، حتى نهاية المجلس. ومما لا شكّ فيه أنّه لم يعتمد إلى هذا المجلس، إلا بعد أن أسير وأثرى ونال الأعطيات الكثيرة وسما مقامه في بني قومه وأدرك فيهم مثل مقام كعب بن جعيل من قبل.

الباب الرابع

ديانته

ذكرنا أن الأخطل لم يتأثر بالتعاليم الإسلامية تأثراً وجدانياً بل تأثراً سياسياً لم يصرفه عن دينه ويحفزه إلى اعتناق الدّين الجديد. وهو، مع اختلافه إلى البلاط الأموي، لم يميل عن معتقده، حتى مماته. وقد كان الخلفاء والأمراء المسلمون

يُهيِّبون به إلى اعتناق الإسلام، وكان يجدُّ من دون ذلك مشقَّةً وعنتاً، إذ كان بعضهم لا يزال يعيره بنصرانيته ويسخر منه بها، ويخصِّمه على التخلي عنها. فصمد لذلك كلِّه وأقام على دينه متباهياً به، متفاخراً بما كان يسمُّه وينتقِصُه به سواه، حتى قيلَ إنَّه كان يدخل على عبد الملك مخموراً ، وفي عنقه صليبٌ من ذهب. ويظهر أن أمر إسلامه كان يشغل أولي الأمر، وبخاصة بعد أن غدا شاعر البلاط، أو شاعر بني أمية ، كما دعاه عبد الملك. وقد سأله الخليفة مرة: ألا تسلّم فنفرض لك في الفياء، ونعطيك عشرة آلاف؟ فقال: وكيف بالخمير؟ قال: وما تصنع بها، وإن أولها لَمُرٌّ وإن آخرها لسُكْرٌ؟ فقال: أما إذا قلت ذلك، فإن فيما بين هاتين لمنزلة، ما مَلِكك فيها إلا كعلقة ماء من الفرات بالإصبع. فضحك الخليفة وتطَيَّب^١.

وهذه الحادثة تمَّ عن سعي الخليفة إلى إغراء الأخطل بالمال والفياء، ليؤثِّقه إلى الإسلام وبزبل الحرج الذي كان يعنت به عليه بعض المُتَمَتِّين الذين كانوا يضيِّقون بدالة الأخطل النصراني في البلاط وشدة تقربُه من الخليفة وتظاھرُه بالخروج على محرّمات الإسلام. إلاّ أن الشاعِر أقام على رفضه، معتلاً بالخمرة وما إليها، كأنه كان يُقبَل على دينه بما يستحلّه فيه من متع الحواس، غير ما ناظر في صوابه وضالاه. والواقع أن اعتلال الأخطل بالخمرة، لا يعدو وسيلة لحسن التخلّص من دعوة الخليفة وإغرائه. ولم يكن من اللائق قطّ أن يتعمّد الشاعر الرفض المباشر، مؤثراً نصرانيته على الإسلام، دين الخليفة والدولة، فمال عن النظر في صواب ما يُدعى إليه وما يعتصم به، وتعلّل بإيثاره للخمرة وإدمانه إياها كوسيلة للرفض اللبّيق الخفِر. ولسنا نزعِم، مع ذلك، أن الأخطل كان يأخذ نصرانيته مأخذ ثقة ودرس، بل إنّه فُطِرَ عليها وجرى فيها مجرى التقليد واعتصم بها من ضمن اهتمامه بقبيلته المتعاطمة بذاتها والتي كانت ترى في اعتناقها للدين الجديد تنازلاً منها لما جرى عليه سائر القبائل وتحلياً عن ادعائها القوة والتفرد على من دونها^٢.

١-م-ن-٨، ٢٩٠

٢- قيل: لو تأخر الإسلام قليلاً لأكل بنو تغلب الناس، التبريزي، شرح المملقات، ليال، ١٠٨

ويدنو إلى ذلك ما ورد في الديوان من أن عبد الملك حاول أن يدعو الأخطل إلى الإسلام ، فقال له : « لِمَ لَا تُسَلِّمَ ، يَا أَخْطَلُ ؟ » فقال : « إِنْ أَنْتِ أَحَلَّكَتِ لِي الْخَمْرَ وَوَضَعْتَ عَنِّي صَوْمَ رَمَضَانَ أُسَلِّمْتُ ». فقال عبد الملك : « إِنْ أَنْتِ أُسَلِّمْتُ ، ثُمَّ قَصَّرْتَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْإِسْلَامِ ، ضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عُنُقُكَ ». فقال الأخطل :

وَكَلَّسْتُ بِصَائِمِ رَمَضَانَ ، يَوْمًا وَكَلَّسْتُ بِأَكْلِ لَحْمِ الْأَصْحَابِي
وَكَلَّسْتُ بِقَائِمِ كَالْعَيْرِ يَدْعُو قُبَيْلَ الصُّبْحِ : « حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ »
وَلَكِنِّي سَأَشْرِبُهَا شَمُولًا وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلَجِ الصُّبْحِ

فجاءى عبد الملك شاعره في مزاحه وقال : « ما بلغ منك الشراب ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين إذا شربتها ، فأنت أهون عليّ من شيسعِ نعلي ». فقال : « قل فيه شعراً ، وإلا ضربت عنقك ».

فقال :

إِذَا مَا نَدَيْمِي عَلَّنِي ، ثُمَّ عَلَّنِي ثَلَاثَ زُجَاتٍ ، لَهْنٌ هَدِيرُ
خَرَجْتُ أَجْرُ الدَّيْلِ تَيْهًا كَأَنَّي عَلَّيْكَ ، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمِيرُ

ومن يتقصّ في هذه النادرة يقع فيها على مرادة واضحة للأخطل عن دينه ، ولئن لم يلح الخليفة في شأنه ويضيق عليه ويراعمه ، فإنه كان يؤثره ويتمناه ، إذ كان يحمل في نفسه شيئاً من ذلك. إلا أن الأخطل يبدو ، أبدأ ، ماجناً مستهتراً ، فيما يجيب على تلك الدعوة ، ولا يؤثر دينه لمبادئ خلقية أو لتعاليم سامية وما إليها. فهذه الرواية تسم الأخطل بأخذه لدينه في ظاهره العارض ، أكثر مما تسم

الخليفة بحلمه الواسع في أمر الدين ، فكأن ناقل هذه الرواية رغب في أن يوعز لمن يطّلع عليها بأن الأخطل صدر في دينه عن جهل وحمق ومجون ، وأن الخليفة لم يكن يخرج عليه بما يهترِف ، إذ كان يوحى إلى الآخذين بكلام الأخطل أن أمر دينه لا يعدو الهزل والمجون ، وليس في أمره جدّ ، حتى يؤاخذَه به ويضيق عليه فيه. إلا أن الدلالة الأعمق في ذلك كلّهُ ، أن عبد الملك ، كسائر الأمويين ، كان يقدم أمر الدنيا على أمر الدين متى تعارضا ، ولم يجد سبيلاً سيراً للتوفيق بينهما. وشاهدنا على ذلك أن عبد الملك ذاته كان يأخذ الأخطل مأخذ عنت ويُسأده ، فيما يطالعه بما لا يطيب له وما يأنف منه لارتباطه بمصير الدولة وأمنها. فبعد أن أوقع الجحّاف بالتغليبين في يوم البِشر وبقر بطون نسايم ، تظلم الأخطل من قعود الأمويين عن نجدة التغليبين مناصريهم وإخلافهم وطالبهم بعهد الجيرة وذمة الحماية ، متهدداً متوعداً بقوله :

لَقَدْ أَوْقَعَ الْجَحَّافُ بِالْبِشْرِ وَقَعَةً إِلَى اللَّهِ مِنْهَا الْمُشْتَكَى وَالْمَعْوَلُ
فَإِنْ لَمْ تُغَيِّرْهَا قُرَيْشٌ بِمِلْكِهَا يَكُنْ عَنْ قُرَيْشٍ مُسْتَمَازٌ وَمَرَحَلُ
وَنَعَزُّرُ أَنْسَاءَ عَرَّةَ يَكْرَهُونَهَا وَنَحْيَا كِرَاماً ، أَوْ نَمُوتُ فَنُقْتَلُ
وَإِنْ تَحْمِلُوا عَنْهُمْ ، فَمَا مِنْ حِمَالِهِ وَإِنْ ثَقُلْتُ ، الْأَدْمُ الْقَوْمِ أَثْقَلُ

فغضب عبد الملك وصاح : « إلى أين يا ابن النصرانية؟ » فأجاب الأخطل : « إلى النار ». فتبسّم عبد الملك وقال : « أولى لك ، لو قلت غير ذلك ، لقتلتك ». فبعد الملك لم يكن يُياسر الأخطل إلا ببعض الأعراض والسوانح التي يفيد منها في تسفيه معتقدة وإظهاره كمن لا يحمل دينه محمل الجدّ ، وإنه وإن لم يكن مسلماً ، فهو ، على الأقل ، بدعي النصرانية ولا يتقيّد أو يخفل بها ، إذ طالما خرج على تعاليمها وآدابها وأكثر من الاتصال بالقيان والقواجر كما قذف المحصنات وتطلق وتزوج على هواه^٢. ولعل هذا ما ساق رجال الدين إلى تعنيفه وتأديبه ، علناً ،

٢ - الأغاني ، ٨ : ٣٣٠

١ - م - ن ، ١٠ - ١١

ليكفّر عمّا ألحق بنفسه ودينه من عار ومجون. فإذا سُئِلَ : يا أبا مالك ، الناس يهابونك ، والخليفة يُكرّمك ، وقدرُك في الناس قدرُك ، وأنت تخضع لهذا القسّ هذا الخضوع وتستخذي له ؟ فقد كان يجيب : إنّه الدين ، إنّه الدين . وممّا لا شكّ فيه أن القسّ كان يحرص على معاقبته لما كان للأخطل من صفة عامة ولاستهتاره بنصرانيته ، فكأنّه في مجونه كان يؤدّي مثلاً سيئاً عنها ويَزرُ دينه وزره . فلا عجب في أن يشتدّ عليه أولياء دينه . بل إن المرء ليدهش ، كما دهش معاصروه ، أن يمنع ذلك الخنوع لامرئ لا سلطة نافذة له عليه ، فيقبل منه الضرب والأذى ، مستدلاً ، مُستسلماً لِقَدَرِهِ .

ولقد أورد صاحب الأغاني نادرة نستشفّ منها أنّه كان يؤدي أعمال التقوى والمجون ، معاً ، فيتزع من بعضها إلى البعض الآخر في لحظة واحدة ، يختلط فيها الورع والمجون في نفسه ، لا يصفو أحدهما ولا يتنرّد عن الآخر . فلقد أمر امرأته أن تلحق بأُسقف مارّ ، وهو يمتطي حماراً ، لتتمسّح وتبركّ به ، فقعلت . إلا أنّها لم تدرك إلا ذنّب حماره ، فتمسّحت به ، وقفات عائدة إلى الأخطل فقال لها : « هو وذنب حماره سواء »^٢.

وإيضاح ذلك أن الأخطل لم ينظر في أمر النصرانية نظرة أخلاقية أو روحانية ، ولم يتتقّف بها ويفطن إلى مراميها الزّهدية ، بل إنّها كانت بالنسبة إليه جزءاً من تراث قبيلته ومن تاريخها ، وقد تلقّفها وانخرط فيها كأحد تقاليد عاداتها . وهو إذ استدلّ لرجل الدين وأسلمه أمره ، كان في الواقع يحقّر من أمر نفسه ، ليعظّم من أمر دينه ، ويمنح رجاله آيات الإكرام والاحترام حتى الخنوع . وتعظيمه لدين القبيلة هو تعظيم لها بوجه من كانوا يعارضونها به وينظرون إليها فيه نظرة احتقار وتفرّد . فالأخطل لم يجد بأساً في التذلّل لذويه بنوع من الذلّ ، ليظهر الدّولة التي لم تكن تُقرّه على دينه ، بل تضطهده به . فقد شهد الأخطل ، منذ

١ - طبقات الشعراء ، ١٧٨ . الأغاني ، ٨ : ٣١٠

٢ - م - ٨ ن : ٣٠٠

حدثته ، ما كان يقاسي بنو قومه من تضييق وحرمان ، إذ قرَض عليهم عُمر
لُبس الزنابير والقلائس المُضربَة الطوال والنعال المثنيّة ، ومنع نساءهم من
امتطاء مطايا المسلمين ، وتشدد عليهم بالجزية حتى وفدوا عليه ، بعد أن قاوموا
خالد بن الوليد مقاومة عنيفة ، وطلبوا منه أن يرفع الجزية عنهم أو يتولّوا عنه إلى
الروم^٢ . وهنا تتباين الرواية فهما كان من موقف عمر . فمنهم من ذكر أنه رفض
حتى تبديل اسم الجزية وقال محقّقاً : « لكم أن تسمّوها ما شئتم ، أما نحن فندعوها
جزية » . ومنهم من زعم أنه أسقط الجزية عنهم واشترط عليهم ألاّ ينصّروا
أولادهم ، كما ذكر أنه ضاعف عليهم الزكاة^٣ . ولئن كانت الأحوال السياسيّة
قد اضطرت الدّولة الأموية إلى أخذ التّغلييبين باللّدين في دينهم وخطب ودّهم عليه ،
فإنهم كانوا يشعرون بالغرابة والانتباز من قبيل العرب ، عامّة ، لإقامتهم على
دينهم من دونهم . وقد كان هذا الدين كما بيّنا موضع نزاع دائم بينهم وبين السّلطة
القائمة ، وكانت تغلب تُجمّع عليه ، إلاّ أقلّها ، كأنه إطار لاستقلالها وحفاظها
على كيانها . ولعلّ الأخطل عاد يشعر في الأسرة العربيّة بالغرابة التي كان يشعر بها
في أسرته ، تؤثر بينها عليه وتحرمه وتقضي من قبيلته الجزية كما كانت زوج والده
تقصيه وترجره وترسله في رعاية الأعتز . وكما تمرد على زوج والده ، فيما اضطهدته
به ، تمرد ، كذلك ، على الدّولة القائمة وعصاها ومضى في تعظيم ما كانت تزجره
به عليه . ولئن أوى الدين في نفسه ، قليلاً أو كثيراً من الحرج بمحدوده ومحاذيره ،
فإنّه أخذ منه بإخانب القوميّ أو القبليّ ، وقلّما فطن معاصروه إلى هذا الواقع ،
بل كانوا يسعون إلى إزعاجه عنه ولا يبرحون ينازعونه ليختبروا مدى اعتصامه به .
فقد ذُكر أن الأخطل مرّ في بني رُوّاس ومؤذنتهم ينادي بالصّلالة ، فقال له
بعضهم : ألا تدخل ، يا أبا مالك ، فتصلي ؟ فقال :

أصلّي حيث تُدرِكُني صلاتي وليس البرُّ عند بني رُوّاسِ

١ - الأغاني ، ٨ : ٣١٠

٢ - البلاذري : فتوح البلدان ، ١ : ١٧٩ - ١٨٠

٣ - الطبري : م - س ج ٣ ، ١٥٤ - ١٥٨

وقيل إن هشام بن عبد الملك سمعه مرة يقول :

وإذا افتقرت إلى الذخائر ، لم تجدِ ذخراً يكون كصالح الأعمال

فقال له هشام : هنيئاً لك ، أبا مالك ، هذا الإسلام ! فقال له الأخطل : يا أمير المؤمنين ما زلت مسلماً في ديني .

الباب الخامس

اتصاله بالخلفاء

أولاً : اتصاله بيزيد :

اقتصر شعر الأخطل في مستهل عهده به على الهجاء ، ولم يكن من التنوع والنضج بحيث يثير به إعجاب الناس فضلاً عن خوفهم ، فيكسبه شهرة كان يتوق إليها. لقد واقع أناساً من أهله أو قبيلته ، ولم يتعد ذلك ، إذ هجا زوج أبيه وابن جُعيل وأمه ، كما قدّمنا ، وربما واقع فيه أناساً آخرين ضاعت أسماؤهم فضلاً عن شعره فيهم . ظلّ الأخطل مقيماً على تلك الحال ، ينظم شعراً تقفُ حدوده في أهله وبني قومه ، حتى أسفنته الأحوال السياسيّة في تعدي ذلك النطاق ، مكتسباً لشعره صفة عامّة من خلال تصديّه للأغراض السياسيّة التي شغلت الخلافة في علاقتها بأحزاب المسلمين وتنازع أمرها فيهم. فقد كان بنو هاشم يرون أنفسهم الأحقّ بالخلافة ، لمناصرتهم النبي في مستهلّ دعوته ولأنهم زادوا عنه ومنعوه ، فيما نكّل به الأمويّون واضطهدوه ، ولم يدخلوا في طاعته، إلّا بعد أن فتح عليهم مكّة ، ولم يبقَ لهم طاقة على معارضته والخروج عليه. وإذ آلت الخلافة إلى معاوية ،

١ - الأغاني ، ٨ : ٣١٠

وقد توشحت بوشاح الدم والفتنة ، رأى الأمويون أنهم استعادوا السلطنة التي كان الإسلام قد انتزعها منهم إلى حين ، فيما تألب عليهم سائر المسلمين ، ناظرين إلى ملك أمية كردة من قريش الأحزاب والطلقاء على أصحاب الحق في ولاية الإسلام والمسلمين ، فلم يدعنوا لهم ولم يأخذوا بأمرهم عن اقتناع ، بل إنهم كابروهم وتعصوا عليهم وفاخروهم وجأهروا بما يضمرون لهم من حقد وما يرونه في حكمهم من اغتصاب . وقد كانوا يفصحون عن ذلك بالثورة حيناً ، وبالشعر في معظم الأحيان ، يعيرونها فيه بكلّ مثلبة ويزرون بهم كلّ إزاء . وكان معاوية في حلمه ودهائه يأخذ الأنصار بالروية ، يلاينهم ويدانهم ويغضي عن أذاتهم ، إذ لم تكن له طاقة على مناوأتهم في المسلمين ، دون أن ينتقص ذلك من دينه وتقواه وعدله . إلا أن سائر الأمويين لم يكونوا يتحلّون بمثل حلمه ، بل يقابلون الشرّ بمثله ويهاجون أعداءهم ، حتى التحم الهجاء بين عبد الرحمن بن الحكم وعبد الرحمن بن حسان ، شاعر الأنصار الذي نال من الأمويين كلّ منال ، غير هيّاب منهم ولا حافل بسلطتهم وبملكهم . ولم يكن ليزيد أن يصبر عليهم صبر أبيه وأن يُغضي عنهم إغضائه ، بل إذنه نازلهم في الهجاء وانصر لابن الحكم على ابن حسان ، فتناول عليه الأخير واستعلاه وأثار غضبه .

والواقع أن الأعين بين بني أمية وبني هاشم ظهر منذ الجاهلية ، إذ كان بنو هاشم أصحاب السيادة ، فيما انصرف بنو أمية إلى التجارة ، يؤتمهم عليها أبو سفيان الذي عارض النبيّ وجيش عليه ولم يدعن للدعوة إلاّ على مخصّص . وكان الأنصار من أشدّ مؤيدي النبيّ على أعدائه وقد قاتلوا في صفوفه وأخلصوا له ، حتى ظهرَ على مناوئيه وأخصّصهم . وكان الأمويون يحفظون على الأنصار لتألبهم حول النبيّ ومناصرتهم ، وإسهامهم معه حتى النصر . ولئن اعتنق الأمويون الدين الجديد ، فقد كان أمرهم معه يتباين عن سائر القرشيين إذ رأوا في ذلك لإزالة لسلطانهم ، فأقاموا على رغبة في الردة عليه والاستئثار بملكه . وقد سكتوا عما آلت إليه الخلافة ، إذ وقعت بين يدي أبي بكر وعمر ، حتى إذا صارت إلى عثمان استبدوا بسلطانهم وتولوا ولاياتها ، مما أثار سائر المسلمين عليهم ، فاجترأ بعض

الأنصار على عثمان ، لما آثرَ به بني قومه^١. ثم اجتمعت عليه جموع الأمصار وقتلوه ، فخرجت السلطة من أيديهم حيناً ، إلى علي بن أبي طالب ، وعادوا فاستأثروا بها عندما استبدت بها معاوية ووَطد لها ترهيباً وترغيباً^٢. وحين انتهت السلطة إلى معاوية ، عانى الأنصار من ذلك أشدّ الضيم ، إذ رأوا فيه اغتصاباً وردةً. وما عتمت الكراهية أن تفجرت بين الفريقين ، وبخاصة بعد أن أبلى الأنصار أحسن البلاء إلى جنب علي في صفين ، حيث خرجوا وهم يُضمرون الوتر ويتحسِنون للشار. فما زادتهم خلافة معاوية إلاّ ضغناً على ضغن ونقمة على نقمة. فقام خطيبهم قيس بن سعد يندّد بهم ويزري عليهم وينفّيهم عن كلّ مكربة وحقّ وفضل ، فيما قابل الأمويون ذلك بنفي الأنصار عن المناصب وعن حرّم الدولة ، كما ضيّق عليهم مروان بن الحكم وانتبذهم ، ونهد أخوه عبد الرحمن إلى هجأهم ، متعرضاً لعبد الرحمن بن حسان^٣ كما قدمنا ، فنهد له هذا الأخير وهجاه وقومه بمثل قوله^٤ :

صارَ الذَّلِيلُ عزيزاً ، والعزيرُ لهُ ذلٌّ ، وصارَ فُرُوعُ النَّاسِ أذنانا
أو قوله :

أخياوهُم عارٌ على أمواتهم والميتونَ مَسْبَةٌ للغايرِ

ونشبت إثر ذلك معركة هجائية بين الفريقين عمت سائر الأمصار ، فلم يطق يزيد صبراً عليها في نزقه وفورته ، وبخاصة أن ابن حسان تشبب بنسأهم وصرح بذكرهنّ كأنه لا حرمة لهنّ. ولعل يزيد في عنجهيته وغلوائه أدرك أن ابن

١ - الطبري ، م - س ، ٣ : ٣٩٩ - ٤٠٠

٢ - المسعودي ، مروج الذهب ، ١ : ٤٤٢

٣ - الأغاني ، ١٣ : ١٤٤ - ١٤٦

٤ - الأغاني ، ١٣ : ١٤٥ - ١٤٦

حَسَّانَ تَعَمَّدَ ذَلِكَ التَّشْبِيحَ كَحِيلَةٍ مِنْ حَيْلِ الْهَجَاءِ الْخَبِيثِ الَّذِي أَوْعَزَ بِهِ إِلَى أَنَّهُ لَا رِفْعَةَ لِأَوْلَئِكَ النَّسُوءِ عَلَى مَنْ دُونِهِمْ ، وَأَنَّهُ لَا هَيْبَةَ لِلذَّوْبِينَ تَمْنَعُ الشُّعْرَاءَ مِنَ الْإِلْمَامِ بِهِمْ كَسَائِرِ النَّسَاءِ . وَهَكَذَا بَدَأَ لِيَزِيدُ أَنَّ ابْنَ حَسَّانَ تَوَسَّلَ الْغَزَلَ كَأَدَاةٍ لِيُظْهِرَ تَنَكُّرَهُ لِسُلْطَةِ الْخَلِيفَةِ وَلِيُعَالِنَ النَّاسَ أَنَّهُ يَهْزَأُ بِمَا يَدَّعُونَ مِنْ سُلْطَةِ وَمَا يَتَّظَاهَرُونَ بِهِ مِنْ كِبْرِيَاءِ . وَالرَّوَاةُ لَا يَتَّفِقُونَ فِي مَنْ تَشَبَّهَ ابْنُ حَسَّانَ ، فَصَاحِبُ طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ ذَكَرَ أَنَّهُ تَشَبَّهَ بِفَاطِمَةَ بِنْتِ أَبِي سَفْيَانَ عَمَّةِ يَزِيدَ ، بَلْ قِيلَ إِنَّهَا رَمَلَةُ أُخْتِ يَزِيدَ ، حَيْثُ قَالَ :

طَالَ لَيْلِي وَبَيْتٌ كَالْمَخْزُونِ وَمَلَيْتُ الثَّوَاءَ فِي جِيْرُونِ
فَلِذَلِكَ اغْتَرَبْتُ فِي الشَّامِ حَتَّى ظَنَّ أَهْلِي مَرَجَمَاتِ الظَّنُونِ
هِيَ زَهْرَاءُ ، مِثْلُ لَوْلُؤَةِ الْغَوَاصِ مَيَّرَتْ مِنْ جَوْهَرِ مَكْنُونِ
وَإِذَا مَا نَسَبْتَهَا لَمْ تَجِدْهَا فِي سَنَاءٍ مِنَ الْمَكَارِمِ دُونِ
ثُمَّ خَاصَرْتُهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضْرَاءِ ۞ نَمَشِي فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونِ ٢
أَوْ مِثْلُ قَوْلِهِ :

رَمَلُ هَلْ تَذَكِّرِينَ يَوْمَ غَزَالٍ إِذْ قَطَعْنَا مَسِيرَنَا بِالْتَّمَنِّي
إِذْ تَقُولِينَ ، عَمْرُكَ اللَّهُ ، هَلْ شَيْءٌ ۞ ، وَإِنْ جَلَّ ، سَوْفَ يُسَلِّيكَ عَنِي
أَوْ أَطْمَعْتُ مِنْكُمْ يَا ابْنَ حَسَّانَ نَ ، كَمَا قَدْ أَرَاكَ أَطْمَعْتَ مِنِّْي ٣

وَلَعَلَّ الْأَقْدَمِينَ فَطَنُوا إِلَى أَنَّ أَمْرَ يَزِيدَ وَالْأَنْصَارِ لَمْ يَكُنْ مَقْتَصِرًا عَلَى التَّشْبِيحِ ،

١ - ابن سلام ، طبقات الشعراء ، ١٦٠ - ١٦١

٢ - ابن رشيق ، العمدة ، ١ : ٤٤٤

٣ - الأغاني ، ١٣ : ١٤١

بل إنّه تأدّى عن ركام من الأحقاد ، تنفجّر من خلاله . وعلى هذا ، لم يذكر
المبرد سبباً مباشراً لغضب يزيد ، وإنّما اكتفى بأن قال : « عتّب على قوم من
الأنصار »^١ . وقد اتخذ يزيد من شعر ابن حسان في أهل بيته ذريعة ليجهرّ بحمده
وغضبه ، فحثّ كعب بن جعيل على مهاجرتهم . وقيل إنّه دخل على والده ، فقال
له : يا أمير المؤمنين ، ألا ترى إلى هذا العلج من يثرب ، يتهكّم بأعراضنا
ويشيب بنسائنا ؟ فقال معاوية : ومن هو ؟ قال : عبد الرحمن بن حسان . فقال :
يا يزيد ليست العقوبة من أحد أقبح منها من ذوي القدرة . ولكن أمهل حتى يقدم
وفد الأنصار ثمّ ذكرني . فلما قدموا عليه ، قال مخاطباً عبد الرحمن : ألم يبلغني
أنك تشبّبت برملة بنت أمير المؤمنين ؟ قال : بلى ، ولو علمت أن أحداً أُشرف
به شعري أشرف منها ، لذكرته . قال : وأين أنت من أختها هند ! قال : وإن
لها أختاً ! قال : نعم . وقد عقّب صاحب الأغاني على ذلك بقوله : وإنّما أراد
معاوية أن يشيب بهما جميعاً ، فيكذب نفسه . ويظهر أن ذلك كلفه لم يرقّ يزيد
فحضر كعباً على هجائهم ، فتحرّج هذا الأخير ، لعلمه بأن هجاءه لهم سينال من
المسلمين ، جميعاً . فقال ليزيد : أفرق من أمير المؤمنين^٢ . وقيل إنّه قال : والله
ما تلتقي شفتاي بهجاء الأنصار^٣ . كما قيل إنّه احتجّ بقوله : أرادي أنت إلى الكفر
بعد الإسلام ؟ لا أهجو قوماً نصرّوا رسول الله وآووه^٤ . ثمّ دلّه على فتي نصراني ،
اسمه الغوث ، كان لسانه لسان ثور^٥ لا يبالي أن يهجوهم ، يريد به الأخطل نفسه .
وهنا يخرج الأخطل من الغمرة التي كان يقيم فيها ، ويتألّق ، فجأة ، في البلاط
الأموي على عهد معاوية بن أبي سفيان وبواسطة ابنه يزيد . دعاه يزيد وطلب إليه

١ - المبرد ، الكامل ، ١ : ١٧٨ .

٢ - الأغاني ، ١٥ : ١٠٦ - ١٠٧ .

٣ - طبقات الشعراء ، ١٦٠ - ١٦١ .

٤ - البيان والتبيين ، ٦٣ .

٥ - البيان والتبيين ، ١ : ٦٣ . الشعر والشعراء ، ١٨٩ .

إليه أن يهجو الأنصار ، ففعل بعد أن أخذ عهداً منه بالأمان^١ وقال قصيدته التي مطلعها :

ذَهَبَتْ قُرَيْشٌ بِالسَّمَاةِ وَالنَّدى وَاللُّؤْمُ تَحْتَ عِمَائِمِ الْأَنْصَارِ
فَدَعُوا الْمَكَارِمَ ، لَسْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا وَخُذُوا مَسَاحِيكُمْ بَنِي النَّجَارِ^٢

ووصل الأمر إلى النعمان بن بشير الأنصاري ، فدخل على معاوية ، وحسر عمامته عن رأسه ، وقال : يا معاوية ، أترى لؤماً؟ فقال : ما أرى إلاّ كرمأ .

فقال النعمان :

مُعَاوِي إِلَّا تُعْطِنَا الْحَقَّ تَعْتَرِفُ لِحَقِّ الْأَزْدِ مَسْدُولاً عَلَيْهَا الْعِمَائِمُ
أَيْشْتُمُنَا عَبْدَ الْأَرَاقِمِ ، ضِلَّةً فَمَاذَا الَّذِي تُجْدِي عَلَيْكَ الْأَرَاقِمُ
فَمَا لِي نَارٌ دُونَ قَطْعِ لِسَانِهِ فِدُونِكَ مَنْ تُرْضِيهِ عَنْهُ الدَّرَاهِمُ^٣

وقيل إن النعمان قال هذه الأبيات قبل أن يدخل على معاوية ، وحين بلغه هجاء الأخطل للأنصار . فلماً وصلت إلى معاوية ، أتت فيه أبلغ الأثر ، فطلبه ، فدخل عليه وحسر عمامته ، وسأل السؤال نفسه ، وأخبره بما كان من شأن هجاء الأخطل للأنصار ؛ قائلاً : يا أمير المؤمنين ، بلغ منّا أمر ما بلغ منّا في جاهلية ولا إسلام . فقال معاوية : ومن بلغ ذاك منكم؟ قال : غلام نصراني من بني تغلب . قال : وما حاجتك؟ قال : لسأته . قال : ذلك لك . وكان النعمان ذا منزلة من معاوية ، وكان معاوية يقول : يا معشر الأنصار ، تستبطنوني وما صحبني منكم

١ - طبقات الشعراء ، ١٦٠ - ١٦١

٢ - الشعر والشعراء ، ١٨٩

٣ - الكامل ، ١ : ١٧٨ - ١٧٩

٤ - الأغاني ، ١٥ : ١٠٦ - ١٠٨

إلا النعمان . وقد رأيتم ما صنعت به . وكان ولاية الكوفة وأكرمه^١ ، وبلغ الخبر الأخطل ، وقيل بل إن معاوية هو الذي أرسل يطلبه^٢ ، فأسرع إلى يزيد ، وقال له : هذا الذي كنت أخاف . فطمأنه يزيد ، ودخل على أبيه . وهنا اختلفت الروايات فيما كان بين يزيد ومعاوية بشأن العفو عن الأخطل . فمن قائل إن يزيد طلب من النعمان البيّنة على ما يقول ، فلمّا عجز عن الإتيان ، بها ، خلى معاوية سبيله^٣ . وقيل إن يزيد أسرّ له بما جرى بينه وبين الأخطل ، وكيف أن الأنصار هجوه وذكروا أمير المؤمنين نفسه ، وأنه وهبه ذمته وذمة الخليفة على أن يهجو الأنصار . ففعل . فاستدرّ بذلك عفو الخليفة عنه . وقد أشار الأخطل إلى ذلك بقوله :

أبا خالدٍ دافعتَ عنيَ عَظِيمَةً وَأَذْرَكْتَ لِحِمي قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّأَ؛

ومن قال بأن سبب غضب يزيد على الأنصار كان التشييب بأهل البلاط ، ذكر أن حجة يزيد في حضرة معاوية ، كانت الإتيان بشعر ابن حسّان في رملة بنت معاوية . ومن ثم جاء شعر ابن حسّان فقال :

وهي زَهْرَاءُ مِثْلُ لَوْلُؤَةِ الْغَوَا صِ ، مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ

فقال معاوية : قد كذب يا بُني . فأنشده :

وإذا ما نَسَبْتَهَا لَمْ تَجِدْهَا فِي سَنَاءِ مِنَ الْمَكَارِمِ دُونَ

فقال معاوية : صدق يا بُني . فأنشده :

١ - طبقات الشعراء ، ١٦٠ - ١٦١

٢ - الأغاني ، ١٥ : ١٠٨

٣ - م - ن ، ١٥ : ١٠٦ - ١٠٨

٤ - طبقات الشعراء ، ١٦١

ثم خاصرتُها إلى القبلة الخضراء ، ، تَمْشِي فِي مَرَمَرٍ مَسْنُونٍ
فقال : أمّا في هذا ، فقد أبطل ١ .

المهم في ذلك أن هذه الحادثة ذاتها أفادت الأخطل كثيراً ، وكانت باباً ولج منه إلى البلاط الأموي ، فأصبح قريباً من يزيد ، خاصة أن يزيد كان يقرض الشعر ، ويقدر الشعراء . وكان شاباً مُندفعاً مثل الأخطل ، فوجد عنده صدى لشخصه ، فقرّبه ونادمه ، وصار له صديقاً ، وليس أدل على ذلك من وصف المعري في رسالة الغفران لهذه الصلة بينهما ، حيث قال مخاطباً الأخطل في الجحيم :

« أَخْطَأَتْ فِي أَمْرَيْنِ : جَاءَ الْإِسْلَامُ ، فَعَجَزْتَ أَنْ تَدْخُلَ فِيهِ ، وَلِزِمْتَ
أَخْلَاقَ سَفِيهِ ، وَعَاشَرْتَ يَزِيدَ بْنَ مَعَاوِيَةَ ، وَأَطَعْتَ نَفْسَهُ الْغَاوِيَةَ ، وَآثَرْتَ
مَا فِي عَالِي مَا بَقِيَ ، فَكَيْفَ لَكَ بِالْإِبَاقِ ؟ فَيَزْفِرُ الْأَخْطَلُ زَفْرَةً تَعْجِبُ لَهَا الزَّبَانِيَةَ
ويقول : آه على أيام يزيد . أسوف ٢ عنده عنبراً ، ولا أعدم لديه سبسبراً ٣ .
وأفرح معه فرح خليل ، فيَحْتَمِلُنِي احْتِمَالِ الْجَلِيلِ . وكم ألبسني من موشى ،
أسجبه في البكرة أو العشي ... ولقد فاكهته في بعض الأيام وأنا سكران ملتخ ٤ ؛
فقلت :

اسْلَمَ سَلِمَتَ « أَبَا خَالِدٍ » وَحَيَّاكَ رَبُّكَ بِالْعَنْقَرِ
أَكَلْتَ الدِّجَاجَ فَأَفْنَيْتَهَا فَهَلْ فِي الْخَنَانِيصِ مِنْ مَغْمَزِ

فما زادني عن ابتسام ، واهتز للصلة اهتزاز الحسام» ٥ .

١ - الشعر والشعراء ، ١٩٠ ،

٢ - أسوف : أشم

٣ - سبسبر : نوع من الريحان ، فارسية .

٤ - ملتخ : مختلط العقل لا يفهم شيئاً

٥ - المعري ، رسالة الغفران ، ٣٣٩ - ٢٤٠

هذه القطعة تبين باختصار ماهية العلاقة التي كانت تربط الأخطل بيزيد .
 وشعره يبين لنا شعور الأخطل بالولاء له ولأبيه معاوية ، إذ نجّياه من قطع لسانه ،
 ومن ثم أبعدا عنه الذلّ . وفوق هذا وذاك كان الأخطل يعنى بالحفاظ على هذه
 العلاقة طالما أنّها تؤمن له الشهرة التي كان يحلم بها .

ولقد صحب الأخطل يزيد على اللّهُو والصّيّد والشّراب ، إذ كان يزيد يُقبل
 عليها لإقبال امرئ القيس من قبله ، دون أن يعزف عزوفه عن الملك وينخلع عنه
 إلى الضّرب في القلوات وعلى المياه ، بل إنّه اتّخذ لنفسه أدوات اللّهُو ، فيما
 هو يتمرس بأمر الحكم على يدَي والده . والأصول القديمة تذكر أن يزيد كان
 يؤثر المنادمة على الشّراب^١ ويعزف بالطناير ويضرب عنده البقيان^٢ ، ويخرج
 إلى الصّيّد، مصطحباً الغلمان، ويسابق بين الخيل وبناطح بين الكباش والديكة^٣
 ويقتني القُرود ويُلْبَسُها القلانس المذهبة^٤ . ولئن كان في هذا الوصف بعض
 التزيّد الذي ابتدعه مناوئو يزيد على الملك ، فإنّه أثر عنه قليل أو كثير منه ،
 حتى إن صاحب الأغاني ذكر أنّه أول من سنّ الملاهي في الإسلام وآوى المغنّين
 وأظهر الفتك وشرب الخمر ، مُنادماً عليها الأخطل وسرجون ، مولاة^٥ . ولعلّ
 هذه الطّباع المُشتركة ألقت بين الأمير والشاعر فجعلها يقيمان معاً ولا يطبق
 أحدهما الانفصال عن الآخر ، حتى إذا ولي يزيد ولاية العهد ثم الخلافة امتنع
 عن مصاحبة صاحبه عكناً ، وإن كان يُسرُّ ذلك ويتحيّنه ويطرب له .

ولقد خصّ الأخطل يزيد بقصائد ومقطوعات في ديوانه لعلّ أولاه :

ألا يا أسلماً على التّقادّمِ والبلي بدومة خبت أيتها الطّلان^٦

١ - المسعودي ، مروج الذهب ، ٢ : ٩٤

٢ - الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ٤ : ٩٦٨

٣ - ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٨ : ٢٣٥

٤ - المسعودي ، م - س ، ٢ : ٩٤

٥ - الأغاني ، ١٦ : ٦٨ . شعر الأخطل ، ٢٣٢

٦ - م - ن ، ١١٢

وهي قصيدة متعدّدة الموضوعات استطرّد فيها الشّاعر إلى أغراض تقليدية كالطلّال ودفن الحبّ ووصفه الحبيبة، هاجياً زوج برة لإحدى التغليات الجميلات، وواصفاً الغراب والذئب والدّوية والراحلة والحمار الوحشيّ وأُتته، ويتخلّص من ذلك إلى مدح مبتسر في أبيات قليلة أدنى إلى الشكوى والعتاب، يعبر به ويجوزه إلى وصف القطا وذكر سباق بين الخيل أجراه يزيد.

ونقع على قصيدة تماثلها في الديوان نرجح أنّها في مدح يزيد لذكره بني حرب فيها، كما ذهب إليه صاحب الأغاني، وبخلاف ما أشار إليه جامع الديوان، إذ قال إنّه نظمها في عبد الملك، فسأله إثرها: لم لا تُسلمُ يا أخطل؟ فتعذّر له بالصّوم والحمرة، فعنّفه وهدّده بقطع عنقه، إن هو أسلم وقصر في شيء من الإسلام.

ولقد خصّ الأخطل مطلعها بذكر الديار والأحبّة والظّعائن والفلاة والنّاقة والثور الوحشي والصيّد والحمرة، واستطال حتى بلغ نحو اثنين وأربعين بيتاً ولم يتفرّغ للمدح إلا في الأبيات الخمسة الأخيرة. وهذا هو مطلع القصيدة:

تَغَيَّرَ الرَّسْمُ مِنْ سَلْمَى بِأَحْفَارٍ وَأَقْفَرَتْ مِنْ سُلَيْمِي دَمْنَةُ الدَّارِ

وفي الديوان قصيدة ثالثة^٢ لعلّه امتدح بها يزيد قبيل ولاية العهد، أو إثرها، إذ يتمنى له فيها أن يحظى بالخلافة، لأنّه الأحقّ بولايتها. وقد استهلّها كدأبه بوصفه الظّعائن وذكر داء العشق، دون أن يمعن بالاستطراد (٢٢ بيتاً) ثم يباشر موضوعه فيمدح يزيد بحمايته له من بشير بن النعمان، شاعر الأنصار، وبالوفاء ووثوق اليهود والكرم والشجاعة، وينوه بمآثر أبيه ويصف فيضان الفرات الشبيه بكرمه. وينهي القصيدة بمعاودة الممدوح على الوفاء.

١- م- س، ١١٢

٢- شعر الأخطل، ٩٠ ومطلعها:

صحا القلب إلا من ظمائن فاتسيه بن أمير مستبد فأصعدا

وفن المدح أظهر في هذه القصيدة من دون سابقتيها ، فيما يتقلص الوصف إلا في المقدمة ، كما أن المعاني التي ألبها في المدح ، تلج به إلى سنته العريقة ، متمرسا فيه بالفن الصعب ، إذ تكثر الاستعارات الحسية فتمّ عن عمق الانفعال وصفاته وقدرة الشاعر فيه على الخلق ، مما لا مجال للإضافة بذكره والتمثيل عليه الآن . وهناك دليّة أخرى في مدحه استهلها بقوله :

بانتُ سعادُ ففي العَيْنَيْنِ تَسْهِدُ واستَحَقَّبتُ لُبَّهُ ، فالقَلْبُ معمودُ ١

وفيها يذكر صاحبتيه سعاد وسليمي ويشير إلى الشيب الذي ألمّ به ، ويمتدح يزيد بما أسلف له من حماية ويميل إلى وصف الناقة ويشبها بالحمار الوحشي ، ويستطرد إلى ذكر أخته والصيادين والشواء وما إليه . وهذه القصيدة تدنو إلى القصيدتين السابقتين بتعاضد الموضوعات الوصفية فيها على المدح المباشر الذي لم يتعرض له إلا في ستة أبيات ٢ . ولنا نفع في هذه القصائد كلها على ما سنقع عليه ، فيما بعد ، من اصطخاب بالمعاني وألفاظها وتألّفها تألّفاً ملحمياً ، لأن الأخطل ما زال يردّ صوتاً وجدانياً ذاتياً يترجّح بين الصدق والتملّق والشكر والمدح المُبتَسر . ولن تتفجّر عبقريته إلا إثر ما تتوقع قبيلته توقعاً دائماً إلى جانب الأمويين .

ولئن لم يمتدح الأخطل معاوية بقصيدة خاصّة ، فقد عرّج عليه وعلى بني قومه خلال مدائحه عامة في هذه الفترة ، إذ كانت صورته تُهَيِّمُن على بعض ما نظم في يزيد ومعظم ما نظم في عبد الله .

١ - شعر م - ن ، ١٤٦ . وللأخطل في يزيد مقطوعات أخرى ١٩٣ و ١٧٨ و ٢١١

٢ - وللأخطل مدائح في عبد الله بن معاوية وفي عباد بن زياد وسلم بن زياد م - ن ١٨ - ٨١

- ١٨١ - ١٧٨ . وله في خالد بن يزيد قصيدة ص : ٣٤

ثانياً : عبد الملك وسائر الأمويين :

بعد أن وطّد معاوية للملكه ، سعى في تأمينه لابنه يزيد ، ولقي من دون ذلك معارضة شديدة في الحجاز ، كان يقوم على رأسها الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير ، ولما قُتل الحسين خلت الساحة لابن الزبير ، فأخذ يندّد بيزيد لفسقه ولهوه ، مثيراً الفتنة عليه ، فهبّ يزيد للقضاء عليها وأوشك أن يخذلها ، حين عاجلته المنية ، فتولى الخلافة ابنه معاوية الثاني الذي لم يطق أوزارها وأعباءها^٢ فاستعفى عنها وختفها نهي لكلّ طامع ومريد ، فاهتبل ابن الزبير تلك السانحة ودعا لنفسه وبايعته أمصار عديدة ، حتى إنّه لم يُقِمَّ على الولاء للأمويين إلاّ الأردن^٣ . وقد أفاد في ذلك من العصبية القبليّة بين اليمانية وعلى رأسها قبيلة كلب والمضريّة وعلى رأسها قيس^٤ . وكان معاوية قد أصهر إلى اليمانية الذين والوه وقاتلوا إلى جنبه في صفين وقدمهم وأغدق عليهم ، فيما انتبذ المضريّين وأغفل أمرهم . وقد وجد هؤلاء في توارث الخلافة بين الأمويين تقديماً لأعدائهم عليهم وامتهاناً لهم ، فوالوا ابن الزبير وبايعوه واحتشدوا له ، علّهم بذلك يثأرون من أعدائهم بما يشبّون من حروب إلى جنبه .

ولما دبّت الفوضى في صفوف الأمويين وذهلوا عن أمرهم ، وفد مروان ابن الحكم من الحجاز^٥ فألف إليه الأمويين ودعا لنفسه على ابن الزبير ، فبوع بالجابية ، ثم جتّش على ابن الزبير ولقيه في مرج راهط ، وهزمه وأتباعه القيسيّين الذين قُتل زعيمهم الضحّاك بن قيس ، فخرجوا من الشّام إلى الجزيرة وأمّروا عليهم زُفّر بن الحارث الكلّابي وجاوروا التغلبيّين الذين حالفوهم على الانتقام من اليمانية ، يقاتلون إلى جنبهم فيضمنون الغنائم ويناوئون عدوّاً مشتركاً ،

١ - الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ٤ : ٢٣٨

٢ - الطبري م - س ، ٤ : ٢٤٣

٤ - م - ن ، ٤ : ٤١٣

٥ - الأغاني ، ٢٠ : ١٢٠ - ١٢٦

إذ كان القيسيون والتغليبيون من العدنانية . ثم ما عم القيسيون أن نشطوا إلى الدّعوة لابن الزبير ، فانشقّ عنهم التغليبيون ، بعد أن تعمدت القيسيون إذلالهم واقتضوهم الجزية والقتال إلى ابن الزبير^١ . ولقد تأدّى عن ذلك أن نشب القتال بين تغلب وقيس في أيام عديدة ترجّح فيها النصر بين الفريقين ، ينكّل ويمثّل كلّ فريق بالآخر ، حتى كان يوم الحشاك الذي قتل فيه التغليبيون عمير بن الحباب ، قائد القيسية وزعيم بني سليم ، ثم عمل عبد الملك على إقامة صلح بين الفريقين ، فارتضياه قسراً^٢ .

وإثر تلك الأيام الدامية وفد الأخطل على عبد الملك ، بعد أن خبر من أمر الحياة والنّاس ، ما لم يخبره من قبل ، وقد استوثقت صلته بقيبلته واتحد بها غاية الاتحاد ، ولم يعد يكتفي من الأمر كلّهُ بالتغني بأجسادها الماضية بل إنّه عانى جراح المجد والبطولة ، منتصراً ومهزوماً ، مدركاً أن واقعة الأحداث والانتصار على أزماتها يتباين كلّ التباين عن التغني بها والتحدّث عنها . وفي بلاط عبد الملك ألفى أعداءه القيسيين يظهرون الخليفة ويتقربون إليه والخليفة يدينهم طمعاً . وقد اغتاض الأخطل أن يُلنفي دماء بني قومه تهدر عبثاً ، إذ يقدم إلى البلاط فيجد عدوه زُفّر قد سبقه إليه .

وقد تعاضمه أن يؤلّف الخليفة إليه من ألبوا ، بالأمس ، عليه لابن الزبير ، فيما يجافي قومه ولا تذكر لهم أياديهم في الدفاع عن الخليفة . فما كان منه إلا أن دخل على عبد الملك فقال :

وكأسٍ مثل عَيْنِ الديكِ صِرْفٍ تُنسى الشَّارِبِينَ لها العُقُولَا
إِذَا شَرِبَ الفَتَى مِنْهَا ثَلَاثاً بِغَيْرِ المَاءِ حَاوِلَ أَنْ يَطُـوَلَا

١ - م - ن ، ١٢٦ - ١٢٧

٢ - راجع ذكر هذه الأيام في نهاية شعر الأخطل من ص ٣٣٠ وما بعد

مَشَى قُرَشِيَّةً ، لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَزْحَى مِنْ مَآزِرِهِ الْفُضُولَا

فقال عبد الملك : « ما أخرج هذا منك يا أبا مالك إلا خطة في رأسك ». فقال :
أجل والله يا أمير المؤمنين ، حين تجلس عدو الله هذا معك على السرير ، وهو
القائل بالأمس :

وَقَدْ يَنْبُتُ الْعُشْبُ عَلَى دِمَنِ الثَّرَى وَتَبْقَى حَزَاذَاتُ الْقُلُوبِ كَمَا هِيَ

فقبض عبد الملك رجله ، ثم ضرب بها صدر زُفَرٍ ، فقلبه عن السرير ،
وقال : أذهب الله حزازات تلك الصدور . فقال زُفَرٌ : أنشدك الله يا أمير المؤمنين
والعهد الذي أعطيتني ، فأمسك عنه عبد الملك . وهذه الحادثة تطلعنا على مدى
تأثيره على الخليفة ودالته عليه واجترائه على أعدائه بين يديه ، وقد لقي مرة
الجحّاف بن حكيم من زعماء قيس ففاخره بقوله ٢ :

أَلَا سَائِلِ الْجِحَّافِ هَلْ هُوَ نَائِرٌ بِقَتْلِ أُصَيْبِتٍ مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ
أَجْحَافُ إِنْ نَطَلْبُكَ يَوْمًا ، فَتَصْطَدِمُ عَلَيْكَ أَوَاذِي الْبُحُورِ الزَّوَاخِرِ
تَكُنْ مِثْلَ أَقْدَاءِ الْحُبَابِ الَّذِي جَرَى بِهِ الْمَاءُ ، أَوْ جَارِي الرِّيَاحِ الْقَوَاصِرِ

فتعبس الجحّاف وقال : « ظننتُ يا ابن النصرانية أنك لم تكن تجترىء عليّ ،
ولقد رأيتني أسيراً لك » ثم وثب يجرُّ مطرفه مُغْضَباً ، وألّب عليه قومه في يوم
البشر الذي قتل فيه من التغلبيين مقتلة كبيرة ، قدّمنا ذكرها .

١ - الأغاني ، ٨ : ١٩٦ - ٢٩٧

٢ - الأغاني ، ١١ : ٥٦ - ٥٧

ومهما يكن ، فقد توثقت الصلة إثر ذلك كله بين عبد الملك والأخطل ،
يجالسه ويمتدحه ويعظم من شأنه ويذكره بأيادي التغليبين ويسفر لهم في مجلسه .

وقد بلغ من إعجاب عبد الملك أن قال له إثر سماعه لرائيته في مدحه : ويحك
يا أخطل أتريد أن أكتب إلى الآفاق ، أنك أشعر العرب ؟ كما اعترف به شاعراً
لبي أمية بقوله : إن لكل قوم شاعراً والأخطل شاعر بني أمية .

ومع أن صلة الأخطل بعبد الملك أربت على خمس عشرة سنة ، فإن الديوان
لا يثبت له فيه إلا ثلاث قصائد ، لعل أولها التي مطلعها :

ألا يا أسلمي يا هند بنت بني بدرٍ وإن كان حيانا عدى ، آخر الدهر

ولقد نزع فيها ، إثر المقدمة الغزلية ، إلى هجاء القيسيين ، شامتاً بهم لانقسامهم
ومقذعاً في هجاء العجلانيين منهم . ثم يعرض بابن بدر في هربه منهم ويهجو
العامريين وبني سليم ويفخر بالعفو عن بني سلول ، كما يظنهم حقه على بني
ذبيان ، ثم يخاطب عبد الملك مشيداً بمآثر قومه في مناصرته وبقتلهم لعمير بن الحباب .

وهذه القصيدة تنتمي إلى الشعر السياسي أكثر من انتمائها إلى شعر المدح ، كما
أنه يستطرد فيها ، غالباً ، بمقطوعات وصفية ، عبر السياق العام ، مما يوحي
لنا بأن الأخطل كان لا يزال مأخوذاً بهموم قبيلته ووقائعها مع القيسيين ، يمجّد
بشعره بطولة قومه ويسخر من أعدائهم ويكاد لا يخصّ الخليفة بمدح إلا ليدكره
بعظم ما قدمه له التغليبيون . أما النزعة الوصفية التي تتمطى وتتناول فيها ،
فهي نزعة فنية عامة تنتظم شعره ، جميعاً ، وقد كان ينهك بها المعاني ، ويرهقها
للغلو بها والتعظيم من وقعها . ونقع فيها كذلك على مقاطع هجائية يتفتق فيها

الشاعر بالصور المزرية التي يعزلها من الواقع الحسي ويثيرها بالانفعال. أما القصيدة الثانية، فرائية أخرى لعلها أشهر قصائده وأكثرها طولاً، يقول في مطلعها:

خَفَّ القَطِينُ فراحوا مِنْكَ أو بكرُوا وَأزَعَجَتْهُمُ نوى في صَرَفِها غَيْرُ ١

وفي هذه القصيدة يستهلّ الأخطل بذكر الرّحيل ووصف الخمرة والراحلين والظّعائن، ثم يباشر المدح، فيصف كرم الممدوح ويعرّض بالوشاة ويعرّج على مدح بني قريش ويفخر بمناصرة الأمويين ويهجو القيسيين وبني كليب قوم جرير. وقد مهدنا لهذه القصيدة بدراسة وافية في مقدمتها، فلا مجال للتكرار وإنّما نكتفي بالإشارة إلى أن الأخطل أوفى فيها إلى ذروة فنّه الشعري في الأداء والمضمون وما إليهما.

أما القصيدة الثالثة، فمطلعها:

لَعْمَرِي لَقَدْ أَسْرَيْتُ لا لَيْلَ عاجِزٍ بِسَاهِمَةِ الخَدَيْنِ طاوِيَةِ القُرْبِ ٢

وبعد أن يستهلّ وصف الناقة والقطا والمطايا، يباشر المديح فيصف خيل الممدوح في القتال ويعظّمه من خلالها، ثم يهجو القيسيين وبني كليب. وهذه القصيدة تحفل بالمعاني الجليلة المحكّمة اللفظ والأداء، وقد عرّج فيها على معظم أغراض المدح.

ولسنا نقع في هذه المداخل، جميعاً، على تلك الوجدانية السائلة التي تطالعنا في مداخل المتنبي لسيف الدولة، بل إنّه ينهج فيها نهج القدماء، ينفج ذلك بمعاناته الخاصة وانفعاله بالأحداث ويوقعها وفقاً لفنّيته الدؤوبة، الشديدة التثقيف،

١- م- ن، ٩٨

٢- م- ن، ١٧

فترد صخّابة ، متدافعة ، صقيلة ، ولكنها تقتصر على العارض والطارىء من الأحداث ولا تنفذ منها إلى مبدأ عام في الوجود ، تتعدّل الأحداث وتتبدّل به . إلا أن الأخطل يلزم فيها همومه الكبرى ، يوح بها ، ويعرّج عليها في كلّ حين ، ومعظمها هموم قبلية في هجائه للقيسين أو شبه ذاتية في هجائه لبني كليب . فهذه القصائد تقع في باب المدح من حيث المبدأ والغاية الأولى ، ولكنها تتوزع بين الهجاء والفخر والوصف بنسب متباينة كأنّها تصدر عن وحدة الهموم النفسية وليس عن وحدة الموضوع المباشر .

أما سائر ما نظم الأخطل من قصائد في البيت الروائي ، فقد خصّ بها بشر بن مروان الذي ولاه أخوه على الكوفة ثم جمع له البصرة ، وكان بشر يميل إلى اللّهو دون أن ينتقص ذلك من هيئته وحزمه ، وكان يطرب للغناء والشّراب ولا يتقي بهما ، وكان ذوّاقاً للشّعْر ، عارفاً بتاريخه ، راوياً له ، وكان جواداً يُغدق على الشعراء ويؤوهم إليه ، فينتقد شعرهم ويقرن بينهم . وقد مدحه نصيب وعبد الله الأسدي ، كما انتجع داره المثلث الأموي ، وكان يطيب له أن يحضّ الشعراء على معارضة بعضهم بعضاً ، وهو الذي أوقع بين الأخطل وجريير إذ طلب من الأول أن يحكم بينهما . ولعلّ بشراً أدرك أن إثارة الموضوعات الجديدة بين الشعراء ، تُدْركي قرائحهم وتُطلع منها الجديد والمُعجب ، فأقبل على ذلك لاهياً .

ولعلّ بشراً آثر الأخطل بالعطاء على من دونه وأجزل له فيه ، فامتدحه بخمس قصائد نبليّة . ففي اليائية يستهلّ بذكر ما حلّ بديار القيسيين ويهجوهم ويهجو أسياهم الزبيريين ويمتدح بني أمية ، ويقول إنّهم هامة قریش ، عريقون في الملك ، حلماء ، فتأكون بالأعداء ، ويعرّج على امتداح بشر بكرمه ونخره للضيوف وإيوائه للمعوزين . وهذه القصيدة أحفل من سواها بالمعاني المباشرة إذ خاض فيها بالأيام والوقائع وهجاء القيسيين وأزرى بهم لناوأهم لبني أمية ولا يغفل عن الهزء بالزبيريين ، فكأنّه كان يمتدح بشراً بمثل ما يمتدح به أخاه عبد الملك ، أو كأنّه يمتدح فيه أخاه من خلاله . وإذ ينحصّه بالمدح ، فإنّه ينمي

إليه المعاني المدحية العامة كالكرم والهرع للضيف والنحر له . ولعلّه لا غلوّ في القول بأن مدائح الأخطل في بشر ، قلّما تتباين نفسياً وفتياً عن مدائحه في عبد الملك ، وان كانت الأخيرة أكثر احتشاداً .

وفي القصيدة الثانية التي يمتدحه بها يُعَرِّج على استطرادات في الغزل والتشبيب والفخر ووصف الفلوات والحمار الوحشي وأنته ، إلا أن المعاني التي يُنمّيها لبشر عبرها تبدو أكثر جلاء واختصاصاً إذ ينوّه بقتاله للخوارج والأعاجم ، فيما تتصف سائر المعاني بالصفة المبذولة العامة . والقصيدة الثالثة لا تعدو هذه المقدمات الاستطراذية مع التفات خاص لمدح القرشيين ويكاد لا يخصّ بشراً إلا بأبيات قليلة يظهر فيها تشفّعه واعتصامه به . وفي القصيدة الرابعة يذكر الديار والأحبة ويصف المطايا وهلاكها في ارتحالها إليه ثمّ يمتدحه بكرمه وإيوائه للضعيف وقيادته للخيل ، كما أنّه يستطرد إلى هجاء جرير وامتداح الفرزدق . أما القصيدة الخامسة ، فقد نظم معظمها في هجاء أعدائه ومعاتبتهم والتفاخر ببني قومه ولا يمتدح بني أمية وبشراً إلا في أبيات قليلة ينهيها بما القصيدة .

ويخيّل إلينا عبر ذلك كلّه أن الأحداث السياسية والاستطرادات الوجدانية والوصفية غلبت على مدائح الأخطل ، فيما تضاءلت من دونها صورة بشر الذي كان يأنس به ويترب إليه دون ان تحيطه منه هالة الإعجاب الكبير التي كانت تحيط بأخيه عبد الملك والتي كان يصوغ للتعبير عنها الأجواء الملحمية الحاشدة كما نرى في قصيدة خفّ القطين^١ .

١ - فيما يلي نبذل مطالع هذه القصائد :

فالمحليات فالخابور فالشعب . شعر الأخطل : ٣٨	أقفرت البلخ من عيلان فالرحب
وعاد له من حب أروى أخابله م - ن ، ٥٨	صحا القلب عن أروى وأقصر باطله
عني الصباية ، لا نكس ولا ورع م - ن ، ٦٨	قد كشف الحلم عني الجهل فانقشمت
فذات الصفا صحراؤها فقصيمها م - ن ، ١٢٠	عفا الجوى من سلمى ، فبادت رسومها
فحزان الصريمسة فالهجوم م - ن ، ١٢٤	عفا من آل فاطمة الدخول

وللأخطل مدائح في خالد بن أسيد الذي يمتّ بقرابة للبيت المرواني^١ . وقد
 ولاه عبد الملك على البصرة . وكان خالد شجاعاً ، جواداً ، ذواقاً للشعر كعظم
 الأمويين ، كما أنّه كان يجالس الشعراء والمغنين ويغدق عليها النعم الكثيرة .
 وله قصيدة في مدح عبد الله بن سعيد بن العاص^٢ كما مدح إبي عبد العزيز بن
 مروان^٣ . وله في الوليد بن عبد الملك خمس قصائد تبدّلت فيها نبرة العنجهية
 والكبر ، فيما غلب عليها اللين والتعطف . ففي الدالية التي مطلعها :

وَحَاجِلَةَ الْعُيُونِ طَوَى قُوَاهَا شِهَابُ الصَّيْفِ وَالسَّفَرُ الطَّوِيلُ؛

نراه يستجدي الخليفة لرفع الغرامات والحزى عن بني قومه في أبيات قليلة شديدة
 الضراعة . أما في القصيدة التي مطلعها :

حَيُّ الْمَنَازِلَ بَيْنَ السَّفْحِ وَالْهَضْبِ لَمْ يَبْقُ غَيْرُ وَشُومِ النَّارِ وَالْحَطْبِ؛

فإن الشاعر يمدح الوليد من خلال بني أمية ذوي الحلم والشجاعة والأصالة
 القرشية في نحو خمسة أبيات ، فيما خصّ ستة وأربعين بيتاً لذكر الديار ووصف
 السحاب والصواحب والمطايا والمهاجرة والحادي والذئب ، حتى ينتهي إلى موضوع
 المدح . أما القصيدة الثالثة التي مطلعها :

١- م- ن ، ١٢٠

٢- م- ن ، ٥٢

٣- م- ن ، ١٧٧

٤- م- ن ، ٢٣٢

٥- م- ن ، ١٨٢

عَفَا مِمَّنْ عَهْدَتْ بِهٖ حَفِيرُ فَأَجْبَالُ السَّيَالِ فَالْعَوِيرُ ١

فهي أكثر تخصصاً بالمدح ، إذ اقتضت المقدمة على اثني عشر بيتاً ، فيما أقبل على المدح في نحو ستة وثلاثين بيتاً ، خاطب فيها الأمويين وعظّمهم ونوّه بمناصرتهم له وهدايتهم للنّاس ، كمدح بني عبس أحوال الوليد . وفي القصيدة الرابعة التي مطلعها :

عَفَا وَسِطُ مَنْ أَهْلِهِ فَمَدَانِبُهُ فَرَوْضُ الْقَطَا : صَحْرَاوَهُ فَنَصَائِبُهُ ٢

يذكر أعداءه القيسيين ويفأخرهم ويهجو خصمه جريراً ويتندّم على الصّبا ويتخلّص إلى مدح الوليد بفضلله وكرمه ونجابه أصل والدته وبُعْد همتّه وإكرامه كما يشيد بفتوحه وانتصاراته . أما القصيدة الخامسة فلا تعدو ثلاثين بيتاً امتدح الوليد وبني أمية في معظمها ، بعد ذكر الديار والأحبة ووصف الهاجرة . وقد استهلها بقوله :

أَتَعْرِفُ الدَّارَ أَمْ عَرْفَانَ مَنزِلَةَ لَمْ يَبْقَ غَيْرُ مَنَاخِ الْقِدْرِ وَالْحُمِّ ٣

١- م- ن ، ٢٠٢

٢- م- ن ، ٢١٦

٣- م- ن ، ٢٦٤

الباب السادس

الأخطل وجريير والفرزدق

سمع الأخطل عن تهاجي جريير والفرزدق في العراق ، قبل أن يتعرّف إليهما . وأحبّ أن يعرف أخبارهما ، فبعث ابنه مالكا ، حيث سمع منهما ، ثم رجع إليه ، فقال فيهما : وَجَدْتُ جَرِيرًا يَغْرِفُ مِنْ بَحْرِ وَوَجَدْتُ الْفَرَزْدَقَ يَنْتَحُ مِنْ صَخْرٍ . فقال الأخطل : الَّذِي يَنْتَحُ مِنْ صَخْرٍ أَشْعَرُهُمَا ١ . والواقع أن هذا الخبر قد ورد بحيث ان الذي حكم على شعريهما كان الأخطل وليس ابنه . وقد يكون الأخطل نقل قول ابنه ، حين سأله بشر بن مروان رأيه في زميليه . والمهم فيه أن الأخطل أقره ، ووافق عليه ، ومن ثم كان سببا في التهاجي بينه وبين جريير .

وهناك رواية ثانية تقول إن الأخطل كان البادية بالهجاء بناء على طلب محمد ابن عمير بن عطارذ ٢ . وهذا الخبر ينفي كون حكم الأخطل على شعري الفرزدق وجريير كان السبب المباشر في التهاجي الذي جرى بينه وبين جريير ، فيما بعد . ويقول صاحب هذه الرواية إن بداية الهجاء كانت أبيات للأخطل هي :

أَجْرِيرُ إِنَّكَ وَالَّذِي تَسْمُو لَهُ كَأَسِيفَةٍ فَخَرْتُ بِحَدَجِ حِصَانِ
عَمِلْتُ لِرَبَّتَيْهَا ، فَلَمَّا عَوْلَيْتُ نَسَلْتُ تُعَارِضُهَا مَعَ الرُّكْبَانِ
أَتَعُدُّ مَائِرَةَ لَغَيْرِكَ فَخَرُّهَا وَتَنَاوَاهَا فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ
تَاجُ الْمُلُوكِ وَفَخَرُّهُمْ فِي دَارِمِ أَيَّامِ يُرْبُوعٍ مَعَ الرِّعِيَانِ

١ - الأغاني ، ١١ : ٦١ . طبقات الشعراء ، ١٥٨ . البيان والتبيين ٢ : ٢٧٣

٢ - طبقات الشعراء ، ١٥٩

وبعدها استفحل الهجاء بينهما ، وذاع حتى ملأ الأسماع . ويظهر أن شعر جرير كان أسيرَ بين العرب من شعر الأخطل والفرزدق ، كما نرى في مثل قول الأخطل مخاطباً الفرزدق : والله إنك وإيائي لأشعر منه ، ولكنه أوتي من سير الشعر ما لم نُؤتَه ١ ، قلت أنا بيتاً ، ما أعلم أن أحداً قال أهجى منه .

قلت :

قَوْمٌ إِذَا اسْتَبِيحَ الْأَضْيَافُ كَلَبُهُمْ قَالُوا لِأَمِهِمْ بُولِي عَلَى النَّارِ

فلم يروه إلا حكماء الشعر . وقال هو :

والتَّغْلَبِي إِذَا تَنَحَّجَ لِلْقِرَى حَكَ اسْتَه وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَا

فلم تبقى سقاة ولا أمثالها إلا ردّوه ٢ . غير أن جريراً لم يعترف بتفوق الأخطل عليه بسوى قصيدته :

كَذَبْتُكَ عَيْنُكَ أُمُّ رَأَيْتَ بِسَوَاسِطِ غَلَسَ الظَّلَامِ مِنَ الرَّبَابِ خَيْالَا

فقال : ما غلبني الأخطل إلا في هذه القصيدة ٣ .

وكون جرير طرفاً في الصراع بينه وبين الأخطل من جهة ، وبينه وبين الفرزدق من جهة ثانية ، جعل هذين الأخيرين يتقاربان بعض الشيء ، فجرير عدوُّهما المشترك في الشعر ، ثم إن له لساناً بذيئاً لا يصمد له به أي شاعر آخر حتى إن بعض معاصريه حذروا الأخطل من التعرّض له ٤ .

١ - الموشح ، ١٤٠ - ١٤١

٢ - الأغاني ، ٨ : ٣١٧ - ٣١٨

٣ - شرح شواهد المعنى ، ٥٣ -

٤ - الأغاني ، ٨ : ٢٨٩

الباب السابع

التقد الذي ثار حوله

كان همُّ النقاد في الحكم على الأخطل أن يقرنوه بالفرزدق وجريير ، وقد شهد هؤلاء بكونهم في مرتبة واحدة ، رغم تفاوتهم في الجودة واختصاص كلٍّ منهم بموضوع معين ، أو باب اشتهر به دون سواه . ويظهر أن جريراً نفسه كان يُعنى بالتصنيف إذ حكم لنفسه بالقول إنه مدينة الشعر ، وعلى الفرزدق بأنه يروم منه ما لا ينال . أما ابن النصرانية (أي الأخطل) فهو أرمى الجميع للفرائس وأمدحهم للملوك وأقلهم اجترأ بالقليل وأوصفهم للخمر^١ .

ويظهر أن جريراً كان أكثر ما يضايقه هجاء الأخطل له ، وربما كان هذا سبباً في اتهامه بانتحال الشعر ، إذ قال حين سئل عنه : « إنه والله ما يهجونني الأخطل وحده ، وإنه ليهجوني معه خمسون شاعراً ، كلهم غزير ، ليس بدون الأخطل . وذلك أنه إذا أراد هجائي جمعهم على شراب ، فيقول هذا بيتاً وهذا بيتاً ، حتى يُتموا القصيدة ويتحلها الأخطل » . وقيل بل الذين اتهم الأخطل هذا الاتهام هو بشار بن برد الذي جعله دون جريير والفرزدق^٢ . ولا أدري سبباً لهذا الاتهام ، إذ إن ديوان الأخطل يكوّن وحدة مستمدّة من بيئة الأخطل وأفكاره ونزعاته التي دُرست على ضوء الأخبار التاريخية المروية ، ولم يأت أحد غير بشار أو جريير على مثل هذا الاتهام . وهناك آراء أخرى في شعر الأخطل ، وهي رغم كونها عامة تعطينا فكرة عن المنزلة التي وضعوه فيها . فابن سلام جعله مع الفرزدق وجريير في طبقة واحدة هي الأولى بين الإسلاميين . وقال إنه لم يقع لإجماع على تفضيل أحدهم^٣ غير أن هناك من فضل الأخطل لكثرة عدد الطوال الجياد ، دون سقط

١- شرح شواهد المعنى ، ٤٦ -

٢- الموشح ، ١٤٠ - ١٤١ و ١٣٨ - ١٣٩

٣- الأغاني ، ٨ : ٢٨٢

أو فحشا^١، كما أن هناك من فضله لكثافة شعره، فكان سكمة بن عياش يقول :
ومن مثل الأخطل وله في كل بيت شعر بيتان؟ ثم ينشد قوله :

ولقد علمت إذا العشارُ تـروّحتُ هـدجَ الرّثالِ تكبهُنَّ شـمـالـا
أنا نُعجّلُ بالعَبيطِ لضيّفينـا قَبيلِ العِمالِ ونضربُ الأبطالـا ٢

وجعله الفرزدق أمدح العرب ٣ كما قال عنه أبو عمرو : لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ، ما قدمت عليه أحداً ، وقال عنه حماد الراوية : ما تسألوني عن رجل قد حجب إلي النصرانية ٤ ، وقد شبهه أبو عبيدة بشعراء الجاهلية ، وجعله أشدهم أسراً وأقلهم سقطاً ٥ وشبهه بالنابغة لقرب مأخذهما وسهولتهما ٦ .

وللأخطل نفسه رأي في شعره ، فقد كان يقول : فضلت الشعراء في المديح والهجاء والنسيب بما لا يلحق بي فيه ، فأما النسيب فقولي :

ألا يا اسلمي يا هندُ هندَ بني بدرٍ وإن كان حيانا عدى آخرَ الدهرِ

وقولي في المديح :

نَفسي فـداءُ أميرِ المؤمنينَ إذا أبدى التّواجدَ يَومَ عارِمٍ ذكُرُ

وقولي في الهجاء :

١ - المصدر نفسه ، ٨ : ٣٨٣

٢ - الأغاني ، ٨ : ٢٨٤

٣ - الأغاني ، ٨ : ٢٨٤

٤ - م - ن ، ٨ : ٢٨٦

٥ - م - ن ، ٨ : ٢٨٩

٦ - م - ن ، ٨ : ٢٨٩

وكنْتُ إذا لقيتُ عبيدَ تَنسِمٍ وتيماً قلتُ أيُّهُمُ العبيدُ

وقيل على أثر قوله هذا : صدق ، لقد فضلهم جميعاً ١ .

وقد وضع نفسه في منزلة دون الأعشى وطرفة بن العبد ، حين قال مجيباً عبد الملك بن مروان عن سؤاله عن أشعر الناس : الذي كان إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع ، فقال الخليفة : من هو ؟ قال : الأعشى . وسأله : ثم من ؟ قال : ابن العشرين .

الفصل الثاني مدائحه

- الباب الأول : بواعثها وتطورها
الباب الثاني : مدائحه في يزيد
الباب الثالث : مدائحه في سائر الأمويين وولاتهم
الباب الرابع : مدائحه في عبد الملك بن مروان
الباب الخامس : مدائحه في بشر بن مروان
الباب السادس : مدائحه في خالد بن أسيد
الباب السابع : مدائحه في الوليد بن عبد الملك
الباب الثامن : المعاني المدحية العامة

الباب الاول

بواعثها وتطوراتها

للمدح في شعر الأخطل بواعثٌ مُتعدِّدة ، لعلَّ أهمَّها تواقعه مع الأحداث والأشخاص في سيرته ، فضلاً عن طمعه بقليل أو كثير من الخطوة والنَّعمة. وقد أفاد في ذلك من التقليد الشعري ومن واقع الحياة السياسيَّة في عصره . ففي مستهلِّ عهده بالشعر شهر بالهجاء، وربَّما تخصَّص به وأقذع فيه ، ثم استدعاها يزيد فجعل الهجاء والمدح يسيران ، جنباً إلى جنب ، في معظم قصائده ، ثم يتطعمان بشيءٍ من الفخر والعنجهيَّة . وهكذا فان الأحداث ساقته اليه في البدء ، ثم تفرَّغ له إذ نال به خيراً كثيراً لنفسه ولقومه . وربَّما طبع الأخطل ذاته بطبع المراغمة وعلى النزعة الملحميَّة ، فمكس ذلك كلِّه في مدائحها ، فابدع فيها لأنَّه كان يَسْكُب من ذاته . فلو أنه طبع على مثل رقة جرير ، لكان جلتى في الغزل ، ولو أخذ بمثل كبرياء الفرزدق الفارغة ، الحاوية لكان انفق جهده في مفاخر لا طائل انسانيّاً من دونها . إلا ان الأخطل كان يحمل رسالة وينهد إلى غاية يتنازع فيها مصيره ومصير بني قومه ، فكانت السياسة هدفه يتوسَّل لها الشعر ليقوم مقامَ السيف أو إلى جنبه . لهذا كان يُوقَّع المعاني وينتظمها ويحشدُها ليلج منها على روع الممدوح ، يُؤثر فيه ويبلغ غايته منه فالباعث الأهم لمدحه ، كانت النزعة الالتزامية القبليَّة ، تتضافر معها بواعث أخرى تقويها ولا تبلغ مداها .

ولقد تطوَّرت مدائح الأخطل وفقاً لممدوحيه في البدء ، ثم بالنسبة إلى نُضجِه الفنيِّ وامتلاكه لخاصية اللَّغة والعبارة والمعنى وتمرُّسه بابداع المعاني الجزلة الحاشدة . وسوف نلمُّ بذلك من خلال مدائحها في ممدوحيه .

الباب الثاني

مدائحہ فی یزید

امتدح الأخطل یزید فی قصائد ومقطوعات متعدّدة ، كما قدّمنا ، ولعلّ أولها الثنویّة جیث یُخاطبه ويعرض له مخاوفه والدّواهي التي تحلُّ بد من جرّاء لسانه أي من جرّاء أهاجیه . وهو یشير بذلك إلى ما كان من أمره مع الأنصار وتهديدهم له ومجاراة معاوية لهم في ذلك . ولقد عرّج خلالها على وصف القطا وسباق الخيل ، فضلاً عن الموضوعات التقليديّة الدائمة التي لا يزال یلمُّ بها في معظم مدائحہ من وصف للمطيّة وتشبيه لها بالحمار الوحشيّ الذي یزُجّی أنّه إلى الماء .

استهل الأخطل هذه القصيدة بذكر الطلل ودتّف الحبّ وتیّمه بصاحبته سعاد التي قد یَشْفیه ريقها من أيّ داء مُمیت یلمُّ به ، ثمّ یذكر برّة ، وهي إحدى التغلیبات الجميلات التي نزل عليها عند زوجها القميء القبيح ، وقد وقّعت من نفسه موقع الفتنة ، فيهجو زوجها الذي یواقعه ، فیلقی بطنه المُننّ الكریه على بطنها الطري ، الدائم الحفّان . ثمّ یذكر استحالة لقاءها عليه ، إذ یحول الحرّاس بينه وبينها ، ويميل إلى ذكر نساء أخريات لا يزال حبّهن یبعث فيه الضنّی . ويتزع من ثمة إلى وصف ما لقیه من غراب وذئب اعترضوا له في الدویة القاحلة ، حيث جعل یطعمهما من زاده ، فیتنافسان عليه . ثمّ یقول إنّه امتطی مطیته للرحیل عنهما ، مستطرداً إلى وصف النّاقة وذنبها والعرق المتصّبب من وراء أذنیها ويشبّهها بالحمار الوحشيّ الذي كان یرتعی وأتّنه ، حتّى إذا أزعجه القيظ الشدید عن مقامه ، أزجّی أنّه إلى الماء ، وجعل یزجرها ویسوقها أمامه ، مثيراً التّراب بأقدامها ، یطعنها بقرنیه ، فیما ترتدُّ هوادیها إليه لتطعنّه فی عنقه .

ويتقطع من ثمة إلى مخاطبة یزید ، شاكياً إليه ما یلغی من اضطهاد من جرّاء أهاجیه ، عازماً على التواري ، كي لا یزجّ به فی السجن ، مُتعدّراً بشدة القائظة التي تحول بينه وبين الوفود على الأمير . وبعد أن یصف القطا وتعذّر الماء عليها

وفراخها ، يصف سباقاً أجراه يزيد بين الخَيْلِ ، فجاءت فرسه الدهماء
مجلية فيه ، متعَرِّضاً خلاله لجزئيات المشهد ، ممثلاً لسرعة الفرس من خلال
أعاصير الريح التي تعصف بثياب الفارس الذي يمتطيها :

ألا يا اسلما على التَّقَادِمِ والبلى بِدَوْمَةٍ خَبْتِ ، أيها الطَّلَانِ ١
فَلَوْ كُنْتُ مُخْصُوباً بِدَوْمَةٍ ، مُدْنَفاً أُسْقَى بِرَيْقٍ مِنْ سُعَادَ شَفَانِي ٢
وَكَيفَ يُدَاوِنِي الطَّيِّبُ مِنَ الْجَوَى وَبِرَّةٌ عِنْدَ الْأَعْوَرِ بْنِ بِيَانٍ ٣
أَتَجْعَلُ بَطْناً مُنْتِنَ الرِّيحِ ، مَقْفِراً عَلَى بَطْنِ خَوْدٍ دَائِمِ الْخَفْقَانِ ٤
ثم يذكر الغراب والذئب بقوله :

١ - دَوْمَةٌ خَبْتِ : اسم موضع .

م : يخاطب طلعتي حبيبتي في موضع خَبْتِ ويحييهما ويتمنى لهما النجاة من الزوال والاناتار .

٢ - الْمُخْصُوبُ : من أصيب بداء الحصبة . المدنف : من أنقله المرض .

م : يقول إنه لو كان مصاباً بالداء ، ومشرفاً على الهلاك ، فإنه يستعيد عافيته ، إذا ما نهَلَ
وعلَّ من ريق صاحبه سعاد .

٣ - الْجَوَى : السَّقَمُ .

م : يشير في هذا البيت إلى ما كان من أمره مع الأعور بن بيان التغلبي الذي تزوج امرأة جميلة
تدعى برّة ، وهي ابنة هاني التغلبي . وقيل إن الأعور بن بيان هذا دعا الأخطل إلى بيته
الذي نُجِدَ بالفُرُشِ الثَّمِينَةِ والوطاء العجيب ، وكان هذا في غاية القُبْحِ . فسأل الأخطل :
هل ترى عيباً في بيتي ؟ فأجاب : ما أرى عيباً في بيتك غيرك . فقال : إنني أعجب من
نفسى ، إذا كنت أدخل مثلك بيتي . اخرج عليك لعنةُ الله .

٤ - الخود : الشَّابِه .

م : يخاطبه مُسْتَنْكراً ، ويقول : أيصحُّ أن تضع بطنك ذا الرِّيحِ الكريهة على بطنها الفتي ؟

خَلِيلِي لَيْسَ الرَّأْيُ أَنْ تَذَرَانِي بَدْوِيَّةٌ يَغْوِي بِهَا الصَّدْيَانُ^١
وَأَرْقِنِي مِنْ بَعْدِ مَا نِمْتُ نَوْمَةً وَعَضْبُ جَلَّتْ عَنْهُ السُّيُوفُ، يَمَانِي^٢
تَصَاحِبُ ضَيْفِي قَفْرَةَ يَعْرِفَانِهَا غُرَابٍ وَذَنْبٍ دَائِمِ الْعَسْلَانِ^٣
وَيُعَرِّجُ عَلَى الْمَطِيَّةِ وَالسَّتْرِ :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْأَرْضَ فِيهَا تَضَائِقُ رَكِبْتُ عَلَى هَوْلٍ لِغَيْرِ أَوَانٍ
جَمَالِيَّةً ، غَوْلَ النَّجَاءِ ، كَانَهَا بِنِيَّةٍ عَقْرِ أَوْ قَرِيْعٍ هِجَانِ

والموضوعات التي عرض لها ، حتى الآن ، هي موضوعات تقليدية ألح فيها إلى ذكر الطلل وأغرق في موضوع الحبيبة ، مظهراً شغفاً خاصاً بالجمال ، متحسراً على مصيره وعلى هوانه وتبدُّله فيمن ليس هو حقيقاً به . وقد كان تعريجه إلى ذكر الدووية وما كان بينه وبين الغراب والثعلب استجابة لنوازع وجدانية لما تنزل من نفسه ، إذ كان يؤثر البادية ويحنُّ إليها ، وهو إذ يذكرها ويصف طيرها وحيوانها ، إنَّما كان يستحضر مشاهد مفعمة بالحنين المكتوم . ففي مطلع عهده بالمدح ، لمْ تَكُنْ المعاني المدحِيَّة قد اكتنرت لديه ، بل إنه كان لا يزال يهوم في أجواء نائية عز لحاضرة الأموية . فليس من الصدفة أو التقليد أن يلمَّ بالبادية

١ - الدَوِيَّة : الفلاة الخالية التي تدوي فيها الأصداء . الصَّدْيَان : صدى الهام واليوم .

م : يخاطب صاحبيته ، ويقول : إنَّه ليس من الحكمة أن تخلقني وحيداً في الفلاة المقفرة التي تدوي فيها أصداء الهامات واليوم .

٢ - العَضْبُ : السيف القاطع . والتأويل هنا : معي سيف . العَسْلَان : عدو الذئب .

م : يقول إنَّه لم يكذبني ، والسيف اليماني الصقيل إلى جنبه ، حتى أرقه غراب وذئب ، ألفا القفر وأقاما فيه .

٣ - يقول إنَّهما إذا دتوا إلى زادي ، كنت أودتي لهما منه ، وإذا ما ابتعدا ، لم أرغب في إدناهما إلي ، أي أنَّه كان يقف منهما موقف اللامبالاة ، يبادرهما بمثل ما يبادرانه به .

والغُراب والذئب ، بل ان تلك الموضوعات هي التي المَّت به لأنها رجع وصدى
للحنين القائم الأصم . وإذا كان ذكرُ المطايا والجمأ في تقليد القصيدة المدحية ،
وإذا كان تشبيها بالحمار الوحشي جارياً في سنتها ومنها ، فان ذكر القطا لم يلج
في ذلك ، وقد اختص به الأخطل في نوع من التجربة الكلية ، النامية التي تستقطب
معالم الصحراء ، وتفرح باستعادة أجوائها من خلال ما يدبُّ فيها ويطير عبرها :

لِيَالِي لَا يُجْذِي الْقَطَا لِفِرَاحِهِ بذي أَبْهَرٍ مَاءً ، وَلَا بِجَفَا إِنْ ١
يُقَلِّصُ عَنْ زُغْبٍ صِغَارٍ كَأَنَّهَا ، إِذَا دَرَجَتْ تَحْتَ الظَّلَالِ ، أَفَانِي ٢
كَأَنَّ بَقَايَا الْمُحِّ مِنْ حَيْثُ دَرَجَتْ مَفْرَكٌ حَصٌّ فِي مَبِيتِ قِيَانِ ٣
إِلَى كُلِّ قَيْضٍ مِنْ ضَيْئِيلٍ ، كَأَنَّمَا تَفَلَّتْ فِي أَفْحُوصِهِ صَدْفَانِ ٤

- ١ - يُجْذِي : يحمل . القطا : طائر شهر بشدة الاهتداء . ذي أبهر ماء : موضعان .
م : هذا البيت يبدو منقطع الصلة بما تقدمه ، إلا أنه يتمثل فيه على شدة الهاجرة والمشقة ،
ويقول إنَّ الماء قد جفَّ ونضب في ذينك الموضعين ، بحيث أن القطا ، وهي أشد الطيور
اهتداء ، تفضل عنه وتكاد لا تعثر منه على شيء لزواله وتعفّي أثره .
٢ - يُقَلِّصُ : أي يقصر ويتباعد . الأفاني : جمع فنية وهي بقلة تكون على وجه الأرض
طولها شبر .
م : يقول إن تلك القطا كانت تقصر عن جلب الماء لفرآخها ، فتبتعد عنها طلباً له وتخلّفها
وحيدة تدرج على الأرض ، فتبدو فيها لقصرها وهزالها كالأفاني .
٣ - المُحِّ : صفار البيض . الحُصِّ : الورس الأصفر .
م : يشبه المُحِّ الأصفر اللاصق على قشر البيض الذي تفرّخت منه ، بالورس المفرك المنتشر
في بيت القيان .
٤ - القَيْضُ : البيض . الضَيْئِيلُ : التحيف . الأفحوص : موضع بيض القطا .
م : يشبه خروج الفراخ من بيضها في أفحوصها بمثل انشقاقها من قلب الصدف .

هذه الأبياتُ تعرض في سياق القصيدة كأداة لتمثيل عظم الهجرة في سياق حسّي لا يزال يتعاضم في شعر الأخطل، يوغل فيه ويستقطبه ويؤدّيه في أقصى غايته بنوع من الكناية المتمادية ، الممتدّة في المادّة ومظاهرها . فالأموي كالجاهلي لم يكن قادراً على النفاذ المباشر إلى روح المعنى في رمز قاطب يرمز إليه ، فاستعاض عن ذلك بالتمادي في دراسة الواقع الحسّي واستحضاره في إطار من الغلوّ النفسيّ الإيحائي . فأنت لو نظرت في هذا الأبيات لما وَقَعْتَ على ما يُمَثِّلُهَا في القدرة على الإبحاء بالبحفاف في إطاره الحسّي الواقعي .

ومع ذلك فإن ذكر القطا ، إذا أضيف إليه ذكر الصحراء والمطيّة والحمار الوحشي ، يُطلعننا على أن عالم الأخطل عندما ألمّ بيزيد لم يكن عالم أفكار بقدر ما كان عالم أوصاف ومشاهد . وهذه القصيدة التي تقع في أربعين بيتاً تناولت موضوعات مُتعدّدة ، تجتمع في لوحة الصّحراء والبادية ولم يَخْطُر فيها بالمدح ويخصّه إلا في أبياتٍ ثلاثة إذ قال :

فلولا يزيدُ ابن الإمام أصابني قوَارِعُ يَجْنِيهَا عَلَيَّ لِسَانِي^١
 وَلَمْ يَأْتَنِي فِي الصَّحْفِ إِلَّا نَذِيرُكُمْ وَلَوْ شِئْتُمْ أَرْسَلْتُمْ بِأَمَانِ^٢
 فَأَقْسَمْتُ لَا آيَ نَصِيْبِيْنَ ، طَانِعاً وَلَا السَّجْنَ حَتَّى يَمْضِيَ الْحَرَمَانِ^٣

١ - القوَارِع : جمع القارعة ، وهي الدّاهية .
 م : يمدح يزيد ويقول إنّه لولا حمايته له ، لكان جرّ عليه لسانه ، أي شعره ، دواهي لا طاقة له بدفعها .

٢ - يقول إنّه لم يبلغه من رسائله ، إلاّ التهديد والنّدُر ، فيما كان يأمل أن يُنفذ إليه بها الأمان والعهد .

٣ - آليت : أقسمت . نصيبين : بلدة في الشّام .
 م : يقول إنّه أقسم ألا يعود إلى نصيبين ، ليسجنّ فيها بما اقترفته ، إلا بعد أن يمضي الحرمان . والشاعر يشير هنا إلى ما كان من أمره مع الأنصار والتهديد بسجنه وقطع لسانه .

وليس في هذه الأبيات مدح حاشد ، ظاهر ، وإنما هو ضربٌ من الاعتراف بالفضل مع قليل أو كثير من التّأنيب أو العتاب وذكر الخوف والعقاب والسّجن . فالأخطل لم يتمرّس هنا بالفنّ الصّعب في المدح ، وإنما هي قصيدة أقلّها في المدح ، وإن انتسبت إليه ومعظمها في الوصف الذي انتمت إليه بالباعث الذّاتيّ الوجْدانيّ . ولشدة شغف الشّاعر بالخيل والسّباق وما إلى ذلك لإذيسهب في وصف سباق أجراه يزيد ، مسجلا دقائقه وجزئياته :

أتاني وأهلي بالأزاعِبِ أنَّهُ تنابع من آل الصّريحِ ثمانِي^١
 جُمِعنَ ، فَخَصَّ اللهُ بالسَّبِقِ أهله على حينه ، من مخفِلٍ ورهانِ^٢
 فلما علون الأرضِ شَرِيَّ مَعْتِقِي ضَرَحَنَ الحصى الحمصِيَّ كلِّ مكانِ^٣
 ولَمَّا ذَرَعَنَ الأرضِ تَسعينَ غَلْوَةً تَمَطَّرَتِ الدَّهْمَاءُ بالصَّلْتانِ^٤
 كأنهما لما استَحَمَا ، وأشرفَا سَلِيبانِ مِن ثوبَيْهِمَا صَرِدانِ^٥

١ - ٢ - يقول : لقد بلغني وأنا في موضع الأزاعب أنه جرى سباق بين خيل أصيلة من أبناء الصريح وإن خيلك قد فازت على مرأى من الناس .

٣ - معْتق : اسم موضع . ضَرَحَنَ الحصى : أي رمينه وألقينته .

م : يصف عدو تلك الخيل ، ويقول إنها لم تكد تعلق الأرض في موضع معتق ، حتى جعلت تقذف الحصى وتذريها إلى كلّ جهة . وهو يمثل بذلك شدة عدوها ، بحيث أن الحصى جعل يطاير من دونها .

٤ - الغلوة : رمية سهم . التَمَطَّر : السبق . الصلّتان : التشيط ، الحديد الفؤاد من الخيل ، وهنا اسم فرس . الدّهماء : اسم فرس .

م : يقول إن تلك الخيل لم تكد تعدو تسعين غلوة . حتى تَخَطَّت الدهماء الصلّتان الذي كان ينافسها .

٥ - استَحَمًا : أي نضح عرقهما فجللتهما . صَرِدان : أصابهما البرد .

م : يصف العرق الذي نضح من الفرسين ، أثناء عدوهما ، ويقول إنهما بديا كأنهما استحما به ، وظلا عاريين ، يصيبهما البرد الشديد . ومؤدى المعنى أنه يقرن بينهما وبين المستحَم العاري من الناس الذي أصابه البرد .

كَأَنَّ ثِيَابَ الْبَرْبَرِيِّ تُطَيِّرُهَا أَعَاصِيرُ رِيحٍ زَفْرَفٍ زَفْيَانٍ^١
وَلَمَّا نَأَى الْغَايَاتُ جَدًّا كِلَاهُمَا فَلَا وِرْدَ ، إِلَّا دُونَ مَا يَرِدَانِ^٢

٢ - الراهية :

ولقد نظم الشاعر ، أيضاً ، رائيّة في مدح يزيد بن معاوية ، عندما منعه وحماه من الأنصار ، بعد أن أباح لهم والده قطع لسانه . ولقد خصّ مطلعها بذكر الديار والأحبّة والظّلعان والحنين ، ثمّ عرض للفلاة التي اجتازها على ناقه ضخمّة ، صلبة كبرج الروميّ . ثمّ يشبّهها بالثور الوحشيّ المتخضّب بالنبات والذي ينهمر عليه المطر ، فيلوذ بكنف الأُرطاة ، ساهداً مضطرباً ، حتى إذا طالعه الصّباح فأجأته كلاب الصّيد . وبعد أن يذكر توقّعه معها وارتداده عليها وطعنه لها بقرنه ونجاته منها ، وعودته إلى اللّهُو والعدو في الفلاة ، ينتقل إلى الحسرة ، فيصف النّديم والبكور والكرّمة التي اعتصرت من عنبها ودنّها وقومها وبكارتها وصاحبها ومساومته في شرائها وطبخها .

ويشرع بعد هذه المقدّمة بمدح يزيد ، مستهلاًّ بقسّم يتداوله في نحو أربعة أبيات ليؤكّد حماية القرشيين له وانقاذه من الهلاك ، فيما تخاذل عنه مناصروه ثمّ يمتدحهم بهداية النّاس وبسالتهم في الحرب وانقطاعهم عن نساّهم لها . وقد استهلّها بقوله :

١ - البربري : راكب الفرس . الأعاصير : الرّياح الشّديدة . الزّفرف : الباردة . الزّفيان :
الريح التي تطرد السّحاب بسرعة .

م : بصور سرعة عدو الفرس من خلال ثياب راكبها ، ويقول إن الريح الشّديدة ، العاصفة الشّبيهة بالأعاصير كانت تضرب بها . ولقد ألّب الشاعر للريح مختلف وسائل الغلوّ ، إذ لم يكتف بجعلها إعصاراً أي ريحاً عاتية ، بل إنّه أدّاها بصيغة الجمع ثمّ نعتها بنعتين شديدي الدّلالة على قوّة عصفها ، وهو إنّما ذلك كلّه ليعظم من سرعة الفرس وليعظم من خلالها يزيد .

٢ - يقول إن الفرسين كانا يعدوان دون غابتهما البعيدة ، لا طاقة لأيّ عاديّ أن يعدو عدوّهما .

تَغَيَّرَ الرَّسْمُ مِنْ سَلْمِي بِأَحْفَارٍ وَأَقْفَرْتُ مِنْ سُلَيْمِي دِمْنَةُ الدَّارِ ١

ثم يعرض لوصف الفلاة والناقة :

وَمَهْمِهِ طَامِسٍ تُخْشَى غَوَائِلُهُ قَطَعْتُهُ بِكَلْوِ الْعَيْنِ مِسْهَارٍ ٢

ويشبهها بالثور الوحشي :

أَوْ مُقْفِرٍ، خَاضِبِ الْأَظْلَافِ، جَادَ لَهُ غَيْثٌ تَظَاهَرَ فِي مِثْأَاءٍ ، مِبْكَارٍ ٣

ويشير إلى الصيد :

أَنْسَنَ صَوْتَ قَنْيِصٍ إِذْ أَحَسَّ بِهِمْ كَالجِنِّ يَهْفُونَ مِنْ جَرْمٍ وَأَنْمَارٍ ٤

ويصف الحمرة :

١ - أحفار : موضع . الدمنة : الرماد والسواد .

م : يقول إن التغيير والبلى ألما بالديار التي كانت تقطنها سلمى في موضع أحفار وإن مرابها أقفرت منها .

٢ - طاميس : مقفِر . غوائله : مهالكه . كلوء العين : أي أن عينها متنبهة لما تريد .

م : يشرع في هذا البيت بوصف الفلاة المقفرة التي اجتازها على ناقة متنبهة يقظة .

٣ - ميثاء : أرض سهلة . مبكار : أرض باكرها المطر .

م : يشرع في هذا البيت بتشبيه ناقته بالثور الذي دأب على ملازمة الفجر والذي ، تخصصت أظلافه من كثرة وطئه للنبات الرخيص في أرض سهلة ، باكرها سقوط المطر .

٤ - يقول إن الثور أحسَّ بقدوم الصيادين ، فدُعر ، فأنست به الكلاب وتنصت له ، ثم يصف الصيادين ، ويقول إنهم يهرعون كالجن يترصّدونه وإنهم من قبيلتي جرم وإنمار الشهيرتين باحتراف القنص .

وشارِبٍ مُرْبِحٍ بِالكَأْسِ نَادِمِي لَا بِالْحَصُورِ وَلَا فِيهَا بَسْوَارٍ^١

وقد تناول هذه الموضوعات التمهيدية فيما ينيف على أربعين بيتاً ، خصّ الحبيبة منها بستّة أبيات : (١ - ٦) والفلاة والناقة والثور بعشرة (٧ - ١٧) ومثلها الصّيد : (١٧ - ٢٧) ثمّ استطرّد في وصف الحمرة (٢٧ - ٤٢) وعرّج أخيراً على المدح بقوله :

إِنِّي حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ ، وَمَا أَضْحَى بِمَكَّةَ مِنْ حُجْبٍ وَأَسْتَارٍ^٢
وَبِالْهَدْيِ ، إِذَا أَحْمَرَّتْ مَذَارِعُهَا فِي يَوْمِ نُسْكٍَ وَتَشْرِيقِ وَتَنْحَارٍ^٣
وَمَا يَزْمَزَمُ مِنْ شُمْطٍ مُحَلَّقَةٍ وَمَا يَبِثْرِبَ مِنْ عُونٍ وَأَبْكَارٍ^٤
لَأَلْجَأْتَنِي قُرَيْشٌ خَائِفًا وَجِلًّا وَمَوْلَتَنِي قُرَيْشٌ ، بَعْدَ إِقْتَارِهِ^٥

١ - المُربِح : الذي يُنْفِقُ كثيراً في سبيل الحمرة ، فيُرْبِحُ صاحبها . الحَصُور : البخيل . السوار : السيء الخلق ، الذي يَحْرُجُ عن طوره .

م : يشرع في هذا البيت بوصف الحمرة ويستهل بذكر النديم الذي صحبه على الشراب ويقول إنه متلاف ، لا يحس ماله ، كما أن الحمرة لا تذهب بحمله وأدبه ، فيسفه ويفحش .

٢ - الراقصات : الإبل الساعية إلى مكة .

م : يُقَسِّمُ بالإبل الساعية إلى مكة وما على الكعبة من حُجْبٍ وَأَسْتَارٍ . وغالباً ما يعمد الأخطل إلى مثل هذا القسّم قبيل المدح .

٣ - الهدى : ما أهدي إلى الكعبة من الإبل . مَذَارِعُ : قوائم . تَشْرِيقِ : تقطيع اللحم .

م : يقسم بالأصاحي التي تُنَحَّرُ في مكة ويسيل دمه على قوائمها .

٤ - الشمط : جمع أشمط : الذي اختلط شعره بين بياض وسواد . العون : جمع عوان : المرأة الثيب . زَمَزَمَ : بثر في مكة .

م : يقسم بما في مكة من حجاج شمط ومن حاجات ثيبات وعذارى .

٥ - م : يقول ، إثر ذلك القسم التماذي ، إن قريشاً ألبأته عندما كان خائفاً على نفسه من الهلاك ، إثر اضطهاد الأنصار له ، وإنها أغدقت عليه ، بعد كان قليل المال ، معوزاً .

الْمُنْعَمُونَ بِنُو جَرْبٍ وَقَدْ حَدَقْتُ بِي الْمَنِيَّةُ ، وَاسْتَبَطْتُ أَنْصَارِي^١
 بِهِمْ تَكْشَفُ عَنْ أَحْيَانِهَا ظُلْمٌ حَتَّى تَرْفَعَ عَنْ سَمْعٍ وَأَبْصَارِ
 قَوْمٍ إِذَا جَارُبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُمْ دُونَ النِّسَاءِ ، وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارِ^٢

وهذه الأبيات التي وردت من قبل في ذيل القصيدة والتي لا تعدو سبعة أي
 سدس أبيات المقدمات تؤكد على ان الأخطل ربما لم يكن قد استكمل ، بعد ، عدة
 المدح ، فتلتهى عنه بالأوصاف ، حتى إذا باشره خصاً أبياتاً ثلاثة بالقسم ولم
 يشر إلى الممدوح خاصة ، بل إلى بني قومه وكرمهم وعفوهم وحمايتهم وشجاعتهم
 وعفتهم . وإذا نظرتنا في طبيعة هذا المدح لوجدنا أنه ألحف فيه بالقسم على غرار
 الأعشى والنابغة ، مفرقاً في إيراد الألفاظ الدنيئة كمكة والحجب والاسرار
 والهدي والنسك وزمزم ، متمادياً في أبيات ثلاثة ليغالي بالتأكيد فيما ذهب إليه
 من أمر حمايتهم . وهذا الأسلوب قد ينطوي على اجواء إيحائية في الألفاظ الدنيئة ،
 لكنه ساقط في مبدأ الشعر وغايته ، إذ بدا المعنى قاصراً عن ادراك غايته ، فاستعان
 عليه بالقسم الخارجي الذي يتهل وهلة القارئ أو السامع ويروعه دون ان يمثل له
 المعنى أو يكشفه أو يعمقه . فالمعنى ورد خلال قوله :

لَأَلْجَأُنِي قُرَيْشٌ خَائِفًا ، وَجِلًّا وَمَوْلَتِي قُرَيْشٌ ، بَعْدَ اقْتَارِ^٣

١ - حَدَقْتُ : أَحَاطْتُ . بِنُو حَرْبٍ : الْأُمَوِيُّونَ .

م : يَقُولُ إِنَّهُمْ أَنْعَمُوا عَلَيْهِ وَأَمَّنُوهُ ، عِنْدَمَا أَحَاطَتْ بِهِ الْمَنِيَّةُ وَتَخَاضَلَتْ عَنْهُ مَنَاصِرُهُ ، وَخَلَفُوهُ وَحِيدًا .

٢ - يَقُولُ لِنَهْمٍ إِذَا يَقْبَلُونَ عَلَى الْحَرْبِ لَا يَشْغَلُهُمْ عَنْهَا شَاغِلٌ ، بَلْ يَهْجُرُونَ نِسَاءَهُمْ وَلَوْ كُنَّ فِي حَالَةٍ مِنَ الطَّاهِرِ .

٣ - الْاِقْتَارُ : الْفَقْرُ وَالْقِلَّةُ : يَقْسِمُ بِأَنَّ الْقُرَيْشِيِّينَ أَمَّنُوهُ وَأَغَاثُوهُ بِالْمَالِ .

وربما كان من الأحرى أن يَصْرَفَ جهد الأبيات الثلاثة في القسم إلى هذا المعنى ذاته ، فيُعَلِّله ويمثِّله ويتكَنَّى عليه لينفذ في احشائه ويلج إلى ضميره . وقد اقتصر من ذلك كلّه على ذكره بشكل تقريريّ ، استمدد بعض الغلوّ من القسم المتماذي الذي مهّد له . ومهما يكن ، فإن للمدح سنّة سنّت له عبر الزّمن ، ولم تعد تستقيم قصيدته إلاّ بها . وربما كان هذا القسَمَ ظاهرةً من ظواهرها ، دون أن يكفي الشّاعر عن التوسُّل بوسائله الخاصة للغلوّ . فهو وإن قرّر المعنى ، فقد قيّده وأدرك منه أقصى مناله وغايته في حدود لفظيّة ومعنويّة . فقريش لم تلجئه إلاّ وهو خائف ، ولم تغدق عليه ، إلا فيما كان مُملقاً ولم تدافع عنه إلا بعد أن تخاذل أتباعه . فالطباق اللفظي القائم بين ألفاظ : « ألبأني وخائف ووجل ومولّني واقترار ، والمنعمون واستبطاء الأنصار » ان ذلك الطباق وقّع المعنى توقيحاً نفسياً إذ مثل بني حرب وقد أنقذوه من هلاك مُحْتَم .

وتراه ينوّه ، كذلك ، بالصفة الدينيّة لقوم المدوح إذ يدعهم يكشفون ظلام الضلالة وينشرون نور الهدى ، مشيراً من خلال ذلك إلى أحقيتهم بالخلافة ، وهو أمر كانوا يحرصون عليه غاية الحرص .

ومع أن هذه القصيدة قيلت في يزيد ، فإن صورته تبدو مُموّهة ، عبّرها ، وغائبة عنها إذ طغّت عليها صورةُ بني قومه . ولعلّ ذلك يسوقنا إلى الاعتقاد بأن الأخطل كان يُعجب بيزيد في مصاحبته له على اللّهُو والخمّر ، دون أن تكون له من المآثر الدّائيّة ، الخاصّة به ما يجعل له مُسوِّغاً لامتداحه بمدائح العظمة والفخار ، كما سيكون شأنه مع عبد الملك . لقد كان يزيد في تلك المرحلة تبع هو ومجون ، فلم يدخل إلى روع الشاعر دخول البطولة ، فاقصر في مدحه على اظهار براعته في النّظم والوصف ومعارضة الشعراء ، عاكساً مدحه له بمدحه لبني قومه . وفي الدّالية السّابقة إذ اعيتته حيل النّظم امتدحه بجذيله في السّباق ، وهو أمر لا يروق المدح فيه ، إذ أثرت عن المدح سنّة الغلوّ بوصف الخيل في ساح القتال ، من دون حلبة السّباق .

ولالأخطل في يزيد داليةً أخرى ويستهلّها بوصف ظعائن حبيته المزيّنة بالجلود ،
ثمّ يعرض للمطيّة ذاكرًا السبيل الذي اجتازته وما كان من أمره معهن بين صدّة
ووصال يكاد لا يبرأ من داء العشق ، حتى تعود إليه نوازع الهوى .

ويباشر المدح بالإشارة إلى تهديد معاوية له لهجائه الأنصار ، ويقول إن اعتصامه
بيزيد أنقذه من بئر الهلاك التي أوْشك أن يتردى في قعرها ، ومن داهية كادت
تَنشُرُ لحمه أشلاء . وبعد أن يُنوّه بما كان من أمره مع النّعمان بن بشير ، يمدح
يزيد بالوفاء ووثوق العهد والكرم والشّجاعة في القتال ، ويُنوّه بمآثر أبيه معاوية
ونجاحه في دفع الفتنة . ويتمنّى له أن تصير الخلافة إليه ، إثر والده ، فهو أحقّ
النّاس بها ، لشدة تمرّسه بالحرب . ثمّ يصف فيضان الفُرات في نحو خمسة أبيات ،
ليقرن به كرم يزيد ، مؤثراً إتياء عليه ، وينهي القصيدة بمعاودة يزيد على الوفاء
له ، لما يُغدقه عليه من عطايا لا منّة فيها .

وقد استلّها بقوله :

صَحَا الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ ظَعَائِنَ فَاتِنِي بِهِنَّ أَمِيرٌ مُسْتَبِدٌّ فَاصْعَدَا

ثمّ ذكر صواحيبه :

وَمَا عَلِقَتْ نَفْسِي بِأَمِّ مُحَلِّمٍ وَدَهْمَاءَ ، إِلَّا أَنْ أَمُوتَ وَأُحْمَدَا

ويتخلّص إلى المدح إذ يقول :

وَإِنِّي غَدَاةً اسْتَعْبَرْتُ أُمَّ مَالِكٍ لِرَاضٍ مِنَ السُّلْطَانِ أَنْ يَتَهَدَّدَا

١ - فاتني : سبقني وذهب به عني . اصعد : مضى وسار .
م : يقول إن قلبه صحا من شوقه ووجدته ، إلا أن الظعائن الرّاحلة أثارته في نفسه من جديد ،
وقد ارتحل عليها من استبد بأمره وأمعن في رحيله ونزوحه .

ثم يمضي في تعداد أيادي يزيد عليه ويمثل عظم ما أنقذه منه حيناً بناقة أو مَطيّة
 بادية العظام ، هزيلة ، تؤدي به إلى الهلاك وحيناً يبتر مُظلمة أو بدهاية لا يقوم
 لها فيل ولا يصمد عليها :

وَلَوْلَا يَزِيدُ ابْنُ الْمَلُوكِ وَسَيْبُهُ تَجَلَّتْ حِدْبَاراً مِنَ الشَّرِّ أَنْكَدَا
 وَكَمْ أَنْقَذْتَنِي مِنْ جُرُورِ حِبَالِكُمْ وَخِرْسَاءَ لَوْ يُرْمَى بِهَا الْفَيْلُ بِلَدَا^٢

وبيّن ان الشاعر يمتطي ، هنا ، ما يُمائل أسلوب النَّابغة في تعظيم خوفه
 وهول مصابه ، ليعظم من خلاله الممدوح . فوصفه للحدبار الذي كان سيقع عليه
 والبتر وما إلى ذلك إنّما هو وسيلة غير مباشرة لامتداح يزيد بوفائه وهيبته ، متقرباً
 إليه ، لاثذأ به . ولقد سمّت فنّيته في ذلك إذ حرص على ان يُجسّد المعنى من
 خلال صورته بنوع الاستعارة المباشرة ، تدعنا نفهمه بقدر ما نراه ، بالرغم من أنه
 لا يُرى . أما ذكره للفيل ، في هذا المقام ، فقد كان نوعاً من التعبير بالافتراض
 والايحاء ، إذ لا يزال الفيلُ مثلاً للقوّة وشدّة الاحتمال . ولنتأمل كيف أنه توسّل
 الحبال للبتر ؛ موحياً بذلك إلى أنّه انتشله انتشالاً ممّا كان واقعاً فيه .

وفي أبيات لاحقة يميل عن التلميح إلى التصريح ، فيقول :

١ - الحِدْبَار : النّاقة التي بدت حراقفها من الهزال . أنكد : عسير وشديد .

م : يشير في هذا البيت إلى ما كان من أمر حماية يزيد له ، فيما همّ معاوية بمعاقبته وأباح لسانه ،
 ويقول إنّه لو لم يدافع يزيد عنه ويرفده بعطاياه ، لكان ركب من هجائه للأنصار مرّكباً
 عسيراً وعراً .

٢ - الجُرُور : البتر البعيدة القعر . الخرساء : الداهية . بلد : لصق بالأرض ممّا دهاه .

م : يمتدحه بفضله وأياديه عليه ، ويقول مخاطباً إياه إن وثوقي بأسبابك وحبالك وتقربي منك
 أنقذاني من بتر الهلاك التي كدت أتردى في قعرها ومن داهية لو أصابت فيلاً عظيم الهامة ،
 لأودت به وخلفتها صريعاً على الأرض .

ودافع عني يوم جئتُ غمرةً وهماً يُنسي السلاف المهوداً ١
 وبات نجياً في دمشق لحيةٍ إذا عَضَّ لَمْ ينمِ السليمُ وأفصداً ٢
 يُخفُّهُ طوراً وطوراً إذا رأى من الوجه إقبالاً ألعَّ وأجهداً ٣

ولقد أشار إلى ما كان من أمره مع معاوية ، إذ أباح دمه ، فاعتراه من ذلك همٌّ لا تنجح فيه الحمرة التي لا تزال تُسكره ، ذاك أنه همٌّ من دونه الهول أو الموت ، أي أفعى قاتلة . وفي عجالة هذه الأبيات حشد الأخطل للعذاب والخوف صورته الحسية الابداعية من الحدبار، إلى البئر، إلى الفيل، حتى الحية التي ان لدغت لم يبرأ لديفها . فالشاعر بات يستحضر لانهجالاته ما يؤديتها ويشخصها ، دون أن يقتبس من سواه إلا في لمع قليلة كذكره للحية التي أشار إليها النابغة في تمثيل خوفه من النعمان ، إذ قال :

١- جئتُ : الشام . غمرة : شدة . السلاف : الحمرة . المهود : المُسكر .

م : يستكمل المعنى السابق ويكرره ويقول إنه أنقذه حين أتى به إلى دمشق ، من محنة قاسية ، وهمٌّ لم يعد تطيب له به حتى الحمرة المُسكره .

٢- السليم : الملدوغ وسمي كذلك تفاقلاً . أفصدت الحية : لدغَتْ ، فقالت . وقد ذكر الشاعر الحية في هذا البيت لأن الحية تذكار وتؤذ .

م : يقول إنه قد أحاطت به في دمشق حية ، إذا لدغت قتلت لتوها ، أي أنه بات يخشى تهديد معاوية الذي لو طالته يده ، ولم يحلُ يزيد بينه وبينها ، لكان فتك به وأجهز عليه .

٣- يُخفُّهُ : أي يهدئ من روعه . يقول إن يزيد كان يهدئ من روع والده ، حتى إذا طالته فيه سيماء الرضى ، ألعَّ عليه وأجهد نفسه في طلب العفو له منه .

وعيدُ أبي قابوس في غيرِ كُنْهِهِ أُناني ، ودُوني راكس فالضُّواجم^١

فبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةً من الرُّقشِ في أُنبابها السَّمُّ ناقِعُ^٢

وقد يَبْلُغُ ذلكَ النِّقلَ الحِرْفِي بقوله :

تَنادَرها الرِّاقُونُ منِ سوءِ سُمِّها تُطلِّقُه طَوْرًا وطَوْرًا تُراجِعُ^٣

إلا أن الأخطل ، مع ذلك كله ، يَبْدُو ابن انفعاله فيما تقدّم ، أبداع صوره من أحساسه العميق بالتوافق بين الأحوال النَّفْسِيَّةِ ومعاني المظاهر الخارجية ورموزها وهل ، ثَمَّة ، أدلّ من البئر على الشّعور بالخوف من الهلاك ؟

والأخطل يُلْحِفُ بهذا الأمر غاية الإلحاف ، وفقاً لسيكولوجية قائمة ، تُضْمِرُ غيرَ ما تُظْهِرُ . فهو يمتدح ، علناً ، يزيد ، ولكنه يوفق ذلك مع غاية في التقرّب إليه وإظهار عظم ما تكبّد في سبيله . وبدلاً من أن يمتطي أسلوب التّمنين الصّريح ، المباشر ، يعمد إلى التّورية والاستبطان . فالمدوح إذ يذكّر فداحة الهول الذي عاناه الشّاعر في سبيل الدفاع عنه وعن عرضه وشرفه لا يجد مناصاً من تقيده والانعام عليه . فالمدح ، هنا ، تركيبيّ ، تأليفيّ إذا جاز التعبير ، وفق فيه إلى الاستعطاف والاستعطاء والتّمنين والمدح والتّعظيم ، في آن معاً .

ولا يعدو ذلك قوله فيما يلي :

أبا خالد دافعتَ عني عَظِيمَةً وأدركتَ لِحْمِي قبلَ أن يتبددا؛

١ - ٢ - ٣ - يقول ان وعيد النعمان اعتراه بمثل الافعى السامة التي كان الرّماة والحواة يُنذِرُ أحدهم الآخر منها . فهي حيناً تقتل وحيناً تمهل .

٤ - م : يخاطب يزيد ويقول له إنك قد أنقذتني من داهية عظيمة ، كادت تنثر أشلائي نراً .

وَأَطْفَاتَ عَنِّي نَارَ نَعْمَانَ بَعْدَمَا أَعْذَّ لِأَمْرِ عَاجِزٍ وَتَجَرَّدًا ١
وَلَمَّا رَأَى النُّعْمَانُ دُونِي ابْنَ حُرَّةٍ طَوَى الكَشْحَ إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْنِي وَعَرَّدًا ٢
وَلَاقِي امْرَأًا لَا يَنْقُضُ القَوْمُ عَهْدَهُ أَمْرَ القَوَى دُونَ الوُشَاةِ وَأَخْصَدًا ٣
أَخَا ثِقَةً لَا يَجْتَوِيهِ ثَوِيُّهُ وَلَا نَائِيًا عَنْهُ إِذَا مَا تَسُوذَدًا ٤

فهو يُشير هنا إلى وفود النعمان بن بشير مع الأنصار على معاوية واقتضاهم لسانه وإباحة معاوية لهم قطعته . وقد صمد يزيد من دونه وصدّ النعمان وخذله إذ أنه يفى لمناصريه ولا يَغْدُرُ بهم ويتنكر لهم عند الشدّة . ولقد قام السرد هنا ، حيناً ، مقام التصوير ، دون أن يُزيله أو يُعْفِي عليه ، بل نُلْفِي أن انفعال الشاعر ما زال نافذاً ، خالفاً وبخاصة في مثل قوله « وَأَذْرَكْتَ لحمي ، قبل أن يتبدّدا » حيث احتضن فعل « تَبَدَّدَا » الانفعال في ذروته ومثله بالصورة الموحية بعظم معاناته للهول والخوف . وإيحائيته لم تحلّ بينها وبين الدقّة ، إذ إن التبدّد يوحى بالأشلاء المتناثرة ، وأياً يكون شعور المرء عندما يُخَيَّلُ إليه أن لحمه قد تمزّق ونفّرَق !

١ - أَعْذَّ : أسرع . أمر عاجز : أمر شديد .

م : يقول : إن النعمان بن بشير الأنصاري كان يتعجل الإيقاع بي وتذرّ نفسه لإيرادي مورد الهلاك .

٢ - طَوَى الكَشْحَ : أي أضمّر العداوة . عَرَّدَ : ولّى هارباً . ابنُ الحُرّةِ : تكنية عن يزيد . م : يقول إنّه إذ رأى النعمان دفاعك عني ، أضمّر حقدّه عليّ ، ولم يعد يجرؤ على التصريح به وولّى عني هارباً .

٣ - يَنْقُضُ : يَفكُ ويحل . أَمْرَ القَوَى : أحكم فتلها . أَحْصَدَ : أحكم أيضا . م : يمتدح يزيد بوفائه للعهد ، ويقول إنّه إذا ما عاهدَ بعهد ، فلا قبيل للناس ، مهما تألبوا ووشوا ، بدفعه إلى نقضه ، بل إنّه له من وفائه ما يُفخّم به الوُشاة ويعصمه عن التغرّر .

٤ - يقول إنّه يوثق عهده لمن يعاهده ، وإنّ مقامه يطيب لمن يجالسُه وإنه لا يصدُّ عمن يتدنّى منه ويتودّد إليه .

وفيما دون ذلك من أبيات يتغلب الوصف والسرد والاشارة الصريحة عبر صورة مستفادة من البيئة . فهو إذ همَّ به الوشاة ليحضوه على الخنث بعهدہ وقَعُوا منه على جبل وثيق لا يتقطع ولا يَنْبَتِرُ مَهْمَا تَنَازَعَهُ الْمُتَنَازِعُونَ . وهذه النزعة الصورية ، وان رَسَفَتْ وارْتَهِنَتْ لدقائق الحسِّ ، فإنَّها لا تزال نَمُّ عن وظيفة الخلق في شعره وقُوَّة خياله الحسِّي الذي يَسْتَحْضِر للمعاني مثلها في الواقع ، فيغدو لها شكلٌ ماديٌ ينطوي على دلالة معنوية ، نفسية .

أما البيت الأخير ، فقد تهادن فيه الذهن وطغى ، فاستحالت تجربته فيه إلى فكرة يباشر بها المعنى التقريرية ، الهادىء ، فهو لا يَمَلُّ ولا يَجْفُو . ومن ثم يُعَرِّج على امتداحه بالمعاني العامة :

كَأَنَّ ذَوِي الْحَاجَاتِ يَغْشَوْنَ مُصْعَبًا أَزْبَ الْجِرَانَ ذَا سَنَامِينَ أَحْرَدًا ١
تَخَمَّطَ فَحُلَّ الْحَرْبِ حَتَّى تَوَاضَعَتْ لَهُ وَاعْتَلَاهَا ذَا مَشِيبٍ وَأَمْرَدًا ٢
وَمَا وَجَدْتُ فِيهَا قُرَيْشٌ لِأَمْرِهَا أَعْفً وَأَوْفَى مِنْ أَيْبِكَ وَأَمْجَدًا ٣

١ - الْمُصْعَبُ : هو البعير الذي لا يُتَعَبُه صاحبه لنجابهته . الْأَزْبُ : الكثير الوبر . الجِرَانُ : العنق . الْأَجْرَدُ : الشامخ برأسه .

٢ : يقول إنَّ الْمُعْزُوزِينَ وذوِي الْحَاجَاتِ لا يزالون يَغْشَوْنَ دار امرئ نجيب ، كريم الأصل ، زاه بأصالته وطيب محته . وقد تكنى في ذلك من خلال وصفه للفحل النجيب من الإبل ذات السنامين .

٣ - تَخَمَّطَ : ثار واحتاج . أَمْرَدُ : في أول عهده بالصبا .

٤ : يقول إنَّه لا يزال يثير الحَرْبَ ويهيجها ، حتى خضع له فيها سائر الأمراء ، ولم يعد له مقارع فيها أكان هَرِمًا مُسْنَأً أم فتياً أَمْرَدًا .

٥ - م : يمتدحه بأبيه معاوية الذي ينحسه بالعمفة والوفاء والسؤدد .

وأصلبَ عوداً حين ضاقتْ أمورُهُم وهمتْ معداً أن تخيم وتخمداً
وأورى بزنديه ولو كان غيرُهُ غداةً اختلافِ الأمرِ أكبي وأصلداً

وتشبيه الممدوح بالبعير الرفيع الهامة ، الشامخ ، فيما ينتجع القوم دياره هو تجسيد لمعنى السيادة بما كان يتمثلها به معاصروه . وإنك إذا ما تحدّقت بالبعير الكثير الوبر ، الناهد إلى أعلى تطالعك فيه سيماء الكبرياء والعنجهية والسيادة ، فكأنه مزهوّ بما هو عليه . ولقد كان الأخطل قريب العهد بهذه المشاهد إذا لم يكدّ يخرج عن بيئته الأولى حيث كانت مفعمةً بهذه الصور ، يطرب لها ، إذ يتأملها وتلج إلى ضميره ، حتى إذا انفعّل بمعنى العظمة والسيادة رفته من الدّاخل ، وتسربت إلى وجدانه المبدع وحلت فيه . وقد نُضير الشاعر في عصرنا لأنّه أقام في ذلك على حدود التشبيه والمماثلة ، وهي أدنى من الاستعارة وما إليها لأنّها أكثر انضباطاً وتعقلاً وكتباً لعامل الخلق . إلا أنها ، مع ذلك ، وفقت في معاناة المشهد الخارجي واستقرائه بحالة نفسية ، أو فكرة ذهنية .

ومثل ذلك قوله : « تخمّط فحلّ الحرب » إذ قرن الحرب بالفحل الثائر ونسبه إليها نسبة مباشرة ، متلمساً ما تنطوي عليه هذه المقابلة من عنف وشدّة

١ - معدّ: هم العرب عامة . تخيم: تجبن . أصلب عوداً: أي أكثر احتمالاً للميحن . م: يستكمل مدحه لمعاوية ، ويقول إن العرب لم يُلّفوا من هو أشدّ احتمالاً للمكاره منه ، وأكثر تعقلاً فيها ، عندما حلت بهم الشحنة وجبنوا عن نصره الحقّ وأوشكت نارهم أن تخبو وتطفى .

٢ - أوري: قدح النار وأشعلها . أكبي: إذا قدح ولم يور ، أي لم يشعل النار . أصلد: إذا أخفق بإشعال النار .

م: يقول إنّه نجح في دفع الفتنه يوم شبّت ، ولو تولّاها سواه من دونه ، لأخفق في إخمادها ورأب الصدع بين المسلمين .

وما أشبه . وإيثاره للتعبير الصوري ، هنا ، أيضاً ، دليل غلي أنه يتمرس بالفن الصعب ويقتضي الصورة الحسية التي تناول فيه مظهر الغلو ، فضلاً عن مظهر الواقعية والتشابه .

إلا أن للمدح أسلوبه الخاص به ، لا يجيد عنه إذ يكادُ لا يدعُ وسيلةً للغلو حتى حدود المستحيل أو ما إليه . وقلماً تقعُ على قصيدة مدح ، دون أن تعثر فيها على صيغ المبالغة في أصولها اللغوية ، وبخاصة صيغة أفعال التفضيل المطلقة : « أعف وأوفى وأمجد وأصلب وأورى » وقد حشدها الشاعر ، حيناً ، حشداً ذهنياً ، وحيناً آخر حشداً تشخيصياً . وهي نمٌ ، جميعها ، عن نزعة الإطلاق والتعميم كأداة للإيجاء والتأثير ، مما يعفُ عنه الشعر الصافي أو الصحيح إذ ليست غايته أن يدعَ الانفعالَ يطفِرَ طفرةً ، بل أن يستضيء به على المعرفة والحقيقة .

أما ذكره لوالده في هذه الهالة المثالية ، فهو امتداحٌ له من خلاله ، أو هو إحاطة بالمدح من جوانبه كلها وإفادةً فيه من كلِّ احتمال ، كما أنه يُبرر به توليه لولاية العهد إثره :

فَأَصْبَحْتَ مَوْلَاهَا مِنَ النَّاسِ بَعْدَهُ وَأُخْرَى قُرَيْشٍ أَنْ يُهَابَ وَيُحْمَدَا

فهو قد ورثَ به في المجد والسؤدد ، وهو حقيق بذلك إذ أنه جرى على غراره في الكفاح والجهاد :

وَفِي كُلِّ أَفْقٍ قَدْ رَمَيْتَ بِكَوْكَبٍ مِنَ الْحَرْبِ مَخْشِيٍّ إِذَا مَا تَوَقَّدَا

١ - م : يقول مخاطباً يزيد : إنك أولى الناس بولاية الخلافة بعده ، وأجدر القرشيين بالمهابة والاحترام .

٢ - الكوكب : الكتبية من المقاتلين ، سُميت كذلك لتوقدتها بالحديد .

م : يمتدحه بالبطنش في الحروب وإنفاذه الجند إلى كلِّ أفق للجهاد والقتال ، حيث يبتون الرعب لما يتوقد عليهم من أسلحة .

وَتَشْرِقُ أَجْبَالُ الْعُوَيْرِ بِفَاعِلٍ إِذَا خَبَتِ النَّيْرَانُ بِاللَّيْلِ أَوْ قَدَا ١
وَمُنْتَقِمٍ لَا يَأْمَنُ النَّاسُ فَجَعَلَهُ وَلَا سُورَةَ الْعَادِي إِذَا هُوَ أَوْ عَدَا ٢

والشاعر يَمْتَدِحُ يزيد بالقتال والزحف ، بينما امتدح أباه بالحكمة النَّافذة فيما التَّبَسُّ من أمور ، فبدت معانيه في الأوَّل باهتة ، رغم الحافه فيها ، وجاءت في الثاني إنسانيَّةً عاقلةً إذْ نَوَّهَتْ فيه بِمَا هو حقيقٌ به . وتُوْفِي تلك الصُّورَةَ إلى ذروتها في وصفه لكرمه على غرار النَّابغة والأعشى في تشبيهه استطراديًّا ، مُتَطَاوِلِ قرن فيه بين فيض كرمه وفيض الفرات :

وما مُزِيدٌ يعلُو جزائرِ حَامِرٍ يَشُقُّ إِلَيْهَا خَيْرَ رَانَاً وَعَرَقَدَا ٣
تَحَرَّرَ مِنْهُ أَهْلُ عَانَةَ بَعْدَمَا كَسَا سُورَهَا الْأَعْلَى غُشَاءً مُنْضَدَا ٤

- ١ - العوير : موضع ماء بالشَّام .
م : يقول إنَّه لا يزال يُضِيءُ ذلك المقام بالنَّار المُتَّاجِجَةَ الَّتِي يُشْرِقُ بِهَا اللَّيْلُ إِشْرَاقًا . ولقد يكون أشار بالنَّار هنا إلى فضائله الَّتِي تطالع النَّاسُ وتتذيع فيهم ، كما أنَّها قد تكون نار القيرى أو ما إليها .
- ٢ - السورة : (بالفتح) الغصَب . العادي : هنا الأسد .
م : يقول إنَّه إذا ما عَزَمَ على الانتقام يُفْجِعُ وَاثِرَهُ أَوْ عَدُوَّهُ وَيَلْقَى مِنْهُ غَضَبَةَ الْأَسَدِ الشَّدِيدِ الْبَطْشِ .
- ٣ - المُزِيدُ : هنا النَّهْرُ الكَثِيرُ الزَّيْدُ ، أي الفُرات . حَامِرٍ : ناحية بين مَنبِجِ والرَّقَّةِ على شطِّ الفرات . الخَيْرِ رَانَاً : نوع من الشَّجَرِ المَعْرُوفِ . عَرَقَدَا : عَوَسَجَ .
م : يشرع في هذا البَيْتِ بوصف فيضان الفُراتِ على دَابِئِهِ في معظم مدائمه ، لِيَقْرُنَهُ بِكْرَمِ يَزِيدٍ بَعْدَ خَمْسَةِ آيَاتٍ تَلِي . يقول إنَّ الفرات إذْ يَزِيدُ وَيَطْفُو على جزائر حامر ، يَفْتَرِعُ إِلَيْهَا أَشْجَارَ الخَيْرَانِ وَالغَرَقَدِ .
- ٤ - تَحَرَّرَ : أي تَهَيَّبَ مِنْهُ وَأَعَدَّ لَهُ مَا يَقِيهِ أَذَاهُ .
م : أي أَنَّ أَهْلَ عَانَةَ جَعَلُوا يَحْتَرِسُونَ مِنْ أَنْ يَطُوفَ عَلَى دِيَارِهِمْ ، بَعْدَ أَنْ عَلَا زَبْدُهُ حَوْلَ سُورِهَا وَأَوْشَكَ أَنْ يَطْفُو عَلَيْهَا وَيَغْرِقَهَا .

- يُقَمِّصُ بِالْمَلَّاحِ حَتَّى يَشْفَهُ الْ حَدَارُ وَإِنْ كَانَ الْمُسِيحُ الْمُعَوِّدَا ١
بِمُطْرِدِ الْآذِيِّ جَوْنٍ كَأَنَّمَا زَقَا بِالْقَرَاقِيرِ النَّعَامِ الْمُطْرِدَا ٢
كَأَنَّ بَنَاتِ الْمَاءِ فِي حَجَرَاتِهِ أَبَارِيقُ أَهْدَتْهَا دِيَافُ لَصَرَخَ حِدَا ٣
بَأَجْوَدِ سَيْبًا مِنْ يَزِيدَ إِذَا غَدَتُ بِهِ بُخْتُهُ يَحْمِلُنَ مُلْكَأً وَسُودَا ٤

وليس للأخطل في هذا التشبيه الاستطرادي فضيلة الابتكار والخلق ، إذ ان سنة هذا المعنى اشتقت له وتقررت فيه من قبل ، وبخاصة النابغة إذ قال :

١ - يُقَمِّصُ : أي يثير اضطرابه . المُسِيحُ : المُجَرَّبُ ، المُجَدِّدُ .

م : يقول إنه يثير اضطراب الملاح ، حتى يرهقه الخدر منه وخوف الغرق ، بالرغم من ألفته له واختباره الطويل لأمر الملاحة فيه .

٢ - الْآذِيُّ : المَوْجُ . جَوْنٌ : هنا أبيض . الْمُطْرِدُ : الذي يتبع بعضه بعضاً . زَقَا : حَثَّ .
القراكير : جمع قرقور : السفينة الطويلة .

م : يقول إنه يثير خوف الملاح بأواجه المتلاحقة البضاء الشبيهة بالنعام من زبدها والتي لا تبرح تعبت بالسفينة وتطردها في كل جهة .

٣ - بَنَاتِ الْمَاءِ : طيوره . حَجَرَاتِهِ : نواحيه . دِيَافُ وصرخد : قرينان .

م : يُشَبِّهُ الطيور التي تطوف في مختلف نواحيه بالأباريق التي تُهدى فتنقل من قرية إلى أخرى .

٤ - بُخْتُهُ : إبله الجراسانية .

م : في هذا البيت تقع على جواب قوله في بيت سابق « وما مزيد . . . » يقول إن الفرات في فيضانه الهائل المروع ذلك ، ليس بأعظم عطاء من يزيد إذ يفد على إبله الجراسانية .

وما الفرات إذا جاشت حَوَالِبُهُ ترمي أوادِيه العبرين بالزُبْدِ ١
يَمِدُّه كل وادٍ مترعٍ لَجِبٍ فيه ركام من الينبوتِ والخضدِ ٢
يَظَلُّ من خوفه المَلَّاحُ معتمِماً بالخيزرانة بين الأين والنَّجْدِ ٣
يوماً بأكرم منه حينَ تَقْصِدُهُ ولا يحولُ عطاءَ اليومِ دُونَ غَدِ ٤

ولسنا نودُّ أن نطيل في المقارنة بين الشاعرين في ذلك إذ سَوَّفَ نلّمُ بها فيما بعدُ عندما يتكرَّر هذا التشبيه في امتداحه لعبد الملك بن مروان ، وإنّما نُشير ، هنا ، إلى أن الأخطل تلمَّس في ذلك العناصر الجوهرية الموحية في ذكره لأشجار الخيزران والغرقد واحاطته بسور البلدة وهو مزبد ، وخوف الملاح منه رغم إلفته له وتروُّضه على مُغالبة أمواجه . وقد يتحقَّق لنا من ذلك أن الشاعر أقبل على بلاط الأمويين وقد استكمل عدته الشعرية ، وتمرَّس على القول في سنته الماثورة ، دون أن يبلِّغ أوجه فيه ، إذ أن هذه العناصر تبدو باهتة بالنسبة إلى وصف النابغة وما سوف يطالعنا من وصفه هو بالذات .

وللأخطل قصيدة أخيرة في مدح يزيد ، تناولت فيها الموضوعات الجانبية إذ ذكر فيها سعاد وسلّيمي ووصف جيدها ونحرها وذكر ما ألمَّ به من هرم ، متَّحسراً على ما فات من زمن اللهو والفتوة ، بعد أن تبدّلت ملامحه بالشيب

١ - ٤ - الأواذي : الأمواج الكبيرة . الحوالب : هنا الروافد . مترع : مليء . لجب : صخب .
الينبوت والخضد : نوعان من الشجر الكبير الضخم . الخيزرانة : صدر السفينة .
الآين والنجد : التعب والخوف .

م : يقول إن الفرات عندما تفيض روافده وتعلو أمواجه وتضرب شاطئيه بالزبد لشدة الصخب ، وعندما تصبُّ فيه الوديان التي ملاءها السيل جارفاً من دونه الأشجار الكبيرة الضخمة ، وعندما يرتعب مئة البحار فيعتصم بصدر السفينة ، ان فيض الفرات ذاك ليس بأعظم من كرمه الدائم .

وغدت معرفته تتعذر على عارفيه . ويخاطب يزيد وبنوه بما كان من أمر حمايته له بعد أن تشرّد في الهاجرة ، وهزل حتى بات كالسّفود . ويرجو من الله أن يُشبهه بمثل ما أثناب يوسف وهارون ونوحاً . ويعود لإظهار ما سبق أن منّ عليه به من نعمٍ وهبات ، ثم يستطرد إلى وصف النّاقة ، ويقول إنّها ذات صلابة كالصّخرة العظيمة ، لا تزال تعدو بالرّغم من أن سنامها يوشك أن يذوب وأن أخفافها تكاد أن تبّرى وتتفّب ويشبّها بالحمار الوحشيّ الذي يسوق أُنّته إلى الماء ، ويستشرف المواضع التي يستنقع فيها ، يعدو فيما ترتدُّ عليه أُنّته ترمحهُ وتكّدمه ، ولا تدعه الحوامل منها ينزو عليها ، ويذكر إجهاضها لأولادها من الإرهاق ، ويشير إلى الصيادين الذين كانوا يترصدونه ويشبّهم بالذئاب المتربّصة ، ويصف القوّس ورنينها والشّواء وتقطيع اللّحم ، إثر الصّيّد .

يَقُولُ فِي مَطْلَعِهَا :

بانتُ سَعَادُ ففِي العَيْنَيْنِ تَسْهِيْدُ وَاسْتَحْقَبْتُ لُبَّهُ ، فَالْقَلْبُ مَعْمُوْدُ
إِما تَرِينِي حَنانِي الشَّيْبِ مِنْ كِبَرٍ كَالنَّسْرِ أَرْجُفُ ، وَالإِنْسَانَ مَهْدُوْدُ

وتبلغ القصيدة ستّة وأربعين بيتاً وفقاً للتقسيم التّالي :

١ - ذكر الحبيبة والبين والمشيب : (١ - ١٤)

٢ - مخاطبة يزيد : (١٥ - ٢١)

٣ - ذكر النّاقة والفحل وأُنّته ؛ (٢٢ - ٤٢)

٤ - وصف الصّيّد : (٤٢ - ٤٦)

ونستعرض هنا الأبيات التي خصّها بالمدح الفعليّ ، المباشر :

أما يزيدُ ، فَإِنِّي لَسْتُ نَاسِيَهُ حَتَّى يُغَيِّبَنِي فِي الرَّمْسِ مَلْحُودًا ١
 جَزَاكَ رَبُّكَ عَنْ مُسْتَفْرِدٍ ، وَحَدٍ نَفَاهُ عَنْ أَهْلِهِ جُرْمٌ وَتَشْرِيدًا ٢
 مُسْتَشْرَفٌ ، قَدْ رَمَاهُ النَّاسُ كُلَّهُمْ كَأَنَّهُ ، مِنْ سَمُومِ الصَّيْفِ ، سَفُودًا ٣
 جَزَاءَ يُوسُفَ إِحْسَانًا وَمَغْفِرَةً أَوْ مِثْلَ مَا جُزِيَ هَارُونَ وَدَاوُدُ ٤
 أَوْ مِثْلَ مَا نَالَ نُوحٌ فِي سَفِينَتِهِ إِذِ اسْتَجَابَ لِنُوحٍ ، وَهُوَ مَنْجُودٌ ٥
 أَعْطَاهُ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَسَكَنَهُ فِي جَنَّةٍ نِعْمَةٌ فِيهَا وَتَخْلِيدًا ٦

والمعنى العام لا يعدو الامتنان واطهار سوء الحال والهلاك للذين أنقذه منهم الممدوح ، وقد تشبّه بالسّفود في هزاله ، إثر الارتحال وامتناع الرّاحة ، وهذا

- ١ - ملّحود : قبر ذو لحد ، وهو الشقّ المائل الذي يكون في جانب القبر .
 م : يشير في هذا البيّت إلى ما كان من حماية يزيد له ، ويقول إنّه لن ينسى فضله عليه وإنقاذه له ، حتى يموت ويغيب في الرّمس .
 ٢ - وحّد : مُنفرد .
 م : يمدح يزيد بإيوائه للضيّف والمشرّد ويرجو الله أن يكافئه لقاء حمايته لامرئ متوحّد ، منفرد ، تخلّى عنه أهله لجرم اتّهم به ، فخلّف شريداً . وهو يشير بذلك إلى نفسه .
 ٣ - مُسْتَشْرَفٌ : مَظْلُوم . السّفود : قضيب يشوى عليه اللحم .
 م : يستكمل معنى البيّت السّابق ، ويقول إنه اتّهم ظلماً ، قد طعنه النَّاسُ جميعاً ، فظلّ مشرداً ، تصليه الهاجرة وتديبه ، حتى غدا من هزاله كالسّفود . ولعلّ الأخطل يشير إلى ذاته في وصفه لذلك المشرّد ، المنبوذ .
 ٤ - يوسف وهارون وداود : من أولياء العهد القديم .
 م : يرجو من الله أن يشبّه بما أتاب به الأولياء قديماً فكانّ الأخطل يرفعه إلى مصافهم .
 ٥ - منّجود : مكروب .
 م : يستكمل ما تقدّم ويرجو له مثل ثواب نوح ، إذ كان أسيراً في سفينته .
 ٦ - م : يوضح ما أجمله وأشار إليه ، سابقاً ، ويقول إنّ الله أعطى نوحاً متع الدُّنيا وخلود الآخرة ، فكانّ الأخطل يتمنى له مثل ذلك .

التشبيه يُضاف إلى تشاييه سابقة جسّد بها عذابه وخوفه ، وهو يتّصف بمثل ما اتّصفت به من إيحائية في تخيّر الظاهرة الأدل والتي لا يقتصر فيها وجه الإيحاء على المعنى الدلّاني المتناول . وتراه يُصعّد المعنى ويمدّد أبعاده بالأسطورة الدنيّة إذ يقرن الممدوح بنوح وهارون وداود ، خالماً عليه صفة قدسيّة كالأولياء ، وربما أفاد قليلاً أو كثيراً في ذلك من النّابعة إذ قال :

ولا أرى واحداً في النّاس يشبهه ولا أحاشي من الأقوام من أحدٍ
إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البريّة واصدها عن الفند

ومع ذلك ، فإن الأخطل وفق في تمثّل هذه الأجواء ، عبر قصيدته ، مُضنياً عليها أجواء شبه اسطوريّة تتفق ومنحى الغلوّ العام الذي ينتجيه .

وللأخطل في يزيد مرثية هي الوحيدة الشّاحصة في ديوانه :

لعمري ، لقد دُلّ إلى اللحد خالدٌ جنّازة لا كابي الزناد ، ولا غمراً
مقيمٌ بحوارين ليس يريمها سقته الغوادي من ثويٍّ ومن قبراً

١ - خالد : هو ابن يزيد بن معاوية . كابي الزناد : أي الزناد الذي لا يقدر ناراً فلا جدوى ولا نفع منه ، مهما عولج . الغمّر : هنا من لاشأن له .

م : يرثي يزيد بن معاوية ويقول إن ابنه خالداً أنزل به في القبر امرأةً حسن الفعّال ، عظيم القدر .

٢ - حوارين : قرية من أعمال حمص ، مات فيها يزيد بن معاوية . الغوادي : جمع غادية وهي أمطار الصّباح . ثويّ : هنا الثاوي في قبره .

م : يقول إنّه دفن في موضع حوارين ، لا طاقة له على مبارحته . ويستسقي له ولقبره الأمطار الغادية .

تَصِيحُ المَوَالِي أَنْ رَأَوْا أُمَّ خَالِدٍ مُسَلَّبَةً تَبْكِي عَلَى المَاجِدِ الغَمْرِ ١
إِذَا جَاءَ سِرْبٌ مِنْ نِسَاءٍ يَعُدْنَهَا تَعْرَيْنَ ، إِلَّا مِنْ جَلَابِيبَ أَوْ خُمُرٍ ٢

خُلَاصَةٌ فِي مَدْحِهِ لِيَزِيدَ : وَيُمْكِنُ أَنْ نُوجِزَ خِصَائِصَ مَدْحِهِ لِيَزِيدَ بِمَا يَلِي :

١- أَنَّ المَوْضُوعَاتِ الجَانِبِيَّةَ الإِسْتِطْرَادِيَّةَ تَعَاظَمَتْ فِيهِ عَلَى المَدْحِ المَبَاشِرِ ،
إِذِ انْ نَسَبَةُ الأَبْيَاتِ المَدْحِيَّةِ إِلَى الأَبْيَاتِ الوَصْفِيَّةِ لَا تَعْدُو السَّدَسَ ،
تَقْرِيْباً . فَالْأَخْطَلُ كَانَ ، بَعْدَ ، فِي مَرَحَلِهِ مِنَ التَطَوُّرِ الشَّعْرِيِّ حَيْثُ
كَانَ يَتَنَصَّرَفُ انْصِرَافاً جَمَالِيّاً ، إِذَا جَازَ التَّعْبِيرَ ، يَتَبَارَى فِيهِ مَعَ شِعْرَاءِ
النَّاقَةِ وَالثَّوْرِ وَالصَّيْدِ وَالصَّحْرَاءِ وَمَا أَشْبَهَ مِنْ مَوْضُوعَاتٍ وَالجِةِ فِي عَمُودِ
القَصِيدَةِ العَرَبِيَّةِ :

٢- انْ المَعَانِي المَدْحِيَّةَ وَرَدَتْ بَاهِتَةً إِلاَّ فِي الدَّالِّيَّةِ وَأَنَّهُ اقْتَصَرَ فِيهَا عَلَى ذِكْرِ
حِمَايَةِ يَزِيدَ لَهُ ، وَلَمْ يَكُدْ يَحْشُدُ لَهُ حَشْداً مَلْحَمِيّاً . كَمَا سَرَى فِي امْتِدَاحِهِ
لِعَبْدِ المَلِكِ . ذَاكَ أَنَّ يَزِيدَ لَمْ يَكُنْ قَدْ اكْتَسَبَ هَالَةَ المَلِكِ وَالسُّلْطَةِ .

٣- أَنَّهُ لَمْ يَمْتَدِحْ أَبَاهُ بِقَصِيدَةٍ خَاصَّةٍ ، بَلْ أَضْمَرَ مَدْحَهُ أَوْ أَظْهَرَهُ مِنْ خِلَالِ
مَدَائِحِ يَزِيدَ .

١- أُمّ خَالِدٍ : هِيَ امْرَأَةٌ يَزِيدَ وَهِيَ فَاخْتَةُ بِنْتِ هَاشِمِ بْنِ رَبِيعَةَ . المُسَلَّبَةُ : اللابسة الأردية السوداء .

م : يَقُولُ إِنْ المَوَالِي أَخَذُوا بِصِيحُونَ وَيَعُولُونَ ، إِذِ رَأَوْا زَوْجَةَ مَعُولَةٍ ، بَاكِيَةً ، مَتَشَحَّةً
بِالسَّوَادِ .

٢- الجلابيب جمع جلباب وهو الإزار . الخمر : جمع خمار وهو قناع المرأة .

م : يَقُولُ انْ النِّسَاءُ يَفِدْنَ لِأَلْيَتِهَا مَعْرِيَاتٍ . وَقَدْ شَقَقْنَ ثِيَابَهُنَّ تَفْجَعاً عَلَيْهِ وَلَمْ يَبْتَقِ عَلَيْهِنَّ
إِلَّا الإِزَارَ وَالحَمَارَ .

م : يَقُولُ إِنْهُنَّ إِذِ يَخْرُجْنَ فِي طَلَبِ حَاجَةٍ ، فَإِنْ تَأَلَّقَ الثَّوْرُ عَلَى وَجُوهُهُنَّ يَغَالِبُ الثَّوْرَ المُتَبَعِثَ
مِنْ خِصَاصِ نَوَافِذِهِنَّ وَيَكْسِفُهُ .

- ٤ - أن الاقتباس من النَّابِغَةِ يطغى على معظم معانيه ، وبخاصَّة في وصف الكرم وتمثيله بفيض الفُرات وانماء الصِّفَّة الحارقة للممدوح من مقارنته بالأولياء .
- ٥ - ان النَّزْعَةَ التَّجْسِيدِيَّةَ سَمَّتْ بِمَعَانِيهِ إِذْ أَدَّتْ لَهَا أَدَاءَهَا فِي إِطَارٍ مِنَ الرَّؤْيَا الحسِيَّةِ الَّتِي تَسْتَحْضِرُهَا فِي حُدُودِ البَصْرِ وَسَائِرِ الحَوَاسِّ .
- ٦ - أن المَقْدَمَاتِ التَّقْلِيدِيَّةِ مِنْ وَصْفِ لِلطَّلِّ والمَفَازَةِ والمَطِيَّةِ قَدْ صَحَبَتْهَا ، وبما تعاضمت عليها ، كما قدَّمنا .

الباب الثالث

مدائحه في سائر الأمويين وولاتهم

وللأخطل هذه القصيدة في عبد الله بن معاوية بن أبي سفيان . ، يستهلها كعادته بذكر الأحبَّة الرَّاحِلِينَ ، ويتشبهه ، إثر رحيلهنَّ ، بمن صرَعَتْهُ الحَمْرَةُ الكريمة المُتَحَدِّرَةُ مِنْ كروم الأَعَاجِمِ المَرْوِيَّةِ وَمِنِ العنبِ المُتَوَهِّجِ فِي الشَّمْسِ والعصيرِ الخالصِ مِنَ القذى والغناء . ويعود إلى ذكر الظَّاعِنَاتِ المُتَالِّقَاتِ الوجوه ، الشَّبِيهَاتِ بِالظُّبَاءِ ، ثُمَّ يُقَسِّمُ بِإِلَهِ مُوسَى والزُّهَادِ بِأَنَّهُ سَيَنْظُمُ مَدْحَةَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ وَيَمْتَدِّحُهُ بِالتَّقْدِيمِ والعِزَّةِ وَبِذَلِّ المَعْرُوفِ وَيَمِيلُ إِلَى تَعْظِيمِ الأُمَوِيِّينَ لِمَا آثَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ نَعْمٍ وَمَا طَبَعُوا عَلَيْهِ مِنْ كَرَمٍ وَكَمَالٍ ، وَيَمْتَدِّحُ مُعَاوِيَةَ بِحِكْمَتِهِ وَحِلْمِهِ وَانْتِصَارِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ بِكُتَابِهِ الكَثِيرَةِ العَدَدِ ، مَعْدُوداً القَبَائِلَ الَّتِي أَلْحَقَ بِهَا الهَلَاكَ ، بَعْدَ أَنْ حَنَنْتُ بِعُهودِهَا وَتَبَعْتُهُ بِالحلمِ والهَيْبَةِ ، ثُمَّ يُلَوِّذُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ ، مُظْهِراً شُغْفَهُ بِهِ وَاعْتِصَامَهُ بِجَبَلِهِ عَلَى مَا يَعْتَرِيهِ مِنْ مُصَائِبٍ . وَيُنْهِي القَصِيدَةَ بِامْتِدَاحِ ابْنِ أَحْمَرَ الشُّكْرِيِّ الَّذِي يَزِيلُ عَنْهُ الغَمَّ وَيَقُومُ مَقَامَهُ فِي غَيْبَتِهِ وَيُفِي بِعَهْدِهِ ، فِيمَا يَتَوَلَّى عَنْهُ الآخَرُونَ . وَمِنَ البَيِّنِّ أَنَّ الشَّاعِرَ تَعَمَّدَ مَدْحَ الأُمَوِيِّينَ وَمُعَاوِيَةَ ، وَلَمْ يَكِدْ يَلْمُ بَعْدَ اللَّهِ إِلَّا فِي آيَاتٍ قَلِيلَةٍ ، لِأَنَّهُ كَانَ قُعْدَةً ، قَلِيلِ الشَّانِ ، يَمْدَحُهُ الشُّعْرَاءُ

فتصلهم أمته . وفيما يلي نجتزئء بذكر قسَمِهِ وما امتدح به أباه معاوية ، على أن نُعرِّج على سائر القصيدة في بحثنا عن معانيه العامة :

وَلَقَدْ حَلَفْتُ بِرَبِّ مُوسَى جَاهِدًا وَالْبَيْتِ ذِي الْحُرْمَاتِ وَالْأَسْتَارِ ١
 وَبِكُلِّ مُهْتَبِلٍ عَلَيْهِ مُسُوْحُهُ دُونَ السَّمَاءِ مُسَبِّحِ جَأَّارِ ٢
 لِأَجْبَرْنَ لَابْنَ الْخَلِيْفَةِ مِدْحَةً وَلَا قَدْفَنَنَّ بِهَا إِلَى الْأَمْصَارِ ٣
 قَرْمٌ تَمَهَّلَ فِي أُمِيَّةَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا بِنْدِي أُبْنٍ وَلَا خَوَارِ ٤
 بُنِيَتْ قَنَاتُكَ مِنْهُمْ فِي أُسْرَةٍ بِيضِ الْوُجُوهِ مِصَالَتِ أَخْيَارِ ٥

١ - م : يقسم بإله موسى والكعبة ذات الأستار العظمية الحرمه .

٢ - الْمُهْتَبِلُ : هنا الرَّاهِب . جَأَّار : رافع للصوت . الْمُسُوْحُ : جمع مُسُوْح . رداء غليظ للزَّهاد .

م : يقسم بإله الرهبان الْمُتَزَهِّدِينَ الَّذِينَ يَرْتَدُونَ الْمُسُوْحَ ، ولا يزالون يسبِّحون الله ويرفعون إليه أَدْعِيَتَهُمْ بِأَصْوَاتٍ مَرْتَمَّةٍ مُرْتَفَعَةٍ .

٣ - م : يقسم أنه سينظم في ابن الخليفة - أي في عبد الله بن معاوية - قصيدة تتدبَّع وتشيع ، حتى تَغْشَى الْأَفَاقَ .

٤ - الْقَرْمُ : الفحل وهنا السيد القوي . تَمَهَّلَ : سَبَقَ وتقدَّم . الْأُبْنُ : العوج . الْخَوَارِ : الضَّعِيفُ .

م : بشرح في امتداحه ويقول إنه متقدَّم ، سَبَقَ فِي الْأُمُومِيْنَ ، وإنه خالص النسب فيهم ، قوي ، لا يعتريه الضَّعْفُ وَالْهُوَانُ .

٥ - الْأُسْرَةُ : هنا الفَصِيلَةُ . مِصَالَتِ : جمع مِصَالَتِ : القوي ، الصُّلْبُ . الْقَنَاتَةُ : هنا العزُّ والمجد .

م : يقول إنه تحدَّر من أسرة كريمة ، قويَّة ، فاضلة ، وإنه اكتسب مجده وضاعفه وقواه بمجدها .

جُهْرَاءَ لِلْمَعْرُوفِ حِينَ تَرَاهُمْ ۱
 حُلَمَاءَ غَيْرِ تَنَابِلٍ أَشْرَارِ ۱
 قَوْمٌ إِذَا بَسَطَ إِلَاهُ رِبْعَهُمْ ۲
 دَارَتْ رِحَاهُ بِمُسْبِلِ دَوَارِ ۲
 وَإِذَا أُرِيدَ بِهِمْ عُقُوبَةٌ فَاجِر ۳
 مَطَرَتْ صَوَاعِقُهُمْ عَلَيْهِ بِنَارِ ۳
 قَوْمٌ هُمْ نَالُوا التَّمَامَ وَأَزْحَفَتْ ۴
 عَنْهُ مُذَارِعُ آخِرِينَ قِصَارِ ۴
 وَأَبُوكَ صَاحِبُ يَوْمِ أذْرُحِ إِذْ أَبِي ۵
 الْحَكَمَانَ غَيْرَ تَهَائِبِ وَضِرَارِ ۵
 لَمَّا تُبْحِثَتِ الضَّغَائِنُ بَيْنَهُمْ ۶
 أَفْضَى وَسَارَ بِجَحْفَلِ جَرَارِ ۶

وللأخطل ، أيضاً هذه القصيدة في مدح عبد الله ويزيد ابني معاوية بن أبي سفيان ، استهلها بالحديث عن صاحبته ضُبيرة وارتحالها والمواضع التي ألت بها في رحيلها ، والمنازل التي خلقتها إثرها وآلام الفراق التي أورثته إياها ، ثم يستطرد إلى وصف

- ١ - الجهير : هنا الخليق ، المُجَاهِر . تنابل : جمع تِنَابِل : الرَّجُلُ الخامل الدَّمِيم .
 م : يقول إنهم يهرعون لأداء المعروف وبذل الخير وإنهم حُلَمَاء ، غير خاملين ولا يواقعون الشر .
- ٢ - الرَّحَى : هنا معظم السحاب .
 م : يقول إذا منَّ الله وأغدق عليهم نِعْمَةً ، لا يقصرون خيرها على أنفسهم ، بل يدرون منها إلى النَّاس .
- ٣ - م : يقول إنهم يهرعون إلى البذل والمعرف ، إلا أنهم إذا عقدوا العزم على معاقبة فاجر ، مارق من الأخلاق والدين ، فإنَّهم يُصَلُّونه بنار غضبهم ويُجْهزون عليه .
- ٤ - أَرْحَفَتْ : اتسعت وعدلت . مِذْرَاع : جمع مِذْرَاع وهي قوَام الدَّابَّة .
 م : يقول إنهم أدركوا غاية الكمال ، فيما قصرَّ عنه الآخرون . ولقد توسَّل بلفظة « مِذْرَاع » للتحقير والزَّراية .
- ٥ - أذْرُح : بلدة بأطراف الشَّام ، فيها اجتمع الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري .
 م : يمتدح أباه معاوية ويشير إلى ما كان من أمر التحكيم في بلدة أذْرُح ، إذ اختصم الحكمان وقطع معاوية ذلك ببسالته ودهائه .
- ٦ - تُبْحِثَتْ : فشت .

النّاقة القويّة ، الشّديده الاحتمال للهجرة التي قد توفي به إليها ، ويشبّها بالثور الوحشي الذي أثارته وأفرّعتّه كلاب الصّيد ذوات الآذان المتهدّلة ، فجعل يرمحها بقترنيه ويردّيها . ثم يشبّها بالفحل الذي جفّت مراعيه ويس نبتّها ، فساق أثنه وزجرها إلى ماء كان يرصدهُ فيه الصّيادون الماهرون العريقون في هواية القنص والذين دسّمتْ عمائمهم لكثرة ما التصق بها من دهن الطّرائد ، ثم يصف ترصدهم للطّرائد وقسيّهم المشدودة وتصويهم لسهامهم المتخطّفة كالشّهب التي لم تُصبِ الهدف وإن كانت قد همت به .

وميل ، إثرئذ ، إلى امتداح عبد الله ويزيد ابني معاوية ، ويشيدُ بما كان من أمر حمايتهما له وإغداقهما عليه ويعظم من أمر يزيد الذي هرع إلى تجدته كالرّمح الصّلب ، ويمتدحه بشرف والدته ويشبّه بالبازي الذي ينقضّ على سائر الطيور ، ويعرّج على امتداح الأمويين : عامة ، بالحلم والرّصانة وإثار الله لهم بالملك والسلطة والنصر ، كما يعظم من كرمهم وامتناعهم عن المنّة ويقطع إلى مدح عبد الله بن معاوية الذي قرّبه وكفاه ويشبه عطاءه بالفُرات ، ويعود إلى امتداح الأمويين ويشير إلى موقعه مرج راهط وينمي إليهم بها صوراً ملكميّة ويشير إلى ما كان من أمرهم في صفين التي ثاروا فيها لمقتل عثمان ويشيد بكرمهم وهرعهم إلى نجدة المعتنقين والمُعوزين ، إذا ما ضنّ المُوسرون عليهم ، عندما تعصف بهم ريح الشّتاء ويعمُّ الجذب .

وقد يجدر بنا أن نترتّب ، قليلاً ، عند هذه القصيدة إذ باتت تطالعنا فيها الأجواء الملحميّة الحاشدة في مثل قوله :

ويومَ صِفّين ، والأبصارُ خاشِعةٌ أمدهم ، إذ دعوا ، من ربهم مددُ ١
على الأولى قتلوا عثمان ، مظلمةً لم ينههم نشدُّ عنه ، وقد نشدوا ٢

١-٢-٣ : يذكر ما كان من أمر الأمويين ومعاوية في معركة صفين ، ويقول إن الأبصار كانت خاشعة تهيّباً من المتوقف ، إلا أن الله أمدّ الأمويين بنصره على الذين غدروا بعثمان ، وقد نوشدوا في مناصرته والدّود عنه ، فلم يرتدّ عوا ، بل لأنهم أمعنوا في ضلالهم .

فَثَمَ قَرَّتْ عُيُونُ النَّائِرِينَ بِ— وَأَذْرَكُوا كُلَّ تَبَلٍ عِنْدَهُ قَوْدٌ ١
فَلَمْ تَزَلْ فَيَلْقُ خَضْرَاءَ تَحْطِمُهُمْ تَنَعَى ابْنَ عَفَّانَ ، حَتَّى أَفْرَخَ الصَّيِّدُ ٢
وَأَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتٍ ، لَا يُوَازِنُهُمْ بَيْتٌ ، إِذَا عُدَّتِ الْأَحْسَابُ وَالْعَدَدُ ٣
أَيْدِيكُمْ ، فَوْقَ أَيْدِي النَّاسِ ، فَاضِلَةٌ فَلَنْ يُوَازِنَكُمْ شَيْبٌ وَلَا مُرْدٌ ٤
لَا يَزْمَهُرُ ، غَدَاةَ الدَّجَنِ ، حَاجِبُهُمْ وَلَا أَضْنَاءُ بِالْمِقْرَى ، وَإِنْ تَمِدُوا ٥

١ - التبل : الترة . القود : القصاص .

م : يقول إنه إثر انتصار الأمويين ، قرَّت عيون الذين ثاروا للغدر بعثمان ، وكان ما أوقع بهم من هزيمة وقتل ، عقاباً لهم لقتلهم عثمان وإبادة بالتأثر منهم .

٢ - الفيلق : الكتيبة الضخمة . أفرخ : سكنَ وهدأ .

م : يقول إنهم ظلوا يقاتلونهم ويضربون في أعقابهم ، ثاراً لعثمان ، حتى تخلوا عن كبرهم وعتوهم .

٣ - يمدح الأمويين ويقول إنه ليس في أنساب الناس ما يُضاهي أنسابهم ، ولا في عددهم ما يوازي كثرتهم .

٤ - يقول إن أيديهم تطل ما يقصر عنه الآخرون ، فلا يجاريهم ولا يسمو إليهم سائر الناس ، أكانوا شيباً أم فتياناً .

٥ - لا يزْمَهُرُ : لا يتعَبَسُ . الدَّجَنُ : هنا الشتاء . المِقْرَى : أوعية الطعام . تَمِدُوا : قلَّ ما عندهم .

م : يقول إن حاجبتهم لا يتعَبَسُ ويصدُّ بوجه المُعْتَقِينَ ، عندما يشتدُّ العوز بالناس ، شتاءً .

قَوْمٌ ، إِذَا ضَنَّ أَقْوَامٌ ذُوو سَعَاةٍ وَحَادَرُوا حَضْرَةَ الْعَافِينَ أَوْ جَحِدُوا ١
 بَارُوا جُمَادَى بِشِيزَاهُمْ ، مُكَلَّلَةٌ فِيهَا خَلِيطَانِ وَاوِي الشَّحْمِ وَالْكَبِدِ ٢
 الْمُطْعَمُونَ ، إِذَا هَبَّتْ شَامِيَّةٌ غِبْرَاءُ يُجْحَرُ ، مِنْ شَفَانِهَا ، الصَّرْدُ ٣
 وَإِنْ سَأَلْتَ قُرَيْشًا عَنْ ذَوَائِبِهَا فَهُمْ أَوَائِلُهَا الْأَعْلُونَ وَالسَّنَدُ ٤
 وَلَوْ يُجَمَّعُ رِفْدُ النَّاسِ كُلِّهِمْ لَمْ يَرْفِدِ النَّاسُ إِلَّا دُونَ مَا رَفَدُوا ٥
 وَالْمُسْلِمُونَ بِخَيْرٍ مَا بَقِيَتْ لَهُمْ وَلَيْسَ بَعْدَكَ خَيْرٌ حِينَ تُفْتَقَدُ ٦

١ - ٢ - جَحِدُوا : أي أنكروا أن لديهم رزقاً أو مالا . جُمَادَى : هنا للتدليل على الشتاء القاسي . الشيزى : القدور التي تُصنع من شيز ، وهو ضرب من الحشَب الأسود . مُكَلَّلَةٌ : مملوءة . الواري : السمين .

م : يمتدحهم بالكرم ويقول : إذا ما ضنَّ القوم الموسرون ، وجعلوا يُحاذِرُونَ إرتياد العافين ، أي طالبي المعروف لديارهم وأنكروا أن يكونوا مُوسِعِينَ ، ميسورين ، فإن الأمويين يعارضون جُمَادَى أي الشتاء بإغداقهم على النَّاسِ وبنلهم لهم ، فهو ينزل لهم الصَّبِيقَ والصَّيْمَ ، وهم يَرَفَعُونِهَا عن كاهل النَّاسِ ، بما يبذلونه في قصاعهم وقُدُورهم الكبيرة من طعام ولحوم دَسِيمَةٍ .

٣ - الشَّامِيَّةُ : أي ربيع شامية . غبراء : تُثير الغبار . يُجْحَرُ : يُحْبَسُ . شَفَانِهَا : الرِّيح الباردة ، الصَّرْدُ : المُصَابُ بالبرد .

م : يكرّر معنى البَيْتِ السَّابِقِ ، ويقول إنهم لا يزالون يُطعمون النَّاسَ فيما تعصف الرِّيح الشَّامِيَّةُ الباردة ، مثيرة الغبار ، حابسة النَّاسَ من شدة الصَّقِيعِ .

٤ - ذَوَائِبِهَا : جمع ذُوَابَةٍ : النَّاصِيَةِ ، وقد مثل بها هنا غاية الشَّرْفِ والسُّودُدِ .

م : يقول إن بني قريش يُقرّون للأمويين بسيادتهم وسؤدُدِهم وتقدّمهم عليهم ، جميعاً . ٥ - الرِّفْدُ : العَطَاءُ .

م : أي أن ما قد يبذله النَّاسُ ، جميعاً ، من عطاء ، لا يوازي عطايا الأمويين .

٦ - م : ينهي القصيدة بالقَوْلِ إن سلامته تُدِيمُ للمُسْلِمِينَ سلامتهم ، فإذا أفتقدَ ولّت ، إثره ، وامتنع الخيرُ عنهم .

فأنت لو نظرت في هذه الأبيات لبدا لك أن صورة الأمويين تهيمنَ عليها ،
 فيما تتضاعل المعاني التي خصَّ بها ممدوحيه عبد الله ويزيد . فهو يخاطبهما ظاهراً ،
 لكنّه يدعو ضمناً وعلناً للأمويين ، يتغنّى بأمجادهم ويعدّد مآثرهم ، ترّفده تلك
 النبرة الخطابية التي تنفّحُ في معانيه العنجهية والعنفوان والملمحية . ومنذ هذه
 القصيدة يشرع الأخطل في تأييد دعوتهم ، ذاهباً مذهبهم فيها ، وبخاصة في أمر
 القتال والتحكيم بصفين ، إذ كانت أبصار المسلمين ترقب واجفة ، فاذا بارادة
 الله تنزل بتأييدهم على أعدائهم : « أمدهم ، إذ دعوا من ربهم مددٌ » .
 وذكر الله في هذا المقام جعل لنصرهم بعداً دينياً كأنه إقرار لهم بأحقّيتهم في
 الخلافة . وليس في هذا المعنى إبتكار ، وإنّما قيمته في موافقته لمقتضى الحال ؛
 فهو يعظم من هذا القبيل إذ يروقُ الممدوح ، دون أن يكون له أيّ رصيد فنيّ .
 وينحدر ، من ثمة ، إلى المرافعة والاحتجاج ، ذاهباً فيهما ، أيضاً ، مذهب
 الأمويين ، متهماً خصومهم بالعدو والظلم ، إذ لم يُصنغوا إلى من ناشدهم في
 إنقاذ عثمان والكفّ عنه . وهذه المرافعة تصدّف بالشاعر عن التعبير الصوري ، الرائي
 إلى الجدل الخطابي والسرد ، ممّا يأنف منه ويعفُّ عنه الشعرُ الصافي ، المتخلّص
 من الشوائب والتفصيلات .

والأخطل يبثّ الدّعوة بثأً عبر الأبيات الأخرى ، إذ يجعل القتال والقتل
 عقاباً للمجرمين بجرمهم واذلالاً لهم عن كبرياتهم . وبذلك ألّف الأخطل قيمتين
 أساسيتين : أولاهما دينية إذ جعلَ الله نصيراً لهم والثانية عربية جاهليّة ، وهي
 نزعة الثأر الذي قدّسه الجاهليّون . لقد استقطبَ لهم طرفي الفضل والحق
 وخرجه تخريباً يؤاتيهم إذ يصون كرامتهم فيما هو يُغالي بتقواهم ،
 ويُعظّم فضيلتهم فيما هو يُغالي ببطشهم . وقد تهمد غلواء الشاعر ، حيناً ،
 فيقتصر على المعاني الإطلاقيه العامّة كقوله إنهم أفضلُ الناس في الحسب والعدد ،
 وهو قول نثريّ ، داني المتناول ، يكرّره ويتمطى به ، مفصلاً : « فلن يواز تكُم
 شيب ولا مردٌ » دون أن يوفق في السمو به ونفّحه بروح الشعر . وقد تراه
 متكئياً : « لا يزّمهراً ، غداة الدّجن حاجبهم » « باروا جمادى بشيزاهم »

إلا أن الوعي يسطع في الأبيات كُلِّها بمعنى الضيافة في أعراضها الساقطة ،
 التلاجمية : « واري الشحم والكبد » . وفضلاً عن كَوْنِ المعنى مطرُوقاً هنا ،
 فإن الشَّاعر جبا به حبواً وتزاحف ، مؤدياً معنى مدحياً عاماً ، فاقد الدلالة ،
 بخلاف مدحهم في نهودهم إلى الإباءة بالشَّار . ولا تعدو الأبيات الأخيرة هذا
 الوعي الأخلاقي الساطع ، والفاقد الإيحاء لتعمدُ الشَّاعر التقييم الاجتماعي .

وحتى هذه الأبيات لما نَعَثَر على النَّقحة الأخطيئة الخاصَّة في المدح ، فهو
 ما يزال يروِّض على المعاني يُدرك منها فلذات ملحمية ، ابداعية ويتدبِّر ،
 غالباً ، تحت وطأة الأفكار والمعارف والقيم الأخلاقية والاجتماعية الواعية .

وللأخطل قصيدة مدح في خالد بن يزيد ، استطرد منها إلى هجاء القيسيين
 وسائر أعداء بني تغلب ولم يخصَّها بمطلع في ذكر الأجرة والظعائن ، بل باشر فيها
 مدح الأمويين بالقول إنهم تساموا على القرشيين ، جميعاً ، وإنهم تسنموا
 ذرى المجد والسؤدد . ويشرع بامتداح خالد بن يزيد ، ويقول إنه يشرع أبوابه
 للعاقين ، فيما يشتدُّ القحط وتُنهر الضيوف عن دور الموسرين . ثم يفصح عن
 شدة إشارته للأمويين ويعرض بعض آرائه في الناس ، متفاخراً .

وليس في هذه القصيدة أجواء ملحمية ، إذ لم يكن خالد المدح ممن
 تمرسوا بقتال ولم يؤثر عنه مجد ، فتخطَّاه إلى بني قومه ، بعد أن اقتصر من مدحه
 بقري الضيف . وفي هذه القصيدة تطالعنا ظاهرة مدحية جديدة متصلة بنفس
 الشَّاعر وموقفه الأخلاقي إذ نجد أنه لا يعف عن الاستجداء الصريح :

رَأَيْتُ قُرَيْشاً ، حِينَ مَيَزَ بَيْنَهَا تَبَاحُثُ أَضْغَانٍ وَطَعَنُ أُمُورٍ ١
 عَلَّتْهَا بُحُورٌ مِنْ أُمِيَّةٍ تَرْتَقِي ذُرَى هَضْبَةٍ ، مَا فَرَعُهَا بِقَصِيرٍ ٢

١ - ٢ - تَبَاحُثُ أَضْغَانٍ : أي النقاش الذي كانت تسوقهم إليه الأحقاد ، مما أحدث
 شقاقاً فيهم . طَعَنُ : قلع . أُمُورٍ : أي لجزء بعض التداير والأفعال التي قام
 بها رؤساؤها . الفَرَعُ : من كل شيء أعلاه .

م : يقول عندما اشتدَّ الخصام بين القرشيين وحدث فيهم الشقاق بتنازعهم للأحقاد وبتعنهم ،
 بعضاً بالبعض الآخر ، فإن بني أمية سموا على القرشيين ، جميعاً ، وتسنموا ذراها
 كالشجرة العظيمة الأصل .

أَخَالِدُ ، مَا بَوَّأْتُكُمْ بِمُلْعَنٍ وَلَا كَلْبُكُمْ لِلْمُعْتَفِي بِعَقُورٍ ١
أَخَالِدُ ، إِيَّاكُمْ يَرَى الضَّيْفُ أَهْلَهُ إِذَا هَرَّتِ الضَّيْفَانَ كُلُّ ضُجُورٍ ٢
يَرُونَ قَرَى سَهْلًا ، وِدَارًا رَحِيبَةً وَمُنْطَلَقًا فِي وَجْهِ غَيْرِ بَسُورٍ ٣
أَخَالِدُ أَعْلَى النَّاسِ بَيْتًا ، وَمَوْضِعًا أَغْنِنَا بِسَبَبٍ مِنْ نَدَاكَ غَزِيرٍ ٤
إِذَا مَا اعْتَرَاهُ الْمُعْتَفُونَ ، تَحَلَّبَتْ يَسْدَاهُ بَرِيَانَ الْغَمَامِ مَطِيرٍ ٥

فالمعاني التي خصها الشاعر بهذه المناسبة انطلقت من تمجيد الأمويين وتعظيمهم على من دونهم في قرش ، ثم يقبل على خالد في معان ظاهرة ، يستبطن عبرها دلائل معنوية . وهو لا يعدو ذلك الإطار الذي يفيد فيه من التجارب العملية

١ - المعتفي : الذي يفد طالباً الرقد . العقور : أي الذي يعص .

م : يشرع في هذا البيت بامتداح خالد بن يزيد ، ويقول إنه يشرع أبوابه لمن ينتجعونها وإن كلابه لا تهر الأضياف ولا تعصهم . وتحرير المعنى أن خالداً كريم ، يحسن إيواء الضيف وإعالته .

٢ - ضجور : هنا اعة متضجرة من الضيفان .

م : يستكمل معنى البيت السابق ، ويقول إن الضيوف يأوون إليهم ، كأنهم يأوون إلى أهلهم ، فيما يكثر الجذب ، ويتصجر القوم من الضيوف الذين يفدون عليهم .

٣ - المنطلق : هنا التطلق والإشراق . بسور : عبوس . القرى : الضيافة .

م : يقول إن أولئك الضيفان يلقون عندهم الضيافة الطيبة ومكاناً وسعياً لهم ، ووجوهاً تتبسم وتتطقت ، ولا تعرف العبوس قط .

٤ - م : يمتدح خالداً بالعلو ويطلب منه أن يُنيله من عطائه الكثير .

٥ - المعتقون : طالبو المعروف . تحلبت : هنا انهمرت . الريان : هنا الممتلىء بالمطر .

م : يقول إن خالداً يُمطر عطاياه إلى طالبي معروفه ، كما يتهمر المطر من الغمام الريان الكثير الدر .

والجزئيات الواقعية كالبواب الملعن ، أي الذي يمنع الناس من ولوج باب الرزق والكلب الذي لا يعقر لمؤلفته القوم في إرتيادهم الدائم لاعتاب صاحبه . ولقد اقتصرَ ذكر الكلب اقتراناً حميماً بمعنى الضيافة عند العرب ، منذ الجاهلية ، عندما كانوا يسكنون الخيام وتقوم الكلاب على حراستها . أما البواب ، فهو ممّا طرأ واستجدّ عليهم ، منذ قيامهم في قصور الحواضر ، وقد تعانق في هذا البيت القديم والحديث ، رغم تعارضهما . فليس من المستساغ أن يمتدح شاعرٌ أميراً في قصره ، ذاكراً قيام الكلاب على بابه لحراسته ، بل أحرى به أن يقيم الجند ومن إليهم . إلا أن الأخطل لم يهدف من ذكر الكلاب إلى حدث فعلي ، بل إلى إشارة إيجائية ، مأثورة . ومهما يكن فإن مظاهر الحديث شرعت تسرب إلى القديم بصورة عقويّة ، هادئة ، كما نفع عليها في هذا البيت . ثم إن الأخطل لا يخرج من السؤال : « أغشنا بسبب من ندأك عزيز » وهو أمر عفاً عن التصريح به في امتداحه ليزيد . ولا ننسى أن الشاعر لم يوطد لنفسه بعد ، في البلاط ، كما أنه لم يعد سفير التعلبيين ، المقاتلين إلى جنب الأمويين ، ليفيد من ذلك دالة بل منة عليّهم . وربما مهد لذلك في مثل قوله :

وَلَوْ سَأَلْتُ عَنِّي أُمِيَّةٌ حَبَّرَتْ لَهَا بِاخٍ ، حَامِي الدَّمَارِ ، نَصُورًا
إِذَا انْقَشَعَتْ عَنِّي ضَبَابَةٌ مَعْشَرٍ شَدَدَتْ لِأُخْرَى مَحْمَلِي وَزُرُورِي^٢

وهو إذ يمتدح عبّاد بن زياد ، ينحى هذا النحو ، لا يستهل بالطلل بل بهجاء بني الصّماء ، قوم عمير بن الحباب ، في بخلهم وصعوبة انتجاع ديارهم على

١ - م : يقول إنّه إذا تحرّى عن موقفه من الأمويّين ، يرى فيه خير نصير ، يحمي ذمارهم كالأخ الذي يدافع عن شقيقه في الملمات .

٢ - المحمّل : هنا جفن السيّف . زُرُورِي : يعني هنا السلاح .

م : يقول إذا ما تفرّق بعض القوم ومالوا عني ، بعد أن أوقعتُ بهم ، فإنّني أهرع بسلاحي لملاقاة سواهم .

المُعْتَقِينَ . ويهجو ابن واسع بيُخله ويَلْعَنه وقومَه الذين لا يحرصون على حماية
 عرضهم ، وينتقل إلى مدح عبّاد ، مُقابلاً بينه وبين ابن واسع ، ويمتدحه بالكرم
 ويصف المطايا التي ارتحل إليه عليّها ، ويقول إنّها هُزِلها بدت كأخشاب القيسيّ
 وإنّما أخذت تُجنّهُض أولادها ، فيما تغوّرت عيونها ، فبدت كنفرة الجبل
 الفارغة من الماء ، وإنّما ، مع ذلك ، لم تكُفّ عن السير ، لتبُلغ إلى عبّاد وتنتجع
 عطاءه ، ثم يمتدحه بصبره على النوائب وفائه لذوي الرّحم وبالخير الذي ينعم به
 وانتجاع بائسي الحجاز لدياره ، عندما يشتدّ عليهم الشتاء وعصف الريح ، ويمثله
 بالهلال الذي يبدّد ظلام الخطوب ويعدّد عطاياه ويعظّم من أمرها ، ويُشيد
 بهرعه للضيف والطعام الذي يقدمه له من خلال الإبل التي ينحرها والقذور الملائى
 باللحم ، ويُنهي القصيدة بالقول إن الطير والسباع تلحق به فيما ينهض للثأر
 من أعدائه . وهو يعرّج على المدح بقوله ، بعد وصف المطايا وخوضها في السراب :

يَعْمَنَ بنا عومَ السفينِ ، إذا انجلتْ سحابةٌ وضّاحِ السرابِ ، خبُوبِ ١
 إِلَيْكَ أبا حربٍ ، تدافَعنَ بعدما وَصَلنَ لِشَمْسٍ مَطْلَعاً بَغُروبِ ٢
 إلى مُسْتَقِلِّ بالنوائِبِ ، واصِـلِ قِرابَةَ فياضِ العطاءِ ، وهُوبِ ٣

م : يقول إنّهُ يمتاز بها سُبلاً قديمة مُضَلّلة تبدو أعلامها ، فيما يَغشاها السراب ، كرجال
 اعتصبوا بقطع الكتان .

١ - العوم : هنا الارتفاع في السباحة . الوضّاح : الطريق . السحابة : هنا السراب .
 الخبُوب : المُضطرب على الأرض .

م : يقول إنّ تلك المطايا ترتفع في تصعيدها ، كأنها تعوم بهم عوماً ، عندما يتنجلي السراب
 المُضطرب وتبدو من دونه الطريق الواضحة المعالم .

٢ - م : يخاطب الممدوح ، ويقول إنّها كانت تعدو وتتدافع في سيرها لتبلغ إليك غير
 مُتقطّعة في دأبها ، منذ الصّباح حتى المساء .

٣ - م : يمتدحه ، ويقول إنّهُ لا يزال يهزأ بالنوائب التي تحلّ به ، وإنّهُ يفِي بذوي الرّحم ،
 وإنّهُ لا يزال يُغدق العطاء والرّفد .

وما أرضُ عبادٍ ، إذا ما هبَّتْهَا ،
 ربيعُ لهلاكِ الحجازِ ، إذا ارتمتْ
 وطارتُ بأكنافِ البيوتِ ، وحارَدَتْ
 إليه أشارِ الناظرونَ ، كأنَّهُ
 ولولا أبو حربٍ وفضلُ نوالِهِ
 جاني بطرفِ أعوجي وقينِةٍ
 بحزنٍ ولا أعطانها بجُدوبِ ١
 رياحُ الثريِّا من صباً وجنوبِ ٢
 عن الضيفِ والجيرانِ ، كلُّ حلوبِ ٣
 هلالٌ بدا من قُتْمَةٍ وغُيوبِ ٤
 عَلَيْنَا ، أتانَا دَهْرُنَا بخُطوبِ ٥
 من البربرياتِ الحصانِ ، لعوبِ ٦

١ - الحزن : ما غلظ من الأرض . أعطانها : منازلها .

م : يقول إنك إذا ما نزلت في دياره لا تلقىها مُجندبة قاحلة بل إنتها ذات خصب . يشير بذلك إلى ثراء الممدوح والخير الذي يتنعم فيه . معارضاً بينه وبين القوم الذين هجأهم في هذه القصيدة بالقول إنهم يُقيمون في أرض حرّة مُجندبة .

٢ - الهلاك : هنا المُصابون بالجوع والهزال .

م : يقول إن بانسي الحجاز المُصابين بالجوع والإملاق ، لا يزالون يقزَعون إليك ، عندما يشند عصف الشتاء ويحاصرهم الجذب والفقْر .

٣ - حارَدَتْ : انقطعَ لبَنُها .

م : يستكمل المعنى الذي يصف به الشتاء . ويقول إن الريح تعصف فيه حول البيوت وتطير أكنافها ، فيما ينقطع لبن الإبل ويضنُّ به على الجيران ومن يطرأ من الضيوف . أي أنه يعطي فيما يعز العطاء .

٤ - م : يقول إنه إذ تدهمّ المصائب ويظلم مصير الناس ، فإنه يطلع عليهم كالهلال من خلال الظلمة والغيب : أي أنه لا يزال يُقبل الناس عثراتهم وينجّهم من الخطوب التي تحمل بهم .

٥ - م : يقول إن عطايا الممدوح أنقذته من ويلات كان الدهر مُزْمعاً أن يتزلها به .

٦ - م : يقول إنه منحه إبلًا أعوجية كريمة وجارية بربرية مُحصنة ، ذات دل .

وحمالٌ أثقالٍ ، وفراجٌ غمرةٍ وَعَيْثُ لِمَجْلُومِ السَّوَامِ حَرِيبٍ ١
كريمُ الضَّيْفِ ، لا عاتمُ القرى ولا عندَ أطرافِ القنابِ بهيَوبٍ ٢

وهذه الأبيات تختلف على معانٍ مُتَعَدِّدَةٍ إِلَّا أن ثَمَّةَ معنى عامًّا يُهَيِّمِنُ عَلَيْهَا ، هو معنى الكرم الذي يَهَبُ ويفضُّ وَيَغْشَى الثَّرَى أو يَنْبَعِثُ منه وَالَّذِي يعارض القحط والشتاء كأنه الربيع الدائم . فهو يَعْرِضُ للكرم ، حيناً ، يَنْعُوتُ الكَثْرَةَ : « فَيَأْضُ ، وهوب » ووزناً « فَعَّالٌ » و « فَعُولٌ » هما من أمثلة المبالغة التي تدلُّ على الكثرة بطبيعة صياغتها ، ممَّا يُسِفُّ من وظيفة الخَلْقِ في شعره ، وَيُحِطُّ من قدرها . ويجري على غرار ذلك تكراره للنعوت وتلاحقها ، إذ أَنَّهُ ضَرَبَ من الحَشْدِ الآليِّ التَّجْرِيدِيِّ ، لا يُعْتَمُّ أن يَنْهَضَ عليه بالكناية القرية اللطيفة : « وما أرض . . . بجزن وما أعطانها يجدوب » أي أَنَّ مُنتَجِعَهُ مُنتَجِعُ حَصْبٍ ، وقد مثله من خلال أرضه ومقامه ، كما أَنَّهُ يَخْلُصُ إلى نوعٍ من المعارضة والناقضة ليَقِيدَ منه الغلوَّ . فالشتاء لا يزال يُرْمَزُ إلى الفقر والإملاق والهلاك في ذهن العربيِّ ، إذ تقفر فيه الطبيعة ، وهي أمُّ البدائيِّ ، يرتضع فيها من أُنْدَاءِ الأَرْضِ . فإمَّا جَفَّتْ وَأَيْسَتْ ضَاقَتْ حِيلَتُهُ وَأَحْدَقَ به الإملاقُ . والشاعر العربيُّ قَلَّمَا يُسَمِّي الشَّتَاءَ بِاسْمِهِ ، فَيَتَكَنَّى عَلَيْهِ بِأَحْدَاثِهِ فِي ذُرُوتِهَا المُطْلَقَةِ : « رِيحُ الثَّرِيَاءِ من صِبَاً وجنوب » ورياح الثرياء هي ربيع المطر والعاصفة والصقيع ، تهبُّ حول البيوت ، فَيَجْفُ المَرْعَى وتَجْفُ ، من دُونِهِ ، أُنْدَاءُ الماشية .

١ - المَجْلُومُ : الذي أخذ الدهر ماله . السَّوَامِ : الإبل الرأعية . الحريب : المسلوب المال .
م : يقول إنَّه لا يزال يحمل عن الناس أعباءهم ويفرج أحزانهم ويُنجد من أصابه الدهر بإبله وماله ويعوضه عنها .

٢ - عَتَمَ : حبس وأختر .
م : يقول إنَّه يكرم ضيفه ولا يحبس عنه الرِّفْدَ والقِرَى ، بل يعجلهما له ، كما أَنَّهُ لا يهاب القتال بل يقتحمه مُتَعَرِّضاً فيه للمخاطر .

هكذا تمُّ تلك الصُّورة السَّليبة ، وكما أقبل كالرَّبيع فيما تقدَّم ، فإنَّه يُقبَل الآن
كالهلال :

إليه أشار النَّاظِرُونَ كَنانَهُ هلالٌ بسدا من قُتْمَةٍ وَغُيوبِ

ذاكَ كانَ وجهاً من وجوه كرمه ، يُنفذ به هلاكَ الحجاز ويُقبَلُ عَلَيَّهِم
كالرَّبيع أو يطلُّ كالهلال. وهُنَّاكَ وَجْهٌ آخِرٌ ، بل وَجْهٌ خاصٌّ بالشَّاعر ، عدَّد
فيه مظاهر الكرم الَّذي يُؤثره ويطيِّبُ له والَّذي يتمثَّل بالإبل الأَعوجِيَّة والجواري
الجميلات العذاري . وذكره للأُمور الأخيرة هو ضرب من الاستجداء في استعطَاء
ما لم يُعطَ وتحقيق ما لم يتحقَّق . هذا مدح لا يُثيره الإعجاب ولا يَصْفِرُهُ أو
يُظْلَهُ ولا تَشْحِذُهُ الإلْفَةُ أو المودَّة .

وللأخطى قصيدة في مدح سَلَمِ بن زياد ، استهلَّها بذكر صاحبه ميِّ ، ونأى بها
وتهدئمه وهرمه وهزء النساء به . ثم يصف الطَّعَّانَ ويشبَّهها بالسَّفن والنَّخيل
الذي يغمره الآل . وبعد أن يُؤدِّي بعض خطرات في طبع النساء وغدرهنَّ ،
يشير إلى صحَّبه الذين صحبهم في الفلاة ، حيث تعصَّفت الرِّيح بعمائمهم ، وإلى
النَّاقة التي امتطَّها إلى الممدوح ، وهي تسرع في عدِّوها ويشبَّهها بالثَّور
الوحشي الَّذي يستطرد إلى ذكره في أبيات عديدة ، واصفاً التَّجاءء إلى شجرة
العضاء والمطر والرِّيح ومطالعة الكلاب له غبَّ الصِّباح وهروعها إليه لاحقة به
وارتداده عليها وطعنه لها بقرنيته مخلفاً إيَّاهَا من دونه . ثم يعود إلى ذكر المطايا
والآل الذي خاضت فيه ، وهزأها من عناء السَّير ويشبَّهها بالذَّئب العادية في
القفر ويتخلَّص من ذلك كلِّه إلى سَلَمِ بن زياد ، فيمتدِّحُه بحسن الضيافة والشجاعة
والمودَّة والنُّصح والعزم وبالكرم في احتمال الدِّيَّات. ولا تعدو أبيات المدح الستة
كما يلي :

إلى امرئ لا تخطأه الرِّفاقُ ، ولا جَدْبِ الخِوانِ ، إذا ما استبْطِيءَ المرقا

١ - م : يلم في هذا البيت بالمدح المباشر ، ويقول إنَّها كانت تسير إلى امرئ سباق ، يكرم
الصَّيف ولا يزال خوانه معداً له .

صُلْبِ الْحَيَازِيمِ ، لا هَذَرِ الْكَلَامِ ، إِذَا هَزَّ الْفَنَاءَ ، وَلا مُسْتَعَجِلُ زَهَقُ ١
وَأَنْتَ يَا بَنَ زِيَادٍ عِنْدَنَا حَسَنٌ مِنْكَ الْبَلَاءُ ، وَأَنْتَ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ ٢
وَالْمُسْتَقِيلُ بِأَمْرِ ، مَا يَقُومُ لَهْهُ غَسٌّ مِنَ الْقَوْمِ ، رِعْدِيدٌ ، وَلا فَرِيقُ ٣
وَأَنْتَ خَيْرُ ابْنِ أُخْتٍ ، يُسْتَطَافُ بِهِ إِذَا تَزَعَزَعَ فَوْقَ الْفَيْلَقِ الْخَرِيقُ ٤
مُوطَأُ الْبَيْتِ . مُحَمَّدٌ شَمَائِلُهُ عِنْدَ الْحَمَالَةِ ، لا كَرٌّ وَلا وَعِيقُ ٥

ومعاني هذه الأبيات تنصرف إلى المدح بالقوة والشجاعة والحكمة فضلاً عن الكرم ولا تختص بخاصة تؤثر فيما دون ذلك .

خلاصة حول مدحه لبني سفيان : قد تُعتبر مدائحُه في السُفْيَانِيَيْنِ سبيلاً له إلى التمرُّسِ برياضة النظم في شتى موضوعاته ومعانيه . ففيها ذكر الطَّلِّ والحبيبة والظعينة والمفازة والصيِّد والثور والمطر والبرق والرعد ، وكلُّ غرض

- ١ - الْحَيَازِيمِ : جمع حيزوم وهو هنا الصَّدر . الهَذَرُ : الكلام الكثير . زَهَقَ : عديم الصبر .
م : يمتدحه بالشجاعة والإقدام على الحرب غير مستعيب عنها بالكلام ولا متضجر فيها ، قليل الصبر .
- ٢ - م : يخاطب الممدوح ويقول له إنك قدّمت لنا الحسنى والنصح والمودة .
- ٣ - الْغَسُّ : الرعد ، الْحَبَانُ . الْفَرِيقُ : الشديد الفزع .
م : يقول إنك تنهض إلى المآثر الجلّى التي يعيا من دونها الجبناء ، الفاقدو الشجاعة .
- ٤ - الْخَرِيقُ : جمع خيرقة : الرأية . تَزَعَزَعَ : تحرك .
م : يقول إنك خير من يفزع إليه القوم ، عندما تتحرك الرايات وتخفق فوق الكتيبة .
- ٥ - مُوطَأُ الْبَيْتِ : أي أن الضيوف لا تزال تلهج وتطأ فيه . الْكَرُّ : البخل . وَعِيقُ : حريص .
الحمالة : الدية يحملها أمرؤ عن سواه حقناً للدماء .
م : يمتدحه بالكرم وحسن الصيافة والأخلاق . ويقول إنك لا تزال تؤدي الديات عن أصحابها دون تباخل أو حرص .

آخر من أغراض الشعر . ولقد أوفى في ذلك إلى إمتلاك ناصية العبارة والصورة والقدرة على تلمس المظهر الموحى ، البعيد والقريب المتآل ، وحشد الألفاظ في سياقها وتوقيهها وتأليفها ، كما أنه تروّض بمعظم المعاني المدحجة دون أن يوفي منها إلى ذروتها الحاشدة . ذلك أنه كان لا يزال في طور المهادنة السياسية ، يعتريه همُّ الخلاص من أيدي الأنصار ، وقد أفاد منه في التقرب والاستجداء . ولعلّ قدومه الحديث إلى البلاط لم يوطّد له في الهيبة ، فراه لا يخرج من الطلب الصريح ، ممّا سيعف عنه بعد أن يتوقع مع بني قومه إلى جانب الأمويين تواقعاً دامياً ويدرك من الأحداث جانبها الفاحع . فمدائح الأخطل متأثرة بواقعه النفسي والاجتماعي ، تركدُ بركوده ، وتحفز وتشتار به ، حتى توفى إلى أوجها .

الباب الرابع

مدائحه في عبد الملك بن مروان

بحسبنا فيما تقدّم علاقة الأخطل وعبد الملك ومدى دالته عليه وإيثار أحدهما للآخر ، وعددنا مطالع القصائد التي أمتدحه بها ، وإنما نود أن ننوه فيما يلي بعنصر مهمّ ولج على مدائحه في عبد الملك ولم يسئل له ذكرٌ إلاّ لماماً فيما تقدّم من مدائح ، ذلك هو العنصر السياسي الذي ألف بين مصيري المروانيين والتغليبين ووجد بينهم في التحالف مع الأحلاف والاقنتال مع الأعداء . وبعد أن كان الشاعر يقتصر في مدائحه السابقة على الموضوعات الوصفية التقليدية جعل الآن يستطرد إلى ذكر الوقائع بين التغليبين وأعدائهم ، مفصلاً ، ومعدداً لأسماء الأشخاص والأحداث ، حتى يوفى إلى المديح المباشر في أبيات تطول أو تقصر ، وقلماً تصفو للمدح الخالص .

ففي رأيته التي امتدح بها عبد الملك ، تفرغ لموضوعات متعدّدة إذ نراه يستهلّ بذكر حبيته هند ويتمنى لها خيراً ويصفها بأوصاف الغزل ثم يتصدى

للقيسيّين ويزراً منهم لقتلهم بني تغلب ويشمت بانشقاقهم ، بعضاً على بعض ،
ويخصّ العجلانيّين منهم بهجاء مُقنّذع إذ يصور إملاقهم وحرصهم وتقتيرهم
على أولادهم وقلة قدرهم وشظف عيش نسأهم ودأبن على الخدمة كالإماء ،
حتى بُرِيَتْ أكَعَابُهُنَّ ، وتقيّحت أعجازهنَّ . وبعد أن يهجوهم بالدنس ،
يعرّض بابن بدر وهربه من دونهم ، ناجياً بنفسه ، ويستطرد إلى وصف دقائق
هربه ، ذاكرراً فرسه السريعة العدو والآل الذي خاض فيه بها ويشبّها بالعقاب
المسرعة إلى وكرها ويذكر العرق المتصّيب منها ، ثم يهجو العامريّين الذين
يبعون أولادهم عبداً وبني سليم الذين تولّوا من التّغليبين ولجأوا إلى الوءءء
والأراضي السّوءاء . ويفخر بعفوهم عن بني سلول ويشير إلى حقه على بني
ذبيان وما كان من أمر بني دخان ويعود إلى ذكر ابن بدر ويوم الثّثار ، ويخاطب
عبد الملك مُشيداً ببني قومه الذين أكرهوا القيسيّين على مبايعته ويحذّره منهم
ويعدّد المعارك التي انتصروا فيها ، ويفخر بذلك ولا يغفل عن فتكهم بعُمير بن
الجباب وقطعهم لرأسه ، وينهي القصيدة معظماً من أمر بني قومه ، مُزرياً
بالقيسيّين .

وبعد أن يذكر حبيته بقوله :

ألا يا اسلمي يا هندُ بنتَ بني بدرٍ وإنْ كانَ حيانا عدىَ آخرِ الدَّهرِ
يُخاطب القيسيين :

لَقَدْ حَمَلَتْ قَيْسَ بنَ عَيْلانَ حَرْبُنا على يابِسِ السَّيِّءِ مُحدِوِبا الظَّهْرِ
ويهزأ من ابن بدر في هربه :

وَنَجَّى ابنَ بَدْرِ رَكضُهُ من رماحنا ونضّاحة الأَعطافِ ، مُلهَبَسةِ الحُضُرِ

ويهدّد الاعداء ساخرأ من هزائمهم ، ممهّداً بذلك لاستعراض قوّته أمام
المددوح . فهذه المقطوعات تُلج في صلب القصيدة المدحية ومُتّنها ، وإن

كان موضوعها يتباين ، ظاهراً عنها ، مما سنعرض له خلال حديثنا عن أهاجي الأخطل ومفاخره . ولعلّه أشار إلى قائل أو كثير من ذلك في قوله :

أَعْنِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَائِلٍ وَحُسْنِ عَطَاءٍ ، لَيْسَ بِالرَّيِّثِ النَّزْرِ ١
وَأَنْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا بِنَا إِلَى صُلْحِ قَيْسِ يَابْنِ مَرْوَانَ مِنْ فَقْرٍ ٢
فَإِنَّ تَكُ قَيْسٌ ، يَابْنَ مَرْوَانَ ، بَايَعْتَ فَقَدْ وَهَلْتَ قَيْسٌ إِلَيْكَ ، مِنْ الْعُدْرِ ٣
عَلَى غَيْرِ إِسْلَامٍ وَلَا عَنُ بَصِيرَةٍ وَلَكِنَّهُمْ سَيَقُوا إِلَيْكَ عَلَى صُغْرِ ٤
وَلَمَّا تَبَيَّنَّا ضَلَالَةَ مُصْعَبٍ فَتَحْنَا لِأَهْلِ الشَّامِ بَاباً مِنَ النَّصْرِ ٥
فَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنَّا هَوَازِنُ كُلِّهَا كَوَاهِي السُّلَامِي . زَيْدٌ وَقَرَأَ عَلَى وَقْرٍ ٦

- ١ - م : يخاطب الخليفة ويطلب إليه أن يمدّه بعضاء كثير .
٢ - م : يقول مخاطباً الخليفة : إنك أنت أمير المؤمنين أي إنك صاحب السُلطة والحوّل والقدرة ، لا تفتقر بها إلى عقد الصلح مع قيس عيلان . وقد كان الأخطل يخشى أن يؤلف الأمويون القيسيين ، فيُلغى التغلبيون دون عضد بعضهم على أعدائهم وهو لا يبرح لذلك يحذر الخليفة من تقديم القيسيين وإيثارهم وتأليفهم .
٣ - وهَلُوا : أي نزعَت إليك عن خوف .
م : يحذر الخليفة ويقول إن القيسيين هرعوا إلى مبايعته خوفاً من فتكهم بهم ، إثر مناصرتهم لابن الزبير ومقاتلتهم دونه . وهم بايعوه ليعتذروا له عمّا أسلفوه له من عداء ليصفح عنهم . فهم لم يبايعوا عن اختيار بل عن اضطرار .
٤ - م : يكرّر معنى البيت السابق ويوضحه ، ويقول إنهم لم يبايعوا عن عقيدة وإيمان وهداية ، لكنهم دُفِعوا إلى ذلك دُفعاً وسيقوا إليه صاغرين مُكرّهين .
٥ - م : يقول : إننا إذ تحقّق لنا أن مصعباً كان ضالاً عن سوية الحقّ والدين من دوابكم ، ناصرنا أهل الشّام عليه ، فانتصروا بنا . والأخطل يسوق إلى الخليفة ما قد يسوقه المسلم وفقاً لمبادئ الدين وسنته .
٦ - السُّلَامِي : عظام خفّ البعير . الوقْر : الصدع في العظم .
م : يشير إلى ما أنزله بنو قومه من قتل وبطش في بني هوازن وهم من بطون قيس ، ويقول إنهم غدوا كالعظام التي صدّعت وازدادت تحطيماً .

سَمَوْنَا بَعْرَيْنِ أَشَمَّ وَعَارِضٍ لِنَمْنَعَ مَا بَيْنَ الْعِرَاقِ إِلَى الْبِشْرِ ١
فَأَصْبَحَ مَا بَيْنَ الْعِرَاقِ وَمَنْبِجٍ لَتَغْلِبَ تَرْدِي بِالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ ٢
إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَسِيرُهَا تَخُبُّ الْمَطَايَا بِالْعَرَانِينَ مِنْ بَكْرِ ٣
بِرَأْسِ امْرِئٍ ذَلِّي سَلِيمًا وَعَامِرًا وَأَوْرَدَ قَيْسًا لُجَّ ذِي حَدَبٍ غَمْرٍ ٤
فَأَسْرَيْنَ خَمْسًا ، ثُمَّ أَصْبَحْنَا ، غُدُوَّةً يُخَبِّرُنَا أَخْبَارًا أَلَدَّ مِنَ الْخَمْرِ ٥

١ - العرينين : الأنف . العارض : الجمع الكثير وأصله في السحاب المترامك الكثير المطر .
البشر : موضع بين العراق والشام ، وفيه قتل الجحاف بن حكيم بن تغلب ، وكان
الأحطل قد تظلم إلى الخليفة من ذلك اليوم بالقول : « لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة »
إلا أنه يتخذ هنا من ذكره منخرة ، ويقول إنهم ارتادوا المرباع القائمة بين العراق
وموضع البشر بجيوشهم العظيمة واحتلوها ومنعوا عنها كل من دونهم .

٢ - منبج : قرية بينها وبين العراق ثلاث فراسخ . تردي : تمشي . الردينية : نسبت إلى
ردينة في البحرين ، بنبت فيها القنا .

م : يذكر المواقع التي احتلوها بقوة سلاحهم ويفخر بذلك .

٣ - العرانيين : جمع عرينين : الأنف وهنا الأسياد .

م : يقول مخاطباً الخليفة ، متفاخراً بأنهم كانوا يسوقون إليه رؤساء بكر وأسيادها أسارى
تخبُّ بهم مطاياهم إلى الشام .

٤ رأس امريء هو عمير بن الحباب . ذلتي : من تدلية الدلو ، أي أنه ساقهم إلى ما كان
يبتغيه من أمر وغرر بهم . لُجَّ : معظم الماء . الحدب : البحر . الغمر : الماء الكثير .

م : يقول إنهم ساقوا إليه رأس عمير بن الحباب الذي كان قد غرر بسليم وعامر وساق القيسيين

٥ - م : يقول إن تلك الخيول عدت برأس عمير طوال خمس ليال ، حتى أدركت الشام
غدوة وحمل فرسانها إلينا أخباراً تطيب لها النفس بما هو ألد من الحمرة . وتشبيهه
للذة الخبر بلذة الحمرة ، قد يكون مستفاداً من تجربته الحمرية .

ففي البيت الأول تراه يَسْتَجِدِّي استجداءً صريحاً ، طالباً العطاء الكثير ، مُفَضِّياً بمطمعه الشَّخْصِي ، مُسَخَّراً الشَّعْرَ لغرض مَعْرُوزٍ عنه ، لا يسيغه ولا يتمثِّله . وبدلاً من الصورة الحسيَّة المبدعة تُطَالَعنا الفكرة الجدليَّة الحوارية ، فهو يرفض مصالحة القَيْسِيِّين ، لأنَّهم بايعُوا بالأكره والقَسْر ، من دُون إيمان أو رويَّة . فهذا الشَّعْر هو شعر العرض والإعتراض والابانة والنَّقاش ، تسمُّه نبرته الخطابيَّة المُلازمة بسمة الانفعال الشَّعْرِي من اصطخاب الألفاظ والوَزْن والقَوَافِي وتداول صيغ النَّفْي : « وما بنا » والشَّرْط : « وإن تكُّ » والنَّداء : « يا بن مروان » والاستدراك : « ولكنَّهم » والظَّرْف : « ولما » ، وهذه الحركة السَّريعة الحاشدة في تبايُن الصَّيغ تمُّ عن الحماس والتألُّب والاحتشاد :

ومن النَّاحية الفنيَّة ، فإنَّ الصَّبغة السياسيَّة غلبت على هذه الأبيات ، فلم تبين فيها معالم الروح ، بل إنها أدنى إلى النَّصح ، بل إلى التَّهْيي والتَّحذير ، وهي أحوالٌ لازمتْ قضاؤه من إلتباس واقعه القبلي السِّيَاسِي وواقع المدح في قتاله لاعدائه ومصالحتهم أو مهادنتهم . وإذا كان الأخطل يَخْشَى الصُّلْح أن يعقد بين القَيْسِيِّين والخليفة ، فلا نزالُ نجده عاملاً على الصَّاق كُلِّ شبهة بالخصوم وتمجيد بني قومه في دفاعهم عن الخلافة . ولقد يكونُ الأخطلُ في مثل ذلك صادقاً ، مُخْلِصاً ، ولقد يكون حسن الدِّفاع عن صالح القبيلة ، لكنه يَفْتقر إلى التأمُّل والرويَّة والتَّحرُّر من سجل الأحداث ووقائعها ليرود التَّجربة الشَّعْرِيَّة الصَّادقة . ومثلُ هذه البيئات والحجج أدنى إلى واقع الخطابة منه إلى واقع الشَّعْر . وربما دنا إلى شيءٍ من ذلك بقوله :

سَمُونَا بَعْرَيْنِي أَشْمٌ وَعَارِضِي لِنَمْنَعِ مَا بَيْنَ الْعِرَاقِ إِلَى الْبِشْرِ
أَوْ قَوْلُهُ :

« تَرْدِي بِالرُّدَيْنِيَّةِ السُّنَرُ » « يُخْبِرُنَ أَخْبَاراً أَلَدَّ مِنَ الْخَمْرِ »

وأياً ما كانت الحال ، فإن صورة الخليفة الخاصة به ظَلَّتْ مُتَوَارِيَةً ، فيما وراء الحجج والإحتجاج حتى ليمكننا القول أن فنَّ المدح فيها جاء باهت الظل .
فيما تعاضم فخره وهجاؤه .

ولقد يَبْدُو الخليفة أكثر حُضُوراً عبر قصيدة بائئة أُخْرِى استهلها بذكر سُراه على ناقة ضامرة يصفُها في نحو ثلاث أبياتٍ ويشبّها بالقطا الشديدة الظماً التي تُسْرِع في طيرانها لورود الماء ونقله إلى فراخها (٤ - ٧) ويعود إلى وصف المطايا (٨ - ١٤) ذاكرًا ما عانتَه من مشقة السّفر والسبيل الذي اجتازه الأقوام الذين مرّت بهم أو تجاوزتهم . ويباشر المدح (١٥ - ١٩) مُتَعَتِّباً بفضائل الخليفة ، خاصاً منها شدة إيمانه ويؤمن طلعتَه وكرم مُنتجعه وشدته في الحرب ، مُسْتطرداً إلى وصف خيابه في القتال بنحو عشرة أبيات (٢٠ - ٢٩) ويقول إنّه يمضي فيها إلى الحرب التي تَمَرَّست بها ودأبت عليها وإنها لا تعود منها إلا مهزولة أُصِيبت بالوجا والهلاك . فهو لا يبرح يغزو بها الرُّوم ، حيث تطرح أولادها في الطريق وتجهض بها من شدة ما يصيبها من الإعياء . ومن ثمَّ يعود إلى مباشرة المديح (٣٠ - ٣٢) ، معظماً من أصل الخليفة وكرم محنده ، مُعلنًا أن الله آثره بالخلافة لما رأى فيه من فضل . ويميل ، إثرئذ ، إلى مخاطبة القيسيين (٣٣ - ٤٠) مُتفاخراً عليهم بشدة ما أوقع بنو قومه فيهم ، ذاكرًا الأعداء الذين تآلبوا عليهم وعظم ما أنزلوا بهم من خسائر ، معيّنًا الأيام ، مُسمّياً لها وللقبائل بأسمائها ، مُعيداً إلى الأذهان ما كان من أمر القيسيين والمروانيين في مرج راهط ، مُمتدحاً جنودهم وخيلهم وأحقيتهم بولاية المُلك وعراقتهم فيه (٤١ - ٤٧) . وينتهي القصيدة بهجاء بني كليب ، قوم جرير الذين يمثلهم بجداء الماعز لحقارتهم ويقول إنهم يَرِدون في ذيل النَّاس ، وإن بيوتهم محرّمة لا يتجمعها الضيقان ، ويزري في البيت الأخير بجرير الذي أعيا في الدفاع عن قبيلته .

ولقد تناول الشّاعر في هذه القصيدة معظم الأغراض التي يُعنى بها بصورة عامة . فقد ألمّ فيها بمدح الأمويين وهجاء بني قيس وبني كليب كما أنّه عرض خلالها للوحات من الوصف الذي يستطيل به سياق القصيدة بنوع من النموّ الخارجي .

وهذه القصيدة تحفل كمعظم قصائده بالمعاني الجليلة التي عبر عنها بأجزل حلل
 اللَّفْظ والصِّيَاغة ، كما أنه حشد لها قدرته في إنتخاب المشاهد الحسيّة الموحية ،
 فضلاً عن حذقه في أن يؤدّي لكلّ موضوع معانيه الماثورة التي يسلك فيها السبل
 الصّعبة ويرتادها في أقصى ما يدركه الذّهن منها . ولقد نفحها ، جميعاً ، بنوع
 من الانفعال المتجسّد بصور الغلوّ والذي يبلغ أشدّه فيما يتعرّض لأعدائه القيسيّين ،
 هاجياً أو مُتفاخراً .

يقول في مطلع القصيدة ، واصفاً المطيئة :

لَعْمَرِي ، لقد أُسْرَيْتُ ، لالَيْلِ عَاجِزٍ بِسَاهِمَةِ الخَدَيْنِ ، طَاوِيَةِ القُرْبِ ١
 جُمَالِيَةِ ، لا يُدْرِكُ العيسُ رَفْعَهَا إِذَا كُنَّ بالرُّكْبَانِ ، كَالقِيمِ النُّكْبِ ٢
 مُعَارِضَةٍ خُوصاً ، حَرَاجِيجَ ، شَمَرَتُ لِنَجْمَةِ مَلِكٍ ، لا ضَيْلٍ ، ولا جَابٍ ٣

١ - أُسْرَيْتُ : من السَّرَى : سير الليل . السَّاهِم : الشَّاحِب الضَّامِر . القُرْب : جانب السّرة .
 م : يقول إنّه اجتاز الليل ببأس وقوّة على ناقة ضامرة الخدين والخاصرتين .

٢ - جُمَالِيَةِ : أي أن خلقها خلق الحمل . العيس : الإبل البيض . رَفْعَهَا : ارتفاعها . القِيم :
 جمع قامة ، وهي خشبة تعلق عليها البكرة .

م : يقول إنّه ناقة شديدة كالفحول مرتفعة الهامة ، لا تدركها سائر النّياق ، وإنّ الرُّكبان
 يبدون عليها كالأخشاب المُنتصبّة ، المائلة التي علاها البكر .

٣ - الخوص : الغائرة الأعين . الحَرَاجِيج : الضوامر . الشُّجَعَة : من إنتجاع الغَيْث وهو
 فيه . الضَّيْل : النحيف . الجَاب : الغليظ .

م : يستكمل وصف النّاقة ، ويقول إنّه تنافس في السّير سواها من النّياق الغائرة العينين ،
 الضّامرة ، وإنّها تعدو بسرعة إلى إنتجاع منازل ملك قويّ ، ليّن العريكة .

إِلَيْكَ ، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، رَحَلَتْهَا عَلَى الطَّائِرِ المَيْمُونِ وَالمَنْزِلِ الرَّحْبِ ١
إِلَى مُؤْمِنٍ تَجَلُّو صَفِيحَةً وَجْهَهُ بِلايِلِ تَغْشَى ، مِنْ هُمُومٍ وَمِنْ كَرْبٍ ٢
مُنَاخُ ذَوِي الحَاجَاتِ ، يَسْتَمْطِرُونَهُ عِطَاءَ كَرِيمٍ مِنْ أَسَارَى وَمِنْ نَهَبٍ ٣

وفي هذه الأبيات يُباشِر الأخطل المدح ، لكنّه يقف فيه عند حدود عرفت في مدحه لعبادٍ وسلم ابني زياد ومن إليهما في العطاء والاعداق على من ينتجعون مقامه . إلا أنه يخصّه بالإيمان وتبديد الهموم بنور طلعتة وشعاعها . ومع أن أيقاع الأبيات شجيٌّ ، مُقنَّع ، فإن الانفعال المبدع لا يترآلُ راكداً فيها مكروراً في معانٍ شبه تقليديّة . إلا أنه لا يُعَم أن ينبري من ذلك إلى الأجواء الملحميّة من خلال وصفه لخياله في القتال :

إِمَامٌ سَمَا بِالحَيْلِ ، حَتَّى تَقْلَقَلْتُ قِلائِدُ فِي أَعْنَاقِ مُعْلَمَةٍ ، حُدْبٍ ٤

- ١ - الطائر الميمون : الطائر الذي يُزجر ، فيتجه إلى اليمن ، مبشراً بالقأل والخير .
م : يخاطب الخليفة ، ويقول له إنه ساق مطاياها في تلك المشقات إلى فئانه الواسع ، مؤملاً التوفيق والخير فيه .
٢ - بلايلُ الهموم : أي التي تكثُر فتعْري صاحبها باللبال .
م : يمتدحه بحسن الإيمان ويقول إن تألق وجهه يُزيل الهموم والكرب من قلب من تعريه .
٣ - النهب : الغنيمة .
م : يقول إن ذوي الحاجات ينتجعون داره ، حيث تُمطر عليه النعم ، يقدحها مما يقع عليه في غزواته .
٤ - الحُدْب : جمع حدباء ، وهي الدابة التي بدت عظام رأسها وركها .
م : يقول إنه يمضي بخياله إلى الحرب ويقيم فيها ، حتى تُصاب بالهزال ، فتقلقل القلائد في أعناقها .

شواخصَ بالأبصارِ ، من كلِّ مُقَرَّبٍ أُعِدَّ لَهُنَّجَا ، أو موافقةَ الرُّكْبِ ١
سواهِمَ ، قد عَاوَدَنَ كُلَّ عَظِيمَةٍ مَجَلَّلَةِ الأَشْطَانِ ، طَيَّبَسَةِ الكَسْبِ ٢

فهو يَصِفُ الخَيْلَ الَّتِي هَزَلَتْ وَضَمَرَتْ ، حَاشِدًا لَهَا صِفَاتِ النَّجَابَةِ :
« مَعْلَمَةٌ ، حُدْبٌ ، مُقَرَّبٌ » وَصِفَاتِ الكِفَاحِ : « شَوَاحِصَ بِالأَبْصَارِ » ، « حَتَّى
تَتَقَلَّقَتْ قَلَائِدُ » ، « مَجَلَّلَةُ الأَشْطَانِ » . وَهَذِهِ الخَيْلُ هِيَ كِنَايَةٌ اسْتِطْرَادِيَّةٌ طَوِيلَةٌ
لِتَمَثِيلِ بَطُولَةِ المَدْمُوحِ وَشِدَّةِ عِزِّهِ ، فَالإنهَاقُ وَالهَزَالُ اللَّاحِقَانِ بِالخَيْلِ يَنمَّانِ عَنِ
صَاحِبِهَا الَّذِي يَكُلِّفُهَا مَا لَا تَطِيقُ ، مُتَجَاوِزًا حُدُودَ العَرَفِ وَالمَعْقُولِ فِي قُدْرَةِ
النَّاسِ وَالبِهَائِمِ . أَوْ لِمَ يَخْطُرُ النَّابِغَةُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِذْ وَصَفَ سَيُوفَ الغَسَاسِنَةِ ،
بِلِ خِيُولِهِمْ بِقَوْلِهِ :

عَلَى عَارِفَاتِ اللَّطَّاعِ عَوَاسِيسٍ بِيَهِنَّ كُلوْمَ بَيْنَ دَامٍ وَجَالِبِ
أَوْ قَوْلِهِ :

بِكُلِّ مَجْرَبٍ كَاللَّيْثِ يَسْمُو عَلَى أَوْصَالِ ذِيَالٍ رِفْنٍ
وَضَمَرَ كَالْقَدَاحِ ، مَسُومَاتٍ عَلَيَّهَا مَعْشَرُ أَشْبَاهِ جُن

١ - المُقَرَّبُ : المَأْتُورُ مِنَ الخَيْلِ الَّذِي يَرِبُطُ بِجَوَارِ البُيُوتِ .

م : يَصِفُ الخَيْلَ وَيُعْظِمُ مِنْ أَمْرِهَا لِتَعْظِيمِ صَاحِبِهَا المَدْمُوحِ مِنْ خِلَالِهَا . يَقُولُ إِنَّهَا لَا تَبْرَحُ
تَحْدَقُ إِلَى الطَّرِيقِ الَّتِي تَعْدُو فِيهَا ، نَاشِطَةٌ إِلَى غَايَتِهَا ، لَا تَحِيدُ عَنْهَا ، وَإِنَّهَا مِنَ الخَيْلِ الكَرِيمَةِ
الَّتِي يُدْنِيهَا أَصْحَابُهَا إِلَى مَسَاكِنِهِمْ ، إِثَارًا لَهَا ، وَإِنَّهَا تَسَاقُ إِلَى الحَرْبِ ، وَتَصْحَبُ بِالإِبِلِ ،
تُتَمَطَّى مِنْ دُونِهَا ، كَمَا لَا تَصَابُ بِالأَعْيَاءِ . أَي أَنَّ تِلْكَ الأَفْرَاسَ لَا تُتَمَطَّى إِلَّا فِي القِتَالِ ،
وَلَا تُتَمَطَّى فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِ بَلْ يَتَنَاضَى عِيهَا بِالنِّيَاقِ .

٢ - سَوَاهِمٌ : أَي أَنَّهَا صَامِتَةٌ وَجْهًا . الأَشْطَانُ : الحِبَالُ . الكَسْبُ : الغَنَائِمُ .

م : يَقُولُ إِنَّهَا سَاهِمَةٌ دَأْبَتْ عَلَى القِتَالِ وَتَمَرَّسَتْ بِهِ ، وَأَنَّ أَرْسَانَهَا تُجَلِّلُهَا أَي تَلْقَى عَلَى عُنُقِهَا ،
وَإِنَّهَا إِذَا مَا اقْتَحَمَتِ الحَرْبَ تَسُوقُ صَاحِبِهَا إِلَى الغَنَائِمِ الكَثِيرَةِ . وَالشَّاعِرُ لَا يَبْرَحُ يُعْظِمُ
المَدْمُوحَ مِنْ خِلَالِ تَعْظِيمِهِ لِأَصَالَةِ خَيْلِهِ .

وإلى ذلك أبيات كثيرة أخرى نوجّل إيرادها والبحث فيها لحينه في الخصائص العامة لشعره، وإنما نخلص من هذه المقابلة إلى أن الأخطل يجري مجرى مأثوراً في معاني المدح ، ولكنه يُوفي منه إلى حشد في اللَّفظة والصُّورة وابتداع الفكرة والحادثة قلماً أدرك من قبَلُ . فهو يستكمل وصف الخيَل بقوله :

يُعَانِدُنَ عَن صُلْبِ الطَّرِيقِ مِنَ الْوَجَا وَهِنَّ ، عَلَى الْعِلَاتِ يِرْدِينَ كَالنُّكْبِ ١
 إِذَا كَلَّفُوهُنَّ التَّنَائِيَّ ، لَمْ يَزَلْ غُرَابٌ عَلَى عَوْجَاءٍ مِنْهُنَّ أَوْ سَقْبِ ٢
 وَفِي كُلِّ عَامٍ ، مِنْكَ لِلرُّومِ ، غَزْوَةٌ بَعِيدَةٌ آثَارِ السَّنَائِكِ وَالسَّرْبِ ٣
 يُطَرِّحُنَ بِالثَّغْرِ السَّخَالِ ، كَأَنَّمَا يُشَقِّقُنَ بِالْأَسْلَاءِ أَرْدِيَةَ الْعَصْبِ ٤

١ - يعاندنّ : أي يعدلن ولا يذعن . الوجا : التعب الذي يصيب حوافرها أو الحفا . على العلات : أي على مختلف الأحوال . يردن : أي يمشين مشياً هو بين العدو والسير . النكّب : الموائل .

م : يستطرد في وصف تلك الخيل ويقول إنها تميل عن الطريق الصلبة ، إذا ما أقحمت عليها ، للحفا الذي أصيبت به من مشقة السير . ثم يردف بأنها لا تبرح تسرع في عدوها على جميع الحالات التي تعثر بها في سيرها .

٢ - غراب : هـ رس أسود . والعرب كانت تشبه فرسانها السود بالأغربة كما جرى في ذلك لقب عنزة . عوجاء : فرس منسوبة إلى أعوج وهو من كرام الخيل . سقّب : هنا الفرس الطويلة .

م : يقول إنها لا تزال يقصد بها إلى الغابات النائية ، يمتطيها إليها الفرسان السود الشجعان .

٣ - السرب : الطريق .

م : يمتدحه بما يقوم به من غزو للروم ويقول إنه يسعى إليهم بخيله التي تقتحم السبل البعيدة النائية .

٤ - يطرحنّ : أي يضعنّ أولادهن قبل الأوان من شدة الإعياء . سخال : جمع سخلة وهي أولاد الضأن ، استعارها لأولاد الخيل المطرحة لفرأها وصغر حجمها . الأسلاء : هي المناديل التي تغشى الوليد ، إثر ولادته . العصب : الثياب المصبغة .

م : يقول إن تلك الخيل تضع أولادها في الطريق ، قبل الأوان ، لشدة ما تصاب به من الإعياء ، ويصف ولادتها وتشققّ المناديل عنها ويشبه ذلك بتشققّ العصب الملونة .

بناتُ غرابٍ ، لَمْ تُكْمَلْ شُهُورُهَا تَقْلَقُلْنَ مِنْ طُولِ الْمَفَاوِزِ وَالْجَذْبِ ١
 وَإِنَّ لَهَا يَوْمَيْنِ : يَوْمَ إِقَامَةِ وَيَوْمًا تَشْكِي الْقَضَّ مِنْ حَذْرِ الدَّرْبِ ٢
 غَمُوسُ الدُّجَى تَشْتَقُّ عَنِ مُتَضَرِّمٍ طَلُوبِ الْأَعَادِي ، لَأَسْوُومٍ ، وَلَا وَجْبِ ٣

فهذه الخيئل قد نقبت أقدامها وعريت ، فباتت لا تطيق الأرض الصلبة ،
 فهني تسير متناقلة معوجة . وشعراء المدح والفخر يبأدرون إلى ذكر وجا الخيئل ،
 تدليلاً على بعد همّة صاحبها أو اقتحامه بها الصعاب والمشقات الكثيرة . ثم
 إنهم يُغَالُون في التّديل على الإرهاق ، فيجعلونها تُجهض وتطرح أجنّتها على
 الطريق ، تُشَقُّ من مندبيلها تُشَقُّ العصب الملوثة . وبذلك تُوفي الصورة
 إلى الملحمة حيثُ تتحقّق الحارقة في مغزى المشهد الحسي ومرماه ، بدلاً
 من اختراق القدرة الإنسانية بالغيّب . فإطراحُ الخيئل لأجنّتها على الطريق
 ليسَ خارقاً للطبيعة ، بل هو خارقٌ للعرّف والعادة في همّة صاحبها الحارقة .
 وفضيلة الفنّ تقوم هنا على الوصف والسرد اللذين ينتخبان الصّفة والمشهد الأدلّ
 على غاية الشاعر والممدوح ، معاً .

١ - بناتُ غرابٍ : نسبة إلى فرس كريم . المفاويز : جمع مفازة : الصحراء . الجذب : شدّة
 الأعنة .

م : يمثّل الإرهاق الذي أصاب تلك الخيئل بالمشهد الحسي ويقول إنها كانت تُجهض أولادها
 الكريمة ، لكثرة ما اجتازت من مفاوز وشدّة ما جذبت بأرستها ، حتّى لها على السير .

٢ - القصّ : الحصى الصغار .

م : يقول إنّها تُقيم ، حيناً ، ثمّ تواصل سيرها إلى بلاد الروم ، حيث تطلّ الحصى الصغيرة
 بأقدامها التي بدت عارية من شدّة ما أصابها من ضنك في السير .

٣ - الغموس : الذي يسير الليل كله ، فكأنّه يغمس نفسه في ظلامه . متضرمّ : أي الذي
 يتسعّر فيه لهيب الحماسة . الوجب : الجبان .

م : يقول في امتداحه أنّه لا يبرح ينفذ للقتال ، يسير الليل كله إليه ، وينشقّ الصبح عن امرئ
 تنضرمّ فيه حماسة القتال ، لا يكفّ عنه أو يجبن أو يسأم .

ويعودُ إلى المديحِ المُباشِرِ بقوله :

على ابنِ أبي العاصي قُرَيْشٌ تَعَطَّفَتْ لَهُ صَلْبُهَا ، لَيْسَ الْوَشَائِظُ كَالصُّلْبِ ١
وَقَدْ جَعَلَ اللهُ الْخَلِيفَةَ فِيكُمْ بِأَبْيَضَ ، لِاعَارِي الْخِوَانِ ، وَلَا جَدْبِ ٢
وَلَكِنْ رَأَى اللهُ مَوْضِعَ حَقِّهَا عَلَى رَغْمِ أَعْدَاءِ وَصَدَادَةِ كُذْبِ ٣

فهم قد نالوا الخلافة بزيادة الله من لأحققتهم فيها ، من دون سواهم . وهنا يتحوّل المدح من الملحمية إلى السياسية ، وتطغى الآراء ووجهات النظر على الوصف والسرود :

قروم أبي العاصي غداة تخمطت دمشق بأشبايه المهنة الجرب
يقودون موجاً من أمية ، لم يرث ديار سليم بالحجاز ولا الهضب

فابطال المروانيين قادوا أمواجاً هائلة الجند الشاميين ، فيما أحاطت بدمشق جيوش الأعداء وحيثهم الشبهة بالابل المطيبة بالقطران . أي أنهم دافعوا عن ملكهم وحشدوا له وانتصروا فيه . إلا أن أفضل ما نظم في عبد الملك جاء في رائيته التي طرب لها الخليفة غاية الطرب والتي سوف نحللها على أنها النموذج الأفضل لمداخه .

- ١ - تَعَطَّفَتْ : أحاط به نسبها من كل جانب . الشوائظ : الزوائد .
م : يمتدحه بعراقة أصله في قريش ويقول إن نسبها الكريم أحاط به من كل جانب . ويردّف بأن الأصيل الشريف ليس كالللاحق الدنيّ النسب .
- ٢ - أبيض : حسن الوجه والحر الكريم .
م : يقول إن الله شاء أن تكون الخلافة فيهم ، وإنهم أحرار كرماء ، لا يُلغى خوائنهم قط مجدباً من الطعام . والأخطل لا يبرح يردد أن الله خصهم بالخلافة من دون سواهم . فكانته يوعز بذلك إلى أن سلطتهم هي من الله .
- ٣ - صدّادة : أي يصدّون عن الحق .

تحليل

نموذج من مدائحه السياسية

خف القطين للاخطل

- ١ خَفَّ القَطِينُ فراحوا منك او بكرُوا وأزعجتهم نوَى في صَرفها غَيْرُ ١
إلى امرىء لا تُعدِّينا نوافِلَهُ أَظفرهُ اللهُ . فليهنِّيْءُ له الظفرُ ٢
الخائض الغمرَ ، والميمونُ طائرُهُ خليفةُ اللهُ يُستسقى به المطرُ ٣
وما الفراتُ - اذا جاشت حوالِيهُ في حافتيه . وفي اوساطه . العُشْرُ ٤
وذذعته رياح الصيف واضطربت فوق الجأججِء من آذِيه غُدْرُ ٥
مُسخنفرُ من جبال الروم . يستره منها أكافيفُ فيها دونَه زورَ ٦

- ١ - خف : أرتحل . القطين : أهل الدار . راحوا : ذهبوا أو رجعوا عشاء . بكرُوا : أرتحلوا باكراً . الصرف : التقلب والمصيبة . غير الدهر : أحداثه .
٢ - تعدينا : تخلينا . النوافل : العطايا .
٣ - الغمر : الماء الكثير ، أو الظلمة الشديدة . والمقصود هنا : المعارك . الميمون : طائر المبارك ، الموفق .
٤ - الحوالب : الامواج . العشر : شجر .
٥ - ذذعته : حركته تحريكاً شديداً . الجأججِء : جمع جؤجؤ . وهو صدر الطائر أو السفينة . الآذي : مرتفع الموج .
٦ - المسخنفر : السريع . الأكافيف : الجوانب المرتفعة . الزور : الميل . الاعوجاج .

يوماً - بأجودَ منه حين تسألُهُ ولا بأجهرَ منه حين يُجتهِرُ ١
 مقدّمٌ مائتي الفِ لمنزله ، ما إن رأى مثلهم جنُّ ولا بشرُ ٢
 يَغشى القناطرَ ، يبنيتها ويهدِمها ، مُسومٌ ، فوقه الراياتُ والقترُ ٣
 حتى يكونَ له بالطفِّ ملحمةٌ وبالثويِّبة لم يُنبض بها وترُ ٤
 وتستبينَ لأفوامٍ ضلالتُهُم ويستقيمَ الذي في خدِّه صَعْرُ ٥
 ثم استقلَّ بأنقالِ العراقِ ، وقد كانت له نعمةٌ فيهم ومُدخِرُ ٦
 في نبعةٍ من قريشٍ يعصبون بها ما أن يوازي بأعلى نبتها الشجرُ ٧
 تَعلو الهضابَ ، وحلُّوا في أرومتها أهلُ الرِّبَاءِ واهلِ الفخرِ إن فخرُوا ٨
 حُشدٌ على الحقِّ، عيَّافوا الخنى، أنفُ إذا ألمَّت بهم مكروهةٌ صبروا ٩

١ - يجتهر : يستعظم .

٢ - مقدم مائتي الف : سائق مائتي الف جندي .

٣ - المسوم : الذي فيه علامة تميزه . القتر : الغبار .

٤ - الطف والثوي : موضعان قرب الكوفة . لم ينبض بها وتر . ولم ترم فيها السهام . كناية عن التحام الجيشين ، لأن النبال ترمى قبل الاشبناك بالرماح والسيوف . المعنى : أن جيش عبد الملك يبلغ إلى العدو دون مداورة ودون تأخر .

٥ - الصعر : ميل الخد عن النظر إلى الناس ، تهاوناً وتكبراً .

٦ - النعمة : البطش . المدخِر : ما خبيء للاعداد من بطش للمستقبل . يشير إلى احتلال عبد الملك العراق بعد قتل مصعب بن الزبير .

٧ - النبعة : شجرة صلبة . يعصبون بها : يحيطون بها . شبه بني أمية بشجرة النبع الصلبة ، وراعى فشبه البيوتات الأخرى بالشجرة الذي لا يستطيع أن يبلغ علاها .

٨ - الأرومة : أصل الشجرة . الرباء : الشرف .

٩ - الحشد : المتأهبون . العيافون : التاركون . الخنى : الفحش في الكلام . الأنف : المترفعون عن العار .

أعطاهمُ اللهُ جَدًّا يُنصَرُونَ بِهِ لا جَدًّا إِلا صَغِيرٌ ، بَعْدُ ، مُحْتَقَرٌ ١
 لَمْ يَأْشُرُوا فِيهِ إِذْ كَانُوا مَوَالِيَهُ وَلَوْ يَكُونُ لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ إِشْرًا ٢
 شَمْسُ العَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النِّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا ٣
 لا يَسْتَقِلُّ ذَوو الأَضْغَانِ حَرْبُهُمْ وَلَا يُبَيِّنُ فِي عِيدَانِهِمْ حَوْرٌ ٤
 هُمُ الَّذِينَ يَبَارُونَ الرِّيَّاحَ إِذَا قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى العَافِينَ ، أَوْ قَتَرُوا ٥
 بَنِي أُمَيَّةَ نِعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةً تَمَّتْ ، فَلَا مَنَّةَ فِيهَا وَلَا كَدْرٌ ٦
 بَنِي أُمَيَّةَ قَدْ نَاضَلْتُ دُونَكُمْ أبنَاءَ قَوْمٍ ، هُمُ آوُوا ، وَهَمُ نَصَرُوا ٧
 أَفْحَمْتُ عَنْكُمْ بَنِي النِّجَارِ ، قَدْ عَلِمْتُ عَلِيًّا مَعَدًّا ، كَانُوا طَالَمَا هَدَرُوا ٨
 حَتَّى اسْتَكَانُوا ، وَهَمُ مَنِي عَلَى مَضْضٍ وَالقَوْلُ يَنْفُذُ مَا لا تَنْفُذُ الإِبْرُ ٩

- ١ - الحد : الحظ ، المعنى : اعطاهم الله حظاً يتضاهل دونه حظ الآخرين .
- ٢ - بأشروا : يبطروا . الموالي : الأسياد ، الاصحاب .
- ٣ - الشمس : الاشداء . يستقاد لهم : يخضع الناس لقيادتهم . الأحلام : جمع حلم ، وهو الصبر والعقل .
- ٤ - يستقل : يتحمل . الأضغان : الاحقاد . الحور : الضعف .
- ٥ - العافون : الذين يطلبون الطعام . قتروا : أفقروا وضيقوا على أنفسهم : يشير إلى كرم الأمويين .
- ٦ - مجللة : عامة ، شاملة . المنة : التفرغ بالإحسان .
- ٧ - يعني بابناء القوم : الانصار الذين آووا النبي ونصروه حين هاجر إلى يثرب . ويشير هنا إلى هجائه الانصار دفاعاً عن الامويين .
- ٨ - أفحمت : أسكت . بنو النجار : جماعة من الانصار . قوم حسان بن ثابت شاعر النبي . عليا معد : قريش . هدروا : رددوا الكلام كثيراً ، تديد البعير صوته في حنجرتة .
- ٩ - استكانوا : خضعوا . المضض : ألم المصيبة .

بني أُمَيَّةَ إِنِّي ناصحٌ لكمُ
 واتخذوه عدواً ، إنَّ شاهدهُ ،
 إنَّ الضغينة تلقاها وإن قدُمت
 وقد نصرتَ ، أمير المؤمنين ، بنا ،
 يُعرفونك رأسَ ابن الحُبَابِ وقد
 لا يسمعُ الصوتَ ، مُستكاً مسامعهُ
 وقيسَ عيلانَ حتى أقبلوا رقصاً
 فلا هدى اللهُ قيساً من ضلالتهم
 وقد أصابت كلاباً من عداوتنا
 إمَّا كليبُ بن يربوعٍ فليس لهم ،
 مُخلفون ، ويقضي الناس أمرهُمُ
 فلا يبيننَّ فيكم آمناً زفر ١
 وما تغيبُ من أخلاقه ، دعر ٢
 كالعرُّ يكمنُ حيناً ثم ينتشر ٣
 لما أتاك ببطن الغُوطَةِ الخبر :
 أضحى ، ولل سيفِ في خيشومه أثر ٤
 وليس ينطقُ حتى ينطقَ الحجر ٥
 فبايعوكَ جهاراً بعدما كفروا ٦
 ولا لعاً لبني ذكوانَ إذ عثروا ٧
 إحدى الداوهي التي تُخشى وتنتظر
 عند التفارط ، ايرادُ ولا صدر ٨
 وهم بغيبٍ وفي عمياء ما شعروا ٩

١- زُفر : ابن الحرث بن كلاب الكلابي .

٢- الشاهد : الظاهر . الدعر : الفساد .

٣- العر : الجرب . يشبه الحقد بالجرب الذي يستتر قليلاً ثم ينتشر .

٤- ابن الحباب : من قيس عيلان قتله التغلبيون في نصره الامويين . الخيشوم : أقصى الأنف .

٥- مستكاً مسامعه : أصم .

٦- رقصا : مسرعين .

٧- لا لعاً : لا اعانهم الله .

٨- كليب بن يربوع : قوم جرير . التفارط : التسابق ، وهنا : التسابق إلى الماء . أورده الماء ليراداً : جعله يقصد اليه . الصدر : الرجوع عن الماء .

٩- المخلفون : المتروكون وراء الناس . المعنى : يقضي الناس أمورهم الهامة ، وكليب بن يربوع لا يشعرون ، لأن رأيهم غير مطلوب ولا مسموع .

قومُ أنابت اليهم كلُّ مُخزِيَةٍ وكلُّ فاحِشَةٍ سُبَّتْ بها مُضَرُّ ١
واقسم المجد ، حقاً ، لا يحالفهم حتى يحالف بطن الرَّاحة الشَّعْرُ .

إيجاز القصيدة : استهل الأخطل قصيدته بذكر الارتحال والتناهي ، فتشبهه بشارب
الخمرة ، مستطرداً إلى وصفها ، بنحو ثلاثة أبيات . ثم يعود فيذكر الارتحال من جديد
وتنكب النساء عن الرجل عندما يلتم به الشيب ، حتى انتهى إلى عبد الملك ، فجعل
مدحه ، مبالغاً بفضائله ، وقوة جيشه ، جاعلاً جنوده من الجن . وقد نسب
إليه ، بالإضافة إلى ذلك ، فضائل دينية ، إذ صورّه مجاهداً في سبيل الدين والبطش
بالكفار . ويذكر أيضاً إخضاعه لأعدائه وفتكه بجيشهم مستطرداً إلى بني قريش ،
واصفاً فضائلهم ، وفضائل بني أمية بنحو ثلاثة عشر بيتاً . بعدئذ ينصرف لمخاطبة
أمير المؤمنين ، معدداً مآثر تغلب التي حاربت ، دائماً ، إلى جانب الأمويين ،
ويهجو كلياً بن يربوع الذين ما انفكوا يناوئون الخليفة .

تقسيمها : المطلع التقليدي (١) . مدحه بالكرم ويمن الطالع (٢-٣) . وصف
كرمه : (٤-٧) - وصف بطولته : (٨-١٢) - مدح القرشيين : (١٣-
٢٠) - ذكره لفضله عليهم : (٢٢-٢٤) - نصحه لهم : (٢٥-٢٧) - ذكر
مآثر قومه : (٢٨-٣١) - هجاء القيسيين : (٣٢-٣٦) .

تحليل : المطلع التقليدي :

١- يقع هذا المطلع ، أصلاً في حدود أبيات عديدة يصف فيها الطلل ويتشبه
في ذهوله بالسكران الذي صرعه الخمرة . ولقد خصَّ هذا المطلع بذكر فراق
الأحبة ، على ما هو مأثور في مطالع الشعر القديم . ثم عرَّج على وصف المدح ،
مستهدلاً بوصف كرم الخليفة ويمن طالعه .

٢- مدح الخليفة بالكرم واليمن (٢-٣) - باشر ذلك بقوله :

١- أنابت : أقبلت .

إلى امرئ لا تعدينا نوافله أظفره الله فليهنأ له الظفرُ

فالأخطل يصرِّح بان الله قد أظفر عبد الملك . وهذا المعنى يبدو عادياً ، طبيعياً ، بالنسبة إلينا ، أما بالنسبة إلى الأمويين ، فإنه كثير الأهمية ، لأن هؤلاء جعلوا يدعون أن السلطة هي هبة من لدن الله ، وان الله هو الذي يقدر الأمور وليس على الشعب سوى الطاعة . وهكذا ، فان الأخطل بالرغم من كونه مسيحياً ، كان يعرف المعاني التي توافق الدين الاسلامي وهوى الأمويين الذين كانوا يشجعون الجبرية وما فيها من دعوة الاذعان لمشيئة القدر .

ذلك ، جميعاً ، يدلنا على طبيعة المدح السياسي في شعر الأخطل ، إذ أنه يلتفت إلى المعاني التي تُشوّق المدوح ، فيؤكدها له ، منعماً فيها بالغلو .

أمّا قوله « الطائر الميمون » فيعود إلى عادة جاهلية ، كان العرب يستطلعون بها مصير الأمور ، بعد أن يطلقوا الطير ، فاذا اتجهت صوب اليمن تيمنوا ، أما اذا إتجهت صوب الشام ، فتشاءموا . فالطائر الميمون هو الذي يبشّر بالخير والنجاح . وذلك يعني أن الخليفة يكاد لا يلمُّ بأمر حتى يحققه . وكذلك قوله ، « يستسقى به المطر » . فالخليفة لكثرة تقواه وصفاء طويته ، دنا كثيراً إلى الله ، حتى أنه إذا غضب – والعرب يعتقدون ان انجbas المطر هو دلالة على شدة غضب الله – فان القوم يستسقون به لان الله يستجيب لتقواه . وهذا المعنى الديني السياسي كان يُعجب الأمويين غاية الاعجاب ، لأنه يوافق هواهم .

وعلى الجملة ، فان الأخطل ، خلال مدحه السياسي ، لم يكن مبتكراً ، وإنما اتخذ المعاني التي كانت شائعة منذ الجاهلية ووقعها بما يتفق والمناسبة التي يتصدى لها ؛ ذلك أن المعاني التي تلمُّ بالمطر ليست معاني حضرية ، لأن الحضري لا يتسعرّ به ظمأ للماء ، ولم يتولّ الشاعر هذه المعاني ، إلا لأنها انتقلت إليه عبر التقليد . فالصفة التي نماها لعبد الملك ، كانت تصدق في شيخ القبيلة الجاهلية أكثر

ما تصحُّ في خليفة يعيش في حواضر الشام على ضفاف بردى ، كأنه يعيش في جنة
غناء . فالشعر السياسي خاصة ، والشعر الأموي عامة لم يكد يتحرَّر من وطأة
التقليد الذي أسرف به الشعراء السابقون .

٣- وصف بطولته : (٨ - ١٢)

بعد هذه المعاني الانسانية الدينية يشرع الأخطل بتصوير الخليفة صورة تخالف
الصورة الأولى . في تلك الصورة كان إماماً ، وكان قريباً إلى الله حتى انه يستسقى
بتقواه المطر ، ولكنه الآن سيلجُ به إلى أجواء الملحمة والاسطورة مصوراً شجاعته
في الحروب بقوله ١ :

« مقدّم مائتي ألفٍ لمنزلهِ ما أن رأى مثلها جنُّ ولا بشرٌ »

هذا البيت ينبري بالقصيدة إلى فلذة ملحمة تسامى ، خاصة ، عندما يصبح
الجنود خارقين مروّعين ليسوا بشراً وليسوا جنّاً ، بل هم أعظم من البشر فضلاً
عن الجن . وهذا المعنى غلو وتساعد من المعنى الذي ألمَّ به النابغة بقوله واصفاً
النعمان :

« وخيِّس الجنَّ أني قد أذنتُ لهم يبنون تدمر بالصُّفاحِ والعمدِ »

لقد توسَّل الشاعران بالجن ، فبينما اكتفى النابغة بهم ، نرى الأخطل يتجاوزهم
ولا يرضى بأن يكون جندُ الخليفة عبد الملك من البشر أو من الجنِّ ، بل أسمى
منهم جميعاً ، وذلك مجازة لسنة الشعر العربي الذي تكثُر فيه المبالغة وتتعاظم ،
حتى ان الشاعر اللاحق لا يرى لذاته فضيلة إذا لم يعثر على معنى يبرزُ به المعنى الذي
سلف في شعر من قبله . وقد استمرت هذه الصورة في الأبيات التالية حيث يقول :

١- آثرنا أن ندع وصفه لكرمه إلى النهاية لضرورة الدراسة .

يَغْشَى الْقَنَاطِرَ يَبْنِيهَا وَيَهْدِمُهَا مَسُومٌ فَوْقَهُ الرَايَاتُ وَالْقَطْرُ
فَتَسْتَبِينُ لِأَقْوَامٍ ضَلَّالَتْهُمْ وَيَسْتَقِيمُ الَّذِي فِي خَدِّهِ صَعْرٌ

ان الصورة التي مثل بها الخليفة ، هادماً ، بانياً ، عبر الرايات والغبار ، تمثل معنى البطولة الذي يرد الشاعر أن يرسمه للخليفة . وهذه الميزة أي تصوير المعنى تصويراً ، كانت شائعة في الأدب الجاهلي ، عامة ، وشعر النابغة خاصة ، فإذا أراد النابغة أن يقول ، مثلاً ، أن وعيد النعمان يؤذيه ويرهبه ، يمثّل ذلك بصورة الأفعى التي تساور وتعطب دون أن تنجح فيها حواية أو رقية . ولقد جرى الأخطل على الغرار ذاته . فعوضاً عن أن يقول لعبد الملك إنه بطل ، جعله يتصرف تصرف البطل أو وصفه في مشهد بطولي ، يبني القناطر ويهدمها بينما تداخلت الرايات حواليه . وكذلك نراه يستمر في رسم هذه الصورة ولكنه يواجه بها الأعداء ويتوسّل فيها بالمعاني التي توافق الدين ، خاصة عندما يقول : « فتستبين لأقوام ضلالتهم » . فالخليفة لا يحارب في سبيل الحرب والغنائم أو السلطة ، بل في سبيل الدين ورد الضالين والكفار إلى حظيرة الامام . وهكذا ، يبدو الأخطل مرة ثانية وقد اتخذ موقفاً اقتضاه عليه واقع السلطة والدين والسياسة ، قائلاً ما قد لا يؤمن به في سبيل تعظيم المدح وتأكيد الأقوال التي يتمنى أن تقال له؛ ولقد كان ذلك مشتركاً بين الأخطل والنابغة . فالنعمان كان يودّ أن يؤكد قوة جيشه وتفوقه ورهبته ، فجعل النابغة يتصاغر ويتدنى ليكبر النعمان ويحقق له ما يتمنى أن يبلغه . وكما أن النابغة ضحّي بكرامته في مدحه ، نرى الأخطل يوشك أن يضحّي بدينه في سبيل مدحه أيضاً . فهذان الشاعران يقولان ما ينبغي أن يقال أو ما يوافق هوى المدح متسخرين أو مداحين .

أما ذروة الملحمة فتظهر في قوله :

« حتى يكونَ له بالطفِّ ملحمةٌ وبالثويّة لم ينبض بها وتَرُّ »

إن الملحمة هي الموقعة التي تجري بين جيشين وجهاً لوجه وجسداً لجسد ، أو كما

يقول الأخطل : « إنها المعركة التي لا ينبض بها وتر » أي لا يستعمل فيها القوس . وهذه المعارك تدلُّ ، عادة ، على الاستبسال والشجاعة أكثر من معركة الأوتار والقوس ، لان من يحارب بالقوس والوتر كأنما يداور ويلتف أو كأنه يخشى التصدي للموقعة بذاتها . أما من يلتحمون فيها ، فإنهم لا يخشون الموت . وهذا هو وجه المديح في قول الأخطل .

ولعل ميزة هذا البيت فيما يشتمل عليه من واقعية وتقيّد بالاعلام ، اعلام الأشخاص فضلاً عن اعلام الأمكنة . ففي البيت السابق نرى اسمي علم ، هما الثوية والطف ، فكأن هذه الأسماء تربط الافكار المدحية المجردة بالواقع ، وتجعلها خاصةً بعبد الملك من دون سواه .

ومهما يكن ، فان الأخطل يمازج الصورة المثالية ، المطلقة ، بصورة أو بخطوط من الواقع الخاص الذي لا يصح إلا في الممدوح من دون سائر الامراء وذوي السلطة .

ومجمل القول في وصفه لبطلته أنه نما إليه الصفة الحارقة التي تدعه امرأ متفوقاً لا يقهر .

مدح الأمويين : (١٣ - ٢٠) : ذاك كان مدحه للخليفة نفسه ، وفي هذا المقطع يتعرّض لبني قومه القرشيين ، فيمدحه بهم . وآية ذلك أن الخلافة كانت قد غدت امرأ وراثياً في قريش وفي أقربهم إلى النبي . وهو إذ يخصهم بمثل هذا المدح إنما يمكن للخليفة به ، شأنه في ذلك كشأنه في تكراره لذكر أمر الله الذي يصدر عنه وإثاره له بالنصر واليمن . وكأني به لا يمدحه ، بل يؤدي له البيئات التي تجعله الأحق بالخلافة ، وقد استهلّ مدحه له بأصاه في قوله :

في نبعة من قريش ، يعصبون بها ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر

وقد شبه بني أمية بشجرة صلبة ، عالية ، ومثل البيوتات الأخرى بالنسبة إليها . أي ان نبت القرشيين يسمو على أية شجرة ، من دونه . وهو لا يزال يجاري بذلك

خطّ الغلوّ الذي يمثل تفرّدُه بكل مآثرة ، وقد جعل الأمويين أفضل قريش ، وجعل القرشيين أفضل الناس . وهذا المعنى لا ينطوي على ابتكار أو جدّة ، إذ أن شعراء المدح والسياسة تداولوه ، كمعظم المعاني ، إلا أن فضيلة الشاعر فيه أنّه أدرك منه أقصى غايته ، وخرّجه تخريباً ذاتياً . أمّا قوله :

تعلو الهضاب وحلّوا في أرومتها أهل الرباء وأهل الفخر ان فخروا

فلا يعدو أن يكون استكمالاً للمعنى السابق وتمثيلاً له مع اضافة بعض التفاصيل .

وإذا كان هذا المعنى مبذولاً ، فإن الشاعر يوغل في إضفاء الصفة الانسانية لمعانيه ، إذ يقول : « حُشدٌ على الحقّ » ، أي أنهم لا يقاتلون للقتال أو طمعاً بالمال أو شهوة للسلطة ، بل ان قوتهم هي قوّة عاقلة تمكّن للحق وتشهد له .

وقد ورد امتداحهم بالحقّ تأكيداً لأحقيّتهم بالخلافة ، فهم لا يقاتلون طمعاً بها ، بل لاحقاق الحقّ فيها . وإلى مثل هذا القول كان يشير العلماء إذ يقولون : « إن البلاغة هي تعبير عن مقتضى الحال » . ويمضي الشاعر في نعتهم بالنعوت التي تُضفي عليهم هالة معنويّة ، منوهاً بابتعادهم عن الفحش والمنكر ، أي أنهم لا يأخذون بالجانب اللين السهل من الحياة ، فيقبلون على المجون ويعاقرون اللذة بل إنهم ينصرفون إلى الجُلّيّ .

ولعلّ أفضل ما يردف به إثر هذا الزعم قول البحري : « أعذب الشعر أكذبه » ، إذ ان الشاعر يدرك أن معاوية امتطى كلّ باطل وجور ورشوة ، كما ان ابنه يزيد هو أول من استنّ سنّة اللّهُو في الاسلام ، إذ كان يعاقر الحمرة ويبتني في الصّحراء قصور اللّهُو والخلاعة . والكذب في الشعر لا يعني التروير والشهادة للباطل ، بل هو ضرب من الغلوّ يتولّد من تلمس الحقائق بالانفعال والحدس . والأخطل بذلك كالنابغة ، جانب الحقيقة وأزرى بها ، فافتقد شعره مبرّره الانساني ، إذ الشعر ، في نهاية مطافه ، لا يعدو أن يكون شهادة للحقيقة وتعبداً لها .

أما الشطر الثاني حيث يقول : « إذا ألت بهم مكروهة صبروا » فيصحُّ في بعضهم حيناً ، إذ أثر عنهم الحلم في مواضعه والعنف في مواضعه . وكان عبد الملك يخطب فيقول : « من قال لنا برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا » . ولعلَّ الشاعر استدرك في الإشارة إلى ذلك في بيت لاحق إذ قال :

شمس العداوة ، حتى يُستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً ، إذا قسدروا
فهم يعنفون بمن يخرج عن سلطانهم ويعفون عمَّن يقع في أيديهم ويستذلُّ لهم ،
أي أنهم يعفون عند المقدرة ، إذ لا حلم في العفو من دون ذلك ، كما استدرك
المتنبى إذ قال :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجةً لاجيئُ إليها اللئام
ويعود الشاعر إلى تعليل انتصارهم وتفوقهم ، فيُنبئهم إلى قدر قدر لهم من الله ،
آثرهم به :

أعظاهم الله جداً ينصرون به لا جدَّ إلا صغير ، بعد ، محتقر
لم يَأشروا فيه إذ كانوا مواليه ولو يكون لقوم غيرهم أشروا
والجدَّ هنا بمعنى الحظِّ ، فكأنه يلمح بذلك إلى أنهم قوم الله المختارون ، مترجحاً
بين المديح الديني والسياسي ، مازجاً أحدهما بالآخر . فالتنويه بإيثار الله لهم يمنحهم
تفوقاً دينياً وسياسياً ، معاً ، إذ الاسلام هو دينٌ ودولة . ثم إنه عقب على ذلك بنعتهم
بالتواضع أي أن خمرة السُّلطة لم تُسكرهم ولم تبطّرهم . فالامويون قد جمعوا
غاية القوة إلى غاية العقل .

وفي النهاية يمتدحهم بالكرم ويقول إنهم يسبقون الريح ويبارونها ، فهي تنزل
الفقر والضميم ، وهم يحملون الخير والنجدة ، والمعنى تقليدي ، منهوك :
هم الذين يبارون الرِّياح إذا قلَّ الطَّعام على العافين أو قتسروا

ذكره لفضله عليهم : (٢٢ - ٢٤) : يستهلُّ الشاعر هذا المقطع بذكر نعم
 الأمويين عليه ، يؤدُّونها ويغدقونها ، دون منَّة ولا كدر . وهذا البيت لم يخطر
 في صدفه النَّظْم ، بل إنه أحكم توقيعه قبيل تفاخره بخدماته لهم ، حتى تستقيم
 معادلة الفضل بينهم . وفضيلة الأخطل في معانيه أنه يُوقَّعها توقيحاً نفسياً يطرب
 له المددوح . وهو لا يستكين استكانة النابغة ولا يستذلُّ له ويتشبه بالعبد ، مضائلاً
 من قدره ليعظَّم من قدر المددوح ، بل إنه يرفع هامته كبراً . فهو ليس شاعراً
 بلاط يتلقف فتات مائدة الملوك ، بل إنه سفير قبيلته العظيمة تغلب التي تدافع عن
 الأمويين بسيوفها ، كما يدافع هو بلسانه :

بني أُميَّة ، قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا ، وهم نصرورا
 أفحمت عنكم بني النَّجار ، قد علمت عليا معدُّ ، وكانوا طالما هدرورا
 حتى استكانوا ، وهم مني على مضمض والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبرُّ

ولقد أشار هنا إلى هجائه للأنصار ، رداً على كعب بن ثابت الانصاري بمثل
 قوله :

ذهبت قريش بالمكارم والنَّدى واللُّوم تحت عمائم الأنصار
 وإذا نسبت ابن الفريعة خلته كالجحش بين حمارة وحمار

وقد كان لهذا الهجاء وقع الحاد على الأنصار ، فوفدوا على معاوية ، ورفعوا
 عمائمهم وقالوا له ماذا ترى ؟ فقال : « لا أرى إلا خيراً » . وأباح لهم لسان الأخطل
 الذي هرع إلى يزيد فطيبه وأمنه . والشاعر يسمي هجاءه للأنصار نضالاً منه
 للأمويين ، فكانه كان يقاتل من دونهم ويعرض نفسه للهلاك . ويتعاضم المعنى من
 المقابلة بين طرفيه . فمن جهة تقع على نضال الشاعر ومن جهة ثانية ، يعظَّم من أمر
 المهجويين : « أبناء قوم هم آووا وهم نصرورا » على غرار عنزة ليضعف من
 شجاعته وفضله . وليس تنويهه بفضل الأنصار في إيواء النبي ومناصرته ، ومجاراته

التعاليم الاسلامية ، إلا سيلا لتذكير الأمويين بالمخاطر التي ركبها للتّمكين لهم ودفع الأذى عنهم .

أما البيت الثاني ، فيوضح للأوّل واستطراد في الغلوّ به . فهو قد أفحم عنهم أعداءهم وأسكتهم ، وكانت أصواتهم تهدر وتدوي في دنيا العرب . ولفظة أفحم تقابل لفظة « ناضل » في البيت السابق ، ولفظة هدرُوا ، تقابل لفظي : « آوا ونصروا » ، وقد أفاد المعنى وغالى به ، من التقيض إلى التقيض . ويردّف ، إثر ذلك كله بالقول « حتى إستكانوا » ، وهي نتيجة للمعنيين السابقين ، وامتداد من لفظة « أفحم » وغلوّ بها ، ثم ضاعف المعنى بالإشارة إلى مضمضهم ، أي إلى غيظهم ومؤدّى القول كله أنّه عادى الناس ، بل أصحاب النبيّ في سبيلهم وتعرّض للهلاك . مما يؤكد إيثاره لهم ودفاعه عنهم .

وفي النهاية يُجمل القول ويحقّقه بحكمة عامة : « والقول يَنْفُذُ ما لا تَنْفُذُ الإبر » . والابر لا تشير هنا إلى معناها الخاص بها ، بل إلى ما هو أنأى منه ، إلى السيف والرّمح أو كلّ أداة للأذى الماديّ . فالكلام النافذ الصائب هو أردع للقوم من السيف أو ما دونه . وفضيلة هذه الحكم أنها تُنَيِّطُ بالتجارب والأقوال الخاصة صفة الحقيقة العامة ، فتؤكدّها وتضاعف من وقعها في النفس . وشعراء المدح ، عامة ، يوشّحون قصائدهم بالحكمة ليكتسبوا بها صفة الحكماء فضلاً عن الشعراء ، مما يمكن لأقوالهم في النفوس ويدع صوتهم وكأنه صوت الأجيال أو صوت الحياة ذاتها . ولقد توسّل ذلك النابغة ، قبلا ، وأبو تمام والمنتبي ، فيما بعد ، حتى قيل : « أبو تمام والمنتبي حكيمان وأما الشاعر فالبحري » .

ومع ذلك فإن الأخطل ليس شاعر حكمة ، بل شاعر ملحميّ ، مقاتل ، تعرّض الحكمة في شعره بلمع مولّية . عابرة ، كما سنرى . أيضاً ، في المقطع الآحق .

نُصحهم لهم : (٢٥-٢٧) :

في هذه الأبيات نرى الشاعر يتصدى لمرحلة جديدة من مراحل القصيدة ، اذ يدافع عن بني قومه ويتنكب ، في الآن ذاته ، عن المدح ليتولى هجاء القيسيين

وزعيمهم زفر . وقد كان الأخطل يخشى ان يتقرب عبد الملك اليه من دون التغليبين . وذلك يؤدي الى اضعاف قبيلته وتقوية اعدائها . فهو يسديهم النصح ، « اني ناصح لكم » ، بأن يبتعدوا عن زفر . وقد مثل لهم ما يرائيهم به بمثل العرّ أي الحرب الذي يستتر ، ويُوهم انه اختفى ولكنه لا يعتم ان ينتشر من جديد . إن عرّ الحقد والحسد في نفس زفر كمن حيناً وجعل يتظاهر بمودة الأمويين ، حتى اذا آنسوا به ووثقوا منه خانهم وخذعهم . ولتمثل شدة حقد الأخطل على زفر ، وفي الآن ذاته حماسه في الدفاع عن قبيلته اذ يقول : « شاهده وما تغيب من أخلاقه دعرُ » .

وهنا يعود ، أيضاً ، إلى الحكمة المشوبة بقليل أو كثير من الذاتية ، اذ يمثل الضغينة الكامنة في النفس بمثل العرّ . فهي كالغدر ، يتظاهر صاحبه فيه بغير ما يُضمر . وقد وقعت في سياق هذه القصيدة موقع الحكمة السابقة ، أضفت على المعنى صفة الشمول ، ووحدت بينه وبين الحقيقة العامة .

ذكره لماثر بني قومه : (٢٨-٣١) :

ينحدر الشاعر في هذا المقطع من المعاني الذهنية العامة الى الأحداث التاريخية ، كما تقدم بها من قبل ، ذاكرآ المواقع التي فدح بها التغليبيون اعداءهم ، خاصأ موقعه الغوطة ، حيث اجتثوا رأس عدوهم وعدو الخليفة ، وساقوه إليه . وهذه الأحداث التاريخية تطفو على لجة المعاني القائمة في ذهن الشاعر ، تؤدي لها أداء الواقع الفعلي ، الحي ، وترد كبيئة لها .

والشاعر يستبطن في هذا المقطع عاطفتي الفخر والثأر ، فخره ببطولة بني قومه وتشفيته بالثأر من الأعداء ، ممثلاً ذلك بقوله : « وقد أضحي وللسيف في خيشومه أثر » . وهذا المشهد يجسد عظم تمثيلهم بعدوهم ، ويجهض حقد الشاعر عليه . فالسيف هنا هو سيف الثأر والتشفي . والصورة والحسيّة تنطوي على دلالة نفسية عميقة ، أوضحها وضاعف وقعها بقوله :

لا يسمع الصوت ، مستكاً مسامعه وليس ينطق حتى ينطق الحجرُ

وفيه يؤكد على قتلهم له ، واصفاً حاله ، إثر الموت ، بمعان لا تخفى على السامع كقوله أنه أصمٌ ، أبكم ، مما يصحُّ في الاموات ، جميعاً . وذكره لهذه البدييات ، لم يكن استطراداً منه إلى طفيليات الواقع ، بل اقتباس لمظاهره الدالة الموحية التي توافق هوى الممدوح وتثيره وتطربه . فرأس ابن الحباب هو رأس الهزيمة المتعفّرة بتراب الذلِّ والاندحار . وامتناعه عن السمع والنطق هو تأكيد للممدوح بأنهم كفوه شره إلى الأبد ، إذ لا سبيل له ، بعد ، إلى الكلام والاصغاء ، فيتأمر بهم ويؤلّب عليهم ويشقّ عصى الطاعة .

ويستكمل الشاعر ذكره للاعداء فيقول :

وقيس عيلان ، حتى أقبلوا رقصاً فبايعوك جهاراً ، بعدما كفروا

وللكفر هنا معنى سياسيٌ ، دينيٌ ، جارٍ فيه الشاعر عقيدة المسلمين ، معتبراً الخروج على طاعة الخليفة كفراً بالدين وردةً عليه . فهو يؤدّي للممدوح المعنى الذي يبتغيه ويمكن له ، جارياً فيه مجراه ، أما قوله : « رقصاً » فدلالة على الكره والارغام كأنما يساقون بالعصا والسيف ولا يُفسح لهم في وطء الأرض تمهلاً .

هجاء الأعداء : (٣٢ - ٣٧) :

يجمع في هذا المقطع سائر الاعداء الذين توقع معهم هو بالذات أو بنو قومه ، وهم :

١ - القيسيون : ويهجوهم بالضلالة والكفر .

٢ - بنو ذكوان : يلعنهم ويقبح بهم .

٣ - بنو كلاب : يذكر الهزائم التي أنزلوها بهم .

٤ - بنو يربوع : وهم قوم جرير الذين يكاد لا يغفل ذكرهم في معظم قصائده ،

وهو يهجوهم بالذل والضعف ، لا يتصرفون بأمرهم ، بل يتصرف الناس عنهم بها ، وأنهم مخزيون لا يقيم المجد فيهم ولا ينمو بربوعهم .

ولقد كان الأخطل شاعر منافحة ومخاصمة ، لا تحضره الحالة الشعرية ، حتى تستحضر معها ملامح الأعداء الذين يساورونه من كل صوب ، يُسَفِّههم ويزري بهم ويردُّ كيدهم إلى نحرهم .

وصف كرمه : (٤ - ٧) : يمثله على غرار النابغة والاعشى بالفترات ويعظم من شأن فيضانه ، ليعظم كرمه من خلاله . وقد قام ذلك على المقومات التالية :

— جيشان الخوالب ، أي الروافد المتدفقة عليه . وجيشان الفرع يفيد الدلالة على اصطخاب المصب الذي تفيض فيه .

— العشر ، أي الأشجار الكبيرة ، وقد جعلها تطفو على سطحه ، تمثيلاً حسياً لعظم السيل الذي اقتلعها بالرغم من ضخامتها وتشبُّث جذورها في الأرض .
— الرياح التي تحركه ، فتزيد من جيشانه واضطراب أمواجه .

— الجاجيء والغدر : حيث عظم الموج من ارتفاعه على السفينة واحداثه عليها ما يشبه السيل .

— إنهماره من جبال الروم بسرعة فائقة ، يُضاعف العقبات التي تعترضه من جيشانه .

خلاصة حول المضمون : تعددت موضوعات هذه القصيدة ، ظاهراً ، لكنها ألفت واتحدت ، ضمناً ، في التعبير عن الهموم التي يتنازع بها الشاعر والمشكلات التي يعمل لها . فهي تنضوي في وحدة الهموم والشاعر النفسية .

طبائع الاسلوب :

أولاً — عملية الإبداع : تمت عملية الإبداع في هذه القصيدة بتأثير الانفعال المتعدد الجوانب ، وعبر عن ذاته باللفظ المباشر وطبائع العبارة ووسائل التجسيد

وأهمها الصور الحسية والتشبيه والأحداث ، مستمداً المعاني من واقع السياسة والاجتماع والدين والتاريخ ومن البيئة المادية .

أ - خصائص اللفظة المفردة : مع أن اللفظة المفردة لا تنطوي على قيمة فنية بذاتها . فإن الشاعر اذ يقتفي في إختيارها سياقاً معيناً ، بتأثير انفعاله وطبيعته ، فإنه يبت فيها ما هو أنأى من معناها الظاهر : إيقاعاً أو صياغةً أو ما إليهما . وذلك كله يوهم القارئ ويمهد للمعنى ويضاعف من وقعه في النفس . ومع أن الأخطل ليس شاعراً لفظياً، إلا ان ألفاظه ليست تقريرية، هادئة، بل حية ، متحركة ، تنزرو وتتحرك بتزوات الانفعال وحركاته . فلو نظرت إلى أقواله التالية :

- الخائض الغمر .

- وما الفرات إذا جاشت حوالبه .

- وذدعته رياح الصيف واضطربت فوق الجأجيء من آذيه غدر .

- مسحنفر من جبال الروم .

- حُشد على الحق ، عيافو الخنى ، أنف .

- لم يأسروا فيه .

- شمس العداوة . حتى يستقاد لهم .

- وكانوا طالما هدروا .

- لا يسمع الصوت مستكاً مسامعه .

لو نظرت الى هذه المعاني لوجدت أن إيحائيتها وبثها لا يقتصران على طبيعة المعنى وحسب ، بل على طبيعة اللفظ الذي كُسي به . ولست ممنعاً في افتعال التآويل لاستنطق الحروف ما لا بينة عليه ، بل اكفي بالإشارة مثلا ان في قوله : « وما الفرات إذا جاشت حوالبه » أدنى له حدسه لفظة تمثل المعنى فيما هي تعبر عنه . لفظة « جاشت » بجمها وشينها تؤدّي المعنى اداءً صوتياً ظاهراً . أما لفظة « حوالب » في صيغة الجمع، فقد أوحى بالكثرة من طبيعة صياغتها ، كما أنها في أصل معناها

تدلّ على الانهمار والتجمّع ، فكأنها لا تعبر ذهنياً عن المعنى ، بل تصفه وتجسّده .
ولست أزعّم ان الشاعر تفتّن إلى مثل ذلك بوعيه ، بل ان انفعاله اشتقّ لنفسه الفاظه ،
متصلاً بروحها وبتلك العلائق الحميمة التي تنشأ بين النفس واللفظ . ومثل ذلك
قوله : « وذعدعته رياح الصّيف » . فلفظة ذعدع تمثل المعنى بمقطعيها المتشابهين في
صيغة الرّباعي الأصب . وحروفها تتجاذب فيما بينها ، لا ينطلق الحرف الأول وينقضه
الحرف الثاني حتى ينطلق من جديد ، مجسّداً الحركة والتنازع اللّذين يوحى بهما
اللفظ في طبيعة معناه .

فهذه اللفظة تؤلّف بين الفصاحة والبلاغة ، وفقاً للتعبير القديم المأثور ، إذ أنها
تعبّر عن المعنى وتمثله وتوحي به في آن معاً . وربما تضاعف المعنى بلفظة « رياح »
وقد توسّل فيها صيغة الجمع توسّلاً بليغاً أوهم القارئ بعظم قوتها . فالرياح أعمق
دلالةً من الرّيح بمفرده إذ أنها تمنحه صفة الكثرة والشمول ، فكأنه يتطلع ويُحدّق
من كلّ صوب . ومثل ذلك لفظنا « جآجىء » و « غُدُر » في صيغة الجمع وفي
دلالتها الحسيّة التي تبعث في روع القارئ يقين الصّخب والعنف والفيضان .
ولفظه « الجآجىء » ذاتها تشير الى صدر السفينة النّائي الذي يقتحمه الموج ويتنجزر
عليه ، مرغياً ، مُزبداً ، ثم منداحاً في سيول على متن السفينة . ولو لم يكن حدس
الشاعر خالقاً ، لما أرشده الى مثل هذه اللفظة ولأحلّ من دونها لفظة تدلّ على
السفينة بمجملها أو ما الى ذلك مما لا يجسّد عظم انفجار الموج .

أما لفظه « مُسحفر » التي تدلّ على السّرعة والاصطخاب ، فقد أضافت بطبيعة
صياغة حروفها معنى التدافع والالتواء والاقترام ، وهي معان ألّف بينها الشاعر
وجمعها في حدود لفظة واحدة قاطبة . وذكره لجمال الروم لا يعدو هذه الغاية
اللفظية أو غاية استمداد القدرة الإيجابية من طبيعة اللفظ ذاته . فلفظة الروم توحي
هنا بالجلال والعلوّ والبعد وتمدّ بأبعاد المعنى وتُقصى مدلولاته .

ولا مجال للإطالة في تحليل هذا الأمر من خلال الأمثلة المتبقية ، فننوّه بأن
النّعوت المصاغة على صيغ الجمع : « حُشد ، عيافو ، شمس ، أنف » أدّت

معنى الغلوّ بطبيعة صياغتها فضلاً عن طبيعة معناها . وتجري مجراها ألفاظ « هدرُوا ومستكّا » إذ تنطوي حروفها على دلالتها .

وقد يخيّل للقارئ إثر ما أشرنا إليه ، أن الأخطل تعمدّ ذلك تعمدّاً واعياً ، والواقع أن الشاعر الخالق لا يخلق الأشياء متمالكاً وعيه ، بل إنها تحدس له ، فيتحكّمكُها بذائقته التي تسبغها فتثبتُها ، أو تمجُّها ، فترذلها .

ولقد أثير عن الأخطل أنه اقتضى على سياق النابعة في اللفظة الحيّة النفسية الموحية ، وأنه كان من عبید الشعر ، إذ قيل إنه أنفق ثلاثة أعوام في اعداد هذه الرائيّة . وذلك جميعاً ، يُزجي بنا الى القول ان اللفظة في شعر الأخطل هي لفظه مختارة ينتقيها لأبعاد ثلاثة تنطوي عليها ، على الأقل :

— فضلية معناها في أدائه المباشر .

— فضيلة جرسها وإيقاعها .

— فضيلة إيحائيتها بحيث تؤدّي المعنى وتواكبه وتضاعفه بصورته الصوتيّة والحسيّة والنفسية .

ب — خصائص العبارة أو اللفظة المركبة :

اعتمد فيها الشاعر على مقدّمات متعدّدة ، أهمها التالية :

١ — الحمل الشائعة المؤلفة من فعل وفاعل أو مسند ومسند إليه ، مع القيد ، فضلاً عن الجملة الاسميّة . كما أن جملة بدت مقتضبة لا يستطرد ولا يعترض فيها ، ووقّعها ، أحياناً ، في سياق مشابه ، مكرّر كقوله : الخائض الغمر ، الميمون طائرهُ .

٢ — توسل النعوت النفسية والحسية يلمُّ بها ، حيناً ، في صيغتها المباشرة ، وحيناً آخر تتأدّى له من الجملة أو المعنى العام . نفع على النعوت المباشرة في مثل قوله :

— الخائض الغمر ، الميمون طائره ، خليفة الله ،
— مسحنفر — مقدّم — مسوّم — حُشد — عيافو — أنف
— محقّر — شمس العداوة — مجلّة — ناصح — مخلّفون

وهذه النعوت تبدو أكثر تعاضماً وحشداً في الشعر الجاهلي ، وفي شعر الأخطل نفسه عندما يتناول موضوعاً وصفيّاً. والنعوت المباشرة عندما تُحشد وتتعاظم تنمّ عن تقصير في الرؤيا الشعرية ، اذ يتحوّل الشاعر عن الخلق بها الى الوصف . والشعر ليس محاكاة للأشياء ووصف أو رصف لها باللفظ ، بل هو خلق منها وابتكار فيها. فالنعوت المباشرة ليست قوام العبارة ، عند الأخطل ، وان كان يعترض بها ويلجأ اليها لتحديد المعنى وتأكيده أو جلالة .

النعوت غير المباشرة :

وقد يسمو عن النعوت اللفظية المباشرة الى النعوت المؤولة في جمل اسمية أو فعلية . ونقع على نعوت الحمل الاسمية فيما يلي من قوله :

— وأزعجتهم نوى في صرفها غير — وقد جاءت جملة « في صرفها غير » نعتاً للنوى ، وهي أرحب أداء وأوسع مضموناً من النعت المباشر إذ تولدت النعت من غير المنسوبة إلى الصرف .

— في حافتيه وفي أوساطه العشر

— منها أكافيف فيها دونه زوّ

— فوقه الرايات والقتر

— إن الضعينة كالعرّ

— وللسيف في خيشومه أثر

— الذي في خدّه صعر .

ونقع على النعوت المستمدة من الحمل الفعلية في مثل قوله :

- إلى امرىء لا تعدُّنا نوافلة : أظفره الله
- الخائف الغمر : الميمون طائره : يستسقي به المطر
- إذا جاشت حوالبه - ذعدعته - اضطربت - يستره
- ما ان رأى مثلهم جنّ ولا بشر
- يغشى القناطر بينها ويهدمها
- لم ينبض بها وتر
- في نبعة من قريش يعصبون بها
- تعلق الهضاب وحلّوا في أرومتها
- إذا المت بهم مكروهة صبروا
- اعطاهم الله - لم يأشروا
- لا يستقلّ ذوو الأضغان حربهم
- يبارون الرّياح - والقول ينفذ ما لا ينفذ الإبر - تلقاها وان قدمت - وليس ينطق حتى ينطق الحجر - يقضي الناس أمرهم - أنابت اليهم كل مخزبة .

وقد نفع على ما دون ذلك من نعوت اسميّة وفعليّة ، وإنما آثرنا تعداد ما قدّمنا منها لنخلص منه إلى أن قوام العبارة الاخطليّة يعتمد على النّعت المستفاد من الجملة ، أي على النّعت التمثيلي ، التفصيلي ، كأنه كان يسعى إلى مشاهدة المعاني ، حيناً ، ووعيتها ، حيناً آخر ، في حدودها المقرّرة . ويمكن أن نقرن معظمها بالتشبيه التمثيلي في بعض الجزئيّات والأعراض التي تلمّ بها .

٣- الإيقاع في متن البيت : بالاضافة إلى الإيقاع المستمدّ من الوزن والقافية يتولّد إيقاع يعضده ويتألّف معه من صيغ العبارة . وهو إيقاع خفر ، حيناً ، ومدوّ ، حيناً آخر ، نعر عليه في نهاية الاشطر غالباً . فالإيقاع المتولّد من الهاء في قوله : الميمون طائره - جاشت حوالبه - لا تعدُّنا نوافله ، في نهاية الاشطر الثلاثة

من مطلع القصيدة ، أو إيقاع « يستره - تسأله - لمنزله - يعصبون بها - أرومتها - به - مواليه - لهم - حربهم - دونكم - لكم » .

وقد يتولد ، أيضاً ، من تقطيع الجملة في الأشرطة أو الأبيات كمثل قوله : « في حافتيه وفي أوساطه - يبينها ويهدمها - هم آووا وهم نصروا - فلا هدى الله - ولا لعا » .

٤- ومن طبائع العبارة في هذه القصيدة توقيع حروف اللين في مد يعقبه خطف أو ما إليه كالألف بعد الياء - أو تلاحق الألف والاعراض بالواو ، مما لا مجال للإضافة بذكره ، فنقتصر على تمثيله بقوله :

الخائض الغمر والميمون طائره خليفة الله ، يستسقى به المطر

وقد وردت أحرف اللين فيه على الشكل التالي : ا - ي - و - هاء مُشَبَّعة - ا - ا - ومع أن هذه الحروف لا تنطوي على دلالة حاسمة ، فإن الباحث يقع فيها على نغم وثيد ، متوازن ، بعضاً بالبعض الآخر . والناظر في سائر أبيات القصيدة يعثر على كثير من هذه الامثلة التي ينتظمها بإيقاع خفر ، لطيف .

ج - وسائل التجسيد :

١ - الكناية أو التجسيد بالمشهد الحسي : إذ كان التشبيه هو القوام الأوّل للشعر الوصفي ، فإن الكناية هي القوام الأوّل للشعر الذهني القائم على إيراد المعاني . ونفهم بالكناية هنا أن يسوق الشاعر حادثة أو مشهداً يستبطن بهما الدلالة على معنى يرمزان إليه . مثال ذلك قوله :

- الخائض الغمر ، الميمون طائره : خليفة الله ، يُستسقى به المطر .

وقد استبطن في هذا القول الدلالة على بطولته وشجاعته ، فمثله خائضاً أعمار القتال ، يقتحمه ولا يبالي بمخاطره . فمشهد الرّجل الخائض الغمر ينطوي على دلالة

معنوية . ومثل ذلك « الميمون طائرته » للتدليل على البركة والتوفيق فيما يذهب إليه وما يبتغيه . ويقول : أيضاً ، إنه يستسقي به المطر ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، وهو تكرار لفكرة التيمّن والبركة بمؤدّي آخر .

ونقع على كناية كبرى في المقارنة بين الفرات وكوم المدوح ، توسّل لها التشبيه الاستطرادي المتعاطف بذاته في الجزئيات والأعراض ، كما سنرى .

– مقدم مائتي ألف لمنزله – وقد مثل بها عظم همته وشجاعته .

– يغشى القناطر بينها ويهدمها – للتدليل ، أيضاً ، على الشجاعة وشدة البأس ، وهو تكرار وتفسير لقوله السابق : الخائض الغمر .

– هم الذين يبارون الرياح – وقد تكنّى بالريّاح على الفقر والاملاق بتأثير طوارئ الطبيعة .

– ليس لهم ايراد ولا صدر – للقول إنهم فاشلون ، عديمو الأهميّة .

– يقضي الناس أمرهم – للتدليل على المعنى ذاته .

– فوقه الرايات والقتر – وهي شبيهة بالخائض الغمر وما إليها .

– لم ينض بها وتر – أي ان الجنود التحموا في القتال ولم يتراشقوا بالسهم من بعيد ، وذلك أدلّ على بطولتهم .

– ويستقيم الذي في خده صعر : وقد تكنّى بالصعر ، وهو تجمّد عروق العنق على الكبرياء .

وبعد ، فما قيمة هذه الأقوال من الناحية الفنية .

إن القيمة الأهم في ذلك كله أنّ الشّاعر يحوّل الفكرة الذهنيّة المجردة إلى صورة ، أي أنّه ينقل ما يفهم ويحوّله إلى شيء يبصر ، فيمنحه ، بذلك ، يقين الواقع الفعليّ الحيّ ، ويوهم القارئ به ويقنعه ويؤثر فيه . فلو استبدل قوله :

« الخائض الغمر ، يغشى القناطر ، بينها ويهدمها » بالاشارة إلى أنه شجاع ،
مقدام ، لضمر المعنى وتقلص وانعدم تأثيره في نفس القارىء .

٢- التشبيه : ألمّ الشاعر ببعض التشابيه ، عرضاً ، ولم ينصرف لها انصرفاً
خاصاً ، وأهم تشابيهه هي التالية :

- ما أن رأى مثلهم جنّ ولا بشر - وهذه الجملة لا تنطوي على صيغة التشبيه ،
بل على معناه إذ جعل الجنود يفوقون البشر والجنّ ، جميعاً . وقد بلغ غايته
بنقيضها .

- وفي نبعة من قريش يعصبون بها : وقد شبه نجابة الأصل بشجرة النّبع التي
تتخذ منها الأقواس لصلابتها وحذف المشبه وأقام من دونه المشبه به على الاستعارة
التصريحية .

- ما أن يوازي بأعلى نبتها الشجر : وقد شبه سائر الناس بالشجر على غرار
ما تقدّم .

- تعلقو الهضاب وحلوا في أرومتها : هو استكمال للتشبيه السابق ، بحيث مال به
إلى نوع من التشبيه الاستطرادي .

- ولا يُبين في عيدانهم خور : شبه أخلاقهم بالعيدان على الاستعارة التصريحية
المأثورة .

- ان الضغينة تلقاها وان قدمت كالعريكمين ، حيناً ، ثم ينتشر .

وقد شبه الضغينة بالحرب في تشبيه تمثيلي يتضمّن جزئيات وتفصيل في طرفيه ،
وجاء أحدهما معنوياً وهو الضغينة والثاني مادي ، وهو العرّ .

- وليس يتنطق حتى ينطق الحجر ، وقد انطوى هذا القول على تشبيه له بالحجر .

– وهناك التشبيه الاستطرادي المأثور منذ الجاهلية وقد استهله بقوله : وما
الفرات . . ثم أردف بعد ثلاثة أبيات بالقول : « يوماً – بأجود منه » – قارناً
بين كرم الممدوح وفيضان الفرات . وهذا التشبيه المستمد من الجاهلية يتصف
بخصائص النفس البدائية التي تؤدي المعنى من خلال تعظيم الأحداث والامام
بالجزئيات والاعراض .

٣ – مادة التجسيد : وتفهم بها الأغراض والمظاهر التي أفاد منها في تأدية معانيه .
وأهمها ما يلي :

١ – الدين : أفاد من الدين بعض المعاني التي كان يطرب لها الخليفة لتمكينها له
في السلطة . كقوله : « أظفره الله » « – خليفة الله » حيث منح الخليفة صفة دينية ،
فائقة جعلته خليفة الله ، مؤيداً منه في النصر .

ومثل ذلك قوله : « وتستبين لأقوام ضلالنهم » أي أن أعداء الخليفة كانوا
في حالة من الضلالة والكفر في قتالهم له ، وان الخليفة لا يقاتل في سبيل السلطة ،
بل في سبيل الدين .

ومثل ذلك في الأشرطة والأبيات التالية :

– أعطاهم الله جداً ينصرون به

– ناضلت دونكم ابناء قوم هم آووا وهم نصروا

– أفحمت عنكم بني النجار

– وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً فبايعوك جهاراً ، بعدما كفروا

٢ – السياسة : وقد أفاد منها مادة ذكره من أمر القتال في أبيات متعددة وفي
في امتداحهم بأصلهم القرشي العريق ، وفي ذكر ما كان من أمر ابن الحباب
ومن اليه .

٣- الاجتماع : استمدّ منه المعاني التي امتدحهم فيها بالقيم العامّة كالكرم والنصر واليمن والبركة والقدرة على تحمّل الاعباء ونجاة الاصل وإيثارهم للحق ونأيهم عن الفحشاء وأنفتهم وصبرهم ورفع حظوظهم وتواضعهم وبطشهم بالأعداء وإيوائهم الضعيف .

٤- الهموم والتجارب الذاتية : ظهرت في مفاخره بمن أوقع بهم في هجائه من القيسيين وفي سائر أعدائه وخاصة بني يربوع قوم جرير .

٥- البيئة المادية : ومعظم ما استمدّ منها يعود إلى البيئة الجاهلية كذكر العرّ والقطين وارتحال الأحبّة والتمنُّن والحنُّ والصَّعر ، وهو ، أصلاً ، يباس في عنق البعير .

خلاصة في مدحه لعبد الملك :

١- لم يتحرّر من المقدمات التقليديّة في الطلل والحُبِّ والشكوى ، ولكنها لم تتناول بالحجم الذي أثار عنه في القصائد السابقة .

٢- تعاطمت الموضوعات السياسيّة المتعلّقة بالقبائل وأيامها ومحالفتها للخليفة أو مخالفة الخليفة لها ، وتدابير الحرب والقتال ومعاني الشّماتة والثلب والهزاء والفخر .

٣- برزت المعاني الملحميّة التي تُعظّم من بطولة الممدوح وتُبدع له مثلاً خارقاً في الكفاح والتضحية وبعُد الهمة ، يؤدي ذلك بالأوصاف والأفكار والاستطرادات الحسيّة المنطوية على معنى الكناية ، كالحيل التي تطرح الأجنّة من أرحامها وتجهض ، لشدة ما حملت عليه من النصب والإرهاق . وبعد أن كان يُقصر غاية المدح على ذكر كرم الممدوح واستعطافه بل واستجدائه ، فان كرمه غدا يفدُ كرديف لسائر المعاني الفروسيّة وان كان لا يقلّ عنها غلواً .

٤- أولج الأخطل نفسه وقبيلته في موضوع المدح ، فجعل يَفْخَرُ بِمَاثِيهِ في سبيل الخلافة وتوطيد أركانها ودفع أعدائها عنها بالقول الَّذِي يَنْفُذُ ما لا تَنْفُذُ الإبرُ ، كما أَنَّهُ يُمَتِّنُ الخليفة وَيُظْهِرُ فضل قبيلته عليه بدلاً من اظهار فضل الخليفة عليها :

وَقَدْ نَصِرْتَ ، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَا لَمَّا أَتَاكَ بِبَطْنِ الْغُوطَةِ الْخَبْرُ
يَعْرِفُونَكَ رَأْسَ ابْنِ الْحُبَابِ وَقَدْ أَضْحَى وَلِلْسَيْفِ فِي خَيْشُومِهِ أَثْرُ

٥- تظني شخصية الشاعر على المدائح كُلهَا ، إذ لم يَعُدْ يتلهى برياضة النَّظْمِ في مرادة الموضوعات التقليدية ، بل أن قصيدته غَدَتْ ابنة نفسه ، تَضِجُ ضَجِيجًا وَتَحْنَقُ حَنْقًا وَتَتَأَلَّبُ وَتَحْتَشِدُ احتشادًا ، ويخيل إليك أن ألفاظه تنحاكُ وَتَقْدَحُ شرراً ، ولأنها تنقص انقضاءً . فالأخطل لم يعد ذلك الفتي الغفل الذي يخاف على نفسه غائلة الانصار ولم يَعُدْ ذلك الشاعر المغمور الَّذِي يُنْفِقُ غاية جهده لنيل رضا الممدوح ، بل غدا رجل دولة أو رجل مصير ، إذا جاز التعبير ، يرى رأيه في الأشياء ، ويقف منها موقفه ، يحضُّ وَيُحْدَرُ وَيُؤْتَبُ ويتهدد ويفتخر . وإذا لم تكن المسافة الفنية قصية نائية بين مدائح الأخطل في يزيد ومدائح في عبد الملك ، فان المسافة النفسية شاسعة ، نائية ، بين فتي متداع ، حذر ورجل متمالك لروعه وطاقه بحضوره على أجواء القصيدة بكاملها .

٦- تكثر في هذه المدائح الجمل الانشائية من أمر ونهي وتعجب ، كما يَغْلُبُ أسلوب الاحتجاج والعرض والتبيين ، حَيْثُ تَضَعُ قَوَى الْخِيَالِ والابداع وتنبري من دونها القوى الشعرية الواعية .

٧- الا أن الأخطل مع ذلك كُله ، أوفى إلى ذروة فنية في حشد المعاني وابتداع الأطر الحسية لها واستنباط التآويل التي تدرك بها أقصى غايتها في الغلو . فهو ينهك المعنى ، فيما هو يُغالي به ولا يدع فيه وجهاً أو افتراضاً ، كما بيَّنا .

الباب الخامس

مداحه في بشر بن مروان

قدّمنا بحثاً في طبيعة العلاقة التي أوثقت صلة الأخطل ببشر بن مروان مما لا مجال لتكراره . وإنّما نستعرض فيما يلي قصائده في مدحه ، استكمالاً لدراسة هذا الفنّ لدينه وإطلاعاً على مدى تأثير شعره بمن يمتدحه في شخصيته ووظيفته وما أشبه . ففي القصيدة الأولى يستهلُّ بذكر ما حلَّ بديار القيسيين ثمّ نراه يهجوهم ويهجو أسيادهم الزبيريين ويسخر منهم لسعيهم إلى معازمة المروانيين الذين هم هامة قریش ، المتنعون على الخصوم ، العريقون في الملك ، الشديديو الحلم في مواضع الحكمة ، الفتاكون بالقرب والغريب في مواضع الغضب والقسوة . ويعرض ، بعدئذ ، لحقهم بالخلافة وسعيهم للأخذ بثأر عثمان وفتكهم بمناوئتهم من آل الزبير ، ويميل إلى تعظيم بشر في الكرم الذي يفيض عنه ، كما يفيض الماء من الدلو الكبيرة ، وينوه بمآثره في إكرام الضيوف إذ ينحروهم أشرف الإبل ، فيما يحقد بهم القحط والصقيع . وينهي القصيدة معظماً الممدوح ، مؤثراً له على الناس جميعهم .

يقول في المطلع :

أَقْفَرَتِ الْبُلُخُ مِنْ عَيْلَانَ فَالرَّحْبُ فَاَلْمَحَلِّيَّاتُ ، فَالْخَابُورُ ، فَالشُّعْبُ

١ - الْبُلُخُ : جمع بليخ : موضع بالجزيرة . الرَّحْبُ : جمع رحبة وهي قرية بجذاء القادسية . الْمَحَلِّيَّاتُ : جمع محلّية : قرية بين الموصل وسنجار . الْخَابُورُ : اسم لنهر كبير بين رأس العين والقُرَات .

فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ كَانَتْهُمْ مِنْ بَقَايَا أُمَّةٍ ذَهَبُوا ۱

وهذا مَطَّلَعٌ يَكَادُ أَنْ يَكُونَ فَرِيداً أذْ بَرْتِي فِيهِ الْأَعْدَاءُ أَوْ يَسْمَتُ بِهِمْ .
فَالْإِرْتِمَالُ يَخْصُ الْقَيْسِيَّ الَّذِينَ لَمْ يَعُدُّ لَهُمْ قَبْلَ بِالْإِقَامَةِ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ بَعْدَ أَنْ
نَكَلَ بِهِمُ التَّغْلِيثُونَ . وَلَقَدْ خَلَّفُوا آثَارَهُمْ كَأَثَارِ الْأُمَّةِ الْبَائِثَةِ . وَرَبِّمَا حَرَصَ
الْأَخْطَلُ عَلَى مِقَابَلَةِ آثَارِهِمْ بِالْأُمَّةِ مِنْ دُونَ الْأَطْلَالِ الْمُهْزِلَةِ ، لِتَعْظُمَ قَوْمُهُ بِهِمْ .
وَأَنَّ الْبَاحِثَ لِيَحَارُ بِشَأْنِ هَذَا الْمَطَّلَعِ إِذَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ تَعْيِينُ الْعَاطِفَةِ الَّتِي يَصْدُرُ عَنْهَا ،
فَنَكْتَفِي مِنْ ذَلِكَ بِالْإِشَارَةِ وَالتَّنْوِيهِ ، إِذْ جَعَلَتْ هُمُودَهُ الْقَبِيلَةَ تَصْحَبُهُ فِي مَعْظَمِ
قِصَائِهِ وَتَحُلُّ فِي مَطَالِعِهَا مَحَلَّ الْغَزْلِ . إِلَّا أَنْ حَقْدَهُ يَنْفُجِرُ فِيمَا يَلِي مِنْ أَبْيَاتٍ
إِذْ يَقُولُ :

فَاللَّهُ لَمْ يَرْضَ عَنْ آلِ الزَّبِيرِ وَلَا عَنْ قَيْسِ عَيْلَانَ ، حَيًّا طَالَمَا خَرَبُوا ۲
يُعَازِمُونَ أَبَا الْعَاصِي ، وَهُمْ نَفَرٌ فِي هَامَةِ مِنْ قُرَيْشٍ ، دُونَهَا شَدَبٌ ۳

وَبِذَلِكَ تَلَدِّجُ الْقَصِيدَةِ فِي بَابِ الْمَدْحِ وَالتَّبْرِيرِ ، وَفَقًّا لِلْمَعْطِيَّاتِ السِّيَاسِيَّةِ
وَالدِّيْنِيَّةِ . فَالزَّبِيرُونَ وَالْقَيْسِيُّونَ عَصَاةٌ ، مَارِقُونَ مِنَ الدِّينِ ، لَمْ يُخَذَلُوا

١ - م : يقول إن آثار المساكين قد تعفت في تلك الديار ، إلا قليلاً ، فبدت كأنها آثار
أمة خالية .

٢ - خربوا : سرقوا ما ليس لهم حق به .

م : يشير إلى الزبيريين ، أعداء الأمويين ، وإلى قيس عيلان ، أعداء تغلب ، ويقول إن الله
غاضب عليهم لسعيهم إلى إختلاس حق ، ليسوا حقيقين به .

٣ - الشدب : الشوك .

م : يقول إنهم يعازمون المروانيين الذين هم هامة قريش ، الممتنعون على الخصوم ، يعانون من
دون لقاءهم أمر الصعاب .

بأنفسهم ، بل إن الله خَدَّهم . والبعد الدَّيني بيِّن في قوله « فالله لم يَرْضَ عن آل الزُّبير » وقد أشرك الله في المحازبة والقتال لتنازُع السُّلطة في الدِّين . ويتحدَّرُ الشَّاعر في البيت التَّالي إلى الإيضاح والإبانة ، بما لا يَعُدُّ وما ورد في بيت سابق ، إذ جعل غضب الله ينقضُ عَلَيْهِمُ لمعارضتهم المروانيين ، وقد أسفَّ بذلك لإخضاعه التَّجربة للدَّعاية والغاية السياسيَّة بتعليل فاقد القيمة الانسانيَّة . ولقد نَزَعَتْ غاية الشَّعر إلى الخارج وافتقدت مبررَها لأنَّها تخلَّت عن مراودة الحقيقة وارتياها . ولا يَشْفَعُ بذلك اللَّفظ والصِّياغةُ والعبارة .

ومن ثمَّ يَمْضِي في مدحهم بالقول :

بِيضٌ مِصَالِيْتُ ، أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ ، فَلَنْ يُدْرِكَ مَا قَدَّمُوا عُجْمٌ وَلَا عَرَبٌ ١
 إِنْ يَحْلُمُوا عَنكَ ، فَالْأَحْلَامُ شِيَمَتُهُمْ وَالْمَوْتُ سَاعَةٌ يَحْمِي مِنْهُمْ الْعُضْبُ ٢
 كَانَهُمْ عِنْدَ ذَاكُمْ ، لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ حَارَبُوا قُرْبِي وَلَا نَسَبٌ ٣
 كَانُوا مَوَالِيَّ حَقٍّ ، يَطْلُبُونَ بِهِ فَأَذْرَكُوهُ ، وَمَا مَلُّوا ، وَلَا لَعَبُوا ٤

١ - بِيضٌ : هنا بمعنى الأحرار . المِصَالِيْتُ : جمع مِصَلَاتٍ : الصَّنْدِيدُ ، البطل .

م : يمتدح المروانيين ، ويقول إنهم أحرار ، عريقون في المُلْكِ ، لم يبلغ مجدهم العَرَب والأعاجم أي أنهم أُمجد النَّاسِ .

٢ - م : يمتدحهم بالحلم وعظم العقل ، ويقول إن ذلك شِمة من شيمهم ، إلا أنهم يُدَيِّقُونَ أعداءهم الموت ، فيما يَغْضَبُونَ .

٣ - م : أي عندما يَسْتَشِيطُونَ غضباً ، يقضون على عدوِّهم ، أكان قريباً أم غريباً .

٤ - لَعَبُوا : أعيوا .

م : يقول إنهم كانوا أصحاب حق مغضوب ، يطلبونه ، فظَلُّوا يجاهدون حتى أدركوه دون أن يملوا من الصعاب ويعجزوا من دونها .

ولقد حشد النُوعَ المدحِيَّةَ : « بيض ، مَصَالِيَت ، أبناء الملوك » حيث يَنْعَدَم الخَلْقُ ، ويعْتَاضُ الشَّاعِرُ عَنْهُ بِتَكثِيفِ النُّوعِ المُسْتَعَارَةِ مِنْ مُعْجَمِ الأَلْفَاظِ الإيْجَابِيَّةِ . وَقَدْ كَانَ النَّعْتُ ، أَوَّلًا ، أَدَاةً شَعْرِيَّةً فَاشِلَةً وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَمَا يُحْشَدُ وَيُعَاقَبُ ، إِذْ يَمُتُّ ذَلِكَ عَنِ العِزِّ فِي الرُّؤْيَا وَتَتَعَتُّعُ فِي فَضِّ الأَنْفَعَالِ لِمَطَالَعَةِ مَصْأَمِينِهِ الأِنْسَانِيَّةِ .

ويجري على هذا الغرار قوله : « فَلَنْ يُدْرِكَ مَا قَدَّمُوا عَجْمًا وَلَا عَرَبٌ » حيث أحلَّ التَّعْمِيمَ والإِطْلَاقَ مَحَلَّ النُّوعِ الحَاشِدَةِ ، وَالأِطْلَاقَ يَصْدُرُ عَنِ الحِمَاسِ الأَرَعَنِ الفَاقِدِ البَصِيرَةَ ، المُسْتَعْدِمِ الثَّقَافَةَ . وَأَيَّةُ قِيَمَةٍ شَعْرِيَّةٍ أَوْ إِنْسَانِيَّةٍ لَشَعْرِ شَاعِرٍ يَقُولُ إِنْ فَلَانًا هُوَ أَعْظَمُ النَّاسِ ، قَاطِبَةً ، إِنَّهُ كَلَامُ الدِّهْمَاءِ وَالعَامَةِ فِي أَحَادِيثِهِمُ الأَنْفَعَالِيَّةِ الفَاقِدَةِ الثَّقَافَةَ وَالمُسْؤُولِيَّةَ . وَلَقَدْ كَانَ الإِطْلَاقُ الآفَةُ الكُبْرَى المَلْأَمَةَ لِلعُلُوِّ فِي الشَّعْرِ العَرَبِيِّ . أَمَّا مَا يَسُوقُهُ فِيمَا بَلِي فِيمَتَدَحُّهُمْ فِيهِ بِالحِلْمِ : « انْ يَحَامُوا عَنكَ ، فَالأَحْلَامُ شِيمَتُهُمْ » ، وَالحُلْمُ مِنَ المَعَانِي المَدْحِيَّةِ العَامَّةِ وَمِثْلُ ذَلِكَ البَطْشُ وَالفَتْكُ وَلَكِنَّهُ عُنِيَّ بِمُعَارَضَتِهَا وَتَحْدِيدِهَا ، بَعْضًا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الآخَرِ .

وَلِنَظَرٍ إِلَى النَّثْرِيَّةِ المَمْجُوجَةِ فِي قَوْلِهِ لِلتَدْلِيلِ عَلَى شِدَّتِهِمْ وَبَطْشِهِمْ :

كَأَنَّهُمْ عِنْدَ ذَاكُمْ لَيْسَ بَيْنَهُمْ . وَبَيِّنَ مَنْ حَارَبُوا قُرْبَى وَلَا نَسَبَ

عَلَى أَنَّ امْتِدَاحَهُمْ بِأَحْقِيَّتِهِمْ وَصَلَابَتِهِمْ مِنْ دُونِهَا يَسْمُو قَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ لَوْلَا أَنَّهُ يَفْتَعِلُهُ لَغَايَةَ مَدْحِيَّةٍ دَعَائِيَّةٍ ، ثُمَّ إِنَّهُ يُمَثِّلُهُ بِقَوْلِهِ :

إِنْ يَكُ لِلْحَقِّ أَسْبَابٌ يُمَدُّ بِهَا فَفِي أَكْفِهِمُ الأَرْسَانُ وَالسَّبَبُ ١

١ - الأسباب : هنا الحبال .

م : يقول إذا كان الحق يوثق بحبال ، فإن زمام تلك الحبال يكون بأيديهم ، وقد ابتدأ الشاعر هذه الصورة ، ليعز بها إلى أنهم أصحاب الحق ، يقبضون على ناصيته .

هُمُ سَعَوْا بِابْنِ عَفَّانَ الْإِمَامِ ، وَهُمْ بَعَدَ الشَّمْسِ مَرَوْهَا ، ثُمَّتَ احْتَلَبُوا ١
 حَرْباً أَصَابَ بَنِي الْعَوَامِ جَانِبَهَا بُعْدًا لَمَنْ أَكَلَتْهُ النَّارُ وَالْحَطْبُ ٢
 حَتَّى تَنَاهَتْ إِلَى مِصْرٍ جَمَاعَتَهُمْ تَعَدُّو بِهَا الْبُرْدُ مَنْصُوباً بِهَا الْخَشْبُ ٣
 إِذَا أَتَيْتَ أَبَا مَرْوَانَ ، تَسَأَلُهُ وَجَدْتَهُ حَاضِرَاهُ الْجُودُ وَالْحَسَبُ ٤
 تَرَى إِلَيْهِ رِفَاقَ النَّاسِ سَائِلَةً مِنْ كُلِّ أَوْبٍ عَلَى أَبْوَابِهِ عُصَبُ ٥
 يَحْتَضِرُونَ سِجَالاً مِنْ فَوَاضِلِهِ وَالْخَيْرُ مُحْتَضِرُ الْأَبْوَابِ مُنْتَهَبُ ٦

وتأكيد الشاعر على حقهم كان من جوهر مهمته المدحية إذ أنهم كانوا يُعَارِضُونَ به ويقَاتِلُونَ عليه، وقد تفتق لهم بصورة توافق مقتضى الحال غاية الموافقة إذ افترض للحق شكل المطيئة وجعل رسنه في أيديهم ، أي أنهم يملكونه

- ١ - الشَّمْسُ : هنا النزاع والممانعة . مَرَوْهَا : استندروها .
 م : يقول إنهم سعوا للأخذ بثأر عثمان ، وبعد أن ثارت الفتنة ، أخدموها وآل إليهم الملك ،
 ولقد ولج الاعر إلى ذلك من باب تشبيه الحرب والفتنة بناقة شلوس ، لا تدع أحداً
 إلا أن الأء . بن امثروا ضرعها واستندروه .
- ٢ - بنو العوام : أبنا الزبير .
- ٣ - البرد : جميع برید .
 م : يشير هنا إلى أن عبد الله بعث برأس مُصْعَب ، إذ قُتل ، إلى الكوفة ثم بعث به إلى أخيه
 عبد العزيز بن مروان بمصر .
- ٤ - م : يقول أن بشرأ لا يزال يجود بماله ، يحفزه إلى ذلك حَسْبُهُ العريق .
- ٥ - م : يصور الناس الذين يتنجعون بلاطه بجماعات وعصب لكثرتهم وشدة ازدحامهم
 على بابه .
- ٦ - محتضرن : أي يحضرن . سِجَال : جمع سجل وهو الدلو الكبيرة فيها ماء .
 م : يقول إن العطاء يتدفق من أيديهم ، كما يتدفق الماء من الدلو الكبيرة ، ويردف بأن الناس
 لا يزالون يهرعون إلى أبواب رجل الخير والعطاء .

وَيَقْبَضُونَ عَلَيْهِ وَيَتَصَرَّفُونَ بِهِ . وَالصُّورَةُ تَمثِيلِيَّةٌ مُقْنَعَةٌ ، وَلَكِنَّهَا افْتِرَاضِيَّةٌ ، تَعَادُلُ التَّشْبِيهِ دُونَ أَنْ تَجْرِيَ مَجْرَاهُ فِي الصِّيغَةِ وَالشَّكْلِ . فَهِيَ صُورَةٌ بَلِيغَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَايَتِهَا وَغَايَةُ الشَّاعِرِ مِنْهَا إِذْ بَلَغَ إِلَى ذُرْوَةِ التَّأَكِيدِ عَلَى أَحْقِيَّتِهِمْ . فَهَلْ أَنْ الْحَقِيقَةُ الْمَدْحِيَّةُ مُنْفَصِلَةٌ عَنِ الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَمْ أَنَّهَا حَقِيقَةٌ افْتِرَاضِيَّةٌ أَمْ تَوْقِيعِيَّةٌ ؟ بَلْ إِنْ الْمَدْحُ لَا قِيَمَةَ لَهُ إِلَّا إِذَا كَانَ تَمَجِيداً لِلْإِنْسَانِ الْمُتَّفَوِّقِ بِصَلْبِ إِرَادَتِهِ وَصُمُودِهِ .

أَمَّا فِي الْبَيْتِ الثَّانِي ، فَإِنَّهُ يُعَاوِدُ الْاسْلُوبَ الْمُسْتَمَدَّ مِنْ وَقَائِعِ الْبَيْتَةِ الْمَادِيَّةِ . فَكَمَا جَعَلَ لِلْحَقِّ رَسْماً يُوثِقُ بِهِ ، جَعَلَ الْخِلَافَةَ كَالنَّاقَةِ الَّتِي يُمْرَى ضَرْعُهَا فَتَدْرَهُمْ ، بَعْدَ تَرْوِيضِهَا . وَمُؤَدَّى ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَقُوا مِنْ دُونِهَا عُنْتاً ، لَكِنَّهُمْ نَاضِلُوا عَلَيْهَا حَتَّى اسْتَسَلَمَتْ لَهُمْ وَاسْتَدْرَأُوا خَيْرَهَا . وَلَقَدْ أَلَّفَ بِذَلِكَ الْكِنَايَةَ وَالِاسْتِعَارَةَ بِنَوْعٍ مِنَ الْخِيَالِ الْبَصِيرِ فِي التَّوْحِيدِ بَيْنَ أَعْرَاضِ النَّفْسِ وَمَظَاهِرِ الْمَادَةِ وَنِسْبَةِ مَا لِأَحَدِهِمَا إِلَى الْآخَرِ . وَفِي هَذِهِ الصُّورَةِ تَجْتَمِعُ فَضِيلَةُ التَّشْبِيهِ فِي الْمَقَابِلَةِ لِتَأَكِيدَ الْمَعْنَى وَالِاسْتِعَارَةَ فِي التَّوْحِيدِ بَيْنَ مَا لَا وَحْدَةَ بَيْنَهُ . وَمِنْ هَذِهِ الصُّورَةِ يَعودُ إِلَى سَجَلِ الْوَقَائِعِ التَّارِيخِيَّةِ ذَاكراً لِإِنْدِحَارِ الزُّبَيْرِيِّينَ وَارْسَالِ رَأْسِ مَصْعَبٍ إِلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي مِصْرَ . وَلَا مَنَاصَ لِلْمَدْحِ مِنَ الْوَقُوعِ فِي قَبْضَةِ الْأَحْدَاثِ وَمَا تَقْتَضِيهِ مِنْ سَرْدٍ بِالتَّصْرِيحِ وَالتَّمْلِيحِ . وَيَخْلُصُ مِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَى وَصْفِ كَرَمِهِ مِنْ خِلَالِ الْحَشُودِ الْقَائِمَةِ عَلَى بَابِهِ ، أَيْ بِالْكِنَايَةِ الْمَشْهُدِيَّةِ الْحَسِيَّةِ وَمِنْ خِلَالِ السَّجَالِ أَيْ الدَّلَاءِ ، أَيْ بِالِاسْتِعَارَةِ التَّشْبِيهِيَّةِ ، وَهِيَ ، جَمِيعاً ، عَدِيمَتَا الْخَلْقِ ، تَقْلِيدِيَّتَانِ ، دَانِيَّتَانِ ، يَسْمُو عَلَيْهِمَا قَلِيلاً فِي قَوْلِهِ :

وَالْمُطْعِمُ الْكُومَ ، لَا يَنْفَكُ يَعْقِرُهَا إِذَا تَلَاقِي رُوقُ الْبَيْتِ وَاللَّهَبُ ١

١ - الْكُومُ : جَمْعُ كَوْمَاءَ وَهِيَ النَّاقَةُ الْعَظِيمَةُ السَّنَامُ .

م : يَقُولُ إِنَّهُ لَا يَزَالُ يَنْحَرُ الْإِبِلَ الْعَالِيَةَ الثَّمَنَ فِي أَيَّامِ الْقَحْطِ وَالشِّتَاءِ ، عِنْدَمَا تَوْقَدُ النَّارَ ، فَتَبْلُغُ أَعْلَى رُوقِ الْبَيْتِ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ الَّذِي يَعْانِيهِ مَوْقُودَهَا .

كَانَ حَيْرَانَهَا فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ قَتَلَى مُجَرَّدَةَ الْأَوْصَالِ تُسْتَلَبُ ١
لَا يَبْلُغُ النَّاسُ أَقْصَى وادِيَيْهِ ، وَلَا يُعْطِي جِوَادُ ، كَمَا يُعْطِي ، وَلَا يَهَبُ ٢

وإذا كان ذكر الكوم في مقام الكرم مستنفداً في التقليد ، فقد غالى على سائر المتبارين إذ جعل المدوح يذبح النياق الحامل ، فكأنه يذبح بالواحدة اثنتين . وربما كان لمثل هذه الافتراضات وقع في نفس المدوح ، إلا أنني لا أسيغها إذ يطغى عليها التفسير والاختلاق دون طائل . ومهما يكن ، فإن الأخطل لا يحتمد في هذه القصيدة احتشاداً ملحمياً ، كما سبق ، بل يسوق لنا فيها عيّنات جزئية من الموضوعات التي يعرّج عليها في مدائحه ، وإن كان قد خصّ المطالع بذكر أطلال الأعداء ، مُتَغَنِيّاً ، شامتاً .

ولالأخطل قصيدة أخرى في مدح بشر بن مروان بدأها مُتفاخراً بانتصاره على الأعداء الذين يفرقون جزءاً منه كالطائر الهزبل الذي ينقضُّ عليه الصقر ، ويقول إنهم يُعادونه ، وهم بعيدون عنه ، ويؤكّون من دونه ، فيما يلقونه ، ويهجوهم بالجهل والتبجج والخبث ، وينقطع إلى الغزل وذكر صاحبه الراحلة التي كانت تختلس إليه النظر من دون الحجاب ، ويصف خديها وقامتها وثرغها ويعرّض بقبح زوجها ويوح بالهمّ الذي خلفته في نفسه إثر رحيلها ، ويعرّج إلى وصف الناقة ، ذاكرةً مجرى الحزام في جنببها وسرعة تقلب يديها ورجليها ويُسبّبها بالأتان الوحشية والحمار الوحشي وأثنى النعام التي يتعرّض لها ذكر قصير الريش يباريها في العدو إلى احتضان بيئتهما .

١ - الحيران : جمع حوار : ولد الناقة .

م : هذا البيت ينطوي على معنى مدحي يستكمل به معنى البيت الآخر . يقول إن المدوح ينحر نياقه السمّية ، وهي حامل ، ولا يجزع أن يضحّي بما تحمله من ولد ، فكأنه نحر بالناقة اثنتين : هي ووليدها .

٢ - م : يؤثره في هذا البيت على سائر الناس في الكرم ويقول إنه لا يبلغ أحد قط أقصى واديه أي لا يدرك غاية ما يدركه .

ويوفي ، إثر ذلك ، إلى المدح ، فيقسم أعظم الايمان على صدقه في امتداح قريش ، وفزعه إليها ممن يتربصون للغدر به ويشون عليه إلى القرشيين . وبعد أن يمدح بني قريش بطيب مقامهم وكرمهم ، يظهر اعتصامه بجبل بشر على المصائب وإيثاره له على سائر القرشيين .

يقول في مطلعها :

قَدْ كَشَفَ الْحَلْمُ عَنِّي الْجَهْلَ ، فَاَنْقَشَعَتْ عَنِّي الضَّبَابَةُ ، لَانِكْسُ ، وَلَاوْرِغُ ١

ثم يُخَاطَبُ صاحبه المالكية ، ويستطرد إلى وصف الناقة وتشبيهاها بالثور الوحشي وأنى النعام :

وَالْمَالِكِيَّةُ قَدْ أَبْصَرْتُ مَا صَنَعْتُ لَمَّا تَفَرَّقَ شَعْبُ الْحَيِّ ، فَأَنْصَدَعُوا ٢

يَا صَاحَ هَلْ تُبْلِغُنَهَا ذَاتَ مَعْجَمَةٍ بِصَفْحَتَيْهَا وَمَجْرَى نِسْعِهَا وَقَعُ ٣

كَأَنَّهَا أَسْحَمُ الرَّوْقَيْنِ ، مُنْتَجِعُ تَلْوِهِ رَجْلَانِ فِي كَعْبَيْهِمَا صَمْعُ ٤

- ١ - الضَّبَابَةُ : هنا الجهل . التَّكْسُ : الجبان . وَرِعَ : هنا من يأخذه الرَّوعُ أي الخوف .
 م : يقول إنَّ الحلم بدَّد ضباب الجهل في نفسه ، دون أن يؤدي به تحلُّمه إلى الجبن والخوف . فهو لا يحلم عن عجز ، بل عن إرادة واختيار .
- ٢ - المالكية : امرأة من بني مالك . الشَّعْبُ : المتفرِّق . انصدَعُوا : تفرَّقوا .
 م : ينقطع في هذا البيت إلى الغزل ، ويقول إنه أبصر ما قامت به صاحبه عند تفرُّق الشمل والرحيل .
- ٣ - ذَاتُ مَعْجَمَةٍ : أي ناقة قوية . الصَّفْحَتَانِ : الجنبان . النَّسْعُ : هو مثل الخزام للدابة .
 م : يشرع في وصف الناقة القوية التي يمتطيها لإدراك حبيته ، ويقول إنَّ مجرى الخزام في جنبها خلف في جلدها أثراً .
- ٤ - الأَسْحَمُ : الأسود . هنا الحمار الوحشي . الرَّوْقَيْنِ : القرنين . المُتَجِعُ : الذي يطلب المرعى .
 الصَّمْعُ : التحديد .
 م : يعود فيشبهها بحمار الوحش الأسود القرنين الذي يعدو طلباً للغيث والمرعى والذي شحذ كعباً رجليه من شدة عدوه .

أَوْ هِقْلَةٌ مِنْ نَعَامِ الْجَوِّ ، عَارِضَهَا قَرْدُ الْعَفَاءِ ، وَفِي يَأْفُوخِهِ صَقَعٌ ١
وَيُبَاشِرُ الْمَدْحَ بِالْقَسَمِ فِي قَوْلِهِ :

إِنِّي وَرَبِّ النَّصَارَى عِنْدَ عِيدِهِمُ وَالْمُسْلِمِينَ إِذَا مَا ضَمَّهَا الْجَمْعُ
وَرَبِّ كُلِّ حَبِيسٍ فَوْقَ صَوْمَعَةٍ يَمْشِي وَلَا هُمُ الدُّنْيَا وَلَا الطَّمْعُ
وَالْمُلْبِدِينَ عَلَى خُوصٍ مُخْدَمَةٍ قَدْ بَانَ فِيهِنَّ مَنْ طَوَّلَ السَّرَى خَضَعُ ٢
حَثُوا الرَّوَاحِلَ مَشْدُوداً حَقَائِبُهَا مِنْ شَأْنِ رُكْبَانِهَا الْحَاجَاتُ وَالْوَلَعُ ٣

ولقد كان القَسَمُ من أركان القصيدة النَّابِغِيَّةِ والأَعَشُوِيَّةِ (١) ، وقد تلقَّفه الأخطل فيما تاقَّف من معانيهما ، دون أن يُخلفه في حدود التَّقْلِيدِ إذ نَفَحَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ مِنَ الذَّاتِيَّةِ وَالشَّجْوِ ، مُتَرَدِّداً فِيهِ عَلَى جَزَائِيَّاتٍ خَاصَّةٍ ، كَذَكَرِ

١ - الهِقْلَةُ : الأثني من النعام . الجَوُّ : ما انخفض من الأرض . القَرْدُ : القصير الريش .
العَفَاءُ : ما كَثُرَ من ريش النعام . الصَّقَعُ : بياض في وسط رؤوس الخيل والطيور .
يشبه ناقته كذلك بأثني النعام التي تعرَّض لها ذَكَرَ قصير الريش ، تعلو رأسه بُقْعَةً من
البياض .

٢ - المُلبِدُونُ : المُلَازِمُونَ لظَهْرِ المَطَايَا . المُخْدَمَةُ : التي شدَّت النعال إلى أرساغها بالسيور .
الخَضَعُ : الضعف .

م : يقسم بإله الحجاج المنتصقين على مطاياهم ، يَعُدُونَ بِهَا فِي اللَّيْلِ ، وَقَدْ أَصَابَهَا الْوَهْنُ
وَالهَلَاكُ .

٣ - الحَقَائِبُ : جمع الحَقِيبة : هي ما يُجْعَلُ وِراءَ الرَّحْلِ عَلَى النَّاقَةِ .

م : يستكمل معنى البيت السابق في وصف مطايا الحجاج الذين وضعوا الحقائق ، إثر أرحلهم ،
على الناقة ، وعدوا في سبيل الحج ، يترع بهم الشوق إليه والحاجات الكثيرة التي يرجونها
فيه .

وفي هذه الأبيات الأربعة يردّد الشاعر معنى واحداً للقسم ، يكرره بعبارات متباينة ،
وذلك كَلْتَهُ لِلتَّأْكِيدِ وَالغُلُوِّ وَالِإِقْتِنَاعِ .

النَّصَارَى والمسلمين ، مما لم يُسَبَقَ إليه ، والحيساء المعتزلين في صوامعهم ، وكانت لهم عند العرب هيبة القداسة وبركتها ، فضلاً عن أسطورة عريقة في القدم تَغْمُرُ المعنى بغلابة الوهم والايحاء ، تتضاعف بذكر المطايا التي تكُدح على طريق الحج ، منذ الجاهلية الأولى الغامضة .

و بعد ، فما هي قيمة القسم في مثل هذه القصائد ؟ إنَّه ، في نقطه انطلاقه ، أداة للتأكيد ، يستشهد بها المرء قوة تفوق الانسان ولها تأثير على مصيره ، ليُقنع القارئ أو السامع بصدق ما يقول . ولعلها أعمُّ في عهد البداوة ، حيثُ تَطغى الانفعالات الشديدة . فالبدائي لا يَحْرَجُ من الأيمان المغلظة ، وقد أفاد منها الاسلام وحوّل اليمين إلى بيعة ملزمة لا تُنقَضُ . أما من الذّاحية الفنيّة الخالصة ، فليسَ للقسم قيمة بذاته إذ أن الشعر المبدع لا يؤكّد بالقسم والغلو والتعاويد ، بل إنّه يقنع بذاته ، أو بالاحرى باستحضاره للحقيقة بذاتها أو بما يماثلها ، ولا جدوى من القسم عليّها لتمثيلها أو خلقها . والأخطل يُعظّم من قسمه ، هنا ، ليؤكّد على اعتصامه بحبل قرّيش واحتمائه بكنفها . وقد وُقِّقَ في إيهامنا بذلك أو بشيء منه ، لكنّه لم يوفّق في جلاء معنى الحماية ذاته والإحاطة به ، عرفنا أنها حمته ومنعت أعداءه ومبغضيه من إهلاكه ، ولكن معاناته لذلك كلّهُ ظلّت غائبة ، متوارية . وقد كان تمثيله لهذا الأمر ، وإلمامه به ، قبلاً ، في امتداح يزيد أعمق تجربةً وأشدّ استحضاراً ، إذ جسّد به بما يماثله في النفس والحس كالحدبار والبشر والأفعى وما أشبه . فالقسم المتطاوّل ، المتعاطف ليس أداةً فنيّةً بذاته ، إذ أنه يُجهض الانفعال بتهاويل تحدّق به ولا تنالهُ ، إلاّ ان الأخطل ومن قبله النّابغة والأعشى يتوسّلون به في نوع من الأجواء التّقويّة الاسطوريّة ، فهو أشبه بطقس من طقوس القصيدة المدحيّة ، قد تتضاءل قيمته بمعانيه ، فيما تتعاطف قيمته الأسطوريّة الإيحائيّة . وقد كان استحضاره لهذا الجو كافياً لثير في النفس أحلام الماضي وذكرياته وأشواقه في طقوس العبادة والحج حيث تهرع الأبل إلى مكّة من كل صوب ، فكان الصحراء كلها استحالت أرجاؤها الشّاسعة مكاناً للعبادة . فلهذا القسم روح الشعر بذاته ،

وبقطع آية علاقة بالمعنى الذي يؤكدده . هذا هو وجه الصواب في ذلك كله ، كما تراءى لي ، والله أعلم .

ويعرّج ، من ثمة ، على المديح المباشر فيقول :

لَقَدْ مَدَحْتُ قُرَيْشًا وَأَسْغَنْتُ بِهِمْ إِذْ مَا أَنَامُ إِذَا مَا صُحْبَتِي هَجَعُوا ١
وَإِذْ وَشَى بِي أَقْوَامٌ ، فَأَدْرَكَنِي رَهْطُ الَّذِي رَفَعَ الرَّحْمَنُ ، فَارْتَفَعُوا ٢

وقوله : « إذ لا أنام ، إذا ما صحبتي هجعوا » كناية عن خوفه وتلميح إلى ما كان من أمره مع الأنصار ، ولكنه يبدو متضائلاً بالنسبة إلى القسم السابق ، وكان أحزى أن يُغاليَ بتمثيل خوفه مغالاته بالقسم كي لا يتدنى مستوى المعاني وتختل النسبة فيها فضلاً عن الوحدة العضوية . ولكنه يُحسِنُ التخلُّص إلى المدح المباشر بقوله : « فأدركني رهط الذي رفع الرحمن ارتفعوا » حيث نوه بحق الأمويين الإلهي في الخلافة ، ساقطاً من أجواء الاسطورة الشعرية إلى المعاني التوفيقية ، الدعائية الفاشلة . فالأخطل لم يصدر عن اقتناع فيما ذهب إليه ، بل أنه حذق أسلوب التماثل ، فجعل يقول للممدوح ما يطيب له سماعه ويفتبه فتاوى توافق هواه . ومثل هذا القول يُجانب السوية الشعرية ويجافها لأن القوة النفسية الأغلب فيه والأطنى عليه هي قوة العقل الواعي الذكي المتبارع بالتكليف وفقاً لمقتضى الواقع . هنا تعفّت المعاناة وتعاضمت المداجاة بالرغم من أن حكماً أو تقسيماً كهذا يعارض رأي الجاحظ ومن إليه في الزعم

١ - هجعوا : ناموا .

م : يقول بعد أن أقسم ذلك القسم الشديد ، إنه امتدح قريشاً مستعيناً بها على أعدائه الذين يمنعون عليه النوم من شدة تربصهم للغدر به . فهو لا يبرح يحاذر فيما نام صحبه عنه . وهو يشير بالصحبة هنا إلى القرشيين وكأته يعاتبهم معاتبه خفيرة .

٢ - م : يرفع عنه التهم التي ساقها عليه الواشون إلى القرشيين الذين رفعهم الله وخصهم بالعز . فهو يعظمهم فيما يتبرأ إليهم مما سعي به فيهم .

بأنّ البلاغة هي في موافقة مقتضى الحال ، بل ان البلاغة هي الرؤيا التي تَبْلُغُ إلى أقصى الأبعاد في النَّقْسِ والوَجُودِ . ولا غُلُوٌّ في القَوْلِ بأنَّ شاعر المدح قد يُبَدِعُ فيما يتولّى المعاني العامّة التي يُمَجِّدُ بها الانسان المتَّقَوِّقَ ، ولكنه يُسِفُّ ويكسِبُو فيها يتقيّد بواقع حال المدوح ويتكيّف لتأييده والدّعوة له . فهو إذ يقول :

في جَنَّةٍ هي أَرْوَاحُ الإِلهِ ، فَمَا يُفْرَعُ الطَّيْرُ ، في أَغْصَانِهَا فَرَعٌ ١
كانوا إذا الرِّيحَ لَفَّتْ عَشْبِ ذِي إِضْمٍ غَيْثَ المَرَضِيعِ ، مَا مَنُّوا وَمَا مَنَعُوا ٢
والمُطْعِمِينَ على ما كَانَ من إِزْمٍ إذا أَرَاهِطُ مَلُّوا ذَاكَ أَوْ خَضَعُوا ٣

فالمدح ، هنا ، يتّجه إلى المنحى العام في رخاء المقام والكرم وإبواء الضيف والمثبوهف ، يؤدي ذلك في كنياته الحسية الماثورة كالريح ، وهي كناية عن الشدة والضيق والعجز عن إنتاج الرزق ، وفي عزل الحادثة الدالة على التفرّد ، ممّا قدّمنا ذكره مرارا .

أما بشر فيخصه بالأبيات التالية :

١ - م : يصف طيب مقامهم والطمأنينة التي يتعمون ، ويتنعم بها من ينتجعهم . ويقول إن الطير تغرد في أرجائها آمنة ، وقد توسل الطير لذلك لأنها شديدة الحذر ، سريعة الهرب ، تفرّج عن مقامها لأيّ طارئ أو لسمع أيّ جرس .

٢ - ذي إضم : جبل بين اليمامة وضرية .

م : يمتدحهم بالبذلّ والعطاء ، ويقول إنهم كانوا إذا ما أبيت الرّيح الغيث وعمّ القحط ، يؤدّون للمرُضعات ويغدقون عليهنّ ، دون تباهل أو تمّنين .

٣ - الإزْم : جمع أزمة : السنة المُجْدِبَة . أراهيط : جمع رهط : جماعة .

م : يقول إنهم يطعمون في زمن الضيق والجذب ، فيما يتكص عن ذلك أقوام كثيرون أو يؤدونه بالقسر والخضوع ، دون رغبة أو محبة . وقد توسل بلفظة (أراهيط) وهي من جموع الكثرة ، ليوحي بذلك أن معظم الناس يمتنعون عن العطاء ، فيما هم يقبلون عليه .

يا بشرُ لوَ لَمْ أَكُنْ مِنْكُمْ بِمَنْزِلَةٍ ألقى يديه عليَّ الأزلُمُ الجَدْعُ ١
 أَنْتُمْ خِيَارُ قُرَيْشٍ عِنْدَ نِسْبَتِهِمْ وَأَهْلُ بَطْحَانِهَا الْأَثْرُونَ وَالْفَرَعُ ٢
 أَعْطَاكُمْ اللَّهُ مَا أَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ إِذَا الْمُلُوكُ ، عَلَى أَمْثَالِهِ ، اقْتَرَعُوا ٣
 لَيْسُوا إِذَا طَرُودَا يَنْمِي طَرِيدُهُمْ وَلَا تَنَالُ أَكْفُ النَّاسِ مَا مَنَعُوا ٤
 أَلْيَوْمَ أَجْهَدُ نَفْسِي مَا وَسِعَتْ لَكُمْ وَهَلْ تُكَلِّفُ نَفْسٌ فَوْقَ مَا تَسَعُ ٥

ولقد عظّمه باجارته له وبأصله وإيثار الله له على سائر الملوك وهيبته ومناعته ، وهي معان أدنى إلى ما كان يمتدح به يزيد وسواه إلى الحشود الملحميّة والمنازعات والمرافعات التي صحّبت قصائده في أخيه عبد الملك. هذا ضربٌ من المدح العام الذي يختصُّ أقلّه ببشر فيما يصحُّ معظمه فيه أو في سواه .

وعرّج الأخطل على مدح بشر في قصيدة لامية نظمها في معاتبة بني شيبان وتقرّيع بني سدوس والتفاخر بالأرقام من التغلبيين ، دون أن يغفل عن امتداح بني مية .

- ١ - الأزلُمُ الجَدْعُ : أي الدهر .
 م : يقول مخاطباً الممدوح : إني لولا اعتصامي بكم ومترلي فيكم ، لكانت أختت عليّ مصائب الدهر وأهلكني .
 ٢ - الفَرَعُ : الشريف .
 م : يقول إنك أفضل القرشيين ومن أباطحهم الأكثر ثراء وشرفاً .
 ٣ - م : يقول إن الله آثره وخصّه بخير ما يطلبه الملوك ويتنازعون عليه .
 ٤ - م : من يطردونه لا يؤوبه أي من الناس ولا ينسونه إليهم أو يوالونه تروغاً منهم ، وتهبياً لهم ، كما أتهم ، إذا ما عصموا امرءاً ومنعوه ، فلا قبيل لأحد بإدراكه وإيدائه . وهو إنما يعظّم بذلك قوتهم وقدرتهم على البطش .
 ٥ - فَوْقَ مَا تَسَعُ : أي فوق ما يستطيع .
 م : يقول إنه يبذل في سبيلهم غاية ما قدره الله عليه ولا يُرجى من المرء أن يؤدّي ما يفوق طاقته .

يستهلّ بذكر ارتحال حبيته أم عمرو ، ثم يخاطب بني شيبان لتخاذلهم عنه عندما أحدق بهم الأعداء ، ويشير إلى مقتل اثنين من بني شيبان هما مالك بن مسمع الشيباني ويزيد بن رويم الشيباني الذي قتله الخوارج ، فيما كان والياً لعبد الملك على الريّ . ثم يذكر ما كان من أمره مع بني سدوس ، إذ نزل الكوفة على أحد بني شيبان ، فسأله في حمالة ، فقال : إن شئت أعطيتك ألفين ، وإن شئت أعطيتك درهمين ، فقال الأخطل : وما بال ألفين ، وما بال الدرهمين ، قال الشيباني : إن أعطيتك ألفين ، لم يُعطكها إلا القليل ، وإن أعطيتك درهمين ، لم يبقَ في الكوفة بكريّ إلا أعطاك مثلها . فقال الأخطل : أوثر هذه . فكتب الشيباني إلى سويد بن منجوف السدوسي الذي ذكّر لبني قومه أبياتاً قالها الأخطل في مفاخرتهم وهجائهم ، فامتنعوا عن العطاء . وبعد أن ينوّه الأخطل بذلك في هذه القصيدة يعتصم بالأرقام ويتفاخر بهم ، هاجياً الأسعديّ الشيباني الذي غرّر به ولم يقاضه شيئاً ، ثم يمتدح بني أميّة ويظهر ما لهم عليه من أباد ويخصّ بشر بن مروان الذي لا يزال يُغدق عليه النعم ثم يعكف على تصوير شجاعته من خلال فتكه بكتيبة للأعداء تعرّضت له .

وينهي القصيدة متفاخراً باقتحامه للمواقف المُنْكَة التي ترتعد لها الفرائص .

وقد امتدح بشرأ فيها بقوّه :

وإنّ بنّي أميّة ألبسوني ظلال كرامةٍ ما إنّ تَزُول
تولّاهَا أبو مروانَ بشرُ لفضل ما يَمَنُّ ولا يحُول

وللأخطل قصيدة في بشر عارض فيها قصيدة زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان التي مطلعها :

صَحَا القَلْبُ عن سَلَمَى وأَقصر باطلُهُ وَعُريّ أفراس الصبا وَرَواحِلُهُ

ولقد استهلّها بالتشبيب بصاحبته أروى التي يتنازع في حبّها بين الصّدّ والإقبال

ويذكر المواضع التي نَزَحَتْ عنها ، حيث بَدَتِ الحمائل موحشة من دونها ، ثم يتحدث عن صاحبة الأخرى أم مَعْمَر التي عاهدته على الوفاء ويتشكَّى من النساء اللواتي يَمْلِنُ عن أَلْفِهِنَّ ، فيما يعاجله الشَّيب ويمثل النَّأي الذي يفصله عَمَّنْ يُحِبُّ من خلال المكان الذي ما برح يقيم فيه والمقام النَّأي الذي حلت فيه صاحبه ، وهو لا يزال يؤمل لقاءها ، يوماً .

ومن ثمَّ يَنْقَطِعُ إلى الفخر من خلال اجتيازه للفَلَوَاتِ على بعير شبيه بالحمار الوحشي الذي يستطرد إلى وصف هزاله ورعيه للنبات ووروده الماء بعد أن حل الجفاف بمرعاه وسوقه لأتته وزجره لها أمامه في الأمكنة الوعرة بعدو تتطاير منه حجارة المَدْرُو . ويقول إنَّه شديد الغيرة على أُنْتَه ، لا يزال يقذفها عن سائر الفحول ويصوتُ بها وبعضها ، ثمَّ يمثِّلُ أُنْتَه التي تحيط به ، مُسْتَكِينَةً إليه حتى أطل بها ، بعد ثلاث ليالٍ من العدو ، على ماء غزير وواد أخضر ، مروِّي ، كثير الكلاء ، حيث شرب ورتع وأُنْتَه وعاد يعدو عدوه السريع في الوعر الغليظ الحجارة ، غير حافل بما يعارض سبيله .

وإثر هذه الاستطرادات ينقطع إلى مدح بشر بن مروان الذي انتهى إليه بعد أن عانى مشقة السفر ليلاً ، لينال عطاياها الكثيرة التي لا تنقطع عنه . ويمتدحه بشدته في قتال الخوارج والأعاجم واقتياده للخَيْلِ للحرب بنفسه ، وأنَّه لا يزال يصلي أعداءه بنار غضبه . ويذكر ، كذلك ، كرمه الشَّيْبِ بالفرات إذ يفيض ، ويمتدحه بعزته القرشية ويكلُّ أمره إليه وينهي القصيدة بالقول إنَّه بالرغم من تألَّق التاج على راسه لا تراهُ متعبساً ، متعاضماً ، كما أن الدنيا لا تغرر به ولا تحلبه لذائذها ، ويظهر إيثاره للأموين على الزبيريين وانقطاعه إلى مدحهم ومناصرتهم .

يقول في المطلع ثمَّ يُعَرِّجُ على البعير ويُسبِّههُ بالشَّور الوحشي :

صحا القَلْبُ عن أروى وأقصر باطله وعادَ لَهُ مِنْ حُبِّ أَرَوَى أَخَابِلُهُ... ١

١ - أروى : اسم امرأة . أخابيلُهُ : جمع خبل . وهنا الذُّهول وافتقاد الرُّشد .
م : يقول في الشطر الأول إنَّه انقطع عن حبِّ صاحبه أروى وإنَّه امتنع عن اقتفاء الباطل . وفي الشطر الثاني يناقض المعنى السابق ويقول إنَّه عاوده الخبل من حُبِّها .

وَمُخْتَفِرٍ جَوَزَ الْغَلَاةِ ، إِذَا انْتَحَى وَشُدَّ بِمَقْتُورٍ مِنَ الْمَيْسِ كَاهِلُهُ ١
كَأَنِّي أَغُولُ الْأَرْضَ عَنِّي بِقَارِحٍ أَخِي قَفْرَةٍ ، قَدْ طَارَ عَنْهُ نَسَائِلُهُ ٢
ويتخلص إلى المدح بقوله :

وَمُسْتَقْبِلٍ لَفَحَ الْحُرُورِ بِحَاجَةٍ إِلَيْكُمْ أَبَا مَرْوَانَ شُدَّتْ رَوَاحِلُهُ ٣
إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَغْوَارِ ، حَتَّى يَزُرُّنَكُمْ بِمِدْحَةٍ مَحْمُودٍ نَشَأَ وَنَائِلُهُ ٤
جَزَاءً وَشُكْرًا لَامِرِيءَ ، لَا تُغْبِسْنِي ، إِذَا جِئْتُهُ ، نَعْمَاؤُهُ وَفَوَاضِلُهُ ٥

١- جَوَزَ الْغَلَاةِ : وسطها . انْتَحَى : اعْتَمَدَ : المَقْتُورُ : الرَّحْلُ الْمُحْكَمُ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ .
الكَاهِلُ : أَصْلُ الْعُنُقِ ، عِنْدَ مَقْدَمِ السَّنَامِ . الْمَيْسُ : شَجَرٌ يُؤْخَذُ مِنْهُ خَشَبُ الرَّحَالِ .
م : يَصِفُ بَعِيرًا امْتِطَاهُ لِلرَّحِيلِ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ لَا يَجْفَلُ بِمَا يَجْتَازُهُ مِنْ فَلَواتِ ، فِيمَا يَعْدُو ، وَقَدْ
أَحْكَمَ عَلَيْهِ خَشَبَ الرَّحْلِ .

٢- أَغُولُ : أَقْطَعُ بِسُرْعَةٍ . الْقَارِحُ : الْحِمَارُ الْوَحْشِيُّ . نَسَائِلُ : جَمْعُ نَسِيلَةٍ وَهِيَ الْوَابِرُ .
م : يَشْبَهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَطِيئَتَهُ بِالْحِمَارِ الْوَحْشِيِّ ، مُسْتَطَرِّدًا إِلَى وَصْفِهِ وَيَقُولُ إِنَّهُ أَلْفُ الْقَفْرِ
وَإِنْ وَبَّرَهُ قَدْ تَسَاقَطَ عَنْهُ .

٣- الْحُرُورُ : الْحَرُّ الشَّدِيدُ . رَوَاحِلُهُ : مَطَايَاهُ .
م : يَنْقَطِعُ الشَّاعِرُ فِي هَذَا الْبَيْتِ إِلَى مَدْحِ بَشْرِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ لَأَثَرٌ مَا عَانَاهُ مِنْ مَشَقَّةِ
السَّفَرِ ، انْتَهَى إِلَى الْمَمْدُوحِ ، وَإِنَّهُ مُزْمَعٌ أَنْ يَفْضِي إِلَيْهِ بِحَاجَتِهِ . وَالشَّاعِرُ لَمْ يَلْمَ بِوَصْفِ
الْحِمَارِ الْوَحْشِيِّ فِي حَيَاتِهِ الْقَاسِيَةِ وَعَدُوهُ الْخَائِفِ ثَلَاثَ طِيلَةَ لَيَالٍ وَمَعَانَاةَهُ لِلظَّلْمِ وَالْمَاجِرَةِ ،
إِلَّا لِيُمَثِّلَ مِنْ خِلَالِهِ وَاقِعَهُ الْخَاصَّ ، رَامِزًا بِهِ إِلَى نَفْسِهِ وَإِلَى الْمَشَقَّاتِ الَّتِي اقْتَنَحَهَا
مِنْ دُونَ الْمَمْدُوحِ .

٤- يَزُرُّنَكُمْ : أَيِ الْمَطَايَا . الْأَغْوَارُ : جَمْعُ غُورٍ . نَشَأَ : خَيْرُهُ .
م : يَقُولُ إِنَّ تِلْكَ الْمَطَايَا سَعَتَتْ ذَلِكَ السَّعْيَ ، وَعَانَتْ تِلْكَ الْمَشَقَّةَ ، حَتَّى تَنْقَلُ لِلشَّاعِرِ إِلَى
الْمَمْدُوحِ ، وَلِيُثْنِيَ عَلَيْهِ لِحَيْرَةِ الْعَمِيمِ وَعَطَائِهِ الْكَثِيرِ الْمَحْمُودِ .

٥- أَعْبَبَ : جَاءَ فِي يَوْمٍ وَفَاتَ فِي آخَرٍ .
م : يَقُولُ إِنَّهُ لَا يَبْرَحُ يُوَاصِلُ لَهُ الْعَطَاءَ ، وَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يُغْدِقُ عَلَيْهِ مِنْهُ ، أَنْتَى لِقِيهِ وَانْتَجَمَهُ
وَاعْتَمَاهُ .

أخو الحرب ما ينفك يُدعى لعُصبة^١ حَروريةٍ أَوْ أعجميٍّ يُقاتلُهُ^١
مُعانٍ بِكفَّيهِ الأَعنةُ أشعلتْ لكلِّ عِدَى نيرانُهُ وقنابِلُهُ^٢
أبَحَتْ حُصُونَ الأعجمينَ فأمسكتْ بأبوابها مِنْ مَنْزِلٍ فَاتَ نازِلُهُ^٣
ضروبٌ عراقيبَ المطيِّ ، كأنَّما يُباري جُمادى إذ شتا أَوْ يخالِهُ^٤
إذا غابَ عَنَّا ، غابَ عَنَّا فُراتنا وإن شَهدَ ، أجدى فيضُهُ وجداولُهُ^٥
فإنَّكَ حصنٌ مِنْ قريشٍ ، وإتني بِأسبابِ جَبَلٍ مِنْكُمْ ، ما أزالِهُ^٦

١ - الحرورية: فرقة من الخوارج نزلت في حروراء.

م : أي أنه لا يزال يتصدى لقتال الخوارج والأعجم والفتك بهم . وهذا القول ينطوي على معنى آخر يمتدح فيه بشراً بإقامته على الجهاد والكفاح في سبيل الدين .

٢ - م : يقول إنه يقود الخيل في الحرب بنفسه وإنه لا يزال يُصلي أعداءه بنار غضبه ويصيبهم بقتاله ويفتك بهم .

٣ - م : يقول إنه يقاتل الأعداء بهيبته ، فيُهزَمون ويَسْتسلمون له قبل أن يقتحم عليهم فتُفتح له أبوابهم ، وتباح فيما هو مُقيم بيته .

٤ - يُخالِهُ : يُباريه : جُمادى : من شهور الشتاء التي يجمد فيها الماء من شدة الصقيع .

م : يقول أنه إذ يشتدُّ الصقيع ويعمُّ الجذب والجوع ، لا يبرح يينذل للناس ويُغدق عليهم ، فكأنه يُنافس جُمادى ويعارضه . يزداد كرمه بقدر ما يزداد صقيع جُمادى وجدُّه .

٥ - أجدى : أغنى . شَهدَ : سكنت عين الفعل للضرورة الشعرية .

م : يمثل عطاءه بالفرات ويُقرنه به ، فإن غاب عمَّ القحطُ والجفافُ ، وإن حضر يفيض عطاؤه على الناس ويعمُّ خيرُهُ .

٦ - ما أزالُهُ : ما أفارقه .

م : يمتدحه بعزته القُرشية ، ويقول إنه لا يزال يعتمم بحبله ولا يتخلى عنه .

فالأخطل يستعطي بشراً ، دون أن يُصرِّح بالسؤال ، بل إنَّه يُضمَّر ذلك في البدء من خلال وصفه العام لكرمه والقول إن القوم يفدون من الأفاصي النَّائية لينتجعوا مقامه ويتألَّوا عطاءه ، ثمَّ تراه يُقدِّم شكره له على عطائه الدَّائم ، قبل أن يعطيه ، وهو نوع من الطَّلب المنطوي على قليل أو كثير من الدَّهَاء . ويُمكننا القول إنَّ الأخطل إذ يمتدح بشراً لا يُشغَلُ بالهُموم والمنازعات العامَّة ، ولا تراه مُنقِضاً على الأعداء بمثل السيِّف ، إذ ينصرف ، كما في مدائحه الأولى ، إلى العناية بالمُقَدِّمات والاستطرادات ، ويُعرِّج عليه فيمتدحه بما يختصُّ به كقتاله للخوارج والأعاجم ، أو بمعاني المدح العامَّة ، كالكرم وإيواء الضَّيف . وإنَّ المرءَ ليأنفُ للأخطل أن يُقيمَ على الاستجداء بالشَّعر ، باذلاً عنجُهيَّته القبليَّة ، ومحقرّاً من قدر الشَّعر ورسالته . وإذا كان يُعذر في مطلع عهده بذلك ، فلا عُذر له يؤدِّيه ، بعد أن طارت شهرته . فالشَّعر الأمويَّ كان لا يزال أداةً للإرتزاق لا يُنجل الشَّاعر في التصريح بذلك أو التأميح إليه .

أمَّا في امتداح بشر بالبطولة ، فإنَّه يصفُر له ما يماثل الأجواء التي حاكها لعبد الملك ، دون أن تسطَّع صورته الملحميَّة سطوعها في مدائح ذلك الأخير . فهو يدعوه : « أخو الحرب » أي أنه أليف القتال ودأب عليه ، لا يقعد للهو والحمول ، بل يُجاهد، في سبيل الدِّين، المارقين عليه أي الخوارج ، ومن يناوئونه أي الأعاجم . وترى المعنى ينمو نمواً في وصفه لبطولته ، فبعد نعته بأنَّه أخو الحرب دَفَع المعنى وصعَّده إذ قال : « معانٍ بكفَّيه الاعنة » أي أنه لا يقنع بالقيادة إلى القتال ، بل إنه يباشره بذاته ، يواجه فيه الموت الذي يُواجه الآخرون . فهو أخو الحرب في ساحها ، يخوض فيها بين الأشلاء والدِّماء . والأخطل لا يجهر بكلِّ ما يُضمَّر ، بل إنَّه يُوحى به ويُوَعزُّ إليه إذ يدع الأعداء يستسلمون ، أثر نزول المدوح عليهم لشهرته في البطولة والانتصار الدَّائم ، حتى أن هيبته جعلتُ تقاتلُ عنه . وهذا الاسلوب النَّامي المتطوِّر ، والمتسامي ، بعضاً على بعض ، أثر عن زهير ، وعن رواد المدح الجاهليين ، حتى ان كُثيِّراً كان يقول أشعر العرب امرؤ القيس إذا ركب ، والنَّابغة ، إذا رهب ، وزهير إذا

رغب والأعشى إذا طرب ، والأخطل يُعَارِضُ زُهَيْراً مُعَارِضَةً وَاِعِيَةً مِنْذ
مطلع القصيدة ، كما قدّمنا .

وفيما دون ذلك ، نرى الشّاعر يَتَسَقَطُ الأفكار المدحبيّة تَسَقُطاً ، يعرّج
على كرمه ، ثم يدعه إلى بطولته ، ويرتدُّ إليه من جديد بصورة أخرى وأحداث
منايرة إذ يُمثّله لنا ضارباً في أعناق المطايا ، باذلاً إياها للضيّفان والمُعْتَفِينَ .
لكنه لا يَقْنَعُ من المعنى بجدّه الواقعي ، فيُخْرِجُه تخريجاً خاصاً يَدْفَعُه إلى ذروته
وأقصى غايته . فبشر يُنَازِع الطّبيعة ويعارضها ويتنافس وإياها تنافساً مُضْناً ،
هي تجود بالجدب والصّقيع والجوع ، وهو يَضْرِبُ أعناق المطيِّ لِيَدْفَعَ الشَّرَّ
وَيَرْفَعَ الضَّمِيم . فلفظة « يُبَارِي » فَتَحَتْ في المعنى أبعاداً جديدة بالتأويل
والتعليل . إلاّ أن هذه المباراة تنطوي على قليل أو كثير من القصدية والتعمّل .
وكما عارض بينَ المدوح وأحد عناصر الطّبيعة إفادةً لمعنى العظمة ، فانه
يؤلّف بينهما للغاية ذاتها إذ يقرن المدوح بالفرات :

إِذَا غَابَ عَنَّا ، غَابَ عَنَّا فُرَاتُنَا وَإِنْ شَهِدَ أَجْدَى فَيْضُهُ وَجَدَاوِلُهُ

هكذا يتوسّل الأخطل عتاصر الطّبيعة ، اختلافاً وإتلافاً ، ليُجسّد معانيه
ويُبدِع لها التّأويل التي تُوهِمُ بالجدّة والإبتكار . ويمضي في تَسَقُطِ
الأفكار والخواطر بقوله :

جَزَى اللَّهُ بِشَرًّا عَن قَدُوفٍ بِنَفْسِهِ عَلَى الْهَوْلِ ، مَا تَنَفَّكَ تُرْمِي مَقَاتِلُهُ ١
جَزَاءَ أَمْرِيءَ أَفْضَى إِلَى اللَّهِ قَلْبُهُ بِتَوْبَتِهِ فَانْحَلَّ عَنْهُ أَنَا قَلْبُهُ ٢

١ - م : يطلب إلى الله أن يُثبب بشراً عمّا لا يبرح يقذف بنفسه إليه من أهوال ومخاطر يكاد
أن يترد فيها مورد الهلاك .

٢ - م : يستكمل المعنى السابق ، ويقول إنّه يطلب له من الله جزاء أمرىء تاب إليه توبةً نصوحاً
ووكّل أمره إلى تدبيره ، مستحقاً بذلك من أعبائه .

فما كانَ فيهِمْ مِثْلُهُ لكَرِيهِةٍ ولا مُسْتَقِيلٌ بالذي هوَ حَامِلُهُ ١
 إذا وَزِنَ الأَقْوَامُ ، لَمْ يُلَفَ فيهِمْ كِشِيرٌ ، ولا مِيزَانُ بِشَرٍ يُعَادِلُهُ ٢
 أَعْرُ عَلَيْهِ التَّاجُ ، لا مُتَعَبِّسٌ ولا وَرَقُ الدُّنْيَا عَنِ الحَقِّ شَاغِلُهُ ٣
 إذا انْفَرَجَ الأبوابُ عَنْهُ رَأَيْتَهُ كَصَدْرِ الِيمَانِي أَخْلَصَتْهُ صِبَاقِلُهُ ٤
 فَإِنَّ بِكَ هَذَا الدَّهْرُ أَوْدَى نَعِيمُهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَضُّهُ وَزَلَازِلُهُ ٥
 فما أَنَا مِنْ حَبِّ الحِياةِ بِهَارِبٍ مِنَ المَوْتِ ، إن جاشتَ عَلَيَّ مَسَائِلُهُ ٦

ففي الأبيات الأولى يُعيد معنى الجهاد ويكرره ، متوسلاً النَّعْتِ المنطوي بذاته على معنى الغلُوِّ : « قذوف » وصيغ الجمع التي تُوحى بالكثرة : « مَقَاتِلُهُ »

١ - مُسْتَقِيلٌ : هنا يراه قليلاً .

م : يقول إنَّه مهما تعاطمت عليه أعباؤه ، ومهما ارتاد بها من مشاقِّ ، فإنه يستقلُّ ذلك ولا يتضجَّر ولا ينتكص .

٢ - م : أي أنه أفضل الأَواقِم ، جميعاً ، وأنه ليس ثمة من يوازنه فيهم .

٣ - وَرَقُ الدُّنْيَا : أي خضرتها وثرأؤها .

م : يقول إنَّه بالرغم من تألَّق التاج على جبينه ، لا تراه مُتَعَبِّساً ، متعاضماً بنفسه ، كما أن الدنيا لا تُغرَّر به ولا تحلبه لذائذها ونعمها عن الحقِّ والفضيلة .

٤ - م : يقول : تنشقُّ عنه الأبواب ، فيبدو متألِّقاً كالسيف اليماني الذي برع صاقله بصقله .

٥ - ٦ - عَضُّهُ : أذاه . جاشت : طافت .

م : يقول : ما دام الدهر قد مضى عهد نعيمه ، ولم يخلف لنا فيه إلاَّ أذاه ومصائبه ، فإني لا أفِرُّ من قدر الموت ، عندما تطيف مسابله ويحرق هلاكه .

والكثرة هنا تفيد البطولة والشجاعة ، إلا أن الأخطل لا يزال يُؤلّف المعاني ويُعارضُها ، جامعاً النقيض بنقيضه ، غاية الشجاعة والبطش في القتال وغاية التقوى : « جزى اللهُ بشراً جزاءَ امرئٍ أفضى إلى الله قلبه بتوبته ، فأخجلَّ عنه أثافلهُ » ، أي أن الممدوح وكل أمره لله وتاب إليه فزال عنه أوزاره . فهو مثال المؤمن في توبته وفي قتاله لأعداء الإسلام . وقد كان الأمويون ، عامة ، يحرصون على التنويه فيهم بالتقوى لمنازعة المسلمين إياهم بها . وإذ تعيى على الأخطل سبل النظم يعود إلى التعميم والإطلاق المباشرين ، فيزعم أنه لا مثيل له في شدة الاحتمال وليس ثمة من يُوازيه قط . وهذه المعاني التعميمية تنبو ، كما قدّمنا ، عن السوية الفنية والإنسانية ، جميعاً ، بخلاف قوله فيه :

أغر ، عليه التاج ، لا متعبس ولا ورئ الدنيا عن الحق شاغله

حيث أوفى إلى تمثيل غرور الدنيا تمثيلاً فنياً عميقاً ، مع تلمس عميق ، أيضاً ، للحقيقة الإنسانية . ولا بأس كذلك في وصفه لطلعته ومقارنتها بتألق السيف اليماني ، إذ أن فيها سورة للشموخ دون عتو .

وينهي القصص مُعبّراً عن اعتصامه وصموده وإثاره للممدوح وقومه ووفائه لهم من دون سواهم :

فلا تجعلني يا بن مروان كأمرئ غلت في هوى آل الزبيرِ مراجله^١
يُبايعُ بالكف التي قد عرفتها وفي قلبه ناموسه وغوائله^٢

١ - ٢ - م : يشير هنا إلى أنه يؤثر الأمويين على الزبيريين ويطلب من بشر ألا يسوي بينه في إثاره لهم وبين أمرئ يدعو دعوة الزبيريين وتقلي مراجل حماسته وغضبه تشياعاً لهم ، يظهر لكم الود ويبايعكم علناً ، فيما هو يضر الغدر والبغضاء .

وللأخطل في بشر قصيدة "ميمية" ، بدأها كسائر مدائمه بذكر ديار صاحبه سلمى التي أقفرت إثر رحيلها وغشيتها الأبقار الوحشية والنبات الوحشي الشديد الالتفاف . ويذكر تساقط المطر وطفوه والرعد الذي يصحبه والريح التي تعصف بسحابه ويتمنى أن يصيب بلاد حبيته .

ثمّ يشرع بمخاطبة بشر ، ذاكرًا المطايا وضمورها وهلاكها في سفرها إليه وانتجاعها دياره ويمتدحه بكرمه وإيوائه لذوي الإملاق ويوح بجه وإيثاره له وطمأننته في كنفه ويصف شجاعته من خلال سوقه للخيل في القتال ، ويشيد بتفضيل الله لقومه وإرسالهم للبشرية كرحمة لها ، وليخمدوا فتنها ويعيدوا إليها طمأننتها ويخاطب بشرًا ويدعوه إلى حمايته من أعدائه ثمّ يهجو جريراً ويمتدح الفرزدق وقومه ويهزأ من أهاجي خصمه ويحقر من شأن أمه ويصور سوقها للبعير كالإمام صورة مزرية . وينهي القصيدة بالقول إن بني كليب هم الأم الناس وإن جريراً هو الأهم .

وتكادُ معانيها المدحية لا تتباين عمّا دونها من قصائد ، يطفى عليها معنى الكرم والعطاء ، ويليه معنى الشجاعة والبطولة وسائر المعاني كسودد الأصل والأحقية بولاية السلطة ، ممّا يؤكد على أنّ الباعث الأقوى للمدائح الأخطل في بشر كان مادياً بقدر ما هو سياسي . يقول فيها :

فَأَنْتَ الَّذِي تَرْجُو الصَّعَالِيكَ سَيْبَهُ إِذَا السَّنَةُ الشَّهْبَاءُ خَوَتْ نَجُومَهَا
وَنَفْسِي تُمَنِّي نِي الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ وَيَبْشُرُ هَوَاهَا مِنْهُمْ وَحَمِيمُهَا ١

١ - الحميم : الصديق الملازم .

م : يقول إن نفسه كانت تكفُّ عن حثه لزيارة العراق ، حيث يلقي بشرًا الذي تكن له الود والصدقة العميقة الملازمة .

إِذَا بَلَغَتْ بِشْرَ بْنَ مَرْوَانَ نَاقِيَتِي سَرَتْ خَوْفَهَا نَفْسِي وَنَامَتْ هُمُومُهَا ١
 إِمَامٌ يَقُودُ الْخَيْلَ ، حَتَّى كَانَتْهَا صُدُورُ الْقَنَا : مُعْجَبًا وَقَوْمِهَا ٢
 إِلَى الْحَرْبِ حَتَّى تَخْضَعَ الْحَرْبُ ، بَعْدَمَا تَخَمَّطُ مَرَحًاهَا وَتَخْمِي قُرُومَهَا ٣
 أَبُوكَ أَبُو الْعَاصِي ، عَلَيْكُمْ تَعَطَّفَتْ قُرَيْشٌ لَكُمْ : عَرْنِينُهَا وَصَمِيمُهَا ٤
 أَبِي أَنْ يَكُونَ التَّاجُ ، إِلَّا عَلَيْكُمْ لَصِيدِ أَبِي الْعَاصِي ، الشَّدِيدِ شَكِيمُهَا ٥

١ - سرت خوفها : أي انتزعته ، ومثال ذلك قولك سرت الثوب أي انتزعته .
 م : يقول إنه إذ يدرك بشراً ، فإن نفسه تخلع عنها همومها ومخاوفها وتشعر بالثقة والطمأنينة في كتنفه .

٢ - م : يمتدحه بالشجاعة في القتال من خلال وصفه لخيله ، ويقول إنه لا يزال يقودها ويقتحم بها القتال ، لا تخشى من دونها الرماح ، فكأنها صدور لها ، تلتقيها ، أكانت مقومة أو معوجة .

٣ - تخمط : هيج وأثار وأصلها في الفحل الذي يهدر . مَرَحًاها : من المرح والنشاط .
 القرم : الفحل وهنا القوي الشديد .

م : يقول إنه يقود خيله إلى الحرب فيظفء سعيرها ويخمدتها بعد أن تستثار حمياً المقاتلين وتشتد مقاومة القروم الشديدي البأس .

٤ - عرنينها : هنا سيدها الشريف . الصميم : الخالص ، والأكثر أصالة في الشيء .
 م : يمتدحه بسؤدد أبيه ، ويقول إن شرفاء بني قريش ، والأكثر أصالة وشرفاً ، قد تألبوا حول بشر وأبيه .

٥ - الصيد : من الصيد وأصله في البعير الذي يرفع عنقه ويعجز عن الالتفات . الشكيم . جمع شكيمة : الأنفة .

م : يقول إن الملك - وقد كنى عنه بالتاج - أبي إلا أن يكون للأسياد الأشراف الشديدي الأنفة الذين ينتمون إلى أبي العاصي .

- بِكُمْ أَذْرَكَ اللَّهُ الْبَرِيَّةَ ، بَعْدَمَا سَعَى لَصُهَا فِيهَا وَهَبَّ غَشْوُهَا ١
 وَإِنَّكَ لِلْمَأْمُولُ وَالْمُتَّقَى بِهِ إِذَا خِيفَ مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ عَظِيمُهَا ٢
 وَإِنَّكَ لِلْآخِرَى ، إِذَا هِيَ شُبِّهَتْ لِقَطَاعِ أَقْرَانِ الْأُمُورِ صَرَوُهَا ٣
 فَلَا تُطْعَمَنَّ لِحْمِي الْأَعَادِي ، إِنَّهُ سَرِيعٌ إِلَيْكُمْ مَكْرُهَا وَنَمِيمُهَا ٤

خلاصة حَوْل مدحه لبشر بن مروان : اتَّصَنَتْ مَدَائِحُهُ بِمَا يَلِي مِنْ خِصَائِصِ :
 ١ - تعاضم المقدمات الوصفية وتعدُّد موضوعاتها وانصرافه فيها إلى مباراة
 الأقدمين .

٢ - يتدرج مستوى المعاني في شعره ، وفقاً لطبيعة العلاقة التي أوثقت الصلَّة
 بينهما ، فهو يُسْرِفُ فِي التَّنْوِيهِ بِكْرَمِهِ وَيُكْرِّرُ تَمْثِيلَهُ بِصُورِهِ وَمَشَاهِدِهِ
 وَأَحْدَاثِهِ ، كَمَا أَنَّهُ يَسْتَجِدِيهِ بِالتَّصْرِيحِ الْمُبَاشِرِ ، أَوْ بِالتَّلْمِيحِ مِنْ خِلَالِ

١ - م : يقول إن الله أرسلهم رحمة إلى البشرية لينقذها من اللصوص والجهال الذين كانوا
 يستبدون بأمرها . والأحطل لا يزال يؤكد الصفة الدينية لحكم الأمويين وإدراكهم له
 بإرادة من الله .

٢ - م : يقول إن الناس لا يزالون يهرعون إليك ويحتمون بك ، عندما تطرأ الفتن ويعيث
 الأشرار فساداً .

٣ - شَبِّهَتْ : التَّبَسَّتْ . أَقْرَانِ : جَمْعُ قَرْنٍ : الْحَبْلُ . صَرُومٍ : مِنْ صَرَمٍ قَطَعَ .

م : إنه لا يمتاز وحسب بالقدرة على إخماد الفتن بل إن الناس يهرعون إليه ، عندما تلتبس
 أمورهم ويحارون بشأنها ، فيجلوها لهم بحكمته ويقطع فيها بالصواب والرشد .

٤ - م : يخاطبه ويقول : لا تدع الأعداء يقوون عليّ وينهشون لحمي ، ولا تستأمنهم ، لأنهم
 لا يعتصمون أن يمحروا بكم ويعصوا عليكم . وفي هذا البيت ينقطع عن المديح المباشر
 ويشعر بعرض واقع حاله مع أعدائه وأعداء الأمويين ، جميعاً .

وصف المطايا وهلاكها والهجرة وخوضه فيها بالسراب والضنى حتى
انتجاع المدوح والنزول على خيِّره وكرمه .

٣- يَرْدُ مَدْحَهُ لبطلته الحربيَّة في مقاتلة الخوارج والاعاجم بالدَّرَجَةِ
الثَّانِيَةِ من مستويات المَعَانِي ، يذكر ذلك ويشيد به ، لكنَّه لا يصفُ
معاركه ولا يوحى بأجوائها ولا يَحْشُد لها حشدها الملحميُّ . فوجه بشر
لا يربدُّ ولا تتعبسُ قسامته كوجه عبد الله الملك عندما يَعْشَى القناطر
بينها ويَهْدُمها ، بل إنه وجه متألِّق ، مُتَرْف ، نبيل .

٤- يتضاءل قَدْرُ الهوم السياسيَّة والمشاحنات القبليَّة ، فلا يَفْخَرُ بأيام
تغلب إلا لاماً ولا يُخاطب الأعداء ويُهَاجِمهم إلاَّ في نُبْدٍ قليلة ، فعلاقته
ببشر هي علاقة مدحيَّة أكثرُ منها سياسيَّة .

٥- يُظْهِرُ حقَّ بني قومه في السِّلْطَةِ ، لكنَّه لا يَنْصَرِفُ إلى ذلك انصرافاً
كُلِيّاً ، طاغيّاً ، كما أنه يُنَوِّه بتقواه من خلال الفضائل الخاصة والعامة التي
يُنْمِيها إليه . فمعظم مدائحه في عبد الملك هي مدائح له ، أما في بشر فان
بعضها له وبعضها الآخر له ولسواه إذْ تَكَرَّرَ فيها المَعَانِي المدحيَّة العامَّة .

الباب السادس

مدائحه في خالد بن أسيد

نظم فيه مطوَّلَتَهُ اللَّامِيَةَ الشَّهِيْرَةَ وبيتي شعر منفردين ولاميَّة أخرى يُرْجَعُ
إنها قيلت فيه . يذكر في بيتي الشعر إنه لم يَبْتَقِ بَيْنَ النَّاسِ من يَتَّقِي الله ويخافُه
ويُطْعَم الأضياف ويَبْدُل لهم إلا خالد بن أسيد الَّذِي ينتمي إلى قومٍ لا يفي المدح
بغرض القَوْل في كرمهم وحمابتهم لمواليهم :

لَمْ يَبْقَ مِمَّنْ يَتَّقِي اللَّهَ خَالِيًا وَيُطْعِمُ الْإِخْوَالَ بْنَ أَسِيدٍ
سِوَى مَعْشَرٍ لَا يَبْلُغُ الْمَدْحَ فَضْلَهُمْ مَنَاعِشَ لِلْمَوْلَى ، مَطَاعِمَ جُودٍ

ويبدو أنه نظم قصيدة أخرى في مدحه ، وإن لم يكن ، ثمّة ، إشارة واضحة
في الديوان إلى مثل ذلك الأمر. خصّ ، مطلعها بمخاطبة صاحبه وهو يدعوها
إلى تحية الديار التي يصفها في أبيات ، ذاكراً المطر والسحاب ، متخلصاً إلى
الممدوح ، فينوه بكرمه وسؤده وعراقة أصله وعظم مقامه في بني أمية . ويعرج
على التفاخر في بيتين ثم يهجو البكريين بقراهم الشتائم للضيف بدلاً من الطعام ،
ويشتمهم لأعراض من ينتجعونهم :

إِلَى الْمَلِكِ النَّفَّاحِ ، أَهْلِي فِدَاؤِهِ وَكُورِي وَأَعْلَاقِي الْعُلَى وَسِوَامِي ١
فَلَا تُخْلِفَنَّ الظَّنَّ ، إِنَّكَ وَالنَّدَى حَلِيفاً صَفَاءً فِي مَحَلِّ مَقَامِ ٢
نَمَاكِ هِشَامِ لِلْفَعَالِ وَنَوْفَلِ وَآلِ أَبِي الْعَاصِي لَخَيْرِ أَنْامِ ٣
فَأَنْتَ الْمُرْجِي مِنْ أُمِيَّةَ كُلِّهَا وَتُرْفَدَ حَمْداً مِنْ نَدَى وَتَمَامِ ٤

١ - الأغلاق : الأموال والأشياء النفيسة . السوام : المشية .

م : يقول إنه ارتحل إلى الملك المعطاء الذي يفتديه بما يملك من أهل ومال ونفائس وماشية
أي بكل ما يملك .

٢ - م : يستعطفه ويرجو عطاءه ويمتدحه بأنه حليف الندى لا يتفكّ يلازمه ويقوم عليه .

٣ - نوفل : هو من أجداد خالد بن أسيد من بني أبي العيص . يمتدحه بأصله الكريم وينميه
إلى أجداده الذين ورث عنهم المجد والسؤدد .

٤ - م : يقول إن الأمويين لا يزالون يرجون رجاءهم بك وإنك ما زلت تعطي الأعطيات
التي تنال بها الحمد .

إلا أن لاميته هي أفضل ما خصه به من مدائح وفيها ذكر الواقعة التي أوقع فيها الجحاف بن حكيم السلمي بالتغليبين في يوم البشر . وآية ذلك اليوم أن بني تغلب كانوا قد قتلوا عمير بن الحباب السلمي ، فاتممت أن قدم الأخطل على عبد الملك ابن مروان والجحاف جالس عنده . فأنشده القصيدة التي يقول فيها : « ألا سائل الجحاف . . . » فخرج الجحاف مغضباً ، يجر مطرفه . فقال عبد الملك للأخطل : ويحك ، أغضبتني ، وأخلق به أن يجر عليك وعلى بني قومك شراً . فكتب الجحاف عهداً لنفسه من عبد الملك ، ودعا قومه للخروج معه ، فلما حصل بالبشر أطلعهم على ما جرى له في مجلس الخليفة ، وقال لهم : قاتلوا عن أحسابكم ، أو موتوا . فأغاروا على بني تغلب بالبشر وقتلوا منهم مقتلة عظيمة . فقدم الأخطل على عبد الملك ، فلما مثل بين يديه أنشأ يقول : لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة . . . » إلى أن صار إلى قوله :

فَالْأُتُغَيْرِهَا قُرَيْشٌ بِمُلْكِهِمَا يَكُنُّ عَن قُرَيْشٍ مُسْتَمَازٌ وَمَرْحَلٌ

فقال عبد الملك : إلى أين يا ابن النصرانية ؟ فقال له : « إلى النار » ، فبسم عبد الملك وقال : أولى لك ، لو قلت غير ذلك لقتلتك .

والشاعر يختلف عبر هذه القصيدة ، كما في معظم قصائده الأخرى ، إلى موضوعات متعددة ، يفصح في بعضها عن أحداث ألت به ومعان موحية ماثورة ، كما يستطرد إلى موضوعات يقتفي فيها سنة شعر المديح والسياسة . فهو يستهل بذكر الأطلال والأحبة والظعائن ، ليستطرد منها إلى وصف الخمرة والسكران ومجلس الشراب والكرم الذي اعتصرت منه خمرة ، متخلصاً من ذلك إلى تشبّهه بالسكران الذي صرعه الخمرة إثر ما لقيه وما عاناه من رحيل الأحبة . ويقع هذا المقطع في نحو سبعة عشر بيتاً (٤ - ٢١) ألمّ فيه بمعظم المعاني والأوصاف والأحداث المتداولة في شعر الخمرة . فهو يصف السكران وصفاً واقعياً ، أحاط فيه بما يطالع الناظر إليه من مظاهر الخبيل والذهول والاضمحلال ، دون أن يتخلى عن نزعة الغلو التي أحال بها السكر إلى موت أنحلت به عظام السكران ومفاصله .

ويلمُّ كذلك بالقافلة والدنان التي يشبهها بالسودان العُراة لشدة سوادها .
 ويستطرد إلى وصف مجلس الشّراب والغناء والشّواء ، مشيراً إلى النّشوة التي
 تعرفهم الحمرة بها وإلى دبيب العظام ديبب النّمال على الرمل وإلى قتلهم لسورة
 الحمرة بالماء ، واصفاً شعاعها وتلاؤلها في كأسها ، معرجاً على ذكر الكرم الذي
 اعتصرت عصارته من عنبه .

والأخطل ينزع في ذلك كله منزعاً وظيفياً يقتصر فيه على حدود الحواس وبخاصة
 حاسّي البصر والذّوق وعلى سرد الأحداث بنوع من الانتخاب الذي يجسّد به
 شدة إيثاره للخمرة وتعظيمه لأمرها . فوصفه لها يجري على بُعد حسيّ واحد ،
 لا تعرفه منها حيرة ولا تدلّمُ عبره أحاسيسه وانفعالاته ، ولا يقف بها موقفاً
 خاصاً ظاهراً من معاني الحياة وقيمها ، كما نرى في قلذات من خمريات الأعشى
 قبله وأبي نؤاس بعده . فهو يصدر في إقباله عليها وإدمانه لها عن الغريزة واللذّة ،
 ونكاد لا نلمح في وصفه لها تعليلاً وجدانياً أو وجودياً أو أخلاقياً لموقفه إزاءها .
 وما نقع عليه من معانٍ في هذا المقطع ، لا يعدو ما أثير من قبيلُ في الشعر الجاهلي يصفه
 الشّاعر هنا وهناك بالنعم الشّجي والصورة الحسيّة النائية ، فيما يُكبّت فيه صوت
 الوجدان وتتعقّى تجارب الإنسان النّازع إلى الحمرة منزع حيرة وقنوط وقتل
 للوعي كما نرى في شعر طرفة .

أمّا الموضوع الثاني الذي يتداوله فيها فهو وصف الصّحراء والقلاة ، كمقدّمة
 يُفصح بها عن المشقّة التي عاناها قبل أن ينتجع دار الممدوح ويؤفي إليه . وهذا
 الموضوع جارٍ على سنّة المدح القديم ، كما عهد في شعر الأعشى والتّابغة ومن
 إليهما . وقد كان إلمامُ الأخطل به نوعاً من المبالاة الوصفية التي حاول أن
 يعارض بها معاني القُدّماء وأوصافهم . ولقد استقطب ذلك الوصف نحو ستة
 عشر بيتاً (٢٦ - ٤٢) تعرّض فيه للشّراب الذي يتخطف عبر الصّحراء والجنّ
 والهاجرة ، مشيراً إلى الهلاك الذي تعرّضت له مطاياها فيها ، ذاكراً إجهاضها
 لأولادها إرهاقاً وإعياءً والذّئب وافتراسه لها وذوبان أسنمتها وغوران عيونها وما
 إلى ذلك من معانٍ تجسّد ملحمة السّرى والسّفر في القلاة الموحشة .

ونقع في هذا المقطع على وحدة سردية وسياق نفسي واحد ، يمثل شدة
 الرّوع والضحى في ارتياد الفلاة ، وإن كانت الأحداث والخواطر تنتاب الشاعر
 انتياباً فيه ، فيتردد على المعنى الواحد في أبيات متعددة ومستويات نفسية متباينة ،
 قد يتضاءل اللائح منها عن سورة التمثيل والغلو التي أوفى إليها في معنى سابق .
 إلا أن الشاعر يرتاد الأحداث والأوصاف فيها بانفعال انتخابي سبقت به الأعراض
 وتعاضت الرموز التي تؤدي إلى غاية الشاعر من أوصافه . فهناك السراب المتلصق
 والهجرة والتعلب والذئب والحن وإجهاض الأبل وذوبان الأسنان وغوران
 العيون ، وهي تتصافر ، جميعاً ، لتوحي لنا بجو الإعياء الذي عايشه الشاعر في تلك
 الرحلة التي أوشك أن يعانق الموت فيها . وإذا كان بعض هذه الرموز المكتسبة من
 الواقع قد كثرت تداوله ، فقد وُفق الأخطل في أن يمدّ أبعادها ويدرك بها أقصى
 غايتها ويحشد لها من الألفاظ والصّور والأحداث ما يتفق مع ميل الشاعر إلى
 الوصف الذي يتكاثف تكاثفاً واقعياً بحيث يتولد من لمحاته مجتمعة مثال استنفد
 به مختلف أنواع التمثيل والإيحاء . ولعلّ فضيلة الأخطل في وصفه هي فضيلة
 الحشد النفسي والحسي واللفظي والايقاعي الذي يصور به ما يقع في نفسه من
 العالم الخارجي في أرقى أساليب التقرير الذي يعظم أحجام الأشياء تعظيماً ملحماً
 دون أن يبذل من طبيعتها أو أن ينفذ إلى ما وراء معانيها المتدواله الظاهرة .

ونقع في مقطع ثالث على المدح المباشر في نحو تسعة أبيات (٤٣ - ٥١) إلا
 أن الشاعر لا يعتّم أن يميل إلى وصف المطر (٥٢ - ٥٩) وصفاً يعارض فيه
 امرأ القيس ولا يقصّر عنه في تمثيل شدة انهمازه وتخطّف برقه وفيضانه على المدن
 والقرى وما إليها . ونقع في هذا الوصف على نوع من الرّوع الشبيه برّوع
 الجاهليين أمام عناصر الطبيعة ، يعمد فيه إلى الفنية الواقعية التي تستمد سبل إيحاءها
 من رموز الواقع الحسي المباشر .

أما المقطع الأخير من القصيدة (٦٠ - ٦٩) فيعرض فيه لموقعة يوم البئر ، ذاكر
 فتك الجحاف بالتغليب ، متظلماً من نخلي الأميين عن نجدة جيرانهم وحلفائهم ،
 متهدداً متوعداً متفاخراً .

وبعد فإن هذه القصيدة تُطالعنا بواقع الشعر عند الأخطل وسواه من الأمويين حيث يمتزج الواقع الذاتي أو الاجتماعي أو السياسي الحيّ مع الواقع التقليدي الميت الذي ما زال يُتلى في طقوس من النظم ، لا يجد فيها الشاعر سبيلاً للخلاق والأبداع ، إلاّ في حدود الصياغة اللفظية والصورة الحسية والأحداث الواقعية .

فهو يقول ، بعد أن يتخلّص من المقدمات الطويلة :

إلى خَلِيدٍ ، حتى أَنَحْنَا بِمَخْلِيدٍ فَنِعْمَ الْفَتَى يُرْجَى وَنِعْمَ الْمُؤْمَلُ ١
 أَخَالِدُ ، مَاوَاكُمُ ، لَمَنْ حَلَّ ، وَاسِعٌ وَكِفَاكَ غَيْثٌ لِلصَّعَالِكِ ، مُرْسَلُ ٢
 هُوَ الْقَائِدُ الْمَيْمُونُ ، وَالْمُبْتَغَى بِهِ ثَبَاتُ رَحَى كَانَتْ قَدِيمًا تَزَلْزَلُ ٣
 أَبِي عُوْدُكَ الْمَعْجُومُ إِلَّا صَلَابَةَ وَكِفَاكَ إِلَّا نَائِلًا ، حِينَ تُسْأَلُ ٤

١ - م : يعث الشاعر بلفظ أسم المدوح خالد بن أسيد ، ويقول إنها مَصَّتْ إلى أمرىء أقوى على الدهر وأناخت في فئانه الذي لا يَنْزَعُزَعُ ، فنعم خالد أمرءاً يُرْجَى وتعقد عليه الآمال .

٢ - م : يخاطب المدوح ، ويقول له إن بيته رحب لمن يتجععه وإنه يُغْدَقُ على الصَّعَالِكِ الهالكين الذين يطلبون رفته .

٣ - م : يشرع في هذا البيت بالمدح المباشر ، ويقول مخاطباً خالداً : إنك القائد الذي يصحبه اليُمْنُ والنصر في القتال ، والذي تُثَبَّتُ به أركان الملك ، بعد أن كانت مَرْعُزَعَةٌ مُضْطَرِبَةٌ .

٤ - عَجَمَ الْعُوْدَ : أخذه بأسنانه ليرى مدى صلابته . وهنا بمعنى خبره وبلا أمره .

م : أي أن الثآليل التي تحلّ به تضاعف من صلابته وقوته ، كما أنه لا يبرح يُغْدَقُ على من يَنْتَجِعُهُ ويسأله .

ألا أيها الساعي ليدرك خالداً تناءً وأقصر بعض ما كنت تفعل^١
 فهل أنت إن مد المدى لك خالدٌ موازنه ، أو حامل ما يحمل^٢
 أبي لك أن تستطيعه ، أو تناله حديث شاك القوم فيه وأول^٣
 أمية والعاصي ، وإن يدع خالدٌ يجبه هشام للفعال ونوفل^٤
 أولئك عين الماء فيهم ، وعندهم من الخيفة ، المنجاة والمتحول^٥

ومؤدتي المعاني التي يمتدحه بها يتدرجح بين كرمه ونخوته المتمثلين
 برحابة دياره ونجدته للصعاليك الملهوفين وشجاعته المتمثلة في القتال ونجابه أصله
 المتمثلة بأجداده كهشام ونوفل . وتراه يعبث ، حيناً ، باللفظ : « خالد ومخلد ،
 ومدد المدى » وحيناً يكرره تكراراً تجريدياً : « نعم الفتى يرجى ونعم
 المؤمل » حيث يفيد من طبيعة الصياغة اللفظية . وقد يعمد إلى التشبيه : « كفأك
 غيث . . . مرسل » تأديةً لمعنى الكرم ، إلا أن نسبة الغيث إلى اليد لا تستقيم
 إذ لا علاقة حسية ممكنة بينهما بالرغم من العلاقة الذهنية الافتراضية . فاليد

١ - ٢ - موازنه : أي معادل له .

م : يخاطب من يسعى إلى ادراك خالد ويقول له : كف عن ذلك وأقصر ، فهل أنت إن
 أوسعك خالد قادر على أن توازيه وأن تحمل أحماله ؟

٣ - شاه : سبقه وفاته .

م : يقول أنه لا قبيل لك بذلك إذ تفوق عليك بما يتداوله الناس فيه من عظمة ومجد ورثهما .

٤ - الفعال : الفعل الحسن .

م : يعدد أجداده الذين تحدر منهم ويقول إنه متى استنجد يجبه الخليفة هشام ونوفل ويهرع
 إليه بما عرف عنهما من المآثر والفعال المحمودة .

٥ - عين الماء : أي الشرف ، لأن الماء غياث كل شيء .

م : يمتدحهم بشر فهم ويقول إنهم ينجون الخائف ويحولون عنه الذعر والهلاك .

هي أداة العطاء والغيث المنهمر هو سبب الشراء ، فیده ثري كالغَيْث . لكن نسبة اليد إلى الغيث مباشرة جعلت التشبيه مُؤدّي ذهنياً ، يَنْطوي على اختلال فعلي . وتَلَبُّثُ له فضيلة التّعبير الصُّوري الذي يكاد الأخطل لا يكفُّ عنه في رؤيته للمعاني من خلال الارتباطات والمظاهر الحسيّة . ففي قوله : « والمبتغى به ثباتُ رحي كانت قديماً تُزَلْزَلُ » يستعير للملك معنى الرَّحَى ، حيثُ أضمّر الدلالة على الصلابة والشدّة والبَطْش . وإذا كانت هذه الصّورة لم تصدر عن خيال مرامي الأطراف ، شديد النَّأي ، فإن لها عمق الحدس في الرّؤية الحسيّة وفي إيجاز مراحل التعليل واقتضاها اقتضاباً مباشراً . ومثل ذلك قوله : « أبى عودك المعجومُ إلاّ صلابه » حيث تلاحمت الاستعارة والكناية واتحدتا في تمثيل المعنى بما يُوازيه في الواقع وفضلاً عن ذلك كله يتردّد على التّعابير الانشائيّة :

أخالد - ألا أيها السّاعي ليدرك خالدًا - فهل أنت إن مد المدى «

وإثر هذه المعاني المدحيّة الحاشدة ، نسيباً ، ينصرف إلى البوح بهُمومه القبليّة ، مُتَعَتِّباً ، ناقماً ، مورتوراً ، بل ومتهدّداً :

لَقَدْ أَوْقَعَ الْجَحَافُ بِالْبِشْرِ وَقَعَةً إِلَى اللَّهِ مِنْهَا الْمُشْتَكَى وَالْمُعَوَّلُ ١
فَسَائِلُ بَنِي مَرْوَانَ ، مَا بَالُ ذِمَّةِ وَحِبْلِ ضَعِيفٍ ، لَا يَزَالُ يُوصَلُّ ٢

١ - الجحّاف : هو ابن حكيم السلمي . البشّر : موضع من منازل بني تغلب وقد وقع فيه قتال بين التغلبيين وقوم الجحّاف السلمي . المُعَوَّل : هنا الاعتماد والمقنزع .
م : يشرع في هذا البيت بمخاطبة عبد الملك ويشكو إليه ما أوقعه الجحّاف فيهم من فتك وقتل لم يكده ينجيهم منه إلاّ الله .

٢ - م : يُعْظَمُ في هذا البيت تَعَتُّبُهُ عَلَى بَنِي مَرْوَانَ لِتَحَلُّفِهِمْ عَنْ نَجْدَةِ التَّغْلِبِيِّينَ ضِدَّ أَعْدَائِهِمْ وَيَعْتَجِبُ مِنْ ذَلِكَ وَيَقُولُ إِنَّهُمْ لَمْ يَخْفَرُوا ذِمَّتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَا يَبْرَحُونَ يَوْهُونَ صَلْتَهُمْ بِهِمْ ، تَكَادُ لَا تَقْوَى حَتَّى تَهَيَّي وَتَضْعَفَ مِنْ جَدِيدٍ . يَشِيرُ هُنَا إِلَى مَا كَانَ يَجْرِي بَيْنَ الْأُمَوِيِّينَ وَالتَّغْلِبِيِّينَ مِنْ مَنَازَعَاتٍ حَوْلَ النَّجْدَةِ وَالذِّمَّةِ وَالْوَلَاةِ .

بِنَزْوَةٍ لَصٍّ ، بَعْدَمَا مَرَّ مُصْعَبٌ بِأَشْعَثَ ، لَا يُفْلَى ، وَلَا هُوَ يُغْسَلُ ١
 أَتَاكَ بِهِ الْجَحَافُ ، ثُمَّ أَمَرْتَهُ بِجِيرَانِكُمْ عِنْدَ الْبُيُوتِ تُقْتَلُ ٢
 لَقَدْ كَانَ لِلجِيرَانِ ، مَا لَوْ دَعَوْتُمْ بِهِ عَاقِلَ الْأَرْوَى أَتَتْكُمْ تَنْزَلُ ٣
 فَإِنْ لَا تُغَيِّرُهَا قُرَيْشٌ بِمَلِكِهَا يَكُنْ عَنْ قُرَيْشٍ مُسْتَمَازٌ وَمَرْحَلٌ ٤

١ - أَشْعَثَ : هو ابن زياد الذي قتله مصعب ، فجاء أخوه عبيد الله بن زياد بن ظبيات فاحتز رأس مصعب . وقوله لَا يُفْلَى وَلَا يُغْسَلُ : أي أنه ميت .

٢ - م : أي أن الجحاف أتى برأسه ، فلم يترجره عبد الملك بل دعاه إلى تقتيل التغليبين ومن إليهم وهم مقيمون آمنين في بيوتهم . وقوله : عند البيوت تُقْتَلُ ، هو لتعظيم الأمر ، لأن من يقيم في بيته لا يكون قتاله إلا غدرًا به . وقد أفادت مضاعفة عين الفعل المعنى غلواً وتكثيراً .

٣ - أَرْوَى : جمع أروية وهي أنثى الوعل . العاقيل : أي المعتصمة في الجبال لا تبرحها ولا تقيم في الناس ، فهي في أشد النفور منهم .

م : يمثل لين جيرانه ومودتهم ويقول إنّه لو عولمت وعول الجبال بمثلها لثلاثت وانحدرت من معاقلها وامتنعت عن النفور .

٤ - مُسْتَمَازٌ : من ماز رحل وانتقل من مكان إلى آخر .

م : كأن الشاعر يتهدّد الأمويين ويقول إنكم إن لم تمنعوا عنا الضيم بما أثيرتم به من ملك وسلطة ، فإننا سرحل عنك ونقطع صلتنا بكم . وقيل إن عبد الملك إذ سمع الأخطل يقول هذا البيت سأله : إلى أين ترحل يا ابن النصرانية؟ فقال : إلى النار . فنبسم عبد الملك وقال : أولى لك ، لو قلت غير ذلك لقتلتك . والشاعر يردد لفظة جيران وهي لا تعني معناها المباشر هنا ، بقدر ما تشير إليه في مفهومه الجاهلي ، حيث كان العربي أحرص في الدفاع عن جاره منه في الدفاع عن نفسه .

وَنَعْرُزُ أَنْسَاءَ عَرَّةَ يَكْرَهُنَّهَا وَنَحْيَا كِرَامًا ، أَوْ نَمُوتُ ، فَنُقْتَلُ ١
وَإِنْ تَحْمِلُوا عَنْهُمْ ، فَمَا مِنْ حَمَالَةٍ وَإِنْ ثَقُلْتُ ، إِلَّا دُمُ الْقَوْمِ أَنْقَلُ ٢

فانت ترى الأخطل يصيحُ ويُعول خلال البيت الأول ، ويشكو أمره لله ويلجأ إليه من دون الناس . ولقد خَلَعَ عن وجهه قناع الجبروت والفخر ، مُعْظَمًا من من هزيمة قَوْمِهِ وانتصار اعدائهم . والواقع ان الجحّاف غدر في ذلك اليوم بالتغليبين وبقر بطون نساءهم ومثّل بالأجنّة في الأرحام فهال ذلك التغليبين ، وبخاصّة ان الأخطل كان قد استتاره فيما هو مقيم الى جنب عبد الملك بالقول :

أَلَا سَائِلَ الْجَحَافِ ، هَلْ هُوَ ثَائِرٌ بَقْتَلِي أُصِيبَتْ مِنْ سَلِيمٍ وَعَامِرٍ

ذاك أن الأخطل يتوسّل لكلّ حالةٍ وسيلتها ، وما دام هو مقيماً في مقام الشكوى والتذمّر والعتاب ، فلا بدّ له من المغالاة بأمر انكساره ، كما كان يُغالي بأمر انتصاره . وهو يدرك ذلك التصريح أو التكرار اللفظي : « أَوْقَعَ وَقَعَةً » وأساليب التّجدة والاستغاثة : « إلی الله منها المشتكى والمعولُ » ، ولقد أوفت تلك الفاجعة إلى حدّ لا سبيل معه إلى الاستغاثة إلاّ بالله ، أي إلى الخضوع والاستسلام وإيكال الأمر إلى تدبير الخالق . ووراء هذا القول عمقٌ في معاناة الألم وفداحة الخطب والشعور بالعجز ، ولئن لم تسمُ فيه الصورة البلاغية ، فلقد سمّت به

١ - نَعْرُزُ : هنا نصيب بالعرّ ومؤداه أنّه يُصِيبُهُمْ بأذى من يصاب بالعرّ أي الجرب .
م : يمضي في تهديده ووعيده ويقول : إذا لم تمنعوا عنا الضيم ، نتصدّى لأعدائنا بما يكرهون .
فإمّا أن نقضي عليهم ونحيا كراماً من دونهم ، وإمّا أن نُقتل ، فيذهب عنا الدّل بموتنا الشريف .

٢ - الحَمَالَة : الدية التي تحمل عن القاتل فيدفعها سواء عنه .
م : يقول إن قاضيتهم عنهم دية القتل ، فإن ذلك لا يُحِلُّ الوثام ولا يُبرئ الجراح ، إذ مهما عظمتِ الدية ، فإنّ دماء القتلى تظلُّ أعظم منها .

التجربة في صدقها الإنسانيّ وفي الفزع الى الله كمنزوع أخير لشكوى الضيم حيث لا تجدى وسيلة إنسانيّة . وإني لأؤثر هذا البيت الذي يصبح فيه الشاعر بعجزه ، على أبيات العنجهيّة ، إذ ان الألم يكشف للنفس أسراراً لا تناولها بالفخر والزهو .

ثم انك ترى الشاعر مُتسائلاً تساؤل نعمة :

فسائل بني مروانَ ما بال ذمّةٍ وحبلٍ ضِعِيفٍ ، لا يزالُ يُوصَلُ

والذمّة تعني ان المروانيين ضمنوا للتغليبين الدفاع عنهم ، وقد عجب الشاعر أن ينكثوا تلك الذمّة ، ثم إنه مثلها في إطار يُوحي بها في الحبل الواهي المتداعي ، الذي لا يزال يقطع ، فيوصل . والصورة تُوحي بكثرة ما اشارت اليه من عقد للوصل : « لا يزالُ يُوصَلُ » تُعبّر عن سياسة السلطة المترجحة بين استمالة القيسيين والوفاء للتغليبين . والشاعر أدرك غايته من الصورة إذ ان العربي يتكئ بالحبل إلى ما يجمع ويشد بقوة ، وتقطعه وتوصيله ينمان عن سؤ العلاقة والاختلاف والانقسام . تلك هي البلاغة الأخطليّة ، إنها نوع من التبصّر والتوحيد العجيب بين ما يعبر في الذهن وما يعبر في البصر ، ينمي أحدهما للآخر ، دون حرج أو كد أو ضعة .

هذا البيت يُطلز فكرةً عامّةً أقام فيها الشاعر على حدود الشعر ، إذ لم يوضح ولم يُصرّح ولم يعيّن ولم يبيّن . إلا انه يتحدر من ذلك إلى ما دونه مما هو ملازم للشعر السياسي ، أي إلى النقاش والبيانات والأحداث في اسمائها وسجلها الدقيق فيقول :

بنزوة لصرٌ ، بعدما مرَّ مُصعَبٌ بأشعثَ ، لا يُفلى ولا هو يُغسلُ
أتاك به الجحّافُ ، ثم أمرته بجيرانكم ، عند البيوت تُقتلُ

فمصعب والجحّاف والأشعث ، هؤلاء هم إطار النقاش والبينة ، ينزع الشاعر فيها من الحقيقة الواقعيّة ، إلى الحقيقة الإنفعاليّة إذ يقتصر في ذلك على التنويه

بما يثير ويحضُّ ويظهر الامتعاض : « لا يُفلى ولا يُغسل » ، وقد استطرد إلى المعنى بفضيلة اللفظ ، إذ ان التَّشَعُّثُ يُشِيرُ إلى حالة الشعر ، عندما يعلوه الغبار وتعبث به الرِّيح ، وقد جعله دون اغتسال وفلي ليشير السَّامِعُ وبمثله جثة هامة ، بدلاً من القول إنَّه مَيِّتٌ ، متوسِّلاًّ النزعة الصُّوريَّة ذاتها التي دأب عليها . وللأخطل أساليبٌ أخرى لتوقيع المعنى والاثارة به والنفاذ فيه إلى أقصى حدوده . إلا أنها لا تدرك السموَّ الفني الماثور في صورته ، بل ربما ناقضت الصفاء الشعري وأسفَّتْ به . فهو إذ يقول : « أتاك به الجحَّاف ، ثمَّ أمْرته » يُطلِّعنا على إرادة وتصميم عند الممدوح ، معظماً المعنى ، مغالياً به ، إذ لم يعد المرءانيون يتغافلون أو يتقاعسون عن النصرة . بل تراهم يأمرّون أعداءهم بالتَّنكيل بهم : « ثمَّ أمرته بيجرانكم عند البيوت ، تقتل » . وفعل « أمرتهم » أفاد الغلوَّ ، لكنه غلوٌّ نثري ، ايضاحي متعمد . وأردف ذلك بفعل « تُقتل » مشتقاً من صيغة الغلوِّ اللفظي . وفي هذا البيت يتضاعف وقع المعنى بثلاثة عوامل ، على الأقلِّ ، هي فعل « أمر » وفعل « تقتل » ، ولفظة « جيران » وللجيرة عند العربي حقوق مقدَّسة مرتبطة يشرف المُجبر وكرامته . والامويُّون لم يتخلَّوا وحسب عن جيرانهم ، بل إنَّهم يحضُّون أعداءهم على تقتيلهم ، أو بالأحرى أنهم يأمرّونهم بذلك . ولقد تطعَّم المدح ، هنا ، بالهجاء ، بل انه تحوَّل إليه إذ أيُّ معنى هو أفدع من من الاتهام بخيانة الجار والغدر به . وأيُّ جار هو الذي يغدرون به ويتكصون عليه ؟ إنه الجار المدافع عنهم ، الذي يبذل لهم من المودة والهبة ما يؤنس حتى وعول الجبال ، فيمنعها من النُّور :

لقد كان للجيران ما لو دَعَوْتُمْ به عاقِلَ الأروى أنتمك تنزلُ
فهم لا يغدرون بجار لاجيء ، بل بجار محارب ، فارس ، يحضهم الودَّ
المطلق . ومن العتاب المتبطن بالهجاء ينزع الى التهديد :

فإن لم تغيرها قريش بملكها يكن عن قريشٍ مستماز ومرحلُ
ونعزُّ أناساً عرّة يكرهونها ونحيا كراماً أو نموت فنقتلُ

وإن تحملوا، فما من حمالةٍ وان ثقلت إلا دم القوم أثقلُ

هكذا ، فإنّ هذه القصيدة تحفل بالمعاني المدحية الحاشدة أكانت مباشرة ، أم في المقدمات ، كما أنّه عرّج على الهجاء والعتاب والتّهديد ، يشحن ذلك كله بتلك التبرة الخطايية المأثورة في شعر الأخطل .

الباب السابع

مدائحه في الوليد بن عبد الملك

للأخطل في الوليد خمس قصائد ، كما قدّمنا ، لعلّ أولها البائية التي استهلها بتحية الطلل وتعيين موضعه وذكر الأثافي والنّوي والريح والسحاب الذي أهدم مطره عليه ويشبّهه بالخيل الجميلة الحيّا . ويعود إلى ذكر الديار العافية البادية له كالثوب اليمانيّ الخلق ويذكر الصّواحب اللواتي عهدهنّ فيها ويصف جمالهنّ ويشبهنّ بالإبل الكريمة الخالصة البياض ، ويقول إنهن متألقات الجمال ، مترفات ، مزينات بالذهب والدرّ ، وإن أجسادهنّ ضامرة مرّتجة اللحم ، معتدلة العظام ، متماسكة ، كما أنّ ريقهنّ يبسرىء من السقم . ويقول إنّ الواحدة منهنّ تُصيب ميمّن يحادثنها مقتلاً ، أو أنّها تخلف فيه داء لا يتنجع فيه دواء .

ويشرع بعدئذ بالمدح فيقسم بالكعبنة والسّتور والحجّب والحجاج بأن الوليد قد أنقذه من المخاطر التي كانت تحيق به وأمنه ، ثمّ يميل إلى ذكر المطايا التي امتطّاها إليه ، فيصف النّاقة والضّي الذي حلّ بها ولجهاضها لولدها وسرعة عدوّها والبعير الذي قرّحه خشب الرّحل والهجرة التي اصطلاها في عبوره بها الصّحراء والحادي الدؤوب الذي لا يبرح يزجرها والذئب الذي يعترضها ويصف لونه وخوف المطايا وعدوها السريع هرباً منه ، ثمّ ينتقل إلى مدح بني أمية ،

بعزّ الملك والحسب والشرف والحرية والشجاعة وحلمهم وغضبهم وأصالة نسبهم
القرشي .

قال في مطلعها :

حيّ المنازلَ بينَ السّفحِ والرّحَبِ لَمْ يَبْقَ غَيْرُ وُشُومِ النَّارِ والحطَبِ ١
وعُقْرٍ خالِداتِ حَولَ قُبَيْتِها وطامِسِ حَبْشِي اللَّوْنِ ، ذي طِيبِ ٢
وغيرِ نُوَيِّ قديمِ الأَثَرِ ، ذي ثُلَمِ ومُسْتَكِينِ أَمِيمِ الرَّأْسِ ، مُسْتَلَبِ ٣
تَعْتادُها كلُّ مِيلَةٍ ، وما فَقَدَتْ عَرَفاءَ مِنْ مُورِها مَجنُونَةَ الأَدبِ ؛

١ - السّفح والرّحَب : اسما مَوْضِعِينَ . الوُشُوم : جمع وَشْم وهو نقش بالإبرة يُحشَى
بنوع من الكحل أو ما إليه . كانت نساء الجاهلية يَسْتعملنه للزينة .

م : يحمي الطلل ويعين موقعه ، ويقول إنه لم يَبْقَ فيه إلا بقايا النار والحطب ، أي الموقدة
والرماد .

٢ - العُقْر : جمع عاقر . وهنا حجارة الأثافي ، قال إنها عاقر لأنها تُقيم على ما هي عليه
ولا تتكاثر . خالِدات : هي . أيضاً ، حجارة الأثافي . دعاها كذلك لأنها تَلْبَثُ ، إثر
اندراس الطلل . الطامِس : الرماد . حَبْشِي اللَّوْن : أسود . طِيب : جمع طبة ،
وهي طريقة أو خطّ .

م : يقول لم يَبْقَ فيه إلا حجارة الأثافي التي لا تَريم ولا تَنحَرِك ، تجتمع حول رماد أسود
اللّون كالحَبْشِي المخطط بما يَغشاه من طرائق .

٣ - النُّوي : الحفيرة حول الحَيمة . المُسْتَكِين : الوتد . أَمِيم الرَّأس : أي أصيبت أم
رأسه ، فَشَجَّ .

م : ولم يَبْقَ كذلك إلا النُّوي الذي كان قد احتُفِر حول الحَيمة ، وقد تَلَمَّ وتَشَقَّقَ ،
وَوَتَد مُسْتَكِين ، لا يبرح مكانه . وقد شَجَّ رأسه ، أي أصيب بكلوم عندما ضرب ليعرز
في الأرض .

٤ - المِيلة : هي الخرقَة التي تلوّح بها النساء عندما يَنحُن . العَرَفاء : الرّيح المُرتَفعة .
مُورُها : أي ما حملته من الرّاب . مَجنُونَةُ الأَدب : أي مختلفة الهبوب .

م : يشبه الريح في عَصْفِها وصفيرها وإثارتها للتراب بامرأة تُكَلّي تلوّح بمنديل . ويستدرك
بأنها تُشَبِّهها ، وإن كانت لم تَفْقَد وُلداً ، بل لما تثيره من تراب وما تختلف عليه
من هبوب .

وعرَّجَ على المدح بقوله :

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِيناً غَيْرَ كَاذِبَةٍ ۱
بِاللَّهِ ، رَبِّ سُتُورِ الْبَيْتِ ، ذِي الْحُجُبِ ۱
وَكُلُّ مُوفٍ بِنَذْرِ كَانَ يَحْمِلُهُ ۲
مُضْرَجٍ بِدِمَاءِ الْبُدْنِ ، مُخْتَضِبٍ ۲
أَنَّ الْوَلِيدَ أَمِينَ اللَّهِ أَنْقَذَنِي ۳
وَكَانَ حِصْنًا إِلَى مَنَاجَاتِهِ هَرَبِي ۳
أَتَيْتُهُ ، وَهُمُومِي غَيْرُ نَائِمَةٍ ۴
أَخَا الْحِذَارِ ، طَرِيدَ الْقَتْلِ وَالْهَرَبِ ۴
فَأَمَّنَ النَّفْسَ مَا تَخْشَى ، وَمَوْلَهَا ۵
قَدَّمَ الْمَوَاهِبِ مِنْ أَنْوَابِهِ الرَّغْبِ ۵
وَوَبَّتَ الْوَطَاءَ مِنِّي ، عِنْدَ مُضْلِعَةٍ ۶
حَتَّى تَخَطَّيْتُهَا ، مُسْتَرْخِيًا لَبِيبِي ۶

١-٢-٣ - سُتُورُ الْبَيْتِ : أَي سُتُورِ الْكَعْبَةِ . الْبُدْنُ : أَضْحِيَّةٌ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ .
مُخْتَضِبٌ : أَي مَلَطَخَ بِالْدَّمَاءِ .

م : يُقْسَمُ فِي الْبَيْتَيْنِ الْأُولَيْنِ يَمِينًا غَيْرَ كَاذِبَةٍ بِاللَّهِ ، رَبِّ الْكَعْبَةِ ذَاتِ السُّتُورِ وَالْحُجُبِ
وَالْحِجَابِ الَّذِينَ يَنْحَرُونَ الْأَضْحَايَ وَيَحْمِلُونَهَا مُتَخَضِّبِينَ بِدِمَائِهَا ، يُقْسَمُ بِذَلِكَ كَلَّةً أَنَّ
الْخَلِيفَةَ الْوَلِيدَ قَدْ أَنْقَذَهُ ، فِيمَا فَرَعَ إِلَيْهِ كَمَا يَفْرَعُ النَّاسُ إِلَى حِصْنٍ حَصِينٍ ، لَا يُقْهَرُ .

٤- م : يَقُولُ إِنَّهُ وَفَدَ عَلَيْهِ ، فِيمَا كَانَتْ تَعْتَرِيهِ الْهُمُومُ وَتَقْضَى مُضْجَعُهُ ، بِحَاذِرِ الْقَتْلِ ،
يَهْرَبُ مِنْهُ كَالطَّرِيدِ .

٥- الْقَدَّمَ : الْكَثْرَةَ . أَنْوَابٍ : جَمْعُ نَوْءٍ : الْمَطَرِ . وَهَذَا الْعَطَاءُ . الرَّغْبُ : الْكَثِيرَةُ ،
الْوَاسِعَةُ .

م : يَقُولُ إِنَّهُ أَمَّنَهُ وَأَغْدَقَ عَلَيْهِ الْعَطَايَا ، فَفَاضَتْ عَلَيْهِ فِيضَ الْأَنْوَابِ .

٦- الْمُضْلِعَةُ : هُنَا أَمْرٌ لِحَقِّ بِهِ . اللَّيِّبُ : جَمْعُ لَيْبَةٍ : مَا يَشُدُّ فِي صَدْرِ الدَّابَّةِ . وَاسْتِرْحَاءُ
اللَّيِّبِ دَلَالَةٌ عَلَى الثِّقَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ .

م : يَقُولُ إِنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَمَّنَهُ امْتَنَعَ عَنْهُ الدُّعْرُ ، فَجَعَلَ يَسِيرُ بِطَمَأْنِينَةٍ ، بَعْدَ أَنْ اجْتَازَهَا ،
ثَابِتَ الْجَنَانِ .

وسنة القسم جارية في مدائحها ، كما في مدائح من تقدموه ، وهي أداة خارجية للاقتناع لولا ما تحفل به من إشارات دينية كستور البيت والحجب والتذوق والأصاحي ، وما إلى ذلك من أجواء اسطورية عميقة الإيحاء والبث . لقد غدا هذا القسم طقساً من طقوس الشعر لا يؤثر وحسب بمعانيه ، بل بما هو أنأى منها في تلك الارتباطات الشعورية الغامضة القائمة بين النفس وطقوس العبادة في مكة .

وإثر ذلك القسم الذي يتماذى فيه ، كما هو دأبه ، يمتدح الوليد بتأمينه وحمايته وينسب ولايته الى الله ليخلع عليه الصفة الدينية ، القدسية . والأخطل يجاري الممدوح فيما يذهب إليه ، يقول قوله ويرى رأيه ، وقد حرص على امتداح الامويين بالتدين لأنه كان موضع النزاع فيهم ، يخاطبهم بالقول : « خليفة الله » « أمين الله » . ويعمد إلى الصورة ، لذلك ، فيشبهه بحصن للنجاة ، معظماً من همومه وخوفه كالتابعة ليعظم من أمر الحماية ، في أسلوب ابداعي شخص به الهموم ونسب إليها الأرق : « وهمومي غير نائمة » . والهموم لا تستيقظ ولا تنام ، وانما الإنسان هو الذي يعانيتها . وهذا التوحيد بين الهموم وصاحبها يعبرُ فيما فوق الوعي والمنطق ويتصل بالحقيقة الشعرية ، وهي أسمى فنياً من الكناية الواقعية الشاخصة في قوله :

وثبتت الوطاء مني ، عند مُضْلِعَةٍ حتى تحطّبتُها ، مسترخياً لبّي

ويعود إلى تمثيله في حالة مماثلة لتلك التي رسمها لعبد الملك ، فيجعل خلافته من الله : « خليفة الله » ، أي أنه يستمدُّ سلطته منه ، أنه ذو حق مقدس ، بل إنه وليُّ من الأولياء يستدرُّون النعم بمطلعهم الخير وبجس فألهم ومألهم ينهمر بذلك المطر ، أي الرزق :

خليفة الله ، يُستسقي بسنته الغيث ، عند مولى العلم ، منتخب

وليس من تباين بين هذا القول وقول آخر امتدح به عبد الملك :

الخائض الغمر ، الميمون طائره خليفة الله ، يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطْرُ

ولكن كيف يصل الشاعر الى المدوح ؟ لأنه يصل ، كدأبه في كل حين ، على المطايا الهالكة التي تَعَيَّنَتْ أخفافها من شدة العدو . وقد خصَّها بأبيات وأوصاف ومعانٍ مكرورة ، كما أنه يشبَّهها بتشابيهها حتى يوفي من ذلك كله إلى المدوح :

إِلَيْكَ تَقْتَأَسُ هَمِّي الْعَيْسُ مُسْنِفَةً حَتَّى تَعَيَّنَتْ الْأَخْفَافُ بِالنُّقْبِ ١
مِنْ كُلِّ صَهْبَاءٍ مِعْجَالٍ ، مُجْمَهَرَةً بَعِيدَةَ الطَّفْرِ مِنْ مَعْطُوفَةِ الْحَقَبِ ٢
كِبْدَاءٍ ، دَفْقَاءٍ ، مِخْيَالٍ ، مَجْمَرَةً مِثْلَ الْفَنَيْقِ ، عِلَاقَةٍ ، رَسَلَةِ الْخَبَبِ ٣

١ - تَقْتَأَسُ : أي تقيس الأرض بأخفافها ، أي تذرعها . العيس : الجمال البيض . مُسْنِفَةً : أي استرخت جبالها من الهزال والضُمور . تَعَيَّنَ : أي بدأ يُنْقَبُ وَيُنْقَبُ .

م : يشرع بوصف المطايا التي يَمَنْطِئُهَا إليه ويقول إنَّها من الإبل الكريمة التي استرخت أحرمتها من شدة الهزال الذي أصابها ، كما تَنْقَبَتْ أخفافها من مشقة السفر .

٢ - الصَّهْبُ : الشقر . مِعْجَالٍ : تُعْجَلُ فِي وَضْعٍ وَلِذَا وَتُجْهَضُ بِهِ . الْمُجْمَهَرَةُ : الضَّخْمَةُ الْخَلْقُ . الطَّفْرُ : الوَثْبُ . الْحَقَبُ : الخزام يلي حقو البعير .

م : يستكمل وصفها ويقول إنها صهباء : تطرح أولادها على الطريق ، إجهاضاً لها ، وإنَّها ضَخْمَةُ الْخَلْقِ تَنْبُ وَتَبَأُ فِي عَدْوِهَا .

٣ - الْكِبْدَاءُ : العريضة الصدر . الدَّفْقَاءُ : التي تَتَدَقَّقُ فِي سَيْرِهَا ، الْخَفِيفَةُ . الْمِخْيَالُ : التي لم تُنْجَبْ وَلِدَاءً . الْمُجْمَرَةُ : الغليظة الأخفاف . الْفَنَيْقُ : الفحل . الْعِلَاقَةُ : سَنَدَانُ الْحِدَادِ وَهِيَ النَّاقَةُ الْمُشْرِفَةُ . الرَّسَلَةُ : الْخَفِيفَةُ . الْحَبَبُ : ضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ .

م : يقول إنَّها عريضة ، تَتَدَقَّقُ فِي سَيْرِهَا تَدْفَقًا لِحَفَّتِهَا لَمْ تُنْجَبْ فَتَضَعُهَا الْوِلَادَةُ ، وَإِنَّهَا غَلِيظَةُ الْأَخْفَافِ كَالْفَحْلِ وَإِنَّهَا عَالِيَةٌ وَمُرْتَفَعَةٌ .

كَلَمْعِ أَيْدِي مَثَاكِيلِ مُسَلَّبَةٍ ۱
لَمْ يُبْقِ سِيرِي إِلَيْهِمْ مِنْ ذَخَائِرِهَا
يَنْعِينَ فَتِيَانِ ضَرَسِ الدَّهْرِ وَالْخُطْبِ ۱
غَيْرِ الصَّمِيمِ مِنَ الْأَلْوَابِ وَالْعَصَبِ ۲
ويخلص إلى مدح الأمويين بالقول :

حتى تناهى إلى القَوْمِ الَّذِينَ لَهُمْ ۳
بَيْضٌ ، مَصَالِيْتُ ، لَمْ يُعْدَلْ بِهِمْ أَحَدٌ
عِزُّ الْمُلُوكِ ، وَأَعْلَى سُورَةِ الْحَسَبِ ۳
بِكُلِّ مُعْظَمَةٍ ، مِنْ سَادَةِ الْعَرَبِ ۴
الْكَثْرِينَ حَصَى ، وَالْأَطْيَبِينَ ثَرَى
وَالْأَحْمَدِينَ قَرَى فِي شِدَّةِ اللَّزْبِ ۵
مَا إِنْ كَأَحْلَامِهِمْ حِلْمٌ ، إِذَا قَدَرُوا
وَلَا كَبَسْتَظْمِهِمْ بَسْطٌ ، لَدَى الْغَضَبِ ۶

١ - لَمَعَ يده : أثار . الْمُسَلَّبَةُ : التي مات ولدها . ضَرَسِ الدَّهْرِ : أي تُضْنِيهِم الحروب والخطوب .

م : يشبه أَيْدِي المَطَايَا ، إذ ترتفع ، بإشارة أَيْدِي النَّاحَاتِ ، فيما يُشِيرُنْ بخرقة ، وهنَّ يَبْكِينَ فِتْيَةً لَمْ تَضُرَّ سَتْمَهُمُ الحروب والخطوب .

٢ - الذَّخَائِرُ : أي الشَّحْمُ الذي تَدَخَّرَهُ .

م : يقول إن تلك المَطَايَا قد ذَابَتْ شحومُها ولحومُها من شِدَّةِ السَّيْرِ ولم يَبْقَ منها غير العظام والأعصاب .

٣ - م : هنا ينتقل إلى المدح ويقول إنَّه أَوْفَى بها إلى بني أُمَيَّةِ الذين لهم عِزُّ الْمُلُوكِ ومجد الْحَسَبِ والشَّرَفِ .

٤ - بَيْضٌ : أي أحرار . مَصَالِيْتُ : جمع مِصْلَاتٍ وهو الشَّجَاعُ . الْمُعْظَمَةُ : المُصَيِّبَةُ .

م : يقول إنَّهم أحرار شُجْعَانٌ ، قادرون على الحلم والتصَبُّر ، عندما تلمُّ بهم الخطوب .

٥ - الْحَصَى : العدد الكثير . اللَّزْبُ : جمع لَزْبَةٍ : شِدَّةُ القحطِ .

٦ - م : لا عدل لهم في حلمهم وعفوفهم ، كما أنه لا عدل لهم في غَضَبِهِمْ وبطشهم .

وَهُمْ ذُرَى عَبْدِ شَمْسٍ فِي أَرُومَتِهَا وَهُمْ صَمِيمُهُمْ ، لَيْسُوا مِنَ الشَّدَبِ ١
 وَكَانَ ذَلِكَ مَقْسُومًا لِأَوْلَادِهِمْ وَرِثَوا عَنْ أَبِي فَبَّ ٢

ويستهلُّ الأخطل قصيدته الثانية في مدح الوليد بذكر الديار المتعفية ورحيل
 الأحبة وقيام الثعالب من دونهم فيها . ثم يذكر أعداءه القيسيين ونفي التغليبين لهم
 عن بلادهم ، ويفخر باجتماع شمل بني قومه واحتشادهم للعدو ويتصدى لجرير
 وبني كليب ويذكر تخاذلهم في سباق المجد والفخر ، لكثرة عوراتهم ومثالبهم .
 ثم يتندم على عهد الصبا وعلى مصاحبة النساء الشبيهات بالطباء ، متخلصاً إلى
 مدح الوليد بأفضاله وأعطياته وكرمه الذي يبرز به فيضان النيل ونجاة أصل والدته
 وبعد همته وإكرامه للضيف وتقديم خير اللحوم والأطعمة له ثم ينقطع إلى
 وصف الفتوح التي قام بها في بلاد الروم ويقول إنه أدرك فيها ما لم يدرك سواه .

يقول في المطلع :

عَفَا وَاسِطٌ مِنْ أَهْلِهِ ، فَمَذَانِبُهُ فَرُوضُ الْقَطَا: صَحْرَاوُهُ فَنَصَائِبُهُ ٣

١ - الأرومة : أصل الشجرة . الشدب : ما يشذب من الشجر فيسقط ويهمل .

م : يقول إنهم من أقحاح القرشيين من أصل شجرتها وليسوا من أغصانها التي تشذب وتهمل
 لعدم نفعها .

٢ - م : يقول إن ذلك قدره الله لهم وتوارثوه من آبائهم .

٣ - عفا : درس . واسط : موضع بالشام . مذانب : مجاري المياه . النصاب : جمع نصيبة :
 علم يوضع في الصحراء ليهتدى به .

م : يذكر الأمكنة التي خلت وأقفرت ، إثر رحيل أحبته ، ويقول إن موضع واسط قد
 اندرست معالمه ، فضلاً عن صحراء روض القطا .

فيا لك مني هفوة، لم أعذ لها ويا لك قلباً ، أهلكته مذهبهُ ١
ويتخلص إلى المدح بقوله :

دعاني إلى خير الملوك فضولهُ وأني امرؤٌ مُثنٍ عليه ونادبهُ ٢
وعالِقُ أسبابِ امرئٍ ، إن أقع به أقع بكريمٍ ، لا تغبُ مواهبهُ ٣
إلى فاعلٍ لو خايلَ النيلَ ، أزحفتُ من النيلِ فواراتهُ ومثاعبهُ ٤
وإن أتعرض للوليدِ ، فإننهُ نمتهُ إلى خيرِ الفروعِ مضاربهُ ٥
نساءُ بني عبسٍ وكعبٍ ولذنهُ فنعمَ ، لعمري ، الحالباتِ حوالبهُ ٦

٢ - م : يقول إنه أقام من جراء ذلك في مكان مُقفر ، لا أنيس فيه كأنه ضيف الجن ، وإنه كان يعاني سقم الحب ، فلا يعود ، أي يزوره في مرضه ، إلا الصباية والوجد . وفي هذا البيت تخريج جميل للشعور بالوحشة .

٣ - م : يقول إنه تاب عن هو الصبي ومجونه وإنه لم يجد من ذلك إلا الهلاك .

٤ - م : نادبهُ : معدد لمحاسنه .

م : يقول ، مشيراً إلى الوليد ، إنه فدحتني على القدوم إليك ، وأنت خير الملوك ، فضلك . وقد جئتُ مادحاً لك ، معدداً لأفضالك .

٥ - علقَ بأسبابه : أي اتصل به اتصال ودي وحماية . تغبُ : تأتي ، حيناً بعد حين .

م : يقول إنني أوثق علاقتي بامرئٍ لا ينقطع عطاؤه ، فهو كريم ، يقع منتجع داره منه على كل خير .

٦ - خايلَ : جارى . أزحفتُ : أي كلتُ وانقطعت . فواراتهُ : مثاعبهُ . مثاعبهُ : مجاريه .

م - يقول في تعظيم كرمه إنه لو جارى به النيل في فيضه ، لبدت منابع النيل ومجاريه ضئيلة من دونه ولتباطأت وقصرت عن مجاراته .

٧ - م : يمتدحه بأصله ويقول إنه يضرب فيه إلى خير فروع ، إلى نساء بني عبس

وهذه المعاني ليست مُتعادلة ، فبعضها تقريرى ، دافى المتناول كقوله إنّه كريم ، لا يكفُّ عن العطاء ، وانه كريم الأصلين من أمه وأبيه ، والبعض تنفخه سورة الغلوّ الأرعن ، الفاقد المضمون الانساني والوجدانيّة ، مثال تعظيم كرمه على فيضان النيل في صورة تمثّل الأفكار الدعائيّة الكاذبة . تلك سورة من ملحمة الغلوّ المداجي ، العاطل عن كل قيمة فنيّة . ولا بدع ، فإن علاقة الأخطل بالوليد لم تصدر عن الوجدانيّة ، ولا عن الايمان بالتفوّق ، فجعل يتدع المعاني ابتداءً زائفاً .

ولعلّ امتداحه للوليد بطيب عنصر والدته يقوم في حالة متوسطة بين التقرير والغلوّ الملحمي . وقد كان يطيب للوليد أن يمدح بمثل ذلك . أما فيما دون دونه فإنه يمدحه بمدائح الخاصة به :

وما بَلَغَتْ خَيْلُ امرئٍ كَانَ قَبْلَهُ بَعِيْثٌ انْتَهَتْ آثَارُهُ وَمَحَارِبُهُ ١
وتضحى جبالُ الرومِ غبراً فِجَاجُهَا بما أَشْعَلَتْ غاراته وَمَقَانِبُهُ ٢
مِنَ العَزْوِ ، حتّى انضَمَّ كلُّ ثَمِيلَةٍ وحتّى انطَوَتْ مِنْ طَوْلِ قَوْدِ جنائِبُهُ ٣

١ - م : يقول إنّه تقدّم في فتوحه بحيث لم تبلغ خيل من سبقه قطّ ، مُشيراً إلى افتتاح الهند وما إليها في ولايته واقتحامه على الروم مراراً .

٢ - الغُبَيْرُ : من النَّارِ والغبار . الفِجَاجُ : جمع فَجَجَ وهو الوادي بَيْنَ جبَلَيْنِ . المقاب : الجيوش .

٣ - الثميلة : ما بقي في البطن من العلف أو الماء ، انطوت : ضمرت . الجنائب : الخيل التي يُتجنب ركوبها ، إلا في القتال .

م : يقول إن الخيل ضمرت وتعفى كلُّ ما كانت تنطوي عليه بطونها من شدة عدوها وسوقها في القتال .

يَمُدُّ المدى للقومِ ، حتى تَقَطَّعتْ جبالُ القوى ، وانشقَّ مِنْهُ سَبائِبُهٗ ١
فتى الناسِ لَمْ تصْهَرِ إليه محاربٍ ولا غَنَوِيٌّ دون قيسٍ يُناسِبُهٗ ٢

والشاعر يتوسل الخيل أداة وكناية لتجسيد عزمته وطموحه . فليست خيله التي لا تجارى ، بل أن بطولته وعزمته . فالخيل التي تقذف في الأفاصي ثم عن بعد همّة صاحبها ونهوده الى الكفاح ، بل إلى الجهاد ، إذ أنه كان يقاتل الروم ، ويستكمل صورة الخيل من خلال مشهد عام لجبال الروم ، حيث يعصف الغبار ويملأ الفجاج والأودية . وعصف الغبار كالخيل ، ليس سوى ظاهرة حسية واقعية تؤدي المعنى فيما هو يتحقق ويتمّ مما يُضفي عليه صفة اليقين والاقناع . والغبار هو ظلُّ من الظلال الملحمية في شعره ، وهو أبقى مضموناً من ايثار كرم المدوح على فيضان النيل ، إذ أننا نسيغُه ونتمثله في حدود الواقع والممكن . الغلو ، هنا ، شبه في والغلو هنالك خُرَافِيٌّ ، مجانيٌّ .

ومن ثمَّ يعود إلى التمادي في وصف بطولته من خلال الخيل ، على غرار عنتره ، لكنّه لا يدعها تتحمحم ، ولا يدع الرّماح تنوشها كأشطان البئر ، بل ألمّ بصورة ساكنة ، صامته إذ استحضر سورة هزالها حتى تقطعت أرسنتها وأحزمتها . فالأخطل لا يتعمد اليقين الايحائي ، بل اليقين الواقعي . فيما ينتزعه من مشاهد الحياة ذات الدلالة البليغة على غاية الشاعر . فشعره هو شعر التجسيد وليس شعر التجريد ، يعرض المعنى ، أو يستعرضه في اهابه الحسيّ ، في طينته الواقعية ، بل في حركته وتنفساته الدالة ، المعبرة .

١ - القوى : هنا الأرسنة . سبائب : جمع سبيبة أي شقة .

م : يقول إنّه ما زال يقتحم عليها القتال ، ويعدو بها إلى مدى بعيد حتى تقطعت جبال أحزمتها وأرسنتها وتشققت ثياب الجنود .

٢ - م : يقول إن شرف الوليد أرفع من أن يكون عقد زوراً بين قومه وقبيلتي محارب وغنيّ .

ولقد ينظم الأخطل في مدح الوليد أحياناً يعمدُ فيها إلى الابتسار ، كأنه يرفع بها ظلامه ويؤدّي شكوى ، ولسنا نقع فيها على المعاني المكثفة والدأب على استيفاء أغراض القول ، بل إنّه لا يكاد يلمّ بذكر المطايا ، حتى ينزع إلى المدح وينتهي بيتين من الشكوى الكسيرة شبه الدامعة التي افتقد بها الأخطل عنجهيته القديمة :

وحاجِلَة العيونِ طوى قواها شهابُ الصَّيفِ والسَّقرُ الشَّدِيدُ ١
 طَلَبَنَ ابنَ الإمامِ فتى قريشٍ بِحِمصَ وَحِمصُ غائِرَةٌ بعيْدُ ٢
 نماكَ إلى الرِّباءِ فحولُ صِدْقٍ وَجَدُ قَصْرَتِ عَنْهُ الجُدودُ ٣
 وَزَنَدُكَ مِنْ زِنَادِ وارياتٍ إذا لَمْ يُحْمَدِ الزَّنْدُ الصَّلودُ ٤

١ - الحاجِلَة : الغائرة .

م : يستهل بذكر مطيته التي قد غارت أحداقها من شدة التعب وذهبت إلى الهاجرة بقواها ، فضلاً عن العَدُوِّ الشَّدِيدِ .

٢ - م : يقول إنّه سعى بمطايها إلى الوليد ابن الخليفة عبد الملك ، متوجّهاً إلى حمص ، وهي بلدة نائية .

٣ - الرِّباء : هنا ارتفاع القدر .

م : يمتدحه ويقول إنّه قد تحدّر من أصل رفيع ومن قوم أماجد وإن الله ضاعف له من قدره بما خصّه من نعمة وحظّ .

٤ - الزَّنْد : الحطب الذي يوري ناراً . أوزى : أعطى ناراً . الصَّلود : الزند الذي لا يؤدّي ناراً .

م : يقول إنّه إذا ما أقدم على أمر ، فإنّه يحققه وينجح فيه ، فيما يخذل به الآخرون ويقصّرون عنه .

وَإِنَّا مَعشَرٌ نَابِتٌ عَلَيْنَا غَرَامَاتٌ وَمُضْلَعَةٌ كَوْوُدٌ ١
وَعَصَّ الدَّهْرُ وَالْأَيَّامُ حَتَّى تَغَيَّرَ بَعْدَكَ الشَّعْرُ الْجَدِيدُ ٢

والمعاني الواردة في هذه القصيدة هي معانٍ إيجازية ، يُشير بها إلى كلِّ شيء دون أن يَحْصُ شَيْئاً بالذَّات . أشار إلى المطايا الغائرة الأحداق من الحرِّ والسَّفرِ وشرط إلى المدح ، فكأنَّه أدَّى فريضة التقليد وسُنَّته . ثم تراه ينوّه بالمعاني المدحية تنويهاً ولا يترسّمها ترسّماً ، كدأبه . فهو يمتدحه بطيب الأصل والفأل الحسن ليخلُص إلى الشفاعة المشوبة بقليل أو كثير من الانكسار . فبعد أن كان يلج على الخليفة ولحيته تنضح خمرأ ، فيتهدّد ويتوعّد ويُمَنِّن ، إذا هو يستعطي لبني قومه كالغُرَباء ، ويطلب رفع الغرامات عنهم . وبعد أن يذكر ذلك بالفكرة المجرّدة يؤدّيه بالصورة التمثيلية ، فتغدو المصيبةُ عَضَّةً من أنياب الدَّهر ، أو يغدو الدَّهر كإحدى البهائم المفترسة . ولا يتغفل ، كذلك ، حتى عن الغلو إذ يدع الشعر الجديد يشيب من هول الخطب . إنها الأيام السوداء في حياة الأخطل وتاريخ بني قومه ، يُعانون فيه النزاع الأخير .

وللأخطل رائيةٌ في مدح الوليد ، استهلّها ، كدأبه ، بذكر الديار والأحبة والسحاب والبرق آنذي مثل التماعه بالتماع السيوف وتأجج النيران ، والمطر المتدفق الذي تضيق عنه المسائل والفيجاج الواسعة . ويذكر صاحبه فاطمة التي تولّت عن تلك الديار ومواضع ترحالها وحلّها ونزوحها من دومة الشّام لتتقشّي ذُبابه الطّاعون فيها ، ثم يتمنّى أن تحمل الرياح رسالة لصاحبه هند ،

١ - الكؤود : الصّعبة .

م : يشكو إلى الوليد ما حلّ ببني قومه ويقول إنهم لكثرة ما يدفعون من غرامات ، قد أصيبوا بخرّط فادح ونازلة لا دافع لها .

٢ - م : يقول إن الدَّهر عضّهم أي أنه أنزل بهم مصائبه ، حتى انتشر الشيب في رؤوس الفتيان منهم .

وتطلعها على ما يعانیه من دونها ، ويشبه حبيته بالغمامة البيضاء وينتقل ، بعدئذ ، إلى المديح فيقسم بإله الكعبة على نجاة الممدوح وأصالة طرفي نسبه ويقول إن الوليد هو الأثبت في القتال والأسرع إلى الأعداء ، وإنه ينفق يومه في الحرب أو في القرى وإنه لا يزال يقارع الأعاجم ويحمي الثغور .

ويخاطب من ثمة بني أمية ويمحضهم وده وحبه ، ذاكرًا حمايتهم له في الجلى ونزول الخطب الفادح ، ويشير إلى إحقاقهم الحق في صفتين وهداية الناس إلى سواء السبيل ، ثم ينقطع إلى العبسيين أحوال الوليد ، ويمتدحهم بالشجاعة والوفاء للضيف ، وبنجدة النعمان لنيل ملكه ، وينهي القصيدة بالقول إن الوليد لا يزال معترًا ، فخورًا بأصله ، فيما يذل ويستحي به الآخرون .

يقول في مطلعها :

عَفَا مِمَّنْ عَهْدْتُ بِهِ حَفِيرَ فَأَجْبَالُ السَّيَالِي ، فَالْعَوِيرُ ٢
فشاماتُ ، فذاتُ الرَّمْثِ قَفْرٌ عَفَاها بَعْدنا قَطْرٌ ومورٌ ٢
مُلِحَ القَطْرُ مُنْسَكِبُ العَزَالِي إذا ما قَلْتُ أَقْلَعُ ، يَسْتَحِيرُ ٣

١ - حفير والسيالي والعوير : أسماء أمكنة .

م : يقول إن تلك المواضع قد خلت ممن كان يعهدهم فيها من سكان .

٢ - شامات ، وذات الرمث : موضعان . المور : التراب .

م : يقول إن ذينك الموضعين قد أقفرا وامحت آثارهما ، بعد أن غشيتهما المطر والتراب .

٣ - العزالي : أفواه القرب . المستحير : الراكب بعضه فوق بعض ، يكاد لا يتحرك لكثرة مائه .

م : يصف السحاب الذي ينهمر عليها مطره ، ويقول إنه لا يزال يتقطر بالخال ودون انقطاع وينصب كالماء من أفواه القرب ، فإذا ما توهم الشاعر أنه انحسر وأقلع عن المطر ، عاد يتناقل ويتحدر ويفيض .

كَأَنَّ الْمَشْرِفِيَّةَ فِي ذَرَاهِ وَنِيرَانِ الْحَجِيجِ لَهَا سَعِيرٌ ١
بِكُلِّ قَرَارَةٍ مِنْهَا وَفَسْجٍ أَضَاءُ مَاوَهَا ضَرَّرٌ يَمُورُ ٢

والشاعر ينصرف في هذا المطلع الى وصف تفصيلي للمطر ، بعد أن يذكر
الطلل ويُعيِّن مواضعه ويُسمِّيهِ بأسمائه . ولا يرد وصفه كغاية بذاته ، بل
كسبيل لإظهار شدة تعفّي الطلل . فهو ينهمر من مثل أفواه القرب ، يدرُّ ولا
يَنْضَب . والتشبيه واقعي بقدر ما هو بدائي ، إذ أنَّ مقابلة المطر في غزارته بالقرب
في فوهتها المنهمرة ، هو أدنى وسيلة من وسائل التعبير . فالأخطل هو ابن بيته ،
فضلاً عن كونه ابن نفسيته ، تراه يقرن التماع البرق بالتماع السيوف ، مُجَسِّدًا
بذلك شكل المشهد ، دون معناه ، إذ أن التماع السيوف ، مهما اشتدَّ ، يظلُّ
أضعف بكثير من التماع البرق وتخطُّفه ، ولعلَّه استدرك ذلك بتمثيله ، من
جديد ، بنار الحجيج المضطربة في الظلام .

أما وصفه لصاحبه ، فيتسم بتلك الوجدانية الرقيقة ، إذ يقرن بينها وبين الغمام
في الرقة والشفافية والجمال :

١ - المَشْرِفِيَّةُ : السِّوْفُ . الحَجِيجُ : جمع حاج .

م : يصف البرق في هذا البيت ويقول إنَّه يَلْتَمِعُ التماع السيوف ، وإنَّه يتوقَّد توقُّد نار
الحجاج في الظلام ، وهذا المعنى ينطوي على دقَّة في التمثيل ، إذ جعل أعلى البرق يبدو
كالسيوف فيما يتأجج ما دون ذلك كالنيران ، فكان الشاعر لا يزال يعنى بالمماثلة والدقَّة
الواقعية .

٢ - القَرَارَةُ : القاع المُسْتَدِير ، أو النقرة التي يجتمع فيها الماء . الفج : شعب واسع بين
جبيلين . أضواء : غدير . ضرر : كثير ، غزير . يمور : يجري .

م : يقول ان ذلك المطر ينهمر في كل قاع وكل فج ، ويلاهما ، فيضيقان عنه ، بالرغم
من اتساعهما . ولقد دأب معظم الشعراء الجاهليين على تعظيم أمر المطر وتحوله إلى سيول
وبخاصة امرأ القيس . وكأنما صدر عن طبع من طبائع الغلو فيه فضلاً عن تمثيله لواقع
المطر في الصحراء . ولسنا نفع في هذه الأبيات على الأجواء الطوفانية التي تصحب مثل هذا
الوصف في الشعر القديم .

فَلَيْتَ الرَّامِسَاتِ بَلَّغْنَ هِنْدًا فَتَعَلَّمَ مَا يُكِنُّ لَهَا الضَّمِيرُ ١
 كَأَنَّ غَمَامَةً غَرَاءَ بَاتَتْ تَكشِفُ عَنْ محاسِنِهَا الخُدُورُ ٢
 وقد بَلَغَ المطيُّ ، وَهُنَّ خُوصٌ بلاداً ما تحُلُّ بها قَدُورُ ٣

وإثر ذلك كملته بؤني إلى المدح ، مستهلاً بالقسم :

حَلَفْتُ بَمَنْ تُسَاقُ لَهُ الهِدايا وَمَنْ حَلَّتْ بِكَعْبَتِهِ النُّذُورُ ٤
 لَقَدْ وُلِدَتْ جَدِيْمَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ فتاها ، حينَ تَحزُبُها الأُمُورُ ٥

١ - الرَّامِسَاتِ : الرياح الشديدة العصف التي ترمس الأثر . والرَّامِسَاتِ الإبل التي تُسرع في سيرها .

م : يتمنى أن يُحمَل الرياح رسالته إلى صاحبه هند ، ليطلعها بها على ما يضر لها من حب وما تثيره في نفسه من وجد .

٢ - م : يشبه صاحبه هنداً بغمامة بيضاء ، تطلع عليه من الخدر ، وتشبه المرأة بالغمامة لرقتها وبياضها معنى متداول في الشعر القديم .

٣ - الخوص : العائرة الأحداق من الجهد والمشقة . القُدُور : المرأة المُتَنَزِّهة عن الأقدار : م : يقول إن المطايا أوقت بهم بعد مشقة وضى إلى بلاد طيبة لا تقيم فيها إلا النساء الطاهرات . وفي هذا البيت يمهّد للانتقال إلى المدح .

٤ - م : يقسم في هذا البيت كعادته قبل مباشرة المدح ، بالله والكعبة ، وهو أسلوب ترسّمه شعراء المدح من قبل وبخاصة الأعشى .

٥ - جَدِيْمَةٌ : إشارة إلى أم الوليد وهي ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جديمة . تَحزُبُها : تعقد وتضيق عليها .

م : يمدح الوليد بنجابه أصله في قرعته ، إذ تحدر من أم جديمة وأب قرشي ، فجاء مجلياً لا عدل له .

وأكرمها مواطن حين تبلى
 وأسرعها إلى الأعداء سيراً
 به ترمي أعاديها قريش
 له يومان : يوم قراع كبش
 يكفيه الأعنة ، لا سؤوم
 قتلت الروم ، حتى شد منها
 ضرائبها ، وتختضب النحور
 إذا ما استطيء الفرس الجرور
 إذا ما نابها أمر كبير
 ويوم يستظل به مطير
 قتال الأعجمين ، ولا ضجور
 عصاب ، ما تحرزها القصور

١ - الضرائب : جمع ضريبة وهي السجية .

م : يقول حين يبلى بالحروب والقتال الشديد الذي يدمى ويضرع به المحاربون . ، فإنه يُلْفَى أنبت الناس جناناً وأخلصهم سجية لا يجبن ولا يتكص .

٢ - م : يقول إنه يعدو إلى قتال الأعداء بنفسه ، ويهرع لملاقاتهم على قدميه ، إذا ألفت الخيل عاجزة عن الإسراع به إلى غايته .

٣ - م : يقول إن قريش تهرع إليه ، عندما ينزل بها خطب عظيم ، تستهدي برأيه وتجري وفق ما يراه .

٤ - الكبش : سيد سؤوم .

م : يقول إنه ينفق يومه في أمرين : قتال الأعداء الأشداء ومقاومتهم وإذلالهم ، وقري الصيف في يوم الضيق والمطر الذي يجبس الناس في بيوتهم ، وهم دون طعام .

٥ - م : يشير إلى الفتح التي قام بها ، إذ فتحت في ولايته الأندلس والهند ، كما غزا الروم غزوات عديدة - يقول ، ممثلاً ذلك ، إنه لا يزال يمتطي الخيل للقتال ويقبض على أزميتها ، يقاتل الأعاجم والروم دون ملل ، أو تضجر .

٦ - م : يقول إنك ما زلت تقاتل الروم وتقتلهم حتى فرأوا منك هارين ، ملتجئين إلى حصونهم التي لم تعد تحرزهم ، أي تحميهم من بطشك .

وما زال الأخطل يلجأ الى القسم حتى في هذه المدائح الأخيرة ، دون أن يلحف به ويتمادى فيه ، إذ تراه يَشْطُرُّ إلى امتداح الوليد بجزمه وحكمته وطيب محتنده ، جامعاً له ، كدأبه ، فضيلة الأصلين من أمه الولادة وأبيه القرشي . ولم نكد نشهد ، من قبل ، الحافاً في امتداح الخليفة بوالدته ، كما نشهد في مدحه للوليد . وشعره من بعد ، هو شعر الاسترضاء والتملُّق ، إذ لا طعم انسانياً لمثل تلك المعاني .

ثم أنه يعتمد إلى السبيل الفنيّة اليسيرة في الغلوّ والتعظيم ، متوسلاً الاطلاق في صيغته الصرفيّة المحضّة ، وهي صيغ لا شأن فنيّاً لها لأنها لا توضح الانفعال ولا تدعه يَغرور في ذاته ويستطلع غيبها ، بل إنّها تسفحه في نوع من التعميم الذي يوهم ولا يُفهم . فالممدوح هو « أكرمها » و « أسرعها » ، وهذا الإطلاق يوافق مقتضى الانفعال ، ولكنه الانفعال الحماسي الذي لم تلجمه المعاناة الانسانية عن الطفرة والجموح . الشعر ليس انسياقاً إثر الانفعال ، بل إنّه ترجمة وكشف له واستبطانٌ لضميره . ثم إنك تراه يَقمّش له المعاني تقيماً ويتسقطها تسقطاً ، دون لحمة أو سياق ، كما كان دأبه في مدحه لعبد الملك . فبعد أن يُشيد بصلابته وصدقه في مقارعة الخطوب وسرعته في طلب الاعداء ، تراه يتوسل الاطلاق من جديد بشكل آخر مابين لصيغ أفعال التفضيل . يقول :

لَهُ يَوْمَانِ : يَوْمٌ قَرَاعَ كَبْشٍ وَيَوْمٌ يُسْتَظَلُّ بِهِ مَطِيرٌ

فالشاعر يقصر أيام الممدوح على يومين ، يوم قتال ويوم عطاء ، والقصر ينطوي هنا على معنى التعميم ، والشعر لا يُعدّد ولا يُصنّف وان كان التعداد والتصنيف يؤدّيان له الغلوّ .

وفيما دون ذلك يكرر الثعوت « : لا سؤوم ... ولا ضجور » . وقد ألمّ من الثعوت بوزن « فَعُول » المنطوي بذاته على المبالغة كوزن أفعال التفضيل . هكذا يحشد الأخطل ما تطرحه اللّغة بين يديه من وسائل للغلوّ ، لا يدعُ احداها حتى يهرع إلى الأخرى ، معترضاً ، عبر ذلك ببعض الكنايات الواقعيّة : « بكفيته الأعتة » للتدليل على مباحثته للحرب بذاته . وأية حرب تلك ، إنّها الحرب

المقدّسة التي يقاتل فيها الروم حتى يفرّوا من دونه ، لا تحصّنهم حصون ولا تحرزهم
قصور . ويوفي إلى ذروة التعظيم بالقول :

فَلَوْ كَانَ الْحُرُوبُ حُرُوبَ عَادٍ لَقَامَ عَلَى مَوَاطِنِهَا صَبُورٌ
وَيُعَرِّجُ ، من ثمة ، على امتداح الأمويين ، مظهراً لإثاره لهم :

وقد عَلِمَتْ أُمَيْةٌ أَنَّ ضِغْنِي إِلَيْهَا ، وَالْعُدَاةُ لَهَا هَرِيرٌ ٢
وَأَنِّي مَا حَيَّبْتُ عَلَى هَوَاهَا وَأَنِّي بِالْمَغِيبِ لَهَا نَصُورٌ ٣
وَمَا يَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ ، إِلَّا بَنَاتُ الدَّهْرِ وَالْكَلِمُ الْعَقُورُ ٤
فَمَنْ يَكُ قَاطِعاً قَرْنًا ، فَإِنِّي لَفَضْلٍ بِنِي أَبِي الْعَاصِي شُكُورٌ ٥

١ - م : يمثل في هذا البيّت شدة احتماله للقتال ويقول إنّه لو شهد حروب عاد المهلكة
المبيدة لما انتكص وتولّى عنها ، بل إنّه يُقيم فيها ، حتى ينتهي منها إلى النصر .

٢ - ضِغْنِي : هنا ميّلي .

٣ - م : يشرع في هذا البيّت بمُخاطبة الأمويين ويقول إنّه لا يزال يلوذ بهم ويميل إليهم فيما
يهرم الأعداء ويتصايحون عليهم ، مُعلنين نِقمتهم وثورتهم ، أي أنّه يخلص لهم في
مواقع الضيق .

٤ - م : يقول إنّه سيُقيم على حب الأمويين وعلى نصرتهم في مشهد منهم وفي غيابهم .

٥ - بَنَاتُ الدَّهْرِ : صروفه وخطوبه . العقور : الذي يعض أو يجرح .

٦ - م : يقول إنّ الأيام تُزِيل كلَّ شيء ، ولا يُقيم من دونها إلا الخطوب ، قهبي لا تنقطع ولا
تكفّ ، ويبقى معها على الأيام العقور ، أي قصائد الهجاء التي تجرح المهجو وتسمه وتخلف
فيه ندوباً .

٧ - القَرْنُ : الحبل .

٨ - م : يقول إنّه إذ تخلّى عنه مُنصرّوه وقطعوا صلّتهم به في أيام ميّحته ، فقد هرع إليه
الأمويون ونصرّوه ، وهو لا يزال شاكرّاً لهم أفضالهم وأباديهم .

عَلَفْتُ بِحَبْلِكُمْ ، فَشَدَدْتُموهُ ١
 فَلَ وَاهٍ قُوهُ وَلَا قَصِيرُ ١
 إِمَامُ النَّارِ وَالْخُلَفَاءُ مِنْهُمْ ٢
 وَفِتْيَانُ تُسَدُّ بِهَا الثُّغُورُ ٢
 وَمُظْلِمَةٌ تَضِيقُ بِهَا ذِرَاعِي ٣
 وَيَتْرُكُنِي بِهَا الْحَدَبُ النَّصُورُ ٣
 كَفَوْنِيهَا ، وَلَمْ يَتَوَاكَلُوها ٤
 بِخَلْقِي ، لَا أَلْفٌ وَلَا عَثُورُ ٤
 وَلَوْلَا أَنْتُمْ كَرِهَتْ مَعَدُّ ٥
 عِضَاضِي ، حِينَ لَاحَ بِي الْقَتِيرُ ٥
 وَلَكِنِّي أَهَابُ ، وَأَرْتَجِيكُمْ ٦
 وَيَأْتِينِي عَنِ الْأَسَدِ الزَّيْبُرُ ٦

١ - م : يمثل صلته بهم بالحبل على ما أثر منذ القديم ، ويقول إنه إذا انتمى إليهم نموه ، وأخذوا بيده ولم يتخلوا عنه ، بعد مناصرتهم له .

٢ - الثُّغُور : أطراف البلاد التي يُخشى قدوم العدو منها .

م : يقول إنهم أصحاب الملك والخلافة والإمامة ، وانهم ما زالوا يقتحمون قتال الأعداء على ثغور البلاد .

٣ - ٤ - الْمُظْلِمَةُ : هنا المصيبة الداهية . الْحَدَبُ : المُشْفِقُ ، المُعِين . الْأَلْفُ : الضيق الخلق . الْعَثُور : الكثير السقوط .

م : يقول إنه إذ ألتت بي إحدى الدواهي وأعْيَيْتُ من دونها وتخلتني عني بها من كانوا يناصروني ويُسْتَفِقُونَ عَلَيَّ ، هَرَعْتُمْ إِلَيَّ وَأَنْقَذْتُمُونِي مِنْهَا وَلَمْ يَكُلِّهَا أَحَدُكُمْ إِلَى الْآخِرِ تَضَجَّرًا وَإِهْمَالًا . يشير هنا إلى ما كان من إنقاذهم له إذ تهدده الأُنصار . والأخطل لا يزال يشير إلى هذا الأمل ليستدرَّ عطفهم عليه ، ويظهر فضله في الدَّعْوَة لهم بالرغم من أنه قد توسَّل بالشكر في سبيل التذكير والتمنين وطلب الحماية وما إليها .

٥ - الْعِضَاضُ : الشدة في الدِّفَاع . الْقَتِيرُ : أول الشيب .

م : يقول إن سائر العرب كانوا تخلَّوا وتخلَّفوا عن مناصرته ، عندما نزلت به الخطوب التي بعثت الشيب في فؤديه ، لو لم يهرع إليه بنو أمية ويدافعوا عنه .

٦ - م : يقول إنه لا يزال يرتجئهم ويوقرهم ، فينجدونه على أعدائه ويزجرونهم عنه ويروِّعونهم ، كما يُفزع الأسد أعداءه بالزَّيْبُر .

والأخطل يعود، هنا، إلى ذكر دفاعه القديم عن بني أمية ، يوم كان اعداؤهم يهرونهم ، أي عندما كان الأنصار يهجونهم ويقذعون في سلبهم . وتكاد لا تخلو قصيدة له من هذا الأمر ، انه يتقرب إليهم ، يؤديه بأشكال متباينة ، مجرداً ، أو ذهنياً ، أو بالصورة : « والعداء لها هرير » . وهرير العداة يُعظّم من فضل الشاعر إذ أنه لم يخجل في الدفاع عنهم بالخطر المداهم . وهذه الصور المكنية لا تزال قوام فنية الأخطل ، يُبصر من خلالها المعاني ويجسدها ويمنحها يقين الواقع الفعلي بالاستعارة النافذة ، متخذاً مادتها من واقع بيئته . وإذا نظرت في مدى تواتر الكنايات والاستعارات ، من جهة ، والتشايه المباشرة ، تجد أن الأخطل سما بالشعر سموً نسبياً عن التشبيهيّة الجاهليّة وغلب الاستعارة المكنية في أطرها الواقعيّة . ولقد صفا بذلك أسلوبه عن النقل والمقابلة الغثّة . لكنّه لا يقيم على ذلك ولا ينبذ التقرير ، بل إنه ينهار إليه عندما يعرض أفكاراً يعيها :

وإنني ما حييتُ على هواها وإنني بالمغيب لها نصورُ

فهذا شعر تقتصر فضيلته على معناه . وحسب ، وهو أدنى فنياً من قوله : « والعداء لها هرير » إذ باشر الأداء فيه مباشرةً . ولا بدع ، فان الأخطل ينظم في الدفاع عن وجهة نظر وفي اداء البيّنات ، وهي ، جميعاً ، ساقطة في مصهر الشعر ومحكّه الأخير . وربما وقف موقف الحكيم ، يخلّص من الأحداث إلى مبادئها ، مسخّراً الحكمة لغرضه ، ومؤولاً الحقيقة العامة بما يفيدُ منه في الحقيقة الخاصة :

وَلَا يَبْقَى عَلَى الْأَيَّامِ إِلَّا بَنَاتُ الدَّهْرِ وَالْكَلِمُ الْعَقُورُ

فلا خلود إلا للخطوب ، وتلك نظرة تشاؤميّة ، وان كانت صائبة ، ظاهراً ، قرنّها الشاعر بالكلم العقور ، أي بالأهاجي ، ليعظّم من شأنه فيما هجا به أعداء الممدوح . ومع أن الشاعر سخّر الحقيقة لأربه ، فإنه ألمّ من خلالها بلحظة شعريّة سما بها عن الأحداث واستطلع ضميرها وصيرورتها الدائمة ، فتنظن إلى أن الدهر غادر ، يفعج ابناءه بآمالهم ويُرزئهم ، ولا يكف عن ذلك قط . وعبر

ذلك كُلُّهُ يَعمَدُ إلى النَعوتِ في صيغِها الشديدة الغلوِّ أو صيغِها الأليفة الشائعة :
« نَصور - عَقُورُ - شَكُورُ - واه - قَصِيرُ » ، وإلى الصُّورِ شبه المكرَّرة :
« قاطِعٌ قَرَنًا - عَلَقْتُ بِجَبَلِكُمْ » . ولا يعدو ما تبقى من القصيدة هذا التَّصنيفُ :
« النَّصُور - لا أَلْفُ ولا عثورُ » . وفي الأبيات الأخيرة تَطغى الصَّيغُ النَّتْرِيَّةُ
كحرف الامتناع للوجود : « ولولا أنم » و « لكنِّي » . والتعابير الصُّوريَّة التي
تعوِّض عنها ، كما في قوله :

وَأَنْتُمْ حِينَ حَارَبَ كُلٌّ أَفْقِي وَحِينَ عَلَّتْ بِمَا فِيهَا الْقُدُورُ ١
غَشِمْتُمْ بِالسِّيَوفِ الصَّيِّدَ ، حَتَّى خَبَا مِنْهَا الْقَبَائِبُ وَالْهَدْيِيرُ ٢
إِذَا مَا حَيَّةٌ مِنْكُمْ تَوَارَى تَنَمَّرَ حَيَّةٌ مِنْكُمْ ذَكِيرُ ٣
وَأُعْطِيتُمْ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَصْرًا فَأَبْصَرْتُمْ بِهِ وَالنَّاسُ عُورُ ٤
وَكَانَتْ ظُلْمَةٌ فَكَشَفْتُمُوهَا وَكَانَ لَهَا بِأَيْدِيكُمْ سُفُورُ ٥
فَلَوْ أَنَّ الشُّهُورَ بِكَيْنَ يَوْمًا إِذَا لَبَكَّتْ لِفَقْدِهِمُ الشُّهُورُ ٦

١ - ٢ - الصَّيِّدُ : التَّكَبَّرُ . والتَّعَاطُمُ . الْقَبَائِبُ : جمع قَبِيقَةٍ وهنا قرع الأضراس .
م : يشير إلى موقعة صفين ويقول إنهم إذ تَأَلَّبَ المُسْلِمُونَ وانقسموا إلى مِوَالٍ ومُعَارِضٍ ،
ولم يبقَ فيهم أحدٌ لم يَنْهَدِ إلى القتال ، فقد قَوَّموا صَعَرَ أَعْدَائِهِمْ بسِوْفِهِمْ وَأَذَلُّوهُمْ
فَتَخَلَّوْا عَنْ تَهْدِيدِهِمْ وَغَضَبِهِمْ وقرع أضراسهم من العَيْظِ .

٣ - الحَيَّةُ : هنا إشارة إلى القدرة والبطش والفتك . الذَّكِيرُ : الصُّلْبُ الشَّدِيدُ .

م : يقول إنَّه إِذَا ماتَ مِنْهُمُ امرؤٌ مَهِيْبٌ ، بَطَّاشٌ بِالْأَعْدَاءِ ، يقوم من دونه امرؤٌ آخَرُ .

٤ - م : يقول إنَّ اللهَ أَمَدَّكُمْ بِالنَّصْرِ لَتُبْصِرُوا به سبيلَ الهداية ، فيما ظلَّ سائرُ النَّاسِ يَعْتمَهُونَ
في ضلالِهِمْ كالعورِ ، غيرَ المُكْتَمِلِي البَصْرِ .

٥ - سُفُورُ : انْفِشَاعُ .

م : يقول : لقد اعْتَرَّتْني ظُلْمَةٌ الخُطُوبِ ، فَبَدَّدْتُموها وَجَلَّوْتُموها عَنِّي

بِمَنَاصِرِكُمْ لي .

٦ - م : يقول إنَّ شُهْرَ السَّنَةِ تَوَثَّرَهم على سِوَاهِمُ ، ولو قُدِّرَ لها البكاءُ ، لَبَكَّتْ على
فراقِهِمْ من شَغَفِها بِهِمْ .

وَنِعْمَ الْحَيُّ فِي اللَّزْبَاتِ عَبَسُ ۱
 إِذَا مَا الطَّلَحُ أَرْجَفَهُ الدَّبَّورُ ۱
 مَسَامِيحُ الشَّاءِ إِذَا اجْرَهَدَتْ ۲
 وَعَزَّتْ عِنْدَ مَقْسَمِهَا الْجَزُورُ ۲
 بَنُو عَبَسٍ فَوَارِسُ كُلِّ يَوْمٍ ۳
 يَكَادُ الِهْمُ خَشِيَتَهُ يَطِيرُ ۳
 وَفَاةٌ تَنْزِلُ الْأَصْيَافُ مِنْهُمْ ۴
 مَنَازِلَ مَا يُحِلُّ بِهَا الضَّرِيرُ ۴
 وَهُمْ عَطَفُوا عَلَى النُّعْمَانِ لَمَّا ۵
 أَتَاهُ بِتَاجِ ذِي مُلْكِ بِشِيرُ ۵
 فَجَاوَزُوهُ بِنُعْمَانِهِ عَلَيْهِمْ ۶
 غَدَاةٌ لَهُ الْخَوْرَنْتُقُ وَالسَّدِيرُ ۶

۱ - اللَّزْبَاتُ : السُّنُونُ الشَّدَادُ . الطَّلَحُ : ضَرْبٌ مِنَ النَّبَاتِ . أَرْجَفَهُ : هَنَاحَرَّكَهُ . الدَّبَّورُ :
 الرِّيحُ البَارِدَةُ .

م : يَمْتَدِحُ عَبَسًا وَيَقُولُ إِنَّهُمْ أَفْضَلُ النَّاسِ فِي إِبْوَاءِ الْمُعْوِزِ ، عِنْدَمَا تَهْبُ الرِّيحُ الدَّبَّورُ البَارِدَةُ .

۲ - اجْرَهَدَتْ السَّنَةَ : صَعَبَتْ وَاشْتَدَّتْ . الْجَزُورُ : الإِبِلُ الَّتِي تُجْزَرُ .

م : يَقُولُ إِنَّهُمْ يُضَاعِفُونَ مِنْ سَمَاتِهِمْ وَعَطَائِهِمْ فِي أَيَّامِ الشَّاءِ . عِنْدَمَا يَتَعَدَّرُ كَسْبُ الرِّزْقِ
 وَتَعَزُّ لِحُومِ الذَّبَابِ وَيَتَنَازَعُ النَّاسُ : إِذْ تُقَسَّمُ فِيمَا بَيْنَهُمْ .

۳ - م : يَمْتَدِحُ بَنِي عَبَسٍ ، وَيَقُولُ إِنَّهُمْ أَبْطَالُ المَعَارِكِ المَرْوَعَةِ الَّتِي تُفْتَقِدُ مِنْ تَحْلِئِهِمْ صَوَابِهِمْ
 وَتَطِيرُ جَمِيعُ هُمُومِهِمْ ، وَلَا تَخْلَفُ فِيهِمْ إِلَّا الخَوَافُ مِنَ المَهْلَاكِ المُحْدَقِ . وَلَقَدْ
 امْتَدَحَ العَبْسِيِّينَ لِأَنَّ أُمَّ الوَلِيدِ كَانَتْ مِنْهُمْ كَمَا قَدْ مَنَّا .

۴ - الضَّرِيرُ : هُنَا شِدَّةُ الأَذَى .

م : يَمْتَدِحُهُمْ بِإِكْرَامِهِمْ لِلضُّيُوفِ وَإِنْزَالِهِمْ فِي مَنَازِلِ الرِّفْقِ وَالبِشَاشَةِ ، حَيْثُ لَا يَنَالُهُمْ مَكْرُوهٌ
 وَلَا يَصِيبُهُمْ أذى .

۵ - ۶ - الخَوْرَنْتُقُ وَالسَّدِيرُ : قَصْرَانِ بِالحَيْرَةِ .

م : يَشِيرُ فِي هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ إِلَى أَنَّ عَمْرُو بْنَ هِنْدٍ أَخْلَى سَبِيلَ أَحَدِ العَبْسِيِّينَ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ عَزَمُوا
 عَلَى قَتْلِ المَلِكِ ، فَشَكَرَهُ العَبْسِيُّونَ وَعَاوَنُوهُ عَلَى كَسْرِى لِاسْتِرْدَادِ مَلِكِهِ .

كلا أبويك من كعب وعيسٍ بحورٌ ما توازنها بحورٌ ١
 فمن يك في أوائله مختصا فإنك يا وليد بهم فخورٌ ٢
 وتأوي لابن زنباع إذا ما تراخي الريف كاس له عقيرو ٣

فالصّور لا تغلي ، ولكنّ الشاعر استبطن فيها الدلالة على قدر يغلي فيها ماء الحقد ويتدافع ولا يستكين . وهذه الصورة تكثف المعنى ، فيما هي توجزه ، وتلمح إليه . ومثل ذلك قوله : « إذا ما حية منكم توارى » « وكانت ظلمة فكشفتموها » دون أن يُوفي من ذلك الى الغلوّ الإيحائي الشّخص ، قبلاً . هكذا يحشد الأخطل للممدوح المشاهد والصور والمعاني والنعوت ، يمتدحه بنفسه ، بقتاله للأعداء ، وببني قومه ليستوفي غرض المدح ، وقد استطال في هذه القصيدة ، حتى كأنه أوجز به المعاني الخاصة والعامة التي يكررها في مدح الأمويين . ولا يعيف حتى عن الافتراض ليفيد الغلوّ :

ولو أنّ الشهور بكنين ، يوماً إذا لبكت لفقدكم الشهور

وهذا ما قد تدعوه بالغلوّ الافتراضي حيث يؤدي الشاعر المعنى بالوهم مخمّناً أمراً مستحيلاً يقع في النفس موقع الدهشة والتروّع . فليس للشهور قبل بالبكاء ، بل إنها لا تحفل به ، ولكن الشاعر اعترافاً بحالة نفسية واضحة

١ - م : يقول إنّه تحدّر من أصل شريف في طرفيه وإن أجداده كانوا أشبه ببحورٍ للكرم والمجد .

٢ - أحتت الرجل : استحيا وسكت عند أصله .

م : يقول إذا ما خجل الناس ، عندما يتداولون شرف الأصل ، فإن الوليد يفخر بأصله ويتعاضم به .

٣ - ابن زنباع : هو مروان بن زنباع صاحب القصة التي أشرنا إليها فيما تقدم .

م : يقول إنك إذا ما أجدبت الربوع تؤويه وتنحدر له النوق .

غامضة ، إذ جعلَ لها وعياً تقدّر به ما يجري فيها من انتصارات وافراح وأزدهار ، تُشغف به وتؤثره غاية الايثار ، حتى أنها تنوح وتبكي عندما تفارقه . فالأيام هي هنا كناية عن الناس ، ولكن نسبة الايثار لها هي أدلّ على المعنى وأشدُّ غلوّاً به لما تنطوي عليه من الغرابة والافتراض . ولقد اشتقّ الشاعر معناه اشتقاقاً ، ولكن القصديّة والتعمّد غالباً عليه .

وبعد ان يستوفي غرضه من مدح الخليفة يُعرّج على مدح أحواله بالكنايات والايماآت المأثورة للتدليل على شدة شغفهم بالضيف وهرعهم لمن أصيب بالضيف والاملاق ، وهي معانٍ تتكرّر في فنون المدح والفخر والرثاء ، بتأثير البيئة وواقعها الاقتصادي والاجتماعي . فهو ، مثلاً ، لا يُسمّي الضيق باسمه ، بل يتكّنّى على ذلك بالحادثة إذ يقول : « إذا ما الطلح أرحفه الدّبور » والدّبور ليس هواء ولا نسيماً ، بل هي الريح الشتائية العاتية ، تعصف وتقصف وتُخلّف القحط والصقيع ، إنها ريح الاملاق ، يعزّ معها الرّزق لأنها تردّ في موسم الضيق فتضاعف من ضيقه . وإذ يعزّ الطعام ترى العبسين ينحرون النياق السمينة لاطعام الجياع والمعوّزين ، وهذا المعنى وما إليه يتردد عند الأخطل وسواه حتى يكاد أن يفقد طعمه ومعناه .

وفيما دون ذلك تراه يعدّد مآثرهم في القتال ، ذاكراً أيامهم ونجدتهم للنعمان في استعادة ملكه ، متخذاً من التاريخ الواقع فعلاً بينةً على بطولتهم . وينهي القصيدة بتمجيد الوليد في أصله ، موفياً إلى أقصى غايته من مدحه . وقد تعفّت في هذه القصيدة ثاراته ، فلا تراه هاجياً خصماً ، أو مجادلاً عدوّاً ، أو متفاخراً بفخر فكأن أوار نفسه قد ركذ وحمّدت جدوتّه .

وتدنو إلى هذه الرائيّة قصيدة مميّة نظمها في مدح الوليد واستهلّها بذكر الديار وآثارها والقدر والنّوي المائلة فيها ، متذكراً النساء المنعمات اللواتي كنّ يقيمن فيها ، واصفاً مشيتهنّ واصطلاءهنّ البخور ، ويميل إلى المدح ، دون استطراد إلى ذكر الناقّة والهاجرة وما إليهما كدأبه في معظم مدائحهم ، ويقسم بالكعبنة ، مؤكداً حماية الوليد وإنقاذه له من الهلاك ، ثم ينوّه بعوده للعطاء دون

تبتج وخيلاء وبإغداقه عليه إغداقاً تطبع فيه بطباع بني قومه الذين يُسجدون
الناس في الجذب ، ثم يخاطب بني أمية ، ذاكراً أفضالهم في الدفاع عنه ويمحضهم
ودّه ويؤكد لهم وفاءه وإخلاصه .

فهو يقول ، إثر المقدمة التقابدية :

لَقَدْ حَلَفْتُ بِمَا أَسْرَى الْحَجِيجُ لَهُ وَالنَّاذِرِينَ دِمَاءَ الْبُدْنِ فِي الْحَرَمِ ١
لَوْلَا الْوَلِيدُ ، وَأَسْبَابُ تَنَاوَلَنِي بِهِنَّ ، يَوْمَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ بِالثَّلَمِ ٢
إِذَا لَكُنْتُ كَمَنْ أَوْدَى ، وَوَدَّاهُ أَهْلُ الْقَرَابَةِ بَيْنَ اللَّحْدِ وَالرَّجَمِ ٣
أَهْلِي فِدَاوُكَ ، يَوْمَ الْمُحْرَمُونَ بِهَا مُقَاسِمُ الْمَالِ أَوْ مُغْضٍ عَلَى أَلَمِ ٤
يَوْمَ الْمُقَامَاتِ ، وَالْأَمْوَالُ مُخْضَرَةٌ حَوْلَ امْرِئٍ ، غَيْرِ ضَجَّاجٍ ، وَلَا بَرَمٍ ٥

- ١ - الْبُدْنُ : جمع بَدْنَاءٍ وهي النَّاقَةُ السَّمِينَةُ . أسرى : مشى لَيْلًا .
م : يشرع في هذا الْبَيْتِ بالقسم الذي يلمّ به ، غالباً ، قُبيل مباشرة المدح للتأكيد والغلو
ويقول أقسم بالكعبة التي يرتحل إليها الْحَجَّاجُ وبالنَّاذِرِينَ الْأَصْحَابِي .
- ٢ - الثَّلَمُ : اسم موضع .
م : يقول بعد أن أقسم إنّه لولا حماية الوليد له وإدناؤه إليه ، فيما اجتمع الناس بالثَّلَمِ .
- ٣ - أَوْدَى : هلك . وَدَّاهُ : طمره وسوّى التراب عليه . الرَّجَمُ : هنا الحجارة .
م : يستكمل في هذا الْبَيْتِ معنى الْبَيْتَيْنِ السَّابِقَيْنِ ويقول إنّه لولا حماية الوليد له في ذلك
الموضع ، لهلك وغدا كمن أُلْحِدَ وأهيل عليه التراب وركت الحجارة .
- ٤ - م : يفدّي الوليد بأهله تودُّداً له وإظهاراً لكرمه عندما يجتمع الْمُحْرَمُونَ في مكّة فيقسم
بعضهم الماء مع الفقراء ، فيما يكسر البعض الآخر طرفهم ألماً لفرار حالمهم وإملاقهم .
- ٥ - المقامات : جمع مقامة : المجلس والجماعة من الناس . الضَّجَّاجُ : الذي يكثر الصياح ،
وهنا الذي يتباهى بأعطياته . البرَمُ : المتضجّر ، وهنا الذي يضيق بالعطاء .
م : يشير هنا إلى قيام الوليد في مكّة موزعاً ماله دون صخب ومباهاة أو تضجّر وضيق بمن
يعتفونه .

إِنَّ ابْنَ مِرْوَانَ أَسْقَانِي عَلَى ظَمِيٍّ بِسَجَلٍ ، لَا عَاتِمٍ رَيْثًا وَلَا خَدِيمٍ ١

والقسم الذي استهلَّ به والجُّ في سنَّةِ شعره المدَّحِيٍّ ومثل ذلك التقديمة وقد اتَّخذها فيما اتَّخذ من النَّابغة ، ويجري ذلك المجرى اعترافه بالفضل ، حيث انقذه من الهلاك ، حتى يُعَرِّجَ على مدحه بالكرم ، مستبطنًا تأويلًا جديدًا له بالقول :

مَا يُحْرَمُ السَّائِلُ الدُّنْيَا ، إِذَا عَرَّضَتْ وَمَا تَعَوَّذَ مِنْهُ الْمَالُ بِالْقَسَمِ ٢

وهذا التأويل يدنو من افتراضه لبكاء الشُّهور في الغلوِّ والغرابة . وهو ينمي الى المال معاناةً ، سيسرف فيها أصحاب البديع فيما بعد ، فكأن المال يكره المكوث الطويل في خزائن صاحبه ويُقسم إنه إذا اطلق سراحه ألا يقع بين يديه مرةً ثانيةً . فالوليد يَبْدُلُ المال ولا يحترس به . وتراه يكرِّرُ في ذلك الكنايات والأحداث المتداولة ، المنهوكة ، فيقول :

مِنْ آلِ عَفَّانَ ، فَيَأْضِ الْعَطَاءُ ، إِذَا أَمْسَى السَّحَابُ خَفِيفَ الْقَطْرِ كَالصَّرَمِ ٣

١- السجل : الدلو الكبيرة التي تحتوي ماء . العاتم : المبطيء بالعشاء . الريث : الإبطاء في كل شيء . الخدم : القطع : أي أن زاده لا ينقطع .

٢- م : يشير في هذا البيت إلى كرمه ويقول إنه لا يحرم من سأله مالاً أو متاعاً بل إنه لا يزال يؤدِّيه ويغدقه : ثم يردف بأن المال لا يتعوذ ولا يُقسم بالألأ يعود إلى راحته أو خزائنه لطول ما يقبضه أو يخترنه فيهما بل إنه ينفقها لتوه .

٣- الصَّرَم : قطع السحاب التي لا ماء فيها . من آل عفان : أي من بني أمية لأن عفان هو ابن العاصي بن ربيعة .

م : ينسبه إلى قومه ويقول إنه لا يزال يفيض على الناس عطاء . فيما يتقتر الآخرون ويحترصون .

تسوقه ، مَحْمَلُ الصُّرَّادِ مُجْدِبَةٌ حَتَّى تَسَاقَطَ بَيْنَ الضَّالِّ وَالسَّلْمِ ١
فَهُمْ هُنَالِكَ خَيْرُ النَّاسِ كُلَّهُمْ عِنْدَ الْبَلَاءِ ، واحماهم على الكرم
والمطعمون إذا ما أزمَةُ أزمَتِ والمقدمون على الغارات بالجذمِ ٢

ولا مجال للإضافة بتحليل هذه الأبيات ، إذ سَلَفَ ما يماثلها ، إلا أنه أطال
وأفاض فيها ، فكأنه غدا في مقام الضراعة والاستعطاء ، يُعْظَمُ من كرم المدوح ،
لئلا أعطيته ، بعد أن هدأت عاصفة السياسة ، ولم يعد له عليه تلك الدآلة التي
كان يُدَلُّ بها على عبد الملك .

خلاصة في مدحه للوليد بن عبد الملك :

١- يجري فيه ، غالباً ، على سَنَةِ المدح المأثورة من استهلال بوصف الظلل
واستطراد إلى المطيبة وهلاكها ، فضلاً عن المطر وما إلى ذلك من موضوعات
والجثة في كلاسيكية المدح .

٢- يستهلُّ مدحه له ، غالباً ، بالقسم ، دون أن يتمادى ويُلحَف فيه وهو
لا يعدو البيت أو البيتين ، لكنّه قلّما تخلو منه قصيدة من قصائده . وقد
يشفع القسم بالتفدية ، على غرار التابعة والأعشى .

٣- يخلص من القسم الى ذكر الأمان الذي مَنَّ به عليه الأمويون ، يُلحَف

١ - الصُّرَّادُ : القليل الذي لا ماء فيه . المُجْدِبَةُ : هنا السنة المجدبة . الضَّالِّ والسَّلْمِ : شجر .
م : يستكمل وصف السحاب ويقول إن الريح تسوقه وتزجيه ، تحمل منه ما قل ماؤه وجفَّ
في السنة المجدبة وتجعله يندر حتى يقع بين أشجار الضَّالِّ والسَّلْمِ .
٢ - م : يقول إن الأمويين يكونون عند حلول الجذب والقحط أفضل الناس وأكثر حمية
للمطاء .

بوصفه والتفصيل فيه وتعظيم أمره . وهذا الأسلوب هو سبيل للتقرب
بإظهار عظم ما تكبّد في سبيل الأمويين .

٤ - يمدحه بالمعاني المدحية الكلاسيكية ، منوهاً ، خاصة ، بكرمه ، ويؤثره
على فيضان النيل في صورة خرقاء متمادية .

٥ - يخصّه بمدح لا يصحّ إلا فيه إذ يُشيد بقتاله للروم ، من خلال خياله
التمرّسة بالحروب ، الضامرة والتي تتقلقل عليها الأحزمة لهما في الكفاح
الشديد .

٦ - تكاد لا تخلو قصيدة من امتداح بني قومه والاشادة بآثارهم ، وقد تعادل
الآيات التي يخصّهم بها الآيات التي خصّها للمدح المباشر .

٧ - وهناك فضيلة كرّر ذكرها في مدحه ، من دون سواه ، إذ تراه ينوّه
بفضل أخواله بني عيس وبكرمهم وبسالتهم وخاصة في قتالهم إلى جانب
النعمان .

٨ - وعبر ذلك كَلّه يفقد الأخطل عنجهيته القديمة ، ويبدو وكأنّه يتوسّل
ويتشفّع ، طانِباً لقومه السلام ورفع الضرائب . وقد خفتت نبرة الفخر
والعتاب والهجاء في مدائحه ، فلا يتصدّى لمقارعة خصومه وتعداد أيام
بني قومه ، بل ينفق معظم جهده في القصيدة على ابتداع المعاني المدحية ،
وفقاً لسنّتها الشائعة .

وللأخطل مدائح أخرى في بعض الأمراء والولاة والكتّاب كالعباس بن
عبد الله بن العباس وابني عبد العزيز وسعيد بن العاص وآخرين . ولا جدوى
من الإطالة بذكرها أو تحليلها إذ تكاد لا تختصُّ بخاصة تؤثر على ما دونها، وسوف
نتعرّض لبعض معانيها من خلال بحثنا في المعاني المدحية العامة لشعر الأخطل .

الباب الثامن الخصائص الفنية العامة لمذائح الأخطل

أ - معانيه العامة :

يستهل الأخطل قصائده المدحية بذكر الطلل والحبيبة والمطية والمفازة وبعض مظاهر الطبيعة وعناصرها ، كما قدّمنا ، وكما سنرى في دراستنا لموضوعات الوصف في شعره . ونلفيه ، كذلك ، مُعترضاً بالفخر والأهاجي والبيّنات والجلد وبخاصة فيما امتدح به عبد الملك وأخاه بشراً وخالد بن أسيد . وفيما عدا ذلك تقع على المعاني العامة المأثورة كالانتصار الدائم على الأعداء والتنكيل بهم في أيام معروفة ، يُسمّي اسماءها كقوله في مدح ابني معاوية ١ :

ويوم شرطة قيس إذ منيت لهم حنّت مثاقيل من ايقاعكم نكد
ظلّوا وظلّ سحاب الموت يمطرهم حتّى توجه منهم عارض برّد
والأشرفية أشباه البروق ، لها في كلّ جُمجمة أو بيضة خدد
أو قوله في مدح عبد الملك ٢ :

مفترش كافتراش الليث كلّكّله لوقعة كائن فيها له جزر
مُقَدِّمًا مائتي ألفٍ لمنزله ما أن رأى مثلهم جن ولا بشر

١ - الشرح : ص ١٢١ : (٣٩ - ٤٦) .

٢ - م . ن . : ٢٩ - ٣١ وتجد معاني مماثلة فيما يلي : ١٨٥ : ٢٠ - ٢١ ؛ ١٨٩ : ٤١ - ٤٥ ؛
١٩٥ : ١١ - ١٤ ؛ ١٩٧ : ٢١ - ٢٦ ؛ ٢٩٤ : ٢٨ - ٣٣ ؛

يغشي القناطر بينها ويهدمها مُسَوِّمٌ فَوْقَهُ الرِّايَاتِ والقتر
وقد يُشَبِّهه بالأولياء^١ :

جزاء يُوَسِّفُ إحساناً ومغفرةً أو مثلَ ما جُزِيَ هارونُ وداوود
أو مثل ما نال نُوحٌ في سفينته إذ استجابَ لَنُوحٍ ، وَهُوَ مَنجودٌ

ويَصحبُ ذلكَ أو يعقبه الإشارة بتقواه وصفته الدينية وإيثار الله له :

« تَمَّتْ جُدودُهُمْ ، وَاللَّهُ فَضَّلَهُمْ^٢ وَجَدُّ قَوْمٍ سِوَاهُمْ خَامِلٌ نَكِيدٌ
هم الَّذِينَ أَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُمْ لَمَّا تَلَقَّتْ نِوَاصِي الخَيْلِ ، فَاجْتَلَدُوا
والمسلمونَ بِخَيْرٍ ما بَقِيَتْ لَهُمْ وَلَيْسَ بِعَدِكَ خَيْرٌ حِينَ تُفْتَقَدُ^٢
أَظْفَرَهُ اللَّهُ ، فليهنأُ له الظَّفَرُ^٣ خليفةَ اللَّهِ ، يَسْتَسْقِي بِهِ المِطْرَ
أَعْطَاهُمُ اللَّهُ جِدًّا يُنصِرُونَ بِهِ^٥ وقد جعلَ اللَّهُ الخِلافةَ فيكُمْ^٦
ولكنَ رآه اللَّهُ مَوْضِعَ حَقِّهَا^٧ خليفةَ اللَّهِ ، يَسْتَسْقِي لِسَنَّتِهِ الغَيْثُ^٨

وتكراره للصِّفةِ الدينيةِ نِمٌّ عن تكيِّفه بالنسبة إلى مقتضى الحال وواقع السياسة
في مدحه ، إذ كانَ الأمويُّونَ يحرصونَ على تثبيتِ دعوتهم الإلهية . وَيُعَظِّمُ
الأخطلَ ممدوحه من خلال أصله :

نعم الخؤولةُ من كَلْبٍ خؤولته ونعم ما وَلَدَ الأَقوامَ إذ وَلَدُوا^٩

١- ١١٩ : ٢٩ - ٣٠ ؛ ٢- ١٢٤ : ٥٤ ؛ ٣- ١٦٧ : ١٨ ؛

٤- ١٧١ : ٣٩ ؛ ٥- ١٨٤ : ١٦ ؛ ٦- ٢٠٩ : ٤٦ ؛

٧- ٢٠٩ : ٢٧ ؛ ٨- ٢٦٨ : ٤٥ ؛ ٩- ١١٩ : ٢٤ ؛

١ في نبعة من قريش يَعْصِبُونَ بِهَا مَا أَنْ يُوَازِي بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ
 ٢ أبوك أبو العاصي ، عَلَيْهِ تَعَطَّفَتْ قُرَيْشٌ لَكُمْ : عَرَيْنُهَا وَصَمِيمُهَا
 ٣ نماك هشام للفعال وَنَوَفَلُ وَآل أَبِي الْعَاصِي لَخَيْرِ أُنَامِ
 ٤ وَنَعَمَ الْحَيُّ فِي اللَّزْبَاتِ عَبَسُ إِذَا مَا الطَّلْحُ أَرَجَفَهُ الدَّبَّورُ

ويعظمه ، كذلك ، من خلال خيله في القتال :

٥ وَالخَيْلُ يُتَعَبُّهَا عَلَى عِلَاتِهَا اللَّهُ مُنْتَصِبُ الْفُوَادِ شَكُورُ
 ٦ إِمَامٌ يَقُودُ الخَيْلَ ، حَتَّى كَانَهَا صَدُورُ الْقَنَا : مَوْجِهَا وَقَوْمِهَا
 ٧ وَالخَيْلُ عَابِسَةٌ ، كَأَنَّ فَرُوجَهَا وَنَحُورَهَا يَنْضَخْنَ بِالْجِرْيَالِ
 ٨ وَالخَيْلُ تَشْتَدُّ مَعْقُوداً قِوَادِمِهَا تَعْدُو وَتَمْتَحِضُ الْأَكْفَالُ وَالسُّرُرُ
 ٩ تُرْبِعُ إِلَى صَوْتِ الْمُنَادِي خِيُولُهُمْ إِذَا ضُيِّعَتْ عُونَ النَّسَاءِ وَحَوْلُهَا

وَيَنُوهُ الْأَخْطَلُ أَنَّ الْمَدْحُ لَا يَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ طَمَعٍ أَوْ غَنَائِمٍ أَوْ تَحْقِيقاً لَشَهْوَةِ
 الْقَتْلِ وَالْإِسْتِبْدَادِ بَلْ دَفَاعاً عَنِ الْحَقِّ . فَقُوَّتَهُ لَيْسَتْ قُوَّةَ عَمِيَاءَ ، بَطَاشَةَ ، بَلْ
 قُوَّةَ عَاقِلَةٍ ، تَتَوَسَّلُ الْحَرْبَ لِدَفْعِ الضَّمِيمِ وَدَحْضِ الْبَاطِلِ . فَنَفِي مَدْحِهِ لِعَبْدِ اللَّهِ
 وَيَزِيدُ ابْنِي مَعَاوِيَةَ يُصْرِّحُ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْمَعْنَى وَيُفَصِّلُ فِيهِ ، إِذْ يَقُولُ :

١ - ١٧٠ : ٣٥ - ٤١ ؛ ٢ - ١٣١ : ٢٢ ؛ ٣ - ٢٧٦ : ١٠ ؛

٤ - ٣٠٦ : ٣٨ ؛ وَتَقَعُ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي الصَّفَحَاتِ التَّالِيَةِ :

٢٦٩ : ٤٧ - ٥١ ؛ ٢٩٣ : ٢٣ - ٢٤ ؛ ٢٩٦ : ٤٧ ؛

٢٩٣ : ٢٣ - ٢٤ ؛ ٣١٥ : ٧ - ٨ ؛ ٣٢٢ : ٣٢ - ٣٧ ؛

٣٥٣ : ١ - ٣ ؛ ١٩٦ - ٥ : ١٥ - ٢٠ ؛ ٢٣٠ - ٦ : ٢٠ - ٢١ ؛

٧ - ٢٥١ : ٤٠ ؛ ٨ - ٣٣٩ : ٩ ؛ ٩ - ٣٥٩ : ٢٤ ؛

على الألى قتلوا عثمان مظلماً ۱ لَمْ يَنْهَمُمْ نَشَدُ عَنْهُمْ وَقَدْ نَشِدُوا ۱
 فَشَمَّ قَرَّتْ عِيُونَ الثَّائِرِينَ بِهِ ۲ وَأَدْرَكُوا كُلَّ تَبْلِ عِنْدَهُ قَسْوَدٌ ۲
 فَلَمْ تَزَلْ قَيْلُ خَضْرَاءَ تَحْطِمُهُمْ ۳ تَنَعَى ابْنُ عَفَّانَ ، حَتَّى أَفْرَخَ الصَّيْدُ ۳

فهم قد رفعوا الظلم الذي لحق بعثمان ، إذ غُدِرَ به ، حتى قَرَّتْ نفوس المطالبين بئاره . وبين من ذلك كَلَّه ان الأخطل يقول قول المدوح وَيَنْطُقُ بلسانه ، مُسَخَّرًا لذلك المبادئ العامة لتحقيق المآرب الخاصة ، بل إنه ليُكْرِس ذلك في شعره ، ليبرر أقواله وأفعاله ، يقرنه بالشماتة وبعض الهجاء والتنديد .

يقول ، كذلك ، في مدحه لعبد الملك :

حُشِدٌ عَلَى الْحَقِّ ، عَيَّافُو الْخَنِيِّ ، أَنْفٌ ۴ إِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا ۴

وينزع من ذلك الى الاشادة بتعقل المدوح وكبر حلمه :

لَا يُسْمَعُ الْجَهْلُ يَجْرِي فِي نَدْيِهِمْ ۵ وَلَا أُمِيَّةٌ مِنْ أَخْلَاقِهَا الْفَنَدُ ۵
 وَالْهَمُّ ، بَعْدَ نَجْيِ النَّفْسِ يَبْعَثُهُ ۶ بِالْحَزْمِ ، وَالْأَصْمَعَانَ الْقَلْبُ وَالْحَدْرُ ۶
 شَمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ ۷ وَأَعْظَمَ النَّاسَ أَحْلَامًا ، إِذَا قَدِرُوا ۷
 مَا إِنْ كَأَحْلَامِهِمْ حَلْمٌ ، إِذَا قَدِرُوا ۸ وَلَا لَبَسَطَتِهِمْ بَسَطٌ ، لَدَى الْغَضَبِ ۸
 لَمْ يُلْهِهِ عَن سَوَامِ الْخَيْرِ قَدْ عَلِمُوا ۹ أَمْرُ الضَّعِيفِ وَلَا مِنْ حِلْمِهِ الْبَطْرُ ۹

١-٣ : يقول إنهم ثاروا ليأخذوا بئار عثمان حتى انتصروا وطابت نفوس الموتورين بقتله .

فهم لم يهدأوا وظلت كتابتهم تقاتل حتى أدركوا كل تبلي أي كل ثار .

م-س : ١٢٢ : ٤٢-٤٥ . ٤-٤١ : ١٧١ : ٣٧ : ٥-١١٩ : ٢٨ :

٦-١٦٧ : ٢١ - ٧-١٧١ : ٤١ : ٨-١٩٩ : ٦ :

٥ : ٣٣٨-٩

والأخطل يتعرّض للممدوح من الناحية الداخلية في هذه المعاني ، فيكتسبُ شعره بعداً انسانياً من اتصاله بالحقيقة العاقلة ، دون غلواء أو تبجحٍ أو نزق . فالقوم الذين يسودُ الأدبُ أنديتهم ويغلب الحلم والعقل تسمو انسانيّتهم ، إذ لا يدعون الطيش والغريزة تنزوان بهم . ومثل ذلك امتداحهم بيقظة القلب والحلم ، لأنهم يكبحون جماحهم ولا يدعون أنفسهم تسترسلُ في ثاراتها ، فيعفون ويعفون ، مُتطهّرين من الأحقاد والصغائر . ولقد اشترط لهم القدرة مع الحلم ، إذ لو تحالموا ، وهم ضعفاء ، لكان حلمهم ختلاً ولؤماً ، كما يقول المتنبي :

كل حُلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ حَجَّةٌ لاجِيءٌ إِلَيْهَا اللَّئَامُ

ويدنو الى ذلك المدح بالصبر والعفة والقيام على العهد والمودة ؛ :

إِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا ١

وإن تَدَجَّتْ عَلَى الْآفَاقِ مُظْلِمَةٌ كَانَ لَهُمْ مَخْرَجٌ مِنْهَا وَمُعْتَصِرٌ

فِي جَنَّةٍ هِيَ أَرْوَاحِ الْآلِهَةِ ، فَمَا يُفَزِّعُ الطَّيْرُ فِي أَغْصَانِهَا فَزَعٌ ٢

إلا أن أكثر المعاني التي يتردّد عليها ، عبر مدائحها هي معنى الكرم ومعنى الأمان الذي أنعم به الأمويون عليه . والأخطل إذ يعرّج على المدح بالكرم يتوسّل اسلوبين ، أحدهما يقوم على الفكرة أو الصورة المقتضبة ، والثاني على التشبيه الاستطرادي من المقارنة بين كرم الممدوح والقرات وما إليه من أنهر . قال في مدح يزيد ٢ :

١- م- س : ١٧١ : ٣٠-٣١ ؛ ٢- ٢٠٨ : ٣١ ؛

٣- ٩١ : ٣٣-٣٨ ؛ راجع هذه الآيات وشرحها في صفحة ٥٠

من هذا الكتاب .

وما مزبداً يعلو جزائر حامير يشق إليها خيزراناً وغرقداً
 تحرز منه أهل عانة ، بَعْدَمَا كسا سورها الأعلى غشاءً مُنْصَداً ...
 بأجود سبباً من يزيد ، إذا غدتْ به بُخْتُهُ يَحْمَلْنَ ملكاً وسُودداً

وقال في مدح عبد الله بن معاوية :

كَأَنَّهُ مُزْبِدٌ رِيَّانٌ ، مُنْتَجِعٌ يعلو الجزائر في حافاته الزببداً
 حتى ترى كلُّ مُزورٍ أَضْرَبَ بِهِ كَأَنَّما الشجرُ البالي بِهِ بُجْدٌ
 تَظَلُّ فِيهِ بناتُ الماءِ أَنجِيَّةٌ ، وفي جَوَانِبِهِ اليَنبُوتُ والخَصَدُ
 سَهْلُ الشَّرَائِعِ ، تَرَوِي الحائِثاتُ به إذا العِطاشُ رَأَوْا أَوْضاحَهُ وَرَدُوا

١ - المَزْبِدُ : هنا الفُرات .

م : يشبهه عطاءه بالفُرات ، فيما يعلوه الزبْد ويفيض ويغمر ما يحيط به من جزر .
 ٢ - المَزورُ : هنا ما تنحى عن مجرى النهر ، أي الجزر . أَضْرَبَ به : مَلَأَهُ . البُجْدُ : نوع من الأَكْسِيَةِ .

م : يشير إلى فيضانه على ما دونه من البرِّ ، حيث يقتلع الأشجار ويصرعها ويخلفها وقد اكتسى بها أديم الأرض .

٣ - بناتُ الماءِ : الطيور المائية . أَنجِيَّةٌ : جماعة . اليَنبُوتُ والخَصَدُ : ضربٌ من الشجر .
 م : يقول إن طيور الماء تجتمع عليه ، كما تزدحم فيه أشجار الينبوت والخصد . وفي الشطر الثاني إشارة إلى شدَّة اصطخابه بحيث يقتلع الأشجار ويسوقها في تياره .

٤ - الشَّرَائِعُ : جمع شريعة وهي الطَّرِيق إلى الماء . الحائِثاتُ : الطيور التي ترود الماء .
 الأَوْضاحُ : جمع وضح وهنا الطَّرِيق إلى الفرات .

م : يستكمل وصفه ، ويقول إن الطَّير لا تزال ترتاده وإن النَّاسَ لا يزالون يترَوون منه .

وقال في مدح عبد الملك :

وما الفُرات ، إذا جاشت حَوَالِبُهُ في حَافَتَيْهِ وفي أَوْسَاطِهِ ، العشر ١
وَدَعْدَعَتَهُ رِياحَ الصَّيْفِ ، واضطَرَبَتْ فَوْقَ الجَاجِيَّةِ ، من آذِيَةِ ، عُذْرُ ٢
مُسْحَنَفِرٌ مِنْ جِبَالِ الرُّومِ ، يَسْتُرُهُ مِنْهَا أَكَايِفُ فِيهَا ، دُونَهُ ، زَوْرُ ٣
يَوْمًا ، بِأَجْوَدَ مِنْهُ ، حِينَ تَسْأَلُهُ وَلَا بِأَجْهَرَ مِنْهُ ، حِينَ يُجْتَهَرُ ٤

وقال في مدح عكرمة الفيّاض :

وما مُزْبِدُ الأَطْوَادِ مِنْ دُونِ عَانِيَةِ يَشُقُّ جِبَالَ العَوْرِ ذُو حَدَبٍ غَمْرِ ٥

١ - حوالبه : أمواجه . العُشْرُ : نوع من الشجر العظيم .

م : يشرع في هذا البيت بوصف الفُرات في فيضانه العظيم ، ليردف بعد بيتين آخرين بتشبيهه بغطاء عبد الملك . يقول إن الفرات عندما يضطرب موجهه ويقتلع الأشجار عن حافته ويسوقها إلى أوساطه .

٢ - دَعْدَعَتُهُ : حركته وأثارت الاضطراب في موجهه . الجَاجِيَّةُ : جمع جَوْجُو : الصدر . آذِيَةِ : أمواجه .

م : يقول إنه إذا ما حركته رياح الصيف وعصفت به ، مثيرةً أمواجه القوية ، فارتفعت تضرب مقدمة السفينة كأنها الغُدْرَانُ .

٣ - المُسْحَنَفِرُ : السّريع الجري بامتداد ومضاء . أَكَايِفُ : جمع كفاف وكفة : ما يكفُ الماء عن الجري . زَوْرُ : مَيْلٌ ، أي أنها تدعه يميل عن مجراه .

م : يقول إنه إذ يسرع في جريه من جبال الروم ، عابراً الأكايف التي تمنع سيره وتكفه عن عدوه ، فيما تُضَاعَفُ من صَحْبِهِ ، مائلةً به عن مجراه .

٤ - م : يقول إن الفرات في تألبه وحشده وفيضانه ، لا يعادل الخليفة في كرمه وفي احتشاده وعزمه عندما يُسْتَتَارُ في مواقف الغضب .

٥ - م : الغَمْرُ : الكثير . الحدَبُ : الموج وتراكب الماء في جريه . مُزْبِدُ الأَطْوَادِ : يعني به الفرات .

م : يقول إن الفرات الذي ينهمر في الأودية ويفيض فيها بأمواله المتدافعة المترابكة .

تَظَلُّ بِنَاتُ الْمَاءِ تَبْدُو مُتَوْنَهَا وَطَوْرًا تَوَارَى فِي غَوَارِيهِ الْكُدْرِ ١
مَتَى يَطْرُدُ يَسْقِي السَّوَادَ فُضُولُهُ فِي كُلِّ مُسْتَنٍّ جَدَاوِلُهُ تَجْرِي ٢
بَأَجْوَدَ مِنْ مَأْوَى الْيَتَامَى ، وَمَلْجَأِ الْأَضْيَافِ ، وَهَابِ الْقِيَانِ أَبِي عَمْرٍو ٣

وكنا قد عرضنا لمقابلة هذه الأبيات وأبيات النابغة في امتداح النعمان ، مما لا مجال لإعادة البحث فيه ، وانما نخلص من ذلك إلى ان مقارنة الكرم بفيض الأنهر وما إليها ، كان والجا كوصف المطايا وذكر هلاكها في سنة الشعر المدحي عامة وشعر الأخطل خاصة .

وفيما دون ذلك فإنه يلمُّ بالكرم بأوصاف وصور متقاربة أو مُتَبَايِنَة :

فَمَا يَزَالُ جَدَا نُعْمَاكَ يُمِطِّرُنِي وَإِنْ نَأَيْتَ ، وَسَيْبَ مِنْكَ مَرْفُودِ
تَرَى الْوُفُودَ إِلَى جَزَلٍ مَوَاهِبُهُ إِذَا ابْتَغَوْهُ لِأَمْرِ صَالِحٍ وَجَدُوا
قَوْمٌ إِذَا أَنْعَمُوا كَانَتْ فَوَاضِلُهُمْ سَبَبًا مِنْ اللَّهِ ، لَا مَنٌّْ وَلَا حَسَدُ
لَا يَزْمَهُرُّ ، غَدَاةَ الدَّجَنِ ، حَاجِبُهُمْ وَلَا أَضْنَاءَ بِالْمِقْرَى ، وَإِنْ تَمِدُوا ؛

- ١ - م : أي أن طيور الماء تبدو فيه حيناً ، وتغيب حيناً آخر في غواريه ، أي أمواجه الغبراء .
٢ - يَطْرُدُ : يتبع بعضه بعضاً . الْمُسْتَنُّ : الشَّدِيدُ الْجَرِّي . السَّوَادُ : الطَّرْقُ .
م : يقول إن موجه يتدافع ويسقي بما يفيض منه الطَّرْقُ ، جارياً بِقُوَّةٍ وَصَحْبٍ .
٣ - م : يقول إن الفُرَاتِ فِي تَدَافِعِهِ وَتَرَكَبِ أَمْوَاجِهِ وَصَحْبِهِ وَفِيضَانِهِ ، لَيْسَ بِأَجْوَدَ مِنْ عَكْرَمَةِ الَّذِي يَأْوِي إِلَيْهِ الْيَتَامَى وَالثَّقَلُونَ الْمُطَارِدُونَ وَالَّذِي لَا يَزَالُ يَهَبُ الْقِيَانِ لِمَنْ يَمْتَدِحُهُ أَوْ يَعْتَقِيهِ .
٤ - لَا يَزْمَهُرُّ : لَا يَتَعَبَّسُ . الدَّجَنُ : هُنَا الشِّتَاءُ . الْمِقْرَى : أَوْعِيَةُ الطَّعَامِ . تَمِدُوا : قَلَّ مَا عِنْدَهُمْ .
م : يقول إن حَاجِبَهُمْ لَا يَتَعَبَّسُ وَيَصُدُّ بِوَجْهِ الْمُعْتَقِينَ ، عِنْدَمَا يَشْتَدُّ الْعُوزُ بِالنَّاسِ ، شتاءً .

قَوْمٌ ، إِذَا ضَنَّ أَقْوَامٌ ذُوو سَعَةٍ وَحَاذَرُوا حَضْرَةَ الْعَافِينَ أَوْ جَحَدُوا ١
 بَارَوْا جُمَادَى بِشِيزَاهُمْ ، مُكَلَّلَةٌ فِيهَا خَلِيطَانِ وَارِي الشَّحْمِ وَالْكَبِدُ ٢
 مُوْطَأً الْبَيْتِ ، مَحْمُودِ شَمَائِلِهِ عِنْدَ الْحَمَالَةِ ، لَا كَزُّ وَلَا وَعِقُ ٣
 هُمُ الَّذِينَ يُبَارُونَ الرِّيحَ إِذَا قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعَافِينَ أَوْ قَتَرُوا
 ضَرُوبٌ عَرَاقِيبَ الْمَطِيِّ ، كَأَنَّمَا يُبَارِي جُمَادَى إِذْ شَتَا أَوْ يُحَايِلُهُ
 إِذَا غَابَ عَنَّا غَابَ عَنَّا فِرَاتِنَا وَإِنْ شَهِدَ أَجْدَى فَيَنْضَهُ وَجَدَاوِلُهُ

فهو يشبه الكرم ، حيناً ، بالكرم ويمثله بمشهد الوفود والحاجب المقبل بالبشر على منتجعي الدار والقذور الكبيرة ، المفعمة . ومن البين أن هذه المعاني مكرورة في صورها وإخراجها وتأويلها ، وقد يتعاضم وقعها عندما تزجى في سياق القصيدة في خضم المعاني المدحية الأخرى .

١ - ٢ - جَحَدُوا : أي أنكروا أن لديهم رزقاً أو مالا . جُمَادَى : هنا للتدليل على الشتاء القاسي . الشيزى : القُدور التي تُصنع من شيز ، وهو ضرب من الخشب الأسود . مُكَلَّلَةٌ : مَمْلُوءَةٌ . الواري : السمين .

م : يمتدحهم بالكرم ويقول : إذا ما ضنَّ القوم الموسرون ، وجعلول يُحاذرون ارتياد العافين ، أي طالبي المعروف ، لديارهم وأنكروا أن يكونوا مُوسَعِينَ ، مَيْسُورِينَ ، فإن الأمويين يعارضون جُمَادَى الشتاء بإغداقهم على الناس وبنلهم لهم ، فهو يتزل بهم الضيق والضيم ، وهم يترفعونهما عن كاهل الناس ، بما يبذلونه في قصاعهم وقذورهم الكبيرة من طعام ولحوم دَسِيمَةٍ .

٣ - مُوْطَأً الْبَيْتِ : أي أن الضيوف لا تزال تلجه وتطأ فيه . الكَزُّ : البخيل . وَعِقٌ : حريص . الْحَمَالَةُ : الدية يحملها امرؤٌ عن سواه حقناً للدماء .

م : يمتدحه بالكرم وحسن الضيافة والأخلاق ، ويقول إنك لا تزال تؤدّي الديات عن أصحابها دون تباخل أو حرص .

وأفضل ما يؤثر من أوصافه للكرم تقع عليه في الآيات التالية ، فضلاً عن الآيات السابقة حيث قرنه بالفترات :

وَلَيْسُوا إِلَىٰ أَسْوَاقِهِمْ ، إِذْ تَأَلَّفُوا ۖ وَلَا يَوْمَ عَرَضٍ عُوداً سُدَّةَ الْقَصْرِ ١
بِأَسْرَعٍ وَرِزْداً مِنْهُمْ نَحْوَ دَارِهِمْ ۖ وَلَا نَاهِلٍ وَافِي الْجَوَابِي عَنِ عِشْرِ ٢
تَرَىٰ مَتَرَعِ الشَّيْزَى الثَّقَالِ ، كَأَنَّهَا ۖ تَحَضَّرَ مِنْهَا أَهْلُهَا فُرْضَ الْبَحْرِ ٣
تَكَلَّلُ بِالْتَرَعِيبِ ، مِنْ قَمْعِ الذَّرَى ۖ إِذَا لَمْ يُنَلَّ عِبْطُ الْعَوَالِي مِنَ الْخُزْرِ ٤
مِنَ الشُّهْبِ أَكْتافاً ، تُنَاخُ إِذَا شَتَا ۖ وَحُبُّ الْقُتَارِ بِالْمَهْنَدَةِ الْبُتْرِ ٥

١ - ٢ - السُدَّة : موضع الباب في مسجد الكوفة ، كانوا يجتمعون عنده للعطاء . الناهل : العطشان . الجوابي : الحياض .

م : أي أن الناس الذين يهرعون إلى مسجد الكوفة لينالوا الأعطيات ، ليسوا أسرع إلى ذلك المكان منهم إلى بيته . كما أن الظمان الذي انقطع عن الماء عشرة أيام ، ليس بأسرع إلى ارتياد حياض الماء من الذين يهرعون إلى قصره لنيل أعطيته .

٣ - الشَّيْزَى : القُدور . الفُرْضَة : محطة السفن في البحر .

م : يقول إنهم يعدون لضيوفهم الطعام في قدور كبيرة ثقيلة ، كأنها الفُرْض التي ترسو فيها سفن البحر .

٤ - الترعيب : الامتلاء من اللحم الشهي . قَمْعِ الذَّرَى : أعلاها ، أي السنام . عِبْطُ الْعَوَالِي : عقرها طرية . الْخُزْرُ : جمع أخزر : الضيق العين .

م : يقول إن قدورهم تجلجل وتعبأ باللحم الشهي من الأسنة ، إذ لم يقدر لهم أن يذبحوا إبلهم العظمية الهامة ، الخزراء .

٥ - الشُّهْبُ أَكْتافاً : أي أن ذروة سنامها تقع على أكتافها .

م : يصف سمنها ويقول إن سنامها يطفو على أكتافها . ومع ذلك ، فإن المدوح لا يخرج من نحرها ، عندما يعم القمح وتطيب للناس رائحة القُتار . أي اللحم المشوي .

أما إلحافه بذكر ما منَّ به عليه الأمويون من حماية ومناصرة ، فقد عرض له منذ مدائمه الأولى في يزيد ، ولم تكد تخلو منه أية قصيدة أخرى خصَّ بها ممدوحيه من الخلفاء والامراء كبشر أو خالد بن أسيد ، فلترجع في مطائنها ،

ب - التائر بواقع الممدوح : ومن خلال النماذج والمقطوعات التي قدَّمنا ذكرها ، تبين لنا ان الأخطل يوقِّع معاني قصائده ومضامينها بالنسبة إلى واقع الاشخاص الذين يمدحهم . فهو إذ أنشد يزيد بن معاوية مدائمه ، لم يؤلِّب ويحتشد له ، كما أنه لم يُحطه بهالة من البطولة والخرافة . إذ ان الممدوح لم يكن ، وقتئذ ، على شيء من ذلك ، بل كان فتي ممرحاً ، مترفاً ، يسابق بين الخيول ويتفرَّغ لمجالس اللهو في الحواضر والبوادي . وكان من جرَّاء ذلك أن طغت الموضوعات الوصفية على مدائمه فيه ، واستطالت بما جعلها تعفِّي على ما دونها .

ولقد جرى على ذلك الفرار في امتداح عبدالله بن معاوية وخالد بن يزيد ومن اليهما ، إذ كان يستطرد الى موضوع المدح المباشر والتغني بمآثر الممدوح الذاتية وينصرف الى الاشادة بنجابه أصله وسؤدد والده ، أو من تحدَّر منهم . فمدائح الأخطل لا تزور للممدوح صورة تعاضم عليه ولا تليق به . ومع أنه يغالي قليلاً أو كثيراً في شعره المدحي ، فإنه ينطلق فيه ، دائماً ، من نقطة انطلاق واقعية ، فعلية ، تُمكن لقوله وتمنعه فيه من الجنوح الى الترهات والتفشير .

وعلى نقيض ذلك مدحه لعبد الملك ، إذ أنه أخذ فيه بالجانب الملحمي من سيرة الممدوح ، وصدر عنه وانطلق منه ، معظماً ، مغالياً ، مبتدعاً للبطش والقوَّة من الأوصاف والأحداث والصور الحسية ما لا يُجَارى أو يبارى . ولقد خفت نبرته الملحمية فيما دون ذلك من مدائح ، إذ كان يحشد المعاني المدحية العامة ، ذاك أنه لم يؤخذ ببطوله أي من الممدوحين ، كما أخذ ببطولة عبد الملك . واذ كان هذا الأخير يحرص على التمكين لخلافته بتأكيد الصفة الدينية لها ، تولى الأخطل ذلك له وانخرط في سبيله ، فاذا هو يدعوه « خليفة الله » ، « يُستسقى به المطر » ، وإذا الله قد خصَّه بحظِّ تقصّر عنه سائر الحظوظ ، وإذا هو لا يقاتل

لتوطيد الملك والسلطة ، بل لردّ الكفار الخارجين على نهج الدين ، وما الى ذلك من معانٍ تظهر وتضمّر عبر قصائده ، كما بيّنا .

وإذا نظرنا فيما امتدح به بشر بن مروان ، لطالعنا بأجواء تماثل ما امتدح به يزيد ، حيناً ، وبأجواء أخرى تماثل ما امتدح به عبد الملك ؛ ذلك أنه أخذ فيه بروعة البطولة من تصديّه للأعاجم والحوارج ، وروعة الجاه والثراء واللهو ، فألف بين هاتين الحالتين في مدائحه . ولعلّه خصّ خالد بن أسيد في لاميته المطوّلة بالشكوى من الأمويين لأنه أنف من التعرّض لعبد الملك بذلك . فشعره يوافق مقتضى الحال في المدح ، يؤدي فيه للممدوح الشهادة التي توافق هواه وحاجته . ومثل ذلك تكراره الاشادة بأخوال الوليد العبيسين ، إذ كان الخليفة يؤثر ذلك ويطلب له غاية الطرب .

ج - ايلاج همومه ومنازعه الشخصية والقبلية في متن القصيدة : والأخطل حضور يهيمن به على معظم القصائد التي نظمها في مدح سواه . وهذا الحضور يتباين ويتعاطم ويتضاعل بالنسبة الى الممدوح وموقفه منه ومدى اتصاله ودالته عليه أو تواقعه معه في الأمور الذاتية والقبلية . ونكاد لا نعرّ على قصيدة له في المدح ، دون أن يلحف فيها ، مثلاً ، بذكر حماية الأمويين له والأمان الذي منّوا به عليه ، . يُعلّل ذلك ويتمطّى به في كل وجه واسلوب ، ليتقرّب من خلاله اليهم ويظهر عظم ما تكبّد في سبيلهم . وهو لم يغفل عن ذلك حتى في أواخر أيامه حين كان يمدح الوليد بن عبد الملك . وسوف نعرض الى هذا الأمر بالتفصيل في مقابلتنا بين شعره وشعر النابغة . وبعد ان التزمت قبيلته بجانب الدّفاع عن الدولة والتحمّت لها في مواقع كثيرة ، وقام التنازع بينها وبين البلاط في الوفاء بالعهد والرجّح فيه بينهم وبين القيسيين . تغلّبت هموم الشاعر القبلية على همومه الفرديّة ، وجعل يؤدّي البيّنات والحجج : ذاكرّاً أسماء الأعداء والوقائع ، متخلصاً الى التمنين ، حيناً ، والى التهديد والنّصح والتحذير ، في أحيان أخرى . وفي تلك القصائد يخلع الشاعر عن نفسه صفة الشاعر المدّاح ، المستجدي ،

ليقيم من دونها صورة المحامي ، المنافع عن الحق ، والمدافع عن قبيلته في نبرة لا تخلو من العنجهية الظاهرة أو المضمرة . وقد تمازج ، من جراء ذلك ، فنون شعرية متعددة في شعره ، ترجح بين الفخر والمدح والهجاء ، وان كان الفن الأول أغلب عليها . ذاك أنه يستحضر فيها همومه ، جميعاً ، بل ان منازعه تتسرب اليها ، فتراه واصفاً الحمرة ، متلوهاً على المرأة ، ناعياً عليها غدرها وتقلبها ، متغنياً بالمفازة والراحلة ، ثم تراه ينقضُّ على خصمه جرير في أبيات تكثر أو تقلُّ ، دون أن يتصاعل فيها قدر العتوِّ والحماس . وربما استحالت قصيدته الى شبه معلّقة ذاتية تسيطر عليها الهوموم والمنازعات الفردية والقبلية .

وعلى العموم يمكن أن نصنّف معانيه المدحية في صنفين ، يؤدي في أحدها المعاني العامة كالكرم وحبّ الضيافة والنجدة في زمن الضيق وشرف الأصل وما أشبه ، ويسوق في الثاني المعاني المتصلة بواقعه من الممدوح حيث يختلف بين الرضا والامتنان والغضب والتهديد والتفريع وما الى ذلك .

د - الالفادة من شعر سابقه : ألمّ الأخطل بالمدح ، وقد استقام على سنّةٍ وجرى على عمود معروف ، أكان ذلك في طبائع الاسلوب وأنواع الموضوعات الواجبة ، فضلاً عن المعاني والصور . فقد تمرّس به ، قبلاً ، شعراء عديدون جرى على رأسهم النابغة والأعشى . ولقد اتخذ منهما ومن سواهما تقاليد المقدمة الطلّية وذكر المطية وهلاكها في المفاوز والمناهاة وتقلقل أحزمتها عليها وتنقّب أخفاقها وطرحها للأجنة على الطريق . ولقد شغف الأخطل شغفاً خاصاً بالموضوعات الوصفية في القصيدة المدحية ، فتراه يسعى بها في كلّ اتجاه ويرصد لها كل احتمال ويعتمّب عليها بكل وصف، ولا يستنفدها أو ينهكها إلا بعد أن يتفرغ لذلك في أبيات قد تستأثر ، أحياناً ، بنصف القصيدة أو بثلاثيها . وربما اعترض بوصف بعض الطيور والبهائم كالغراب والثعلب والضبّ وبعض عناصر الطبيعة كالبرق والرعد والمطر ، إذ كانت نفسه تأنس بها وتطرب لها ، وكان النابغة والأعشى أمّا بمثل ذلك في حدود تماثل ما ذهب إليه الأخطل منه . وكما تغنى

الأعشى بالخمرة في مواضع كثيرة من مدائحه تغنى بها الأخطل ، كذلك ، وان لم يُضاهه أو يبيزه . فالأعشى كان أدنى في شعره الى واقعة الحياة في جانبها الحسي والجنسي ، يُفصح عن ذلك بقدر ما يلمح ، ولا يكاد يجاربه شاعر في التعبير عن اللذة السادية ، المتمادية المسيرة لقدر صاحبها وقدر الناس كلهم . فهو من هذا القبيل يقرن بامرئ القيس وحسب ، وهما ، جميعاً ، شاعر الحياة التي يحياها الانسان بكل شهواته وغرائزه ، ويتلمظ فيها حتى الفسق والموبقة . فالأخطل يعرض للخمرة والمرأة في مدائحه ، إلا أنك تظل تشعر ان الصفة الأدبية التقليدية تغلب على تجربته ، إذ انه لم يكن من الشعراء الوجوديين الذين يقفون في شعرهم موقفاً من الحياة وأقدارها وقيمها . فخمرة الأعشى ولذة امرئ القيس صدرا عن نفس صاحبيهما يمثل الموقف الفلسفي الغامض الأصم . أما الخمرة في شعر الأخطل ، فإنها خمرة زهو وطرب لا يذهب فيها مذهب اللذة المطلقة . المستولية على كل قيمة من دونها . فنفس الأخطل هي أدنى بذلك الى نفس النابغة . إذ كلاهما كان يقف من الوجود موقفاً جمالياً ، إذا جاز التعبير ، يراوده باللفظة والصورة والفكرة ، ولا يتوقع معه بالرّفص والعصيان ، ولا يتعارض مع ابناؤه في مفاهيم الحلال والحرام وغاية الحياة وما دونها . فهوم الأخطل والنابغة هي هموم طارئة ، في نيرة أو فشل ، في نيل مأرب وتعذر آخر ، أما هموم امرئ القيس وطرفة ، مثلاً ، فهي هموم ملازمة لأنها متصلة بالحياة ذاتها . يباطلها ولا جدواها وموتها في ذيل الثواني التي تلدها . لهذا يمكننا القول أن الأخطل هو من شعراء المدح او الهجاء او الخمرة ، وليس من شعراء الوجدانية الوجودية الكالحة التي ترن في قاعها الدقائق كاجراس الحزن الناعية لموت الزمن وهروب الاشياء واندحارها .

فالأخطل ، عبر مقدماته الطويلة للمدائح ، هو شاعر وصف أكثر مما هو شاعر موقف عام ، يروّض الظواهر ويتروّض بها ، في اللفظ ، كالنابغة ، يتخذ جانباً منها يغالي به ويدرك مثاله ، ولكنه لا يهدمه وبينه من جديد بالرؤيا التي تشاهده من الداخل . وهو لم يقتبس من النابغة هذه الطبيعة المهادنة ، المسالمة من

الوجود ومظاهره وأشياؤه ، بل استعار منه تقنية التعبير عن المعاني واسلوب تأديتها وتوقيعها . مثال ذلك تعبيره عن الخوف الذي يستبدُّ به ، عندما أهدر معاوية دمه للأَنْصار ، وقد جعل يعظم من أمره ، ويمثله بكل مثال ، فهو حيناً قائم منه على حدبار أو متردٌ في قعر الهاوية ، وحيناً آخر يعاني مثل لدغ الحية ، وهي معانٍ استنفدت في اعتذاريات النابغة ، كما قدّمنا . وإذا كانت الغاية من ذلك تَبَايَنَتْ بين الشاعرين ، فأنهما صدرا عن اسلوبٍ نفسيٍّ واحد . وهما يتجاربان ، كذلك ، في الأجواء الملحمية التي يسبغها على الممدوح بحيث انك لا تجد تمايزاً شديداً بين صورة النعمان وصورة عبد الملك ، وان تباينت بعض الاعراض والجزئيات التاريخية الواقعية . إلا أن النابغة ، كدأبه ، بدا أنأى خيالاً وأقصى تناولاً للأشياء . فقولهُ :

الا سليمان إذ قال الاله له قم في البرية واحدها عن الفند
وخيِّس الجنَّ ، إنسي قد أذنت لهم يبنون تُدمر بالصفّاح والصد

هو أنأى من قول الأخطل :

مقدّم ماتي ألفٍ لمنزله ما أن رأّت مثلهم جنٌّ ولا بشرٌ
يغشي القناطر يبنوها ويهدمها مسومٌ فوقه الرّايات والقترُ

ذاك أن النابغة توسّل الأجواء الأسطورية الموحية التي لا حدّ لها ، فيما توسّل الأخطل الأحداث الواقعية الحاشدة ، المتّصّفة بخصائص الفنيّة الأخطلية ، أي الانتخاب والعزل والغلوّ ، وفقاً لتحسُّسه بروح الأشياء وطبائعها . إلا أن الشاعرين ، جميعاً ، يتوسّلان القتال في مشاهدته الماثورة لتجسيد البطولة ، يتولّى النابغة ظاهرة أو ظاهرتين في أقصى حدودهما ويتألّب عليهما تعليلاً وتأويلاً وافراضاً كوصفه لبطولة الغساسنة من خلال سيوفهم مغرقاً في تمجيد تلك السيوف ، منيظاً بها من القدرة ما يدعها تقدُّ الأدرع المضاعفة وتقذح الشرر في الحجارة الصلبة .

ومثل ذلك ذكره للطير التي تسمى ، إثر جيوشهم ، طمعاً بافتراس القتلى . وربما دخل في روعه من ذلك أن عزل الظاهرة ومدّها إلى أقصى أبعادها ، يغني عمّا دونها أو يوحي ويُوهم به . وقد يجاري الأخطل هذا الاسلوب ، كما قد يُضفي عليه قليلاً أو كثيراً من الجزئيات ، دون أن يُضائل من قدر الغلوّ الملحمي . والشاعران كلاهما يصفان الحَيْل وما أصابها من ضمور وهلاك ووجاها وجراحها كأداة لتجسيد بطولة أصحابها ، وقد اقتبس الأخطل وصف الكرم عن النابغة والأعشى ومن اليهما بحيث تماثلت المشاهد والصيغ والأساليب ، كما قدّمنا . وفضلاً عن هذا وذاك كلّه يقتضي الأخطل على ذيل النابغة في توقيع العبارة وبثّ الشجوة والذهول في حناياها ، ممّا ستعرّض له في بحثنا عن طبائعه الفنيّة العامّة .

هـ - الافادة من المثل العليا والبيئة الجاهلية : ومع أن الأخطل عايش البيئة الجديدة في الحضرة الامويّة ، واطلع على قليل أو كثير من تعاليم الدين الجديد ، فإنّه أشاح عن واقع عصره في بيئته الماديّة وفي مثله العليا الدينيّة ، وظل يترسّم ، عبر مدائحهم ، مثلاً أعلى مستوحى من واقع العصر الجاهلي . لا شكّ أنّه امتدح عبد الملك بصفته الدينيّة ومكّن له ولسواه من الأمويّين بها ، كما أنّه توقع في شؤون السياسة والنزاع القبلي . الا أنّه، عبر ذلك كلّه ، كان يستحضر صورة البطل أو الفارس الجاهلي الذي يأنف من العار والذلّ ويجزع من الضيم ويتهبّ للنجدة والاغاثة ، ينحر النباق ويطعم ويهدي الأبل والجواري ويعطي الدرّاهم بالآلاف الكثيرة ؛ فهو بطل عربيّ اعتنق الاسلام ، فغدا كجزء من شخصيته ولم يستول عليها ، جميعاً . أما من الناحية الماديّة ، فقد ألمّ الأخطل بوصف السفن خلال إحدى مدائحهم ، وخصّصها بدقائق تمّ عن تجربته الحالّية ، كما سنبين ، وفيما عدا ذلك تهيمن أجواء الصحراء ، يستعير منها موضوعاته كوصف الطلّ والمفازة والهجرة والنسراب والغراب والثعلب وكثبان الرّمْل والنخيل ، وهو يستمد منها ، أيضاً ، صوره والأحداث التي يتكنّى بها على المعاني .

فذاكرته وخوابره محشودة حشداً هائلاً ومكتنظة اكتظاظاً عميقاً بتجارب الصحراء ومشاهدتها ، حتى يمكننا القول إن مسافة زمنية تفصل بين شعره والشعر الجاهلي ، من الناحية السياسية ، فيما تلت فيه وكأنّ الزمان متحجّر بالنسبة إليه من الناحية الفنية والنفسية .

هذا ما رأينا أن نشير إليه بصدد مدائح ، على أن نؤجل دراسة فنّيّتها للفصل الأخير حيث نتولى خصائصه الفنيّة العامة .

الفصل الثالث

أهـاجـيـه

الباب الأول : بواعث الهجاء في شعره

الباب الثاني : أهـاجـيـه في جرير

الباب الثالث : أهـاجـيـه في القيسيين وأحلافهم

الباب الرابع : سائر أهـاجـيـه

الباب الاول

بواعث الهجاء في شعره

قدّمنا أن الأخطل شهير ، في مطلع عهده ، بالهجاء وأنه تواقّع مع ابني جُعيل ومن إليهما وأنه كان ينفث الشعر بمثل « لسان الثور » . ولعل شهرته لم تندع في القبائل ولم تمسكن له في البلاط الأموي إلاّ إثر هجائه للأنصار وافحامهم عن الأمويين ، في قصيدة مأثورة . غير أن أحداث الحياة تداولته ، فلم يتكرّس للهجاء تکرّس الحطّبيّة ، من قبل ، وجرير وبشار ودعبل وابن الرومي ، من بعد . وقد فاضل معاصروه بينه وبين جرير والفرزدق ، فأثروه في المدح والحمرة وآثروا عليه جريراً في الهجاء . وقد نخلص من ذلك كله إلى أن الهجاء ليس الفنّ الأظهر على شعره ، وإن كان يجاري فيه منافسيه عليه ولا يقصّر كثيراً عن جرير ، بل ربّما تفوّق عليه في بعض أهاجيه . ويُمكن أن نُوجز بواعث الهجاء في شعره بعامل ذاتي ، أي بطبع الشاعِر الذي طُبِعَ عليه . فهو قد هجا زوج والده وراغمها ، كما أنه لم يحفل بابن جُعيل ، بل ثلّبه ، وهو يتنعم بالجاه والثراء في بلاط معاوية . ولعل لثبته ، كما بيّنا ، لم يَلْحَقْ به إلاّ للتدليل على شدّة لسانه واقذاعه فيه ومعارضته به سائر القوم . غير أن الأخطل لم يكن يصنّدر في هجائه عن العاهة واللّعة ، أي أنه لم يكن مشوباً بالأصل كالحطّبيّة ، لتعمّ نغمته وتستأثر بسائر نزعاته وميوله ، فيثلب الحياة وأبناءها ويُنَادِي بالويل والثبور ويتمنّى الخراب والهلاك . ويُمكننا القول ، إثر ذلك ، إنّ هجاء الأخطل هو ، في نقطة إنطلاقه ، هجاء أدبيّ ، إذا جاز التعبير ، يروّض فيه على صناعة القول ويلمّ منه بسائر موضوعاته ووجوهه . فهو يتفصّل في العاهات ، لكنّه لا يعزّلها ولا يُنعم بالتحديق فيها عبر نظرة تشاؤميّة عامّة تنعّي على الإنسان خُبث طينته وفساد جوهره . إلا أن تواقّعه مع الأحداث والأشخاص طبع بعض أهاجيه بطابع الوتر الذّاتيّ والنقمة ، دون أن يسوقه ذلك إلى تتبّع العاهات

والصدور فيها عن شعور عام بفسجية الحياة وهلاك أبنائها . ثم أن معظم النقايس التي يهنجوها مهجوبه هي من النقايس العامه الجارية في تقليد الهجاء وسنته ، يضمني عليها ويضفرها بقليل أو كثير من الغلو ، لكنه لا يستنبط قط العاهات التي تم عن حالة مرصيه في نفس الشاعر . وفضلاً عن ذلك كله ، فان الأخطل كان يقبل على الحياة اقبالة شهوة ونشوة ، يترنم بها ، كما إنه كان يعتر بتاريخ قبيلته ومآثر بني قومه ، مما عفى في نفسه على الثارات الدائمة التي لا ينجع فيها دواء ، ولا يعزها عزاء .

الباب الثاني

أهاجيه في جرير

قدما بحثاً في الأسباب التي أوقعت بين الأخطل وجرير ، مما لا مجال ولا جدوى من تكراره ، وإنما نود أن نشير ، هنا ، إلى أن الهجاء استحال بينهما إلى تهاج ، أو ما عرف بالنقايس ، وهي قصائد تجري على روي ووزن متشابهين ، تنقض إحداهما المعاني التي سلفت في الأخرى ، بل إنها تسفها وتزري بها كل إزاء . وإذا كان الهجاء الجاهلي يعرض للفرد أو القبيلة في معان محدده ، هي نقيض الفضائل الجارية عليها المدح ، فإن الشعر الأموي كرس ذلك النوع من الهجاء الذي يتواقع ويتالب فيه شعراء محترفون ، يشايح كل منهم قوماً أو قبيلة ، يؤلب لها وعلى أعدائها ، ويقده فيمن يشايحها ويدافع عنها . والنأظر في ديوان الأخطل ، من هذا القبيل ، يجد أنه نظم في الهجاء قصائد متعدده ، أهمها في جرير والقيسيين ، وفي أفراد وقبائل أخرى ، إلا أن هذه القصائد يتضاءل عددها بالنسبة إلى قصائد المدح ، كما أن أبياتها لا تتناول ولا تنتظم في مقدمات واستطرادات ماثورة ، فهي قليلة الأبيات نسبياً ، وان كان الشاعر يحشد فيها حشدته ويتدافع فيها تدافعا كالسييل الغاضب ، الهادر .

وللأخطل في ذلك أسلوبان ، نفعُ على أحدهما في الأهاجي المبنوثة عبر المدائح والمفاخر ، كجزء من قصيدة كاملة ، ونفع على الآخر في القصائد الهجائية المستقلة بغرض الهجاء مع قليل أو كثير من الأبيات التي تُخصَّص لمطالع الطلل والغزل أو ما أشبهه .

وقد غلبت القصائد الهجائية المستقلة على ما دونها ، وبخاصة في هجائه لجرير . إلا أن الفخر كان يجانبها ويطفئ عليها ، أحياناً ، فيما نراه يُوازي ، غالباً ، الهجاء في تلك القصائد التي تعرَّض فيها للقيسيين . ويُمكننا القول أن الفخر والهجاء يمتزجان في معظم تلك القصائد بحيث تتضاعف زركيته خلال تعاطفه بنفسه . فالفخر يُعمِّق المعاني الهجائية ويكْمِلُ شوط الشاعر بها . وربما كان أجدى أن نسوق دراسةً في الفخر والهجاء معاً ، لولا تعذرُ هذا السبيل واستحالته . وقد عزمنا على أن نؤلّف بين هذين الفنين ما أمكننا ذلك في سياق الدراسة .

وفيما دون ذلك نقول إن مهاجاة جرير كانت أحد الهوموم التي يتنازع بها الأخطل . تراه يتنقّضُ عليه ويتلّبهُ في قصائد مدحية كالتّي تغنى فيها ببطولة عبد الملك . فهو يعترض عبر رائيته الشهيرة بالأبيات التالية التي نحللها كنموذج من هجائه لجرير .

تحليل نموذج من هجائه لجرير

أما كُليبُ بنُ يربوعِ ، فليسَ لهمُ عندَ التفارطِ إيرادُ ولا صدرُ ١
مُخلفونَ ، ويقضي الناسُ أمرهمُ وهمُ بغيّبِ وفي عَمياءَ ما شعروا ٢

- ١ - التفارطُ : التقدُّمُ إلى الماءِ في زحمة من الناسِ . ورَدَ : أقبِلَ على الماءِ . صدرَ : عادته .
م يمثلُ قلةَ شأنِ بني يربوعِ ، قومِ جريرِ ، ويقولُ إنّه إذ يجتمعُ القومُ متراحمينَ على ورودِ الماءِ ، فإنّهم يُخلفونَ في الدليلِ ، لا يردُّونَ ولا يصدرونَ .
٢ - م يقولُ إنّهم قاصرونَ ، أذلاءُ ، لا يملكونَ زمامَ أمرهمُ ، يقضي به الناسُ عنهمُ ، وهم غافلونَ لا يلمّونَ بشيءٍ ولا يشعرونَ به .

مُلْطَمُونَ بِأَعْقَارِ الْحِيَاضِ ، فَمَا يَنْفَكُ مِنْ دَارِمِي فِيهِمْ أَثَرُ ١
 بَعْسِ الصُّحَاةِ ، وَبئْسَ الشَّرْبُ شَرِبْتُهُمْ إِذَا جَرَى فِيهِمْ الْمَزَاءُ وَالسُّكْرُ ٢
 قَوْمٌ أَنَابَتْ إِلَيْهِمْ كُلُّ مُخْزِيَةٍ وَكُلُّ فَاحِشَةٍ سُبَّتْ بِهَا مُضَرُّ ٣
 عَلَى الْعِيَارَاتِ هَدَاجُونَ ، قَدْ بَلَغَتْ نَجْرَانَ ، أَوْ حَدَّثَتْ سَوْءَاتِهِمْ هَجْرُ ٤
 أَلَّا يَكْلُونَ خَبِيثَ الزَّادِ ، وَحَدَّهُمْ وَالسَّائِلُونَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مَا الْخَبْرُ ٥
 وَادْكُرْ غُدَانَةَ عِدَانًا مُرْنَمَةً مِنَ الْحَبَلَتِي تُبْنَى حَوْلَهَا الصَّيِّرُ ٦

- ١ - أعقار : جمع عقر وهو مؤخر الحوض . الدارمي : نسبة إلى دارم أحد جدود الفرزدق .
 م يكرر المعنى الأسبق ويقول إنهم إذ يردون بإبلهم الماء ، يخلفون وراء الجميع ، ينكل بهم الدارميون ، ويخلفون فيلم آثار زجرهم وضربهم لهم .
- ٢ - المزاء : الحمرة التي طعمها بين الحلاوة والحموضة .
 م يقول إن بني يربوع سيئو الخلق ، سفهاء ، أكانوا سكارى أم صحاة . أي أن أخلاقهم هي أخلاق المجون دون أن يحسبوا لذلك خمراً .
- ٣ - م يقول إن المخازي والفواحش التي سببت بها مضر وعيبت عليها ، لا تزال تنسب إليهم وتتصل بهم .
- ٤ - العيارات : جمع عير ، أي الحمار . هداجون : من هذج ، أي سار سيراً ضعيفاً . هجر : موضع .
 م يقول لأنهم لا يزالون يسعون ببطء على الحمير ، أي أنهم ليسوا بفرسان يمتطون الخيل أو الإبل ، وإن أبناء مساوئهم قد تديعت وانتشرت في الناس ، حتى أدركت الأمكنة القصية .
- ٥ - يقول إنهم لبعثهم يأكلون زادهم الخبيث ، منفردين ، ولا يشركهم فيه ضيف أو جار ، وإنهم مغفلون ، لا يطلعون على الأمور ولا يستشارون بها ، بل تراهم يسألون عنها دون معرفة بها ، كالداهم الذين لا شأن لهم .
- ٦ - غدانة : من بني يربوع . العيدان : جماعة من المعزى . مرنمة : التي تدلّى من حلقتها .
 م يمثل بني غدانة بجماعة من المعزى الصغيرة التي تزرب في الزرائب .

ومن البين أن الأخطل يصدر عن تكتيية فنية واحدة في شعره ، جميعاً ، أكان مدحياً أم هجائياً . فهو بأنف ، غالباً ، من المعنى التقريري المجرد ، ويكسوه بالأطر والمشهد الحسية التي تضمه وتُمثله في حدود البيئة المادية والاجتماعية . فبنو كليب يزجرون عن الماء ، لا يردونه ولا يصدرون عنه ، كما أنهم يقدون في أعقاب الناس وذيلهم . ومؤدى ذلك أنهم قوم اذلاء ، لا شأن ولا هيبة لهم . فالزراية قامت هنا على اقتباس مشهد واقعي ، مادي ، مأثور في البيئة العربية ، إذ يقد القوم إلى الماء ، فيتقدمهم عليه أشدهم بأساً وصولاً . وقد استعار الأخطل ذلك المشهد وأناطه بيني كليب ليزيل عنهم صفة التقدم والبطولة وليس في مثل هذا القول شتمة صريحة ، وان كان ينطوي على ما هو أحد وأقذع منها . كما أن الأخطل لا يترصد فيهم عاهة مرسية خاصة ، بل أمراً عاماً ، وفقاً للمثل العليا القائمة في عصره والتي تصدر عن الإيمان بالقوة كعنصر نهائي أخير للتفاضل بين القوم . ولقد أنفذ الأخطل فيهم مخب العار بالموقف النفسي المستفاد من قيم العصر . وهو يكرر ذلك ويضعف عن وقعه بقوله : « مخلصون ، ويقضي الناس أمرهم » . وقد جاءت لفظة : « مخلصون » في إطار حسي كعت مباشر عين بها موقعهم من الآخرين . فهم في الخلف ، وسائر الناس أمامهم ، يقضون بأمرهم عنهم . والأخطل يتبدى ، هنا ، ابن بيئته ونفسيته ، يزوه القيام أمام القوم بنوع من العاطفة البدائية ، الطفلة . فهذا هجاء جاهلي وان نظم في العصر الأموي لسداجة عاطفته واحتفاله بأمر لا يحتفل بها ولا يابه لها الحضري الرصين . فالتقدم والتخلف لا يقع معناهما موقعه إلا في النفس البدائية التي تطرب للانفعالات العنيفة ، وان كانت فاقدة المضمون الإنساني .

وللأخطل دربة أخرى في تأدية المعنى إذ لا يصرح به ولا يلتمح إليه ، بل يستبطنه ويخلص إلى نتيجته . فهو إذ ينعتهم بالقول إن الناس يقضون عنهم أمرهم إنما يدعوهم ، في الواقع ، عبداً ، دون أن يسميهم بهذه التسمية . فالعبد ، دون الحر ، هو الذي لا يملك أمره ، يتولاه عنه سيده . وبذلك

يَسْتَحِيلُونَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ . ويردِّف ، إثر ذلك ، « وَهُمْ بُغِيَّبٌ وَفِي عَمِيَاءٍ مَا شَعَرُوا » والقوم المقيمون في الغيب هم الذين لا يحضرون مجالس الرَّأْيِ وَأَنْدَبَتِهِ . وقد كان الْغَيْبُ سَبِيلًا دَائِمًا لِلْمُدْمَةِ ، عند العرب ، لِأَنَّهُ يُغِيَّبُ مَنْ يَنْتَجِعُهُ عَنْ عَيُونِ النَّاسِ خَوْفًا مِنْ مَلَاقَةِ الْأَعْدَاءِ أَوْ اسْتِقْبَالِ الضَّيْفَانِ . وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ يُنْمِي الشَّاعِرُ إِلَيْهِمُ الْحُمُقَ وَالْغَبَاءَ ، لَا يَفْطَنُونَ إِلَى مَا يَجْرِي بِهِمْ وَعَلَيْهِمْ .

واثر تلك الصُّورَةِ الَّتِي قَرَنَهُمْ فِيهَا بِالْعَبِيدِ ، يَنْثَنِي فَيَقْرُنُهُمْ بِالْبَهَائِمِ وَالْكِلَابِ فِي قَوْلِهِ : « مُلْطَمُونَ بِأَعْقَارِ الْحَيَاضِ » ، فَكَأَنَّ مِنْ يَلْتَقِيهِمْ يَزْجُرُهُمْ وَيَلْطَمُهُمْ شَأْنُهُمْ شَأْنَ الْكِلَابِ .

إِلَّا أَنَّ الْأَخْطَلَ يَمْتَدِحُ الدَّارِمِيِّينَ مِنْ خِلَالِهِمْ إِذْ يَجْعَلُهُمْ هُمْ الْقَائِمِينَ عَلَى الْحَوْضِ يَلْطَمُونَ قَوْمَ جَرِيرٍ عَنْهُ . وَهُوَ فِي ذَلِكَ يُجَارِي أُسْلُوبًا نَفْسِيًّا قَائِمًا يَعْفُ فِيهِ عَنِ الْقَوْلِ الْمَبَاشِرِ النَّازِعِ مِنْزَعِ النَّثْرِ وَالْمُتَحَوِّلِ إِلَى مَا يُشْبِهُ السَّبَابَ مِنْ تَسْمِيَةِ الْأَشْيَاءِ بِأَسْمَائِهَا ، فَتَرَاهُ يُشَاهِدُهَا فِي إِطَارِهَا الْحَسِّيِّ حَيْثُ تُؤَنِي إِلَى ذُرْوَةِ دَلَالَتِهَا وَإِيْحَائِيَّتِهَا . وَلَوْ أَنَّهُ تَعَجَّلَ التَّعْبِيرَ أَوْ اسْتَصْرَحَهُ ، فَقَرَنَهُمُ بِالْعَبِيدِ وَالْبَهَائِمِ فِي مَقَارِنَةٍ وَاعِيَةٍ لِاسْتِحَالِ الْهَجَاءِ إِلَى حَرَكَةٍ أَوْ إِلَى تَصَرُّفٍ مِنْ حَرَكَاتِ الدَّهْمَاءِ وَتَصَرُّفَاتِهِمْ . فَالْأَخْطَلُ لَا يَتَخَلَّى عَنْ وَقَارِهِ فِي الْهَجَاءِ وَلَا عَنْ تَكْنِيَّتِهِ الْفَنِيَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى اسْتِحْضَارِ الْمَعَانِي فِي أَطْرَافِهَا الْخَاصَّةِ بِهَا . فَهُوَ لَا يَتَهَنَّجُهُمْ بِالْحُمُقِ الْمَبَاشِرِ ، بَلْ يَجْعَلُ صَحْوَهُمْ كَسُكْرِهِمْ وَسُكْرَهُمْ كَصَحْوِهِمْ ، فَكَأَنَّ الْحَمْرَةَ لَا تَغْيِرُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ ، إِذْ أَنْتَهُمْ يَتَّبِعُونَ وَيَتَمَاجِنُونَ ، فِي كُلِّ غَدَاةٍ ، أَوْ لِأَنَّهُمْ طَبَعُوا عَلَى ذَلِكَ فِي طَبَاعِهِمْ . وَلِتَمَثُّلِ وَاقِعِ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ ، وَهُوَ يَتَصَابِحُونَ وَيَفْحَشُ أَحَدُهُمْ بِالْآخَرِ وَلَا يَكْفُونَ عَنْ ذَلِكَ قَطْ . هَكَذَا يَعْفُ الْأَخْطَلُ عَنِ الثَّلَبِ بِالْفَافِظَةِ فَيَتَكَنَّى عَنْهُ بِمَا يُوَازِيهِ . فَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُمْ ذَوُو فَحْشٍ وَمَجُونٌ وَتَهْتَكُ ، وَهِيَ مِنَ التَّعَابِيرِ الْفَاقِدَةِ الدَّلَالَةَ لِأَنَّهَا مِنْ عَالَمِ النَّثْرِ أَلَمْ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَأَلْمَحْ إِلَيْهِ وَعَمِّقْهُ مِنَ الْمَسَاوِةِ بَيْنَ صَحْوِهِمْ وَسُكْرِهِمْ .

وَإِذَا كَانَ الْقَوْلُ نَمًّا عَنْ نَفْسِيَّةِ الْقَائِلِ ، فَإِنَّهُ نَمٌّ عَنْ عَفَّةِ الْأَخْطَلِ ، وَهِيَ مَأْثُورَةٌ عَنْهُ حَتَّى إِنَّكَ قَلِمًا تَقَعُ فِي دِيْوَانِهِ عَلَى لَفْظَةٍ نَائِيَةٍ بِخِلَافِ خَصْمِهِ جَرِيرٍ ، وَهُوَ النَّاشِيءُ

في بيئة حقيرة إذ تراه يَطْرَبُ للفُحْشِ ، يسميه باسمائه ويتداولها كُلٌّ تداولاً
 ممَّا لا مجال لذكره . نقول في مثل ذلك أن الصِّفَةَ الفنِّيةَ الجماليَّةَ هي الغالبة على
 منازع الأخطل في شعره وأنه فلَمَّا يَسْبِغُ الإقْداعُ الَّذِي يَدْمِي ، إذا لم يؤدِّه
 في حلَّةٍ جماليَّةٍ لا تتباين عن حلته في المدائح والأوصاف وما إليها . وإذا ما اضطرَّ
 إلى تأدية المعنى باللَّفْظِ المجرَّد ، من دون الصُّورة ، يتخيَّرُ منه اللَّفْظَةَ العامَّةَ التي
 تُوحِي بالمعنى ولا تُفَصِّلُ فيه كقوله :

قَوْمٌ أَنَابَتْ إِلَيْهِمْ كُلُّ مُخْزِيَةٍ وَكُلُّ فَاخِشَةٍ سَبَّتْ بِهَا مَضْرٌ

فأنت تراه وقد اقتصر على لَفْظَتَيْ « مخزية وفاحشة » وهما تُلْمِحان إلى العار
 والفُحْشِ ولكنَّهما لا تُفَصِّلان فيه ولا تسميان المعاني باسمائهما المُقَدَّعة . لا شكَّ
 أن مثل هذه التعبيرات تُضَعْفُ من وَقَعِ المعنى لَأَنَّهَا قَائِمَةٌ عَلَى اللَّفْظِ المجرَّد . إلا
 أن الأخطل يبثُّ فيها حدَّةً وشدَّةً إذ يوقِّعها عبر صيغة ظاهرة من صيغ الإطلاق
 والتعميم بل في صيغة التعميم اللفظي : « كُلُّ مُخْزِيَةٍ وَكُلُّ فَاخِشَةٍ » ، وقد جاءت
 لفظة « كل » لتمنح المعنى الغلُوَّ بالاطلاق ، وهو أسلوب أدنى فنياً من أسلوب
 الكناية الحسيَّة التي تقتبس من أديم الواقع وتعزل عنه وتصلقه بحيث توفي منه إلى
 غاية الاطلاق والغلُوِّ ، دون أن تتوسَّلَ بألفاظهما .

واثر ذلك تراه يثني إلى الكناية الحاملة معنى الزرابة بذاتها من قوله : « على العيارات
 هدَّاجون » . وقد لا نبلغ إلى أقصى غايته من هذا القول إذا لم نتمثله في حدود
 البيئة العربيَّة القائمة على مثلُ الفروسيَّة . ولا يزال النَّابِغَةُ والأخطل أو من إليهما
 يُشِيدان بجِملِ الممدوح ، يلمَّان بذلك في أبيات متعدِّدة ، يُلْحَقُونَ به وَيُحَدِّقُونَ
 فيه بكلِّ وجه واحتمال ، وهم يَمُنِّحُونَ الممدوح بذلك صفة الفروسيَّة الحارقة
 والبطولة التي لا تُضَاهِي . والعربي يأنف أن يَمُنِّحَ بما لا صلة له بالقوَّة ، فكأنه
 قصر عليها غاية الحياة كلَّها . ومن يمتطي العير ويتهدَّج عليه ببطء وتناقل لا ينهد
 إلى قتال ولا يسعى إلى جُلِّي ولا يتحلَّى بأية فضيلة من فضائل الفروسيَّة والبطولة .
 فهو قليل القدر ، هزيل الهموم يدَّأب لغاية حقيرة تَمَثَّلُ في عيره البطيء
 ورضاه بالقيام عليه .

ولعلَّ الأخطل يُضمَر ، هنا ، أيضاً ، تشبيهم بالعبيد ، إذ ان الفارس الحرّ لا يمتطي العير ولا يحفل بالسَّعي إلى الأغرراض اليسيرة . والعربيُّ يُفصح عن نفسه حتّى من خلال مطيئته . فالأخطل لا يزال يَصدر حتّى الآن عن التَّحليل النَّفسيّ ، يُزاوِل الهجاء من الدَّاخِل بالنَّسبة إلى قيمة الانسان الفعلية والمثُل التي يَنهد إليها ، نائياً عن الابتدال في الانفعال والصُّورة واللَّفظة . وهو ، إذ يوحي بمدى شهرة المهجو وتذيُّعه في النَّاس ، يَتَنَكَّبُ عن التَّعبير المباشر ويتَّخذ لذلك تقيّةً بأسماء الأمكنة المُتَّباعدة :

..... قد بَلَغَتْ نجرانَ أو حُدَّتْ سؤاتهم هُجرُ

والقارىء قد لا يُدرك بدقة حدود ذينك الموقعين ، ولكنه يستدرك منهما الدلالة على مدى الاتساع والشَّمول في نوع من الكناية التي تتسم بيقين الواقع وعمق التأثير النَّفسي ، معاً . ولعلّه لم يَبْتدع هذا المنحى إذ كان الجاهليُّ يوحي بعظم المسافة التي اجتازها الحمار الوحشيُّ لِيَتَّجِع الماء ، من خلال تسميته للمواضيع النَّائية بعضاً عن البعض الآخر . تلك تَكْنِيَّةٌ فَنِّيَّةٌ تُوَلِّفُ طبائع الواقعية التي تُوحي باقصى غاية المثلية .

وكما أزرى بهم من خلال شراهم الذي يَخْتلسونه ، وهم معفرو الكرامة ، مُلَطَّمون ، ومن خلال مطيئتهم الهزيلة التي لا تعدو البعير المُتهدِّج ، ومن خلال مسكنهم الذي يَعْتزِلون فيه بالغيِّب ، تراه يُزري بهم كذلك من خلال طعامهم ، ليأتي على هجائهم فيما يقومون به ويؤدُّونه ، جميعاً : « الآكلونَ خَبِيثَ الزَّادِ وَحَدَهُمْ » . والزَّادُ الحَبِيثُ هو الزَّادُ الذي يَهْتَبِلون فيه ما تيسَّر لهم من نفايات المآكل وفُتاتِها ، لا يَحْرَجون من ذلك لأنَّهم كالعبيد المضارِب ، يهْمُّهم أن يملأوا جوفهم ، كيفما تيسَّر لهم هذا الأمر . قال عَنتره :

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظلُّه حتّى أنال به كريمَ المآكلِ

فهناك مآكلٌ كريمٌ وهناك ، أيضاً ، مآكلٌ زَئيمٌ ، خبيث . الأوَّلُ ينالُه المرءُ

ببطولته ويأكل فيه عَفْوَةَ الطَّعَامِ وخَيْرَهُ ، لا لإشباع شهوته إليه ، بل للحفاظ على كرامته به . أما المأكل الحبيث ، فهو المصحوب بالهوان يكسبه المرء معترراً به ، باذلاً من دونه كرامته . فالأخطلُ يَتَنَصَّتُ لكلِّ هِنَةٍ وحالة نفسيةٍ ويُدْرِك من الإباء والهوان كُلَّ سمةٍ من سماتهما . وإذا كان الشعرُ وسيلةً للتعبير عن الحقيقة الإنانيَّة الحميمة ، اللَّطيفة ، المكتئومة ، فإن الأخطل لا يزال يهتدي إلى ذلك بهدايةٍ من خبرته بواقع النَّفس البشريَّة ونوازعها وترجُّحها بين الواقع والمثال . فالهجاء ، هنا ، هو هجاء نفسيٍّ يَتَلَمَّس فيه الحقائق الغائرة في الضمير والوجدان . وهو لا يرتضي من المعنى بأيسر ما يَتَلَقَّفه منه ، بل إنَّه يراوده في كُلِّ مراودة إذ تراه يَرُدُّفُ بأنَّهم يأكلون زادهم « وحدهم » ، نامياً إليهم رذيلة البخل ، فضلاً عن الهوان . إلاَّ أنَّه لا يَمْتَنِع في ذلك كُلُّه عن التَّكرار ، وإن كان تكراراً داخلياً يَفْصَلُ فيه ما أجمله ، سابقاً : « والسائلون بظهر الغيب ما الحَبْرُ » وكان قد أشار إلى قيامهم في الغيب ، قبلاً ، إلاَّ أنَّه أضاف ، هنا ، أنهم يتساءلون فيه : « ما الحَبْرُ » أي أنَّهم مَحْجُوبُونَ فيه عن سياق الأحداث ، لا يَسْتَشَارُونَ ولا يُحْفَلُ بهم فيها . والشأن في ذلك كله هو شأن الكرامة والحريَّة اللتين لا نصيب لهما منهما ، يَفْقُونَ في مؤخِّرة النَّاس كالعبيد والبهائم ، كما يبدو في قوله :

وَأذْكَرُ غَدَانَةَ عَدَانًا مَزْنَمَةً مِنْ الْحَبْلَقِ تُبْنَى حَوْلَهَا الصَّيْرُ

ولقد أَسَفَّ إلى التَّصريح المباشر عن مماثلتهم للبهائم ، أفصح عن ذلك بألفاظ « عدان » وهي جماعة من المعزى « ومزنمة » أي التي تدلَّى من حلقها « والحبلق » وهي أبناء المعزى الصغار ، و « الصير » وهي حَظَائِرُ الماشية . وفي مثل هذا البيت يتضاءل قدر التَّحليل النَّفسيِّ وَيَتَعَاظَمُ السُّخْطُ ، فلا يعود الشَّاعر يَزُرِي بهم من افتضاح ضمائرهم وأحوالهم النَّفسيَّة بما يبدو من أعمالهم وأقوالهم ، بل يتلقَّفُ أساليب شائعة في التَّدليل على الزَّراية .

هكذا يُحِيطُ الأخطلُ بالمهجور في كُلِّ ما يَنِمُّ عن شخصيته وضميره ، في المقام الذي يَنْزِلُهُ ، وكان العربيُّ يَفْخَرُ أنَّه يُقِيمُ في خيم من الأدم وأنَّ لها عصباً

حمراء ، وأنه ينصّبها في التلال العالية لأن ذلك أدلّ على كرامته ومناعته .
ولا يعدو الشراب والطعام والمطايا هذا الأمر ، لأنها ، جميعاً ، متصلة بمقام
الشخص من نفسه ومن الآخرين .

* * *

ولقد تراه في قصائد أخرى ، يستهلّ الهجاء بالغزل المبّسّر ، ليعرّج ، من ثمة ،
على الهجاء ، كما نرى في قوله :

أذكَرْتَ عَهْدَكَ ، فاعترتكَ صِبابَةٌ وذَكَرْتَ مَنْزِلَةَ لآلِ كَنُودِ ١
أَقْوَتُ ، وَغَيْرَ آيَها نَسِجُ الصِّبَا وَسِجَالُ كُلِّ مُجَلِّجٍ مَخُودِ ٢
وَلَقَدْ شَدَدْتَ عَلَى المَرَاغَةِ سَرَجَها حَتَّى نَزَعْتَ ، وَأَنْتَ غَيْرُ مُجِيدِ ٣
وَعَصَرْتَ نُطْفَتَها لِتُذْرِكَ دارِمًا هَيْهَاتَ مِنْ مَهَلٍ عَلَيْكَ بَعِيدِ ٤

١ - م يخاطب الشاعر نفسه ويقول : هل ألتت بك الذكرى ، فأثارت شوقك إلى مترل كان
يقيم فيه جماعة من بني كتود؟

٢ - أقوت : خلت وتغيرت . الصبا : الريح الشمالية . السجال : هنا المطر المنصب كالقريب
المججلج : هنا المصوت بصوت الرعد .

م يقول إن تلك الديار أفقرت إذ ارتحل عنها سكانها ، كما أن عبور الريح بها مع ما تسفيه من
تراب ، والمطر الغزير المنهمر من السحاب المججلجل بقصف الرعد ، إن ذلك ،
جميعاً ، غير معالها .

٣ - المراغة : والدة جرير . المجيد : الذي له فرس جواد .

م يتهكم بجرير ويسخر منه إذ يمثل والدته بدابة شدّ عليها سرجها وجعل يعلو بها متبارياً

٤ - المهل : التقدّم والسبق . عصرت نطفتها : أي بقية ماها . دارم : من أجداد الفرزدق .

م يقول إنك أرفقتها غاية الإرهاق لتلمح فيها بدارم ، ولن يكون لك قبيل بذلك البتة .

- وإذا تعاظمت الأمور لدارم ١
 وإذا وضعت أباك في ميزانهم ٢
 وإذا عددت قديمكم وقديمهم ٣
 وإذا عددت بيوت قومك ، لم تجد ٤
 بيت تزل العصم عن قذاتيه ٥
 وأبوك ذو مخنية وعباءة ٦
- طاطأت رأسك عن قبائل صيد ١
 رجحوا عليك ، وأنت غير حميد ٢
 أربوا عليك بطارف وتليد ٣
 بيتاً كبيت عطارٍ ولييد ٤
 في شاحٍ ذي منعة وكوود ٥
 قمل كأجرب منتشٍ مورود ٦

١ - طاطأ رأسه : حناه .

م يقول وإذا ما تعاظمت الأمور قوم الفرزدق ، فغضبوا وهموا بالانتقام ، فإنك تخضع لهم لما هم عليه من عز وسيادة .

٣ - م وإذا وازنت مجدهم بمجدك ، شالت كفتهم ورجحوا عليك وألبيت من دونهم ، فاقداً المجد ، ذليلاً .

٤ - الطارف : الحديث . التليد : القديم . أربوا : زادوا وتفوقوا .

م يقول إذا ما أحصيت أمجادهم الماضية ، فإن الدارمين يتفوقون عليك بها ، قديماً وحديثاً .

٢ - ٥ - عطارٍ وتليد : من أجداد الفرزدق . العصم : الوعول . الكوود : المرتقى الصعب . القذات : جمع قذف ، وهو الموضع الذي يزل عنه . الشاح : المرتفع .

م يصور في هذين البيتين المجد الذي اختص به أجداد الفرزدق ويمثله بيت شامخ ، متعال في أعالي الجبال التي تزل وتترلق الوعول عنها لوعورتها بالرغم من أنها ألفت ارتياد الشواقي .

٦ - مخنية : علبة من جلود الإبل : منتش : مباعد لحرية . مورود : أي وردته الحمى .

م يمثل والد جرير تمثيلاً مزرياً إذ يتزع عنه صفة الفروسية ويعمله راعياً يعتصم بعباءته ومزادته ، وهو متزور عن القوم ، منتبذ كالبعير الجرب .

ومعاني هذه القصيدة أيسر متناولاً من معاني القصيدة السابقة ، فهو لا يحتمد فيها حشداً ولا يُوقَع المعاني في مواقعها التفسيرية العميقة ، بل يتلقّف ما طفا منها على اللّجة . ومنذ المطلع يَصِفُ الطلل بأوصافه الماثورة في عجالة بيتين أَلَمَ فيهما بالريّح والمطر اللّذين غيراً معالهما ، ممثلاً المطر بمثل انهماك الدّلو ، على غرار سواه . ثم يعدل إلى الهجاء دون تطوّر أو تخلّص بقوله :

ولقد شدّدتَ على المراغة سرجها حتى نزعْتَ وأنتَ غيرَ مجيّدِ

وآية ذلك أنّه لا فخر له يفخر فيه بأمه ، إذ أنها عديمة الفضائل ، لا قبل لها بمجاراة سائر النساء . والصّورة مستفادة من واقع البيئة في السّباق ، استعارها للمفاضلة في كرم المحتد ، إلا أنه نسب لوالدة جرير ما يُنسب إلى الدّابة : « سرجها » وهو معنى مُقذع لكنّه يبدو متعقّفاً إذا ما قُوبل بما يُنسبه جرير لوالدة الأخطل . وهو في هذه الصّورة ذاتها ، لا يتخلّى عن التّلميح إلى التّصريح ، إذ اقتصر على ذكر السّرج وشدّه ، ممّا أضفى على الصّورة قليلاً أو كثيراً من الإيحائية . فالأخطل لا يقذفُ بالمعنى قذفاً حتّى في تلك القصائد القصيرة التي لا يحتفل فيها بالنظم احتفاله المهود . ثم إنه يُشير إلى عصره لطفتها ، أي لانهاكه إيّاها في العدو دون أن تلتحق بالدّارميين . ولقد بدا المشهد في غاية الزّراية ، إذ لم يؤدّه في إطار من السّخر ، بل في سياق من الجدّيّة يعظّم من وقعه وغلوه . إلا أنّه فيما دون ذلك ، يُزجي المعاني وكأنّه يعدّها تعداداً من ذاكرته ويستوفي فيها غرّص القول في حدود شائعة مبنولة . لقد هجاه بالأصل إذ جعله يطأطء فيه للدّارميين ، يُكرّره في أبيات متعدّدة حتّى ينتهي إلى القول :

وأبوكَ ذو مَخِينِيَّةٍ وَعَبَاءَةٍ قَمِيلٌ كَأَجْرَبَ مُنْتَشٍ مَورودِ

وصورة والده تتعارض ما ما ترسمه لآباء الفرزدق اللّذين يرّجحون في ميزان المجد واللّذين يقيمون في بيت عزٍّ شاق ، كأنّهم منه في جبال تزلّ عنها الوعول . وهكذا ، فيينا يقوم قوم جرير في الغيب ينعم قوم الفرزدق بقصر بطولتهم

الشَّاهِق . وذكر العصم وعجزها عن اقتحامه لا يزال مأثوراً ، منذ الشعر القديم ، للتدليل على وعورة الارتقاء . وهذه هي المادِيَّة المَغْرَقَة في شعر الأخطل المنقولة عن الشعر القديم . فالمجد العظيم يَتَكَنَّى عنه بالقصر الهائل لأنه تجسيد وتحقيق له في الواقع الحسِّي المنظور . أما والد جرير ، فإنه مُنْتَبَذٌ بمزادته ، لا شأن له ، إذ أنه راعٍ يقتصر همُّه على سياسة الماشية ، تكسوه منها الاقدار ويعلقُ القمل . ولقد تعاطم الهجاء في البيئَت الأخير بألفاظه كالمحنيَّة والعباءة والحرب والقمل .

إلا أن الأخطل يمازج ، غالباً ، بين الهجاء والفخر ، كما نجد في رائيته الشهيرة التي استهلها مفاخرأ بالخيل التغلبيَّة وهجاء بني كليب بنزولهم في ديار الذلِّ واقْتفائهم آثار نسوتهم وتحلقهم عن نجدة الضيف وإذلالهم لأمتهاتهم وقعودهم عن الثأر لقتلاهم وفرارهم في القتال . ثم يخاطب جريراً ويهزأ به لصدية لمساماته ، ذاكراً أيام تغلب في مقاتلة الفرس بيوم ذي قار وقتلهم لشرحبيل بيوم الكلاب ونجدتهم للضيف في زمن القحط ، وينهي القصيدة مُزرباً أشدَّ الإزراء بحصمه مُقدِّعاً في هجاء والدته ، نامياً إليه الهزال وإليها الفُحش والفجور :

ما زالَ فينا رباطُ الخَيْلِ مُعْلَمَةٌ وفي كُليبِ رباطُ الذَّلِّ والعارِ ١
النَّازِلينَ بدارِ الذَّلِّ ، إنْ نزلوا وتَسْتَبِيحُ كُليبٌ مَحْرَمَ الجارِ ٢

١ - الخَيْلِ المُعْلَمَةٌ : التي وضع فرسانها عليها علامة الشَّجاعة .

م يستهلُّ هجاءه لجرير بالقول إن التغلبيين ما زالوا يقودون خيلهم إلى القتال ، وقد عُدَّت عليها علامات الشَّجاعة ، فيما يعقد بنو كليب ، قوم جرير ، علامات الذلِّ والعار إذ لا مآثر لهم في الحروب ، بل أنهم يقيمون في الذلِّ ويخلدون إلى العار .

٢ - مَحْرَمَ الجارِ : أي ما ينبغي أن يؤدي له من حقوق وما يحفظ له من ذمار .

م يقول إنهم حينما حلوا وأقاموا ، فإنَّ الذلَّ يُقيم معهم ، وهم ، إلى ذلك ، لا يحفظون حرمة الجار ولا يؤديون له حقوق الحماية والصيانة لعرضه وشرفه .

والظَّاعِنِينَ عَلَى أَهْوَاءِ نِسْوَتِهِمْ ۖ وَمَا لَهُمْ مِنْ قَدِيمٍ غَيْرُ أَعْيَارٍ ١
بِمُعْرِضٍ أَوْ مُعِيدٍ أَوْ بَنِي الْخَطْفِيِّ تَرْجُو ، جَرِيرٌ ، مُسَامَاتِي وَأَخْطَارِي ٢
قَوْمٌ إِذَا اسْتَنْبَحَ الْأَصْبَافُ كَلْبَهُمْ قَالُوا لِأُمِّهِمْ : بُؤِي عَلَى النَّارِ ٣
فَتُمْسِكُ الْبَوْلَ بُخْلًا أَنْ تَجُودَ بِهِ ۖ وَمَا تَبُولُ لَهُمْ إِلَّا بِمِقْدَارٍ ٤

فمنذ مطلع القصيدة يسهلُ بالفخر والهجاء معاً من خلال رموزٍ فروسيّةٍ نوّنها بها من قبل ، وهي الخيل وما تشير إليه من عزِّ أصحابها وسعيهم بها الى القتال . فالخيل التي تربط في جوار البيوت لا تزال تمُّ على مناعة أصحابها واستعدادهم الدائم للدفاع عن أنفسهم والتصدي للآخرين . فالخيل تغليبةً ، أما بنو كليب ، فانه لا يربط في ربوعهم إلا الذلّ والعار . وإذا كانت الخيل تربط في مرابطها ، فكيف يوثق الذلّ والعار ، وهما معنيان ، لا شكل واضحاً لهما . ومع أنهما تجريديان ، فان مقابلتهما مع الخيل ، منحتهما معنى الاطلاق والشمول والايحاء معاً ، لأنهما صدرتا عن الخيال النفسي الذي يبصر به الشاعر ما لا يبصر . والعنصر

١ - م يمثل حقاترهم وافتقارهم للرّجولة والحزم بالقول إنهم إذ يرحلون لا يرتحلون وراء مطلب أو غاية أو في سبيل القتال غزواً أو أخذاً بالتأر ، بل انهم يقتنون آثار نساءهم اللواتي يقدرتهم وفقما يطيب لهنّ ، ثم يردف بأنهم عريقون بمواقعة العار ، قد أليفوه وأقاموا عليه ، منذ زمن قديم . ووجه الهجاء في ذكره لافتقارهم آثار نساءهم يقوم على انتزاع فضيلة الفروسيّة عنهم وفي نسبة قلّة الشان إليهم .

٢ - م يقول مخاطباً جريراً : هل ترجو أن تساميني وتسابني وتفوز علي ببني قومك الأذلاء المقيمين على العار والذين يُعرضون عمّن يعتفيهم بعباء أو يطلب منهم صلة ؟

٣ - استنبح الضيفُ : أن ينبح نباح الكلاب ، لتجيبه فيهندي بها إلى مكان أهل ينجيه من هلاك السرى .

٤ - م يقول إن أمّهم وهي ذات بخلٍ عريق لا تبول بولها كله على النار ، بل إنها تطلق بعضاً منه وتخبس البعض الآخر .

الطاغي في هذه الصورة هو العنصر الجمالي الذي يعمق المعنى ويمدُّ أبعاده بالوسائل النفسية التي لا قبل بها الا للشاعر المبدع . ثم تراه يعمد الى التعداد والتكرار : « النازلين بدار الذلّ إن نزلوا » وهو تكرر لما تقدّم بما لا جدوى منه ، وينحدر الى التقرير اليسير في قوله : « وتستبيح كليبٌ محرم الحار » . فهذا المعنى يسير ، متداول ، لكنه يؤدّي ادائه عبر السياق العام للقصيدة إذ انه يُؤثّر في حشد المعاني الهجائية وتأليبها . وهو يستنبطها من كل حادثة ، وفقاً للقيم الإنسانية . فهؤلاء « يظعنون على أهواء نسوتهم » . وانسياقهم لآثر نسائهم له بعددٍ نفسيّ في التذليل على افتقارهم للرجولة والبطولة ؛ فالمرأة لا تنهد الى الجلتى ولا تحفل بالقتال ولا قبل لها به ، فهي مسلوبة أو سيّبة وليست فارسة مقاتلة . وإثر هذه الصورة الزريّة يعمد الى اللفظة بفضيلة صياغتها ، أو بالأحرى صيغة الجمع : « أعيار » وهي جمع « عار » فكأنّها تؤدّي الغلوّ بذاتها ، ثم يسمّي أجداد جرير باسمائهم ويسخر منهم ليخلص الى بيتين فاقت شهرتهما كل شهرة في الهجاء :

قومٌ إذا استنبج الأضياف كلبهم قالوا لأهمم بولي على النّار
فتمسك البول بخلًا ، لا تجود به وما تبول لهم إلا بمقـدار

وخير ما ورد في ذلك قول ابن رشيق : « إن أهجى بيّت قاله شاعر قول الأخطل في بني كليب بن يربوع رهط جرير : وذلك لأنّه قد جمع ضرباً من الهجاء فنسبهم إلى البخل بوقود النّار لثلاثيهدي بها الضيفان ، ثم البخل بإيقادها للسامرين والسّابِلة ورماهم بالبخل بالحطب وأخبر عن قلتها وأنّ بولة تُطفئها وجعلها بولة عجوز وهي أقل من بولة الشّابة ، ووصفهم بامتهان أمّهم وابتدائها في مثل هذه الحالة ، فدلّ بذلك على العقوق والاستخفاف وعلى أن لا خادم لهم وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء » .

وقد لا نجد مجالاً للإضافة الى ما تقدّم من قول ابن رشيق إذ استنفد وجوه الدلالة ، وإنما نودّ أن نشير الى لفظة « البول » وما تمّ عليه بذاتها من زراية ، فهو أمر لا يحفل به في الناس . أمّا قوم جرير فيعظمون قدره إذ لا يطيقون

أن يبذلوا شيئاً . فهؤلاء لا يبخلون بالماء وحسب ، بل حتى بالبول . وإنما لا نرى أن ما ذهب إليه ابن رشيقي هو الأسلوب الصائب في التأثر بهذين البيتين . لقد استفد غاية القول فيهما من الناحية العقلية التي تُعنى بالتعداد . وقد يكون من الأفضل أن نتقبلهما تقبلاً في النفس ، حيث نشعر بعمق الزرابة وضعف هموم النفس والاسفاف الذي لا يُسَفُّ إليه قَطُّ من التحسب لما لا يُحسب له حساب وبخاصة في البول وفي الولادة التي يتخرَّجُ بناؤها على عرقها . فالقوم الذين يحرصون حتى على بولهم ، وهو ما يبذله الناس ولا قبيلَ لهم بما دون ذلك ، أتى لهم أن يبذلوا ما هو أعظم منه بكثير ، أن يبذلوا ما لهم بكرم ، مثلاً ، وراحتهم لإقالة الآخرين من عثراتهم وأرواحهم للحفاظ على شرفهم وكرامتهم . وهناك وجه آخر في التذليل على ذلهم إذ أنهم لا يُطفثون نارهم على أيّ قادم عليهم ، بل على التائه والضال والذي يترجَّح مصيره بين الحياة والموت . وهم إذ يُطفثون نارهم ربما أطفثوا بها حياته ، ومع ذلك ، تراهم لا يحفلون بذلك ويدعونه لقدَره وموته حتى لا يؤووه وينفقوا عليه بعض الطعام . وكان طرفة يقول في تعداد ملاذه :

وكرِّي إذا نادى المضافُ مُحَنِّباً كسيد الغصا نَبَهته ، المتورِّد

فأين هذا من ذاك !! هكذا يجري الهجاء في الشعر ، عامة ، وشعر الأخطل ، خاصة ، يعكس فضائل الماثورة ويتفتق بكل حيلة لتمثيلها في نقيضها التام . وما داموا على هذه الحالة من الهزال ، فمن البديهي أن يقتل قتلاهم فلا يثارون لهم ولا يبثون بدمائهم :

لا يثارون بقتلاهم ، إذا قتلوا ولا يكرُّون ، يوماً ، عند إجحار^١

١ - الأبحار : الإلحاء والاضطرار .

م يقول إنهم لا يبوءون بدم قتلاهم ولا يثارون له . بل إنهم يدعونه يُسْفح ويُهندر ، إذ لا كرامة لهم ، ليحافظوا علىها ، كما أنهم عاجزون عن القتال ، لا يكرُّون إلى ساحته عندما تشتدُّ وطأته علىهم ، بل إنهم يفرون منه ، مولين الأدبار .

ولا يزالون شتى في بيوتهم يسعون من بين ملهوف وفرار^١
 فاقعد ، جرير ، فقد لاقيت مطلقاً صعباً ، ولا فاك بحر مفعم جار^٢
 ألا كفيتم معداً ، يوم مفضلية كما كفينا معداً ، يوم ذي قار^٣
 جاءت كئيب كسرى ، وهي مغضبة فاستأصلوها ، وأردوا كل جبار^٤

وإيراد هذه المعاني إثر ما تقدم منها يؤثر بفضيلة التكرار وحسب ، لأنّ مستوياتها تنخفض وتتداعى إذا ما قورنت بمعاني الأبيات السابقة ، فأية جدوى من قوله : « ولا يكرؤون ، يوماً ، عند إحجار » بعد أن ذكر ما يكون من أمرهم عندما يستنبح الضيف كلبهم . إنه ، دون شك ، فاقد الجدوى ولا طائل من دونه . ذاك أن الأخطل لا يتخلى عن نزعة التشقيف ، ولكنه لا يتهج فيها ،

١ - م يقول إنهم لا يقيمون في بيوتهم ، أمناً وطمأنينة ، بل إنهم قلقون ، مشردون ، بعضهم ملهوف يستنجد ويستغيث ، والبعض الآخر يفرّ هارباً مذعوراً . والشاعر ينسب إليهم في ذلك الضعف والعجز عن حماية النفس لاستغاثتهم الدائمة بمن يرفع عنهم الضيم وينعتهم بالجبن والهزيمة لتوليهم وفرارهم .

٢ - المطلق : هنا المتصعد .

م يخاطب جريراً ويقول له اقصد أي لا تسرع إلى سياقي ومجاراتي ، فإنك تلتقي بي مطلقاً يصعب عليك ارتقاؤه فتهلك من دونه ، وبحراً طامياً مزبداً لا تقوى على اجتيازه ، فتغرق فيه وتلقى حتفك في جوفه .

٣ - ذو قار : ماء لبني بكر بن وائل ، قريب من الكوفة وفيه كانت الوقعة الشهيرة بين بكر بن وائل والفرس .

م يُفاخر بني كليب في تصدّي قبيلته للأكاسرة في يوم ذي قار ويعبرهم بقعودهم عن ذلك .

٤ - م يقول إن كسرى كان قد أنفذ جنده للإيقاع بالعرب والفتك بهم ، وهم يتميرون ثورة وغضباً ، حتى إذا واجهوا العرب ، خذلوا وأبيدوا ، ولم يتنج منهم أحد حتى الحيابرة .

دائماً ، على منهج التطور العضوي ، حيث تنمو المعاني إلى نهايتها ، دون ردة
أو انتكاص . إلا أن قوله :

وَلَا يَزَالُونَ شَتَّىٰ فِي دِيَارِهِمْ يَسْعَوْنَ مَا بَيْنَ مَلْهُوفٍ وَفِرَارٍ

يسمو قليلاً بالمعنى ، من جديد ، إذ يُمثلهم ، وقد انقسموا فريقين ، أحدهما
يطلب النجدة والثاني يفرُّ مولياً ، ناجياً بنفسه . هذا هو دأبهم إذ يتعرضون لغارة
أو تصدَّى لهم الأعداء .

وبعد ان يزرى بجرير وقومه هذا الإزراء ، يفاخره بالقول :

اقعدُ ، جريرُ ، فَقَدْ لاقَيْتَ مُطَّلَعاً صَعْباً ، ولاقاكَ بَحْرٌ مُفْعَمٌ ، جارِي...

ويعدد في أبياتٍ طويلة اجتزأنا ببعضها أيام التغليب و انتصاراتهم على الأعداء .
فهو كأنما يقف على أشلائه ، رافعاً هامته بالعنجهية ، وبعد أن أجهزَ عليه
بقومه ، يجهز عليه بنفسه في القول :

ما كانَ مَنْزِلُكَ المَرُوثَ ، مُنْجِحِراً ، يا بِنَ المَراغَةِ ، يا حُبْلِي ، بِمُخْتارِ

١ - المَرُوثَ : اسم موضع . ولا بدَّ من تأدية هذا البيت بصيغة نثرية ليستقيم معناه ، فيغدو
كما يلي :

ما كان منزلك في موضع المَرُوث بمختار وأنت مُنْجِحِرِ فيه .

المُنْجِحِرِ : المُقيم في جحره ، وهو التفق الذي تقيم فيه الدويبة .

م يخاطب جريراً ويعيره بمنزله الحقير الذي يشبهه بِمُحْرِ الدَوْبَةِ ثم يعيره بأمة المراغة التي
كانت تبيع نفسها لكل مُنْتَجِع ، فتحمل منه سفاحاً .

جاءت به مُعْجَلًا عَنْ غِبِّ سَابِعَةٍ مِنْ ذِي لِهَالِهِ ، جَهْمِ الْوَجْهِ ، كَالْقَارِ ١
 أُمُّ لَثِيمَةَ نَجْلِ الْفَحْلِ مُقْرِفَةً ٢ أَدَّتْ لِفَحْلِ لَثِيمِ النَّجْلِ شَخَّارِ ٢

وهذه الأبيات تلج في أجواء الهجاء الشائع في النقائض والقائم على الاقذاع المستمد من المعاني الجنسية . غير أن الأخطل يعفُّ حتى في هذا القذف عن الألفاظ النابية بذاتها والتي كانت تقوم عليها تكنية الهجاء عند جرير خصمه ولتتمثل الأوصاف التي يُنمِئها إلى والد جرير وهي أوصاف جمالية فنية لأنها تؤدي أقصى غاية الإيحاء في موضعها . وهل أدلّ على التوحش من امرئ اسودَّ وجهه من لفح الهاجرة لقيامه منفرداً في الصحراء . فهذا معنى ابتداعيُّ اهتدى إليه بهدي من حدسه الخالق واعتاض به عن المسافهة المباشرة . ومع أن الأخطل يتولّى بعض المعاني في حدودها الشائعة المبذولة ، إلا أنه يعمد الى ذلك في موضع يخلص منه الى التصوير الابداعي ، الجمالي .

وترى الأخطل في قصائد أخرى يستهل متفاخراً :

لَقَدْ جَارَيْتَ يَا بَنَ أَبِي جَرِيرٍ عَزُومًا ، لَيْسَ يُنْظَرُكَ الْمَطَالَا
 نَصَبْتَ إِلَيَّ نَبْلَكَ مِنْ بَعِيدٍ فَلَيْسَ أَوْانَ تَدَخَّرَ النَّبَالَا
 فَلَ وَأَبِيكَ مَا يَسْتَطِيعُ قَوْمٌ إِذَا لَمْ يَأْخُذُوا مِنَّا حَبَالَا

١ - اللّهاله : جمع لهلّمة وهي الفلاة الواسعة . المُعْجَل : هو الجنين الذي يجهض به ، فيولد قبل حين الولادة .

م يقول إنّه وليد هزيل ، أجهضت به أمّه في الشهر السابع من امرئ متوحش يألف القفار ، متعبس الوجه كالزّفت لشدة احتماله للهاجرة .

٢ - النّجل : الولد . المقرفة : النذلة .

م يقبح بوالدة جرير ويقول لأنها لثيمة مقرفة وضعت جريراً من فحل شخّار ، لثيم الولد .

عَدَاوَتَنَا ، وَإِنْ كَثُرُوا وَعَزُّوا وَلَا يَثْنُونَ أَيْدِينَا الطَّوَالَا ١

فالفخر يجري ، هنا ، على سياقين ، أحدهما في فخر الشاعر بنفسه وشعره وتحديده خصمه للمنازلة بالهجاء ، والثاني في بني قومه الذين لا قبل للناس بالتعرض لهم ، أياً ما كانت حالهم من المنعة . ويُخَيَّلُ اليْنَا ان الأخطل لا يُفَاخِرُ جريراً مفاخرة جدية ، قاسية ولا يسوق المعاني كُلهَا الى غايته ، بل إنَّه يتناول ويتداول أيسرها ، إمَّا استصغاراً لقدره ، وإمَّا لأنه لا يقوم في ذلك مقام الضنك والشدَّة . ومعاني الأبيات السابقة لا تختص بأية ميزة أثرت في شعر الأخطل ، أكان ذلك في جلال العبارة أم في تقصِّي المعنى والصورة . ولعلَّ هجاءه يسمو على ذلك في حدَّة النبوة والتعرض لكل معنى والإفادة منه ، في بذل المعاني الهجائية :

وما اليربوعُ ، مُحْتَضِنًا يَدَيْهِ بِمُغْنٍ عَن بَنِي الخَطْفَى قِبَالَا ٢
تَسُدُّ القَاصِعَاءَ عَلَيْهِ ، حَتَّى تُنْفَقَ ، أَوْ يَمُوتَ بِهَا هُزَالَا ٣

١ - م يستكمل المعنى السابق ، ويقول إنهم ليعجزون عن مواجهتهم والانتصار في معاداتهم ، أياً ما كان عددهم وعدتهم ، وإن أيدنا الطوال تصدَّى لقتالهم ، حيثما كانوا ، لا يحول بينها وبينهم حائل .

٢ - اليربوع : إشارة إلى جرير بن الخطفي . وأصل اليربوع في الدلالة على نوع من الفأر ، يقف على رجليه ، مستعيناً بذنبه ويضم يديه . القبال : شمع النعل .
م يقول إن جريراً ، وقد كنى عنه باليربوع ، لا يقوى في هجائه على الدفاع عن بني قومه وهو لا ينفعهم في شيء ، وقد تكتنى عن ذلك بالقول إنَّه لا يُغْنِي عنهم قبالاً .

٣ - القاصعاء : الحفرة الأولى من حفر اليربوع . والنَّفَقَةُ هي الحفرة الثانية والدَّامَاءُ هي الحرة الثالثة ، وهو ينتقل من إحداها إلى الأخرى ، فيما يُدَاهِمُهُ خطر .
م يقول إن اليربوع إذ يُدَاهِمُهُ خطر ينحدر من حفرة الأولى إلى حفرة الثانية ويختبئ في أنفاقه أو يموت جوعاً . والأخطل يستكمل بهذا القول هجاءه لجرير الذي تكتنى عنه باليربوع ، ويقول إنَّه إذا ما داهمه خطر ، يُوَلِّي وَيَلْتَجِئُ إِلَى نَفَقِهِ ، مُشْبِراً بِذَلِكَ إِلَى عَجْزِهِ عَن حِمَاةِ بَنِي قَوْمِهِ وَجُبْنِهِ وَتَخَاذُلِهِ .

فلا تَدْخُلُ بُيُوتَ بني كُليبٍ ولا تَقْرَبُ لَهُمْ أَبْدأَ رِحالا ١
 تَرى مِنْها لَوامِعَ مُبرِقاتٍ يَكْدُنَ يَنْكُنَ بِالْحَدَقِ الرَّجالا ٢
 قصيرات الخطى عن كل خيسر إلى السوات مسمحة رعالا ٣

فالشاعر يفيد هنا من لفظة يربوع ليمثل خصمه بهذا الحيوان الذي يكاد لا يسمع جرساً حتى يفزع إلى جحره ، منتقلاً من حفرة الى أخرى . والهجاء ، هنا ، هو هجاء اتِّفاقٍ ومصابقةٍ أوّل به ما طالعه في التسمية بحيث جعل جريراً يجزع ، ويهرع ويولّي وينظمس في نجابه . أما ما ثلب به قوم خصمه في نساؤهم ، فإنّه الهجاء الوحيد الذي ألمّ فيه باللفظ النابي ، الصريح ، دون ان ينزح عن دأبه في الرؤيا الداخلية ، إذ فطن ان من النساء من تزني بعينها ، كما تزني بجسدها ونفسها .

ومهما يكن ، فلعلّ أكثر قصائده استيفاءً لغرض الهجاء وموضوعاته ومقدّماته تقع عليها في اللامية . فهي قصيدة تدنو الى مدارجها في الإلمام بمعظم الأغراض . ولقد نظمها في هجاء جرير ومفاخرة قيس عيلان ، واستهلها بالقول إنّه قد تلامح له خيال حبيته الرّباب في موضعٍ واسطٍ وإنها أقبلت عليه هناك بعد صرم وقطيعة ، ثم يعرض لبعض ما يراه في أمر النساء ، ويقول إنهنّ يَغْدُرْنَ بالرجال وَيَمْكُرْنَ بهم ، يَتَوَدَّدْنَ لمن يَكْرَهُنَّه ، وَيَصُدُّنَّ عَمَّنْ يَمِلْنَ إليه ،

١ - رِحال : جمع رحل ، ولقد أشار به هنا إلى منازلهم .
 م يخاطب امرأةً متوهوماً ويقول له : لا تلجُ بيوت بني كليب ولا تدنُ منها .
 ٢ - اللوامع والمبرقات : هنا إشارة إلى النساء الكثيرات الزينة . الحدق : هنا العيون .
 م يُقدِّع في هجائه هنا غاية الإقذاع ، ويقول إنك إذ تغشى منازلهم تقع فيها على نساء متبرجات وقحاحات ، يتحمّلنّ بالرجال ، حتى ليكدنّ يضايعنهم بعيونهن .
 ولقد نسب لمن أشدّ ما ينسب في ذلك من فحش .

٣ - مُسمِّحة : مُسرعة . رِعال : جمع رِعلّة : القطيع والجماعة .
 م يقول إنهنّ يتخلّفن عن كلّ مكْرمة فيما يهرعن إلى كلّ مُنكر .

يَعِدْنَ وَلَا يُؤْفِنَ وَتَدْعُو أَحْدَاهنَّ الرَّجُلَ عَمَّهَا هزءاً به ، وإظهاراً لهرمه وكبره من دونها . وبعد أن يخاطب صاحبته أمّ صريم ، يشرع بالتفاخر ، ويقول عندما تعصف ريح الشمال ويغشى الصقيع شجر العضاة ويتكاثف عليه ويُلْفَى النَّاسَ بلا طعام ولا مُنْتَجَع ، فإنّ بني قومه يعجلون باللحم لضيوفهم .

ثم يخاطب بني كَلَيْبَ ويفخر عليهم بأعمامه وبخيل التغلبيين الكريمة التي لا تزال مضرّجة النحور ، لكثرة ما يُغشى بها القتال ، والتي لا تزال ضامرة يَتَصَبَّبُ العرق منها ويحفّ على متونها ، فيبدو عليها كالجلال . ويفخر كذلك بها لإردائها الملوك ولفتنك فُرسانها بقوم جرير وجماعات الرّباب وبيني غدانة ، ثم يمتدح أحياء من تغلب ويشيد بهرعهم إلى القتال ونصرتهم لبني قومهم وفتكهم بمناوئتهم ، ثم يشبه جموع التغلبيين بالسيل المنهمر، ويمثّل جريراً بالقذى الهزيل الذي يعبث به ذلك السيل في كلّ اتجاه . ويحقّر من أمر خصمه ويدعوه إلى مُلازمة شياحه والقيام عليها، إذ لا نصيب له فيما دون ذلك. ويمتدح بني دارم بالقوة والكثرة والوفاء والتجدة والتقدّم في ورود الماء فيما يُلْفَى جرير حابساً أعياره عن الماء مُنتبذاً بها كالناقة الغريبة ، يعجز عن إيرادها ولو بلالاً من الماء .

وقد باشر الفخر ، إثر المقدّمات ، ما نجتزىء منه بما يلي استيفاءً لغاية التمثيل :

أبني كليب ان عمّي اللــــــذا قتلوا الملوك وفكّكا الأغلالا ١

١ - عمي : اشارة الى عمّه أبي حبش الذي قتل شرحبيل بن الحارث ابن عمرو بن آكل المرار في يوم الكلاب الأول ، وعمّه الثاني ولعله عمرو بن كلثوم الذي قيل انه قتل عمرو بن هند . ومنهم من يقول إنّ عمّه الثاني هو الدّوكس بن القدوكس ابن مالك . الأغلال : جمع غلّ : القَيْد .

م يفخر في هذا البيت بمن ذكرنا من أعمامه ويقول اتهما قتلوا الملوك ، وقد نوّه بذلك ليفيد منه عزّاً ومجداً إذ ان قتل الملوك أعزُّ له من قتل الجنود وحتى الأبطال .

- وَأَخُوهُمَا السَّفَاحُ ظَمًا خَيْلَهُ حَتَّى وَرَدَنَّ جِيبِي الكُّلابِ نِهَالًا ١
يَخْرُجْنَ مِنْ نَغْرِ الكُّلابِ عَلَيْهِمْ خَبَبَ السَّبَاعِ تُبَادِرُ الأَوْشَالَ ٢
مِنْ كَلِّ مُجْتَنَّبٍ ، شَدِيدِ أَسْرُهُ سَلَسِ القِيَادِ ، تَخَالُهُ مُخْتَالًا ٣
وَمُمرَّةٌ أَثَرُ السَّلَاحِ بَنَحْرِهَا فَكَأَنَّ فَوْقَ لَبَانِهَا جِرْيَالًا ٤

فالفخر ، خلال هذه الأبيات ، يسمو الى ملحمة المعهودة فيه ، وكأنه لا يُفاخر به بني كليب مفاخرة افتراضية ، بل يتواقع فيه مع أعدائه القيسيين حيث تنخضب المعاني بالثارات والدماء والاشلاء . والبيت الأول يحتفل احتفالاً شديداً بأجواء الفخر من توقيع العبارة والاستهلال فيها بالنداء المنطوي على معنى التقرير والعنف ، فضلاً عن لفظة « اللذا » وما تنطوي عليه من معنى التخصيص والادعاء ، يتعاطف ذلك كله بفعل « قَتَلَ » وهو فعل حي إذ باشر فيه المعنى ، غير مُشير إلى قيام حرب ، أو عراك أو مهدي بأي تمهيد . وربما كان أمر القتل يسيراً

١ - السَّفَاحُ : هو خالد بن كعب بن زهير ، وقصته أنه منع الماء عن جماعته ، إذ أهرقه وطلب منهم أن يدركوا جيب الكلاب ، حيث يُقدَّر لهم أن يردوا الماء ، بعد أن يفتكوا بأعدائهم . نِهَالًا : يطلبون التهل ، أي الاستسقاء .

٢ - الخَبَبُ : ضرب من العَدُوِّ تعدو به الخَيْلُ . الأَوْشَالَ : جمع وَشَلَّ : الماء القليل . م يمثّل خَيْلَ التَّغْلِييِّينَ الخارجة من القتال بالسَّبَاعِ السَّاعِيَةِ إلى الماء ، أي العادية بسرعة دون خوف أو وجل .

٣ - المُجْتَنَّبُ : أي الخيل التي يُجْتَنَّبُ ركوبُها ، التي تُسَاقُ إلى جنب الإبل ولا تُمْتَطَى إِلَّا فِي القِتَالِ . أَسْرُهُ : خَلْقُهُ .

م يستكمل وصف تلك الخَيْلِ ويقول إنها لا تُمْتَطَى إِلَّا فِي القِتَالِ ، تعظيماً لها وحفاظاً على نشاطها ، وإنها شديدة الخَلْقِ ، تمشي ، فتبدو وكأنها تحتال اختيالاً .

٤ - المُمرَّةُ : المُدْمَجَّةُ . الجِرْيَالُ : صباغ أحمر .

لولا ما أردف به تخصيصه من بالملوك ، وقتل الملك هو القتل البطولي ، الملحمي ،
الخارق . وقد ألمح الى ذلك عمرو بن كلثوم بقوله :

وسيدٍ معشرٍ قد توجَّوه بتاج الملك يخمي المخرجينا
تركنا الخيلَ عاكفةً عليه مقلِّدةً أعنتها صفوننا

والأخطل في زهوه بخيل بني قومه ، يقرنها بالسباع في سيرها وطلعتها ، بل
إنها لا تسير ، إذ تختال اختيالاً . والخيل هي رمز لأصحابها وما ينمي اليها ينتمي
اليهم . وهو ما زال يهتدي في ذلك الى التشبيه الدآني والتآني ، في آن معاً . ذاك
أنه إذ تقع عليه يأخذك بصدقه وواقعته ، ويظلُّ ، مع ذلك ، نائياً لأنك قلما تقع
عليه بنفسك في البدهاة . فالعلاقة بين الخيل والاسود ليست مبذولة لأن الأولى
تؤثر فيها خاصة الجمال والسرعة ، فيما يغلب على الثانية معنى الشجاعة المطلقة .
إلا أن الأخطل استهدى عبر ملامح الخيل على عنجهية الأسد الزأهي بقوته .

ويردف ، إثر ذلك ، قائلاً :

وإذا سَمَا للمجدِ قرَعاً وإِبلٍ واستَجَمَعَ الوادي عَلَيكَ فَسَلا ١
كُنْتَ القَذَى في مَوْجِ أكْدرٍ مُزِيدٍ قَذَفَ الأثَى بِهِ ، فَضلاً ضَلالاً ٢

١ - الشرعية : موضع في الجزيرة كانت فيه وقعة بين تغلب وقيس ، وانصرت فيه تغلب .

م يقول إن الجحاف السلمي فجع بما أصاب بني قومه في وقعة الشرعية ، إذ رأى التغليين
قد أجهزوا عليهم ، ولم يعفوا حتى عن أطفالهم .

قرَعاً وإِبلٍ : بكر وتغلب . استَجَمَعَ الوادي عَلَيكَ فَسَلا : كناية عن الجموع
المتدفقة منهم تدفق السيل .

٢ - الأثَى : السيل الذي يأتي فجأة ، لا يعلم من أين قدمه .

م يشبه جريراً بالقذى اليسير على متن ذلك السيل المتدفق ، الذي يذهب به كل مذهب .

ولقدَ وطِئَنَ على المشاعِرِ مِنِ منى حتى قدَفَنَ على الجبالِ جِبالا ١
فانعَقَ بضائِكَ يا جريرُ ، فإنمّا منتكَ نفسكَ في الخلاءِ ضلّالا ٢

ولقد استعادَ الأخطلَ ، ثمة ، اسلوبه الماثور الذي يبثُّ به المعاني في أقصى غلوائها ، فيما يفيدُه من خبرته بالتجارب الحسيّة الواقعيّة . وهو لا يبذل غايته بذلا ، بل تراه يستعير لها ، إذ يقترن زحف الجيش بانهمار السيل الذي لا يدعُ شيئاً في سبيله . وقد لا يكون ذلك كله مبتكراً ، إلا أنّ الأخطل عمقه من خلال إيجازه له ونسبته الى السيل بنسبة مباشرة كأنه لا يقوم على المقارنة والمماثلة ، بل على اليقين الحقيقي والفعل الواقعي . لقد استهدى في السيل على معنى القوّة التي لا تُردع ولا تُردُّ ووحد بينه وبين ما في نفسه من قوّة الجيش واندفاعه . فالأحداث والمظاهر لا تجوز على أديم نفس الشاعر ، بل تُوغل فيها بالدّهشة والرُوع والانفعال ، ويخلص منها في وعيه أو لاولعيه الى معانٍ يستعيرها لتجسيد انفعالاته الأخرى . ولتتمثل فعل : « سال » وما ينطوي عليه من معنى الحشد والسرعة . إنها النزعة الماديّة المتحدّرة من صلب الشعر الجاهلي ، ولكنها ليست الماديّة العمياء ، بل إنها نوع من الحلول في رموز المظاهر والتوحيد بينها وان كانت متباينة . فإذا كانت تلك حال الجيش المنهمر انهماراً ، فأياً يكون شأن جرير فيه . إنه القذى والغناء الذي يدور في كل اتجاه . ولا يُعادل عظم الصورة التي وصف بها الجيش الا عظم الصورة التي حقّر بها خصمه . هكذا يتآلف الفخر والهجاء في شعره ،

١ - منى : واد ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار من الحرم . المشاعر : المناسك .
م يقول إن سيل التغلبيين تدفق على منى ، فبدا كالجبل الذي يمتطي جبلا آخر . وشعراء
الفخر يدأبون على التوسل بلفظة « جبل » للتكنية عن العلو والشموخ ، وقد أسرف الفرزدق
في ذلك .

٢ - انعق : التعيق دعاء الراعي للشاء .
م يحقّر من شأن جرير ويدعوه إلى ملازمة شياحه والقيام عليها ، إذ لا نصيب له فيما عدا
ذلك . وهو لا يبرح يتعاطم ويتبجح إذ يلقي ذاته وحيداً ، فيما يجنب إذ يواجه المُقاتلين .

يسمو أحدهما بالآخر ويتضاعفُ به . فالسَّيْلُ الصَّاحِبُ المنحدر ، فجأة ، غالى بصورة القذى وتفاهته وقلة شأنه . ولا بدع ، بعدئذ ، في القول ان الهجاء والفخر هما وجهان متباينان لمعنى واحد . إلا أن القذى الذي قرنه به لا يعدو الصورة الافتراضية الوهمية إذ لا قبل لنا قطُّ بتمثُّل جرير بشكل قذى في المشهد الفعليُّ ، القائم . وربما بدت صورة استطرادية خالص اليها بالضرورة من تشبيه الجيش بالسَّيْل . هنا توسَّل الشاعر الخيال ، لكنه خيال تمثيلي ، تشبيهي يستحضر المعنى من مقارنته بمشهد دون أن يخفت فيه وينطفئ ضوء العقل المتفكِّر ، المقارن . وهذه الصورة تتباين عمَّا يطالعنا في قوله :

فانق بضأنك ، يا جرير ، وإنَّما منتك نفسك في الخلاء ضلالا

ذاك ان المهجوة أقام أمامنا في مشهد واقعي ، لا تشبيه ولا افتراض فيه ، فهو مقتبس ومستمدُّ من أديم الظاهرة الفعلية الحية . وهنا تضاعف قدر الخيال وسمت عليه الكناية مع ما تُضمِّره وتُظهره من دلالات قيمية بالنسبة الى واقع العصر والبيئة . فقوم الشاعر تتدفق بطولتهم كالسَّيْل ثورة وحماماً ، فيما يلفى جرير ساعياً وراء الماشية يرعاها وهو ينسج الأمانى المخادعة التي تخذله ايّما خذلان عندما تتصدى للواقع . إنه يتوهم ذاته قادراً على مساماة الدَّارميين :

مَنْتَكَ نَفْسُكَ أَنْ تُسَامِيَ دَارِمًا أَوْ أَنْ تُوَازِنَ حَاجِبًا وَعِقَالًا ١
وَلَقَدْ رَكِبْتَ ، جَرِيرُ ، أَمْرًا عَاجِزًا وَمَنْحَتَ عَوْرَةَ أَمْلَكِ الْجُهَّالَا ٢

١ - تُسَامِي : أي تفاضله في السمو . دارم : من جدود الفرزدق . حاجب وعِقال : من جدود الفرزدق أيضاً .

م أي أن نفسه غررت ونزعت به إلى ادعاء مجد دارم وحاجب وعقال ، بالرغم من هوانه وضآلة قدره .

٢ - م أي أن جريراً سعى إلى ما لا طاقة له به ، وجعل الجهال يتداولون المساوية والمخازي اللاحقة بأتمه .

- وإذا وضعتَ أباك في ميزانِهِمْ قَفَزَتْ حديدتُهُ إِلَيْكَ ، فَشالا ١
 إِنَّ العَرَاةَ والنُّبوحَ لدارِمٍ والمُسْتَخِفُّ أخوهُمُ الأثقالا ٢
 ألمانعينَ الماءِ ، حتى يَشْرَبُوا عَفَواتِهِ ، وَيُقَسِّمُوهُ سِجالاً ٣
 وابنُ المَرَاغَةِ حابسٌ أعيارُهُ قَذَفَ العَرِيبَةَ ، ما يَذُقن بِلالاً ٤

وهذه المعاني أيسر من التي تقدمتها إذ وقف فيها عند حدود التعداد والتقدير والتمثيل ، وبخاصة في ذكره للموازنة التي شال بها أبوه شيلاناً عنيفاً لقلّة قدره وهزاله . وهذه الصورة مغرقة في البدائية والكثافة ، إذ قرن فيها القدر والكرامة بكفّة الميزان في حدود انعدم بها الخيال وتعفّت وظيفة الخلق . وفضلاً عما تقدّم تراه يكرّر المعاني ، كذكره لاستقامتهم عفوّة الماء ، فيما يقيم جرير في الذليل لا يجرؤ على الورود .

١ - شال : ارتفع .

م يقول إذا وازنت أباك بهم ، رجحوا عليه لحقارته .

٢ - العرارة : الشدة . النبوح : الجمع الكثير الجلبة .

م يمتدح بني دارم بالقوة وكثرة العدد ويقول إنهم ينجدون أخاهم ولا يتنكرون له ، عندما تحيق به المصائب .

٣ - عفواته : جمع عفوّة : صفوته وخياره .

م أي أنهم لعظم قدرهم يتقدمون الناس في ورود الماء ولا يدعونهم يقبلون عليه إلا إثرهم .

٤ - المراغة : أم جرير ، لقبها بذلك الفرزدق والأخطل . والمراغة هي الأتان التي يرتادها الفحول ولا يُمنون عنها . أعياره : جمع عير . الغريبة : الناقة التي تُودع في إبل ليست منها . ببال : قليل من الماء .

م أي أن جريراً متبوّذ في الناس مذلول فيهم .

ولا يعدو ذلك قوله :

في دارم تاج الملوكِ وصهرها أيام يربوع مع الرعيان^١
مُتَلَفٌ في بردة حَبَقِيَّةَ بفناء بيت مذلة وهوان^٢
يغذو بنيه بثلَّةٍ مذمومةٍ ويكون أكبر همَّه ربَّعان^٣
وهو يكرِّرُ الهُزءَ به خلال استقاء الماء :
وإذا وردت الماء كان لدارمِ عفوته وسهولة الأعطان
ويكرِّرُ كذلك الموازنة :

وإذا وضعتَ أباك في ميزانهم رجحوا وشال أبوك في الميزانِ

خلاصة حول هجائه لجرير :

يحاول الأخطل أن يؤثف المخازي ويجمعها حول خصمه ، فيُنَيْطها به وبكل ما يتصل به ، أكان ذلك في شرابه الذي يفد فيه بذيل الناس ، أم في طعامه الخبيث

١ - دارم : من أجداد الفرزدق . أصهر إلى قوم : تزوج فيهم . يربوع : من أجداد جرير .
م يقول إن الدارميين كانوا يحملون تيجان الملوك ويصاهرونهم ، فيما كان جدك برعي الماشية مع سائر الرعيزن .

٢ - حَبَقِيَّة : لعلها نسبة إلى صانع هزيل الصنعة .
م يستكمل معنى البيت السابق ويقول إنه يرتدي الأردية الحقيمة الزرية ويقيم في بيته الذليل الحقيقير .

٣ - الثلَّة : أصلها في الصوف وهنا للتدليل على اللحم الرديء . الرُّبُق : حبل يُشدُّ في عنق البهائم .

م يهجوهُ بإطعام بنيه لحماً رديئاً فاسداً وأنَّ همَّه يقتصر على امتلاك حبل يقود به غنمته وسواها للرعي .

الذي يأكله منفرداً ، أم في مسكنه الزري الذي يقيم فيه معتزلاً لا يحضر أندية الرأي ، أم لباسه الذي لا يعدو العبادة الحقيقية ، فضلاً عن أعماله كسوق البعران ورعاية الماشية ، ولا يغفل عن أبيه وأمه ، يمثل الأول قابلاً في ذلك ، تقتصر همومه على حراسة الأغنام ، فيما ينهد أعداؤه إلى القتال على متون الخيل ، كما أنه يصور والدته وسائر نساء قبيلته ويُسمي اليهن الفحش بحيث تزني الواحدة منهن بعيونها ، كما ان أولادها لا يعفون عن امتهاها في الخدمة ، وقد بلغت من البخل وضالة القدر أنها تضنُّ ببولها . وعبر ذلك كله يترسم لهم صورة تقرنهم بالعبيد والماشية ويوازن أباهم في ميزان المجد الذي يشيل فيه ، إذ أنه قاعد عن القتال ، فاقد النخوة ، يطفىء ناره عندما يستنبح الضيفان كلبه .

وتراه يترسم ، لقاء ذلك ، صورة البطولة لقومه وقوم الفرزدق في أجدادهم وأيامهم ، وفي بيوتهم الشاهقة وخيلهم وبطشهم ، وما الى ذلك .

ويمكننا القول ان اسلوبه العام في الهجاء هو الاسلوب النفسي الذي يقوم على تحليل واقع المهجو والتفطن الى مواضع العاهة والنقص في سيرته ، يعزلها ويغالي بها ويشبها ويتكنى عليها ، مما لا مجال للافاضة فيه ، إذ قدّمنا ذكره .

الباب الثالث

أهاجيه في القيسيّين

القيسيّون هم أعداء التغلبيين المباشرين ، قامت بينهم الأيام والمعارك ، بعضها هؤلاء وبعضها الآخر لأولئك ، في سلسلة من الثارات الدامية التي لم يعفوا فيها عن التمثيل بعضاً ببعض . وقد نوّهنا بذلك كلّهُ أو ببعضه في الفصل الأول ، وإنما نتولّى في هذا الباب الشعر الذي تولّد من تلك الوقائع ، وقد دوّى في قصائد الأخطل بالزراية ، حيناً ، وبالنقمة والوتر ، حيناً آخر . وثمة تباين بين هجائه

للقيسيين وما طالعنا في هجائه لجرير . ذاك أنه تواقع مع هذا الأخير في معركة كلامية ، ومباراة ذهنية ، أفاد كل منهما فيها من خبرته ومعرفته بماضي الأيام وتاريخ القبائل ، فضلاً عن التقاليد والعادات وما صلح وما طلع منها ، يؤدبان ذلك في ايقاع أدبي تتعاطم به حدودها وأطرها . وأياً ما كان وقع الكلام ، فإنه لا يوازي وقع السيف ولا يوازنه ، إذ ان التواقع بالسيف يصحبه القتل والترويع ، وأيام لا نهاية لها بين كراً وفرّاً ، وقتال وهدنة . فهذا الهجاء هو الهجاء الدأمي ، فيما كان ذاك الهجاء الكلامي ، أو الهجاء النظري أو الجدلي ، إذا جاز التعبير . فهو أشدُّ حدّةً وجديةً ، تتميز فيه سمات الشاعر وتربُّدٌ ، وتراه يرغى ويُزبد ويتألَّب ويحتشد ، متنازِعاً في ذلك كله بين الذلِّ والمجد الفعلين ، بل بين الحياة والموت ، في أحيانٍ كثيرة . فهو يقول ، مثلاً :

إذا ما قُلتَ قد صالحتَ بكَـراً أبي الأضغان والنَّسبُ البعيدُ ١
 ومُهراقُ الدِّماءِ بـوارِداتِ تبيدُ المُخزِناتِ ولا تبيدُ ٢
 وأَيَّامٌ لَنَا وَلَهُمْ طِـوَالُ يَعْصُ الهامُ فِيهِنَّ الحديدُ ٣
 هُما أَخوانِ يَصْطَلِيانِ ناراً رداءُ الموتِ بَيْنَهما جـديدُ ٤

- ١ - م يقول إنّه إذا ما همَّ بمصالحة البكريين ، فإن الأضغان المتوارثة منذ القدم بينهم وبين قومه تمنعه عن ذلك وتُحفظه عليهم من جديد .
- ٢ - الواردات : هضاب صغار في جبلة ، وفيها يوم معروف بين بكر وتغلب وقد انتصر التغلبيون على البكريين وقتلوا همام بن مرة أبا جساس .
- ٣ - م ويقول بينه وبين الصلح كذلك القتال الشديد الذي ظلَّ يشبُّ أواره بين قومه وبينهم وتضرب فيه السيوف هامات الناس وتُخَلِّقُهُم صرعى .
- ٤ - أخوان : إشارة إلى ما كان بينهما من مودة قبل حرب السوس .
- م : يقول إنهما لا يزالان يُصْطَلِيان بعضهما بعضاً الحرب ، وإن رداء الموت لا يزال يصطفج بدم جديد ، إذ لا يكفون عن تسافك الدماء .

يَشُولُ ابْنُ اللَّبُونِ إِذَا رَأَى نِي وَيَخْشَانِي الضُّوَاضِيَةَ الْمُعِيدُ ١
أَتُوْعِدُنِي الْوِبَارُ بَنُو سَلِيمٍ وَمَا تَحْمِي الْوِبَارُ وَلَا تَصِيدُ ٢
فَلَا جَرَحَتْ يَدِي بِنَبِي سَلِيمٍ وَلَا شِعْرِي فَتَهْجَوْنِي الشَّرِيدُ ٣
وَلَوْلَا أَنْ أَحْشَنَ صَدْرَ مَغْنَمٍ وَعُتْبَةَ قَامَ بِالْحَرَمِ النَّشِيدُ ٤
وَكُنْتُ إِذَا لَقَيْتُ عَبِيدَ تَيْمٍ وَتَيْمًا قُلْتُ أَيُّهُمَا الْعَبِيدُ ٥
لَتَيْمٍ الْعَالَمِينَ يَسُودُ تَيْمًا وَسَيِّدُهُمْ وَإِنْ كَرِهُوا مَسُودُ ٦

٥ - يَشُولُ : هنا يفزع . اللَّبُونُ : الناقة ذات الدرّة . الضُّوَاضِيَةُ : الجسيم من الدواب .

م : يفخر في هذا البيت ويقول إن عدوّه إذا ما لقيه يفزع منه ويولّي عنه كما يفزع ابن الناقة من الفحل ، كما أن الفحول القويّة الشديدة الضراب تحشاه وتولّي عنه . ومؤدى المعنى أنه يثير الرعب في الكبار والصغار والأقوياء والضعفاء .

٦ - الْوِبَارُ : جمع وَبْرٌ : دُوِيَّةٌ كالسنور كَحَلَاءِ اللَّوْنِ ، لها ذنب قصير .

م : يحقر من شأن نبي سَلِيمٍ ويقول إنهم كالدُّوِيَّاتِ الصَّغِيرَةِ الّتي لا طاقة لها بحماية نفسها والتصدي لسواها .

٧ - الشَّرِيدُ : هم فئة من السَلِيمِيِّين .

م : يعجب أن يهجوّه بنو الشَّرِيدِ ، وهو لم يطعن بهم بسيفه أو بشعره .

٨ م : يقول إن الهجاء كان قد استثير وذاع في الناس بهم ، لو لم يَرْدَعْ مَعْنًا وَعُتْبَةَ .

٩ م : يهجو التَّيْمَ في هذا البيت ويقول إنهم في هزالمهم وقُبْحهم وما يقومون به أشبه بعبيدهم ، فإذا لقيتهم لم تميّز بينهم وبين العبيد .

١٠ م : يقول إنهم يسودون عليهم أشدّهم لؤمًا ، فيبقى عبيدًا مستعبدًا للأخرين رغمًا عنهم .

فالأبيات الأربعة الأولى تؤكد ما ذهبنا إليه من أمر الثارات بينهم وبين القيسيين ؛
 فالأضغان والدّماء والأيام الطويلة تحول به عن مصافاتهم . وهو يقرّر واقع حاله ،
 هنا ، أكثر ممّا يهجو أعداءه . بل إنّه يُعدّدها واحداً واحداً ، ويشير إلى ما هو
 قائم من أمره معهم . فبنو سليم يوعدونّه وبنو الشريد يهجونّه وينتهي إلى الإقذاع
 بالتّيميين ، قارناً إياهم بعبيدهم . والبيتان الأخيران هما من المأثور في هجاء الأخطل ،
 مع ان المعنى اللّذي سلّبهما به ليس مبتكراً في شعره . فقد سبق لنا إمام بمثله في
 هجائه لبني كليب إذ نعمهم به في التّلميح دون التّصريح . إلا أنه أناط به هنا قدرة
 إبحائية خاصّة من التّكنيّة التي وقّعه من خلالها وعرضه بها . لقد أضفى عليه صفة
 البداة والبراءة متظاهراً بالموضوعيّة . فهو إذ يلتقي بالتّيميين ، صدفة ، يتعذّر عليه
 أن يُميّز بينهم وبين عبيدهم . وآية الأداء الصّفة اليقينيّة التي أناطها به بحيث
 لم يعدّ لك قبل برده لعظم بداهته وواقعته . وهكذا فإن هؤلاء يساوون عبيدهم
 في مظهرهم ولباسهم ومطاياهم ومطعمهم ومشرّبهم ومساعبيهم ، وقد أسقط عنهم
 كل مكرمة متّصلة بهذه المظاهر أو القيم . ومهما قلبنا وجوه التّأويل والتّفسير في
 ذلك ، فإن المعنى باجماله يظلّ أعمق وأشمل لان تلبّسهم بلبس العبوديّة حال
 بينهم وبين أي وجه من وجوه الفخر والسُّودد .

ومن هذا المعنى لإجمالي ينحدر إلى شيء من التّفصيل إذ يقول :

لثيم العالمين يسودّ تيمياً وسيّدُهم ، وان كرهوا ، مسودّ

ولقد توسّل للغلوّ بلؤمهم صفة الاطلاق بالنّسبة والاضافة والتّأويل . فسيّدُهم
 ألأمّ العالمين ، ولفظة « العالمين » هي لفظة اطلاقيّة تفيد نوعاً من الغلوّ السّاقط ،
 الدّاني المتناول لأنّه جار على ألسنة العامة ، بخلاف زعمه أنّه سيّدُهم إذ استبطن
 فيه الدّلالة على معنى مُضمّر . ذاك أنه إذا كان سيّدُهم هو أشدّ الناس لؤماً ،
 فهم . جميعاً ، لؤماء ، بل لأنهم يتبارون في اللّؤم . والعربي لم يكن يؤمر عليه إلا
 من تحقّق فيه المثال الأعلى الذي يصبو إليه ، يؤثرون أشجعهم وأجدهم ، أما
 التّيميون ، فيُسودّون عليهم ألأهمم إذ ليس لهم من دون اللّؤم غاية . ولقد أفاد

الأخطل المعنى الهجائي من خبرته بواقع السياسة والتقاليد في القبائل ، فجاء داخلياً ،
فنيأ . ومع ذلك فان لؤمه لا يشفع به ولا يُجديه ، إذ تراه سيّداً على قومه وعبداً
للآخرين . فهو عبد سيّد عبيد .

وقد يطفو على لجة إنفعاله نوعٌ من الشّماتة ، يشعر به إثر ما باء بشاراته من واتريه
وأزعجهم عن ديارهم وألحقهم بما دونها ، أدلاءً ، مكظومين :

وقدَ عَلِمَ النِّسَاءُ إِذَا التَّقَيْنَا وَهُنَّ وَرَاءَنَا ، أَنَا نَغَارُ ١
تَرَبَّعْنَا الْجَزِيرَةَ ، بَعْدَ قَيْسِ فَأَضَحَتْ وَهْيَ مِنْ قَيْسِ قِفَارُ ٢
يُزْجُونَ الْحَمِيرَ بِأَرْضِ نَجْدِ وَمَا لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ الْخِيَارُ ٣
رَأَوْا ثَغْرًا تَحِيطُ بِهِ الْمَنَايَا وَأَكْبَدَ مَا يُغَيِّرُهُ الْغِيَارُ ٤

١ - نغار : أي أننا نتدفع بحمية .

م : يتحدث عن نساء بني تغلب ويقول إنهن يصحبنا إلى القتال ويقمن من دوننا ، ويشاهدن
حميتنا واندفاعنا في القتال .

٢ - يشير هنا إلى تربع التغلبيين للجزيرة تحت رئاسة علقمة بن سيف التغلبي .

م : يقول إنهم أجلوا القيسيين عن الجزيرة وأقاموا فيها من دونهم ، وإنها أقرت منهم فلم
يعد يظهر لهم فيها أثر .

٣ م : يقول إننا تقيناهم عن الجزيرة إلى ديار نجد مكرهين ، فتولوا عنها ودأبوا على
سوق الحمير فيها ، وقد تخلتوا عن القتال . وقوله إنهم يزجون الحمير فيها ، إنما
هو إشارة إلى تحلبهم عن ركوب الخيل والإبل وهي مطايا القروسية والقتال عصرئذ .

٤ - الثغر : موضع المخافة . أكبد : حصن . الغيار : الأحداث .

م : يقول إنهم شهدوا من دون لقائنا موضعاً يحقُّ به الموت وحصناً حصيناً لا طاقة لأحداث
الزّمان به .

تسامي ماردون به الثريّا وأيدي الناس دونهم قصار ١

ففي البدء يفخر بدفاعهم عن نسايم ، لا يدعونهنّ للسي ، كما أنّهم نكلوا بعدوهم وانتصروا عليه ، فهرب من دونهم ومضى يسوق الحمير في منفاه . وقد كانت الجزيرة موضع نزاع دائم بين التغليين والقيسين . وهو إذ يفخر باجلائهم ، إنّما يهجوهم هجاءً مُقْدَعاً يبلغ ذُرُوته بقوله : « يزجون الحمير بأرض نجد » وتزجية الحمير هي أحد المعاني الهجائية المتكررة . فالحمار ليس مطيةً فروسيةً ومجد ، بل مطيةً هزال وقلّة شأن ، وذكره في هذا المقام يثلب الخصم ببطولته ويعدمه إياها ويزيلها عنه . ولقد تبدّل معنى الهجاء تبدُّلاً جزئياً عمّا كان عليه في هجاء جرير . فهو لم يشمت بقومه ولم يقخر بهم عليهم باجلائهم عن مواقعهم ، إذ لم تقمُ بيّنهم وبين قومه حروب مباشرة ، متواصلة ، ولكنه عيّرهم بسوق الحمير ، والتهدُّج ، إثرها ؛ فالأخطل قد يستمد معانيه من موضوعه ، فتتعدّل وتبدّل في قسم منها وتختصّ بقوم أو أفراد دون سواهم . ومن مظاهر ذلك ، أيضاً ، أنّ نزعة التفاخر طغنت عمّا كانت عليه قبلاً ، واختصّت بالمعاني الفروسية وهي تلج في حدود الهجاء غير المباشر . فهو إذ يدع المنايا تحيط بثغرهم ، إنّما يعتز ببسالة بني قومه ويزري بجن أعدائهم . فالهجاء هنا لا يخلص ولا يتحرّر ممّا نه ، بل تراه يتواترُ بيتاً إثر بيت ولا تصفو معانيه ولا تباشر في قصيدة كاملة . وغالباً ما يتخذ شكل الشماتة والتعبير ، كما تقدّم وكما يلي :

ألا سائلِ الجحافَ ، هل هو دائرٌ بقتلي أصيبت من سليمٍ وعامرٍ ٢

١ - ماردون : هي قلعة ماردن الشهيرة على قنّة جبل الجزيرة .

م : يفتخر بمحصن ماردن ويقول إنّه يرتفع بعزته إلى النجوم ، فلا طاقة لأيدي الناس بإدراكه ، وربما تمثل بهذه القلعة على قوتها ومناعتها في وجه الأعداء ، فضلاً عن تمثله بها على عظم مجنده وشموخره وعجز الآخرين عن مساماته .

٢ - الجحاف : من السّلميميّين أعداء بني تغلب وله يوم البشر الذي أوقع فيه بالتغليين شرّ وقعة .

أَجْحَافُ إِنْ تَصْنُطُكَ يَوْمًا ، فَتَصْنُطُكُمْ عَلَيكَ أَوْادِي الْبُحُورِ الزَّوَاحِرِ ١
تَكُنْ مِثْلَ أَقْدَاءِ الْحَبَابِ الَّذِي جَرَى بِهِ الْمَاءُ ، أَوْ جَارِي الرِّيَّاحِ الصَّرَاصِرِ ٢
لَقَدْ حَانَ كُلُّ الْحَيِّنِ مَنْ رَامَ شَاعِرًا لَدَى السَّوْرَةِ الْعُلْيَا عَلَى كُلِّ شَاعِرٍ ٣
يَصُولُ بِمَجْرٍ لَيْسَ يُحْصِي عَدِيدَهُ وَيَسْتَدِرُّ مِنْهُ ، سَاجِيًا ، كُلُّ نَاطِرٍ ٤

فالبيت الأول هو بيتُ شماتة مباشرة ، استثار به الجحاف بحيث جمع قومه وأغار على التغليبين في يوم البشر فقتل منهم مقتلة كبيرة . والهجاء مستمدٌ من الأحداث التاريخية ، بل إنه ليترجع بين الشماتة والفخر ، بعكس معنى البيت الثاني حيث يمثل جموع قومه بالبحور الزّآخرة وخصمه بالثناء والأقضاء وهي صورة ألمنا يمثلها في قوله :

← م : يخاطب الجحاف ويعيره بالقتلى الذين صرعهم التغليبيون من بني سليم وعامر ويدعوه إلى التآمر لهم من قاتليهم ساخرًا به .

١ - ٢ - تصطك : تندفع . الأواذي : الأمواج الكبيرة . الحباب : الفقاعات التي تغشى الماء . الصراصر : جمع صرصر : الريح الباردة .

م : يقول للجحاف إذا اقتحم عليك التغليبيون بأمواجهم الزّآخرة ، فإنك تُلْمِي كالتزبد الطّافي الهزيل على موجهم الهدّار الذي تعصف فيه الريح الباردة الصرصر .

٣ - حانَ : هنا ضلَّ .

م : يفخر في هذا البيت ويقول إنَّ من يتصدى له يضلَّ غاية الضلال عن غايته ، إذ لا طاقة لأيِّ من الناس بمطاولته ، لأنه قد أوفى إلى غاية ما يدركه شاعر من المجّد والعلی .

٤ - المجرّ : الجيش الكثير . السّجو : سكون الطّرف ودوام النّظر . سدرت عينه : إذا لم تكده عينه تبصر .

م : يعتر في هذا البيت بالجيش التغليبي الذي يؤلّبه ويقول إنّه كثيف لا يحصى عدده وإن من ينظر إليه تبحظ عينه وتسكن وتكاد تعمي لهول ما ترى .

وَإِذَا سَمًا لِلْمَجْدِ فَرَعَا وَائِلَ وَاسْتَجْمَعَ الْوَادِي عَلَيْكَ فَسَالَا
كَتَتَ الْقَذَى فِي مَوْجِ أَكْدَرَ مُزِيدٍ قَذَفَ الْأَثَى بِهِ ، فَضَلَّ ضَلَالَا

فالمعنى مطروق ومشارك بين هجاءيه في جرير والقيسين ؛ إلا انه يؤدي لهجاء
الشماتة معنى آخر ، بل معاني أخرى بقوله :

لَحَى اللَّهُ قَيْسًا حِينَ فَرَّتْ رَجَالُهَا عَنِ النَّصْفِ السُّودَاءِ وَالْكَاعِبِ الْبِكْرَا
وَوَلَّتْ تُنَادِي بِالْثُدِيِّ نِسَاؤُهُمْ طَوَالِعَ بِالْعَلْيَاءِ ، مَائِلَةَ الْخُمُرِ ٢
وَإِنْ يَكُ ، قَدْ قَادَ الْمَقَانِبَ ، مَرَّةً عُمَيْرٌ ، فَقَدْ أَضْحَى بِدَاوِيَةَ قَفْرِ ٣
تَطَّلَ سِبَاعُ الشَّرْعِيَّةِ حَسُولَهُ رُبُوضًا ، وَمَا كَانُوا أَجْنُوهُ فِي قَبْرِ ٤

١ - النَّصْفِ السُّودَاءِ : أي الامة .

م : يشمت بني قيس ويلعنهم لتزويجهم وهرتهم ، مختلفين لآثرهم نساءهم الحرائر وإماءهم
على السواء ، أي عندما فرّوا دون أن يدافعوا عن عرضهم أو يحرصوا على حمايته .

٢ - الْخُمُرُ : جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها .

م : يقول : إن نساءهم كن يقبضن على أئدائهن ويناشدن بها القيسيين للدفاع عنهن ، أي
أنهن كن يستحلفنهم باللبن الذي أرضعته لهن منها ، هاربات موليات صاعدات في
البطاح ، وقد مالت عنهن خمرهن من الملح والخوف .

٣ - الْمَقَانِبُ : هنا الجيش . الدّاويّة : الصحراء المقفرة التي لا أعلام فيها .

م : يشير هنا إلى فتكهم بعُمير بن الحباب ، زعيم بني سليم ، ويقول إنه بالرغم من اقتياده
للجيش واقتحامه للقتال ، فقد قُتِلَ وخُلِفَ جثمانه في الصحراء النائية المقفرة .

٤ - الشَّرْعِيَّةُ : اسم موضع كان فيه يوم لتغلب على قيس ، إلا أن عمير لم يقتل في الشرعية
بل في الحشاك .

م : يقول إن السباع الشرعية تربض حوله في القفر حيث خُلِفَتْ جثته دون أن يجتثها أي
أن يحتويها قبر . وذكره لتخليفه في القفر دون قبر ، إنما هو وسيلة لتحقيره وتحقير قومه
بما أصاب رئيسهم من زراية ، حتى إثر موته ، اذ لم يقدر له أن يُدفن كسائر الأموات .

صريعاً بأسيايفِ حَدَادِ ، وَطَغْنَسَةٍ ، تَمِجُ عَلَى مَتَنِ السَّنَانِ دَمَ الصَّدْرِ ١
 عَدَا زُفْرُ الشَّيْخِ الْكَلَابِيِّ طَوْرَهُ فَقَدْ أَنْزَلْتَهُ الْمَنْجَنِيْقُ مِنَ الْقَصْرِ ٢
 فَسِيرُوا إِلَى أَهْلِ الْحِجَازِ ، فَإِنَّمَا نَفَيْنَاكُمْ عَنْ مَنِيْبِ الْقَمَحِ وَالتَّمْرِ
 وَنَحْنُ حَدَرْنَا عَامِراً ، إِذْ تَجَمَّعَتْ ضِرَاباً وَطَغْنَأً بِالْمُتَّقَفَةِ السُّنْرِ

وكما فخر ، قبلاً ، بقوله :

وقد علم النساءُ ، إِذَا التَّقِينَا وَهْنٌ وَرَاعِنَا ، أَنَا نَغَارُ

تراه يزري بالقيسين لتخليتهم عن نسائهم للسي ، عن الأمة السوداء والفتاة الكاعب ، أي أنهم تخلوا عنهن ، جميعاً ، مساوين بين أقدار بناتهم الحرائر وامأهم المستعبدات. ثم أنه ينمو ويتطور بالمعنى إذ يؤدي له سورة أخرى أشد فاجعة وعاراً وذلك إذ تستنجد الأمهات المسيبات بأولادهن ويستحلفنهم بالأنداء التي أرضعتهن ، وقد تمزقت حجبهن عن وجوههن . وهذا المعنى استجدت في هجائه للقيسين ، وهو يحتمل معنى العار الشديد بالنسبة الى العربي الذي شهر بغيرته العنيفة حتى أنه لا يخرج من كساء وجه امرأته بالحجاب. والأخطل يبرز في اللوحة التي يرسمها المعاني المهمة ويدعها تنتو عمأ سواها مثال ذكره لمناداة أولئك النسوة

١ - م : يقول إن أسيايف التغليين الحادة قد أصابت منه مقتلاً وإنها مجت واستقت من دمه .

٢ - عدا طورَه : أي تعداه إلى ما لا يليق به . أنزلته المنجنيقُ من القصر : إشارة إلى أن عبد الملك ، لما أراد المسير إلى مصعب ، سار إلى قرقيسيا ، فحاصر زفر فيها ونصب عليها المنجنيق ، فأمر زفر أن ينادى في عسكر عبد الملك : لم نصبتم علينا المجانيق ؟ قال : لنثلّم ثلثة نقاتلكم عليها ، فقال زفر : قولوا لهم : أنا لا نقاتلكم من وراء الحيطان ولكننا نخرج إليكم .

بأندائهن . وإذا ما سبين وحملن إلى الأعداء يشاب الأصيل ، وهو عند العربي موضع تقديس .

وهناك معنى هجائي جديد آخر ألمّ فيه بعمير بن الحباب الذي فتكوا به وخلّفوه في القفر ، تحدق به الوحوش وتفترس جثته التي لم تُوارَ في قبر . فالمعنى العام هو معنى القتل ، ولكنّ الأخطل تمطّى به وجسده في إطار من الغلوّ ، إذ لم يُسمّ القتل باسمه بل تكنّى عليه وأضاف إليه ما يضاعف من وقعه . فهم قد قتلوه وخلّوه دون قبر ، فكأنّهم يحقّرون من أمره حتى إثر موته ، ولا يعدو ذكره لقيام الوحوش عليه هذا الشآن ، إذ ان نهشها له وافتراسها لأعضائه ضرب من التّمثيل به . فالتغليّبون لا يقتلون زعماء أعدائهم ، بل لأنهم لهيبتهم وبطشهم يمنعونهم من مواراتهم ، فتبقى جثّتهم كجثّة البهائم في العراء . وهذا المشهد هو مشهد واقعي فني ، لأنه أختير من دون سواه وعزل وافرد ليقع وقعه ويُدوّي دويّه في النّفس .

أما ما اعترى به زفر ، فإنّه يتدنّى عمّا اعترى به عميراً ، إذ ذكر قسرهم إياه على النزول من القصر ، وهو أمر يسير إذا قُوبل بالتّمثيل الذي أجهض به حقه على عمير . فالمعنى المخدر وتضاعل ، ثم عاد وتوتّب وانترى به ، شامئاً بقوله :

فسيروا الى أهل الحجاز ، فإنّما نفيْنَاكم عن منبِتِ القمحِ والتّمرِ

وإذا كان هذا المعنى مكروراً ، فإنّه قلّده حلّة جديدة في هذا البيت وضاعف ما ينطوي عليه من الشّماتة من ذكره للقمح والتّمر وارتحال العدو إلى القفار . والقمح والتّمر هما رمز الحصب ، وقد استأثر بهما التغليّبون فيما نزع العدو ، وكأنّ الأخطل يأخذ عدوّه بالقهر والتّشفي . ولسنا ندرك إلى أيّ مدى ينتمي هذا المعنى إلى الفخر أو الهجاء . وقد كان الأمر كذلك ، منذ بدء عهد الهجاء في الجاهليّة ، كأنه ولد توأمًا للفخر يسيران جنباً إلى جنب ، تغذّيهما البداوة بالإنفعالات العنيفة وذلك الزّهو أو الطرّب الذي يصحب النّفس البكر أو التي لم تدلّهيم فيها هموم الحضارة وتعقيداتها ولم تتفتّح حدقتها على هاوية الأشياء .

والأخطل لا يزال يُردّد معانيه السابقة ، وبخاصةً ما تعلّقت منها بارغام العدو على النزوح ، ممّا يطالعنا في الأبيات التالية التي نحلّها كنموذج لهجائه في القيسيين :

أعشرَ قيسٍ ، طالَ ما قد بَطِنْتُمُ
من الخبثِ ، فاطوؤا مِن فضولِ الخواصرِ ١
وسيروا إلى الأَرْضِ التي تَعْرِفونها
يَكُنْ زادُكُمْ فيها فصيدَ الأباعِ ٢
كلوا الكلبَ وابنَ العَيْرِ والباقعَ الذي
يبيتُ يَعْسُ الليلَ أَهْلَ المَفاقرِ ٣
فلولا قُرَيْشُ ، عولجتُ قَمَلِيَّةُ
على أعجفِ الذفري رقيقِ المَشارِ ٤
كانَّ غراضيفَ استِها فوقَ أثرِهِ
وحجَمَ تراقِيا سكاكينُ جازِرِ ٥

- ١ - م : يخاطب القيسيين ويقول إنكم طالما تبطنتم بالخبث حتى تورمتم وانتفختم به ، فأقصروا عنه ، وأزيلوا فضول خواصركم أي انتفاخ بطونكم به .
- ٢ - فصيد : هو مصران يملأ بما يُقصد من دم الناقة ثم يُطبخ ويؤكل .
م : يدعوهم إلى الابتعاد عن مقام الناس إلى المواقع القاحلة التي ألفوها ، حيث يأكلون فصيد الأباع وهو أحقر الطعام وأذله بالنسبة إلى العرب .
- ٣ - الباقع : الضبع أو الغراب . يعسُ : يرقب ويتجسس .
م : يدعوهم إلى أكل الكلب والبُعران والضبع أو الغراب الذي لا يزال يتجسس مواقع الفقراء ، يتسلل إليها ويفترس منها ، فالشاعر يعيرهم بأكل ما لا يؤكل من البهائم لشدة جوعهم وإملاقهم .
- ٤ - ٥ - قَمَلِيَّة : امرأة قصيرة . أعجف : مهزول . الذفري : وراء الأذن . المَشار : جمع مشفر وهو للبعير بمنزلة الشفة للإنسان .
م : يقول إنه لولا القرشيون لكانوا تصدّوا لهم وأعملوا سيوفهم بنسأهم القميثات القصيرات القامات اللواتي لا يتركن يمتطين البعير المهزول الرقيق المَشار ، فتبدو غراضيف استهن أي عظام أعجازهن وتراقيهن أي عظام أكتافهن وهن يمتطينه كأنها السكاكين الحادة التي يعمد إليها الجزارون . يصف بذلك شدة هزاهن وحقارة شأنهن ويحقر من أمر القيسيين بهن .

ففي البيت الأوّل ينعي على القيسيين خُبثهم ويمثله وقد ملأ جوفهم حتّى ضاق به . والصورة مغرقة ، أيضاً ، في المادية إذ اتخذ البطن أداة للتدليل على النفس ، وربّما ابتغى من ذلك أن يهجوهم بنخب زادهم ، فهم لا يطعمون إلا لؤماً ، وكان غذاء الجسد يؤثر في النفس . والصورة هي ، من بعد ، صورة إيجابية ، على ماديتها ، إذ ان الشعر لا يؤخذ بالفهم العقلي ، بل بتلك السورة النفسية التي التي تُقنعنا وتؤثر فينا دون ان نتعيّن سبباً جليلاً لذلك . وهذه الصورة ، هي كذلك ، صورة شعريّة عميقة لقدرتها التجسيدية ولاضمارها باطناً عبر الظاهر .

أما فيما يلي ذلك فإنّه يشمت بهم ويدعوهم إلى القيام في منقاهم ، بائسين ، جيعاً ، يظهون مصران البعران ، بعد أن يملأوه دماً ليسدوا رَمَقهم . وكان العربي يجد فيه أخبث الطعّام وأرذله وأحقره ، إذ كان الدّم لا يؤكل ، كما أنه حرّم في الاسلام . وقد لا يأكل أعداؤه ذاك الطعّام فعلاً ، وقد لا يملقون ذلك الإملاق ، إذ الشعر لا ينقل ، وحسب ، ما هو قائم ، بل إنّه يتدعه ويقيمه بخلق من لدنه ، لأن المعاناة الشعرية هي وجود فعلي ، وما قاله فيها أتخذ صفة الحقيقة ، بل انها لأعمق ممّا ظهر وانجلي منها . فنصيد الأباغر الذي أطعمهم إياه تأدّى من تفوق الشّاعر في العثور على مشهد واقعي يفصح فيه عمّا كان يعانيه ولقد اهتدى إليه بهداية الحدس أو بنخبته من ممارسة الأحداث ممارسة نفسية .

وقد تتمثل أو لا تتمثل شكل ذلك الطعّام ، وإنّما يكفي ن يكون طعاماً وأن يكون مشتقاً من البعير ومن مصرانه ودمه حتّى يأخذك بمثل القيء والغثيان . ذاك أن الأخطل يُبدع معانيه بألفاظها المأثورة التي لا تمّ وحسب عن معناها ، بل تُضفره بهالات من الإيحاء والبث .

ولتتمثل قوله التالي :

كُلُّوا الكلب وابن العَيْر والباقع الَّذي يبيتُ يعسُّ اللَّيْلَ أهل المَقَاقِرِ

ولست أجد ن لفظي « الكلب والبعر » تنطويان على الشتيمة ، هنا ، بل إنهما لفظتان فنيتان ، إبداعيتان توافقان منطق الإفعال وسياقه الجاري مجرى الزرابة والتحقير والتشفي . ولا قبيل للشاعر بما دونهما أو يقع في التعبير النثري المباشر ، الشديد السقم . أيهما أبلغ دلالةً وانفذ يقيناً وإحماً أن يقال إنكم بتُّم في قفر وفقر واملاق ، أم ان يدعهم يأكلون الكلب والعيير والذئب ؟ ومهما تألَّبت في وصف معنى الفقر يظلّ هذا المشهد أعمق وأبلغ إذ انّ لفظة «الكلب» مشبعة بمعنى الذلّ والحقارة . فكيف بمن يأكله ويملاً منه جوفه . ولا يعدو ذلك لفظة العير ، وربما تسامت لفظة الذئب والغراب على ذلك كله لأن الذئب لا يقيم في الناس كالكلب والبعر ، وإنما ينفر منهم ويتربص بهم ، فإذا افترسوه بدلاً من أن يفترسهم ، فذاك يوحي بما لا حدّ دونه من معاني الإملاق والبؤس . وهذا المعنى ، من بعد ، هو معنى هجائي ، لكنه نفسيّ ، كما أنه يتضاعف بالفخر والشماتة واجهاض الحقد .

ويؤفي إلى ذروة ذلك بقوله :

فَلَوْلَا قُرَيْشٌ عُولَجَتْ قُمَلِيَّةً عَلَى أَعْجَفِ الذُّفْرَى ، رَقِيقِ الْمَشَاوِرِ
كَأَنَّ غَرَضِيْفَ اسْتِهَا فَوْقَ أَنْوَرِهِ وَحَجَمَ تَرَاقِيهَا سَكَكِينُ جَاوِرِ

ففي هذين البيتين يحشد الشاعر حشده في الألفاظ السلبية والأحداث المزرية . وقد لا يكون للفظه « قُمَلِيَّة » وقع فني فعليُّ بذاتها ، إذ ينعتُ نساء بني قيس بالقماعة ، وهي صفة عامّة ، تصحُّ أو لا تصحُّ فيهن . وقد اختارها الشاعر عبّرَ سياق هجائيّ ، عام ، إذ تمثلنّ له بهذا الشكل وان لم يكنّ عليه فعلاً . لقد مسخهنّ سُخْطه إلى هذه القماعة ، ثم تعدّى ذلك ، مستكملاً المشهد ، فجَعَلَهُنَّ يَمْتَطِيْنَ ، أبدأً ، البعير الهزيل ، النافر العظام ، الرقيق المشافر . والهجاء ينمو خلال هذه الألفاظ نمواً شديداً وتتضاعفُ حدّتهُ ، لفظة إثر لفظة ، كأنه يسمو على ذاته . فالمرأة القميّة ، المُمتطية بعيراً هي أهزل حالاً من المرأة القميّة وحسب . ذاك ان امتطاءها للبعير يُضاعف من وقع قماعتها ، إذ كان العربي العزيز

الجانب المتكافئ ، يذفُ المرأة على هودج تحفُّ به الطنافس والأردية الجميلة ،
ويُسكب عليه الطيب ، وكأن ذلك تجسيد للتعميم الذي يتعم به من حاله وماله .
أما نساء بني قيس ، فلا يمتطين الهوادج المترفة ، المنعمة ، ولا تقوم الخوادم
والإماء على خدمتهن ، بل يقمن بها بأنفسهن ، فقست حياتهن وشطفت وانعكست
على قاماتهن القميئة وعلى أجسادهن الهزيلة . هذا ما يؤدبه لنا من هجاء داخلي
في النساء ومطايهن ، متسامياً ، متنامياً بالمعنى ، إلا أنه لا يكف ولا يعف ، إثر
ذلك ، بل يسوق ما هو أزرى إذ يُمنع بوصف البعير بواقعية هي أدلُّ على
البؤس والهلاك . فهو « أعجف الذقري » أي أن عظام ما وراء أذنيه نائمة لشدة
هزالها ، وفي مثل تلك الحال يعرفه مثل لون الحرب لجفاف جلده وتقلُّصه دونه .
فالمطية كالمرأة تمُّ عن حال أصحابها وتعجفها رمزاً لإملاقهم العميم .

ويعود ، من ثمة ، إلى المرأة القيسية ليستكمل زرايته بها والصورة التي باشرها
منذ حين ، فإذا عظامها تنتو على المطية ، عظام رذقيها وأعلى صدرها ، فتتخيلُ
وكأنها سكاكين اللحامين . والهجاء يتولد هنا باللفظة المباشرة : « استها - غضاريف -
سكاكين » ، وهي ألفاظٌ تحمل ما هو أنأى من معناها ، إذ الإست تحمل معنى
الزراية من دون الردف ، وإن كانت تتناول مثل معناه ، والغضروف أقذع من
العظم لإنطوائه على دلالة النتوء والتحدُّر ، وربما التعرُّج . إلا أن للهجاء في هذا
البيت أساليب ألطف من ذلك كله ، تُضمر ولا تظهر إلا بالإمعان والتفكير .
فهذه المرأة ليست شاحبة ولا هزيلة ، بل إن لحمها ذاب كله . ذلك أنه لو نتأت
منها عظام الأضلع وحسب لاقتصرت الدلالة على الهزال ، إلا أن عظام استها
نقرت وبانت والاست وهي مخزن الجسد ، لا يذوب لحمها حتى يستحيل إلى ما
يُشبه الهيكل الميت . وهنا وجه الغلو والهجاء والاقذاع معاً ؛ بل إن البيت
ينطوي على ما هو أنأى من ذلك كله وذلك من تشبيهه لعظامها بمثل السكاكين ،
فالهزال أصاب حتى عظامها ، وهي لا تهزل ولا تذوب ، فكأنه تخطى بذلك
حدوده وخرق النواميس المعهودة فيه . وإذ يُخيّل لنا أن الشاعر أقصر وانثنى ،
إذا هو يجوز ذلك كله بنسبة السكاكين إلى الجازر ، وهذه النسبة تضاعف من
حدتها لأن سكين الجازر هي أحدُ السكاكين إطلاقاً .

هكذا يتنامى الغلو ويتنامى معه الهجاء من الداخل ، بحيث يحتشد اللفظ والصورة
والكناية والنسب والإضافات لتنهك المعنى وتأتي عليه في شتى احتمالاته . ولنعد
إلى نقطة إنطلاق المعنى حيث انطلق لاطهار الذلّ والاملاق اللذين انزلوهما
بالأعداء ، وقد استعار لذلك فصيد الأباغر ولحم الكلب والبعير والذئب والمرأة
المحددة العظام الساعية على البعير ، مما يبين لنا أنه أدرك أسمى غايته مما كان
يبتغيه .

* * *

وكما مثل اندحار العدو ونزوحه ، فيما تقدّم ، نراه يلحقه ، حيناً آخر ،
بتصوير هربه من دونهم عند اللقاء وتوليّه ، ناجياً بنفسه من الهلاك . وقد يُخاطب
زفر بن الحرث ، دون أن يغفل عن الشّماتة بعمير ، إثر مقتله :

لَعَمْرُ أَبِيكَ يَا زُفْرُ بْنُ عَمْرٍو لَقَدْ نَجَاكَ جَدُّ بَنِي مُعَاذٍ ١
وَرَكْضُكَ غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إِلَيْنَا كَأَنَّكَ مُنْسِكٌ بِجَنَاحِ بَازِي ٢
فَلَا وَأَبِي هَوَاظِنَ مَا جَزَعْنَا وَلَا هُمُ الطَّعَائِنُ بِأَنْحِيَاظِ ٣
ظَعَائِنُنَا غَدَاةً عَلَيْنَا فَنَعَمْتُ سَاعَةَ السَّيْفِ الجُرَازِ ٤

١- زُفْرُ : هو زُفْرُ بن الحرث .

م : يخاطب زفر ويقول له إنك قد نجوت منا بجدي معاذ إلى نجدتك .

٢- م : ولقد نجوت ، كذلك ، بهربك لا تلتفت إلى ما دونك كأنك ممسك بجناح بازي
يُحلق ويسرع بك . والشاعر إذ يمثله كذلك ، إنما يعبر عن عظم هزيمته وتوليّه
عن أعدائه .

٣- م : يُقسم بأنهم لم يجزعوا من تصديّه لهم ويقول إنهم لم يميلوا بظعائنهم عن سبيلها
خوفاً منه أو اتقاء له .

٤- الجُرَازِ : القاطع .

م : يقول عندما ارتدت ظعائننا إلينا . تهلّلنا وطربنا لدنو ساعة القتال وإعمال السيوف
القاطعة .

والهجاء والفخر يقعان ، معاً ، في لفظة « نَجَاكَ » من البيت الأول ، إذ إنها
 تنمُّ عن الخطب المداهم والخلاص ، وليس ذلك الخطب سوى التغليبين لما كانوا
 مزُرعين أن يُنزَلوا به من هلاك . إلا أن الصورة تبقى باهتة ، خافتة ، لا تُضاهي
 الصُّور الأخرى الماثورة عنه . فالأخطل ليس من شعراء اللفظة الواحدة ، اليتيمة ،
 بل إنها تَرِدُ للتمهيد في السَّيِّاق العام للهجاء ، إذ ان فضيلته الكبرى تتحقَّق في
 الصُّورة الواقعيَّة أو الافتراضيَّة المتمثلة في صقع قريب أو بعيد من أصقاع الخيال
 التشبيهي . وذاك يبدو في قوله ، إثرئذ :

وركضك غَيْرَ مُلْتَفِتٍ إِلَيْنَا كَأَنَّكَ مُمْسِكٌ بِجَنَاحِ بَازِي

فالرَّكض أوضح أسلوب النجاة الذي نجابه ، أي الهرب عدوًّا ، دون التفات
 الى الورا خوفًا ووجلًا ، بل انه ليُحَلِّق تخليقًا في عدوه كأنه مُمْسِكٌ بجناح بازيٍّ
 يطيرُ به . ولا تعدو لفظة البازيِّ ، هنا ، ألفاظ الفصيد والبعر والذئب ولاست
 والغضروف وما أشبه ، وان كان البازيِّ يحمل معنى الاطراء بدلاً من الازراء
 في أصل معناه . ذاك البازيُّ يؤدي صورة لعظم التحليق وشدَّة العَدُوِّ ، وهي
 فضيلةٌ فيه ورذيلةٌ في سواه ، تعظَّم في الأوَّل قُوَّته وتُعَالِي في الثاني بجُبْنه وخوفه
 وَهَرَوَلَّتِهِ فِي الْهَرَبِ . وهو عنوان للَّفظة الصورة في شعره أو اللفظة العَصَبِيَّة
 النَّافِذَة . فالأخطل يتوسَّل الألفاظ سلباً وإيجاباً لتحقيق غايته الفنيَّة . وإثر بيتين من
 الفخر العام يُردف ، قائلاً :

وَلَا قِي ابْنُ الْحُبَابِ لَنَا حَمِيًّا كَفَتَهُ كُلُّ رَاقِيَةٍ وَحَازِ ١

١ - حَمِيًّا : شدة . حَازِ : كاهن .

م : يشير إلى فتكهم بعُمير بن الحباب ويقول إن ما ساقوه إليه أغناه عن رقية الرَّاقِين وكهانة
 الكهَّان ، أي أنهم طعنوه طعنة قاتلة .

وكان بنا يحل ولا يُعاني ويرعى كل رملٍ أو عزازٍ ١
 فلما أن سميت وكنت عبداً نزت بك يا بن صمعاء النوازي ٢
 عمدت إلى ربيعة تغتزيها بمثل القمل من أهل الحجاز ٣
 فنعم ذوو الحماية كان قومي لقومك لو جرى بالقوم جاز ٤

وابن الحجاب هو الاسم الآخر لزفر من الناحية الفنية والنفسية ، إلا أنه ليس زفر الناجي ، كمن تعلق بالبازي ، وليس زفر الرأكض هرباً ، وإنما هو زفر الذي ألحق وأدرك وقتل وعفرت جثته ، ومثل بها غاية التمثيل . زفر وعمير هما العدوان اللدودان لبني قومه ، الأول هارب ، بل مجد في الهرب ، والثاني ميّت ، قتل ولم تعد تجدي فيه رقية راق ، أو كهانة كاهن . ومع ذلك فإن الشاعر يخاطبه ، وكأنه حي سوي بين الأحياء ، يقول له إنك كنت تُقيم فينا إقامة طيبة ، ترتمي الخصب ، ولكنك ذو أصل خبيث إذ أبطنك الشبع غاية البطنة ونزا بك غاية النزوة :

فَلَمَّا أَنْ سَمِنتَ وَكُنْتَ عَبْدًا نَزَتْ بِكَ يَا بَنَ صَمْعَاءَ النَّوَازِي

- ١ - العزاز : الأرض الغليظة الصلبة .
 م : يقول إن عميراً كان ينزل فيهم على رحب وسعة ويرعى في ديارهم ، كما يطيب له .
 ٢ - الصمعاء : والدة عمير وقيل إحدى جدّاته .
 م : أي أنك ، إذا سميت على مرعانا ، بطرت ، لأنك عبد ، لا أصل لك ، وجعلت تزو وتغتر وتطلب ما لا طاقة به .
 ٣ - تغتزيها : تقصدها .
 م : أي أنك عمدت إلى الاستنجاد بريعة وفزعت إليها كما يفزع القمل إلى أهل الحجاز .
 يمثل بذلك غلظته وسوء إقباله على الآخرين .
 ٤ - م : يُمَنِّته ويفخر عليه ويقول إن قومي كانوا خير حُماة وذائدين عن بني قومك ، فيما لو احتسب القوم وظهر فضل بعضهم على البعض الآخر .

ولعلّ المتنبّي حذا حذوه بالقول :

لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ

فالعبد لم يَأَلَفِ الشَّيْعَ ، لذلك استحال فيه إلى بَطْرٍ رَكِبَ به رأسه . فهو حديث نعمة في القوّة ولقد دحره بطره ، قبل أن يدحّر به الآخرين .

* * *

إلا أن الأخطل ، كَكُلِّ عَرَبِيٍّ ، يكاد لا يُشاهد العار أو يجسده إلا من خلال المرأة التي يرى مسافحتها ، وكأنّها الإثم الأكبر ، لا يُفْتَدَى بَدَاءٍ وَلَا يُمْحَى بِأَيِّ امْتِحَاءٍ . وكما سخر من القيسيين بهزال نسائهم وامتطأهن البعران الجربة واتخاذهنّ سبايا ، تراه يَشْمُتُ بهم ، كذلك ، بل يُعَيِّرُهُمْ بِأَنَّ قَوْمَهُ سَافَحُوا نِسَاءَهُمْ جِهَاراً ، على مُعَايِنَةٍ مِنْهُمْ ، ولم يؤدوا لهم أَدَاءَهُنَّ ، وذلك في غاية الاقذاع :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ قَيْساً رَسولاً فَكَيْفَ وَجَدْتُمْ طَعْمَ الشَّقَاقِ ١

أَصَبْنَا نِسْوَةً مِنْكُمْ ، جِهَاراً بِلَا مَهْرٍ يُعَدُّ ، وَلَا سِيِّاقِ ٢

ويكرر مضي الشماتة بقتل ابن الحباب في مثل قوله :

١ - م : يُخَاطَبُ الْقَيْسِيَّينَ وَيَشْمَتُ بِهِمَ لِلشَّقَاقِ الَّذِي أَلَمَّ بِهِمَ .

٢ - السِّيَاقُ : الصَّدَاقُ .

م : يُعَيِّرُهُمْ بِسَيِّئِهِمْ لِنِسَائِهِمْ وَإِدْرَاكَ غَايَتِهِمْ مِنْهُنَّ ، بِلَا مَهْرٍ وَلَا صَدَاقٍ ، أَي إِدْرَاكَهُمْ لِهِنَّ سَفَاحاً .

ولاقي ابنُ الحُبَابِ بَنَا حُمَيَّا كَفَتَهُ كُلَّ حَازِيَةِ وِرَاقٍ ١
فَأَضْحَى رَأْسُهُ بِبِلَادِ عَاكٍ وَسَائِرُ خَلْقِهِ بِجَبَا بِرَاقٍ ٢
تَعُودُ ثَعَالِبُ الْحَشَاكِ مِنْهُ خَبِيثًا رِيحُهُ ، بَادِي الْعِرَاقِ ٣
أَوْ قَوْلُهُ ، أَيْضًا :

أَمَعَشَرَ قَيْسٍ لَمْ يَمْتَعِ أَحْوَكُكُمْ عُمَيْرٌ بِأَكْفَانٍ وَلَا بِطَهْهُورٍ ٤
تَدُلُّ عَلَيْهِ الضَّبْعُ رِيحٌ تَضَوَّعَتْ بَلَا نَفْحِ كَافُورٍ وَلَا بِعَبِيرٍ ٥
وَقَتْلَى بَنِي رِعْلٍ ، كَانَ بَطُونُهَا عَلَى جَلْهَةِ الْوَادِي بَطُونُ حَمِيرٍ ٦

- ١- ابن الحُبَابِ : هو عمير بن الحُبَابِ . الحُمَيَّا : هنا شِدَّةُ الحَرْبِ : الحَازِيَةُ : الكَاهِنَةُ .
راق : من يرقى ، أي من يُبْرِيء بالتعاوِذِ .
م : يقول إنهم فتكوا بعمير بن الحباب فتكة لم تنجع فيها كهانة ولا رقية .
- ٢- خَلَقَهُ : هنا جسمه . جَبَا بِرَاقٍ : موضع بالجزيرة قتل عنده عمير بن الحباب السلمي
م : يقول إنهم فتكوا به فتكاً شديداً فُصِّلَ به رأسه عن جسده ، وأضحى كلَّ منهما في موضع
شديد النأي عن الآخر .
- ٣- الْحَشَاكِ : واد أو نهر بالجزيرة بين دجلة والفرات . الْعِرَاقِ : العظم إذا أكل لحمه .
م : يقول إن الثعالب لا تقوى على ولوجه لشدة ما ينبعث منه من روائح كريهة تنفثها
- ٤- الطهور : هنا ما يُطَهَّرُ به الميت .
م : يخاطب القيسيين ويشمت بهم لمقتل عمير بن الحباب ، ويقول إنه لم يُصَبْ ما يُصِيب الموتى
عادة ، من تطهير وتكفين .
- ٥- م : يستكمل المعنى السابق ، ويقول إن الضَّبْعُ كانت تنسج إلى إفراس جثته ، مُسْتَدِلَّةٌ
عليه بالريح الكريهة المنبثثة من تلك الجثة .
- ٦- رِعْلٌ : حيٌّ من أحياء بني سليم . جَلْهَةُ الْوَادِي : جانبه .
م : يقول إن قتلى بني رِعْلٍ خَلَّفُوا في ذلك الوادي ، فانفخت بطونهم انتفاخ بطون الحمير .

وهو يجري في ذلك على ما يُشبه التكرار التسخي حتى في اللفظ ، ففي بيت سابق قال : « كَفَّتَهُ كُلُّ رَاقِيَةٍ وَحَازَ » ، وفي هذا البيت يقدم لفظه « حازية » على لفظه « راق » لضرورة القافية ، إذ قال : « كَفَّتَهُ كُلُّ حَازِيَةٍ وَرَاقٍ » . إلا أن حسَّ التَّشْفِي يُفَعَم الأبيات كُلِّهَا ، وقد لا ينطوي على الحلم والرِّفْعَة الانسانيين ، إلا أنه يُجهد حقه العنيف ويؤدِّي له معانيه وصوره . فهو إذ يشير إلى فصل رأسه عن جسده ، وقيام كُلِّ منهما في مقام مابينٍ للآخر يعتز بالثَّار حتى من الميت ، كأنه وان مات في الواقع ، لم يَمَتَّ في نفسه . وهو يبتدع لذلك الأساليب الإيحائية التي تُدرك أقصى الغلوِّ ، وذلك إذ يجعل الثعالب تأنف من الدتِّو منه لتفسح جثته وتتن ريجها . وخلاصة ذلك أنهم أوقعوا به ما هو أقصى من الموت ، أو أنهم ما زالوا يقتلونهم في كلِّ لحظة تقوم فيها جثته بالعراء . لقد كان بيْنهم وبينه من الضَّغينة ما لا يكفي قتله لإجهاضها ، فمثَّلوا به ذلك التَّمثيل إثر موته ، بالرغم من أنه لا يعيه ولا يحفل به . ولا تخرج الأبيات الأخرى عن ذلك المضمون ، وان كان قد أحل الذئاب فيها محل الثعالب وانساق في ذلك إلى ما دونه فمثل بطون سائر القتلى المُنتفخة ببطون الحمير في مشهد لا مجال فيه للشماتة .

وهناك هجاء لليسيين أورده عبر بعض مدائحه لعبد الملك ومن إليه ، وعندئذ تلوَّن معانيه بألوان خاصة ، كذكر كفرهم وتغريير الشيطان بهم ، فضلاً عن انكسارهم وارتحالهم الى الأراضي القاحلة السوداء :

فلا هدى الله قيساً من ضلالتهم ولا لعلاً لبني ذكوان ، إذ عشروا ١

١ - لالماً : أي لا أقامهم . بنو ذكوان : رهط عمير بن الحباب .

م : يتمنى أن يُقيم بنو عيلان على ضلالتهم وخروجهم على الدين ويرجو ألا ينهض بنو ذكوان من عثرتهم ويعودوا إلى قوتهم ليقاتلوا من جديد . وهو إنتما يتمنى لهم في ذلك كله أن يبقوا هدفاً للاضطهاد والتنكيل ، لا تقوم لهم معه قائمة .

ضَجُّوا من الحرب إذ عَضَّتْ غَوَارِبُهُمْ وقيسُ عَيْلانَ ، من أخلاقِها ، الضَّجْرُ ١
كانوا ذَوِي إِمَّةٍ ، حتَّى إذا عَلِقَتْ بِهِمْ حَبَائِلُ لِلشَّيْطَانِ وابْتَهُرُوا ٢
صَكُّوا على شَارِفٍ ، صَعَبٍ مَرَاكِبُها حَصَاءَ لَيْسَ لها هُلْبٌ ولا وَبَرٌ ٣
وَلَمْ يَزَلْ بِسُلَيْمٍ أَمْرٌ جَاهِلِها حتَّى اتَّعَايا بها الإِيرَادُ والصَّدْرُ ٤
إِذ يَنْظُرُونَ ، وَهُمْ يَجْنُونَ حَنْظَلَهُمْ إلى الزَّوَابِي ، فقلْنَا بَعْدَ ما نَظَرُوا ٥
كُرُّوا إلى حَرَّتِيهِمْ يَعمُرُونَها كما تَكُرُّ إلى أوطانِها البَقَرُ ٦

١ - غواربهم : أعالي أكتافهم .

م : يقول إنهم لا يطيقون القتال عندما يشتدُّ عليهم ، وإنهم دأبوا على التضرُّج من المشقات والتخاذل من دونها .

٢ - ٣ - إِمَّة : نعمة . ابتهُرُوا : غرَّروا بهم . صَكُّوا : حُمَلوا . شَارِفٍ : ناقة مسنة . الحَصَاءَ : التي لا وَبَرَ لها . الهُلْبُ : شعر الذئب .

م : يقول إنهم كانوا ذوي نعمة ، يترنَّعون بخيرها ، حتَّى وسَّوس لهم الشَّيْطَانُ وغرَّروا بهم ، فناروا وركبوا مركباً وعرَّأ ، لا خلاص لهم منه . وقد مثل امتطاءهم للأمر الصَّعب بركوب الناقة المسنة التي تساقط الوبر عن جسمها ، جميعاً .

٤ - سُلَيْمٍ : هم من نسب عمير بن الحباب . تَعَايا : هنا عجز .

م : يقول إن عُمَيْرَ بن الحباب لم يزل يسوق سُلَيْمًا بحماقته وجهله ، حتَّى ضلَّت السَّبيل ولم تعد تدرك سبيل الإقبال والإدبار .

٥ - الزَّوَابِي : جمع زاب : المواضع التي كان التغلبيون يقطنونها . الحَنْظَلُ : المرارة ، وهنا إشارة إلى الحرب .

م : يقول إنهم بعد أن أهلكتهم الحرب وذاقوا مرارتها ، جعلوا يتطلَّعون إلى مواقعنا طامعين بها ، ثم يرُدُّف ساخرًا من مطامعهم إذ يتعدَّر عليهم أن يلمَّوا بديار تغلب .

٦ - الحِرَّة : الأرض فيها حجارة سود .

م : يعرِّض في هذا البيت بمقام القيسيين ويقول إنهم بعد أن أخفقوا في احتلال مواقعنا الحصبة ، هرعوا إلى ديارهم الفاحلة التي تكثُر فيها الحجارة السوداء مُحاولين إعمارها .

وَأَصْبَحَتْ مِنْهُمْ سِنْجَارُ خَالِيَةَ وَالْمَخْلَبِيَّاتُ فَالْخَابِوْرُ فَالسَّرْرُ ١
وَمَا يُلَاقُونَ فَرَاصاً إِلَى نَسَبٍ حَتَّى يُلَاقِي جَدِّي الْفَرَقْدِي الْقَمْرُ ٢

وفي هذه الأبيات يجمع الصورة والفكرة واللفظة ، الأولى في عَضِّ الغوارب والثانية في قوله : « وَقَيْسٌ عِيْلَانٌ مِنْ أَخْلَاقِهَا الضَّمَجْرُ » والثالثة في الشَّيْطَانِ الَّذِي يُوْحِي بِتَغْرِثِهِمْ وَضَلَالِهِمْ . ثُمَّ يُقْبَلُ عَلَى الصُّورَةِ مِنْ جَدِيدٍ إِذْ يُمَثِّلُ عَظْمٌ مَا يُلَقُونَ مِنْ غِيْثِهِمْ بِمَثَلٍ مِنْ يَمْتَطِي نَاقَةَ مَسْتَةٍ ، عَجْفَاءٌ ، جَرْدَاءٌ . وَقَدْ كَانَ هَذَا دَابَّهٌ مِنْذُ مَطْلَعِ عَهْدِهِ بِالشَّعْرِ إِذْ قَالَ فِي مَدْحِهِ لِيَزِيدَ ، وَهُوَ يُعْبِّرُ عَنْ عَظِيمِ خَوْفِهِ :

ولولا يزيدُ ابنُ الملوكِ وسيبهِ . تجلَّلتُ حِدْبَاراً مِنَ الشَّرِّ أَنْكَدَا

ومهما يكن ، فإنَّ معاني هذه الأبيات تبدو يسيرة ، من النَّاحِيَةِ الْهَجَائِيَّةِ ، إِلاَّ أَنَّ لَهَا قِيَمَةً خَاصَّةً فِي التَّدْلِيلِ عَلَى ضَرْبٍ مِنَ الْهَجَائِيِّ الْمُسْتَمَدِّ مِنَ الدِّينِ ، وَالتَّنْذِيرِ بِالْخِصْمِ لِمُرُوقِهِ مِنْهُ وَعَصِيَانِهِ لِسُلْطَةِ الْأُمَّةِ .

والمعنى الآخر الذي يَطْفِي عَلَى هذه الأبيات هو معنى التزوح والتهجير ، إذ يصف المواقع التي عَجُوا إِلَيْهَا بِأَنَّهَا حَرَّةٌ سَوْدَاءٌ ، لَا مَاءَ وَلَا كَلَأَ فِيهَا :

١ - سِنْجَارُ : قِصْبَةُ كُورَةِ الْفَرَجِ مِنْ تَلِّ اعْفَرِ . الْمَخْلَبِيَّةُ : بَلَدَةٌ عِنْدَ الْمَوْصَلِ . السَّرْرُ : أَرْضٌ بِالْحَزِيرَةِ .

م : يَقُولُ إِنَّا قَدْ أَجْلَيْنَاهُمْ عَنْ جَمِيعِ مَوَاقِعِهِمْ ، فَأَقْفَرَتْ إِثْرَهُمْ ، دُونَ أَنْ يَجْسُرُوا عَلَى الْعُودَةِ إِلَيْهَا .

٢ - فَرَاصٌ : هُوَ ابْنُ مَعْنِ بْنِ مَالِكٍ وَيُقَالُ إِنَّهُ تَغْلِي . جَدِّي : نَجْمٌ إِلَى جَنْبِ الْقُطْبِ ، يَدُورُ مَعَ بَنَاتِ نَعْشٍ وَيَتَعَذَّرُ التَّقَاؤُهُ بِالْقَمَرِ .

م : يَقُولُ إِنَّهُمْ يُسَامُونَ فَرَاصاً وَيَعَارِضُونَهُ بِنَسَبِهِمْ وَلَا قِبْلَ لَهَا بِإِدْرَاكِهِ وَالِالْتِقَاءِ بِهِ ، حَتَّى يَلْتَقِيَ الْجَدِيَّ وَالْقَمْرَ ، وَهُوَ أَمْرٌ مُتَعَذِّرٌ بِلِ مَسْتَحِيلٍ .

ويكرّر مثل ذلك المعنى في صورته ولفظه بقوله :

لقد حَمَلَتْ قيس بن عَيْلانَ حربنا على يابس السَّيِّءِ ، مُخَدَّوِدِ الظَّهِيرِ

أي على ما يشبه البعير الصَّلب الفقار ، الأعرج الذي يَعْقِر من يَمَنُطيه .
ويتفتق الأخطل بمعاني أخرى للزراية تحديق بكلِّ ما يتصل بالمهجوين ، فتراه
يُمثِّل ابناهم بالقول :

وقد غَبَّر العَجْلانَ ، حيناً ، إذا بكى على الزَّاد ، ألقته الوليدةُ في الكَسْرِ ١

فَيُصْبِحُ كالخَفَّاشِ يَدُلُّكَ عَيْنُهُ فَيُقْبِحُ من وجه لثيم ومن حَجْرٍ ٢

فالفتى الذي يطلب طعاماً كمن يطلب منكراً ، يُزجر وينبذ ، ويبيكي ، فيبدو
كالخفَّاش لهزَّاله . ثم يكرّر هجاءه لهم بنسأهم :

بني كُلِّ دَسْماءِ الثِّيَابِ ، كأنما طلاها بنو العَجْلانِ من حُمِّ القِدْرِ ٣

١ - الكَسْر : جانب البَيْت .

م : يقول إن ابن العَجْلانِ أقام زماناً ، إذا طلب الزَّادَ واندفع إليه جرته والدته ودفعته .

٢ - الحَجْر : هنا محجر العين .

م : يستكمل معنى البَيْتِ السَّابِقِ ويصفه مقيماً خارج البَيْتِ ، هزلاً كالخفَّاش يمر يده على
عينه ، باكياً ، ثم يُقْبِحُ بوجهه وعينه .

٣ - حُمِّ : جمع حَمَّةَ : أي الفَحْمِ والرَّمادِ .

م : يحقر من أمر نسأهم ويحقرهم من خلاهن ، إذ يصف شظف عيشهم وقنارة نسأهم
ويقول إنهنَّ سود الثياب ، كأنما صُبَّغَتْ ثيابهنَّ بسواد القُدور .

تَرَى كَعْبَهَا قَدْ زَالَ مِنْ طَوْلِ رَعِيهَا وَقَاحَ الذَّنَابِي بِالسَّوِيَّةِ وَالزَّفْرِ ١

وكما جرى على الشماتة بالخصم لهروبه من دونهم ، يصف ابن بدر هارياً في مقطع استفند فيه غاية الوصف والتأويل والافتراض . فهو يرسمه خائضاً في السراب ، يستحثُّ المطيَّة ، ويفدِّيها للتدليل على شدة رعبه وهلعه :

وَنَجَّى ابْنَ بَدْرِ رَكُضَهُ مِنْ رَمَاحِنَا وَنَضَّاحَةَ الْأَعْطَافِ ، مُلْهَبَةً الْحَضْرَ
إِذَا قُلْتُ نَالَتَهُ الْعَوَالِي ، تَقَادَذَتْ بِهِ سَوْحَقُ الرَّجْلَيْنِ ، صَابِيَةَ الصَّدْرِ ٢
كَأَنَّهَا وَالْأَلُّ يَنْجَابُ عَنْهُمَا إِذَا انْغَمَسَا فِيهِ يَعُومَانِ فِي غَمْرِ ٣
يُسْرِ إِلَيْهَا ، وَالرَّمَاخُ تَنْوِشُهُ : فِدَى لِكِ أُمِّي ، إِنْ دَابَّتْ إِلَى الْعَصْرِ ٤

- ١- الذَّنَابِي : هنا العَجْزُ . السَّوِيَّةُ : قَتَبَ مَعْرَى . الزَّفْرُ : الحِمْلُ .
م : يستكمل هجاءه لهم بوصفه لنسأهم ويثلبهم ثلباً مقنّداً ، ويقول إن العَجْلَانِيَّةَ قد بُرِي كعب قدّمها من كثرة عدوها عليه في المرعى والقيام على الخدمة كألّمة ، كما أنّ عجزها قد تَقَبَّحَ من كثرة ما تَحْمِلُ الإِنْقَالَ عليه . ومؤدّى الهجاء في هذا البيت أن القوم الشرفاء كانوا يَدْعُونَ نساءهم في نعيم ويسوقون الإماء لخدمتهن .
- ٢- العَوَالِي : أطراف الرَّمَاخِ . تَقَادَذَتْ : ترامتْ به . سَوْحَقُ الرَّجْلَيْنِ : طوليلتهما صابية : أي سريعة المَمرِّ ، لا تميل في استوائها .
م : يقول إنّه لا تكاد رماحننا تظاله ، فإنّه يعدو من دوننا ، ويهرب بنفسه على تلك الفرس المُسْتَوِيَّةَ العَدُوِّ ، الطويلة السّاقين ، وهو إنّما يعظمّ من سرعة عدو فرسه ، ليعظمّ من من خلاها من شدة رعب ابن بدر وهلكه في الهَرَبِ .
- ٣- الأَلُّ : السَّرَابِ . يَنْجَابُ : يَنْكَشِفُ . انْغَمَسَا : هنا ولجا . الغَمْرُ : الماء الكثير .
م : يستكمل معنى البَيْتِ السَّابِقِ ، ويصف عدو ابن بدر في الصَّحْرَاءِ ، حيث كان يغمره السَّرَابُ وقرسَه ، وينقشع عنهما ، ويمثّل خَوْضَهُمَا فيه بمثل خوض غُمار البحر .
- ٤- يُسْرِ إِلَيْهَا : هنا يهمس لها .
م : أي أن ابن بدر كان يخاطب فرسه ويفدِّيها ويستحثّها حتى تتأبر على عدوّها إلى العصر ، فينجو من الهلاك .

فَظَلَّ يُفَدِّيْهَا ، وَطَلَّتْ كَانَهَا ١
 كَانَّ بِطُبِّيئِهَا وَمَجْرَى حِزَامِهَا ٢
 رَكُوبٌ عَلَى السَّوَاءِ ، قَدْ شَنَّمَ اسْتَه ٣
 عُقَابٌ ، دَعَاها جُنْحٌ لَيْلٍ إِلَى وَكْرِ ١
 أَدَاوَى تَسُحُّ الْمَاءِ مِنْ حَوْرٍ وَفَرٍ ٢
 مُزَاخِمَةُ الْأَعْدَاءِ وَالنَّخْسِ فِي الدُّبْرِ ٣

— خلاصة حول هجائه للقيسين —

يَتَدَاوَلُ الْأَخْطَلُ فِي هِجَائِهِ لِلْقَيْسِيِّينَ مَعَانِي مُتَعَدِّدَةٌ ، مُتَكَرِّرَةٌ ، أَثَرُ بَعْضِهَا فِي هِجَائِهِ لِبْنِي كَلِيبٍ وَاحْتِصَافًا بِبَعْضِهَا الْآخَرَ بِهِمْ . فَهُوَ يَقْرُنُهُمْ بِعَبِيدِهِمْ :

« وَكَنتَ إِذَا لَقَيْتُ عَبِيدًا تَيْسِمُ وَتَيْمًا قَلْتَ أَيُّهَا الْعَبِيدُ »

ويعبرهم بسوقهم للحمير في القفر والاراضي السوداء وهروبهم من دون نساءهم أكن إماء أم كواعب ، أم امهات لهم ، سين وفجعن بأعراضهن ، على مرأى من رجالهن وابنائهن ، ودون صداق أو ما إليه . ويستكمل صورتهم في تلك الاراضي القاحلة التي ارتحلوا اليها ، ويقول إنهم يأكلون فيها لحم الحمير والذئب والدم المغلي في المصران ، ويعرّج على وصف نساءهم اللواتي هزلن فبدت عظام استهن كالسكاكين الحادة ، وبدا عليهن سواد الاماء كأنهن صبغن بفحم القدور . وفي مقابل ذلك يتردد على معانٍ عامةٍ أخرى كذكره لمقتل

١ — الجُنْحُ : العَشِيَّةُ . طَلَّتْ : هُنَا تَدَلَّتْ .

م : أَي أَنَّهُ ظَلَّ يَسْتَحْثُهَا ، فِيمَا هِيَ أَقَامَتْ عَلَى عَدْوِهَا . كَانَتْهَا عُقَابٌ تَسْرَعُ إِلَى وَكْرِهَا ، قَبْلَ أَنْ يِعَاجِلَهَا الظَّلَامُ .

٢ — طُبِّيئِهَا : مَفْرَدُهَا طُبِّيٌّ أَي تُدِي . حَوْرٌ : جِلْدٌ مَدْبُوعٌ . وَفَرٌ : ضَخْمٌ . الْأَدَاوَى : جَمْعُ الْإِدَاوَةِ : إِثَاءٌ صَغِيرٌ مِنْ جِلْدٍ .

م : يُمَثِّلُ الْعَرَقَ الْمَتَصَبِّبَ مِنْ تَدْيِئِهَا وَمَجْرَى حِزَامِهَا بِالْأَدَاوَى الَّتِي يَنْهَمِرُ مِنْهَا الْمَاءُ .

٣ — الرَّكُوبُ : الدَّلُولُ . شَنَّمَ : جَرَّحَ . النَّخْسُ : الضَّرْبُ بِأَدَاةٍ حَادَّةٍ . الدُّبْرُ : الْمُؤَخَّرَةُ .

عمير بن الحباب وقيام جثته المنتفخة في القفر ، تنتهشها الذئاب وتنفر منها الثعالب
لنن ريحها ، كما يعظّم هربهم دونهم ، يصفه بكل وصف ويحشد له كل كناية
حسيّة ، ويتشبهه عبر ذلك كلّه بالسّيل ويشبه العدو بالغناء والزبد اللذين يعلوانه .

* * *

الباب الرَّابِع

هجاؤه في سائر القبائل والأفراد

لقد كان هجاء القيسيين والكَلْبِيِّين القوامَ الأول لبواعث الهجاء في شعر
الأخطل ، إذ أنه أقام عليه وألحف به غاية الالحاف ، يُلِمُّ به عبر المدائح ويُخصه
بأهاجٍ خاصّة به ، ويُنفق كل جهد لينفتح له بكلِّ معنى وكلِّ احتمال . إنّه
ذلك الهجاء الذي يُدرك به أقصى غايته في فنّه وفي التعبير عن أحقاده وثاراته .
وفيما عدا ذلك نراه ، وقد توافق مع بعض القوم ، أفراداً وقبائل ، وأظهر فيهم
بعض التسخُّط والوتر ، دُونَ أن يُوفي منه إلى ما يُضاهي أهاجيه الأخرى أكانَ
ذلك من الناحية الفنيّة أو النقيسيّة .

من ذلك قصيدة بائيّة نظمها في رجلين من بني وائل قدما لمُعابته ، مُضمّرين
له الحقد ، لما ساقه بنو قومه عليهم من إذلال وتنكيل . ثم يهجوهم بذلّهم واستكانتهم
ويدعوهم إلى الإقامة بين النخيل ، وأن يدعوا أعجازهم على البُعْران ، من
دون الخَيْل . ثم يُشير إلى فتك التغلبيين بهم ويُلِمُّ ببني عبْد قيس ذوي اللّحي
الصّفراء ، الذين لا يزالون يَمْتطون الحمير وتلحق بهم ، إثرها ، الكلاب ،
ثم يخاطب أبا غَسَّان وهو مالك بن مسمع الشّيباني الذي كان قد أخذ الأخطل
بشرّ وجَدَ عَلِيَّه فيه ، ويقول إنّه يَتَمَنَّى أن يصيبه الهلاك ، على أن يقتضي
معرفةً منه أو من بني قومه .

غَدَا ابْنَا وَاثِلٍ لِيُعَاتِبَانِي وَبَيْنَهُمَا أَجَلٌ مِنَ الْعِتَابِ ١
 أَمُورٌ ، لَا يُنَامُ عَلَى قَدَاهَا تُغْصُ ذَوِي الْحَفِيزَةَ بِالشَّرَابِ ٢
 تَرَقُّوْا فِي النَّخِيلِ ، وَأَنْسِئُونَا دِمَاءَ سَرَاتِكُمْ ، يَوْمَ الْكُلابِ ٣
 فَبِئْسَ الطَّالِبُونَ ، غَدَاةَ شَالَتْ عَلَى الْقُعْدَاتِ أَسْتَاهُ الرَّبَابِ ٤
 تَجُولُ بَنَاتُ حَلَّابٍ عَلَيْهِمْ وَتَزْحَرُهُنَّ بَيْنَ هَلٍ وَهَابِ ٥

١ - م : يقول إن ذَيْنِكَ الرَّجَلَيْنِ قَدِمَا لِمُعَاتِبَتِي فِي أَمْرٍ ، وَهُمَا يُضْمِرَانِ لِي مِنْ دُونِهِ الْحِقْدَ وَالنَّارَ .

٢ - م : يقول إنَّهُمَا يُضْمِرَانِ لِي ذَلِكَ لِمَا سَاقَهُ لِيئِهِمْ بِنُو قَوْمِي مِنْ إِذْلالٍ وَتَنكِيلٍ لَا يُطِيقُهُمَا الْمِرءُ وَلَا يَقْوَى عَلَى الْغَضِّ عَنْهُمَا ، بَلْ لِنِهُمَا يَغْشِيَانِهِ بِمِثْلِ الْقَدْيِ الَّذِي يُنْقَرُ النَّوْمُ مِنَ الْعَيْنِ وَيَعْرَوَانِهِ بِمِثْلِ الْغَصَّةِ الَّتِي لَا يُطِيبُ مَعَهَا شَرَابٌ .

٣ - أَنْسِئُونَا : أَيِ أَخْرَوْا دِيَاتَنَا . سَرَاةٌ : جَمْعُ سَرِيٍّ وَهُوَ وَجِيهُ الْقَوْمِ وَسَيِّدُهُمْ .
 م : يُطَلَبُ مِنْهُمْ أَنْ يَقِيمُوا بَيْنَ النَّخِيلِ وَيَسْتَقْرِئُوا فِيهِ ، أَيِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْقُعُودِ عَنِ الْقِتَالِ وَالِاسْتِكَانَةِ لِلذَّكْلِ وَالْأَلْيَطَالِبُوهُمْ بِدِمَاءِ قَتْلَاهُمْ ، وَأَلَّا يَسْعُوا لِلنَّارِ بِهَا ، إِذْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِذَلِكَ .

٤ - الْقُعْدَاتُ : جَمْعُ قُعْدَةٍ ، وَهِيَ الْحَمِيرُ . الرَّبَابُ : هُمُ بَنُو ضِبَّةَ وَتَيْمٍ وَعَدِي وَعُوفٍ وَعُكَلٍ .

م : يَقُولُ بِئْسَ الْمُطَالِبُونَ بِالنَّارِ ، وَهُمْ لَا يَزَالُونَ يُلْقُونَ أَعْجَازَهُمْ وَيَشِيلُونَ بِهَا عَنْ دَوَابِهِمْ . أَيِ أَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ ، إِذْ لَا يَمْتَنُّونَ الْحَيْلَ بِلِ الْحَمِيرِ ، فَهُمْ مِئْتَمِدُونَ الْقُرُوسِيَّةَ ، يَعْمَلُونَ فِي خِدْمَةِ النَّاسِ وَالْمَكَارَاةِ .

٥ - حَلَّابٌ : فَحْلٌ شَهِيرٌ نَسَلَتْ مِنْهُ خَيْلٌ تَغْلِبُ . زَحْرَاهُ بِالرَّمْحِ : شَجْتُهُ . هَلٍ وَهَابٍ : لَمْعَتَانِ تَزْجُرُ بِهِمَا الْحَيْلُ .

م : يُشِيرُ إِلَى فَتْكَ التَّغْلِييْتَيْنِ بِهِمْ ، وَيَقُولُ إِنَّ فِرْسَانَهُمْ كَانُوا يَشْجُونَ رُؤُوسَهُمْ ، فِيمَا هُمْ يَصِيحُونَ بِخَيْوَلِهِمْ وَيَزْجُرُونَهَا لِتَشْتَدَّ فِي الْقِتَالِ .

وَعَبْدُ الْقَيْسِ مُصْفَرٌ لِحَاهَا ۱ كَأَنَّ فُسَاءَهَا قَطَعُ الضَّبَابِ
 فَمَا قَادُوا الْجِيَادَ وَلَا افْتَلَوْهَا ۲ وَلَا رَكَبُوا مُخَيَّسَةَ الرِّكَابِ
 عَلَى أَثَرِ الْحَمِيرِ مَوْكَّفِيهَا ۳ جَنَائِبُهُمْ حَوَالِي الْكِلَابِ

أنت ترى ان هذا الهجاء يتزعم متزعمًا تقريرياً استهلاً فيه بذكر العتاب الذي قدما عليه به . الا أن العتاب لا يفي بما تنطوي عليه نفساهما . فهناك أمور لا قبل للمرء باحتمالها ، بل انها تدعه لا يسبخ شرابه . فهو يلمح ولا يصرح ويوفي الى النتيجة ، دون أن يفصح عن البواعث ، وهي تمُّ عن الحقد والنقمة دون أن تجهض بما يؤدي زرايتهما . ثم ترى الشاعر يفصح عن شيء من ذلك إذ يدعوهم إلى القيام في التخيل وان يدعو المطالبة بالثأر ، فهم أصحاب دعة وخمول وليسوا أصحاب ثارات وقتال . وهذا المعنى الهجائي استجدّ لديه إذ أننا لم نعهده فيه ، بل تراه يدعو مهجويّه للارتحال الى الأراضي السوداء القاحلة ، حيث يأكلون جيف الوحوش والبهائم ويمتطون الحمير ، وما أشبه مما قدّمنا ذكره . وبذلك تباين طبيعة المعنى ، في الأوّل يشتم بهم لانكسارهم ، ممثلاً ما آلت إليه حالهم

١- فُساء : قيل إن عبد قيس كانت تُلَقَّب بهذا اللقب . مُصْفَرٌ لحاها : كأنما يهجومه بالعمَل في إيقاد المواقد ، أو أنّ الاصفرار غشيها من كثرة الفُساء الذي مثل شدته بالضباب المُنتشر .

٢- افْتَلَوْهَا : أي فَطَلَوْهَا . الْمُخَيَّسَةَ الرِّكَابِ : المَحْبُوسَةَ عن السَّير .
 م : يحقر من شأنها ويقول إنهم لم يتعهدوا الخيّل ولم يقودوها إلى الحرب ولم يركبوا الجياد الكريمة أي أنه يتزعم عنهم صفة الفروسية .

٣- مَوْكَّفِيهَا : أي الواضعين عليها البراذع . الجَنَائِبِ : جمع الجَنَيْبَةِ وهي الخيّل التي يُتَجَنَّبُ ركوبها ولا تُمْتَنَطَى إلّا في القتال لكرامتها . الحَوَالِي : الاحتمال .
 م : يقول إنهم لا يزالون يقنطون أثر الحمير ، يُعْنُون بوضع برادعها ، وإنهم لا يصحّبون إلا الكلاب كجانب لهم ، أي أنّهم استبدلوا بالخيّل الكريمة الكلاب .

إثره ، اما في الثاني ، فإنه لا يُعبّر عنه بالذات ، بل عن خمولهم الدائم وعن انكسارهم في الحروب وعدم إلتهم إيّاها وتمرّسهم بها . أولئك يحاربون ، لكنهم يهزمون . وهؤلاء لا يحاربون قط ، فالمعنى الثاني أقذع وان كان لم يُلحّف فيه ويتمطّ به ، بل إنّه ليتعاضم غاية التعاضم بقوله :

فبئس الطّالِبُونَ ، غداة شالست على القُعدَاتِ أَسْتَأدُّ الرِّبَابِ

فهم إذا لم يألفوا الخيل ، بل الحمير التي تقرّحت بها أستاذهم ، وقد استعار بذلك المعنى القديم المأثور ، بعد أن طعمه بلون آخر من الغلوّ . ولعلّ انتماء الأخطل الى قبيلة تغلب ، وهي قبيلة محاربة ، عريقة في ملحمة القتال ، جعله يكرّر هذا المعنى ، إذ لم يكن يرى خيراً الا في القتال ، وسوف نرى انه معظم معانيه الفخرية ترود حول الخيول التغلبيّة وعراقتها في القتال وما إليه . فمعانيه الهجائية مستمدّة من مثل البيئة وبخاصة في قيم البطولة والفروسية . ولعلّ المعنى يتعاضم ويطن في شعره بمثل أهميته وعمقه بالنسبة الى تلك البيئة . وها هو يفخر لتوه بالخيول التغلبيّة :

تجولُ بناتُ حَلّابٍ عليهم وتزحرهنّ بين هَلٍ ونابِ

فالخيول والحمير تُمثّل وجهي الفخر والهجاء المتمازين في شعره ، يتقوى أحدهما بالآخر ، كما قدّمنا ، مراراً . وهو يكرّر المعنى ذاته بالنسبة الى عبد القيس :

فلا قَادُوا الجِيَادَ ولا افْتَلَوْهَا ولا رَكِبُوا مَخَيَسَةَ الرُّكَّابِ
على إثر الحمير مُوكِّفِيهَا جَنَائِبُهُمْ حِوَالِي الكِلَابِ

وفي هذين البيتين تخريج جديد للمعنى باستنفاده والإحاطة بوجوهه ، جميعاً ، ذلك أن العربي كان يمتطي الجمال الى القتال ، فيما تصحبه الخيل ، كي لا ترهق ،

وقد جعل مطاياهم الحمير ، بدلاً من النياق ، ونجائبهم الكلاب ، بدلاً من الخيل . ولتتمثل أولئك القوم الساعين الى القتال بالحمير والكلاب ، هكذا ، يتدعُ الأخطل الصُور المزرية الماسخة بنوع من التأويل اللطيف الخفر ، حتى يدرك الاقذاع في قوله :

وعبد القيس مصفرٌ لحاها كأن فساءها قطع الضباب

ويقول في موضوع آخر :

وعبد القيس مصفرٌ لحاها كأن فساءها في الطف ریح

وفي مثل هذه المعاني يتدنى المستوى الفني لافتقاده الصلة بالحقيقة الانسانية . وكما هجا عبد القيس ومن إليهم ، يهجو بني عبس بقوله :

أَعْبَدَ آلِ بَغِيضٍ لَا أَبَا لَكُمْ عَبَسًا تَخَافُونَ وَالْعَبْسِيُّ مُخْتَقَرٌ ١
 مَا كَانَ يُرْجَى نَدَى عَبْسِ الْحِجَازِ وَلَا يُخْشَى نَفِيرُ بَنِي عَبْسٍ إِذَا انْفَرُوا ٢
 وَلَا يُصَلِّي عَلَى مَوْتَاهُمْ أَحَدٌ وَلَا تَقْبَلُ أَرْضُ اللَّهِ مَا قَبَرُوا ٣

١ - يعجب أن يخشوا بطش بني عبس بن بغض ، وهم قوم محقرون ، لا شأن لهم .

٢ - النكير : القوم يتنفرون عن مضاجعهم ، ويهرعون لنداء القتال .

م : يحقر من شأن بني عبس ويقول إنهم فاقيدو النخوة ، بخلاء ، لا يرجى عطاؤهم ، كما إنهم إذا ما اجتمعوا على أمر ، فإن جموعهم لا تثير الأعداء ولا تبث الرعب فيهم .

٣ - م : يقول إن الناس لا يرحمون على موتاهم ، ولا يصلون عليهم ، كما أن الأرض ذاتها ، ترفض موتاهم ، وتأبى أن ترضيهم في جوفها ، إذا ما قبروا فيها . يمثل ذلك خيبتهم ولؤمهم .

إذا أناخوا هداياهم لمنحرفها فهم أضل من البذن الذي نحروا ١

والهجاء يبدو يسيراً في البيتين الأولين ، إلا أنه يستطلع معنى هجائياً جديداً بالقول إنه لا يصلّي أحد على موتاهم ، وحتى الأرض تأنف من تقبل جثثهم لخبثهم ومنتهم . والمعنى لا يقوم على فضيلة التحقيق الواقعي ، بل على الافتراض الایحائي حيث نما إلى الآخرين وإلى الأرض ما يعتمل في نفسه من احتقار وزرابة . ويمضي في ذلك إذ يُسَمَّى إليهم الجهل والحرق وأنهم يتفوقون في ذلك على البهائم .

وتراه ، حيناً آخر ، وقد ألمّ بالأفراد ، حيث يفيد من اسمهم وسميائهم ليستخرج منه معنى هجائياً ، كما ترى في هجائه لامرئ يدعى خنجراً :

أخنجراً ، قد أخزيت قومك بالتي رمتك فويق الحاجبين السناير ٢
فلو كنت ذا عزّ منعت ببغضيه جبينك ، إذ تدمي عليه البصائر ٣
فأبدي لمن لاقيت وجهك ، واعترف بشنعاء ، للذبان فيها مصائر ٤

١ - البذن : النياق التي تنحرف في مكة ، وكانت تسمن ، فتعظم أبدانها .
م : يقول إنهم إذا ما نحروا بدنهم في مكة ، فإنهم يلثفون لغبايمهم أضل من تلك البهائم السمينة التي لا تُرشد لها .

٢ - السناير : جمع سنير : العالم بالشيء المتقن له .
م : يعبر خنجراً بالطمعنة التي أصيب بها فوق حاجبيه والتي ساق بها الذل إلى بني قومه .

٣ - البصائر : جمع بصيرة وهي القطعة من الدم .
م : يخاطب خنجراً ويقول إنك لو كنت عزيزاً قادراً لمنعت جبينك من أن يناله السيف ويختلف فيه الدماء المنثمرة .

٤ - م : يعيره بالطمعنة ، ويدعوها ألا يسترها عن عيون الناس ، بل فليطالعهم بها ، وقد اجتمع عليها الذباب ، وليعرف بخزيه بها .

بِنَعَارَةٍ يَنْفِي الْمَسَابِيرَ أَرْبُهَا ۱
 أَمِنْ عَوَزِ الْأَسْمَاءِ سُمِّيَتْ خَنْجَرًا ۲ وَشَرُّ سِلَاحِ الْمُسْلِمِينَ الْخَنْجَارُ ۲
 غَمْرُنَاكَ إِسْلَامًا ، وَإِنْ تَكُ فِتْنَةٌ تَكُنْ نَعْلَبًا دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّوَائِرُ ۳
 وَإِنَّ أَمْرًا مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَأَسْتِهِ هَجَا وَائِلًا ، طُرًّا ، لِأَحْمَقٍ فَاجِرٌ ۴

وهذا هجاء ابتداعي ، جديد في موضوعه ومعانيه ، إذ لم يكده يهجو امرأة بطعنة طعن بها ولم يتفرغ لوصفها بكل أوصافها . ولقد عمد الشاعر الى تأويلها بما يلحق منها العار بصاحبها ، مستدلاً بها على جبنه وهزيمته في القتال . وهو إذ يلحف بوصفها ، إنما يلحف باظهار عاره بجبينه . فهي طعنة غائرة لا يدرك قاعها ، أي انها قوية ، كما أنها قاحت وانتنت بحيث جعل الذبان يحقد بها . فالهجاء هو ظاهراً بالطعنة ، وضمناً بقلّة القدر والتّصير والهزيمة . وبعد ان يستدل من اسمه « خنجر » على غدره ، يقرن بين الطعنة في حاجبيه واسته في مماثلة حسية مزريّة ، لكنها ساقطة فنياً وإنسانياً . كما انه يتهمه بدينه ومروقه منه

- ١ - النّعارة : طعنة يفور منها الدم . أربؤها : قطعها . المسابير : جمع مسبار وهو أداة يُسبر بها أي يقاس العمق .
 م : يستكمل هجاءه بالطعنة التي طعنها ويقول إنها فوّارة الدم ، عميقة الغور ، لا يطلها المسبار ، وإن أعين الناس لا تزال تُحدق بها كجيش كثير .
 ٢ - م : يهجوه باسمه ويقول أضاقتْ بوالديك الأسماء ، حتى تسمى خنجراً ، وهو رمز الغدر والوقعة بين الناس ؟
 ٣ - دارت عليه الدوائر : أي أنزلت عليه الدواهي .
 م : يقول إنه بالرغم من إلتمائه إلى المسلمين ، فهو لا يزال يؤلب الفتن بلؤمه وخبثه ، فيصيبه منها الهلاك والدمار .
 ٤ - م : يُفدع به غاية الإقذاع ويقول إن جبينه شبيه بمؤخرته ، أي أنه مهان ذليل ، ويردف بأنه فاجر ، لأنه هجا وائلاً جميعاً .

وتأليه عليه ، ماسخاً لإياه بمظهره ونخبره ودينه وديناه . وربما طالعنا في مثل هذا النوع من الهجاء نموذج بشري كتلك التي سوف تُطالعنا في أهاجي ابن الرومي ، دون ان تتكامل الصورة بالسخرية والكاريكاتورية الماثورة في مثل تلك التماذج .

إلا أنه أكثر ما يتوقع به من هجاء يتصل بالقبائل . وكما هجا العباسيين وعبد قيس ، يهجو الأسديين ، كذلك بقوله :

إذا الأَسديُّ حَلَّ بِغَيْرِ جَارٍ فَلَيْسَ لَهُ ، وَإِنْ ظَلِمَ ، انْتِصَارُ ١
تَصُولُ إِلَى الْعُلَى أَسَدٌ ، وَتَأْبَى مَخَازِيهَا وَأَيْدِيهَا الْقِصَارُ ٢
وَأَسْتَبُو بَوَاجِدِ الْأَسَدِيِّ ، إِلَّا يُنِيبَ لِمَا أَنْابَ لَهُ الْحِمَارُ ٣
وَأَشْهَدُ أَنَّهَا أَسَدٌ بَنُ نَهْدٍ وَمَا وَلَدَتْ بَنِي أَسَدٍ نِزَارُ ٤

فبنو أسد أشبه باللاجئين والملاحقين ، يقيمون إلى جانب سواهم ليدافعوا عنهم ويحموهم وهم يفيدون من نخوة الجيرة . وإذا كان هذا المعنى لا يبلغ إلى الاقذاع

١ - م : يقول إن بني أسد مخذولون ، لا طاقة لهم بالانتصار ، إلا إذا ناب عنهم جيرانهم ، ومؤدى المعنى أنهم أتباع لاحقون .

٢ - الأيدي القصار : هنا كناية عن العجز والضعف .
م : يقول إنهم يتناولون ويدعون القدرة والمجد ، إلا أنهم لضعفهم وقصر باعهم يلقون أبدأ في حالة من الخزي والعار .

٣ - أناب : تردد على الأمر ، حيناً بعد حين .
م : يحقر من شأنهم ويقول إنهم لا يزالون يزاولون ما يزاوله الحمير ، وإنه لا شأن لهم من شؤون الفروسية .

٤ - م : ينفي بني أهد عن النسب التزاري ويقول إنهم من بني نهد وحسب .

في نفهم عن الفروسية ، كما كان دأبه ، إذ لم يذكر امتطاهم للدواب ولحاق الكلاب بهم بدل الخيل ، فإنه ينطوي على مثل معناه ، دون غلو . فالأخطل ملمٌ بالتقاليد العربية ، يمسحها فيمن يهجو ، بالتأويل النفسي . فالقيسون أذلاء ، لكنهم يدعون العلى ، فيخزون ، لأنهم لم يتمرسوا بالقتال قط ، بل ينصرفون الى الخدمة والأعمال الهزيلة التي تقوم بها الحمير . فالعربي الأصل لا تراه إلاً وهو يمتطي القتال ، وفيما دون ذلك يقوم على خدمته العبيد والمُلاحقون كالاسدين . وفضلاً عن ذلك ، فإن للفظه الحمار إقذاعاً بذاتها ، دون انصراف الى تفسيرها بالنسبة الى قيم الفروسية . لا شك أن المعاني تبدو يسيرةً بمُجمَلها ، إذا ووزنت بالمعاني المدحية أو بأهاجيه في جرير وبنى قيس . إلا أنها تظهر جانباً من واقع جرير أو عدوه السياسي ، أي القيسيين ، بل تراه يتنقّض على كل من يُعارضه ينمي اليه ما نماه لسواه ، دون ان يحتفل في ذلك احتفالاً فنياً موازياً . ومهما يكن ، فإن معانيه الهجائية بأيمن اتصلت تبدو ، غالباً ، مكرورة ، تتباين فيها حلة اللفظ والعبارة ومستوى الغلو والتأويل ، دون أن تتباين فيها نقطة انطلاقها . فهي هو يهجو احد القوم ويتهدده بالهزيمة والارتحال عن الديار الى مجاورة اللؤماء ، كما أنه يُعيّره بالعدر بالجار واستحلال محارمه ، متوسلاً لفظة « أكل » للغلو منيظاً بهم معنى الافتراس والجشع :

قُولَا لِيَزِيدٍ يَنْزِنَ عَنَّا لِسَانَهُ وَلَا يَذْنُ مَنَّا فِي الزُّحَامِ ، فَيُظْلَعَا ١
وَيَظْلَعُنَّ ، حَتَّى يَسْتَقِرَّ بِبَلَدَةٍ يُجَاوِرُ مِنْجَاباً بِهَا وَالْمُجَدَّعَا ٢

١ - يَظْلَعُ : يعرُجُ ويقصّر عن سواه . زيد : لعله إشارة إلى قبيلة زيد اللات .

م : يخاطب زيداً ويدعوه إلى الامتناع عن التعرض لهم وأن يكفّ عن هجائهم وألا يدخل معهم في السباق والزحام ، لأنه سيُقصّر عنهم ، أي أن قوم زيد هذا يعجزون عن مُساماة التغليبين .

٢ - م : يدعو إلى الإرتحال والإقامة في جوار بني المنجاب والمُجدّع وهما بطنان من كلب ، أي أنه يدعو إلى ملازمة من يُماثلونه ذلاً .

فَأَنْتُمْ أَكَلْتُمْ جَارِكُمْ فِي بِيوتِكُمْ كما قَدْ أَكَلْتُمْ قَبْلَ ذَاكَ الْمَقْنَعَا ١
وَنَحْنُ وَفِينَا بِالْمَزْنَمِ كُلُّهُ وَأَنْتُمْ أَكَلْتُمْ ذَا الْجَوَاعِرِ أَجْمَعَا ٢

وللأخطل هجاء في بني زيد اللات لا يتعدى فيه الأبيات والمقطوعات ، لكنه يُلحَف به ويُكرَّره ، دون أن يبلغ فيه مبلغه من هجاء القيسيين . فهو بهجاءهم هازئاً ، مُستخفّاً ، فيما هجا القيسيين ، معارضاً ، منافساً . تراه يقول :

هَلْأُ زِياداً إِذْ زِيادُ جَانِحُ تَبْرُقُ فِي هَامَاتِهِ الصَّفَايِحُ ٣
وَنَتْنُ زَيْدِ اللَّاتِ غَادِ رَائِحُ وَلَا يَنَالُ الْخَيْرَ مِنْهَا مَاتِحُ ؛
كَجَذْوَةٍ جُدِّبَ عَنْهَا نَاقِحُ

ومع أنه ابتسر في عدد الأبيات ، فقد آثر العمق والتكثيف إذ أحال زيد اللات الى شجرة عارية ، قطعت أغصان الخير والفضل فيها ، فلا تثمر بثمر ولا تجدي

١ - م : يعيَّروهم بالغدْرُ بجارهم . كما غدروا من قبل بالمقنع الكندي وهو شاعر أموي كان جدُّه سيد كندة ، وقد نشأ على حبِّ الإنفاق فابتنى من ذلك بالدين فعيَّره بنو عمه فقره ومنعوه من الاقتران بشقيقتهم .

٢ - المزنم : الإبل الكريمة التي لها زئمة . ذو الجواعر : هنا الإبل الهزيلة الذليلة .

م : يفاخرهم في هذا البيت بالمجد والسؤدد من خلال الطعام الذي يطعمه كل منهم ، ويقول إن التغلبيين دأبوا على الطعام الكريم ، فيما لازم أولئك الطعام الرذيل الذليل . ولعل الطعام هنا هو رمز للأعمال التي يقوم بها كل منهم .

٣ - ٤ - الماتح : المستدر اللبن وهنا العطاء . الجذوة : أصل الشجرة . الناقح : المشذب .

م : يتساءل إذا كانت الخوذُ تلتصق على رأس زياد ، فيما هو يجنح ويميل إلى القتال ، ويردِّف بأنَّ بني زيد اللات مُنْتِنون يفوح منهم النتن في كل حين ، وأنهم بخلاء ، لا يُرْجى عطاؤهم كالشجرة التي تساقطت أغصانها .

يجدوى . والتأويل جديد ، مبتكر ولا يعوزه العمق في المقارنة والرؤيا والإستنتاج بين المعاني الانسانية والمظاهر الطبيعية . ولتتمثل صورة النتن العائد والرائح والمقبل والمدبر ، أي انه يقيم ، أبدأ ، ولا ينفك عنها . وللتن ، هنا ، معناه المادي في ربحهم الكريمة ، ومعناه النفسي في غدرهم وفسقهم وقلّة شأنهم .

ويقول ، أيضاً ، مُقدِّعاً في هجاء نساءهم :

أَلَا يَالَ زَيْدِ اللَّاتِ ، مَا بَالُ رَايَةٍ رَفَعْتُمْ عَصَاهَا بَعْدَمَا أَذْبَرَ الْأَمْرُ ١
لَتَحْمُوا نِسَاءً بَادِيًا ثَلْبَاتُهَا قِصَارًا هَوَادِيهَا ، وَأَوْسَاطُهَا عُجْرُ ٢

فهؤلاء يدافعون ، بعد أن انقضى حين الدفاع ، أي أنهم يهيمون بالقتال ولا يتهدون له ، فيكتفون من ذلك بالتظاهر به . والشاعر يُبْطِّطُ همتهم عنه ، ليفيد من ذلك ثلباً لنساءهم اللواتي لا ميزة لهنّ تدفع للقتال والدفاع عنهن . فهن ، بنقيض المرأة العربية . كثيرات العورات والشواثب ، قصيرات الأعناق لذتهن وشعورهن بالهوان . والعربي يرمز ، أبدأ ، للعزّ والمجد برفع الهامة واشترتاب العنق كما أن المرأة العربية هيفاء ، ضامرة الحصر . أما نساءهم فهنّ مستديرات الحصور ، مُتَنَفِّخَاتُ البطون ، لقبهجنّ وقماءهنّ . والهجاء الأخير يقتصر على الناحية الجسدية ، أو يك ، انتفاخ البطن تعبيراً عن تواقعهن بالسفاح . والله أعلم .

ولا يعدو البيتان التاليان هذا الشأن :

لَا يَرْهَبُ الضَّيْعَ مَنْ أَمَسَتْ بِعَقْوَتِهِ إِلَّا الْأَذْلَانَ : زَيْدُ اللَّاتِ وَالْغَنَمُ ٣

- ١ - ٢ - الهوادي : الأعناق . عُجْرُ : يعني أنهن ضخمات البطون .
م : يخاطب بني زيد اللات ويعجب من رفعهم لراية القتال ، دفاعاً عن نساء مثلبات ، أي كثيرات العيوب ، قصيرات الأعناق : مُتَنَفِّخَاتُ البُطُونِ .
٣ - العَقْوَة : ما يقع حول الدّار أو المحلة .
م : يقول إنه لا يخاف من الضَّيْعِ إذا حَلَّتْ في ساحته . إلا زيد اللات والغنم لذتهم . وآية المعنى أنه يقرن بين هؤلاء والغنم في الجبن والامتناع عن الدفاع عن النفس .

هَاتَا لَهُنَّ نُغَاءٌ ، وَهِيَ جَائِلَةٌ وَهَوْلَاءُ قَابِلُو خَسْفٍ وَإِنْ رَغَمُوا ١

وهو يقرنهم في ذلك بالغنم للتدليل على الجبن . فهم يدورون على أنفسهم عندما يعترضهم الأعداء ولا يُرِيمون لجبنهم وتحاذهم ، أو انهم ، كما سبق القول ، يتظاهرون بالحمية بعد أن يُنكَل بهم وتُسبى نساؤهم . والمعنى مكرور ، إلا أنه وقع ، هنا ، توقيحاً نفسياً آخر ، من التباين بين ظاهرهم وباطنهم . فهم في الحقيقة جبناء ، مخذولون ، لكنهم يتظاهرون بالإباء والبطولة . إلا أن الموقف الهجائي الأقوى يظل قائماً من المقابلة بينهم وبين الغنم التي تنغو عندما تظالها الضبع . فلا حول ولا قوة لهم على الأعداء .

وربما أوجز معانيه الهجائية فيهم بقوله :

أَلَا إِنَّ زَيْدَ اللَّاتِ ، يَوْمَ لَقَيْتُهَا عِلَاقَةٌ سَوْءٌ ، فِي إِنْاءٍ مُثَلَّمٍ ٢
قُبَيْلَةٌ مَا يَغْدِرُونَ بِدِمَتِهِ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ٣
وَلَا يَرِدُونَ الْمَاءَ ، إِلَّا عَشِيَّةً عَلَى طُولِ أَظْمَاءٍ وَوَجْهِهِ مُلَطَّمٌ ٤

١ - م : يقول إن الغنم تنغو إذ يظالها ، وهي تجول مذعورة في أمكنتها ، كما أن بني زيد اللات يقبلون الدئل ممن يحل فيهم وإن أدعوا مراغمته ومقاومته .

٢ - العلاقة : ما يعلق به الإناء .

٣ : يحقر من أمرهم ويقول إنهم يبدون لهماهم ودناءتهم كالعلاقة الزرية في الإناء المثلم .

٤ - م : يمثل في هذا البيت ضعفهم وقلة شأنهم ويقول إنهم قبيلة صغيرة حقيرة ، لا حرية لهم فيما يتصرفون به . يعجزون عن العذر ، إذا ما اضطروا إليه ، كما أنهم لضعفهم يعجزون عن الاستبداد في الناس . وقد اقتبس معنى هذا البيت من الحطبية إذ قال :

قُبَيْلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِدِمَتِهِ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ

٤ - م : يقول إنهم يقبلون على الماء في أعقاب الناس : بعد أن يعانون الظماً الشديد وتلطم وجوههم وتضعف كالعيد .

هُوَ الْعَبْدُ يُجِيبِي كُلَّ يَوْمٍ ضَرِيْبَةً مَتَى تُلْزِمِ الْعَبْدَ الْمَذَلَّةَ ، يُلْزِمُ ١

والجديد في هذه الأبيات تمثيله لهزال حالهم بصورة واقعية ، مُنعمَة في الدقة إذ قرّرتهم بالإناء المسلّم ، أو بالأحرى بجزءٍ منه بعلاقته المتدلّية المهترئة . والمعنى يتكامل بين العلاقة والإناء المتثلّم ، إذ أن تثلّمه يُضعف من الإيحاء بمعنى الهوان وقلة القدر . وفضيلة الشاعر في ذلك هي اهتداؤه الى هذه المقارنة الموحية ، النافذة . إلاّ أنّ المعنى الهجائي الأعرق والأغرب هو قوله :

قَبِيْلَةٌ مَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةِ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ ذَرِّهِمْ

وإذا كان وجه الهجاء بيّن في لفظة « قَبِيْلَةٌ » المحمولة على صيغة التصغير ، دلالةً على التحقير وقلة العدد والأنصار ، فإن وجه الهجاء في القول إنهم لا يغدرون بذمة ولا يظلمون . وإنّا لنعلّم أنّ الإقامة على العهد والوفاء بالذمة والامتناع عن الظلم هي من الفضائل ، فكيف يهجوهم بفضائلهم ؟ الواقع ان للفضائل وجهاً آخر بالنسبة الى الفروسية الجاهلية التي تؤمن بالقوة المطلقة التي لا يحدّها حدٌّ ولا يردعها رادع . ثم إنهم اخضعوها لبعض الأعراف الإنسانية في القوة المطلقة التي تمنع أنّها بذاتها ، تسامياً وكبحاً لجماح النفس ، فكانت قيم الوفاء والعدل . ووجه الهجاء ، هنا ، أن بني زيد اللات ، لا يغدرون ولا يظلمون تعففاً وتصوناً كالأقوياء ، بل ضعفاً وعجزاً . فهم يرغبون في الغدر ويميلون إليه ، إلاّ أنّه ليس ، ثمة ، قوة ، تعضدهم ليقوا على الغدر . ومثل ذلك الظلم . فهو يقتضي من صاحبه القدرة ، ولا يظلم الا الأقوياء وبنو زيد اللات ظالمون ، ولكنهم يعجزون عن تحقيق ظلمهم . ويكون مؤدّى الهجاء كلّهُ ، هنا ، أنهم قوم مخذولون ، بائسون . وتتكامل هذه الصورة بقوله إنهم لا يردون الماء إلاّ

١ - م : يقول إنهم عبيد ، يدفعون في كلّ غداة ضريبة لمن دونهم ، خاضعين لهم . ويردّف بان طباع العبد تدفعه إلى الظلم .

عشيّةً عندما يتولّى الناس وترفضُ جموعهم ، فهم كالعبيد ، يلطمون ويزجرون
ولا قبل لهم بالرفض والثورة .

ولقد واقع الأخطل شعراء آخرين ، فضلاً عن جرير ، منهم ابن جَعِيل ،
كما قدّمنا ، والنايفة الجعدي الذي أقذع في هجائه بأمه وبني قومه إذ قال :

وما أمُّ رَبَّوتَ على يديها بطاهرة الثيابِ ولا حصانِ ١
كانَّ عجانها لحيًا جزورٍ تحسَّرَ عنْهُما وضرَّ الجِرانِ ٢
ولو أنِّي بسطتُ عليك شَمي وجدَّك ما مسحتُك بالدهانِ ٣
فلا تنزِلْ بجعدي ، إذا ما ترَدَى المُكرعاتُ من الدُّحانِ ٤
فإنَّكَ غيرُ واجِدِهِ حشوداً ولا مُستنكراً دارَ الهوانِ ٥

١ - م : يهجوه بأمه التي نشأ على يديها ، ويقول إنَّها لم تكن غيفة مُحصنة بل مُبتذلة
تواقع من شاء من الرجال .

٢ - العِجان : هنا الاست . جزور : ناقة نُحِرَتْ . الجِران : العنق . تحسَّر : انتزع ، فبان
ما هو من دونه .

م : يُقذع بها ويقول أنَّ عجزها شبيه بلحي الناقة التي تُزَع منها لحم العنق ، فتدليا .

٣ - الدهان : هنا الجلد الأحمر .

م : يقول إنَّه إذا ما تصدَّى لهجائه ، فلن يكتفي بمعايبه وغشيانه غشياناً طفيفاً بل إنَّه سيدهه
ينفذ إلى لحمه وعظامه .

٤ - ٥ - المُكرعات : من الإبل اللواتي تدخل رؤوسها إلى الوقود فتسودّ أعناقها . تردى :
لبس الرداء . ←

يَبِيْتُ عَلَى فَرَاسِنِ مُعْجَلَاتٍ خَبِيثَاتِ الْمَغْبَةِ وَالْعُثَانِ ١
 وَشَلْوٍ تُمْزِقُ الْأَغْرَاسُ عَنْهُ إِذَا لَمْ يَصْلُهُ لَهَبُ الْأَفَانِ ٢
 وَمَا تَنْفَكُ حَنْكَلَةٌ زَمْعُوعٌ تُوَاعِدُهُ إِلَى آذَى مَكَانِ ٣
 أَزَبُ الْحَاجِبَيْنِ ، بَعُوفٍ سَوْءٍ مِنَ الْحَيِّ الَّذِينَ عَلَى قَنَانِ ٤
 قُبَيْلَةٌ يَرُونَ الْغَدَرَ مَجْـُوداً وَلَا يَدْرُونَ مَا نَقَلُ الْجَفَانِ ٥

← م : يقول : عندما يشتدُّ الصَّقيع ، فيوقد للإبل فتدنو إلى النار بحيث تسود أعناقها ، فإنك لا تلقى بني جعدة يهرعون إلى الضيف ويحشدون له الخدم والحواري ، لأنهم أليفوا الهوان وأقاموا عليه .

١ - الفَراسِن : أخفاف الإبل . مُعْجَلَات : أي غير تامّة النضج . خبيثات المغبّة : أي أن أكلها يورث وجعاً في البطن . العُثَان : الدخان .

م : يقول إنهم يقدمون لضيئفهم أخبث الطعام : كأخفاف الإبل غير التامة النضج والتي تورثه ألماً في بطنه .

٢ - الشَلْو : هنا ولد الناقة . الأغراس : الغشاء والجلد الذي يخرج منه الولد . الأفان : شجر . م : يقول إنّه ينتزع المنديل الذي يعشّى الجنين في بطن الناقة ويأكله دون أن يطبخه على على النار .

٣ - الحنكَلَة : الدّميمة ، القصيرة من النساء . زموع : سريعة . م : يقول إنّه إذا ما حلّ ضيف عليهم ، فإن نساء بني جعدة الفاجرات القصيرات القبيحات ، لا يزلن يواعدنه للزنى .

٤ - أزب الحاجبين : كثيف شعرهما . العوف : الحال . م : يقول إنّ الجمدي لا يزال كثيف شعر الحاجبين يقيم في بني قومه بخالة سيئة .

٥ - م : يشير في هذا البيت إلى قصة ورد والرقاد اللذين قتلوا بعض الملوك غدراً . ويقول إن الجمعيين لا يعرفون نقل الجفان أي القدر ، فلا يطعمون ضيفاً أو يتقلون له الطعام .

فهو يستهلُّ هجاءه بوالدته وبنعوت تقريرية نعى عليها فيها عفتها ، ثم ينحدر الى الفحش في تمثيل استنها ، مما لم نعهده في شعره ، قبلاً ، ومؤداه أنها لعظم موافقتها للرجال مُزق لحم عجزها وتناثر . ومع أنه أدنى سورة الغلو ، فهو من الشعر الساقط الشبيه بالسباب والشتم .

والمعنى الثاني الذي يهجوهم به هو امتناعهم عن الضيافة : وقد مثله من خلال كنايات مُتعمَّدة أهمها : النياق المكرعات ، كناية عن شدة الصقيع بحيث تلتصق الناقة الى النار ، فتضمع أعناقها بالدخان وتسودُّ به . إلا أن قومه لا يدفعون الضيف . وكانوا أحرى أن يفعلوا بدلاً من أن يُطعموه طعاماً فاسداً يكاد أن يُودي به ويهلكه . فهم يطعمونه أخفاف الإبل غير الناضجة وأغشية الأجنّة المخضبة بالدم . والعربي يفخر بأنه يُطعم لحم الأسمنة . فكيف بهؤلاء يُؤدون الأقدام والأغشية ، وهي كناية عن الاحتقار للضيف والبخل عليه . إلا أن أخبث أهاجيه فيهم تشخص في الآيات الثلاثة الأخيرة إذ يصف نساءهم بأقبح وصف ويردِّف بأنهنَّ يُواعدن الضيوف على الزنى .

* * *

خلاصة عامة حول هجائه

أولاً : المعاني : للأخطل معان هجائية يتصرّف بها في كل مناسبة وفقاً لمقتضى الموضوع والمناسبة . فهو يُحدِّق بالمهجو من كل جهة ووجه أو يؤدي له بعض المعاني المجزوءة في أبيات قليلة بالنسبة الى شدة تواقعه معه . فهو يهجو ، غالباً ، بوالدته . فيشبهها بالدابة التي عُقد عليها سرجها :

ولقد شدّدت على المراغة سرجها حتى نزعنت وأنت غيرٌ مُجيدٍ (٢٦٧)

ويلمٌ بذلتها وهوانها من خلال الأعمال التي تدأب عليها . فهي تدعى الى إطفاء النار ببولها ، خوفاً من الضيفان :

قومٌ إذا استنبَحَ الأضيافُ كَلْبَهُمْ قالوا لأُمَّهم بُولِي عَلَى النَّارِ ٢٧٠

ويعرِّج على تقرُّح استها واستبانة عظامها من شدة هزالها وامتطائها للبعران :

كَأَنَّ غَرَضِيْفَ اسْتَهَا فَوْقَ أُنْتَرِهِ وَحَجَمَ تَرَاقِيْمَهَا سَكَاكِيْنُ جَازِرٍ ٤٣٥

وربما أقذع وافحش ، في مثل قوله :

تَرَى مِنْهَا لَوَامِعَ مُبْرِقَاتٍ يَكْدُنَ يَنْكُنَ بِالْحَدَقِ الرَّجَالِ ٣٨٢

وقد يقذف بها قذفاً مباشراً :

وَمَا أُمُّ رَبَّوْتٍ عَلَى يَدَيْهَا بِنَاصِعَةِ الثِّيَابِ وَلَا حَصَانِ

كَأَنَّ عَجَانَهَا لِحَا جَزُورٍ تَحَسَّرَ عَنْهُمَا وَضُرَّ الْجِرَانِ

وكذلك في مثل قوله :

وَمَا تَنْفُكُ حَنْكَلَةَ زَمْوُخٍ تَوَاعِدُهُ عَلَى أَدَى مَكَانِ

ويهجوه ، أيضاً ، بوالده ، في معنى يتكرر أبدأً ، وهو معنى مغرق في المادية يقيم به موازنة ، كما في قوله :

وَإِذَا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ رَجَحُوا عَلَيْكَ وَأَنْتَ غَيْرُ حَمِيدٍ ٣٦٨

وإذا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ قَفَزَتْ حديدته إليك ، فشالا ٣٩٤

وإذا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ رَجَحُوا وشالَ أَبوكَ فِي المِيزانِ ٣٩٦

وهذا التشبيه افتراضي ، تمثيلي ، يردف إثره بمعانٍ أشدَّ زرايةً وتحقيراً
كقوله :

وأبوكَ فِي مَحْنِيَّةٍ وَعِباءَةٍ قَمِلٌ كَأَجْرَبٍ ، منتشٍ ، مورود ٣٦٩

جاءت به معجلاً عن غبِّ سابعةٍ من ذي لهالة ، جهم الوجه كالقارِ ٣٧٤

متلفٍ فِي بردةٍ حقيقيَّةٍ بفناءِ بَيْتٍ مَدْلَّةٍ وَهوانِ ٣٩٥

ويهجوه بيته الحقير :

تَغَنَّ ضاللاً ، يا جريراً وإنمما مَحَلُّكَ بَيْتٌ حَلَّ وَسَطَ الزَّرَائِبِ ٤٠٤

مَا كَانَ مَنزِلَكَ المَرُوتَ مُنحَجراً يا بَنَ المَرَاغَةِ ، يا حُبلى بِمُخْتارِ ٣٢٣

وهناك معانٍ فروسيَّة عامَّة . مستمدة من مثل البيئَةِ ، يعكسها فيهم وينقضها .
منها سَوَقُهُم الحمير والعيارات :

كُلَيْبٌ يُفَالُون الحمير ودارمٌ على العيس تعلقو ، فوق كُلِّ المَوارِكِ ٤٢٠

على العياراتِ هَدَّاجُونَ قد بَلَغَتْ نَجْرانَ أو حَدَّثَتْ سَواتِهِم هُجْرٌ ٤١٠

يُزَجُونَ الحميرَ بأَرْضِ نَجْدٍ وما لَهُم من الأَمْرِ الخِيارُ ٤١٠

فما قَادُوا الجِياذَ ولا اِفْتَلَوْها ولا رَكِبُوا مَحْيِسةَ الرُّكَّابِ

على إثر الحميرِ مُوكَفِيها جَنائِبُهُم حَوالِي الكِلابِ ٤٦٠

وقد يقرنهم بالعبيد :

وكنت إذا لقيت عبيد تَيْمٍ وتيماً قلت أيهم العبيدُ

ويُعيرهم بالمنع عن الماء :

وابن المراغة حابسٌ أَعْيَارُهُ قذف الغريبة ما يَدُقْنَ بلالا ٣٩٣

وإذا وردت الماء كان لدارمٍ عفواته وسهولة الأعطان ٣٩٥

أما كليبُ بن يَرْبُوعٍ فَلَيْسَ لَهُمْ عند التفارط ايراد ولا صَدْرُ

مَلَطُّونَ بِأَعْقَابِ الحِيَاضِ فما ينفكُ من دارمي* عندهم أثرُ ١٧٨

ويتمثل بالسَّيلِ العرم ويمثل العدو بالقذى والغناء :

وإذا سما للمجد فرعا وائسلي واستجمَعَ السوادي عليك ، فسالا

كُنْتَ القذى في موج أكدر مزبد قذف الأتيُّ به ، فضلٌ ضلالا ٣٩٢

أجحاف ان تصطك ، يوماً ، فتصطدم عليك أواديُّ البُحور الزواخر

تكن مثل أفداء الجباب الذي جرى به الماء أو جاري الرياح الصراصير ٢٦

ويُعيرهم بفرارهم من دون نساءهم وامهاتهم :

لحا الله قيساً حين فرَّتْ رجالُها عن النصفِ السَّوداءِ والكاعِبِ البكرِ

وطلَّتْ تنادي بالثدي نساؤهم طوالع بالعليا مائلة الخُميرِ ٤٤٧

وعبر ذلك تراه يُتَشَفَّى بمن قتل من الأعداء :

وان كان قد قَادَ المقانِبَ ، مرّةً ، عُمَيْرٌ ، فقد أَضْحَى بدويّة قَفْرٍ .
تَظَلُّ سباعُ الشَّرعيّةِ حَسولَه رِبوضياً ، وما كانوا أَجْنُوهُ في قَبْرِ ٢٩ ؛
أَمعشر قَيْسٍ لَم يَمْتَعِ أَخوكم عُمَيْرٌ بِأَكْفانٍ ولا بِطَهْورِ
تَدُلُّ عليه الضَّبْعُ رِيحَ تَضوَعَتِ بلا نَقَعِ كَافورٍ ولا بِعَبيرِ ٥٠ ؛

ونقع هنا وهناك وهناك على تعبير لهم بالبخل والامتناع عن الضيافة ، والإباءة
بالتأثر وما الى ذلك مما تقدّم ذكره .

أمّا الخصائص النفسية العامة ، فتبدو في أنّه لم يصدر عن شعور بالعاهة والنقمة
الوجوديين الذين يستطلعان الحلكل في خلية الحياة ذاتها وفي نواميس الأحياء
والأموات . بل عن نزعة فُروسية ومفاخرة يتعاطم فيه الهاجي بقدر ما يتضاءل
قدر المهجو . وهو لا يُزري بهم . غالباً ، في حدود حياتهم الواقعية . بل في
تقصيرهم عن القيم المثالية . يثلبهم ، مثلاً ، بامتطأهم للحمير ، وليس في
ذلك ضيّرٌ بالنسبة الى الحياة الدّاجنة الأليفة . الا ان الأخطل يرفض ذلك الواقع
ويجد أنّ غاية الحياة هي البطولة يمتطي صهوة القتال ويزهو بزهوة النصر . وقد
ينخفض بهم حتى عن المستوى الواقعي في نوع من الغلوّ الفنيّ ، فيجعلهم يبخلون
حتى بالبؤل . ويجعل طعامهم من لحوم الحمير والذئاب والدم . وقد لا نقع في
هجائه على السّخر والكاريكاتورية حيث يُعالج موضوعه بذهنٍ خليّ ، متفرّغ ،
لاه ، عابث . فالأخطل شاعر جدّي ، وحتى الحمريّات لم تكد تُخرجه عن
طوره . فهو يحرص على القيم وينافح عنها . يستمدّها من بيتها ومن النفسية
البدائية التي تصطبغ فيها الانفعالات . متمارّجة بين الفخر والهجاء . كما بيّنا . ومع
أنّه لا يحتشد في هجائه كلّ احتشاده ولا يقدّم له الا نادراً في مقدمات مبسّرة
فإنّه لا يتخلّى عن جلال العبارة والصورة والمنحى الجمالي . مما سنعرض له في
الفصل الأخير . خلال دراستنا لخصائصه الفنية العامة .

الفصل الرابع
مفاخره

الباب الأول

الفخر العام

يُعتبر الفخر في شعر الأخطل امتداداً للمدح والهجاء ، أو هما يُعتبران امتداداً له . ذلك أن الأخطل لم يكن يصدر عن عاهة في أصله ولم يكن يَنتمي الى قبيلة هزيلة ، لا شأن لها ، بل إنه تغلبيُّ النسب ، ينطقُ بصوت قبيلته القويِّ ، ويتغنّى بأعجادهما ويعدّد أيامها بأسمائها والقبائل والأمرء الذين انتصرت عليهم ، كما أنه يهجو من يتعرّض لها ويُنازعها . وهذه العنجهيّة الغائرة في وجدانه . المالكة لروعه عليه ، كانت ترفدُه بالمعاني والصور ، فضلاً عن الإيقاع الحماسي الهادر الذي يصطخب ويتألّب في معظم قصائده . فالأخطل في فخره هو سليل عمرو بن كلثوم ، دون أن يتفرّغ له تفرّغُه ، ويُعالي به مغالاته . وفخره يتباينُ غاية التباين عن فخر عنتره السّوداويِّ القانط . فهو الفخر الزّاهي ، الطّرب ، المترنّح بجمرة النّصر العريق . ذلك أن عنتره كان يصدر في فخره عن عاهة الأصل في العبوديّة واللّون . وقد كان ابناً قومه ألدّ أعدائه ، بخلاف الأخطل الذي لم يكن له مفاخر ذاتيّة في البطولة . بل مفاخر قوميّة في قبيلته . لذلك غلب على فخره الإيقاع السّرديّ . فيما غلب على مفاخر عنتره الإيقاع التّبريريُّ ، الكالِح ، المظلم . ولعلّ صدور الأخطل عن الرّضا والتكافؤ ، أبقى لفخره القيمة الجماليّة الخالصة من دون القيمة النّفسيّة التي تقتصر على معاناة الحقيقة العامة حيث يشعر المرء ، أيّاً كانت قوته بالاندحار والهزيمة أمام قدره وقدر

الحياة . فالأخطل أشبه بالبدائيين الأول في تشاوفه بالنصر الحربيّ ، تملأُ أذنيه قعقة السيوف ويُفَعِمُهَا قَرَع سَنَابِك الخيل عن التنصّت إلى همس أقدام الحياة الذي يدبُّ ببطء وصمت ، مزيلاً كل ما يتنازع وما يتفاخر به المرء . فهو يدنو ، من هذا القبيل ، إلى الفرزدق في انتفاء عنصر الفاجعة من فخره وافتقاره إلى الأبعاد الانسانية . ولعلّ فخر المتنبي يُمثّل أفضل تمثيل الفخر المأسائيّ الفاجع الشاعر بالهزيمة في قلب الانتصار والخفوت والحرب في أوج النجاح . ذلك انه أفصح فيه عن التنازع المرير بين الواقع الفاشل والحقيقة الانسانية المدحورة ، من جهة ، ومثل البطولة والحريّة . ولقد تردّد ، من ذلك ، تحت الرُّكام والأشلاء والأنقاض ، وظلّ يرفع هامته من دونها . أما الأخطل ، فإنّه لا يواجه نهاية مطاف القوّة والنصر ، ولا يتبصّر بحلقة الوجود المفرغة ، الدائرة على ذاتها ، مأخوذاً بالآنيّ والعارض ، أي بالأشخاص والأحداث . ومتى خلا الشعر من عنصر الفاجعة التي تبقى فيه طعم الألم والعمق ، فإنّه يطفّر إلى نوع من الترهات في الغلو الجامح النزق . وهو ، فضلاً عن ذلك ، يستمدّ معاني فخره ، كما هو الشأن في مدائح وأهاجيه من قيم بيئته وعصره .

ويمكن أن نقسم مفاخره إلى معانٍ عامّة يعرض فيها لأعدائه . جملة والى مفاخر خاصّة بالقيسين وأحلافهم ، وندع باباً لفخره بالحيل والتغليبة حيث يُشيدُ ببطولتهم ويُعظّمُها ، لنعرج في النهاية إلى فخره بضيفاتهم .

ونقع على الفخر العام في مثل قوله :

نَصَبْنَا لَكُمْ رَأْسًا ، فَلَمْ تَكَلِمُوا بِهِ وَنَحْنُ ضَرَبْنَا رَأْسَكُمْ ، فَتَصَدَّعَا ١

١ - م : يقول الشاعر . مُتفاخرًا : إِنَّا أَبْحَنَّا لَكُمْ هَامَتَنَا . لتضربوها وتصيبوها بالجراح ، فلم توفّقوا إلى شيء من ذلك . فيما ضَرَبْنَا هَامَتَكُمْ وَأَدْمَيْنَاهَا وَجَعَلْنَاهَا تَتَشَقَّقُ وَتَصَدَّعُ . ومؤدى المعنى أنّه لا قدرة لأعدائهم عليهم . فيما هم قادرون على البَطْش بكل من يتعرّض لهم .

ونحنُ قَسَمْنَا الأَرْضَ نِصْفَيْنِ: نِصْفُهَا لَنَا ، وَنُرَامِي أَنْ تَكُونَ لَنَا مَعَا ١
 بِتِسْعِينَ أَلْفًا ، تَأَلَّهُ العَيْنُ وَسَطَّهُ متى تَرَهُ عَيْنَا الطَّرَامَةَ ، تَدْمَعَا ٢
 إِذَا مَا أَكَلْنَا الأَرْضَ رَعِيًا ، تَطَلَّعَتْ بِنَا الحَيْلُ ، حَتَّى نَسْتَبِيحَ المُمَنَّا ٣

فالفخر في البيت الأول يقوم على المعارضة بين واقعهم وواقع الأعداء الذين عجزوا عن منازعتهم ، فيما مثل بهم التغليبون غاية التمثيل . وتكنتى عن ذلك كلة بالرأس . فرأسهم لم يُصَبَّ حتى يجرحٍ طفيف ، فيما تَمَزَّقَ رأس الأعداء . ولقد طفا الانفعال هنا وطفى ونزا بنوع من الحماس الحربى الفاقد المضمون الانساني في عصرنا . فما جدوى القول إنه قادر على البطش وأنه يَنْثُرُ رؤوس الناس أشلاءً ومزقاً . ومع أن الشاعر صادق في معاناته ، فإنها لا تعدو الحماس الطائش والتغني بالقوة الشبيهة بقوى التوحش والافتراس . والشاعر هو مسؤول في النهاية ، عن الرصيد الإنساني لتجاربه ، ولا يكفيه الصدق في الانفعال ما دام انفعاله مغرقاً في الذاتية ، مُتَعَفِّيةً فيه آثار الموضوعية . ولا يعدو ذلك قوله :

ونحنُ قَسَمْنَا الأَرْضَ نِصْفَيْنِ : نِصْفُهَا لَنَا وَنُرَامِي أَنْ يَكُونَ لَنَا مَعَا

والفخر بيّنٌ فيما يدّعيه من استيلاء على نصف الأرض وطموح الى الاستيلاء عليها . جميعاً . فهذا المعنى انبعثت من نفس عنيفة ، طربة للنصر ، صادقة

١ - م : يقول إنهم احتلوا نصف الأرض وانهم لا يزالون يُقاتلون حتى يحتلوا النصف الآخر ، أي أنهم عازمون على احتلال العالم ، جميعاً .

٢ - تأله : تحار إذا نظرت . الطرامة : هو حسان بن الطرامة الشاعر الكندي .
 م : يقول إنهم سيحتلون العالم بجيش من تسعين ألف مقاتل ، يَغْشَى الأبصار لوله ، وإنه إذا وقعت عليه عينا العدو ، ينهمر منهما الدمع رهبةً وحقدًا .

٣ - م : يقول إنهم يرتعون مراعيهم وإنهم يستحلون مراعي سواهم التي يحمونها ويمنعونها .

فيما تؤدِّيه تحت وطأة الانفعال الذي ينزو بها . وقد لا يكون التغليبون قد استولوا ، فعلاً ، على ما يدعيه ، ولكنَّ الشاعر استولى عليه بالفعل النفسيُّ والغلواء والحماس . وفي مثل ذلك نقول ان الإنفعال وفق في الافصاح عن ذاته بما يؤدِّيه في حدود الواقع . لكنّه أقام على حدود ذاته . ولم يَهْتدِ بهداية العقل ولم يسترفد ويتخمّر بالتأمل ليَمتنع عن النَّزق والظَّفرة الفاقدة البصيرة . فاذا كان الفخر هو تجسيد باللفظ والصورة ، لما يَعمل في النَّفس من نزوات طارئة ، فإن قيمة هذا الشعر تتعاطم لأنه وفق فيه الى تمجيد القوَّة المطلقة . أما إذا كان الفخر يُقيِّم باهتدائه على المعاناة الانسانية العاقلة لمعنى القوَّة المتصارعة مع الظلام والشبهة والحياة والموت والمعنى الأخير للأشياء ، فان فخر الأخطل تتضاءل قيمته ، بل تنعدم . فالزُّهو باقتسام الأرض هو تَغَنُّ بالقوَّة لذاتها . وهو غناء مردول في عصرنا الذي لم تعد تغرّر به لحظات القوَّة الطارئة عن الشعور بقصور دائم وافتقار بانس للقوَّة الفعلية التي لا تنقلص من ذاتها . واثر ذلك كلّه نقول إن الأخطل تصرّف . هنا . تحت وطأة الانفعال الصرف ، الخالص ، فافتقد شعره مبرّره الانسانيّ ، من افتقاده لضوء العقل وهدايته . وقد تحقّق من هذه النزعة البدائية في قوله :

بتسعين ألفاً نأله العينُ وسَطَّه متي تره عينا الطرامة تدمعاً

وذكره لعدد لجيش وهو عدد غلوّ يَمُّ عن ترؤع بحجم الأشياء . فلقد شاهد جيش بني قومه الحاشد ، فتوهّم أنّه الجيش المطلق الذي لا يقف له جيش آخر ، والجيش الذي لا يُهزم . وهذا الاطلاق ليس من خصائص التجربة الشعرية العاقلة التي تتعمّقت ويكبح جماحها من التمرّس بالواقع الفعلي . وهذا القول لا يعدو الحماس الطارئ الذي لا يُخلف في نفس القارئ والشاعر ، جميعاً ، إلا الحواء . ويبلغ ذلك أشدّه بالقول :

إذا ما أكلنا الأرض رعيّاً تطلّعت بنا الخيلُ حتّى تستبيح الممّعا

ولقد نما الى الخيل ، في هذا البيت ، ما تعمل به نفوسهم ، زاعماً أنّها تنظر

إلى مراعي الآخرين . طامعة في احتلالها . وذكره الخليل هو وسيلة للغلو . فكأنها دأبت على هذا الأمر حتى أنها لم تعد قادرة على أن تكف عنه . فقوتهم هي قوة استيلاء وسيطرة ، لا يردعها رادع . مما يؤكد ما ذهبنا إليه من القول ان فخره هو سبيل الى تمجيد القوة المطلقة المزهوة بنفسها .

ونزعة الاستيلاء تطغى على معظم فخره ، فضلاً عن هجائه . فكما تشققتي وسمت بالقيسين وسائر اعدائه بطردهم الى الأراضي السوداء وتربعهم الجزيرة من دونهم . تراه يتفخر ويشيد بقومه للأرض الشاسعة التي احتلها ، وهو يكاد أن يحدّها بحدّ شبه جغرافي علمي في مثل قوله :

وإِنَّا لَمَمْدُودُونَ مَا بَيْنَ مَنبِجٍ
فَعَافِ عُمَانَ ، فَالْحَمِي لِي أَفِيحُ ١
وإِنَّ لَنَا بَرَ الْعِرَاقِ وَبَحْرَهُ
وَحَيْثُ تَرَى الْقَرْقُورَ فِي الْمَاءِ يَسْبَحُ ٢
وإنْ ذَكَرَ النَّاسُ الْقَدِيمَ ، وَجَدْتَنَا
لَنَا مَقْدَحًا مَجْدٍ وَلِلنَّاسِ مَقْدَحُ ٣
بِنَا يُعْصَمُ الْجِيرَانُ أَوْ يُرْفَدُ الْقَرِي
وَتَأْوِي مَعْدٌ فِي الْحُرُوبِ ، وَتَسْرَحُ ٤
ذَوِي يُعْنِ الْآ تِثْرُنَا لِنَصْرِنَا
نَدْعُ بَارِقَاتٍ مِنْ سَرَابٍ تَضْحَضُحُ ٥

١ - ٢ - م : يفخر في هذين البيتين بالمواقع التي يحتلونها بين منبج والعراق : بره وبحره الذي تغشاه القراقير أي السفن .

٣ - م : يقول إذا ما تباهى القوم بمجدهم القديم العريق ، فإنهم يُلْفون أكثر الناس مجداً يقدحونه بضعف ما يقدح به الآخرون .

٤ - م : يقول إنهم يحمون جيرانهم ويطعمون منتجعي ديارهم . كما أن سائر العرب يفرعون إليهم عندما تُضنيهم الحروب .

٥ - تَضْحَضُحُ : تَدَّالَتْ .

م : يقول إنهم ذوو إقبال وخير ، إلا إذا تحداهم أعداؤهم ، فإنهم : آتذ ، يتصدّون لهم وينتصرون عليهم بأسلحتهم التي تتألق وتلمع في الشمس كالسراب .

فإِذَا مَقَامٌ صَادِقٌ ، كُلُّ مَوْطِنٍ ، وَإِذَا بَيَانٌ ، فَالصَّرِيمَةُ أَرْوَحُ ١
وَإِنْ تُفْقِدُونَا فِي الْحُرُوبِ تَجَشَّمُوا مِرَاسَ عُرَى تَأْتِي مَلَى اللَّيْلِ تَكْدَحُ ٢

فأرضهم تمتدُّ من منبع قُرب حَلَب إلى عمان الى العراق بيرةً وبحره ، وهو
يمائل قول عمرو بن كلثوم :

مَلَأْنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَظَهَرَ الْبَحْرَ نَمْلَاهُ سَفِينَا

إلاَّ أنَّ قَوْلَ الأَحْطَلِ هو أَكْثَرُ تَفْصِيلاً وَوَأَقْعِيَّةً . وَالْعَاطِفَةُ الَّتِي يُعْبَرُ عَنْهَا
هِيَ عَاطِفَةُ الْبَدَوِيِّ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى قَبِيلَتِهِ فَيَجِدُ أَنَّهَا أَوْشَكَتْ أَنْ تُشَارِفَ الْمَلِكَ وَأَنَّ
تَقْيِيمَ الدَّوْلَةِ ، لَهَا مِنَ الأَرْضِ مَا لَهَا ، وَمِنَ الصَّوْلَةِ وَالْهَيْبَةِ مَا يَمْنَعُ الآخَرِينَ عَنِ الطَّمَعِ
بِهَا . فَهَذَا الْفَخْرُ هُوَ مِنَ الْفَخْرِ الْعَامِّ وَفَقْأً لَوَاقِعِ الْبَيْتَةِ حَيْثُ لَمْ يَكُنِ الْمَرْءُ يَكْسِبُ رِزْقَهُ
إِلَّا مِنَ الْحَوْمِ الآخَرِينَ وَأَشْلَاهُمْ . إِلاَّ أَنَّهُ يَتَّسِمُ بِالْوَأَقْعِيَّةِ مِنْ ذِكْرِ أَعْلَامِ الأَمَاكِنِ .
وَهُنَاكَ فَخْرٌ مَعْنَوِيٌّ عَامٌّ ، يَتَوَسَّلُ لَهُ الْمَعَادِلَةُ الْبَلَاغِيَّةُ . وَالْإِيْحَائِيَّةُ ، كَمَا كَثُرَ قَوْلُهُ :

وَإِنْ ذَكَرَ النَّاسُ الْقَدِيمَ ، وَجَدْتَنَا ، لَنَا مَقْدَحًا مَجْدٍ وَلِلنَّاسِ مَقْدَحُ

وقدح المجد هو استعارة مكنية لإضاءته وإشعاله وانهم يتفوقون فيه على من
دونهم . ومع أنه قيّد فكرة المجد بالصورة الحسيّة الموحية ، مانعاً عنه التجريد ،
فإنّه لم يخرج به من نزعتة العامّة ، وفقاً لمناطق توارد الأفكار وتسقطها . وينحدر

١ - م : يقول إنهم ، إما أن يُقيموا في مراتبهم بخفضٍ ورغد ، وإما أن يتباين أمرهم وأمر
أعدائهم وتقع بينهم القطيعة .

٢ - م : يقول إذا ما عزمت على بلاء أمرنا في الحروب . فإنكم تمتطون مركباً وعرأ ، ويردف
بأنهم يعترفونهم بجيشهم الكثير الذي لا يزال يسير ويكدح إليهم الليل كله .

إلى قليلٍ أو كثيرٍ من التجزئـ في ذكره لمنع الجيران وإيثار الصَّيف . وحماية
العرب . جميعاً . وهنا يعبرُ بفلذة من الشعر العاقل . المُتَرَصِّن إذ يقول :

ذوي يُمنٍ إلا تُثِرْنَا لنصرنا نَدَعُ بارقاتٍ من سرابٍ تَصَحَّضَحُ

فهم أولو خيرٍ ومعروف . حتى يستثاروا . فيهرعون إلى أسلحتهم التي تنالق
في الشمس كالسراب . ولقد عمد إلى الصُّورة الأخطيئة المأثورة في استحضار
المعادلة الحسيَّة التي ترافق المعنى ونجسَّده . وتمنحه . في الآن معاً . الغلوِّ والايحاء .
فأياً يكون ذلك الجيش الذي يتألق سلاحه كالسراب العظيم الخافق . المُتوهِّج
في الشمس ؟ تلك هي الجماليَّة الأخطيئة تُفحمك وتأخذ بروحك من الحشد
الواقعي الذي يسمو بها والحُدس في تحيُّر المشهد . لا شك ان الخيال الابداعيَّ
يضعف في مثل تلك الصُّور ليحلَّ من دونه الخيال الواقعي . التمثيليُّ . فهو لا
يَنفُذُ إلى ما دون الأشياء . ولا يَشاهدُها في الظلمة . بل أنَّها تَسَطِّعُ وتَتَأَلَّقُ
في وضوح الصورة الواقعيَّة . وهذه الصور الجماليَّة هي أكثر إنسانيَّة من المعاني
التقريرية حيث يُصَرِّحُ بزعة البَطش . فهو يُردفُ بأنهم لا يتظلمون الناس .
ما داموا يدَعُونهم يُنتجعون ما يبتغون من الدِّيار . حتى إذا عارضوهم . أقبلوا
عليهم بجيشهم الحاشد . وقد تخلَّى بذلك عن المعاني التي تشيد بالمظاهر المطلقة
للقوَّة . وان كان يستبطن عبر ذلك كلِّه التعبير عن حرَّيتهم الشاملة .

ومن هذا الفخر العام الذي ترَسَّم في لوحته بعض التَّفاصيل العارضة . يلمُّ
بفخر أكثر تفصيلاً يقوم على فضيلة التعداد . بينما كانت تغلبُ في فخره العام
نزعة التصوير . ويقوم التعداد على ذكر أسماء الأبطال واسماء المعارك والقبائل
المدحورة ، مثال قوله :

ولقد سما لكمُّ الهُدَيْلُ . فذالكُمُّ بإرَابَ حَيْثُ يُقَسِّمُ الأنفسالا ١

١ - الهُدَيْلُ : هو الهذيل بن هُبَيْرَةَ التغلبي . إرَاب : ماء في البادية .
م : يشير إلى غزوة قام بها الهُدَيْلُ على بني رباح بن يربوع . والحِيَّ خُلُوف . فسبا نساءهم
وساق إبلهم واقتسمها في محاربه .

فِي فَيْلَقٍ يَدْعُو الْأَرَاقِمَ ، لَمْ تَكُنْ فُرْسَانُهُ عُزْلًا ، وَلَا أَكْفَالًا ١
 بِالْحَيْلِ سَاهِمَةَ الْوُجُوهِ ، كَأَنَّمَا خَالَطَنَ مِنْ عَمَلِ الْوَجِيفِ سُلَالًا ٢
 وَلَقَدْ عَطَفَنَ عَلَى قُدَارَةَ عَطْفَةً كَرَّ الْمُنْبِيعِ ، وَجُلْنَ ثُمَّ مَجَالًا ٣
 فَسَقَيْنَ مَنْ عَادَيْنَ كَأَسَا مُرَّةً وَأَزْلَنَ حَدَّ بَنِي الْحُبَابِ فَنَزَالًا ٤
 يَغْشَيْنَ جِيْفَةَ كَاهِلِ عَرَيْنِهَا وَابْنَ الْمُهَزَّمِ ، قَدْ تَرَكَنَ مُبْدَالًا ٥
 فَقَتَلْنَ مَنْ حَمَلَ السَّلَاحَ وَغَيْرَهُمْ وَتَرَكَنَ فَلَهُمْ عَلَيْكَ عِيَالًا ٦

١ - الفَيْلَقُ : الكتبية العظيمة . عُزْلٌ : جمع أعزول : خال من السلاح . الأكفال : جمع كفل : الجبناء الذين لا يثبتون للقتال . الأرقام : حمى من تغلب .

م : يمدح بني الأرقام التغلبيين الذين هرعوا بجموع عظيمة ، مستبشرين في القتال .

٢ - السَاهِمَةُ : الضامرة . الْوَجِيفُ : ضرب من السير : السُّلَالُ : الهزال .

م : أي هرعوا بجيول ضامرة . كأنما أصابها من شدة عدوها هزال من أصيب ببدء السُّلال .

٣ - الْمُنْبِيعُ : قِدْحٌ لا فوز له في الميسر .

م : يقول إنهم أوقعوا بقُدَارَةَ وفتكوا بها وألقوا بها الحسارة الفادحة وصلوا وجالوا فيهم .

٤ - م : أي أنهن جرعن الأعداء المرارة وأنهن اقتحمن حمى بني الحباب وأزلنه .

٥ - مُدَالًا : أي مذلولًا . مُهَانًا .

م : أي أنهن قتلن كاهلًا وعرين جيفته واذللن ابن المهزَّم بما أوقعن به .

٦ - الْقَتْلُ : بقايا الجموع المتفرقة .

م : أي أنهم في بطشهم قتلوا المقاتلين والنساء والأطفال . ولم يخلّفوا منهم إلا القُلُولَ المشردة .

فهذه الأبيات مرتبهة الى التعداد والسرود وذكر الوقائع عَبَّرَ هالة عامة من الانفعال الحماسي . هناك « المَهْدِيل » وهو من أبطال تَعَلَّب . له صفة تاريخية فعلية ألمح إليها الشاعر بالقدر الذي لا غنى للفخر عنه . وذكر اسم الواقعة التي أوقع فيها بالأعداء ، وهي « إراب » . وهناك أسماء علم أخرى . مثل « قدارة » و « بني الحباب » و « كاهل » و « ابن المَهْزَم » . نقول في مثل ذلك أن الواقعية الغثة الشاخصة في أسماء الأشخاص والمواقع ليست من مادة الشعر . بل من النثر لأنها تتوسل السرود وإيراد الأحداث . وان كانت الموجة الانفعالية التي تصدر عنها تنأى بها عن صفة النثر . وبقدر ما تطفو الأحداث والأسماء يَفْقُدُ الشَّعْرُ الصِّفَةَ التَّأَمُّلِيَّةَ الذَّاهِلَةَ وَيُرْتَهِنُ بِجُزْئِيَّاتِ الْوَأَقِعِ . وإنما الشعر هو تعبير بالرؤيا . واستحضار للحقائق الشاملة في تَخْوِمٍ خالصة . متحررة من الطَّفُّفِيَّاتِ . إلاَّ أنَّ الفخر هو كشعر الملحمة الذي نقضه الشاعر الأميركي ادغار ألن بو . إذ قال : « إن الشعر الكبير يأنف من السرود والقصص » . والواقع أن هذا الفخر تَلْتَمِعُ فِيهِ فِلذَاتُ طَارِئَةٍ مِنَ الشَّعْرِ . فيما يرْسُفُ غَالِبُهُ فِي أَجْوَاءِ نَثْرِيَّةٍ لَا يَشْفَعُ بِهَا الْحِمَاسُ الَّذِي يَبْسُتُ الْحَمِيَّةَ الطَّارِئَةَ غَيْرَ الْمَجْدِيَّةِ . وإذا أضفنا بعض الأبيات التقريرية ، كما في قوله التالي نجد ان تلك النزعة تشتدُّ وتتفاقم :

فِي فَيْلَتِي يَدْعُو الْأَرَاقِمَ ، لَمْ تَكُنْ فُرْسَانُهُ عَزْلًا وَلَا أَكْفَالًا

فما جدوى القول في باب الفخر ، بأنَّ الفُرسَانَ لم يكونوا جُبنَاءَ وَلَا عَزْلًا . إنه دون جدوى أو تأثير . وقد افتقدت فيه حتى فضيلة الحماس الطَّارِئِ الَّذِي يُوهِمُ الْقَارِئَ وَيُثِيرُهُ . وفي مثل هذه الأبيات تتعفى كل فضيلة فنية للشاعر ، بخلاف قوله :

بِالْخَيْلِ سَاهِمَةَ الْوَجْهِ ، كَأَنَّمَا خَالَطَنَ مِنْ عَمَلِ الْوَجِيفِ سُلَالًا

حيث اعترى الخيل بمثل داء السَّلِّ للتدليل على عظم ما تكبدته في القتال .

فهو يتخير . هنا . من الواقع حالته التّصوي التي توافقُ مقتضى المعنى . وقد كان السلّ غلوّاً بذلك كلّهُ وتجسيداً له . في آن معاً .

إلا أن لهذه الأبيات صفةً تعبيريةً أخرى تتعدّى معانيها وما تردّد فيها من ذكر للأحداث والأشخاص . وهي الصفة الإيقاعية التي تضفرها بالحويّة والحركة ومن شدة أسر العبارة وانهمازها عبّرَ نغم عام . هادر للقصيدة بمجملها . وربما أحدث حرف النون المتكرّر ، بيتاً إثر بيت . نوعاً من الإيقاع المضمر يتآلف مع رويّ القافية الذي يمدُّ النغم بما لا حدّ له من إيقاع خطابيّ .

وهذه النزعة السردية التعدادية تطغى على قليل أو كثير من فخره . تقتصر منها بما نجتزىء من الأبيات التالية :

هَلَّا مَنَعَتْ شُرْحِبِيلاً ، وَقَدْ حَدَبَتْ لَهُ تَمِيمٌ بِجَمْعٍ غَيْرِ أَحْيَارِ ١
يَوْمَ الْكَلَابِ . وَقَدْ سَيَّمَتْ نَسَاؤُهُمْ سَوَاقَ الْجَلَائِبِ مِنْ عُونٍ وَأَبْكَارِ ٢

١ - ٢ - الجلائب : هنا الإبل المجلوبة التي تساق بقسوة . العون : المتوسطة من النساء .
الأبكار : جمع بكر وهي الفتية لم تُفصّ . شُرْحِبِيل : هو ابن الحارث الكندي من ولد حنجر . آكل الميرار . وكان قد ملكه والده على بكر بن وائل . إذ تفسادت القبائل التزارية وبلحات إليه في إصلاح أمرها . فملك أولادها السبعة عليها . وإذ مات الوالد الذي دان لحين بالمرذكية نارت تلك القبائل على أولاده ووقعت معركة بينهم وبين شرحبيل المدكور وأخيه في موضع الكلاب . فقتل شرحبيل وانهمز أصحابه . وكان سلمة بن كعب بن تغلب قد أهدر الماء وقال لأصحابه : لا ماء لكم إلا في الكلاب . وكان ذلك سبب الظفر . والأخطل يفخر بذلك في هذا المقام ويذكر ما استاقوا من أسلاب .

مُسْتَرِدِّفَاتٍ ، أَفَاءَتِهَا الرِّمَاحُ لَنَا تَدْعُو رِيحاً وَتَدْعُو رَهْطاً مَرَّارٍ ١
 أَهْوَى أَبُو حَنْشٍ طَعْناً ، فَأَشْعَرَهُ نَجْلَاءً ، فَوْهَاءً ، تُعْيِي كُلَّ مِسْبَارٍ ٢
 وَالوَرْدُ يَرْدِي بَعْضُهم فِي شَرِيدِهِم كَأَنَّهُ لَاعِبٌ يَسْعَى بِمِئْجَارٍ ٣
 يَدْعُو فَوَارِسَ ، لَا مِيلاً وَلَا عَزْلاً مِنَ اللِّهَازِمِ ، شَيْباً غَيْرَ أَغْمَارٍ ٤

١ - أفاءتها لنا : أي صارت لنا كالقيء ، أي الغنيمة . رياح : رياح بن يربوع . مرّار بن
 منقذ : هو أحد بني العدوية بن ملك بن حنظلة . نسبة إلى أمهم .

م : يستكمل معنى البيت السابق . ويقول إننا سبينا من نساءكم العوان والأبكار أردفناهن
 وراءنا على الخيل كغنائم . فيما كنّ يصحنّ ويعولن . مستغيثات بكم . دون أن
 يلقين أية نجدة .

٢ - أبو حنش : يقال إنّه هو الذي قتل شرحبيل بانه حنش . وإنّه أرسل رأسه إلى مسلمة
 الذي قدّمنا ذكره . أشعره طعنة : أي جعلها شعاراً . والشعار هو ما يلي الجسد .
 نجلاء : واسعة . فوهاء : كبيرة الفوهة . مسبار : ما يسر به . أي يقاس به العمق .

م : يشير إلى ما قام به أبو حنش . إذ طعن شرحبيل طعنة واسعة الفوهة . عميقة . لا يطال
 غورها مسبار .

٣ - الورد : من الخيل ما كان بين الكُمَيْت والأشقر . يردي : يجري . عصم : هو عصم
 ابن النعمان المكنى بأبي حنش . المئجار : المخرق أو شبه عصا تضرب به الكرة .
 م : يشير إلى الفرس الذي كان يمتطيه أبو حنش . ويقول إنّه كان يعدو به مسرعاً . كلاعب
 يسرع بعضاً يقبض عليها .

٤ - الليل : جمع الأمل . وهو الذي لا يحسن الركوب . فيميل على السرج ولا يستقرّ عليه .
 العزل : جمع أعزل : من لا سلاح معه . اللهازم : هم عنزة بن ربيعة ، وعجل بن لجيم .
 وتيم الله وقيس ابنا ثعلبة . أغمار : جمع غمر : من لم يجرب الأمور .

م : يمتدح الفوارس الذين يدعوهم أبو حنش ويقول إنهم من اللهازم المدربين على القتال ،
 المدّحين بالسلاح .

ألماعين ، غداة الرُّوعِ . ما كرهوا إذا تلبَّسَ ورَّادٌ بِصُودَارٍ ١
والمُطعمون ، إذا هَبَّتْ شَامِيَةٌ تُزجِي الجَهَامَ سَدِيفَ المُرْبِعِ الواري ٢

ففي هذه الأبيات تتكرَّر الأسماء ، أيضاً ، منها ما هو لعلم الأسماء كشرحيل
وتميم ورياح ومرَّار وأبي حنَّش . ومنها ما هو علم للأمكنة كيوم الكلاب .
وهذه الأسماء تدلُّ على حقائق تاريخية فعلية . كما هو شأنها في الأبيات السابقة .
إلاَّ أنه بثَّ عبَّرها أجواء تصويرية أو هتَّت الصفة السردية والتعدادية ، أي
الصفة النثرية . فقد مثل المزيمة بِمُثلها الشائعة . عصرئذ ، من خلال النساء
السبيَّات ، ممَّا أضفى عليها حالةً إيحائيةً عامَّة . تحرَّر فيها الشاعر من الحيثيَّات
الواقعية التي لا تنطوي على سورة جمالية . فهو يقول : « وقد سيقت نساؤهم
سوق الجلائب من عُون وأبكار » . فالمرأة التي تُزجى وتُزجَر ، أكانت
ثيباً أم بكرأ ، تؤدِّي المعنى بالحادثة الواقعية ، بل أنها لتُساقُ كالإبل الغربية المجلوبة .
هكذا يُوفي الأخطال الى غايته من المعنى . وفقاً لطبائع النفس البشرية . ولكي

١ - ورَّاد : جمع وارد ، وهو المقبل على الماء . صُدَّار : جمع صادر ، وهو العائد عنه . وهنا
بمعنى المُقَدِّمين على القتال والمؤلَّين عنه . عند احتدام القتال .

م : يستكمل امتداحه لهم ويقول إنهم لا يفرُّون عند الشدَّة والكربة . بل إنهم يقتحمون
القتال عندما يختلط فيه المهاجمون والمدُّبرون ، أي أنهم يقدمون عليه في أشدِّ أحواله ضيقاً
وخطراً .

٢ - شامية : أي ربح شامية . تُزجِي : تسوق . الجَهَام : السحاب الذي هراق ماءه . السدِيف :
السَّنام . المُرْبِع : الناقة التي قد لقحت في أول الربيع . الواري : الستمين .

م : يمتدحهم بإكرام الضيف عندما يقسو الشتاء ويشدَّ عصف الرياح الشامية التي تُزجِي
أمامها السحاب وتسوقه ، ويقول إنهم يقدمون له أفخر الطعام من أسنمة الإبل الحديثة
اللقاح ، وهي أئمنها وأكرمها .

تتمثل مداها النفسي لا بدّ لنا من معاناة ما يُعانيه العربيُّ الحريص على عرضه .
عندما يُشاهد والدته أو شقيقته وهي تُزجى كالإبل بالضرب والزّجر . مُشَلّبة .
مسيّةً ، مُشعبة بالعار والذّلّ .

وقد ألمنا بمثل هذه المعاني في أهاجيه ، إلا أنّه ضاعف من وقع المعنى ، هنا ،
في ذكر استغاثتهم برياح ومرّار . أي بمن إليهم من رجال . ووجه الفخر . هنا .
ان التغلبيّين هم الذين سبّوهنّ وانزلوا بهنّ مثل ذلك العار .

ويعمّد الشاعر إلى تمثيل المعنى بشكل آخر من خلال طعنة يقول إنّها عميقة
حتى أنّها تبدو وكأنّه لا قاع ولا قرار لها ، ومن خلال الخيل والفارس والأعوان
في الأبيات الأخيرة .

هذه هي أهم المعاني والصور التي يتوسّلتها الأخطل في مفاخره العامة . وهناك
أبياتٌ ومقطوعات أخرى يخصّصها في التفاخر على القيسيين بالذات ، مترجماً .
كذلك ، بين الهجاء والفخر .

الباب الثّاني

مفاخرة القيسيين

لقد كان القيسيّون ، كما قدّمنا مراراً ، ألد أعداء التغلبيّين ، تواقفوا معهم في
حروب مضيّة ، كانت تخلف القتلى والثارات . وربما أوقع التغلبيّون بهم وانتصروا
عليهم ، حيناً بعد حين ، فيعمد الأخطل الى عزل هذه الانتصارات والتغني بها .
منشأً حولها هالةً ملحميّة قانيّة ، يكاد لا يدع مفاخرة ، حتى يعرّج عليها ، مؤدّباً
إياها في أقصى حدود الغلو ، خاصاً عمير بن الحباب ، إثر مقتله بذكر ترجعُ

وتتفاعلُ فيه عوامل الفخر والشّامة والطرب . جميعاً . فهو يستهلُّ ، غالباً ،
بذكر القيسيين ليُفضي إلى نعي عمير ووصف ما حلَّ به ، كقوله :

أَهْلَكَ الْبَغْيُ بِالْجَزِيرَةِ قَيْسًا فَهَوَتْ فِي مُغْرَقِ الْخَابُورِ ١
طَلَبُوا الْمَوْتَ عِنْدَنَا فَأَتَاهُمْ مِنْ قَبُولِ عَلَيْهِمْ وَدَبَّوْرٍ ٢
يَوْمَ تَرَدِي الْكُمَاةُ حَوْلَ عُمَيْرٍ حَجَلَانَ النَّسُورِ حَوْلَ الْجَزُورِ ٣
زُبَّ جِبَارٍ مَعَشَرَ قَدْ قَتَلْنَا كَانَ فِي يَوْمِهِ شَدِيدَ التَّكْيِيرِ ٤

والأخطال يوهم . في هذه الأبيات . بأنهم لم يَظلموا القيسيين ولم يتعرَّضوا
لهم . بل إنَّ القيسيين بغوا عليهم ، فلقوا من دون ذلك الهلاك . وتراه يُصرِّح بذلك
في قوله : « طلبوا الموت عندنا » . والمؤدَّى البلاغي لهذا القول مضاعف . فمن

١ - الخابور : نهر كبير بين رأس العين والفرات .

م : يشير هنا إلى يوم الحشاك الذي قتل فيه عمير بن الحباب وهرب زفر بن الحارث ويقول
إنَّ القَيْسِيَّينَ قَدْ أَهْلَكَهُمْ بَغْيُهُمْ فَغَرَقُوا فِي نَهْرِ الْخَابُورِ .

٢ - القَبُولُ : هي ريح الصَّبَا التي تأتي من القبلة . الدَّبَّورُ : هي الرِّيح التي تأتي من خلفك .
م : يقول إنَّهم تعرَّضوا لنا . فأحدقنا بهم وأنزلنا فيهم القتل من كلِّ جهة .

٣ - الكُمَاةُ : جمع كميّ وهو المُقاتل التام اللباس . تَرَدِي : تُسْرِعُ . حَجَلَانَ : هنا تنقل
كتنقل الحجل . الجَزُورُ : النَّاقَة التي جُزرت . أي دُبَّحت .

م : يقول إنَّ الفرسان كانوا يعدون حول جثة عمير . كما تحجل النَّسُور حول النَّاقَة الذبيح .

٤ - شَدِيدَ التَّكْيِيرِ : أي داهية .

م : يفخر بقتلهم لرؤساء الأعداء الدَّهَاءة . الشَّدِيدِي الوَطْأَة .

جهة يُفصح عن ضلال القيسيين ومبادئهم للتغليبين بالشَّرِّ ، ومن جهة ثانية ، يؤكد أن من يسعى إلى معارضة التغليبين كأنما يسعى إلى حتفه المحتم . ثم تراه يرسم المعنى ويحسده بقوله : « فأتاهم من قبول عليهم ودبور » . أي من كل جهة ، بل إنّه عصف بهم كريح الهلاك والفناء . وذكر الدَّبُور والقبول ، في هذا المقام ، يؤدِّي فضلاً عن معنى الاحداق والإحاطة ، السُّورة الملحمية في حدود نفسية خفزة لطيفة . ويكاد الأخطل ألا يغفل عن أيّ مظهر من مظاهر الطبيعة للإفادة منه في نقل تجربته عبر إطار من الغلوّ الذي يُدرك به أقصى بغايته ، وفقاً لفنّيته القائمة على الإيضاح بالتمثيل . وكما استعار البُرّ والحديد والحية والناقة العجفاء الناتئة الفقار لتأدية معنى الخوف بما يقابله ، وكما توسّل الفرات للكرم والبعير للذلّ ، والدم ولحم الوحوش للتدليل على الفقر . تراه يتوسّل هنا . قبول والدَّبُور ، مستظهِراً الانفعال . أحياناً ، في بعض ما يدّعيه من مفاخر ، قدّمنا ذكرها . وهو لا يزال في سائر شعره يتنصّت لمظاهر الطبيعة ويتأملها وينفعل بدلائلها . ثم إنّه يستحضرها بالحدس عندما يُعبّر عمّا يعيه أو يُعانيه . وبقدر ما يوغل في التّحسُّس والتأمل تنأى العلاقات والارتباطات وتوغل وتعمق فيما بين المعاني والمظاهر . وهكذا اكتشف العلاقة المضمرة بين القتال والريح الجنوبية أو الخلفية ، وهي علاقة ليست ظاهرة أو مبذولة . لذلك نقول إن بعض الكنايات أو الاستعارات تبلغ عند الأخطل حدّ الرّمز لحدّتها وعمق ما يكتشف فيها من علائق متوقّعة أو غير متوقّعة بين النفس والحسّ . فهناك مستويات متباينة لهذا الاكتشاف ؛ ينطلق فيه من التشبيه الدّاني المتناول - كالمقارنة بين المقاتلين والاسود - إلى ما هو أرقى منه نسبياً . كقوله :

يَوْمَ تَرْدِي الكَمَاةَ حَوْلَ عُمَيْرٍ حجلان النُّسور حول الجزور

حيث قرن بين الفرسان والنسور والقتيل والناقة الذبيح . فالمقارنة أكثر تركيباً ، هنا . من الصورة السابقة . إلا أنها مبذولة . واقعية . أما صورة القتال الذي يأتي من القَبُول والدَّبُور . فهي أنأى لأن الشاعر استحضرها استحضاراً بالكشف

العميق لضمائر المعاني والمظاهر . هذا من الناحية الفنية ، أما من الناحية النفسية ، أو بالأحرى من ناحية المعاني الفخرية فإنه لا يزال يذكر مقتل عمير كعنوان عام للذلي القيسيين واندحارهم . ولعمير مقام نفسي خاص في وجدان الأخطل . إذ طالما أزرى بهم واعتبرهم كعبيد له ، ونكّل بهم وبقر بطون نساءهم الحوامل ، فكأنه إذ يتمثل قتله يجهض بأحقاده كلّها ويفخر فخره ، جميعاً . لقد قطع بقطعه لرأسه رأس الشرّ والعدو والعداوة . ويخلص من ذلك متبهاً بدأبهم على مثل ذلك ، إذ يقول :

رُبَّ جَبَّارٍ مَعَشَرَ قَدْ قَتَلْنَا
كَانَ فِي يَوْمِهِ شَدِيدَ النُّكْرِ

فهو يخلص من الأمر الجزئيّ ، أي مقتل عمير . إلى مبدأ عام أو خلاصة عامة إذ يزعم إنهم لا يزالون يقتلون هامة القوم . إلا أنه لا يقتصر من أمر عمير بذكر مقتله ، بل يستطرد فيزفه كبشري ، بدلاً من النعي :

بَشَرُوا حَمِيرَ الْقِيُولِ وَكَلْبًا
بِعُمَيْرِ وَشَلْوِهِ الْمَجْزُورِ ١
وَاشْرَبَا مَا شَرِبْتُمَا إِنَّ قَيْسًا
مِنْ قَتِيلِ وَهَارِبِ وَأَسِيرِ ٢
وَطَحْنَا قَيْسَ بْنَ عَيْلَانَ طَحْنًا
وَرَحَانًا عَلَى تَمِيمٍ تَدُورُ ٣

١ - القيُول : جمع قَيْلٍ وهو الملك أو من دونه . الشلْو : مزق من الجسد .

م : يقول أخبروا أقبال حمير وانبثوا بني كلب بما أصاب عميراً من قتل وذبح .

٢ - م : يدعوها إلى إحشاء الخمرة طرباً لما حلّ بالقيسيين ، إذ أسوا ، جميعاً ، بعضهم قتلى ، وبعضهم أسرى ، وآخرون قد تولّوا هارين .

٣ - م : يقول إنهم سحقوا القيسيين سحقاً وأجهزوا عليهم . كما أن رحى قتلهم تدور على بني تميم فتطحنهم طحناً .

لا يَجُوزَنَّ أَرْضَنَا مُضَرِّيَ بخفِيرٍ ولا بغيرِ خفِيرِ ١
 واسألوا النَّاسَ يا معاشرَ قيسِ لَمَنِ الدَّارُ بَعْدَ جَهْدِ النَّفِيرِ ٢
 يَوْمَ أَفْضَى إِلَيْكُمْ بِزُمَيْلِ في خميسٍ من الزَّحُوفِ جَرُورِ ٣
 فَصَبَّحْنَاكُمْ صَوَارِمَ بِيضاً قَبْلَ صَوْتِ الإِمَامِ بِالتَّكْبِيرِ ٤

فالأخطل، لفرحه العميق بمقتل عمير ، يذف مصرعه الى الملوك والقبائل ويصف قتلهم له بالقول إنه غدا أشلاء متناثرة . وآية هذه البشرية العميمة التي تزف الى الآفاق ان عميراً كان يُمثّل الشرّ العام والحصم الدائم الذي يعيثُ فساداً في القبائل العربية ، وهو إذ قُتِلَ وغدا اشلاء . أي تحقّق وتأكد قتله ، إنما زالت به عن القبائل عوامل الفوضى والثارات والاضطراب . ووجه الفخر في ذلك أنهم وقتقوا الى قتل خصم قوي عمّ شرّه العرب ، جميعاً ، ولم يُفلحوا في صدّه والإجهاز عليه . وربما تسرّب شيء من طباع الأخطل الى هذه البشرية ، إذ تراه يدعو الى احتساء الحمرة نشوةً وطرباً . كما هو ماثور في أعياد الفرح العام . واحتساء الحمرة هو تطوّر من البشرية وسموّ عليها ، وفضلاً عن ذلك هو تجسيد لها في إطارها

- ١ - مُضَرِّيّ : يعني خاصة قَيْسِ عيلان ، وأصله الياس بن مضر بن نزار ولقبه قيس .
 م : يقول إنهم يَمْنَعُونَ أي قَيْسِيّ أن يَعْبُرَ في ديارهم ، أكان ذلك في قافلة أو في غير قافلة .
 ٢ - النَّفِيرِ : هنا القوم يُسْتَنْفِرُونَ للقتال . الدَّارُ : هنا الجزيرة التي نفى عنها التغلبيّون أعداءهم القيسيين .
 ٣ - الزَّمِيلِ : موضع عند البشر بالجزيرة . الخميس : الجيش . زَحُوفِ : أي يزحف على عدو . جَرُورِ : كثير .
 م : أي يوم أدركوهم في موضع الزَّمِيلِ بجيشهم الشديد الزَّحَفِ . الكثير العدد .
 ٤ - م : يقول إنهم انقضوا عليهم في الصباح الباكر ، قبل أن يؤذّن إمامهم أذانه فيهم .

المأثور . فأياً يكون ذلك العدو الذي تهرق الحمرة لموته ! إنه ، ولا شك ، عمير الغدر والبطش والتمثيل والدّهاء . يكاد التغلبيّون لا ينتصرون عليه في موقعة ويتوهمون أنهم أجهزوا عليه ، حتى يبعث من جديد أشدّ ضراوةً . ولعلّ حرص الأخطل على وصف جثته المبدولة في العراء للتّفسّخ وللبعث . إنّما هو نوع من التّعني بانتصارهم النهائي عليه . وإيلاج احتساء الحمرة في هذا المقام هو من جديد الأخطل . وإن كان بعضه مستمداً من البيئة الجاهليّة حيث كان العربيّ يحرم على نفسه الحمرة حتى يبيوء بالثّار . كما هو شأن المهلهل ومن إليه . ولقد كان مقتل عمير بذاته رمزاً لهزيمة القيسيّين الكبري ، فهم إما قتلٌ قتلٌ . وإمّا هارب نجاً بنفسه ، وإمّا أسيرٌ بين أيدي التغلبيّين ، ومؤدّى ذلك أنّه لم يعد فيهم مقاوم يقاوم . وقد يستعير الأخطل معانيه من عمرو بن كلثوم . إذ يقول :

وَطَحْنَا قَيْسَ بْنَ عِيْلَانَ طَحْنًا وَرَحَانًا عَلَى تَمِيمٍ تَدُورُ

وهو مستمدٌّ من قول عمرو :

إِذَا دَارَتْ عَلَى قَوْمٍ رَحَانًا يَكُونُوا فِي اللَّقَاءِ لَهَا طَحِينًا
يَكُونُ ثِفَالُهَا شَرْقِيَّ نَجْدٍ وَلَهُوتُهَا قَضَاعَةَ أَجْمَعِينَا

والطّحن برحى الحرب هو سبيل ماديّ للتعبير عن البطش في نوع من الكناية الموحية ، إذ لا حيلة لتأدية المعنى بما هو أبلغ من ذلك في حدود النفس البدائية . ذاك أن الطّحن لا يدعُ القتل يقف عند معناه . بل إنّهُ يُحيلُهُ إلى نوعٍ من السّحل . ومن ثمّ ينبري الشاعر آمراً ، ناهياً ، ومعتزاً . إذ يقول :

لَا يَجُوزُنَّ أَرْضُنَا مُضْرِيٌّ بِخَفِيرٍ وَلَا بَغِيرٍ خَفِيرٍ

وهذا البيت يُوجز الباعث الأول والأعمق للتنازع والقتال . ألا وهو الأرض . والأخطل في عنجهيته وحرصه الشديد يضمنُ حتى بالعبور عليها ، وحتى ولو كان

مصحوباً بخفراء من التغلبيين . ذاك أن هذه الأرض غدت شبه مقدسة بالنسبة إليه لكثرة ما هريق عليها من الدماء . ومعظم أهاجيه ومفاخره تدور حول هذا الشأن ، أولم يَقُلْ : « تَرَبَّعْنَا الْجَزِيرَةَ بَعْدَ قَيْسٍ » ؟ ذاك أن العربي في تعبده للحياة تعبد للأرض بنوع من الوثنية القائمة التي تمجد فيها رحم الخصب وأثناء العطاء .

فهذا البيت . بالرغم من الحلة التقريرية التي تبدى بها ، لا يزال عميق الايحاء بما يجيش ويعتمل في وجدان العربي الذي كان يحرص على أرضه حرصه على عرضه . ولقد سمّاه الحمى . أي ما ينبغي عليه أن يحميه ويقاقل دونه حتى الموت . ومثل هذه المعاني تتعدى الإطار السياسي إلى المعاناة الانسانية العامة وطبيعة ارتباط الانسان بالأرض . وما ينطوي عليه ذلك من أحوال عميقة غائرة في الوجدان . تهيمن عليها غريزة تنازع البقاء . وكل ما دون هذا البيت يبدو عارضاً ، يسيراً إذا قورن به في هذا المقطع . فذكره للزحف الشديد ومفاجأة العدو قبيل الصباح ، ذاك كله من المعاني المكرورة التي تتباين فيها سور الغلو . دون أن يتباين جوهرها .

وقد لا تعدو الأبيات التالية هذا الشأن في ذكر ما كان بينهم وبين القيسيين :

أَلَمْ تَشْكُرْ لَنَا كَلْبٌ بَأَنَّا جَلَوْنَا عَنْ وَجُوهِمُ الْغُبَارَا ١
كَشَفْنَا عَنْهُمْ نَزَوَاتِ قَيْسٍ وَمِثْلُ جُمُوعِنَا مَنَعَ الذَّمَارَا ٢

١ - م : يعجب من الكلبين ألا يثقفوا شاكرين لبني تغلب الذين رفعوا عنهم خطر الحرب الذي كان يهدد دهم بها القيسيون .

٢ - نزوات : وثبات . الذمار : كل ما يلزمك حفظه والدفاع عنه .

م : يقول إنهم صدوا عنهم هجمات بني قيس . ويردف بأن جموع التغلبيين دأبت على التمرس بمثل هذا الأمر .

وكانوا معشراً قَدْ جاورونا بِمَنْزِلَةٍ فَأَكْرَمْنَا الْجِوَارَا ١
 فَلَمَّا أَنْ تَخَلَّى اللَّهُ مِنْهُمْ أَغَارُوا إِذْ رَأَوْا مِنَّا انْفِتَارَا ٢
 فَعَاقَبْنَاهُمْ لِكَمَالِ عَشْرِ وَلَمْ نَجْعَلْ عِقَابَهُمْ ضِمَارَا ٣

ويبدو أن الأخطل يقصُّ قصَّتَهُم مع القَيْسِيِّين ، إذ كانوا على وِثَامٍ معهم . في البدء ، يُصِفُونَهُم المودَّةَ وَيُخْلِصُونَ لَهُم الحيرة . حتى نزا القَيْسِيُّونَ وَرَكِبُوا غرورهم ، وسعوا إلى استبعاد التغلبيين . وهذه الوقائع محققة في التَّارِيخِ ، وفيها يَخْلَع الأخطل عن وجهه قناع البطش ليُظْهِر جانب التَّعَقُّلِ ، فهم لا يُفَاتِلُونَ للقتال ، بل للدِّفَاعِ عن النَّفْسِ والكرامة . إلا أن الصِّفَّةَ الغالبة على هذه الآيات هي الصِّفَّةُ النَّثْرِيَّةُ القائمة على عرض الحلال والابانة والأخذ والرَّد . وقد اعترض فيها بأدوات إيضاح كثيرة من التَّسْأُولِ إلى الاستدراك والاستنتاج ، مع فلذة تصويرية شخِصَتْ في قوله : « جَلَّوْنَا عَنْ وُجُوهِهِمُ الْغُبَارَا » أي غبار الدُّلِّ والعار . غير أن للفخر أدوات أخرى تجانب المعاني وتُظَلِّمُهَا يشخص أهمُّهَا في الإيقاع المتولِّد من الوزن الجاري على بحر الوافر ، وكأنه يتسارعُ تسارعاً ويصبُّ وينهمر في القافية التي يدوي رويُّهَا . ثم أن الشاعر ، بوعي أو بغفلة منه ، أضمَّرَ عبر القعدة ما يماثل القوافي من تكراره لضمير جمع المتكلم « نا » . وقد تكرَّرت سبعا ، مضاعفةً من وقع القافية ، ومُضْفِيَةً على المعاني جميعاً جوًّا

١ - م : يقول إنهم امتنعوا من قبل عن قتالهم ، لأنهم أقاموا في جوارهم حيناً من الزمن ولأنهم يحفظون ودَّ جارهم ولا يتخلون عنه في الشدَّة .

٢ - م : يقول إن الله تخلَّى عن القيسيين ، فتغرَّروا وأغاروا علينا ، إذ رأوا منا فتوراً وغفلة .

٣ - لِكَمَالِ عَشْرِ : أي عشر ليال . الضمار : هو التسويف في الوعد .

م : يشير هنا إلى أن التغلبيين كانوا أدلاءً لقيس على كلب . فلما ذبحت قيس معزي أم دويل بالخابور ، كما قدمنا ، نشبت الحرب بين القبيلتين . يقول إنهم تصدَّوا لقتالهم ومعاقتهم مباشرة ولم يؤخروا ذلك أو يتمهلوا به .

خلال العبارة وصيغها التي يَبُثُّ فيها روح العُنْجِيَّة بتكرار ألفاظ وضمائر
وما إلى ذلك من بواعث مُضْمَرَة للإيحاء .

وفضلاً عن ذلك كُله . فإن وَقَعَ الفَخْرُ يَتَضَاعَفُ مِمَّا تَبَطَّنَ به من هجاء
كذكره لنزوات قَيْسٍ وتَخَلَّى اللهُ عَنْهُمْ ومعاقبتهم لهم . وذلك يُوهَمُ بتفوقهم
الشديد عليهم . وأيا ما كانت الحال . فإننا نَظَلُّ نَشعرُ أن هذه الأبيات لا تُمَثِّلُ
شعر الأخطل في نماذجه الماثورة وإن مَثَلَّتْ جانباً من واقع الفخر في شعره .

ولهذه الأبيات تكملة في قصيدة طويلة لا تعدو هذا الاسلوب السيال الذي
تَهَادَنُ فيه الشاعر مع المعاني العسيرة . الوعرة التي يُنْفِقُ فيها غايةَ جُهده
ويبلغ أقصى مداه . وإنا نَبْدُلُهَا للقارئ كي يَسْتَكْمِلَ ويستوفي بها دراسة
اسلوب النَّابغة . إذ تَعْتَرِضُ فيه أبيات ومقاطع وقصائد تقريرية تتوارى فيها الصور
الحسية أو يطلع قليلٌ منها . وَيَخْفَتُ الإيقاع التَّمْسي العنيق الغور للمعاني .
فَتَرِدُ وكأنَّها أفكار حماسية يَتَلُوها الشاعر تلاوة مباشرة . وهنا تبرز آفة السرد
ووطأتها على الشعر . إذ تَخْتَنِقُ فيه الانفعال أو تمنعه عن الخلق وتُغَرَّرُ به في
تداول الأحداث والتعقيب عليها واطهار وجهة نظره فيها ودحض وجهة نظر
الآخرين وبخاصة الأعداء . وعبر ذلك كله تطفو أسماء العلم ، وهي محور الأحداث
ومنتقلها . فلا يبقى للشعر من مَبْرَرٍ إلاَّ بعض الغلوِّ والحماس والانتخاب اليسير
من سجلِّ الوقائع الحاشد . المَكْتَبُ :

وَأَطْفَانَا شِهَابُهُمْ جَمِيعاً وَشُبُّ شِهَابٍ تَغْلَبَ فَاسْتَنَارَا ۱

١ - الشهاب : النار المشعلة . وهنا المتجد .

م : يقول إنهم فتكوا بهم وأذلتهم وأحمدوا جنوة مجدهم وإنهم أشعلوا من دون ذلك
شهاب مجدهم بقتلهم وإذلالهم .

تَحَمَّلْنَا فَلَمَّا أَحْمَشُونَا ۱ أَصَابَ النَّارُ تَسْتَعِرُ اسْتِعَارَا ۱
وَأَقْلَتَ حَاتِمٌ بِفُلُولٍ قَيْسٍ ۲ إِلَى الْقَاطُولِ ۲ وَانْتَهَكَ الْفِرَارَا ۲
جَزَيْنَاهُمْ بِمَا صَبَّحُوا شُعَيْثًا ۳ وَأَصْحَابًا لَهُ وَرَدُوا قَرَارَا ۳
صَبَرْنَا يَوْمَ لَاقَيْنَا عُمَيْرًا ۴ فَأَشْبَعْنَا مَعَ الرَّخِمِ النَّسَارَا ۴
وَكَانَ ابْنُ الْحُبَابِ أُعِيرَ عَزًّا ۵ وَلَمْ يَكُ عِزُّ تَغْلَبَ مُسْتَعَارَا ۵

١ - تَحَمَّلْنَا : صَبَرْنَا . أَحْمَشُونَا : أَغْضَبُونَا .

م : يقول إتنا صبرنا على أذاهم ، حيناً من الدهر . فلما أقاموا على إثارتنا وإغضابنا ، أضرمنا عليهم نيران الحرب . فعانوا سعيها ولظاها .

٢ - حاتم : هو حاتم بن النعمان الباهلي . وكان قد فرَّ بفُلُولٍ قَيْسٍ في يوم الثرثار . القاطول : موضع بالقرب من الجزيرة والموصل .

م : يُعِيرُهُمْ بِفِرَارِ حَاتِمٍ مِنْ دُونِهِمْ مَعَ فُلُولِ الْقَيْسِيِّينَ إِلَى الْقَاطُولِ ، مُسْتَدْلًا بِفِرَارِهِ .

٣ - شُعَيْثٌ : أحد التغلبيين الذين قتلتهم قيس . وكان من رؤسائهم . قتل يوم الثرثار . فانْتَقَمَتْ تَغْلَبُ لَهُ بِقَتْلِ عُمَيْرِ بْنِ الْحُبَابِ فِي يَوْمِ الْحَشَاكِ . قَرَارٌ : اسم موضع .

م : يفخر أن ثأروا المقتل شعيث وأصحابه .

٤ - الرَّخِمُ : جمع رخمة . طائر بشكل النسور .

م : يقول إنهم صبروا لما نالوه في قتال عمير بن الحباب وفتكوا به وبصحبته وخلقوا جثثهم طعاماً للرَّخِمِ والنَّسُورِ .

٥ - يقول إنَّ العزَّ الذي تَبَاهَى بِهِ عُمَيْرُ بْنُ الْحُبَابِ . كَانَ مُسْتَعَارًا وَغَيْرَ أَصِيلٍ فِيهِ وَفِي بَنِي قَوْمِهِ . بَلْ إِنَّهُ سَنَحَ لَهُمْ صَدَقَةً . فِيمَا يَصْدُرُ التَّغْلِبِيُّونَ عَنْ مَجْدِ أَصِيلٍ . عَرِيْقٌ : مأثور فيهم .

وقد استعار للمجد صورة الشَّهاب ، لهم وللأعداء ، اشتعل شهابهم ، فيما أحمده
شهاب الأعداء . وفضيلة البيت هي فضيلة الصورة التَّمثيلية ، وإن كانت دانية
المتناول ، ذات دلالة عامة . ويجري ذكر النَّار على هذا الغرار ، مع قليل من الغلو
في التعقيب على استعارها بصيغة المفعول المطلق . ثم أنه ينحدر إلى السرد التاريخي
في ذكر اعلام الاشخاص والأماكن ولا يعدو ما ألمَّ به بشأن عَمِير المعاني المكرورة .

وخلال مدحه لعكرمة الفياض يتعرض لهجاء القيسيين ، ذاكرًا نظرهم إليه شزراً ،
شامتاً بهم :

وَإِنِّي صَبُورٌ مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ وَنَصِرٍ عَلَى الْبَغْضَاءِ وَالنَّظْرِ الشَّرِّ ١
إِذَا مَا التَّقِينَا ، عِنْدَ بَشْرِ ، رَأَيْتَهُمْ يَغْضُونَ دُونِي الطَّرْفَ بِالْحَدَقِ الْحُضْرِ ٢
وَأَوْجُهُ مَوْتُورِينَ ، فِيهَا كَابِئَةٌ فَرَعَمًا عَلَى رَعْمٍ ، وَوَقْرًا عَلَى وَقْرِ ٣

إلا أن مفاخرته القيسيين تَبْلَغ أوجها في رائيته الشهيرة حيث يخاطب الأمويين ،
مُحَدِّراً إياهم من التقرب إلى زُفَرٍ أو تقريبه اليهم هاجياً إياه . متمثلاً بالحكمة .
ويُعْرَج ، كذلك ، على ابن الحُبَاب واصفاً مقتله بما لم يصفه به . قبلاً ، أكان
ذلك من ناحية العبارة أو الفكرة أو الصورة . ولقد ورد الفخر من خلال المدح ،
بل من خلال اظهار فضل التغليبين على ملك الأمويين ، متخذاً من مقتل عمير رمزاً
لذلك كله ، يُفَصِّل فيه ويغالي ، ذاكرًا اجتثاثهم لرأسه وحمله إلى الخليفة ، وقد

١- م يقول إن أبناء هذه القبائل ما زالوا يطالعونه بالعداوة والحقد ، ينظرون إليه
بهما نظراً شزراً .

٢- الحُضْر : هنا يعني السواد .

م يقول إنه إذا ما التقاهم في بلاط بشر بن مروان ، فإنهم يخفَضون من دونه
أبصارهم خجلاً وتَهَبُّ بالرَّعْم من العداوة التي يُضْمرونها له .

٣- م يقول إنهم يطالعونه بأوجه أناس يُحفظهم الوتر ويكلِّح وجوههم ، ويتمنى أن
يصيبهم من ذلك أضعاف ما أصابهم . وأن يحتملوا منه أضعاف ما احتملوا .

تَهَشَّم خَيْشُومَهُ مِنْ شِدَّةِ الْقَتْلِ وَالتَّمْثِيلِ . وَيَقِفُ لِزَاءِ ذَلِكَ مَتَمَهلاً ، مَتَانِيًا ، ذَاكِرًا مَا لَا ضَرُورَةَ ظَاهِرَةَ لَذِكْرِهِ ، كَعَجْزِهِ عَنِ السَّمَاعِ وَالنُّطْقِ وَالْمَسَافَةِ الْهَائِلَةِ الَّتِي فَصَلَتْ رَأْسَهُ عَنِ جِثَّتِهِ ، مُسْتَعِيدًا عِبَارَةَ كَانِ يَرُدُّهَا عَمِيرٌ فِي تَحْقِيرِ بَنِي تَغْلِبِ . فَهُوَ يَقُولُ :

بَنِي أُمِيَّةَ ، إِنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ ۱
وَأَتَّخِذُهُ عَدُوًّا ، إِنِّ شَاهِدُهُ ۲
إِنَّ الضَّغِينَةَ تَلْقَاهَا ، وَإِنْ قَدِمْتُ ۳
وَقَدْ نُصِرْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَا ۴
يُعْرِفُونَكَ رَأْسَ ابْنِ الْحُبَابِ ، وَقَدْ ۵
فَلَا يَبْيِئَنَّ فَيْكُمْ آمِنًا زُفْرُ ۱
وَمَا تَغَيَّبَ مِنْ أَخْلَاقِهِ دَعْرُ ۲
كَالْعَرِّ ، يَكْمُنُ حِينًا ، ثُمَّ يَنْتَشِرُ ۳
لَمَّا أَتَاكَ بِيْطْنِ الْغُوْطَةِ الْخَبْرُ ۴
أَضْحَى ، وَلِلسَّيْفِ فِي خَيْشُومِهِ أَثْرُهُ ۵

١ - ٢ - زُفْرٌ : هُوَ زُفْرُ بِنِ الْحَارِثِ ، كَبِيرُ زَعَمَاءِ الْقَيْسِيِّينَ .

م : يَحْذِرُ بَنِي أُمِيَّةَ مِنْ تَأْلِيْفِهِمْ لَزُفْرِ وَإِدْنَانِهِ إِلَيْهِمْ . وَيَدْعُوهُمْ إِلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ كَعَدُوٍّ لِأَنَّ مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا اسْتَرَّ يَنْطَوِي عَلَى الشَّرِّ وَالْفَسَادِ .

٣ - الْعَرِّ : الْجَرْبُ .

م : يَقُولُ إِنْ مَا يُضْمِرُهُ لَكُمْ مِنْ ضَغِينَةٍ يَسْتَتِرُ وَيَكْتُمُ . لَكِنَّهُ ، لَا يَزُولُ . فَهُوَ كَالْجَرْبِ ، لَا يَلْبِثُ أَنْ يَنْتَشِرَ ، فِيمَا يَحْتَمِلُ أَنَّهُ زَالٍ وَأَمَحَتْ آثَارُهُ . فَكَأَنَّ الْأَخْطَلَ يُوَعِّزُ بِذَلِكَ إِلَى أَنْ الْحَقْدُ فِي النَّفْسِ هُوَ كَالْجَرْبِ لِلْجَسَدِ ، قَلَّمَا يَبْرَأُ مِنْهُ صَاحِبُهُ .

٤ - ٥ - الْغُوْطَةُ : مَوْضِعُ قَرْبِ الشَّامِ .

م : يُشِيرُ إِلَى مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ التَّغْلِيْبِيِّينَ مَعَ عَمِيرِ بِنِ الْحُبَابِ الَّذِي قَتَلَهُ التَّغْلِيْبِيُّونَ وَقَطَعُوا رَأْسَهُ وَأَرْسَلُوهُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ . يَقُولُ مَخَاطَبًا الْخَلِيفَةَ : لَقَدْ جِيءَ إِلَيْكَ بِرَأْسِهِ ، فَلَمْ تَتَّكِدْ تَعْرِفَهُ لِشِدَّةِ مَا أَصَابَهُ مِنْ تَمْثِيلٍ وَتَنْكِيلٍ ذَهَبًا بِعَالَمٍ وَجْهَهُ .

لا يَسْمَعُ الصَّوْتَ مُسْتَكًّا مَسَامِعُهُ وليسَ يَنْطِقُ ، حتى يَنْطِقَ الْحَجَرُ^١
 أَمَسَتْ إِلَى جَانِبِ الْحَشَاكِ جِيْفَتُهُ ورَأْسُهُ دُونَهُ الْيَحْمُومُ وَالصُّوْرُ^٢
 بِسَالِهِ الصَّبْرُ مِنْ غَسَّانَ ، إِذْ حَضَرُوا والحَزْنُ : كَيْفَ قَرَأَكَ الْغَلْمَةُ الْجَشْرُ^٣

والآيات الثلاثة الأولى قد لا تنتمي انتماءً مباشراً الى الفخر ، ولكنها تتصل به وتلازمه ، إذ أنه ينصح فيها الأمويين على خصمه . مظهر آ غدره من دونهم . ولقد قدمنا بحثاً في هذه الآيات ، فلا مجال إلى تكراره ، وإنما نتجاوز الى الآيات التالية حيث يستبين الفخر الصريح عند ذكره لعمير بن الحباب . وهو يستهل

١ - م : يصف رأسه الذي اجثَّ وحمل إلى الخليفة ، ويقول إنه لا يسمع ، وقد تقبضت مسامعه ، كما أنه لا يُحير جواباً ولا ينطق . فهو كالحجر . والشاعر لا ينوه بهذه الأمور التي لا حاجة للتصريح بها ، لأن المرء يلمّ بها ويتمثلها ، دون أن تُذكر له ، لا يؤدي ذلك ، إلا ليعظّم من أمر قتله ويوحى إلى الخليفة بأنّ بني قومه أنفذوه من شره إلى الأبد . فهو لا يسمع ولا ينطق حتى يتأمر بهم ويؤلب عليهم .

٢ - الحشاك : موضع مرّ ذكره قبلاً . اليحموم : موضع بالشام . الصوّر : موضع على الحابور .

م : يستكمل وصف قتلهم لعمير ، ويقول إن جثته ألقيت في موضع ، فيما نُقل رأسه إلى موضع آخر ، وهو إذ يذكر ذلك ، كأنما يوحى به أنهم أنزلوا به أكثر من الموت ، أو كأن موته لم يشف غليلهم منه . فظنوا ينكلون به إثر موته . وهو يعظم ، في الآن ذاته ، من أمر مناصرتهم للأمويين .

٣ - الصبر والحزن : بطنان من غسان . الجسر : القوم يخرجون بإبلهم ودوابهم إلى المرعى ، ويبتون مكانهم ، ولا يأوون إلى البيوت . وكان عمير يقول إن بني تغلب إنّما هم جشتر لي أخذ منهم ما شئت ، فلما مروا برأسه على هذه القبائل ، قالوا : كيف رأيت قري غلمتك الجشتر ، مستهزئين به . وهو إنّما يعبر في هذا البيت وما قبله عن شماتته بمقتله .

ذلك بالقول إنهم ؟ يُعَرِّفُونَهُ رَأْسَ ابْنِ الْحَبَابِ » . وقد كان عبد الملك يعرفه ، إذ طالما وَقَدَّ عَلَيْهِ وَأَقَامَ إِلَى جَنْبِهِ عَلَى سُرِيرِ الْمَلِكِ ، فِي فترات المهادنة . إلا أنه لم يَعُدْ . مع ذلك ، يعرفه إذ تَبَدَّلَ عَلَيْهِ لشدَّة ما أصابه من تمثيل وتشويه . ووجه الفخر في ذلك أنهم أنزلوا به أكثر من القتل ، فلم تَعُدْ تَبِين ملامحه ، أو كما يقول الشاعر ذاته : « قَدِ أَمْسَى وَلِلسَّيْفِ فِي خَيْشُومِهِ أَثْرٌ » . ولقد استعاد الشاعر ، هنا ، أجواءه الملحمية ، من وصفه للقتال ، بل للقتل ذاته ، ومن إغراقه في أجوائه . فما يعني قوله : « لَا يَسْمَعُ الصَّوْتِ مُسْتَكَاً مَسَامِعَهُ » ، وهو معنى بديهيٌّ في أي مَيِّتٍ آخَرَ ؟ ذاك أن الأخطل يتولى هذا المعنى في وقعه النفسي ، الإيحائي ، من دون معناه العقلي ، إنه سبيل للتأكيد في تفصيل حالة الميت وللتفاخر بأنهم أجهزوا عليه إجهازاً نهائياً لا قبل له بالحياة إثره . بل أن في هذا الشطر والذي يليه ما هو أنأى من ذلك كله ، فهو ينطوي على معنى التشفي والقهر والشماتة ، وهي من الأحوال الملازمة للفخر . ونكاد لا نفع في هجائه للقيسين ، إلا عليها أو على ما يمثِّلها لأن فخره عليهم ليس فخراً عاماً في الإشادة بقيم الكرم والضيافة والنخوة وإطعام اليتيم وإيوائه وإغاثة الأرملة . بل أنه فخر معارضة لا يتعاطم فيه قَدَرُ الشاعر إلا بما يَنْتَقِصُ من قَدَرِ الحِصْمِ . ويبلغ التشفي أوجه بالقول :

أَمَسْتُ إِلَى جَانِبِ الْحَشَاكِ جِيفَتُهُ وَرَأْسُهُ دُونَهُ الْيَحْمُومِ وَالصُّورُ

وآية البيت أنه يذكر ثلاثة مواضع شاسعة البُعد فيما بينها ، للتدليل على انتصارهم النهائي الحاسم عليه وعلى بني قومه ، لا يجزعون من استنارتهم في التنكيل به ، إثر موته ، ولا يخافون ثأرهم ، لأنهم قد أجهزوا عليهم معه . ويعرِّج في النهاية على بيت ساخر بقوله :

يَسْأَلُ الصَّبْرُ مِنْ غَسَّانَ ، إِذْ حَضَرُوا وَالْحَزَنُ : كَيْفَ قِرَاكَ الْعَلَمَةُ الْجُشْرُ

ومعنى هذا البيت مبذول في الذَّيْلِ . فنقتصر من ذلك على التنويه بأن شماتة

الشاعر قد تَتَبَطَّنُ بالسُّخْرِيَّةِ التي قلَّما يميلُ إليها ، فيما دون ذلك ، لأن شعر الأخطل هو شعر جدِّي متجهِّمٌ ، لا تفتُرُ أساريه .

وعلى الجملة نقول إن تعرُّضه للقيسين هو الموضوع الرئيسي الأهم في فخره ، يعدد أيام التغابيين فيهم ، ذاكرًا الأسماء . أكانت للعلم والموضع او للمعارك ، ملحفناً بذكر ايقاعهم بعمير ، يصف ذلك بكل وصف ويفخر به كل فخر .

* * *

وفي نهاية هذا الباب نذل الأرجوزة التالية ، وهي من الفخر السيَّال ، السريع الإيقاع ، كما أنها تنطوي على معانٍ مبتكرة في بعض جوانبها :

وَيْهَأُ بَنِي تَغْلَبَ ضَرْبًا نَاقِعًا إِنْعَوْا إِيَّاسًا ، وَانْدُبُوا مُجَاشِعًا ١
كَلَاهُمَا كَانَ شَرِيفًا فَاجِعًا حَتَّى تُسِيلُوا الْعَلَقَ الدَّوَافِعًا ٢
لَمَّا رَأَوْنَا وَالصَّلِيبَ طَالِعًا وَمَارَ سَرْجِيسَ وَسَمَّا نَاقِعًا ٣

١ - النَّاقِعُ : القاتل .

م : يخضُّ بني تغلب على الشدة في القتال ويدعوهم إلى أن يضربوا ضرباً قاتلاً ، ثاراً لذيتك البطلين اللذين سقطا من صفوفهما .

٢ - م : يقول ، إنهما ، جميعاً ، كانا ذوي شرف وسؤدد وبطش . ثم يعود إلى حصَّهم على القتال ويدعوهم إلى الضرب حتى يسيلوا به الدماء المنهمرة أنهما رآ غزيراً .

٣ - مار : لفظة سريانية تعني السيد . سَرْجِيسَ : هو قديس كانت تشفَعُ به تغلب وترفع علمه في القتال ، كما يقال .

م : يقول إنهم لما رأوا جموعهم وافدة عليهم ، تحمل رايات الصَّليب ومار سرجيس وتُنذِرُ بالموت الأكيد .

وَأَبْصَرُوا رَايَاتِنَا لِوَامِعَا
 كَالطَّيْرِ ، إِذْ تَسْتَوِرُ الشَّرَائِعَا ١
 وَالْبَيْضَ فِي أَكْفُنَا الْقَوَاعَا
 خَلُّوا لَنَا رَاذَانَ وَالْمَزَارِعَا ٢
 وَبَلَدَةً بَعْدَ ضِمْنَاكِ وَاسِعَا
 وَحِنْطَةً طَيِّسًا ، وَكَرْمًا يَانِعَا ٣
 وَنَعْمًا لَابَأَ ، وَشَاءَ رَاتِعَا
 أَصْبَحَ جَمْعُ الْحَيِّ قَيْسٍ شَاعِعَا
 كَأَنَّمَا كَانَ غُرَابًا وَاقِعَا

* * *

١ - الشرائع : جمع شريعة : مورد المياه .

م : يقول إنهم إذ أبصروا راياتهم مُقبلة عليهم كالطير الساعية إلى الماء .

٢ - راذان : اسم موضع .

م : يستكمل معنى البيت السابق ويقول إنهم بعد أن شهدوا السيوف القواطع في أيديهم نزحوا عن مواقعهم وخلّوا لهم ما كانوا يحتلونه من أراضٍ ومزارع .

٣ - ٤ - الطينس : الكثير . لابأ : هنا مُزدحمة .

م : يعدد المواقع والخيرات التي خلّفوها لهم ويقول إنهم خلّوا لنا بلاداً واسعة ، بعد قتال شديد ، ومزارع حبوب خصبة وكروماً طيبة الثمار وإبلاً كثيرة حاشدة وغنماً ترتع في مراعيها ، وولى القيسيون الأدبار من دونها ، كأنهم غراب طار عن المكان الذي كان يقع فيه .

الباب الثالث

الفخر بنخيل بن تغلب

وقَفَ الشاعر العربيُّ من الخيلِ موقفين متباينين متأثرين بطباعه وعقيدته وموقفه من الوجود . أفصح عن الأول شعراء اللّهُو والمجون الذين اتّخذوا الخيلِ مطيّةً للزّهو والارتحال إلى مواقع الماء ، ويقوم على رأس هؤلاء امرؤ القيس ومن إليه من شعراء كان الفرس بالنسبة إليهم مطيّةً لهو وزهو . فهم يصفونه مُعجبين بحمالة وكماله . يعرضون لكلِّ مَلْمَحٍ أو عضو فيه بالتشابه والكنائيات والاستعارات التي تمثل الطبيعة المتكاملة فيه لتآلف أعضاء جسده وقوّته وسرعته . ذلك الفرس هو فَرَسُ القَنصِ . يَلْحَقُ بالطّرائد ويلتفُّ عليها ويمنعها من متابعة عدوها ، أو كما يقول امرؤ القيس إنه « قيد الأوابد » . وأصحاب هذا المذهب يؤمنون باللذّة السادية . السادرة كغاية نهائية للحياة . يُشغَلون بها ولا يؤمنون بما دونها ولا يَطِيب لهم قتال ولا يجدون فيه باعثاً للفخر . وتراهم يفخرون ، أبدأً ، بمواقعتهم المرأة ، لا يتحرّمون بحرمة الحلال أو الحرام ، بل إن لذّتهم تتعاضم بقدر ما يخرجون فيها على حدود المجتمع ويُسفّهون تقاليدَه . فامرؤ القيس يفخر بمواقعة المرأة المرضع التي يخلّف زوجها « كاسف البال » ، وبنحره مطيته للعداوى وبصيده الوحوش واشتواء لحمها وتخضيب صدر فرسه بدمها . فهذا الفخر هو الفخر السلبيّ ، الماجن الذي يُجلّون فيه الفرس أن يفتح القتال ويقصرون مهمته على ارتياد الصيّد واللّهُو .

ويظهر الموقف الآخر في شعراء الفخر الملحميِّ الذين يُمجّدون القوّة ويحتفلون

بها ويُعَظِّمُونَ ما نالوا من انتصارات في ساحها . وربما ألمَّ بعضهم بذكر الخمره والتفاخر بشرها كعنتره وليد . لكنّها تعبر في حياتهم كلحظة من لحظات السلو الطارىء حيث يكفون عن القتال . حيناً . وفيما دون ذلك ، فإنهم لا يطربون إلا الى مشهد الدماء والاشلاء ، ينتصرون بها ، غالباً . للحق على الباطل ويدفعون الذلّ عن أنفسهم وعن بني قومهم . وفي هذا الموقف يصحبُ الفرسُ الفارسَ . يعاني مثل بطولته ، يقتحم العُبار ويبلو لظى المعركة ، وبعد أن كان فرس لهُو ، في الموقف الأول ، غدا فرساً ملحمياً . مقاتلاً ، يُخَصِّبُ بدم القتلى . بدلاً من دم الطرائد . والأخطل يصفُ خيول بني قومه ، أبدأً ، وهي تخوض غمار الموت ، مؤلباً لها الصفات التي تدعّوها تفوق على ما دونها غاية التفوق . يقول في ذلك :

ونسيرُ بالثغرِ المَخُوفِ فجأجه بسلاهبِ جردِ المتون ، طُوال ١
 خوصٍ كانَّ شكيمهنَّ معلَّقُ بقنّا ردينةً أو جذوعِ أوال ٢
 نقتادُ كلَّ طِمِرَةٍ ، رَأدُ الضُحى وعِنانَ كلِّ مُجَلِجِلٍ ، صَهَّالِ ٣
 مِنْ كلِّ أَذْهَمَ ، كالغُرابِ سوادهُ طِرْفٍ وأحمرَ كالأديسمِ نَسالِ ٤

١ - يقول إنهم يسرون في الأماكن المخيفة بالخييل الطويلة أي السلهبة .

٢ - يقول إنها خوص أي غائرة العيون ، فكان حديدة فيها معلّقة بالرمح أو بجذوع النخل .

٣ - الطِمِرَة : الفرس الجواد . رَأدُ الضُحى : أي وقت ارتفاع النهار . المُجَلِجِل : الفرس الذي صفا صهيله .

م : يستكمل وصفه للخييل التغليية ويقول إنهم يقتادون لغارة الصباح الخيل الكريمة التي لا تزال تصهل حماسة ونشاطاً .

٤ - الطِرْف : الكريم من الخييل . الأديم : الجلد المدبوغ .

م : يقول إن بعضها أسود اللون كالغراب وبعضها أحمر الخيل ، قد تساقط وبّره ونسل فبدأ أجرد .

يُسْتَقَى الرَّبِيعَ ، يُصَانُ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مَحْضَ الْعِشَارِ ، وَقَارِصَ الْأَشْوَالِ ١
 وَدَنَا الْمُغَارَ لَهَا ، فَهِنَّ شَوَازِبٌ خَلَلَ الْمَطِيَّ ، كَأَنَّهُنَّ مَغَالٍ ٢
 يَمْشِينَ إِذْ طَالَ الْوَجِيفُ عَلَى الْوَجَا نَحْوَ الْعَدُوِّ كَمَشِيَةِ الرَّئِيسَالِ ٣

ومما يلاحظ في هذا الوصف أنه يساق ويُرْجى بطبيعة انفعال الشاعر ؛ ولا يزال الانفعال باعث الانتخاب الفني ، أي أنه هو الذي يُسْقَطُ مظاهر وأحداثاً ويعظّم أخرى . ما انفعال به يَنْتَوُ وَيَطْفَعِي ويتعاطم وما عَبَّرَ به وتجاوزَه يَسْقَطُ ، بل تَتَعَفَى آثاره . والانفعال الذي يصدر عنه الشاعر ، هنا ، هو انفعالُ حماسيٌّ ، حربيٌّ ، لذلك تعاطمت الصفاتُ والخصائصُ التي تُبرز الصفة البطوليّة المَلْحِمِيَّةَ في الفرس ، فيما سقط ما دونها . لا شك أنه يعترض عبر هذا الوصف ، ببعض النعوت العامّة : كالجرد والسهلة والطوال ، وهي توافِقُ الانفعال الملحمي ، كما هو شأن الأخطل والانفعال الماخن ، كما هو

١ - المُصَرَّدُ : الذي شرب من دون الريّ . قَارِصٌ : حامض . الأوشال : الإبل التي خف لبنها .

٢ : يقول إننا نعدّ خَيْلَنَا للحرب ونكرمها فنسقيها اللبن الصّافي المتحض من الإبل الحديثة الوضع الحصبة الألبان ومن التي أوشك لبثها على الجفاف : فبدا حامضاً . أي أنهم يسقونها مختلف أنواع اللبن .

٣ - المُغَارُ : هنا الغارة . شَوَازِبٌ : ضَمْرٌ . مَغَالٍ : جمع مَغَلٍ وهو السهم الذي تقاس به الغلوة ، فترفع اليد حتى تتجاوز مقداره .

٤ : يقول إنها همت بالغارة ، فبدت خفيفة ضامرة كالسهم .

٥ - الْوَجِيفُ : ضرب عن عدو الخيل . الْوَجَا : الحفا . الرّيبال : الأسد .

٦ : يقول إنها قد تحفى لشدة العدو دون أن تباطأ وتمهل بل إنها تُلْفِي نشيطة عظيمة الانقضاض كالاسود .

شأن امرىء القيس . إلا أنه لا يعتَم أن يُلِمَّ بالصفات الخاصة بالخيال المقاتلة ،
إذ يقول :

خَوْصٌ كَأَنَّ شَكِيمَهُنَّ مَعْلَقٌ بِقِنَا رُدَيْنَةَ أَوْ جُذُوعِ أَوَالِ

فالخيال الخوص هي الغائرة العيون من الهزال لشدة ما تعانیه من الضيم في القتال
أو لعظم ما تُساقُ إليه من مواقف تكابد فيها الهلاك . فامرؤ القيس لم يصف ،
قطُّ ، خياله بمثل هذا الوصف ، إذ لم تكن للقتال ، بل للتَّرف . وأما الأخطل ،
فإنه يُواجه الخيلَ من نقطة انطلاق مُتباينة ، من زاوية البطولة ، فلا يخرج
من تعظيم هزالها بالتشبيه الافتراضي حيث قرَنَ بينها وبين الرماح وجذوع
النخل . إلا أنه يحشد النعوت ، كدأب امرىء القيس ، كالسلاهب والجرود
والطوال ، وخوص وطمرة ومُجَلَّجِلٍ وصهال . وهي خاصة مأثورة في الوصف
البدائي المقيد بحدود الجزئيات .

إلا أن لهذه الخيل صورتين متباينتين ، الأولى تبدو فيها ضامرة ، هزيلة ،
أضناها السير والتعداء إلى القتال ، أو في ساحه ، وتبدو في الثانية ، وقد قامت
إلى بيوتهم يسقونها خالص اللبَن ، لبن الربيع من الإبل الحديثة الوضع ، وإذا
ما جفَّت أضرعها ، فإنهم لا يقتَرُون عليها ، بل يسقونها حتى اللبَن القليل الباقي
فيها . فهم يُؤثرونها باللبن ، حين يفيض عليهم في الربيع وحين يجفُّ . ووجه
الفخر في ذلك كله أنهم لشدة شغفهم بالقتال ، يخصُّون مطاياهم إليه بأفضل
الغذاء . وهكذا فإنهم لا يبالون براحتها أثناء القتال ، بل يُركبونها فيه الضنى
والوعر والخطر . حتى إذا انشوا عنه فاضوا عليها بكريم الغذاء . وأياً ما كانت
الحال ، فإن هذه الخيل تظلُّ ضامرة كالسهم ، لا تتخف بالثعب . وإذا نقت
نعالها ، تساق حافيةً إليه . فالشاعر أجرى الخيل بمجرد انفعاله ، فعدَّلَ وبدَّلَ ،
فتعاطم الضمور ، وسير الحفا إلى القتال وغوران المُقتلِين ، وهي من الصفات
الخاصة بخيل البطولة ، ولا يُلِمُّ أو يفخر بها شاعر لهوٍ وترف مثل امرىء

القيس . فالأخطل يفخر فخرأ قومياً من خلال الخيل التي جعلها أفضل الخيول للقتال .

ولعلّ الأخطل يجلو الفكرة التي خلصنا إليها بالتأويل والاجتهاد في الآيات التالية ، حيث يتّرسّم بوضوح الصّورتين المتباينتين اللتين قدّمنا ذكرهما ، واصفاً خيله ، حيناً ، في الشتاء ، أي في زمن المهادنة والسّلم ، وحيناً آخر في ساح القتال . والصّورتان لا تتباينان ، وحسب ، بل إنهما تتناقضان . ففي الأولى تراهم يربطونها إلى بيوتهم أو يؤوونها في داخلها ، تقوم فيهم بين عابلاتهم ، لشدة ايثارهم لها . فهي تقاسمهم معيشتهم ، أو أنهم يقسمون لها من أرزاقهم ، ويحتفلون بها ، فيكسونها البراقع الجميلة والأجلة ، فكأنهم يداعبون من خلالها ، أنثى ، حلم البطولة والقتال العتيد :

إذا ما الخَيْلُ ضَيَّعَهَا رَجَالٌ رَبَطْنَاهَا فَشَارَكَتِ الْعِيَالَا ١
نُقَاسِمُهَا الْمَعِيشَةَ إِذْ شَتَوْنَا وَنَكْسُوهَا الْبَرَاقِعَ وَالْجِلَالَا ٢
نصُونُ الْخَيْلَ مَا دُمْنَا حُضُوراً وَنَحْذُوهُمْ فِي السَّفَرِ النَّعَالَا ٣
وَنَبْعَثُهُنَّ فِي الْغَارَاتِ حَتَّى يَقُودَ الْفَحْلَ صَاحِبُهُ مُذَالَا ٤

١ - م : يفخر بتكريمهم لخيولهم ، ويقول إنهم يقربونها إليهم ويجعلونها في بيوتهم كعياهم .
والعرب يسمون هذه الخيول المقربات لنجاتها وأصالتها .

٢ - م : يقول إنهم يقسمون رزقهم معها ، وإنهم يضمنون بها ويكسونها أجمل الأكسية .
والعناية بالخيول والإيثار لها هما وسيلة للتدليل على مترعهم نزعة فروسية .

٣ - م : يقول إنهم يُعنون بخيلهم ويتعهدونها ما داموا مُقيمين ، فإذا سافروا بها أنعلوها
التعال حرصاً عليها ومنعاً للأذى عنها .

٤ - المُذَال : المهين .

م : يقول إنهم يكرمونها ويرعونها في عهد السلم ، فإذا ساقوها إلى الغارة ، فإنهم يذلونها
ويعنفون بها لبسالتهم وشدتهم .

وكلّ طِمْرَةٍ جَرْدَاءَ تَرْدِي تَرَى الْأَضْلَاعَ بَادِيَةً هُزَالًا ١
 أَصَابَتْ مِنْ غَزَاةِ الْقَوْمِ جَهْدًا يُعْرِقُ مِنْ جُزَارَتِهَا الْمَحَالَا ٢
 إِذَا مَلَّتْ فَوَارِسَنَا وَكَلَّتْ عِتَاقُ الْخَيْلِ زِدْنَاهَا كَمَالًا ٣
 جَنَائِبُنَا الْعِتَاقُ لَهَا صَهِيلٌ بِأَيْدِينَا يُعَارِضُنَ الْبِغَالَا ٤
 إِذَا نَادَى مُنَادِينَا رَكِبْنَا إِلَى الدَّاعِي فَطِرُنَ بِنَا عَجَالًا ٥
 فَهْنٌ إِلَى الصَّبَاحِ مُجَلِّحَاتٌ بِنَا يُمَعْنُ إِمْنَانًا رِسَالًا ٦

- ١- الطِمْرَةُ : الفرس الجواد . الأجرد : القصير الشعر . تَرْدِي : تسرع .
 م : يقول إن في تلك الخيل ، الفرس الجواد ، القصير الشعر ، المُسْرَع في عدوه ، الضَّامِر ،
 البيّن الأضلاع لشدة هزاله من مشقة السير .
- ٢- الجُزَارَةُ : اليَدَانِ والرَّجْلَانِ والعنق ، لأنها لا تدخل في الميَّاسرة بل تستبق للجَزَارِ .
 المحال : جمع المحالة ، وهي الفقرة من فقار البعير .
 م : يقول إن الغزاة أرهاقها في عدوهم بها حتى تصيب منها عرق الإجهاد .
- ٣- م : يقول إن فرسانها قد يكلّون وينصبون ، لكنهم لا يكفون عن القتال بل لا يزالون
 يُزْجُون خيلهم إليه ، بالرغم من كلالهم وكالها .
- ٤- الجنائب : جمع جنيبة ، وهي الخيل يُتَجَنَّبُ ركوبها إلا في القتال ، ويركبون من دونها
 البغال أو الإبل .
- م : يصف هنا سيرهم إلى القتال ، وهم يقودون خيلهم التي تصهل نشاطاً ، فيما تعارضها البغال
 التي تمتطي حتى ساحة القتال .
- ٥- م : يقول إنهم يستجيبون لمن يستنجد بهم ، راكبين تلك الخيول السريعة .
- ٦- التَّجْلِيحُ : السير الشديد . أَمَعَنَ الفرس : مضى في عدوه . الرِّسَالُ : جمع رسالة ،
 وهي الفرس النشيطة ، السريعة العدو .
 م : يقول إنهم يمتطون تلك الخيول ، اللَّيْلُ كله ، وهي تمنع سبورها وتغذّي فيه .

عوابسُ بالقننا متواتراتُ تَرى الأبطالَ يَعْلُونَ النَّهالا ١
 بها نلنا غرائبَ من سوانا وأحرزنا القرائبَ أنْ تُنالالا ٢

فأنت ترى أن تلك الخيل الشاتية هي مُرَفَهة ، مُنَعَمة ، وربما آثر العربيُّ فرسه على عياله . أما إذا بُعِثت في الغارات ، فإنها تحذى النعال ، فيما تبين أضلاعها من المزال ويتصبَّب عرقها . وقد كان العربي يتمرَّسُ بالموتِ في كُلِّ غَدَاةٍ ، يَمْضِي في الغارة ، فيعود عائدون ويغيب غائبون في غيابة الموت ، بعضهم يحيا بموت الآخرين ، فالقتل كان قدراً لهم ولاعدادهم . وفي هذه الصناعة وهذا العمل شبه اليومي كانت تتسامى نزعة البطولة وتبرز على ما دونها وتعزل سائر العواطف وتطفئ عليها ، حتى أنه لم يعد يحتفل في حياته إلا بما يصحبه عليها ويُيسِّر له أمرها . ومن هنا كان للخيل هذا المقام النفسي في وجدانه ، فهي ترتبط معه فيه بتنازعه لبقائه ، أي بحياته وموته ، أنها رفيقة الضرب والطنع والدم . بل إنها صنو لذاته ، تمتدُّ وتتجسَّد من خلالها . وأي قدر أسمى لها من أن تتقدَّم معك الى ساحة النزال ، تشارك بالمعركة كالانسان الحيِّ . السويِّ . فالخيل التغلبيَّة دائمة الحضور على مسرح قصائد الأخطل . يعترض بذكرها عن ذكر الفوَّارس ، ويتكئى بها عنهم أو أنه لشدة إعجابه بها ينسب لها مآثرهم ويُنمي إليها بطولتهم ، كما سرى . وإذا كانت هذه السورة البطولية النفسية لم تُسفر في هذه الأبيات ،

١ - مُتواترات : مُتتابعات . نهال : عطاش .

م : يقول إن الفُرسان يقدِّمون بها إلى الحرب وهم مُتعبِّسون يحملون الرماح ويقتني بعضهم أثر البعض الآخر .

٢ - م : يقول إن تلك الخيل ساقتهن إلى النصر وسي نساء الأعداء ومنع نساءهم من أن يسيهن الآخرون .

فإنها ستتضح في أبيات لاحقة إذ أن الشاعر يعمد ، هنا ، إلى ضرب من المعاني الحماسية التي لا تدلهم فيها الأحاسيس ، فهي أدنى إلى التقرير وقرب المتناول ، وإن كان الشاعر قد أدّاها في أداء حماسي سيّال . وقد بدا ذلك واستبان في الأفعال شبه النثرية التي توسّل بها أمثال : « ربطناها ، نقاسمها ، نبعمهنّ » ، أصابت . وفي كلّ فعل منها تسطع سورة الوعي ، مما جعل المعنى يقتصر على حدود الكناية المبذولة . وربما ألفتناه يعظّم الفارس على الفرس ، معنياً على سورة الغلوّ التي يحشدها لحيه في مثل قوله : « حتّى يقودَ الفحلُ صاحبه مُدّالاً » . أي أنها تسير مقسورة مذلولة إلى القتال ، وأحرى أن يُمثّل شدة عدوها إليه ، وامتناعها عن الارتداد عنه . ومع أنّ قوله قد يكون واقعياً ، فإنه ينبو عن السياق العام الذي تجري المعاني عبره . لقد انخفض مستوى المعاني ، بل تناقض ، فبينما كان يفخر بها ، إذا هو يفخر عليها ، وقد يجري هذا المجرى قوله :

أصابت من غزاة القوم جهداً يُعرق من جزارتها المحالاً

فذكر الجهد الذي أصابها من غزوا العدو قد يكون واقعياً ، إلا أنه يسفح اسطورة البطولة المطلقة التي يحشدها لها ، ولقد كان حقيقياً أن يعظم من طول نفسها حتى أنها تقاتل القتال كلّها لا ترتد ولا تكفّ .

ولعلّ الأبيات التالية تستحضر الصورة الملحمية الماثورة ، إذ تراه ينهك فيها معنى البطولة من خلال ملامح الخيل . يتداوله في أبيات متعدّدة حيث تنامي وتعاظم . في آن معاً ، بطولتها الشبيهة بالمعانة الانسانية . فأنت تجدها متحفزة للقتال ، خائضة فيه ، هلكت وذاب لحمها وتقلقت عليها الأعنة ونثأت أضلاعها ، ومع ذلك ، فإنها ما زالت تنفض كالأسود . وبذلك تولى وصفها من الدّاخل ، وكأنّها تعي وعي البطولة وتتمرّس بشروطها مؤثرة إياها على راحتها ، بل على حياتها :

- ١- وَأَوْلَادُ الصَّرِيحِ مُسَوِّمَاتٌ عَلَيَّهَا الْأَسْدُ غُضْفًا وَالنَّمَارُ ١
 شَوَازِبُ كَالْقَنَّا ، قَدْ كَانَ فِيهَا ٢
 ذَوَابِلُ كُلِّ سَلْهَبَةٍ خَنُوفٍ وَأَجْرَدَ مَا يُثَبِّطُهُ الْخَبَابُ ٣
 فَاتَّرَزَ لَحْمَهُ التَّعْدَاءُ ، حَتَّى ٤
 وَقَدْ قَلِقَتْ قَلَانِدُ كُلِّ غَوْجٍ يُطْفَنَ بِهِ ، كَمَا قَلِقَ السَّوَارُ ٥
 تَرَاهُ كَأَنَّهُ سِرْحَانٌ طَلٌّ زَهَاهُ يَوْمَ رَائِحَةِ قِطَارٍ ٦

١- الصريح : فحل منجب . المسومات : الملمات من الخيل . النمار : جمع نمر وهي الحيوان المعروف .

م : يفخر بخيل التغلبيين الأصيلة ، يقول إن فرسانها يعلنونها كالأسد والنمار .

٢- شوازب : جمع شازبة : ضامرة . اقورار : ضمور .

م : يقول إن خيلهم ضامرة كالرماح نخلت من شدة اقتحامها لساحات القتال .

٣- الذوابل : الضوامر . السلهبة : الخفيفة . الخنوف : سرعة قلب الفرس يديه وقلعها من الأرض . الأجرد : الفرس القصير الشعر : الخبار : حفر في الأرض .

م : يقول إنها ضامرة : خفيفة العدو . لا تعوقها ولا تؤخرها المعابر الصعبة .

٤- أترزه : ذهب به . التعداء : العدو . الجنانج : عظام الصدر : الفقار : وسط الظهر . م : يقول إن تلك الخيل قد ذهب لحمها وهزلت من شدة عدوها ، فبدت منها عظام صدرها وفقارها .

٥- الغوج : الجواد من الخيل .

م : يقول إن تلك الخيل لضمورها : اتسعت قلائدُها ، فباتت تدور حول أعناقها كالسوار .

٦- السرحان : الذئب . الطل : الندى .

م : يشبه تلك الخيل بالذئب الذي يعدو في يوم مُمطر ، لا تعوقه فيه القائظة ، بل يستخيفُ الطلُّ عدوه ويزهوه .

فهو يستهلُّ بالقول إنها مُسَوِّمة ، أي أنها تضع علامة البطولة . وقد امتطاها قوم من الأسد والنمار ، أي فرسان لهم شجاعة الأسد والنمر . وهذا المعنى مبذول ، لا طعم حماسياً له لكثرة تداوله ودنوِّ متناوله في الناس . بخلاف قوله : « شواذب كالفنا » حيث لم يَقُمْ التشبيه على المماثلة النسجية ، بل على الوقع الایجابي في النفس . إلا أن النزعة الغالبة في ذلك كله هي النزعة التفسيرية التي تُحيل الشعر إلى ما يُشبه الوضوح الثري ، وبخاصة إذ يتوسَّل حروف التعليل في مثل قوله : « قد كان فيها من الغارات والغزو اقوَّرارُ » ، فهو يُفسِّر ضمورها بمثل التفسير العِلْمِيّ ، بالغارة والغزو . ولم يكن ثمة ضرورة لمثل هذا الإيضاح لأنه واضح بذاته . فالأخطل لا يؤدي بذلك ما يُعانيه ، بل ما يَفْهَمه ويُعانيه . وقد يتجمد انفعال الشاعر ويَركد ، فتتهار تجربته عن ذلك كله . فتفوته الكناية الحسية المبدعة ، ويكتفي منها بما تيسر وما ضَعُفَتْ وتضاءلت دلالتُه . فأبي ابداع في قوله : « وأجرد ما يثبطه الخبار » ، أي أنها لا ترتد ولا تكف عن العدو وان عرَضتها الحفَر في الأرض . وفعل ثبَّط ذاته هو فعل تقريرية ثري . إلا أن الأخطل لا يقف عند ذلك الحد ولا يستسلم أو يتهاون ، فتراه يُبصر من جديد الأشياء ، وقد سقطت عنها الطُفيليات المُعرضة وتجلَّى فيها العنصر الانفعالي مستقلاً خالصاً ، ذلك إذ يقول :

فَأترز لحمه التَّعداءُ ، حتَّى بَدَتْ منه الجَنَاجِنُ والفقارُ
وقد قَلِقَتْ قلائد كُـلِّ غـوـجٍ يظفَنَ به كما قَلِقَ السَّوارُ

فذكر الجنان والفقار لا يقتضي خيالاً ابداعياً ، ومع ذلك ، فإن له صفة فنية في حدود التجربة الماثورة ، عصرئذ ، إذ أنَّ نَتُوءها وظهورها يُجسِّد يقين الكفاح والضَّيِّ والارهاق ، وهي ، جميعاً ، سيماء البطولة ومظاهرها . وتكامل هذه الصورة في مشهد القلائد التي غدت كالسوار المتقلقل على الخيل . لقد ذهب لحمها وذاب جسدها حتَّى اتَّسعت عليه أحزمتُه . هنا وجد الانفعال سبيله ،

فانتزعَ وأبدعَ ، مُبقياً الفرس في صورة لا يتداخل عليها بها أي طارئٍ يُشغلنا عن بطولتها .

وعلى دأبه في استقطاب شتى احتمالات المعنى ليُوفي الى ذروته ، فإنه يستدرك بالقول إنها ، على هزالها وهلاكها الشديد ، لم ترتد ولم تنتكص . بل ظلت تنقصُ كالذئب الذي اثارته رائحة الشواء :

تراه كأنه سرحان طـلُّ زهاه ، يَوْمَ رائحةٍ ، قِطَارُ

هكذا تتنامى المعاني وتتكامل بخلاف ما أسف به سابقاً إذ انتابته واقعية طارئة . جعل بها الخيل تساق وتزجر الى الحرب .

ونبذل ، هنا ، هذه الأبيات الأخيرة في الفخر بالخيـل . ولعلها أبلغها وأعمقها ملحمية . وهو يستهلها بذكر عميـه اللذين قتلا الملوك وأخيـهما الذي ظمأ خيـله في جبي الكلاب ، ومن ثمـه يستطرد إلى وصف تلك الخيـل . إذ يقول :

أبني كُليبٍ ان عميَّ اللـذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا ١
وأخوهما السفاحُ ظمأ خيـله حتى وردن جبي الكلابِ نهالا ٢

١ - عمي : اشارة إلى أبي حنش الذي قتل شرحبيل ابن عمرو بن آكل المرار في يوم الكلاب الأول ، وعمه الثاني ولعله عمرو بن كلثوم الذي قيل انه قتل عمرو بن هند . ومنهم من يقول إن عمه الثاني هو الدؤكس بن الفدوكس ابن مالك . الأغلال : جمع غل : القيئد . م : يفخر في هذا البيت بمن ذكرنا من أعمامه ويقول إنهما قتلا الملوك ، وقد نوه بذلك ليفيد منه عزاً ومجداً إذ ان قتل الملوك أعزُّ له من قتل الجنود وحتى الأبطال .

٢ - السفاح : هو خالد بن كعب بن زهير ، وقصته أنه منع الماء عن جماعته ، إذ أهرقه وطلب منهم أن يدركوا جبي الكلاب ، حيث يُقدَّر لهم أن يردوا الماء . بعد أن يفتكوا باعدائهم . نهالا : يطلبون التهل ، أي الاستسقاء .

- يَخْرُجْنَ مِنْ نُغْرِ الْكُلابِ عَلَيْهِمْ ۱ خَبَبُ السَّبَاعِ تُبَادِرُ الْأَوْشالا
- مِنْ كَلِّ مُجْتَنَّبٍ ، شَدِيدِ أَسْرُهُ ۲ سَلَسِ الْقِيَادِ ، تَخَالُهُ مُخْتالاً
- وَمُمَرَّةٍ أَثَرَ السَّلَاحِ بِنَحْرِهَا ۳ فَكَأَنَّ فَوْقَ لَبَانِهَا جَرِيالاً
- قُبَّ البُطُونِ قَدِ انْطَوَيْنَ مِنَ السَّرَى ۴ وَطِرَادِهِنَّ إِذَا لَقِيَنَّ قِتالاً
- مُلِحَ الْمُتَوْنِ ، كَأَنَّما أَلْبَسَتْهَا ۵ بِالماءِ إِذْ يَبَسَ النَّضِيجُ ، جِلالاً

١ - الخَبَبُ : ضرب من العَدُوِّ و تعدو به الخَيْلُ . الأَوْشال : جمع وَشَل الماء القليل .

م : يَمَثَلُ خَيْلُ التَّغْلِييِّينَ الخارِجَةَ مِنَ القِتالِ بالسَّباعِ السَّاعِيةِ إِلى الماءِ ، أَي العادِيةِ بِسرعةِ دونِ خَوْفٍ أَوْ وَجَلٍ .

٢ - المُجْتَنَّبُ : أَي الخَيْلِ الَّتِي يُجْتَنَّبُ رُكوبُها . وَالَّتِي تُساقُ إِلى جَنبِ الإِبِلِ وَلا تُمْتَطى إِلاَّ فِي القِتالِ . أَسْرُهُ : خَلْقُهُ .

م : يَسْتَكْمَلُ وَصْفَ تلكِ الخَيْلِ وَيَقولُ إِنَّها لا تُمْتَطى إِلاَّ فِي القِتالِ ، تَعْظِماً لَها وَحِفاظاً عَلى نِشاطِها . وَإِنَّها شَدِيدَةُ الحَلْتِ ، تَمشي ، فَتَبدو وَكَأَنَّها تُخالُ اختِياراً .

٣ - المُمرَّةُ : المُدْمَجَّةُ . الجَرِيالُ : صِبْغٌ أَحْمَرُ .

م : يَقولُ إِنَّها لَكثرةِ ارْتِياذِها للقِتالِ تُلغى مُضَرَّجَةً النَحورِ بِالدِّماءِ ، فَكَأَنَّها صُيِّغَتْ بِصِبْغِ الجَرِيالِ ، وَذَكَرَهُ للجِراحِ الَّتِي أَلَمَتْ بِها فِي القِتالِ لا بِشَوْبِها . لِأَنَّهُ يُمَثَّلُ دَأْبُها عَليهِ وَمُؤالَفَتُها لَه .

٤ - طِرَادِهِنَّ : أَي مُطارَدَتِهِنَّ لِلأَعْداءِ . القُبَّ : جَمعُ قَباءَ : الضامِرةُ .

م : يَقولُ إِذا بَطونُ تلكِ الخَيْلِ بَدَتِ الضامِرةَ للجِوعِ الَّذِي أَصابَها مِنَ كَثرةِ عَدوِها فِي اللَّيلِ وَمُطارَدَتِها لِلأَعْداءِ فِي القِتالِ .

٥ - النَّضِيجُ : ما نَضَحَ مِنْ عَرَقٍ عَلى مِنتَها .

م : يَصورُ شِدَّةَ الكِفاحِ الَّذِي بَلَغَتْهُ الخَيْلُ مِنَ خِلالِ تَمثِلهِ للعَرَقِ الَّذِي نَضَحَ وَتَصَبَّبَ مِنْها ، فَبدا بَعْدَ أَنْ جَفَّ كَجِلالٍ تَرْتدِبهُ عَلى مِنتَها .

ولقلّ ما يُصِيبُحَنَ إِلَّا شُرْبُـاً
يَرَكْبَنَ مِنْ عَرَضِ الحِوَادِثِ حَالاً ١
فَطَحَنَ حَائِرَةَ المُلُوكِ بِكَلِّـكَلِ
حَتَّى احْتَدَيْنَ مِنَ الدَّمَاءِ نِعَالاً ٢
وَأَبْرَنَ قَوْمَكَ ، يَا جَرِيرُ ، وَغَيْرَهُمْ
وَأَبْرَنَ مِنْ حَلَقِ الرِّبَابِ حِلَالاً ٣
وَلَقَدْ دَخَلَنَ عَلَى شَقِيقِي بَيْتَهُ
وَلَقَدْ رَأَيْنَ بِسَاقِ نَضْرَةَ خَالاً ٤
وَبَنُو عُدَانَةَ شَاخِصٌ أَبْصَارُهُمْ
يَسْعَوْنَ تَحْتَ بَطُونِهِمْ رَجَالاً ٥

١ - الشُّرْبُ : جمع شارب : الضامر .

م : يقول إنك لا تُلْفِيهِنَّ إِلَّا ضَامِرَات ، إذ لا يُخَلَدْنَ قَطَّ إِلَى الرَّاحَةِ ، بل يَمْتَحِمْنَ الأحداث التي تطرأ عليهن .

٢ - حَائِرَةُ المُلُوكِ : أي من تَحْيِرَ منهم . يشير إلى قتل عمرو بن كلثوم لعمرو بن هند .

م : يقول إنهن أَلْفَنَ سَحَقِ المُلُوكِ بِصُدُورِهِنَّ ، وَأَنْ يَخُضْنَ فِي الدَّمَاءِ ، فَتُصْبِغَ أَقْدَامَهُنَّ ، وتبدو كنعال لها . وهذه الصورة تمثل الصُّورَ المَلْحَمِيَّةَ التي تنطوي عليها بعض مفاخر الأخطل ومدائحه .

٣ - أَبْرَنَ : أَهْلَكَنَ . حَلَقَ الرِّبَابِ : جماعتهم . الرِّبَابِ : هم بنو عبد مناة ، سَمَوِ الرِّبَابِ لأنهم تَغَمَّسُوا بِالرَّبِّ أَيْدِيَهُمْ فِي حَلْفِ عَلِيِّ بْنِ ضِبَّةَ . الحِلَالِ : الحَالُونَ المَجْتَمِعُونَ فِي مَكَانٍ .

م : يقول إنهم أَهْلَكُوا قَوْمَ جَرِيرٍ وَسَوَاهِمَ مِنَ الأَقْوَامِ وَإِنَّهُمْ فَتَكُوا بِجَمَاعَاتِ الرِّبَابِ فِي الأَمَكِنَةِ الَّتِي كَانُوا يَحْلُونَ فِيهَا ، أَي فِي عَقْرِ دَارِهِمْ .

٤ - شَقِيقِ : من بني ضِبَّةَ . وَنَضْرَةَ : أبنته . وكان أحد التغلبيين قد غزا ربيعة وسبا نساءهم وأبقى على نضرة ابنته أسيرة لديه .

م : يقول إنَّ التَّغْلِبِيِّينَ اقْتَحَمُوا عَلَى بَنِي ضِبَّةَ وَأَسْرُوا نَضْرَةَ ابْنَةَ أَحَدِهِمْ وَكَشَفُوا عَنْ سَاقِهَا ، أَي واقعوها برية .

٥ - بَنُو عُدَانَةَ : هم حي من يربوع . الرِّجَالِ : هنا السَّاعُونَ عَلَى أَرْجُلِهِمْ .

م : يذكر ما فعلت الخليل بيني عُدَانَةَ وَيَقُولُ إِنَّهَا أَصَابَتْهُمْ بِالْحَيْرَةِ الَّتِي جَعَلَتْ أَبْصَارَهُمْ تَشْخِصُ وَإِنَّهَا أَوْدَتْ بِهِمْ تَحْتَ بَطُونِهَا ، بعد أن أسفطوا عن مطاياهم .

يَنْقُلْنَهُمْ نَقْلَ الْكِلَابِ جِرَاءَهَا ۱ حتى وَرَدَنَّ عُرَاعِرًا وَأَثَالًا ۱
 خُزَّرَ الْعُيُونِ إِلَى رِيَّاحٍ ، بَعْدَمَا ۲ جَعَلَتْ لُصْبَةً بِالرَّمَّاحِ ظِلَالًا ۲
 مَا إِنْ تَرَكْنَ مِنَ الْفَوَاضِرِ مُعْصِرًا ۳ إِلَّا فَصَّمْنَ بِسَاقِهَا خَلْخَالًا ۳

وإذا كان تشبيه الخيل بالأسود مبدولاً ، فإن الأخطل يُخرجه عن ابتداله
 لأنه واجهه من زاوية جديدة إذ قارن بينها وبين السباع في خبيها ، أي سيرها
 ومؤدَّى هذه المقارنة أنها تحبُّ حبًّا ، واثقة من ذاتها ، من شجاعتها ونفوقها ،
 وهذا ما أكدّه في البيت اللاحق إذ قال : « تخاله مختالا » . والواقع ان الفرس
 إذ يعدو ، رافعاً رأسه ، يبدو وكأنه معجب بذاته ، يتباهى ، ولا يجري الفرس هذا
 المجرى ، إلا إذا كان أصيلاً ، مُتَعَايَاً ، وعبر ذلك نستطلع اعجاب الشاعر
 وزهوّه بهذه الخيل ؛ وربما اتخذ بعض معانيه من بعض ما وردَ في الفخر
 القديم ، فقوله :

وَمُمرَّةٌ أَثَرُ السَّلَاحِ بِنَحرِهَا ۱ فَكَأَنَّ فَوْقَ لِبَانِهَا جَرِيَالًا

١ - عُرَاعِرٍ : اسم ماء . أثال : ماء لبني عيس .

م : يقول إن خيل التغلبيين كانت تنقل محاربي بني عُدانة ونجرهم كما تُجرّ الكلاب ، حتى
 أزالتهم عن حماهم إلى حمى الآخرين .

٢ - خُزَّرَ : جمع أخزُر : من ينظر بمؤخر عينه .

م : يقول إن خيلهم كانت تنظر إلى بني رباح نظرة شزر وغضب ، بعد أن حموا بني ضبة
 برماحهم .

٣ - الْفَوَاضِرِ : من بني قيس . الْمُعْصِرِ : التي دنت من البلوغ . فَصَّمْنَ : هنا كسرن .

م : أي أنهم انتهكوا عذارى بني الفواضر ، وغشوهن سفاحاً ، وكسر الخللحال هنا كناية عن
 تواقعهم معهن .

هو شبه منقول عن قول عنتره :

يَدْعُونَ عَنْتَرَ ، وَالرَّمَا حَ كَانَتْهَا أَشْطَانُ بِئْرِ فِي لِبَانِ الْأَذْهَمِ .

والدَّم الذي تتسربلُ هو دَمُ البطولة والكفاح . عَبَّرَ فيه عن المعنى بمظهره وغالى به بعزله عما دونه . لكنّه يعودُ إلى النزعة التفسيرية التي تُفسَّر ما لا ضرورة الى تفسيره . فهو يقول إنها ضامرة البطن من طول سيرها في الليل ومطاردتها للأعداء . ومن البديهي في هذا المقام أنها لم تهزل من الجوع . وربما ابتغى الأخطل من ذلك ابراز المعنى الفخري . فذكر السرى والمطاردة ، بالرغم من بديهيته ، ينوّه بالصفة القتالية التي تلازمها ، وربما تلازم ذلك من طبيعة الانفعال الذي صدر عنه . وهو لا يُعنى بما دون ذلك . وهكذا فان ذكر هذه الأمور هو تأكيد لها وغلوثها . ومهما يكن . فإننا نؤثر أسلوبه الإبداعي الذي يظهر في قوله :

مُلِحَ الْمَنُونِ . كَأَنَّمَا أَلْبَسْتَهُهَا بِالْمَاءِ إِذْ يَبْسُ النَّضِيحُ . جَلالاً

فهي ترتدي ما يُشبه الجلال من الملح الجاف . لكثرة ما تصبب منها من العرق ، وهو هنا كالدم . رداءً ملحمي . نصالي . ولا يزال الأخطل يُوقِّق الى اقتناص المظاهر الأدل على المعنى الذي يودّ أن يؤدّيه ، فضلاً عن التشبيه الذي تتحقق فيه الواقعية الدقيقة حتى أنها لتتألف والمثالية . وبتعبير آخر نقول إنه بقدر ما تتكامل الواقعية بقدر ذلك تتكامل معها المثالية . فالملاح الذي ترتديه الخيل كالجلال هو مشهد واقعي . دقيق الواقعية تولدت منه صورة مثالية . وهي بطولة هذه الخيل التي لا تعادها بطولة . ويوفي من ذلك إلى أوجه . إذ يقول :

فَصَحْنٌ حَائِرَةٌ الْمَلُوكِ بِكَلْكَالٍ حَتَّى احْتَدَيْنَ مِنَ الدِّمَاءِ نَعَالاً

ففي الشطر الأول ينسب الى الخيل بطولة التغلبيين كلها منذ القدم . أي منذ عمرو بن كلثوم الذي قتل ملك الحيرة . حيث يغدو الفخر تاريخياً . ويسمو في

الشرط اللاحق الى صورة نادرة في فخره والفخر العربي ، إذ جعل الخيل تُحذى من الدماء ؛ وهذه الصورة تغالي بذاتها وبالبواعث التي أدت إليها ، فكان القتال خلف إثره سيلاً من الدماء ، بدلاً من الماء ، فجعلت تخوض فيه حتى كسا أقدامها كالنعال . وفي هذه الصورة تتألف ، أيضاً ، الواقعية والمثالية ، تنامي إحداهما بالأخرى .

وتطغى ، من ثمة ، النزعة السردية ، التعددية ، على ما تبقى من أبيات ويكثر تعداد اسماء العلم للأشخاص والمواضع ، وفقما مرّ بنا ، قبلاً ، أمثال : « شفيق ونضرة وغدانة وعراعر وأثال ورياح وضبة والغواضر » ، وقد احتشدت وتكاثفت مثبتة الصفة الواقعية لشعره ، حيث كان يتلاحم فيه مع الأحداث والأشخاص . إلا أن الأخطل لم يُسَلِّس قيادته فيها ، ولم يتهادن معها ليُخلد الى السرد الثري العاطل عن الصورة والكناية ، أو عن الغلوّ الابداعي ، نسبياً . فقد اشار إلى مواقفهم لنضرة برؤيتهم لخلخالها ، متكئياً به عن ساقها ، وهو وجه الفخر لهم والعار لأعدائهم ، كما أنه جعل بني غدانة تحت بطونها كدليل على الهزيمة المنكرة التي حلّت بهم ، بل إنه يُغالي بذلك حين يُشبههم بجراء الكلاب .

وعلى العموم فإنّ الأخطل يمتزج في فخره بين الهجاء والفخر ، ولا يزال يعدد الأيام منيظاً بخيلهم الصفة الملحمية إذ يجعلها تعدو الى القتال حافية ، حيناً ، أو أنها تعدو فيه منعلة بنعال الدّم ، مرتدية لجلال من العرق ، تبدو من دونه أضلاعها وعظام فقارها . كما أنها تسير مزهوة بذاتها كالأسود في خبيها .

الباب الرابع

الفخر بالضيافة التغلبيّة

لقد كانت الضيافة إحدى القيم التي قام عليها المجتمع العربي، منذ الجاهليّة، بالزمام من طبيعة البيئة الصحراوية، وكتعبير عن الأريحيّة والإيثار والكرم، ولهم في ذلك مفاخر وأشعار لا مجال لذكرها . وقد ولج هذا النوع من الفخر في سنّه الفروسيّة ، وغدا كتعبير عنها أو مظهر مظاهرها. وهو لا يتّصف بالمنازعة والمعارضة ولا ينطوي على الهجاء كسائر المفاجر ، فهو أدنى إلى الفخر العام بالرغم من أنّ الشّاعر يدّعي به التّفوّق على سائر القوم .

من ذلك قوله :

أَلَسْنَا نَحْنُ أَقْرَاهِمَ لَضَيْفٍ وَأَوْفَاهِمَ ، إِذَا عَقَدُوا حَبَالًا
وَأَجْبَرَهُمْ لِمُخْتَبِطٍ فَقِيْرٍ بِخَيْرٍ حِينَ قَرَّبَ ثَمَّ نَالًا ١
كِرَامُ الرَّفْدِ لَا نُعْطِي قَلِيْلًا وَلَا نَنْبُو لِسَائِلِنَا اغْتِيَالًا ٢

١ - الْمُخْتَبِطُ : الذي يسألك دون أن تربطه بك قرابة أو معرفة أو عهد . أَجْبَرُهُمْ : هنا بمعنى أَكْرَهُمْ نجدة بجبر ما وهي من أمره .

م : يقول أنهم أنجد الناس للطّاريء الغريب الذي ينتجع ديارهم فينال نوالهم دون منة .

٢ - الرَّفْدُ : العطاء والإعانة . نَبُو : أي نتخلف في قصدنا إليه .

م : يقول إنهم جزيلو العطاء ، لا يعتلون بالعلل ولا يعتذرون لمن يعتفهم راجياً عطاءهم .

سَلِ الضِّيْفَانَ لَيْلَةَ كُلِّ رِيحٍ ۱
 أَلْسِنًا بِالْقَرَى نَمَشِي إِلَيْهِمْ ۲
 فَمَا نَجْفُو الضِّيَافَةَ إِنْ أَقَامُوا ۳
 وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِيهَا ۴
 تَلَفُ الْبَرْكَ عَازِمَةٌ شَمَالًا ۱
 سِرَاعًا قَبْلَ أَنْ يَضَعُوا الرِّحَالَ ۲
 وَلَا الْجِيرَانَ إِنْ كَرِهُوا زَوَالًا ۳
 وَتَتَّبِعُهُ الْكِرَامَةُ حَيْثُ مَالًا ۴

فالفخر يقوم ، هنا ، على صيغة التفضيل التي تَسْمُ عن الإطلاق ، وهو عاطفة بدائية مستمدة من أنانيته التي تجعل منه محور الأشياء . فقوله إنهم « الأوفى » و « الأقرى » يفصح عن معاناة إنسان يَطْرِب ويصطخب ببعض الاعراض عن تلمس العاهة والضعف والترحح في واقع النفس البشرية ؛ إلا أن التعبير هو تعبير شعري ، أي انفعالي ، لا يعني ما يعنيه في حدود دلالة الواقعية ؛ ويمضي في

١ - ٢ - الْبَرْكَ : جمع بَرُوك وهي الإبل المُقِيمَة . تَلَفٌ : تَجَمُّع . عَازِمَةٌ شَمَالًا : أي تهب من الشمال ، وهي أشدُّ الرِّيح صقيعاً .

م : يستشهد الضيْفَان على كرمهم . ويقول إذ يشتدُّ عصف الريح الشمالية الباردة وتدع الإبل تلتف بعضاً على بعض استدفاء . فإنهم يعجلون بالقرى لهم . قبل أن يضعوا رحالهم . غبَّ السَّفَر . وتعجيل القرى وسيلة للتدليل على عظم رغبتهم به واستعدادهم الدائم له .

٣ - كَرِهُوا زَوَالًا : أي أنهم أحبوا الإقامة والامتناع عن الرحيل .

م : يقول إنهم لا يُجَافُونَ الضَّيْف . مهما طال مكوثه فيهم . وإنهم لا يزعجون جيرانهم عن مقامهم . إذا لم يرغبوا في الرحيل عن جوارهم .

٤ - م : يقول إنهم لا يقتصرون على إكرام ضيفهم فيما هو حال ومقيم فيهم ؛ بل أنهم يراعون جيرته بعد أن يرتحل عنهم . فكان عهد الجوار لا يتفصي بالإقامة والرحيل بل إنه نوع من العهد الدائم على المودة والتجندة .

هذه المفاخرة الاطلاقية التعميمية إذ يقول إنهم أجبر الناس للغريب الطارئ، ينيلونه كل خير . ووجه الفخر قائم على إثارهم للغريب كالقريب ، دون أن يكون في ذلك حشد أو احتفال بالمعاني الجليلة التي تُخَرِّج وتُؤوِّل . فهو كأنما يتلو معاني يسيرة يدركها إدراكاً . وربما أسف بالتقرير في قوله : « كرامُ الرِّفد ، لا نُعطي قليلاً » ، وفخره بامتناعهم عن اعطاء القليل في الحلة الثرية الفاقدة الإنفعال والخيال جعلت ذلك الفخر ، وكأنه لا فخر فيه ولا قيمة فنية تصدر عنه أو تكمن به . ويجري على هذا الغرار قوله : « ولا تَنبُو لسائلنا اعتلالاً » ، أي أنهم لا يتفتقون بالعلل والأعذار حرصاً على ما لهم وبخلاً به . ففضلاً عن طغيان الصورة على الفكرة في هذا القول تجد في فعل « نَبُو » نوعاً من البلاغة الثرية ، إذا جاز التعبير ، إلا إذا حملناها على محمل نَبُو السيف ، فعندئذ ترتسم أمامنا صورة تكثف من المعنى وتعمقه . وتراه يستشهد الضيفان ، من ثمة ، على كرمهم ، ويتخير لذلك السانحة الأدل عليه ، وهي الليلة العاصفة التي تدع الأبل تكتف ، بعضاً على بعض ، والمعنى مطروق منذ القدم ، بل إنه منهوك ومستنفذ إذ لم يكن الجاهلي أو الاسلامي يفخر بالضيافة والعطاء ، الا فيما تشد الزمهير وتهب عواصف الصقيع ويملق الناس حتى الموت . والأخطل يشتط عن المعاني الجليلة الحاشدة في مثل هذا الفخر ويكل أمر الإيحاء فيه الى الإيقاع الحماسي العام الذي تصدر عنه القصيدة . من ذلك أنه يتباهى بهرعهم الى الضيفان بالضيافة قبل أن ينزلوا الرِّحال . ومع أن ذلك يوحى باستعدادهم الدائم ، فانه أثر اليُسْر في الكناية والمشهد الداني المتناول ، بخلاف معانيه المشتقة اشتقاقاً والمنتدعة ابتداءً في المدح وبعض الهجاء . ولقد تفتن الأقدمون إلى ذلك إذا لم يُقدِّموا في الفخر ، فالأخطل كان شاعر سياسة وتكسب ولا يعننت أو يأخذ نفسه بالشدة القصوى في النظم الا في المدايح ، فكانه يدور ، عندئذ ، في دوره الرسمي الجدي حيث تقيم قيمته الفعلية . والأبيات ، جميعاً ، تتصف بمثل هذا الدنوِّ واليُسْر ، إذ تطفو الفكرة الشائعة التي يتلقفها مما يتداول بين العامة بشأن الضيافة . كالقول إنهم لا يُجافون الضيف إذا أطال المكوث فيهم ، ولا يطردون جيرانهم أو يزجروهم ، إذا لم يرتحلوا بأنفسهم . ذاك كله يسوقنا إلى الاعتقاد

بأن هذه الأبيات لا تسمو إلى الجمالية الراقية تي يتهد إليها الإحطل فيما دون ذلك .

وما لنا وللآيات السابقة ، فلعلها ليست الأدلّ على فخره بالضيافة ، أو لعلّ الانفعال الخالق لم يرّفده ولم يُسْعِفْهُ فيها ، فلتتولّ آياتاً أخرى ، فقد تكون تكون أدلّ على هذا النوع من الفخر . ففي إحدى ميميّاته يقول :

وَمُسْتَنْبِحٍ بَعْدَ الْهُدُوِّ ، دَعَوْتُهُ بِصَوْتِي ، فَاسْتَعَشَى بِنَصْوِي تَزَعَّمَا
فَجَاءَ ، وَقَدْ بَلَّتْ عَلَيْهِ ثِيَابَهُ سَحَابَةٌ مُسَوِّدَةٌ مِنَ اللَّيْلِ أَظْلَمَا ١
وَفِي لَيْلَةٍ ، لَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ ضَيْفَهَا إِذَا نُبِّهُ الْمَبْلُودُ فِيهَا ، تَغَمَّمَا ٢
فَلَمَّا أَضَاءَتْهُ لَنَا النَّارُ ، وَاصْطَلَى أَضَاءَتْ هِجَفًا مُوحِشًا ، قَدْ تَهَشَّمَا ٣

١ - يتحدث عن ضيف يُنايح الكلاب ليتهدي بناحها وقد ردّ عليه الشاعر ليهديه .

م : يقول إنّه قدم إليه وقد بلّته الأمطار المُنهمرة من سحب متلبّد مُظلم ، كيف .

٢ - المَبْلُود : البليد . التَغَمَّم : الكلام الضعيف .

م : يمضي في وصف شدّة الصقيع في ذلك الليل ، ويقول إن الكلب لا يقوى فيه على النباح من شدّة البرد الذي يعتره ، فإذا نُبِّه وأثير للعواء ، هدايةً للضيف ، فإنّه يتَغَمَّم ويُقْنِي ، ويظلُّ مُتَبَلِّدًا .

٣ - الهِجَف : الغليظ ، الجاني . الموحش : هنا المتوحش الذي يألف صحبة الوحش . تَهَشَّم : أي أصابته رضوض وما إليها .

م : يقول إن ذلك الضيف أدركهم واصطلى نارهم ، فانعكس منها نور على وجهه ، فبدا امرأ غليظاً ، متهشّم الوجه ، قد ألفت الإقامة في الأمكنة المُتوحشة .

فَنَبَّهْتُ سَعْدًا بَعْدَ نَوْمٍ لَطَّارِقٍ أَتَانَا ضَمِيلاً صَوْتُهُ ، حِينَ سَلَّمَا ١
فَقُلْتُ لَهُمْ : هَاتُوا ذَخِيرَةَ مَالِكِ وَإِنْ كَانَ قَدْ لَاقَى لَبُوساً وَمَطْعَمَا ٢
فَقَالَ : أَلَا تَجْشِمُوهَا ، وَإِنَّمَا تَنْحَنَحُ دُونَ الْمُكْرَعَاتِ ، لَتُجْشِمَا ٣
وَإِنِّي لِحَلَالُ بِيِّ الْحَقِّ ، أَتَّقِي إِذَا نَزَلَ الْأَضْيَافُ ، أَنْ أَتَجْهَمَا ٤
إِذَا لَمْ تَذُدْ أَلْبَانُهَا عَنْ لَحْمِهَا حَلَبْنَا لَهُمْ مِنْهَا بِأَسْيَافِنَا دَمَاهُ ٥

١ - م : يقول إنه نبه سعداً ، ليهرع إلى أداء حقّ الضيافة لذلك الطّاريء المالك الذي كاد صوته أن يذهب من شدّة عيائه .

٢ - م : يقول إنه بعد أن ألبسه وأطعمه دعا بمن إليه ليأتوا بذخيرة ابنه مالك ليؤديها له كهدية .

٣ - المُكْرَعَاتُ مِنَ الْإِبِلِ مَا أَلْبَسَ الدُّخَانَ : أَي مَا أَدْخَلَ لِلْإِصْطِلَاءِ مِنَ الْبَرْدِ ، فَفَشِيهِ الدُّخَانُ . تَجَشَّمُ : تَكْتَلِفُ . تَنْحَنَحُ : أَشَارَ بِصَوْتِهِ مَتَمَهلاً لِيُضْمِرَ مَا يُوَدُّ أَنْ يَقُولَهُ وَيُوْحِي بِهِ مِنْ صَوْتِهِ .

م : يقول إنّ الضيف أبي أن تساقَ إليه إبل مالك ، لكنّه تَنَحَنَحُ ، كأنما يشير بذلك إلى رغبته بها وقد منعه الحياء من قبولها .

٤ - م : يَمْنُضِي فِي تَفَاخُرِهِ بِإِكْرَامِ الضَّيْفِ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ يُؤَدِّي لَهُ حَقَّهُ وَلَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ إِلَّا بَاشِئاً ، مُسْتَبْشِراً ، لِيَطِيبَ لَهُ الْمَقَامُ وَالْمَكُوثُ .

٥ - م : يقول إنه إذا لم يكن ثمة لبن في ضروع إبله ليؤدّي منه طعام للضيف ، فإنهم ينحرونها له ويطعمونه من لحمها ، مسيلين منها الدم ، بدلاً من اللبن .

ففي هذه الأبيات يتسامى الشاعر . من جديد ، ويتخذ نفسه بعنّت الإبداع ، متخييراً من الأحداث أدلتها وأبلغها . فهو يستهلُّ بذكر ضيف ضاقت عليه سبل النجاة وضلَّ سبيله ، فجعل ينباح الكلاب ليقتفي على صوتها ، أي أنه افتقد كل وسيلة ، فلا صوت يسمعه ولا نور يبصره ، ولا شيء سوى ظلمة مُطبقة ، مترامية . فالأخطل تخيّر من ضياعه اللحظة التي أوفى منها إلى ذروة الفاجعة ، راذلاً التقرير الذي طالعنا به ، قبلاً ، والأحداث الطفيلية التي لم يصهرها الانفعال ويُطهرها ، لتنجلي وتخلصُ في عنصرها الأوحده الدال على جوهرها . وأنتك لتجدّه متوازي الإفعال ، مُتلاحقه ، يتبعه في المستوى الذروي الذي استهلَّ به ، محافظاً على طابع الواقعية والمثالية ، معاً . فالضيف لم يستنح مساءً ، أو في مطلع الليل ، ولا بعد الهزيع الأول منه ، بل بعد الهدوء ، أي في المرحلة التي أخذت بها الناس الى النوم ، فهدأت ضوضاؤهم وشاع الهدوء المطلق في ديارهم ، فبدت في مثل سكينه الخلاء والقفر . وفي تلك اللحظة كان ، ثمة ، عينٌ واحدة ساهرة ، هي عين الشاعر ، لم يغتمض جفناها ، إذ ما زال صاحبها يترقب ويتنصتُ لعله يطرأ عليه طارئ ملهوف . فيهرع إليه ، مُنجداً ومنقذاً . فالمعنى ما زال يتنامى ، حتى الآن ، بعضاً ببعض ، السورة النفسية للمستنح الضيف تُوازي السورة النفسية للشاعر المضيف . الأول هو في أقصى حالات الاملاق ، وفي أشد حاجة الى الضيافة ، والثاني هو في غاية الكرم ، إذ لا تنام عينه ليلاً ولا يطمئن باله ، ما دام هناك مشردون في القيافي ، وقد ادتّى الضيافة في أقصى شروطها عسراً ، بل استحالةً . والفخر تولّد واستقصي من خلال هاتين الصورتين المتناقضتين ، المتكاملتين . بل إنَّ للغلوّ والإنفعال أبعاداً أخرى منذ البيت الأول . ذلك ان الضيف ، عندما عوى واستنح ، لم تعاوه وتناجحه الكلابُ ، أي أن هذه البهائم المسيرة بغريزة التنبه واليقظة قد نامت ، بل لجّت في النوم ولبث الشاعر ساهراً ، متيقظاً من دونها . فكأنما ليس لديهم يشاغله غير أولئك المتردّين في الهلاك بين يدي الظلمة والتيه . فهو يقول : « دعوته بصوتي » وذكر صورته في هذا المقام لم يرد في الصدفة ، بل إنَّ فيه بعداً فخرياً عميقاً ؛ فهو ، لشدة إثاره للضيف وتكريمه إياه ، بأنف من

أن يُوقظ الكلاب لتناجحه ، فيصوت له بصوته ، إنسانٌ يخاطب إنساناً ، ويهدىء من روعه ويُبشّره بالنجاة . فالأخطل يُوقِّق ، هنا ، الى مثل ما يدأب عليه في المدح . إلى استحضر الحادثة الأدلّ على غايته والأوفى بها .

ذاك كان أمرهما . قبل أن يلتقيا ويتواجهها ، فلمّا حضر الضيف بدت مطيِّته هالكة . مائتة من شدّة العدو والنّصب . وصورة المطيِّة هي استكمال لصورة صاحبها وغلوّها بالتأليف الواقعيّ المثاليّ ، إذ لا يُعقل ، قط ، ان تكون متعافيةً ، سليمةً من دون صاحبها . ويستجمع الشاعر للطّاريء صور الهلاك كلّها ، في الليل الحالِك . في افتقاد السبيل والدليل ، في عياء المطيِّة ، وفضلاً عن ذلك كلّه ينهمر عليه مطر دائم الهطلان . غزير ، مظلم :

فَجَاءَ ، وَقَدْ بَلَّتْ عَلَيْهِ ثِيَابُهُ سَحَابَةٌ مُسَوِّدٌ مِنَ اللَّيْلِ ، أَظْلَمًا

فالظلمة تملأ المدى والأفق . أيضاً ، والمطر يَسِخُ . فهل ، بعد ، غير ذلك من ضميم يُضميم وهمٌ يُقيم ! وبعد . فهل أن ذلك الضيف قدم فعلاً ، وهل أنه كان على الحالة التي مثله الشاعر بها ، وهل ان المطر والغيوم المتلبدة كانت تغشى السماء والأرض . قد يكون جرى بعض ذلك ، أو جرى كلّه أو لم يجر منه شيء قط ؛ فالواقع الذي ترسّمه الشاعر هو واقع ابتداعيّ ، مخلوق استحضره الشاعر استحضراراً بالفعل النفسيّ ومن خلال تحسسه بروح المظاهر التي تُوحى به وتجسّده . فالليل والمطر والمطيِّة الهزيلة الهالكة هذه . جميعاً ، مظاهر خارجيّة ألمّ بها الشاعر ليُحدّق بالحالة النفسيّة ويوقّعها في حدود أطرها . وفضلاً عن ذلك كلّه فإن الشاعر حدّد اللفظ ، كما حدّد الصورة ، ليُوفي من ذلك إلى غايته كلّها إذ تراها يقول : « سحابةٌ مُسَوِّدٌ مِنَ اللَّيْلِ ، أَظْلَمًا » . فهو قد استقصى معظم الألفاظ الدالّة على الظلمة الحالِكة : « السحابة ، الليل ، المُسَوِّدُ . أَظْلَمًا » .

ومع ذلك كلّه . يُخيّل للشاعر أنه لم يستوفِ غرضه كلّه ، فيُوضح ما كان قد صرّح به إذ قال :

وَفِي لَيْلَةٍ لَا يَنْبِغُ الْكَلْبُ ضَيْفَهَا إِذَا نُبِّهَ الْمَبْلُودُ فِيهَا تَغْمَغَمًا

وهذا البيت يتحدث بأمر الكلب ظاهراً ، إلا أنه يتخذه ، ضمناً ، ذريعةً وكنايةً للتدليل على شدة الصقيع . لقد أوشك الدّم ان يتجمّد في عروق الكلب حتى أنه لا يتحرك ولا يُرِيم ، وإن زُجر ، فكيف بأن يُنابح الضيف . فالأخطل يُعبر عن الشيء بذاته وبسواه خاصة ، في نوع من التنبّه اليقظ لما يطالع به في العالم المادي الجاثم . ولتتمثل الواقعية في وصفه للكلب إذ قال : « إذا تنبّه المبلود فيها تغمغماً » . والتغمغم هو صوت يطلقه الكلب عندما يحرن عما يُزجر عليه .

وقد كان أول ما تبادر إليه في ذلك أن أوقدوا له النار ليصطلي من القرّ :

فَلَمَّا أَضَاءَتْهُ لِنَا النَّارُ وَاصْطَلَّسِي أَضَاءَتْ هِجْمًا مُوحِشًا ، قَدْ تَهَشَّمَا

فهو قد وصل إليهم وكأنه شبح لا ملامح له في الظلمة ، فعندما أضاءته النار بدا أنه امرؤ جاف . توحّش عن الناس ، وقد تهشّم لشدة ما تكبّد في تلك الليل . ووجه الفخر في هذا القول عميق . وإن لم يكن صريحاً ، ذاك أن الشاعر احتفل به وأصلاه وأمر له ، مع أنه متوحّش ، لا يقيم في الناس ، ليُدبّع خبره فيهم ويجازيه عن معروفه صيناً حسناً وشهرةً . ولقد وقع خصائصه ، هنا ، بالفعل النثبي ، لغاية يبلغ منها نهاية مطاف المعنى . وفي هذا البيت وجه آخر للغلو ، وهو ان تلك الليلة بكتّغت من الهول والصقيع ما جعلها تهشّم الإعرابي المتوحّش الذي أقام فيها منذ عهده الأول وألف ريجها وبردّها وأنواءها ، ومع ذلك ، فإنه تداعى وأنهار في تلك الليلة المنفردة بقساوتها . وحتى الجزئيات لا تفوته في ذلك ليستكمل الصورة كلّها :

فَنَبَّهْتُ سَعْدًا ، بَعْدَ نَوْمٍ لِطَارِقٍ أَتَانَا ضَيْبًا صَوْتُهُ حِينَ سَلَّمَا

وأشارته الى تنبيه سعد ، هو امتداد من قوله في المطلع أن الضيف طرأ في الهدوء ، وتنويهه بضالة صوت الطاريء هو استكمال لصورة تهشّمه .

وهنا تَلِجُ القصيدة إلى صلب موضوعها ، إذ يقول إنهم ألبسوه وأطعموه ، وهو أمر مبدول ، ثم أمر له الشاعر بذخيرة ابنه ، أي أنه أثره عليه . فالأخطل يفضل الأضياف على الأبناء . ولعلَّ البيت الأخير منها يعيد لنا أجواء الفخر في شعر ابن كلثوم . إذ يقول إنهم ينحرون النِّيَاقَ ، إذا لم تدرَ للضيف ، فيطعموه لحمها بدلاً من لبنها :

إِذَا لَمْ تَدْرِ أَلْبَانُهَا عَنْ لُحُومِهَا حَلَبْنَا لَهُمْ مِنْهَا بِأَسْيَافِنَا دَمًا

* * *

ونقع على ما يُماثل ذلك في الأبيات التالية ؛ إلا أن فخره بالإبل التي تُنَحَر غلب على وصفه للضيف . فهو يستهلّ بالحديث عن الإبل التي يجسها قومه في مرابطها لمن يطرأ في الليل من الضيفان . ويعظم شأنها . ويقول إنَّها لسمنها ترزح في مريضها ، حتى لتعجز عن النهوض . وإذا ما عمَّ الصَّقيع ، لا تجزع له لكثرة شحمها ، كما أنها أبقار غير مُلقحات ، تُبدل للموتورين كدية لقتلاهم ، ويصفها في مرعاها الحِصْب حيث يُطيف بها الفحل المُتبختر . ويذكر ورودها للماء وأكلها لشوك القتاد . وينهي القصيدة مُنوهاً بانتصارات التغلبين على قيس عيلان وسليم وعامر مِمَّا طَيَّب نفسه وأبرأها من سقمها :

ومحبوسة في الحيِّ ضامنة القسرى إذا اللَّيْلُ وافاها ، بأشعث ساغب ١

١ - محبوسة : هي إبل تُحبس في مريضها ، وتُنحَر لمن يطرأ من الضيوف . أشعث : أي مضنى ، مُتفرق الشعر . ساغب : جانع .

م : يتحدث عن الإبل التي يجسها قومه في مريضها لمن يطرأ في الليل من الضيفان المتهوكي القوى ، الجياع .

مُعَفَّرَةٌ ، لا تُنَكِّرُ السَّيْفَ وَسَطَهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَعَسٌ لِحَالِبٍ ١
 مَرَازِيحُ فِي الْمَاوِي ، إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا تُطِيفُ أَوَابِيهَا بِأَكْلَفِ ثَالِبٍ ٢
 إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا الرِّيحُ ، لَمْ تَنْفَتِلْ لَهَا وَإِنْ أَصْبَحَتْ شُهْبُ الذَّرَى وَالغَوَارِبِ ٣
 إِذَا مَا الدَّمُ الْمُهْرَاقُ أَضْلَعَ حَمْلُهُ وَنَابَ رَهْنًا بِأَعْلَى النَّوَابِ ٤

١ - المَعَسُ : المَطْلَبُ .

م : يَقُولُ إِنَّهُ إِذَا لَمْ يُلَفَّ فِيهَا لَبَنٌ يُسْتَقَى لِلضَّيْفِ تَضْرِبُ أَوْسَاطَهَا بِالسَّيْفِ وَتَنْحَرُ لَهُ .

٢ - المَرَازِيحُ : جَمْعُ رَاذِحَةٍ : الثَّقِيلَةُ فِي مَبْرَكِهَا . الأَوَابِي : البِكرُ الَّتِي أَبَتْ أَنْ تُتَلَقَّحَ .
 الأَكْلَفُ : هُنَا الفَحْلُ . الثَّالِبُ : المُسِينُ .

م : يَعْظَمُ فِي هَذَا الْبَيْتِ مِنْ شَأْنِ تِلْكَ الإِبِلِ المُعْدَةِ لِلضُّيُوفِ وَيَقُولُ إِنَّهَا لَسِمْنُهَا تَرْزَحُ فِي مَرِيضِهَا . حَتَّى لَتَعَجَّزَ عَنِ النَّهْوِضِ . وَإِنَّهُ إِذْ يَغْشَاهُ الصَّقِيعُ لَا تَجْزَعُ لَهُ وَلَا يَلْمُ بِهَا ، لِكثْرَةِ شَحْمِهَا . كَمَا أَنَّهَا بَكَرٌ . لِأَنَّهَا أَثْمَنُ وَنَ أَصْحَابُهَا هُمْ أَحْرَصُ عَلَيْهَا مِنْ سِوَاهَا .

٣ - لَمْ تَنْفَتِلْ : أَي لَمْ تُبَالِ بِهَا . الغَوَارِبُ : أَطْرَافُ الأَسْمَنِ . شُهْبُ : أَي وَهْيُ شَهْبٍ .

م : يَقُولُ إِنَّهُ إِذَا مَا اعْتَرَبَهَا الرِّيحُ البَارِدَةُ ، لَمْ تَحْفَلْ بِهَا لِأَنَّ مَا يَغْشَاهَا مِنَ السَّمَنِ يَرُدُّ عَنْهَا غَائِلَةَ الصَّقِيعِ . حَتَّى لَوْ تَسَاقَطَ التَّلْجُ عَلَيْهَا فَبَدَّتْ أَعْلَى أَسْنَمَتِهَا وَأَطْرَافِهَا بِيضَاءً مِنْ تَرَاكِهِ عَلَيْهَا . وَفِي هَذَا المَعْنَى يَفِيدُ الشَّاعِرُ الغُلُوَّ مِنْ خَيْرَتِهِ وَتِجَارَتِهِ بِدِقَاقِقِ الوَاقِعِ وَتَنْبَهَهُ إِلَى مَعَانِيهَا وَدَلَالَاتِهَا . وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ دَابَّ الجَاهِلِيَّينَ مِنْ قَبْلِ .

٤ - أَضْلَعَ : هُنَا تَعَدَّرَ . نَابَ : انْحَدَرَ بِالنَّائِبَاتِ وَالْمَصَائِبِ .

م : يَقُولُ إِنَّهُمْ إِذَا مَا تَعَدَّرَ عَلَيْهِمْ حَمَلُ دَمٍ قَتِيلٍ ، وَبَاتَ يَهْدِ دَهْمَ البَالِوِيلِ وَالنَّائِبَاتِ . بِذَلُوا لِأَصْحَابِ دَمِهِ مِنْ تِلْكَ الإِبِلِ ، فَاقْبَلُوا بِهَا لِنَفَاسَتِهَا وَكِرْمِهَا . وَالشَّاعِرُ لَا يَبْرَحُ يُولِّبُ لِتِلْكَ الإِبِلِ مَعَانِيَ التَّنْظِيمِ ، لِيَتَعَاطَمَ وَيَعْظَمَ بِنِي قَوْمِهِ بِنَحْرِهِمْ لَهَا لِلطَّارِئِينَ .

- إذا ما بدا بالغيب منها عصابة^١ أوين له مشي النساء اللواغب^١
 يظفن بزيات^٢ ، كأن هديره إذا جاوَزَ الحيزوم^٢ ، ترجيع قاصب^٢
 تردُّ على الظمِّ الطويل نطافها^٣ إذا شوتِ الجوزاء ورُق الجنادب^٣
 كأن لهاها في بلاعيم جنّة^٤ وأشداقها السفلى مغارُ الثعالب^٤
 إذا لم يكن إلاّ القتاد تجزعت^٥ مناجلها أصل القتاد المكالب^٥

٦ - الغيب : ما انخفض من الأرض ، أي المرعى . أوين له : أي للفحل . اللواغب : جمع لاغبة : الكارثة ، المصيبة .

م : يشرع في هذا البيت بوصفها في مرعاها ، ويقول : فيما تكون جماعة منها في مرعاها غابّة عن حدود البصر ، فإن الفحل يرعاها وتنضم إليه وتلتف حوله كالنساء المتعبات .

٧ - الزيات : الذي يتبختر في مشيه . القاصب : هو النافع في القصب .

م : يقول لمن يظفن بفحل يعدو فيهن متبخراً متعاضماً في سيره ويرفع صوته مزهواً كالقاصب الذي ينفخ بالقصب للترنم بصوته .

٨ - نطافها : ما بقي في جوفها من الماء القليل . الجوزاء : كوكب يطلع في أشد الحر . ورُق الجنادب : الرمادية اللون . الظم : ما بين الوردين .

م : يصف في هذا البيت شربها للماء ، ويقول إنها ترد ، فيما بين ورود وآخر ، ما بقي من ماء في جوفها ، إذ تصطلي الهاجرة وتكاد أن تحرق الجنادب وتحيل لونها الرمادي إلى سواد .

٩ - لهاها : جمع لهاة وهي لحمة في سقف البلعوم . جنّة : طائفة من الجن .

م : يقول إنها تغفر أفواها فتبدو لهاها وكأنها في بلاعيم الجن لعظمتها ، كما أن شدقها يبدو عميقاً غائراً كمغارة الثعالب .

١٠ - القتاد : الشوك . تجزعت : تكسرت . مناجلها : أنيابها . المكالب : الكثير الشوك .

م : يقول إنها تقطع بأنيابها شوك القتاد الصلب ، الحاد ، وتقتلعه من جذوره .

تَحَطَّمُهُ تَحْتَ الْجَلِيدِ فَوْسُهُا إِذَا قَنَّعَ الْمُشْتَى أَكْفَ الْحَوَاطِبِ ١
كَأَنَّ عَلَيْهَا الْقَصْطَلَانِيَّ مُخْمَلًا إِذَا مَا اتَّقَتْ شَفَانَهُ بِالْمَنَاكِبِ ٢

فهذه الإبل هي « مَحْبُوسَةٌ فِي الْحَيِّ » أي أنها مَوْقُوفَةٌ لِمَنْ يَطْرَأُ لِلضِّيْفَانِ ،
إذ أن أصحابها لا يزالون يُعَدُّونَ الْعِدَّةَ لِهَذَا الْأَمْرِ وَيَتَحَسَّبُونَ لَهُ ، فَهِيَ تَضْمَنُ
لِهَا الْقَرَى ، تَنْخَرُ لِكُلِّ غَرِيبٍ ، حَتَّى وَلَوْ وَافَى لَيْلًا ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنَ اللَّبَنِ مَا
يَفِي بِهَذَا الْفَرَضِ . وَالْمَعْنَى مَكْرُورٌ عَنِ الْأَبْيَاتِ السَّابِقَةِ ، وَمُتَمَهِّدٌ لِمَا يَلِيهِ مِنْ مَعَانٍ
يُعْظَمُ فِيهَا تِلْكَ الْإِبِلِ بِقَوْلِهِ :

مَرَازِيحٌ فِي الْمَأْوَى ، إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا تَطْيِفُ أَوَابِيهَا بِأَكْلَفِ نَسَابِ

وذكر المأوى في هذا المقام لم يرد في الصدفة والاتفاق ، بل للتدليل على أنها
لا تزجى إلى المرعى لتغتذي بما يتيسر لها ، بل تودع في مأوى ويحمل إليها
علفها ، تعزى لها بحسن الغذاء . فهي ابل مترافة منعمة لا تتكبد مشقة السير
ولا شظف المرعى ، فتسمن وترق لحومها وتطيب لأكلها ، وهذا ما الملح إليه
بكلمة « مراريح » أي أنها ترزح تحت وطأة لحمها وشحمها . وإلى الآن أدنى
لنا الشاعر ثلاثة خصائص رئيسية لتلك الإبل ، وهي موضوع فخره بها :
احتباسها في الحي . وقيامها في المأوى وليس في العراء ، ونقل لحمها عليها ، ومن

١ - الفؤوس : الأضراس . فتع : غطى .

م : يستكمل معنى البيت السابق ويقول إنه إذا ما غشي الجليد القنادر وعجزت أيدي الحاطبات
عن ارتياده ، فإن تلك التياق تحطمه بأضراسها وتطحنه وتقوته .

٢ - القمصطلاني : ثوب منسوب إلى بلد في الإندلس . الشقان : الريح الباردة .

م : يقول إنها لا تجزع من البرد الذي يعترضها بريجه ، وهي تحطم الجليد لأن أوبارها كثيفة
كأنها أبواب من المخمل القمصطلاني .

هذه الخصائص الثلاث نستطلع خاصّة رابعة ، وهي أنها تُعَلَّفُ ولا تُرعى . ووجه
 الفخر في ذلك كلّهُ أنهم يُودُّون للضعيف أفضل ما عندهم ، يتعهّدونه بأنفسهم ،
 مُتَفَرِّغِينَ لذلك كي لا تُضاهى ضيافتهم . ولعلّ للفظه « مرابيح » مضموناً
 آخر ، إذا قُرِنتْ بهبوب الصبا ، أي أنّها لا تحنل بالريح ، مهما قست بالصقيع .
 فلا تحنل ، ولا تململ لأن لحمها الكثيف يدفئها عن الصقيع . وفضلاً عن ذلك
 فهي من أبكار الابل التي ما زالت تأبى واقعة الفحل لها . وذلك أسلم وأصحّ
 لها لان الحمل والوضع يُضعفانها ويُفسدان من طراوة لحمها . والأبكار هي أغلى
 الابل . أي أنها جمعت غاية ما يجتمع في الابل من ترف وإصالة . ويكرّر
 المعنى ذاته ويغالي فيه إذ يقول :

إذا استقبلتها الريح لم تنفعل لها وإن أصبحت شهب الذرى والغوارب

والغلو تأدّى من افتراض تساقط الثلوج عليهما ، وهو افتراض نظري ،
 إذ لو تساقط الثلج عليهما ، فعلاً ، لانتقض المعنى وسفح ذاته بذاته . فكيف
 ترك في العراء ، حتى يكسوها الثلج ، وقد كان يفخر ، منذ حين أنّها تحبس
 في مأواها وتعلّف ، ويضنّ بها عن المرعى . ففي ذكره للمأوى ألمّ بواقع
 فعليّ أو يمكن أن يكون فعلياً ، أما في التوسّل بالثلج على أسمتها وأطرافها ، فقد
 توسّل مشهداً افتراضياً ، تمثلياً وحسب ، وإذا لم نتخذ هذا المأخذ أزرى بالابل
 فيما هو يُودّى لتعزيزها . ومهما يكن ، فإنّه يُوفي إلى ذروة ذلك المعنى بقوله :

إذا ما الدم المهرق أذلح حمله وناب رهنّاها بأعلى النوائب

فهي لنفاسها تُودّى بها الديبات وتبأ الثارات ، فيقبلها الموتورون عن دماء
 القتلى . أي أنّهم يفتدّون بها الأرواح ، فتفدى ؛ هكذا يحشد الشاعر لها كلّ
 تأويل ويفيد من كل تقليد حتى يخلص إلى تمثيلها وكأنّها أفضل الابل اطلاقاً .
 والفخر بين في ذلك كلّهُ لأنّها ليست ابل تجارة ، بل ضيافة .

إلا أن الصورة تتعدّل ، إثرئذ ، إذ يعرض لها في مرعاها ، كأنّما يناقض ما تقدّم به . قبلاً ، إذ ذكر احتباسها في الحيّ وفي مأواها . وقد يُخيّل أنه إنساق إلى قليل أو كثير من الاستطراد ، إذ نوّه بالتفافها حول الفحل الذي بصوت كالقاصب ، والتصويت هنا يُعزّز الفُحولةَ ، بل إنّه ليصدّر عنها ، فكيف نوفق بين هذا القول وزعمه . سابقاً ، أنّها من الأوابي الأبرار ؟ وأيّة صلة لذلك كلّهُ بالفخر ؟ نرجّح في ذلك ان الشّاعر انهار لطفيليات الواقع وانساق به لاستكمال دراسته وعرضه ، منزعباً من المضمون الأصيل . وقد نُوقِنُ من ذلك إذ يُشيرُ إلى الظّمء الطّويل الذي يقسرها على أن تجتريء بنطافها أي باستعادة بقيّة الماء في جوفها . فهل ان الأبل التي تُسمّن وتُرزح دُون ثقلها وتُحسب للضيفان تساق إلى الغيب أي إلى الأمكنة النّائية التي لا تُرى . وترك لفعلها . حتى يلفحها الحرّ الشّديد « الذي تشوي به الجوزاء ورُقّ الجنادب » ؟ نقول في مثل ذلك أن نزع الوصف للوصف طغت ، هنا ، فيما كان الشّاعر يصدّر ، قبلاً ، عن نزع الوصف للفخر ، مُفكّكاً الوحدة العضويّة ، خارجاً على مضمونه ، بل مُنتقضاً عليه .

ولعلّه عاد إلى جادة الموضوع منذ قوله :

كَأَنَّ لَهَا فِي بِلَاعِيمِ جُنْبِ وَأَشْدَاقِهَا السُّفْلَى مَغَارَ الثَّعَالِبِ

وهذا البيت يلج بها في الأجواء الملحميّة الحارقة إذ أنّها لعظم هاماتها وقاماتها تبدو بلاعيمها كبلاعيم الجانّ وأشداقها كالمغاور . ويعود بنا إلى استكمال معاني الأبيات الأولى الحاشدة ، حيث تولّاهما بالانفعال والفخر اللّذين ترجما عن ذاتيهما بالصورة المثاليّة ، المُطلّقة . وليست لهاها ، وحيدة . هي القائمة في مثل بلاعيم الجانّ ، بل أن لها أضراساً شبيهة بتلك البلاعيم واللّهي إذ تراه تقنع بها القتاد من جذوره ، حتى ولو كساه الجليد ونفرت الحاطبات عنه . وهذا المشهد هو معزول عن مشاهد الأبيات الأولى ، خصّه بالدلالة على قوتها وعظم هاماتها . وقد كان

القتاد أشدّ رمز للقسوة والحدّة بشوكه حتى قيل « ودونَ ذلك خرط القتاد » والتهام تلك الأبل له يجعل أشداقها كالرّحى الهائلة . الا أنّ ذكره ، مع ذلك ، يتنبؤ وينشز ، إذ كيف تكون تلك الأبل منعمة ، تُعلّفُ للسّمْن ، ثم تراها تأكل القتاد المكسوّ بالثلج والصّقيع . ! ذاك أن الأخطل يتخذ المعنى بذاته ، هنا ، ومستقلّاً عمّا دونه ، فتضطهد المعاني بعضها بعضاً ، ويُسفّهُ أحدها الآخر . وأيا ما كانت الحال فإنّ له فطنةً في تلمّس المشهد النّائي بما لا قبل لسواه به .

الفصل الرابع الوصف

- ١- الباب الأول : وصف الحمرة .
- ٢- الباب الثاني : الطلل والأحبة .
- ٣- الباب الثالث : الناقة والحمار الوحشي .
- ٤- الباب الرابع : الناقة والثور الوحشي والصيداؤون .
- ٥- الباب الخامس : سائر موضوعات وصفه .

الباب الأوّل

وصف الحمرة

إثر الدعوة الاسلامية خرج العرب من الجزيرة وافتتحوا البلاد التي كانت تجاورهم وقوّضوا امبراطوريتي الفرس والروم وأفادوا منهما ، بالاضافة إلى العادات والتقاليد ، كثيراً من الأموال التي جعلتهم يقضون حياة ناعمة ، مُترَفَةً ، ويسرفون في اللهو والمجون ، ويُقبلون على الشرب والغناء بالرغم من النواهي الدينية . ولا مجال للاطالة بوصف معالم الحضارة الجديدة ، لان ذلك يقتضي فصولاً طويلة ، متعددة ، وانما نلمح إلى أن حياة الامويين اختلفت غاية الاختلاف عن حياة الجاهليين ، اذ كَثُرَ العمران وفاضت الأموال ، فأسرفوا في اقتناء الخدم والجواري والقيان متفرغين إلى العبث واللهو والقصف . ولقد كان حريّاً أن تولّد البيئة الجديدة أدباً جديداً . إلا أن الأمويين لبثوا غالباً يقتفون آثار الجاهليين ، حتى اننا نكاد لا نشعر باختلاف البيئة والنفسية والادب بين العصرين . ومن اهم أسباب التَّبَعِيَّة والتقليد في الادب الاموي ، إذ أنّ ذوي السلطة طفقوا يذكون الخلافات القبلية القديمة بين المسلمين ، ونشطت الحركة السياسية في الادب ، واخذ الادباء يَنصُوبُونَ ، كلُّ إلى حزب من الأحزاب ، يدعو دعوته ويهجو أعداءه ، مستندراً بذلك الاموال الطائلة والجاه الكبير . ولقد قامت الأهاجي بين جرير والأخطل والفرزدق يناقض أحدهم الآخر ، مُعتمدين على معرفة متوغّلة بتاريخ القبائل ، وماضي الايام والحروب بينها . وذلك جميعاً ، جعل الشاعر الاموي يعيش في بيئة ، يمكن أن ندعوها البيئة الذهنية ، إذا جاز التعبير ، وهي بيئة كان الشاعر يَتَمَثَّلُها في خاطره ويحفظها في ذاكرته ، دون أن يحياها في واقعه . وغدا الشعر

بذلك سجلاً للتنافس والمباراة ، وامعاناً في تأثير الأقدمين ، حتى أوشكت أن تنعدم التجربة الذاتية ، والواقع الخاص . فالطلل الذي كان عنواناً للأدب الجاهلي لبث يُسْتَهْلَ به في مطلع القصيدة الاموية ، وكذلك سائر المواضع التي كان يلتمُّ بها الشاعر الجاهلي ، لبث تتردد وتكرر في سائر القصائد الاموية . أما الاسلوب فلم يكذب يتغيّر ، بل ظلت تسيطر عليه نزعة الاستطراد والمادية والتناسخ . ولم تقم تجارب شعرية جديدة إلا في فلذات من القصائد ، خاصة قصائد الغزل الماجن وبعض الأوصاف الوجدانية التي خلعتها ذو الرّمة على الاوصاف الجاهلية القديمة .

وهكذا ، يتحقق لنا أن الشعر الأموي ظلّ امتداداً للشعر الجاهلي وتكراراً له ، وان البيئة الجديدة بالرغم من اختلافها عن البيئة القديمة ، لم تظهر معالمها واضحة في ذلك الشعر . ولعل الحياة السياسية كانت أكثر تأثيراً من سواها ، إلا أنها لم تؤثر في طبيعة الاسلوب الأدبي أي في روح القصيدة التي لبثت تتكرر وتردد بالمعاني والصور ، وربما بالألفاظ الجاهلية .

الخمرة في الشعر الأموي : حرّم الاسلام الخمرة دون أن يتحرّم منها المسلمون ، ولبث ذوو السلطة منهم ، بالاضافة إلى سائر الناس يعاقرونها سرّاً وعلانية . ولقد كان يزيد بن معاوية أول من جاهر بشربها ، اذ جهر بمنادمته لبعض الشعراء والمغنين والقيان عليها . ولطالما شربها مع صديقه وشاعره الأخطل . ولعل الاخطل كان اهم رائد لشعر الخمرة في العصر الاموي ، لكثرة ما أدمنها في حياته ، ولشدة تردده بذكرها في شعره .

الخمرة في شعر الأخطل : بالرغم من ان الاخطل ادمن الخمرة ، فانه لم يعرض لها بقصيدة مستقلة . الا في فلذات نادرة . وأهم شعره فيها ورد من خلال قصائده المدحية ، يستطرد إليها . غالباً ، اذ يشرع بوصف عذابه وضياعه ، عندما يفارقه الأحبة . فيتشبهه بالسكران الذي افتقد وعيه . وفيما يلي نموذج لذلك النوع من الشعر الحمري الذي يذكرنا بالقصيدة الجاهلية في انتقاله من موضوع إلى آخر ، متوسلاً ببعض الاسباب الواهية العارضة . فهو يبتدىء القصيدة التي يمدح بها خالد ابن عبد الله بن أسيد بذكر الفراق ، ثم ينتقل إلى وصف الخمرة إذ يقول :

كَأَنِّي غَاةٌ أَنْصَعُنُ لِلْبَيْنِ ، مُسَلِّمٌ بِضَرْبَةِ عُنُقٍ ، أَوْ غَوِيٌّ مَعْدَلٌ
صَرِيحٌ مُدَامٍ يَرْفَعُ الشَّرْبُ رَأْسَهُ لِيَحْيَا وَقَدْ مَاتَتْ عِظَامٌ وَمَفْصِلٌ
وَمَنْ ثَمَّ يَتَجَاوَزُ إِلَى وَصْفِ السُّكْرَانِ ، ذَاكَرًا انْخِلَالَهُ وَتَلَاشِيَهُ بَيْنَ صَاحِبِهِ الَّذِينَ
يَعَاقِرُ الْخَمْرَةَ مَعَهُمْ ، وَيُنْتَهِي إِلَى وَصْفِ القُرْبِ السُّودَاءِ الشَّبِيهَةِ بِالزُّنُوجِ ، كَمَا أَذْه
يَتَحَدَّثُ عَنِ شِعَاعِ الْخَمْرَةِ وَدَيْبِيهَا وَالشَّوَاءِ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَوْصَافٍ تَقْلِيدِيَّةٍ .

الخمرة ومجلسها :

كَأَنِّي ، غَدَاةٌ أَنْصَعُنُ لِلْبَيْنِ ، مُسَلِّمٌ بِضَرْبَةِ عُنُقٍ ، أَوْ غَوِيٌّ مَعْدَلٌ ١
صَرِيحٌ مُدَامٍ ، يَرْفَعُ الشَّرْبُ رَأْسَهُ لِيَحْيَا ، وَقَدْ مَاتَتْ عِظَامٌ وَمَفْصِلٌ ٢
نُهَادِيهِ أحياناً ، وحيناً نجره ، وما كاد ، الا بالحُشاشة ، يعقلُ ، ٣
إِذَا رَفَعُوا عِظْمًا ، تَحَامَلُ صَدْرُهُ ؛ وَآخِرُ ، مِمَّا نَالَ مِنْهَا ، مُخَبِّلٌ
شَرِبْتُ ؛ وَلاَقَانِي ، لِحَلِّ أَلْيَتِي ، قِطَارٌ تَرَوِي مِنْ فِلَسْطِينِ مُثَقَّلٌ ، ٤
عَلَيْهِ مِنَ المِعْزَى مُسَوِّكٌ رَوِيَّةٌ مُمَلَّاةٌ ، يُعَلَى بِهَا وَتُعَدَّلُ . ٥
فَقُلْتُ : اصْبَحُونِي ؛ لا ابا لابيكم ! وما وضعوا الأثقالَ إلا لِيَفْعَلُوا .

١ - مسلم : مستكين لفرأقهن . بضربة عنق : أي كمن ضربت عنقه . الغوي : من يلام على فعله .

٢ - الشرب ج الشارب : المفصل : مكان انفصال بعض الاعضاء من بعض . وفي رواية : مفصل : (بكسر الميم) : اللسان .

٣ - نهاديه : نرفعه قليلاً . فيعتمد . من ضعفه . على هذا وعلى هذا ، ويميل بينهما . الحشاشة . بقية الرمق .

٤ - الآلية : اليمين . القطار : عدد من الابل متتابعة على نسق واحد .

٥ - مسوك : ج مسوك : الجلد . ويعني به الزق . روية : ضخام .

١ أنَاخُوا ، فَجَرُوا شَاصِيَاتٍ كَانَتْهَا رِجَالٌ مِنَ السُّودَانِ لَمْ يَتَسَرَّبُوا ،
 ٢ وَجَاؤُوا بِيَسَانِيَّةً ، هِيَ بَعْدَ مَا يُعَلُّ بِهَا السَّاقِي ، الذُّ وَأَسْهَلُ ،
 فَصَبُّوا عُقَاراً فِي إِنَاءٍ كَانَتْهَا ، إِذَا لَمَحُوهَا ، جُنُودَةٌ تَنَاقَلُ .
 ٣ تَمَرٌ بِهَا الْإَيْدِي سَنِحاً وَبَارِحاً ، وَتَوْضِعُ بِاللَّهِمِّ حَيٌّ ، وَتُحْمَلُ ؛
 وَتَوْقِفُ ، أَحْيَاناً ، فِيفْصِلُ بَيْنَنَا غِنَاءٌ مَغْنٌ ، أَوْ شِوَاءٌ مُرْعَبَلٌ ؛
 فَلذَّتْ لِمُرْتَحٍ ، وَطَابَتْ لِشَارِبٍ ، وَرَاجِعِي مِنْهَا مِرَاحٌ وَأَخَيْلٌ ؛
 فَمَا لَبَّثْنَا نَشْوََةً ، لَحَقَتْ بِنَا تَوَابِعَهَا ، مِمَّا نَعَلَّ وَتُنْهَلُ ؛
 تَدَبَّ دَبِيباً فِي الْعِظَامِ ، كَانَهُ دَبِيبُ نِمَالٍ فِي نِقَاً يَتَهَيَّلُ ؛
 فَقُلْتُ : اقْتُلُوهَا عَنْكُمْ بِمَزَاجِهَا ، فَأَطِيبُ بِهَا مَقْتُولَةً حِينَ تُقْتَلُ ؛
 رَبَّتْ ، وَرَبَا فِي حَجْرِهَا ابْنُ مَدِينَةٍ يَظَلُّ عَلَى مِسْحَاتِهِ يَتَرَكُّلُ ؛

- ١ - شاصيات : شصا برجليه : رفعها ، اراد الزقاق المرتفعات القوام من امتلائها .
 ٢ - يسانية : نسبة إلى بيسان بناحية الاردن . يعل : من العلل : الشرب الثاني .
 ٣ - السنيح : الذي يأتي من جهة اليمين . البارح : الذي يأتي من اليسار . وتوضع . . . : يسمى عليها بذكر الله في رفعها ووضعها .
 ٤ - مرعبل اللحم : قطعه لتصل اليه النار فتتضججه ، فهو مرعبل أي مشرح .
 ٥ - المراح : من المرح : النشاط . الاخيل : من الخيلاء : الكبر .
 ٦ - النهل الشرب الاول .
 ٧ - النقا : ما ارتفع من الرمل . يتهيل : يتحدر .
 ٨ - قتل الحمرة : مزجها بالماء ، فازال ذلك حدتها .
 ٩ - ربت : الضمير للخمرة اراد بها المكreme . ربا في حجرها : نشأ في كنفها . ابن مدينة : خادم ، والمدينة : الامة : ويقال : ابن مدينتها وابن بجدتها : أي عالم بها . المسحاة الآلة التي تسحى بها الارض أي تسوى . يتركل : يدفع برجليه .

إذا خاف من نجم عليها ظمَاءٌ ، أدبٌ إليها جدولاً يَتَسَلَّلُ ١ .

المشهد الاول في تلك الايات ، هو مشهد السكران الذي تساقطت أعضاؤه وطفق صحبه يُهادونه . وهو لا يُستنفد في بيت واحد بل يمتد إلى ثلاث أبيات ، تشكّل شبه وحدة خاصة . وقد اعتمد فيها الشاعر على الانتقال من الواقع العادي الشائع معللاً ، مبالغاً ، حتى خلع عليه هالة توحى بالجدّة أو توهم بها . فهو لا يقول إن الشارب سكران بل يخطف إلى ذلك بصورة قاطبة ، فيمثله برجل صريع لا يتمالك نفسه . وهو يُنعم ، أيضاً ، بذلك ، حتى يغدو الخدر موتاً («وقدمت عظام ومفصل» ان التعبير عن النشوة بالموت يجاري أسلوب المبالغة الذي اسرف فيه الجاهليّون ، كما أسلفنا ، إلا أنه يختلف عنهم في أنه يعبرّ تعبيراً مباشراً عن حالة في نفس الأخطل . فالموت هو استغراق في الشعور بلذّة الحمرة ، أو بالأحرى ، انه انحلال في ذلك الشعور . وقد حرص الشاعر على أن يضعنا في قلب الواقع ، فلم يكتف بأن يذكر موت الشارب واحتضاره بين يدي صحبه ، بل مثل ذلك تمثيلاً في مشهد واقعي متحرّك ، منقول عن الملاحظة الحقيقية الشاخصة . فهو يذكر الصحب الذين يُهادونه بين أيديهم ، وينحدر إلى تفصيل المشهد والتدقيق فيه ، فيتحدث عن اعضائه ، كالصدر والعظام ؛ وهذه الملاحظات هي ضرورية لأنها تُضفي على المشهد روح الواقعية والصدق . فالأخطل اتخذ هذا المعنى مما كان شائعاً في الشعر القديم من تأثير نشوة الخمر ، ومما أفاده من تجربته الخاصة عندما كان يُتعتعهُ السكر ، إلا أنه لم يشير إلى ذلك إشارة عابرة ذهنية ، بل ترسّمه بوضوح عبر مشهد واقعي حيّ . وهذه الميزة هي من أهم مميزات الأخطل بالنسبة لمن سبقه من شعراء . لقد اتخذ المعاني التي كانوا ألما بها وعبر عنها من خلال تجربته الخاصة ، أو فصلها وأسرف في ذكر دقائقها فكأن تجديده فيها ، كان من خلال التفصيل والتجزئ والتدقيق أكثر مما كان من خلال الابتكار والتنبه إلى الرعشات النفسية الهاربة المعقدة . وهو في ذلك يمثل نموذجاً

١ - إذا خاف . . . : عليها العطش من نجوم الصيف . الجدول : النهر الصغير .

لسافر الشعراء الامويين ، وربما الشعراء العباسيين أيضاً . لقد عجز هؤلاء عن ارتياد
ظلمة الشعور ، فالتفتوا إلى المعاني والصور التي سلفت ، فأخذوا يُبدعون لها التآويل
الجديدة ويدققون في التفاصيل واللمح ، معتقدين أنهم جددوا بذلك وجاروا
القدماء أو تقدموا عليهم .

ومهما يكن من أمر ، فإن الاخطل يتوكأ على المعاني السالفة ، مُستعيراً الصور
الشائعة المقررة . فهذا هو يصف القرب بقوله :

أَنَاخُوا فَجَرُّوا شَاصِيَاتٍ كَأَنَّهَا رِجَالٌ مِنَ السُّودَانِ لَمْ يَتَسَرَّبَلُوا

وهذا التشبيه ألم به شاعر آخر اذ قال :

تَضَمَّنْهَا زَقٌّ أَعْبُ كَأَنَّه صَرِيحٌ مِنَ السُّودَانِ ذُو شَعْرِ جَعْدِي

فالبيتان متقاربان أو بالأحرى منسوخ أحدهما عن الآخر . ان وصف الاخطل
للسكران كان معروفاً ، لكنه بالغ فيه وخلع عليه من ذاته ، فبدا جديداً كثير
الارتعاش والحركة . أما وصفه للقرب فقد كان دنيئاً ، لا خيال أو تجربة فيه ، اذ
اكتفى بتقرير الشبه ، كأنَّ حَدَقَّتْهُ حَدَقَةٌ مَجْهَرٌ تَعَكَّسَ الْأَشْيَاءَ بِحَقِيقَةٍ وَأَقْعَمَهَا
دُونَ أَنْ تُنْقِصَ بِهَا أَوْ تَزِيدَ عَلَيْهَا ، أي دون أن تحوّلها إلى واقع فني .

الا ان فضيلة الاخطل تظهر بأجلى صورها في تلك القدرة العجيبة على توزيع
الحروف وتنويعها ، وتقدير مواضعها بأسلوب قائم حي يشتد تأثيره بقدر ما يشتد
اختفاؤه . فالأخطل يوفقُ خلال شعره الحمري إلى توحيد النغم الخارجي في الالفاظ
والحروف مع النغم الداخلي الذي تتصوع منه الحالة في ذهولها . ونحن نشعر بهذا الشجو
دون أن نقوى على تعيينه وتمثيله . ولعله ينبعث من الباء في « صريع » والالف في
« مدام » وما إلى ذلك من حروف موقعة بصورة مهموسة ، غامضة ، تغمر النفس
بالايقاع الأليف الذي يؤثر غاية التأثير في بث التجربة . فالأخطل لم يكن يرتجل
الشعر بل يتنخّله ، لأن ما نشهد فيه من غنائية وثيدة يخالف الغنائية الصحابة التي

تطالعنا في سائر قصائد الشعر العربي . وهو من هذا القبيل يدنو من النابغة بتلك القدرة المعجبية على توحيد النغم مع الحالة التي تفيض بها النفس أو تعانيتها . الا انه في بعض الاحيان . كان يُخطيء التوقيع . فيختل النغم ويحبو دون شجْوٍ أو ذهول . فها هو يقول « نهاده أحياناً وحيناً نجره » . فالجيم التي تسبقها النون وتلحق بها الراء المكررة في اللفظة « نجره » تنشر عن النغم المتآلف الذي فاضت به القصيدة . ومهما يكن ، فإن هذه اللفظة هي لفظه نثرية ، تدل على أن جناحي الشاعر كانا يبيضان في أحيان كثيرة .

إلا أن الاخطل ، في ذلك جميعاً ، يُحسن الانتقال والايجاز في وصفه ، مبتعداً عن التفاصيل التي تحوله إلى أقصوصة نثرية . فهو يخطر بالاشياء أو يُومض اليها ، خاصة في قوله بعد أن ذكر الابل :

فَقُلْتُ اصْبَحُونِي لَا أَبَا لِأَبْيَكُمُ وَمَا وَضَعُوا الْأَثْقَالَ إِلَّا لِيَنْفَعَلُوا

فكَلِمَتَا « ما وإلا » اختصرتا مراحل كثيرة من السرد النثري وأبقنا على الوحدة الموضوعية . وقد بلغ ذروة هذه الميزة الشعرية بقوله « أناخوا » ، فهذه اللفظة تحل عقدة القصة التي يرويها .

شعاع الحمرة : أما وصفه لشعاع الحمرة فهو مطروق ، متداول ، ألمّ به الأعشى وعمرو بن كلثوم ، فضلاً عن سائر الجاهليين . قال الاخطل :

فَصَبَّوْا عُقَاراً فِي إِنَاءٍ كَأَنَّهَا إِذَا لَمَحُوهَا جَذْوَةٌ تَتَأَكَّلُ

وقال عمرو بن كلثوم :

أَلَا هَبِّي بِصَخْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا
مُسْتَعْتَةً كَانَ الْحُصَّ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا

وقال أيضاً الأعشى :

كَأَنَّ شِعَاعَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِيهَا إِذَا مَا فَضَّ عَنْ فِيهَا الْخَتَامَا

فذاك يشبهها بالشعاع والآخر بالشمس ، أما الاخطل فيشبهها بالجدوة . والآية في هذا المعنى أن الأخطل لم يكتفِ بأن يقارن بين شعاع الحمرة أو الشمس أو شعاعها ، بل تعدى ذلك وفقاً لسنة المبالغة ، وجعل شعاع الحمرة يتحول إلى نار ، بل إلى جدوة تتأكل . ولعل تأكل الجدوة ارتقى بالمبالغة إلى ذروتها . وهكذا نتحقق ، مرة أخرى ، أن فضيلة الأخطل في شعره ، كانت فضيلة مبالغة وارتفاع على هام الشعراء السابقين . فنحن نكاد لا نعثر على معنى في شعره ، حتى يذكرنا بمعنى ألمنا به قبل . ها كه يقول :

تَمْرٌ بِهَا الْأَيْدِي سَنِيحاً وَبَارِحاً وَتُوضَعُ بِاللَّهِمِّ حَيٍّ وَتُخْمَلُ

وهذا المعنى سلف قبلاً في شعر الأعشى إذ قال :

وَقَابِلَهَا الرِّيحَ فِي دِنِّهَا وَصَلَى عَلَى دِنِّهَا وَارْتَسَمَ

لا شك في أن هذه المعاني تعتمد الأسلوب غير المباشر للدلالة على شدة هيام الشاعر بالحمرة ، فهو لا يمن شربها ولا يحبها وحسب ، بل يُقدِّسها . إلا أن التجلُّة لم تكن في نفسه بقدر ما كانت في طبيعة التقليد واقتناء معاني الآخرين ، وترسُّم أسلوبهم . والأخطل لم يخرج عن عمود التقليد ، حتى في حديثه عن الشواء ومجلس الحمرة . وقصائد أمرىء القيس تحفل بوصف مثل هذا المشهد ، كما ان طرفة ألمٌ بذكر مجلس اللُّهُو في معلقته ، بالاضافة إلى الأعشى الذي أفاض في وصفه .

وعلى الجملة ، فان المعاني التي تشخصُ في هذه القصيدة جميعاً ، وهي معاني مُقرَّرة ، مبتدلة في تقليد أدب الحمرة . فالخيلاء التي يتحدث عنها بقوله :

« وَرَاجَعَتِي مِنْهَا مَرَاحٌ وَأُخَيْلٌ » . ان تلك الخيلاء كان قد أنهكها التداول في

شعر الحمرة . قال حسان بن ثابت :

ونشربها ففتركتنا ملوكاً وأسداً ما يُنهنهننا اللقاء

وقال المنخّل الشكري :

فإذا شربتُ فإنني ربُّ الخورنق والسديرُ

وكذلك في الامرُ في وصفه لديب الحمرة . قال الأعشى :

تَدِبُّ لها فترة في العظام وَيَغشى الذُّؤابةَ افتارها

وقال الأخطل :

تَدِبُّ ديبباً في العظام كأنه ديببُ نمالٍ في نقيِّ يتَهَيَّأ

فالأخطل لم يأت بجديد سوى أنه نقله من العصب الداخلي إلى حدقة العين ، إذ جعل الحدَر يجري في أعصابه ، كما يجري النمل على الرمل . والصورة لا تختلف عن الصور الجاهلية المادية المُسرفة خاصة في تمثيل الشعور الداخلي بمشهد حسي .

وبعد فما قيمة شعر الاخطل ، خلال هذه القصيدة ، وقد تحققنا ان معانيه ، جميعاً ، منقولة مستفادة من المعاني التقليدية مع قليل من التجزيء والتفصيل ؟. الواقع أن الاخطل ليس شاعراً مُبتكراً في الحمرة ، إذ عرض لوصفها ، كما عرض للطلال والثور أو البقرة الوحشية بالاضافة إلى مشاهد الصيد ، كما نفذت اليه من الجاهلين . ولئن كانت معاني الحمرة مقيّدة مقرّرة فيها ، كالشعاع والديب والقرب وما أشبه ، فقد كان ثمة وجه آخر للتجديد ، ينبعث من النفس ، ومن المضاعفات الوجدانية التي تتعمّد فيها وتوري بها حساً جديداً لزاء الأشياء القديمة . النفس هي مصدر التجديد وليست المعاني التي يتصاعد أحدها على الآخر ، حتى تُوفي بها المبالغة في النهاية إلى الاسطورة . ان الحب كالحمرة عرف منذ الازل ، الا ان الشعراء ما برحوا يَجِدُّون بمعانيه وصوره ، مستمدّين ذلك مما يتعمّد في نفوسهم من واقع خاص يخلع على المظاهر العادية اللامبالية ، واقعاً جديداً ، حياً . ان الشاعر الذي ترفده

التجربة من الداخل ، يتولى المعاني القديمة الهَرَمَة ، ويُضفي عليها الظلال الشعورية التي تنبعث من نفسه ، حتى يتحول المعنى القديم إلى معنى آخر ، ينبض بعصب جديد. لقد تولى الاخطل الحمرة ، خلال هذه القصيدة من الخارج ، نظر إلى شكائها وإلى المظهر الذي يبدو فيه من يشربها ، فلبث شعره الحمري شعرا وصبياً ، يجمع معادلة الاشياء كما تظهر للعين ، مع قليل أو كثير من المبالغة ، دون أن نلمح خلال تلك التجارب وجه الانسان الحي ، وحسّه العفوي ، وما يرتعش في نفسه من حالات وجدانية خاصة به ، لكنها ، في الآن ذاته ، رمز لما يعتمل في نفوس الآخرين وضمايرهم .

والقصيدة التي ألمنا بالحديث عنها ، تتّصف في روح اسلوبها بما اتصف به الجاهليون من تفكك والتفتت إلى الأجزاء بصورة مستقلة دون توليد أو صيرورة من معنى إلى آخر . فهو يجمع فلذات من المعاني وليس يلم بقضية من القضايا . وذلك ما نتحقّقه في الأدب الجاهلي ، اذ كان الشاعر يقدر المعنى بما له من جمال خاص أو بما يشتمل عليه من مبالغة خاصة ، غير ملتفت إلى ما سبقه ، أو ما يليه .

افادة الاخطل من واقع الحضارة الجديدة - الميتة الجاهلية : عرضنا فيما سبق إلى فلذات من المعاني القديمة المسرفة ، وفيما يلي نلم بأبيات أخرى تتمازج فيها المعاني القديمة والمعاني الجديدة المستفادة من واقع الدين الجديد أو الحضارة الجديدة . فهو يقول :

شربنا ، فمتنا ميتةً جاهليّةً ، مضى أهلها لم يعرفوا ما مُحَمَّدٌ ،
ثلاثة أيامٍ ، فلما تنبّهت حُشاشاتُ أنفاسِ أبتنا تردّدُ ،^٢

١ - ميتة جاهلية : هي ميتة السكر في زمن لم تكن الحمرة محرمة فيه .
٢ - الحشاشة : بقية الرمق .

حيينا حياةً لم تكن من قيامةٍ علينا ، ولا حشرٍ ، أتانا موعداً ؛
 حياةً مراضٍ حولهم ، بعدما صحوا من الناس شتى عاذلون وعوداً
 وقلنا لِساقينا : عليك ، فعد بنا إلى مثلها بالأمس ، فالعود أحمد !
 فجاء بها ، كأنما في إنسانه بها الكوكب المريخ تصفو وتزبد ؛
 تفوح بماءٍ يشبه الطيبَ طيبه ، إذا ما تعاطت كأسها من يدٍ يدُ ،
 تُميت ، وتحيي بعد موتٍ وموتها لذيد ، ومحياها ألدُّ وأحمدُ !

لقد مات الشاعر على دين الجاهلية عندما سكر ، ولبتت ميته ثلاثة أيام ، استعاد بعدها الحياة ، لا حياة حشر بل حياة بين الناس من عاذلين ومن عائدتين . بعد ذلك نراه يطلب من ساقيه أن يأتيه بالخمرة ، ليعود به إلى حالة الامس ، فأناه الساقى بكأس مشع طيب . أما في النهاية ، فإنه يذكر أن الخمرة لذيدة أحييت أم أمات .

تحليل القصيدة : تتردد في هذه القصيدة معان متعددة ، منها الجاهلي كالشعاع والطيب ومنها الجديد المستفاد من واقع الدين الجديد كالخشر والقيامة وما أشبه . ويحسن بنا أن نلتفت قبل كل شيء إلى الوحدة التي تجمع بين الايات في القصيدة -جميعاً . إن الأخطل يستهل قصيدته بذكر الميتة الجاهلية وينتهي إلى البعث ، ثم يذكر ميته الجديدة . إلا أن هذه الوحدة ليست وحدة شعرية فنية مباشرة بل وحدة قصصية إذا جاز التعبير . والقصة في الخمرة عرفت في الجاهلية كسائر المعاني وخاصة في شعر

١ - أتانا : عناه الأخطل إلى مفعولين ، وفي رواية : أتى به . أو أتى فيه .

٢ - المريخ شبهها بالمريخ ، لأن نوره يضرب إلى الخمرة .

٣ - واحمد : في روايه : وأجد .

الأعشى وامرء القيس . الا ان القصة التي ألمَّ بها الأخطل تختلف عنها ، لأنها تجري على تحريم الخمر الذي جاء به النبي محمد ، وعلى النشر حيث يعاقب المذنبون ويكافأ الصالحون . وهذه الناحية تظهر التجديد في خمرة الاخطل ، إذ أنه أدخل إلى معادلة شعره معاني جديدة لم يكن للجاهلي قبيلُ بها . ولعله في ذلك سبق أبا نواس الذي سيسرف في الهزء من الدين في العصر العباسي . فالأخطل في عتوه وعربدته لم يكن يرى حرجاً في السخرية من الذين يتعتون بشرب الخمرة . الخمرة تميم وتبعث ، لكنها تؤدي إلى نعيم السكر وليس إلى جحيم البؤس ، كما يدعي المتدينون . وهذه الجرأة تطلعنا على دالة الاخطل ومدى استمالاته للأُمويين ، حتى أنه وهو النصراني لا يتورع من الهزء بالدين الاسلامي . ولا مجال كما أنه لا جدوى من الإطالة بذكر النوادر في ذلك ، لأننا نعي بتطور الخمرة من الناحية الداخلية ، لهذا نعود إلى التمعن بالمعاني والافكار الأخرى التي تطالعنا خلال القصيدة ، ولا نعم أن نبصر وجه التقليد يطال علينا بعد تلك الفلذة بقوله :

فجاءَ بها كأنما في إنائه بها الكوكبُ المريحُ تصفو وتزبدُ
تفوحُ بماءٍ يشبه الطيبَ طيبه إذا ما تعاطتْ كأسها من يدِ يدُ

فالأخطل يعود إلى التحدث عن شعاع الخمرة الذي ألمنا به في النموذج السابق . فبعد أن كان ثمة جذوة تتأكل نراه الآن كالكوكب المريح . والمعنى شائع ، الا أنه بدا على شيء من الجدة خلال هذه القصيدة ، لان الشاعر يظهر وكأنه فاض به فيضاً من نفسه . على ان نزع التقليد والنقل ما برحت ظاهرة خلاله . فالكوكب المريح ليس سوى قرن الشمس الذي تحدث عنه الأعشى . ذلك أن تقليد الشعر العربي كان يقوم على فضيلة التباري بوصف الاشياء واطهار الصور القصية المسرفة لما تشهده العين أو تلتقطه سائر الحواس .

ولعلنا نشهد في البيت الثاني حيث يذكر طيبها ملمحاً من ملامح الصنعة البديعة التي ستظهر في العصر العباسي . فهو يقول « تفوح بماء يشبه الطيبَ طيبه » عابثاً

بلفظتي الطيب ومزاجاً المعاني أحدها مع الآخر . وذلك جميعاً يمثل فلذة عابرة من صناعة الأخطل وسائر الشعراء الامويين ، بينما سيصبح بالنسبة للشعراء العباسيين اسلوباً دائماً متكرراً .

ومهما يكن ، فان ميزة الاخطل خلال هذه القصيدة تتمثل ببعض المعاني الجديدة التي أشرنا اليها ، وفي تخصيص الحمرة بقصيدة مستقلة بها من دون سائر المواضيع ، مما لم نكن نشهده في الجاهلية .

القصص الحمري في شعر الأخطل : ذكرنا سابقاً ان الشعراء الجاهليين تناولوا القصص الحمري ذاكرين فيه مغامراتهم ومجونهم . وقد دخل ذلك القصص في تقليد أدب الحمرة خاصة في ذكر المجلس والندامى والشرب ومن اليهم . ولقد ألمنا بشيء من هذا القصص في النموذجين السابقين ، اذ تحدث الاخطل عن الفتيان الذين أناخوا الابل وانزلوا عنها القرب ، وعن الحمرة المشعة ، كما أنه تحدث عن الشواء الذي أكلوه . وكذلك الامر في القصيدة التي تحدث فيها عن الميتة الجاهلية ، والساقى الذي قدم لهم الحمرة المشعة . اما الآن فاننا نقبل على نموذج آخر تظهر فيه التزعة القصصية أكثر جلاء ، فهو يقول :

- ١ - وشاربٍ ، مُرْبِحٍ ، بالكأسِ نادمني لا بالحَصورِ ، ولا فيها بسوَّارٍ ،
- ٢ - نازَعْتُهُ طَيْبَ الرَّاحِ الشَّمولِ ، وقد صاح الدجاج ، وحانت وقعة الساري .
- ٣ - من خمرِ عانة ، ينصاعُ الفرات لها بجدولٍ صخبِ الآذي ، مَرَّارٍ ؛

١ - المربح الذي ينحر لصيفانه الريح : الفصلان . أو الذي يربح التجار أي باعة الخمر .
الحصور : البخيل . السوار : المربرد .

٢ - وقعة الساري : من وقعت الإبل : بركت . والساري : المسافر ليلا .

٣ - عانة : مدينة على الفرات مشهورة بجودة خمرها . الصخب : الذي يسمع له صوت من تلاطم أمواجه . مرار : كثير المرور أي سريع الجري .

كُتِّمَتْ ثَلَاثَةٌ أَحْوَالٍ بِطِينَتِهَا حَتَّى ، إِذَا صرَّحَتْ مِنْ بَعْدِ تَهْدَارٍ ١
 آلتَ إِلَى النِّصْفِ مِنْ كَلْفَاءٍ ، أَتْرَعَهَا عَلِجٌ ، وَلَثَمَهَا بِالْجَفْنِ وَالْغَارِ ٢
 لَيْسَتْ بِسُودَاءَ مِنْ مَيْثَاءَ مَظْلَمَةٌ وَلَمْ تُعَذَّبْ بِإِدْنَاءِ مَنْ النَّارِ ٣
 لَهَا رِدَائَانُ : نَسِجُ الْعَنْكَبُوتِ ، وَقَدْ حُفَّتْ بِآخِرِ مَنْ لَيْفٍ وَمَنْ قَارِ ٤
 صَهْبَاءُ ، قَدْ كَلِفَتْ مِنْ طَوْلِ مَا حُبِسَتْ فِي مُخْدَعِ بَيْنِ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارِ ٥
 عِذْرَاءُ ، لَمْ يَجْتَلِ الْخُطَّابُ بِهَجَّتِهَا ، حَتَّى اجْتَلَاهَا عِبَادِيُّ بَدِينَارِ ٦
 فِي بَيْتِ مُنْخَرِقِ السَّرْبَالِ ، مُعْتَمِلٌ ، مَا إِنْ عَلَيْهِ ثِيَابٌ غَيْرَ أَطْمَارِ ٧
 إِذَا أَقُولُ تَرَاضِينَا عَلَى ثَمَنِ ، ضَنْتَ بِهَا نَفْسُ خَبِّ الْبَيْعِ مَكَّارِ ٨

١ - كم الشيء : طينه وسده . صرحت الخمر . : ذهب زبدها . تهدار : مصدر هدر الشراب : غلا .

٢ - كلفاء : صفة الخالية ، إذا خالط حمرتها شيء من السواد . الجفن : الكرم . الغار : شجر السوس .

٣ - الميثاء : الأرض السهلة .

٤ - حفت : وفي رواية : لفت .

٥ - كلفت : تغير لونها إلى الأغبزار ، وفي رواية : عنست . المخدع : البيت الصغير يكون داخل البيت الكبير .

٦ - العبادي : منسوب إلى عباد : قبائل شتى من نصارى العرب بالحيرة ؛ كان بعضهم يتاجر بالخمور .

٧ - منخرق السربال : ممزق الثياب . معتمل : مهمم ، مضطرب في عمله .

٨ - خب : خداع .

كأنما العليج ، اذ أوجبتُ صَفَقَتَهَا ، خَلِيعُ خَصْلٍ ، نَكِيبٌ بَيْنَ اقْمَارِ ١ .
لما أتوها بِمِصْبَاحٍ وَمِيزَلِهِمْ ، سارت اليهم سُؤورَ الابْجَلِ الضَّارِي ٢
تَدْمَى ، إِذَا طَعَنُوا فِيهَا بِجَائِفَةٍ فوق الزُّجَاجِ ، عَتِيقٌ ، غَيْرُ مَسْطَارِ ٣ .
كَأَنَّمَا الْمَسْكُ نُهَيْسِي بَيْنَ أَرْحُلِنَا ، مما تَضَوَّعَ من نَاجودِهَا الجَاري ٤ .

لقد نادى الشاعر شارباً ليس ببخيل كما انه ليس بمعربد . ولبثا يعاقران الحمرة حتى أطلَّ الصبح وأنِيختَ الجمال التي كانت تسري في الليل . اما الحمرة التي يشربونها فهي من عانة ، حُبِسَتْ ثلاثة اعوام ، ولما فُضَّتْ جعلت تزبد وتهدر ، ثم راقق وصرحت وهي لم تعذب بإدنائها من النار ، عذراء لم يمسه أحد . اما صاحبها فممنخرق الثياب ذو أطمار ، يكاد لا يوافق على بيعها لشدة تعلقه بها . وعندما بزلوها خرجت من الدن ، كما يخرج الدم من الجرح . اما في النهاية فيتحدث عن الطيب الذي تنتهبه أيديهم .

يبدو من ملخص هذه الأبيات انها مزج بين الوصف الثقلي والقصص وان كانت النزعة القصصية اغلب عليها . وليس في شعر الأخطل أبيات أخرى أدل على النزعة

١ - صفقتها : بيعها . الخليج : المقمور ، أي المغلوب في الغمام . الخصل : الخطر أي ما يتقامر عليه ، النكيب : المنكوب : من أصابته نكبة . اقمار : ج قمر : مقامر .

٢ - الميزل : المثقب : أي الحديدية يفتح بها الدن ، سارت : وثبت وثار : الابجل : عرق يكون في الدواب ، وهو في الانسان الاكحل : عرق في الذراع يفصد . الضاري : العرق الذي بدا منه الدم ، لا يكاد يقطع . - اراد أن الحمرة خرجت خروج الدم من الأجل .

٣ - الجائفة : الطعنة تبلغ الجوف ، العتيق : الخالص ، المسطار : الحمرة الحديثة ، واللفظة رومية الاصل .

٤ - النهي : اسم للنهب والمنهوب . تضوع : فاح ، الناجود : كل اناه يكون فيه الشراب ؛ واول ما يخرج من الخمر اذا بزل عنها الدن .

القصصية لتمثل بها دون هذه . وذلك يوضح لنا ان الشعر الحمريّ في العصر الاموي لم يكن قد تجزأ واستقلت انواعه لنعثر على القصيدة القصصية مستقلة عن القصيدة الوصفية ، كما سئرى في العصر العباسي . فنحن نكاد لا نلمح فلذة من القصص حتى يتبعها الشاعر بفلذة أخرى من الوصف ، بالرغم من أن النزعة الوصفية تغلب بعض الاحيان .

ومهما يكن ، فان هذه الابيات تشتمل على روح القصيدة القصصية التي ستطالعنا بوضوح في شعر أبي نواس . فهو يتحدث عن صياح الدجاج ، مظهراً بذلك شدة ادمانه تعاطيها . كما انه يذكر بائع الحمرة واصفاً ثيابه وتعلقه بخمرته ، وهذه الأمور هي من أهم الخصائص التي سوف تترسّمها قصيدة القصص الحمري . الا أن الأخطل لم يكد يأتي بجديد في ذلك ، لأن الأعشى كان قد ألم بمثل هذه الفلذات المجزوءة من القصص . ولا مجال للاطالة بتحليلها لانها لا تتميز بميزة خاصة عما سبق ان شهدناه في النموذجين السابقين .

وللأخطل ، فضلا عن ذلك ، نهج خاص في الاداء يحشد له الصور الحسية العميقة الدلالة المتنامية ، بعضاً على بعض ، حتى يوفي إلى غاية المعنى :

وَأَبْيَضَ لَا نَكْسٍ وَلَا وَهِنِ الْقَوَى ، سَقَيْنَا ، إِذَا أَوْلَى الْعَصَافِيرِ صَرَّتِ ١
حَبَسْتُ عَلَيْهِ الْكَأْسَ ، غَيْرَ بَطِينَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، حَتَّى هَرَّهَا وَأَهَرَّتْ ٢

١ - صرت : صوت . نكس : جبان .

٢ - يفخر بنديمه ، وينعته بالبياض اي بالسيادة ويقول انه شجاع شديد العزم . وقد سقاه الحمرة ، غب انبلاج الصبح ، فيما كانت أولى العصافير تصوت . ومباكرة شرب الحمرة هي وسيلة للتدليل على شدة الشغف بها .

٢ - هرّها وأهرت : اي حتى كرهها وكرهته . وأصلها في الكلب اذ ينبع الطارئ الغريب .

٣ - يقول إنه كان يعاجل الكأس تلو الأخرى ، حتى عافها وعافته ، لكثرة ما انسكب في جوفه منها .

فَقَامَ يَجْرُ الْبُرْدَ ، لَوْ أَنَّ نَفْسَهُ بِكَفَيْهِ مِنْ رَدِّ الْحُمِيَّ ، لَخَرَّتِ ١
وَأَذْبَرَ لَوْ قِيلَ: اتَّقِ السَّيْفَ، لَمْ تَحُلْ ذُوَابَتُهُ مِنْ خَشِيَةِ إِقْشَعَرَّتِ ٢

ففي البيتين الاولين يمتدح صاحبه على الشراب على ما أثر عليه في شعر سواه . ثم يعظم من أمر ادمانه لياها حتى يقول انه ظل يسقيه اللبيل كله حتى مطلع الفخر . وغاية هذا المعنى ان يظهر عظم شغف الشاعر وصحبه بالحمرة ، يُقْبَلُونَ عَلَيْهَا فِي النَّهَارِ وَاللَّيْلِ وَلَا يَعَافُونَهَا حَتَّى يَصَابُوا بِالتَّخَبُّلِ وَالغَنِيَانِ . اما في البيتين الأخيرين فانه يتدع مؤدَى آخر للمُضَاعَفَةِ مِنْ وَقَعِ الْمَعْنَى ، اذ يُخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ بَلَغَ مِنَ الْإِعْيَاءِ وَالتَّهَالُكِ مَا قَدْ يَجْعَلُهُ يُسْقَطُ رُوحَهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ قَادِرًا عَلَى الْإِحْتِفَازِ حَتَّى بِحَيَاتِهِ . ولقد أوفى إلى أقصى غاية السُّكْرِ وَالتَّهَوُّلِ ، حَتَّى أَنَّهُ لَوْ شَهِرَ عَلَيْهِ سَيْفٌ وَهَمَّ بِهِ فِي جَبِينِهِ لَمَّا حَفَلَ بِذَلِكَ وَلَمَّا ارْتَعَدَ لَهُ .

فاذا كانت غاية الشعر أن يجسّد الواقع في حدوده المثالية النائية ، فان الأخطل ألم في ذلك بذروة الفن القائم على الشّخوص أمام الظاهر والمتداول والمأثور والنزوع به إلى أقصى حدود المغالاة . لقد جسّد السورة الحسيّة لما يعتلج به الحمرة في جوف صاحبها ، إلا ان الحمرة لبثت في جوفه واحشائه ولم تطفر منها إلى ضميره ووجدانه بحيث تراءى بها الاشياء كأطياف ورؤى في حدود الدهول والروح . لقد غالي

١ - رد الحميا : اي من فعل الحمرة .

م - يصف في هذا البيت تحاذل مشيته بتأثير الحمرة ، ويقول انه كان يجر رداءه من دونه ، وهو يمشي متهاكاً ، حتى انه لو كان يقبض نفسه بيديه ، لسقطت منهما . ومؤدَى المعنى انه قد بلغ من العياء غايته حتى ان نفسه وهي أعظم شيء يحرص عليه ، تقع من دونه ولا يقوى على الاحتفاظ بها .

٢ - اقشعرت : اي ارتعدت . الذوابة .: الشعر المتدلي في مقدمة الرأس .

م - وفي هذا البيت يصف تحبُّله وافتقاده لرشده ، ويقول إنه اذا قيل له ، وهو يسير ، اتق السيف الذي يودي بك ، فانه لا يحفل ولا يرتعد .

بالسكر ، لكنه لم يوفق في استبطان معناه وفي النظر إلى ما دونه من خلاله . والاختل
لا يبرح يتعرض لنشوة الحمرة وتأثيرها فيمن يحتسيها ، وان كان لا يغفل عن سائر
المعاني الحمرية المتداولة . يقول في الأبيات التالية :

وَلَيْلَتِنَا عِنْدَ الْعُوَيْرِ بِقِطْقِطٍ وَثَانِيَةَ أُخْرَى بِمَوْلَى ابْنِ أَقْعَسَا ١
نَزَلْنَا بِلَا غَسٍّ وَلَا عَاتِمِ الْقُرَى وَلَا هَدَنْتُهُ الْخَمْرُ عَنَّا فَيَنْعَسَا ٢
فَجَاءَ بِهَا بَعْدَ الْكُرَى فَارِسِيَّةٌ دِمَشْقِيَّةٌ أَحْيَتْ عِظَامَا وَأَنْفُسَا ٣
كَأَنِّي كَرَرْتُ الْكَاسَ ، سَاعَةَ كَرَّهَا عَلَى نَاشِصٍ ، شَمَّتْ حِوَارًا مُلْبَسَا ٤
فَأَصْبَحَ مِنْهَا الْوَائِلِي ، كَأَنَّهُ سَقِيمٌ ، تَمَشَّى دَاوَاهُ حِينَ أُسْلَسَا ٥

- ١ - العوير : من قرى الشام . قطقط : موضع بالشام . ابن اقعس : رجل من بني قشير
من تغلب .
م - يقول انه قضى ليلة في ذلك الموضع وليلة اخرى في عند مولى ذلك الرجل الذي يمتدح كرمه
في البيت التالي .
- ٢ - غس : الضعيف . العاتم . البطيء . هدنته : اثقلت حركته .
م - يقول انهم نزلوا على امرىء نشيط يهرع إلى القرى ويشرب الحمرة ، دون أن تأخذ
بمفاصله ، فيتباطأ ويغالبه الناس .
- ٣ - يقول إنه جلب لهم الحمرة الفارسية الدمشقية التي احيت نفوسهم وبعثت النشاط في
صدورهم بعد أن احتسوها .
- ٤ - الناشص : الناقة الجافلة . حوار : ولد الناقة . ملبس : اي ان جلده محشو بالتبين ،
ويسمى كذلك البعر والوبر .
م - يقول إنه إذا احتسى الحمرة ارتعش وانتفض لحدتها ، كما تنتفض الناقة التي تشم البو
الذي توهمه ابنها ، فاذا اقبلت عليه واشتمته جفيلت عنه .
- ٥ - الوائلي : نسبة إلى وائل بن قاسط - أسلس : شرب الشراب السلس ، أي العذب الذي
ذهبت حدته .
م - يقول ان الوائلي يرى من دائه حين شرب من تلك الحمرة .

فالشاعر يعين موضع اللّهُو اللّذي عاقر فيه الحمرة ، على غرار الجاهليين الذين دأبوا على هذا الشأن . وفضيلة هذا التعيين هي فضيلة دقّة وواقعيّة من جهة ، وفضيلة إحصاء من جهة ثانية لشهرة هذه الامكنة باللّهُو اللّذي جعل يبعث في ذهن القارىء أو السامع صُوراً ذاهلة متعدّدة ضوأها الحنين والشوق . ولعلّ القارىء المعاصر لا يتفكّر لمثل هذه الأبعاد لاقطاع صلته بهذه الاماكن المتّصلة اتصالاً حميماً بواقع الشاعر من دونه وإمعانها في الجزئية . ولو أنها كانت أمكنة اثرية حافلة بالتاريخ لها يقين الواقع وروح الاسطورة المتنامية الينا عبر الزمن ، لظلت اعمق إحصاء وابعد بثاً .

أما وصفه لمضيفهم وامتداحه بالكرم والمرع للضيف وملازمة الصحو من دون السكر ، فهو من مآثور الشعر الحمري حيث يستكمل الشاعر الصورة المثالية لكل ما يمت بصلة للخمرة ومجلسها .

كما انه ينسب الحمرة إلى مصادرها ، كما نرى في شعر الأعشى والأقيشر ، فاذا هي شامية فارسية ، اي أنها خمرة عريقة مؤصّلة ، تجاوزت حقباً من الزمن . وقد وردت هذه النسبة تقريرية دائية لا تحمل ذهولا او شجوا كأنه تناولها تناولا قريباً ، سريعاً . ولا يعدو ذكره لاحتياؤها العظام والأنفس هذا الشأن لاستقطابه فيه المعاني التقريرية الطافية الدالة على شغف الشاعر بها شغفاً عظيماً وانتشائه بها نشوة عارمة . الا انه لا يعم أن يفصح عن تجربته بها ومعاناته لها نوع من الذاتية إذ يشبه الرعدة التي تثيرها في نفس محتسبها برعدة الناقة التي تدنو إلى البوّ متوهمة انه ابنها ، فاذا هو كتلة من التبن والبعر . ويكرر تصويره لتأثيرها بالقول انها أبرأت شاربها من دائه .

وفي البيتين الاخيرين يتزع الشاعر إلى الابتكار بالتمثيل والافتراض والغلو دون ان يدعنا نشعر بأنه افصح فيها عما لم تفتن له أو عما لم يتداول بها . فالأخطل لم يكد يطلع تجربة خمريّة فدّة ، بالرغم من تواقعه الشديد معها ، بل انه اقام على المعاني القديمة يؤديها في تأويل وتشابهه تدنو من الجدة . نجد ذلك في مثل قوله :

عَزَّ الشَّرَابُ ، فَأَقْبَلَتْ مَشْرُوبَةً ١ هَدَرَ الدَّنَانُ بِهَا هَدِيرَ الْأَفْحَلِ
 وَتَغَيَّظَتْ أَيَّامَهَا فِي شَارِفٍ ، نُقِلَتْ قَرَائِنُهُ ، وَلَمَّا يُنْقَلُ ٢
 وَتَرَى الْقِلَالَ بِجَانِبِيهِ ، كَأَنَّمَا قُلُوصُ يَسْفَنَ فُرُوجِ قِرْمٍ مُرْسَلٍ ٣
 وَكَأَنَّ أَصْوَاتَ الْغُوَاةِ تَعُودُهُ أَصْوَاتُ نُوحٍ ، أَوْ جَلَّاجِلُ عَوَّكَلٍ ٤
 حَتَّى تَصَبِّبَ مَاؤُهُ عَن جِلْفِيهِ ضَحْخُمُ الْمُقَدَّمِ ، سَحْبِلِي الْأَسْفَلِ ٥

- ١ - يقول انه بعد ان عز عليه الشراب ، احتسى من خمرة تهر في دنانها ، كما تهر الفحول
 وذكره لصوتها وتشبيهه له بالهدير هو تمثيل لحدتها وفورانها .
- ٢ - تغيظت : اشتد غلبانها . الشارف : الخاية القديمة . قرائنه : اي الخواصي التي كانت معه .
 يشير في هذا البيت إلى قدمها ، ويقول إنها جعلت تغلي وتهدر في خابية عتيقة نقلت الدنان
 التي كانت معها ، وخلقت وحيدة ، لتزداد عتقاً ويزداد خمرها طيباً .
- ٣ - القلال : ج القلة ، وعاء للخمر . قلوص : ج قلووص . وهنا صغار الإبل . يسفن :
 يشمن ، قرم : فحل .
- ٤ - يعظم من حجم الدن ، ويقول إن القلال القائمة حوله شبيهة بصغار الإبل التي تشم اذيال
 الفحل العظيم .
- ٤ - النوح : النساء يجتمعن للنواح في المآتم . جلاجل : حدة الصوت وقوته . عو كل : امرأة
 حمقاء ، كثيرة المشاكسة .
- ٥ - يمثل صوت الغواة اي الماجنين من الشرب بأصوات النائحات أو صوت المرأة الحمقاء
 الكثيرة الصياح .
- ٥ - الجلف : هنا الدن الفارغ . سحلي : واسع ضخم .
- ٥ - يشير هنا إلى الخمرة التي تصببت منه ، ويصفه ويقول انه ضخم المقدمة واسع الاسفل .

ففي البيت الأول نراه يعظّم من أمر الحمرة في حدّتها . فيقرن صوتها بصوت هدير الفحول . والصورة جاهلية الأجواء ، لأنه أذكى فيها حياة وأنى إليها نوعاً من الحركة الجنسية من نسبة صوتها إلى هدير الفحول . وهو في ذلك أدنى إلى نفسه وتجربته ، إذ أن للحمرة علاقة بغريزة الجنس . وهو يستكمل ، كذلك ، المعنى في البيت الثاني حيث جعلها تقيم من دون سائر الدنان ، تتغيّظ ويشد غليانها ، حتى تصفو وتخلص من شوائبها . ثم يعمد إلى المقارنة والتمثيل المستفاد من واقع البيئة الجاهلية إذ يشبه القلال القائمة حول الدن بصغار الإبل القائمة حول الفحل . والشاعر يستكمل في ذلك اكتشافه لعلاقات شبيهة بالعلاقات الانسانية التي تربط الحمرة بما إليها . ومثل ذلك مقارنته لاصوات السكارى الذين يهرعون إليه بصوت النائمات المعولات . والاحطل لا يزال يعظم من سعة الدن وضخامته وعظمه ، كما فينا ذلك في شعر الاعشى بقوله :

ذَاتُ غُورٍ لَا تُبَالِي يَوْمَهَا _____ غَرَفَ الْإِبْرِيقُ مِنْهَا وَأَلْقَدَحُ
وَإِذَا مَكُوكُهُ _____ صَارَمَهُ جَانِبَاهُ كَرًّا فِيهَا فَسَبَّحُ

وذلك يسوقنا إلى الاعتقاد بان الأخطل ظلّ ينظر إلى الحمرة نظرة مروّعة مندهشة كالجاهلي يؤخذ بحجم الاشياء . وهو لم يقرنها بما إليها من قلال بالفحل العظيم الا ليمثل ضخامتها وهولها ، فكأنه بالرغم من اقامته في الحاضرة ، زمناً ، لم يتطبع بطباعها .

قيمة خمريات الأخطل

أولاً - وجه التجديد .

١ - التدقيق بالمعاني القديمة والمبالغة فيها .

رأينا مما تقدم أن المعاني التي رددّها الأخطل كانت متداولة في الشعر الجاهلي ، وقد مثلنا على ذلك بأمثلة عديدة . إلاّ أن فضيلته في ذلك أنه لم يستعدّها استعادة تقريرية لا مبالية ، وإنما حاول أن يجدّدّها ، حيناً بإضافة بعض التفاصيل ، وحيناً آخر بالمبالغة والاسراف في الغلو . فهو لا يقول ان الشارب ثميلٌ ، بل يتخطى ذلك فيقول إنه ميت . « ماتت عظام ومفصل » « شربنا فميتة جاهلية » . وهذا يدلنا على انه يعتمد النزوع بالحالة النفسية إلى الطرف الأقصى ، أو إلى المستحيل ، وربما إلى الخرافة . أو لم يجعل شعاع الحمرة جذوة ؟ أو لم يجعل الجذوة تناكل بعضاً ببعض ؟ ذاك كان أسلوب الأخطل في الحمرة ، يحاول ان يجدّد المعنى القديم بالمبالغة فيه .

وثمة وجه آخر للتجديد في شعره ، ظهر في التفاصيل والملاحظات الواقعية التي كان يرسمها ممعناً في الدقة ليجلو المعنى ويجعله أكثر تأثيراً . فهو اذ يذكر السكران لم يكتف بالتلميح إلى ذلك ، بل صوره بدقّة ، وصور الشرب الذين يهادونه وأعضاءه المتخيلة الميتة . وكذلك في وصفه للسكررة التي كتنى عنها بالموت ، وعمد إلى التدقيق والتفصيل اللذين يبعثان التطور والسببية في المعنى ، اذ انتقل من الميتة إلى الحشر ، مقابلاً بين بعث الحمرة والبعث الديني .

إلاّ أن هذه التفاصيل لا يمكن ان توهمنا بالتجديد ، لأنها قاطبة عابرة لم يعاودها

او يتخصص بها . ولعلنا لو وقعنا على قصيدة الأخطل بصورة مغفلة ، لتعذر علينا ان نميز اذا كانت جاهلية ام اموية ، يعيش صاحبها في قلب بيئة تختلف غاية الاختلاف عن البيئة الجاهلية . فالأخطل في ذلك لم يصور الحمرة التي شربها ، أو الحمرة التي خبر معاناتها والرياض التي عاش في قلبها ، وإنما استعاض عنها بحمرة تقليدية شبيهة بالتي شربها الأعشى وسائر الجاهليين . فهو لم يعبر عن نفسه ، بل جرى في ذلك القدماء . ولقد تعفَى أثر الزمن والتطور في شعره وتضاءلت تجربته الخاصة حتى اننا نكاد لا نلمح خاصة من خصائصه ، الا في بعض تلك الفلذات التي كان يقولها تحت وطأة الانفعال الشديد ، عندما تعصف الحمرة في رأسه وترهوه ، كما قال للخليفة عبد الملك :

إذا ما نديمي عليّني ثم عليّ ثلاث زجاجاتٍ لهنّ هَديرُ
خرجتُ أجر الذئيل تيهاً كأنني عليك ، أمير المؤمنين ، أميرُ

هذان البيتان يمثلان نموذجاً نادراً للتعبير المباشر عن تجربته الحميرية ، اما سائر الابيات فتكاد تخفي نفسه وواقعه وتظهره لنا مقلداً ، لا شكل ولا ميزة له . ولعل اليسر في التقليد ظهر خلال ابياته الحميرية ، جميعاً . فهو لا يلم بها ، حتى يذكر ما ينبغي ان يقال ، يتلوه بسهولة وتقرير دون أي مبادرة ذاتية او حس شخصي .

٢ - بعض معاني الدين الجديد :

ذكرنا ان الأخطل لم يكذب يتأثر بواقع الحضارة الجديدة ، فهو لم يذكر الرياض والبساتين التي عايشها ، فظلت بيئته كاليئة الجاهلية . الا انه ، بالرغم من ذلك ، خطّر بعدد قليل من الأبيات التي تظهره لنا متأثراً ببعض التأثير بما خبره في واقعه الجديد . وقد أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن قصيدته التي ذكر بها الميئة الجاهلية بصورة غير مباشرة ، لا مجال لذكرها من جديد ، وإنما نكتفي بأن نذكر انها قليلة الجدوى في اظهار التجديد خلال شعره ، لأنها لم تتكرر ولم تتعدّ أبياتاً قليلة .

٣ - صناعة شعرية خاصة تعتمد على الشجو الداخلي :

وإذا تأملنا الأبيات التي تصدى فيها الأخطل لوصف الحمرة، تبين لنا أنها تشتمل على ظلال إيحائية تغمرها بكثير من الشجو والايقاع ، وتبعث فيها كثيراً من التأثير بالرغم من كونها تقليدية . ذلك ان الأخطل كان ذا دربة في توقيع الحروف والألفاظ وذا قدرة عجيبة في مؤالفة النغم مع روح التجربة . وقد بدا ذلك خاصة في لامبته ، كما أسلفنا .

٤ - وجوه اخرى :

وثمة وجوه أخرى للتجديد في شعر الأخطل ، إذ نراه يعرض لبعض التعبيرات التي نأى بها عن العبارة الجاهلية العفوية ، وجعل يمازج بين المعاني ، كما يمازج بين الألفاظ . فهو يقول « تفوح بما يشبه الطيب طيبه » . وهذا القول لم نشهده في اسلوب الحمرة الجاهلية ، وذلك يدل على ان الأخطل حاول ان يجدد في شعر الحمرة ولم يتيسر له ذلك ، فجعل يمازج المعاني ويعقدها ليوهم بالتجديد .

ثانياً - وجه التقليد :

ان وجه التقليد غالب على شعر الأخطل . وقد تحققتنا ذلك في التفاته إلى الحمرة من الخارج ، وفي نقله للمعاني الدائنية ، المتداولة ، وفي تفكك الابيات واستقلال بعضها عن بعضها الآخر . وهكذا ، فان الحمرة ، كما بدت في شعر الأخطل ظلت غالباً خمرة تقليدية ، ترد ضمن قصيدة المدح او الهجاء ، وتعنى بالصورة المادية وتجاري روح الاسلوب القديم .

* * *

الباب الثاني

الطلل

أولاً : ذكره ووصفه :

تحدّر وصف الطلل إلى الشعر الأموي من صلب الشعر الجاهلي . كتقليد من تقاليد القصيدة العربية . وتكاد لا تخلو قصيدة من ذكره في شعر الأخطل ، يُلمح إليه في عجالة أبيات قاطبة أو يستطرد إليه ويُفصّل فيه بأبيات متعدّدة . وأصل هذا الموضوع أو نقطة انطلاقه تُصدر عن معاناة الحزن والبراح حين يشعر المرء بفاجعة الزّمن الهارب المتولي ، ونزوح الأشياء وتصرّثها ، فكأن كل شيء موجودٌ وغير موجود في آن معاً . والعربيُّ يقترن بين الحبّ والسعادة ويشعر أن نزوح الحبّ وارتحال الأحبّة هو نذير دائم لأنّية السعادة وطرونها كطارىء سريع على الحياة . وتطالعنا في الطلل ، كذلك . تجربة الذّكري ، أي الحنين إلى ما تقضى من الزّمن مع الشّعور بالحسرة والندم والإستحالة . وهكذا ، فإن في اشلاء الطلل البادية للعيان كناية عن تمزّق النفس وتناثرها إلى أشلاء بين قبضة القدر القاسي ، وبكاء الشاعر على الطلل . هو ، في الواقع . بكاءً على نفسه وعلى الحياة المُتسارعة ، المُتهالكة .

ولعلّ الأخطل لم يُعان تجربة الطلل معاناةً مبرّحةً كما مرء القيس وليد وعدديّ بن زيد . لأنه لم يقف من الحياة موقفاً وجودياً . ينتصّت فيه إلى وقع الفاجعة ، أو يتأمل به مظاهر الموت عبر مظاهر التغيّر والصّيرورة . فهو من الشعراء الذين اقبلو على الحياة باللذة الفرحة ، الحسيّة . من دون اللذة القانطة ،

السوداوية أمثال طرفة . لهذا جاءت تجربة الطلل باهتة ، تقليدية في شعره ، يستوفي فيه ، غالباً ، حاجة النظم وضرورة المقدمة الماثورة ، وبخاصة في القصائد المدحية . ففي القصيدة الأولى التي امتدح بها يزيد يستهزلُ بذكر الطلل في قوله :

ألا يا اسلماً على التَّقَادِمِ والبِلى بِدَوْمَةٍ خَبْتِ ، أَيهَا الطَّلَانِ ١
 فَلَوْ كُنْتُ مَحْضُوباً بِدَوْمَةٍ ، مُدْنَفَاً أُسْقَى بِرِيقٍ مِنْ سَعَادَ شَفَانِي ٢
 وَكَيْفَ يُدَاوِنِي الطَّيِّبُ مِنَ الْجَوَى وَبَرَّةٌ عِنْدَ الْأَعْوَرِ بْنِ بَيَانَ ٣
 أَتَجْعَلُ بَطْنًا مُنْتِنَ الرِّيحِ ، مُقْفَرَاً عَلَى بَطْنِ خَوْدٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ ٤

١ - دَوْمَةٌ خَبْتِ : اسم موضع .

م يخاطب طللي حبيبتك في موضع خبت ويحييها ويمنى لها النجاة من الزوال والاندثار .

٢ - الْمَحْضُوبُ : من أصيب بداء الحصبة . المَدْنَفُ : من أُنْقَلِعَ المرض .

م يقول إنه لو كان مصاباً بالداء ، ومشرفاً على الهلاك ، فإنه يستعيد عافيته ، إذا ما نهَّلَ وعلَّ من ريق صاحبه سعاد .

٣ - الْجَوَى : السَّعَمُ .

م يشير في هذا البيت إلى ما كان من أمره مع الأعور بن بيان التغلبي الذي تزوج امرأة جميلة تدعى برّة ، وهي ابنة هانيء التغلبي . وقيل إن الأعور بن بيان هذا دعا الأخطل إلى بيته الذي نُجِدَّ بالفُرْشِ التَّمِينَةِ والرِّطَاءِ الْعَجِيبِ ، وكان هذا في غاية القُبْحِ . فسأل الأخطل : هل ترى عيباً في بيتي ؟ فأجاب : ما أرى عيباً في بيتك غيرك . فقال : إنني أعجب من نفسي ، إذا كنت أدخل مثلك بيتي . أخرج عليك لعنةُ الله .

٤ - الْخَوْدُ : الشَّابَّةُ .

م يخاطبه مستنكراً . ويقول : أيصح أن تضع بطنك ذا الريح الكريهة على بطنها الفتي ؟

فالشاعر يخاطب طُلّلي حبيبته ولكنّه لا يصفهما ، بل يَمْضي في ذكر داء العشق ، ويتمنّى أن يداوى فيه بريق صاحبه سعاد ، بل ان ريقها ليشفيه حتّى من داء الحصبة . ففي البيت الثّاني يتغنّى بصاحبه سعاد ، وهي حبيبة تقليديّة لم يصحبها فعلاً ولم يتّوَقّع معها بدنف الحُبِّ ، لذلك تراه ينزع في البيت اللاحق إلى ذكر برّة ، وهي امرأة عرفها الشّاعر عند زوجها الثّري القميء ، فخلّفت في نفسه حسرة الجمال الضّائع ، المُمتَهَن بين يدي ذلك الرّجل النّتن . وهو يجد في ذلك سبيلاً إلى اليأس كلّهُ واستحالة الشفاء ، بقوله :

وكَيْفَ يداويني الطيبُ من الجوى وبرّةٌ عند الأعرورُ بن بيان

فكانّه يشور ، هنا ، لظلم الجمال وابتداله . وموضوع الطلل غدا بذلك باهتاً ، متوارياً إذ طغى عليه حنينه إلى برّة وثورته من أجلها . فالأخطل شاعر واقعي من هذا القبيل ، قلماً تراه ينعى ما لا طائل تحته ، ولا يبثُّ في الطلل معاناةً جديّة عميقة ، ولا يحتفلُ احتفاله الفنّي كلّهُ في وصفه ، إذ لم يكن سوداويّ المزاج ، زواليّ الطباع . وذكره برّة في المطلع لا يعدّو هذه الواقعيّة التي جعلته يشعر بالظلم لعدم التكافؤ في الجمال بين الزوجين ، ممثلاً في ذلك مثاله الحسّي الصريح إذ يقول :

أَتَجْعَلُ بَطْنًا مُنْتِنَ الرِّيحِ ، مُقْفَرًا عَلَى بَطْنِ خُودٍ ، دَائِمَ الْخَفَقَانِ

فهل ثمة ما هو أنأى من هذا الوضوح في ذكر علاقة الرجل بالمرأة ، إذ قصرها على بطنَيْهِمَا ، مزرياً بالزوج ، مشيداً بجمال زوجته .

ومهما يكن ، فإن هذه الابيات تُطلعننا على أن تجربة الطلل عند الأخطل قد تتخذ ذريعةً لما دُونها وسبيلاً للتخلّص وإبراد الخواطر الدّائميّة . ولولا ذلك لما ألمّ بسعاد في بيّت وبرّة في بيت يليه . وقد تبدو الابيات التّاليّة أشدّ استيفاءً لموضوع الطلل :

حَلَّتْ ضُبَيْرَةُ أَمْوَاهَ الْعِدَادِ ، وَقَدْ كَانَتْ تَحُلُّ ، وَأَذْنِي دَارِهَا ، تُكَدُّ ١
وَأَقْفَرَ الْيَوْمَ مِمَّنْ حَلَّهُ الثَّمَدُ فَالشَّعْبَتَانِ ، فَذَلِكَ الْأَبْرَقُ الْفَرْدُ ٢
وبالصَّرِيمَةِ مِنْهَا مَنْزِلَ خَلَّقَ عَافٍ تَغَيَّرَ ، إِلَّا النَّوْئِيُّ وَالْوَتْدُ ٣
دارِ لِبَهْنَانَةٍ ، شَطَّ الْمَزَارُ بِهَا وَحَالَ مِنْ دُونِهَا الْأَعْدَاءُ وَالرَّصْدُ ٤

ففي هذه الأبيات يذكّر المواضع التي كانت تُقيم فيها الحبيبة والمواضع التي ارتحلت إليها ، تدليلاً على النَّأْيِ والبعد . وقد حُشِدَتْ أعلام الأمكنة في البيتين الأولين : « الشعبتان ، الأبرق الفرد ، الصَّرِيمَة » . وهذا الأسلوب مستفاد ممَّن تقدّم من الشعراء ، إذ كانت أعلام الأمكنة تردّد في وصف الطلل وذكره ممثّلة الواقعيّة المباشرة ، المرتبطة بدقائق الموضوع وجزئياته . وقد اقتفى على أثرهم حتّى في صيغة العبارة بالإكثار من حرف الفاء الذي يُضفي

١ - ضُبَيْرَة : اسم امرأة . أمواه العِداد : اسم موضع . والعِداد : جمع عدّ وهو الماء الذي ينبجس من الأرض . تُكَدُّ : اسم ماء .

م يقول إن صاحبه ضبيرة ارتحلت إلى مكان ناء عن المقام الذي عهدّها فيه .

٢ - الثَّمَد : الماء القليل ، وهنا اسم موضع . الشعبتان : اسم موضع . والشعبة أكمة لها مثل القرن . الأبرق : الجبل الذي يكثر فيه الرَّمْل . الفرد : هنا المنفرد .

م يعدّد في هذا البيت المواضع التي نزلت عنها والتي أقفرت إثر رحيلها .

٣ - الصَّرِيمَة : اسم موضع . وأصلها في الرَّمْل المنقطع . خَلَّقَ : بال . عَافٍ : دارس . النَّوْئِيُّ : الحفيرة حول الحَيِّمة .

م يقول إن لها في موضع الصَّرِيمَة منزلاً متهدماً ، بالياً ، اندرست آثاره ولم يبقَ منها إلاّ النَّوْئِيُّ والوَتْدُ .

٤ - البَهْنَانَة : المرأة الطيبة النفس والريح . الرِّصْد : القوم الذين يترصدون لسواهم .

على المعاني ما يماثل الصفة العلمية . وتراه يذكر بيتها الخلق . المتهدم الذي لم يبقَ منه إلا النؤي والوند ، أي حفير الخيمة والحشبة التي توثق بها أطناب الخيمة . وذكرهما هو كذكر أعلام الأمكنة منهوك في تقليد الشعر . وهو مظهر للصدق في نقل ما تَطَّلعه الحواسُ . ذلك أن بيتها هو خيمة ، فاذا ارتحل قومها بها ، حملوا العيدان والحبال والأعمدة والأكسية ، وخلَقوا من دونها النؤي والوند . تلك هي أطلال البداوة ، لا حجارة ولا جدران ، ولا مخادع . اولئك الذين يفرشون الأرض ولا يستقرُّون عليها ولا يغرُّسون جدورهم فيها . ومع ذلك ، فان البكاء ماثوثٌ في حنايا هذه الأبيات . لا يُصرِّحُ به ولا يلمحُ إليه ، وان كنا نشعر أنه يتندَّمُ على ما فاته فيه . إلا أن عاطفة الأخطل لَيْسَتْ العاطفة الفاجعة المتهالكة التي تثيرنا في مطالع امرئ القيس . فهو يترسم المعاني ويبذلها ولكنها لا تصدر عن جرح الزمن التآزف من نفسه .

وفي الأبيات التالية يتخذ الشاعر معاني أخرى من تجربة الطلل ذاكرًا السراب والظعان العائمة فيه ، والرياح والأمطار التي عفت عليه :

عَفَا مِنْ آلِ فَاظِمَةَ الدُّخُولُ فَحِزَانَ الصَّرِيمَةِ ، فَالهُجُولُ ١
مَنَازِلُ أَقْفَرَتْ مِنْ أُمَّ عَمْرٍو يَظَلُّ سَرَابَهَا فِيهَا يَجُولُ ٢
شَامِيَةُ المَحَلِّ ، وَقَدِ أَرَاهَا تَعُومُ لَهَا بِنْدِي خَيْمِ حُمُولُ ٣

١- الدُّخُولُ : اسم بلد . حِزَانُ : جمع حزين وهو الغليظ من الأرض . الصريمية : الرملة المتقطعة . هجول : جمع هجل ، وهو ما اتسع من الأرض . وهذه الألفاظ تدل جميعاً هنا على أسماء مواضع .

٢- م يقول إن صاحبه أم عمرو قد ارتحلت عن تلك الديار . فأقفرت وجعل السراب يخفق ويضطرب ويجول فيها . وذكره للسراب هو للتدليل على خلوتها ووحشتها .

٣- تعومُ الإبلُ : تسير . خيم : موضع بالجزيرة .
م يقول إنها كانت محلّ في ديار الشام وإنها نزحت فشاهد ظعانتها تسير في موضع ذي خيم .

وَلَوْ تَأْتِ الْفَرَاشَةَ وَالْحَبِييَا إِذَا كَادَتْ تُخْبِرُكَ الطُّلُوءُ ١
عَنِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَمَا عَفَاها بَوَارِحُ يَخْتَلِفْنَ وَلَا سِيُولُ ٢

ولقد ذكر الشاعر قبلاً الآثار الباقية من الطلل في النوي والوند ، أما في هذه الأبيات ، فإن ذكره لعوامل العفاء وبواعثه تغلبَ وطغى ، وإن كان قد حشد في المقطعين جميعاً ، أعلام الأمكنة وحرف الفاء وما أشبهه . والاشارة إلى خفق السراب على الطلل أدلُّ على خلائه ووحشته ، إذ أن معناه ملازم لواقع الصحراء والأمكنة المقفرة . وهو يتتبع سيرَ الظعائن ويجد أنهم يعمن ، كذلك ، في السراب . وهنا تتباين دلالاته ، إذ كان يُشير ، قبلاً ، إلى الوحشة والعفاء ، وهنا غدا يُشير إلى البُعد والنزوح . إلا إن الشاعر ، يبدو في ذلك كله وكأنه يتلو معاني حفظها وتلقفها ، يتداولها يُسر في العبارة والمعنى ، لا يتأول ولا يكدُّ ولا يجدُّ ولا يُبدع . ولو لم يكن في هذا المقام التقليدي ، لما اقتصر على ذكر الريح والمطر بقوله :

عَنِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَمَا عَفَاها بَوَارِحُ يَخْتَلِفْنَ وَلَا سِيُولُ

فأنت تراه يكتفي من أمر الريح والمطر بتسمية أسميهما وحسب ، ولو كان في مقام يحتفل به فيهما ، لاقتفى أثر الريح في كل جهة ولأدنى لها أوصافها في هبوبها وصوتها وغبارها . والأخطل لم يُجدد في تجربة الطلل ، لأنها لم تلج إلى نفسه ولم تدخل في المباراة التي كان يبرز بها سواه من الأقدمين والمعاصرين .

١ - ٢ - الفراشة : اسم موضع . الحبييا : موضع بالشام . البوارح : الرياح الشديدة الهبوب .

م يقول إذا ما زرت تلك المواضع ، فإن أطلالها تُنبئك عن عهد الألفة الذي نعمنا به فيها ، قبل أن تغشاها الرياح الشديدة والسيول وتُعفي على آثارها .

وكيفما تجولت في شعره الطللي يطالعك بمثل المعاني السابقة . فهو هو يقول :

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ أَرْوَى ، وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ وَعَادَ لَهُ مِنْ حُبِّ أَرْوَى أَخَابِلُهُ ١
أَجِدْكَ مَا نَلَقَاكَ ، إِلَّا مَرِيضَةً تُدَاوِينَ قَلْبًا ، مَا تَنَامُ بِلَابِلُهُ ٢
عَفَا وَاسِطَ مِنْهَا ، فَالْجَامُ حَامِرٍ فَرَوْضُ الْقَطَا ، صَحْرَاؤُهُ ، فَخَمَائِلُهُ ٣
وَقَدْ كَانَ مِنْهَا مَنْزِلًا نَسْتَلِيذُهُ أَعَامِقُ بَرْقَاوَاتِهِ فَأَجَاوِلُهُ ٤

وتراه يقرن حيناً آخر ، بقاياها ببقايا الكتابة ، كما أثر عن الجاهليين ، ذاكرآ
اليوم والظباء التي باتت تقطنه اثر أهله :

١- أَرْوَى : اسم امرأة . أَخَابِلُهُ : جمع خبل . وهنا الذُّهُولُ وافتقاد الرُّشد .

م يقول في الشطر الأول إنه انقطع عن حب صاحبه أَرْوَى وإنه امتنع عن اقتفاء الباطل .
وفي الشطر الثاني يناقض المعنى السابق ويقول إنه عاوده الخبل من حُبِّهَا .

٢- أَجِدْكَ : تكسر جيمها ، فيما تدخل الهمزة عليها . بِلَابِلُهُ : همومه .

م يقول إنه لا يبرح يفزع إليها لتُنْجِيه من سقم الحبّ ، فيُلْفِيهَا مُعْتَلَّةً عليه ، صادة عنه .

٣- واسط : موضع بالشَّام . أَلْجَامُ : جمع اللَّجْمَةِ : ما يعلو السَّهْل . الخمائل : جمع خميلة
وهو رمل يُنْبِت الشَّجَر .

م يذكر المواضع التي نَزَّحَتْ عنها ، ويقول إن الخمائل بدت موحشة مُتَعَفِيَةً إثرها .

٤- أَعَامِقُ : واد . أَجَاوِلُهُ : ساحاته . البرقَاوات : جمع بَرْقَة ، وهو موضع فيه ماء
وحجارة . نَسْتَلِيذُهُ : تطيب لنا الإقامة فيه .

م يقول إنه كان يقيم في ذلك الموضع بمنزل تطيب له الإقامة في كلِّ منتجع من منتجعاته .

هَلْ عَرَفْتَ الدَّيَّارَ يَا بْنَ أُوَيْسٍ دَارِسًا نُؤِيْهَا كَخَطِ الزَّبُورِ ١
بُدَلَّتْ بَعْدَ نِعْمَةٍ وَأُنْيَسٍ صَوْتِ هَامٍ وَمَكْنَسِ اليَعْفُورِ ٢

وذكر البوم في هذا المقام يرمزُ برمزٍ عميقٍ للخلاء والوحشة ، فضلاً عن قليل
أو كثير من الشعور بالسويداء والتشاؤم . وربما رأينا يوجز معاني الطلل جملة
في مثل البيتين التاليين ، حيثُ ذكر القدر والرَّماد والريِّح :

أَتَعْرِفُ الدَّارَ ، أَمْ عِرْفَانَ مَنزِلَةِ لَمْ يَبْقَ غَيْرُ مَنَاحِ القِدْرِ والحُمَمِ ٣
وغيرُ نُؤي رَمْتَهُ الرِّيْحُ أَغْصَرُهُ فَهُوَ ضَيْلٌ ، كَحَوْضِ الآجَنِ الهَدَمِ ٤

ثانياً : **الطلل والمطر** : وصف الجاهلي المطر وبخاصة امرأ القيس والأعشى .
على أنه أحد عناصر الطبيعة المروعة ، يُمثِّل فيضانه وتحوُّله إلى سَيْلٍ يَهْدَمُ
ويُخَلِّفُ الخراب ، يخطف عبره البرق ويقصف الرِّعد ، وهو يُشَبِّه ذلك بكل

١ - أُوَيْس : تصغير أوس . النُّؤي : الحفير حول الخَيْمَةِ . الزَّبُور : هنا الكُتُب .

م يحاطب صاحبه ابن أوس ويسأله إذا كان قد عرف ديار صاحبه الدارسة النؤي ، البادية
كالخطِّ في الكُتُب . والمعنى مطروق .

٢ - هَام : جمع هامة ، وهي البومة . وأصلها طائر يخرج من رأس القليل . مَكْنَس : ماوى
الوحش والظباء من الحرِّ وما إليه . اليَعْفُور : الظبي .

٣ - الحُمَم : هنا حُمَم النار .

م يحاطب صاحباً مَوْهُوماً ويقول له : هل تقوى على معرفة دار أو منزلة ، تعفت آثارها ،
ولم يبق فيها إلا موضع القِدْرِ ، حيث كانت توقد النار ؟

٤ - النؤي : الحفيرة تحفر حول الخَيْمَةِ ليُمنَعَ عنها الماء . الآجن : الماء الكثير المُكوِّث ،
المتغير لفساده . الهَدَم : المتهدم .

تشبيه ويُفصّل فيه كل تفصيل . أما الأخطل ، وهو شاعر وصف بقدر ما هو شاعر مدح وهجاء ، فقد أوجه في سياق قصيدته المدحيّة ، مستطرداً إليه من خلال ذكره للعوامل المحيلة للطلّل . فهو يستهلُّ بتسمية الطلّل وتعيين موقعه ، ويعرّج على ذكر المطر الذي أحاله وعفى عليه .

وقد يلم بالوحوش القاطنة فيه ، إثر ارتحال أهله ، وقيامها في النَّبْتِ العميم الطّافر ، والمطر الذي رواه وأنماه . مثال ذلك قوله :

فَأَصْبَحَ مَا بَيْنَ الْكَلَابِ وَحَابِسٍ قِفَاراً ، تُغْنِيهَا نَعَ اللَّيْلِ بُومُهَا ١
 خَلَتْ غَيْرَ أَحْدَانٍ تَلُوحُ ، كَأَنَّهَا نُجُومٌ بَدَتْ وَأَنْجَابَ عَنْهَا غُيُومُهَا ٢
 بِمُسْتَأْسِدٍ يَجْرِي النَّدى فِي رِيَاضِهِ سَقَتَهُ أَهَاضِيبُ الصَّبَا وَمُدِيمُهَا ٣

١ - حابِس : اسم موضع .

م يقول إن موضعي الكلاب وحابس ، حيث كانت صاحبه ، قد أصبحت قفراً لا يسمع فيهما إلاّ نعيب اليوم في الليل . وذكر البوم في هذا الموقع يفيد معنى الوحشة والخلاء .

٢ - أَحْدَان : جمع وحدان وهي البقر المتوحدة في الجبل . انجَاب : انكشف .

م يقول إن الأبقار الوحشية المتوحدة في ذلك القفر ، تبدو في تفرقتها ولمعانها كأنها نجوم في سماء صافية الأديم .

٣ - المُسْتَأْسِد : النَّبْتِ الذي كَبَّرَ والتفّ . الأهاضيب : حَلَبَاتِ المطر ، بعد القطر أي المطر المنهمر . مُدِيمُهَا : من الدَّيْمَةِ وهي المطرة الدائمة الانسكاب .

م يصف الروض الذي ترتعي فيه تلك الأبقار ، ويقول إن نباته قد نما والتفّ وإن الندى لا يزال يغشاها ، وإن المطر المندفَع الدائم المطلق قد رواه . وهو إنما يصف المطر الغزير ليعظم من شدّة التفاف النَّبْتِ ونموّه .

إذا قُلْتُ : قد خَفَّتْ تَوَالِيهِ ، أَصْبَحَتْ بِهِ الرِّيحُ مِنْ عَيْنٍ سَرِيعٍ جُمُومُهَا ١
 فما زالَ يَسْقِي بَطْنَ خَبْتٍ وَعَرَعَرٍ وَأَرْضَهُمَا ، حتى اطمأنَّ جَسِيمُهَا ٢
 وَعَمَّمَهَا بالماءِ ، حتى تواضَعَتْ رِوُوسُ المِتانِ : سَهْلُهَا وَحُزُومُهَا ٣
 بِمُرْتَجِزِ داني الرِّبابِ ، كَأَنَّهُ على ذاتِ فَلَجٍ مُقْسِمِ ، لا يَريْمُهَا

١ - تَوَالِيهِ : ما يلحق به ويجعله يدرّ . عَيْنٌ : هنا عين السماء في المغرب أي السحاب الذي إذا بدا في ذلك الحين ، لا يخطيء مطره . جُمُوم : من جمّ الماء ، إذا كَثُرَ .

م يقول إنّه لا يكاد يتوهّم أن المطر سينقطع وتنضب تواليه ، حتى تعود الريح فتبعثه من سحاب مقل بمائه لا يخطيء مطره .

٢ - خَبْتٌ : في الأصل هو المطمئن من الأرض وهنا اسم موضع . عَرَعَرٌ : اسم موضع . الجَسِيمِ : ما اطمأنّ من الأرض وعلاه الماء .

م يقول إن ذلك المطر ظلّ ينهمر على ذينك الموضعين ، حتى غشيها ، جميعاً ، وفاض فيهما .

٣ - المِتانِ : جمع متن : الأرض الصلبة . الحزن : الأرض المرتفعة ، قليلاً ، عن سواها .

م يقول إن الماء طاف بها وعمّ فيها حتى بدت ، جميعاً ، في مستوى واحد ارتفع المنخفض منها وانخفض المرتفع .

٤ - المُرتَجِزِ : السحاب الذي يصحبه رعد أي الرباب . فَلَجٌ : أرض . لا يَريْمُهَا . أي لا ييرحها أو يزول عنها .

م يقول إن ذلك السحاب كان يصحبه رعد داني القصف ، أقام في انهماره على موضع ذات فلج ، وكأنّه قد أقسم ألا يكفّ عنها أو ييرحها .

إِذَا طَعَنْتَ فِيهِ الْجَنُوبُ ، تَحَامَلَتْ بِأَعْجَازِ جَرَّارٍ تَدَاعَى خُصُومُهَا ١
سَقَى اللَّهُ مِنْهُ دَارَ سَلْمَى بِرِيْسَةٍ عَلَى أَنَّ سَلْمَى لَيْسَ يُشْفَى سَقِيمُهَا ٢
مِنَ الْعَرَبِيَّاتِ الْبُوَادِي ، وَلَمْ تَكُنْ تُلَوِّحُا حُمَى دِمَشْقٍ وَمُومُهَا ٣

فالموضوع الأصيل هو الطلل الذي استحال إلى قفَر لا يُسمع فيه إلا نعيبُ
البُوم ، وهو رمز الوحشة والتفرد والشؤم ، وأدلُّ من الوحوش على الخلاء والقفر ،
وقد ذكر الشاعر توحيدها في الجبل وقرنها بالنجوم التي انجابت عنها الغيوم . ومؤدَى
هذا الوصف أنها متفرّدة بذاتها ، لا يُزعجها طارئ عن منتجعا الذي لم تعدُّ
ترتاده أقدام الناس . فالانفعال يشطر ، هنا ، شطر الخلاء ، يعظّمه للتدليل على
تعفّي آثار الأجرة وتغيّر معالم الأمكنة التي كانوا يقطنونها ناعياً على الحياة
والأحياء سنة التغيّر والزوال . وفي هذا السياق الانفعالي يرد وصفه للنبت والمطر ،

١ - طَعَنْتَ الْجَنُوبَ فِيهِ : ساقته . الأعجاز : الأواخر . الجرّار : الثقل ، ذو الماء الكثير .
خصومها : جوانمها .

م يقول إذا عصفت به ريح الجنوب ، لم تستطع أن تسوقه ، وإنما تتحامل في مؤخرته لنقل
الماء الذي يحتضنه ، فهي تدرك جوانبه وتداعى عندها . والشاعر يعظم من المطر الذي يحمل
السحاب ، بحيث تعيا الريح عن دفعه وسوقه .

٢ - م يعود في هذا البيت إلى ذكر حبيبته ويتمنى أن تصيبها منه سقياً ، ويردف بأن من يعلق
سَلْمَى لا يبرح سقيماً لا ينجع فيه دواء .

٣ - الموم : الحمى .

م يفخر بتولّيه بالمرأة العربية البادية التي لم تقطن حاضرة الشام ولم تلوحها شمسها المؤذية
كالحمى . والأخطل لا يزال يفخر بإيثاره العربيات على الأعجميات والباديات منهن على
من غشين الحواضر ، وذلك يفصح لنا عن تعصّبه للبادوة على الحضارة التي عايشها حيناً
في الشام ومال إليها دون أن تسيغها وتألّفها نفسه .

إذ أن الأمكنة الآهلة لا يَنمو ولا يَشْمخُ نَبْتها لكثرة ما تطأه الأقدام وَيَخْتَلِفُ عليه من الماشية .

وبقدر ما يعلو النَّبْت بقدر ذلك تضاعف دلالته على الهجر والفراق والعفاء ، وكذلك الأمر بشأن المطر ، فبقدر ما يَشْتدُّ انهماره وَسَيْلُهُ بقدر ذلك يكثر النَّبْتُ إثره . فالمطر يُمَثِّلُ ذاته، ظاهراً، وضمناً النَّبْت والحلاء . فوصفه انفعاليٌّ وليس تقريرياً ، نقلياً . فهو يستهلُّ بذكر هطوله ودوامه :

بِمُسْتَأْسِدٍ يَجْرِي النَّدى في رياضه سَقَتُهُ أَهاضيب الصِّبا ومُدِيمُها

وقد جمع له في لفظي « أَهاضيب ومُدِيم » خاصيتين من خصائص الغلوِّ . الأولى وهي الغزارة، يَهْطُلُ بها هطلاً شديداً والثانية الدَّيْمُومة، إذ لا فضيلة للواحدة دون الأخرى ؛ فالمطر الغزير لا يجدي إذا كان سريع الانقطاع والدائم لا يجدي كذلك ، إذا كان رذاذاً ضعيفاً . وذلك ما ينمُّ عن الصِّفة الانفعالية المتجسدة بالمثالية . فالشاعر لا يصف المطر بواقعه ، بل بغزارته المطلقة ، لان الغزارة ارتباطها بنمو النَّبات واطراده . وطبيعة الانفعال هي التي تسوق المعاني في سياقها وتخيِّر منها ما يوافق مَنْطقها . وإذا كان الشاعر في موقف تعظيم نزع به الانفعال إلى المثالية . وهولا يقف من ذلك المعنى عند حدِّه ذلك ، بل يُمعن بتأدية التأويل التي تمثل شدَّته وتماديه :

إِذَا قُلْتُ قد خَفَّتْ تَوَالِيه ، أَصَبَحَتْ به الرِّيحُ من عَيْنٍ سريعِ جُمُومِها

فالرِّيحُ تَسْتدرُّه من معينه في السَّحابِ المُكْتَتِظِّ ، الحافل ، يكاد لا يَنْضَبُ حتى يتدفَّق من جديد فهو يتوالد توالداً . وهنا غالى بمعنى الدَّيْمُومة والغزارة معاً ، في إطار من الواقعية التعليلية التي تَعزِلُ عناصر توحى بالغلوِّ . فقد خصَّ الرِّيحَ لأنها تَعْصِفُ به وتَجْعَلُه أسرع وأغزر والعين وهي تدلُّ على اليُنْبوع الذي لا يَنْضَبُ ولا ينتهي ، والحموم ، وهي تَنْطوي على معنى الامتلاء . ومن السَّحابِ يَنْحدر إلى الأرض ليؤدي الصُّور التي توحى بهطوله ودوامه إذ يقول :

فما زال يَسْقِي بَطْنَ خَبْتٍ وَعَرَعَرٍ وَأَرْضَهُمَا ، حَتَّى أَطْمَأَنَّ جَسِيمُهَا

ومع أننا لسنا ندرك مَوْقِعَ كُلِّ من مَوْضِعِي خَبْتٍ وَعَرَعَرٍ ، فقد ذكرهما للتكنية على شموله واتساعه كما ان اشارته إلى استنقاعه بينهما ينمُّ بالمشهد الواقعي عن عظم ما هطل منه. وبهذا البيت ربّما أضاف معنى جديداً هو الشمول كما مثل على المعنيين السَّابِقِينَ بما ضاعف منهما بالمشهد الحسي المنقول .

ويبلغ المعنى ذروته في قوله :

وَيَمَّمَهَا بِالمَاءِ ، حَتَّى تَوَاضَعَتْ رُؤُوسُ المِتَانِ : سَهْلُهَا وَحُزُومُهَا
بمُرْتَجِزِ دَانِي الرَّبَابِ ، كَأَنَّهُ عَلَى ذَاتِ فُلْجٍ مُقْسِمٌ لَا يُرِيمُهَا

ولقد سما المعنى على ما سبّقه ووطئه وبل عَقَى عليه ، إذ كان قد ذكر استنقاع الماء ، أي اجتماعه في مُنْبَسِطِ الأَرْضِ ، أما هنا فانه ارتفع واحتشد حتى غَشِيَ السَّهْلَ والرَّوَابِي . وجعلها مُتَوَازِيَةً ، أي أَنَّهُ لم يُعُدْ نوعاً من المستنقع بل أشبه ما يكون بالبُحَيْرَةِ . بل أحفل من ذلك إذ أَنَّهُا تَفِيضُ فَيضَاناً حتى على الرَّوَابِي . فالمعاني تنامي بعضاً على بعض ، تنامي وتعاضم إلى ذروتها من قُدْرَةِ الشَّاعِرِ على الخَلْقِ . خلق المشاهد الكفيلة بتجسيد المعاني وتأديتها ، كما أَنَّهُ يَتَفَتَّقُ حتى بالمعاني الذَّهْنِيَّةِ الافتراضية كقوله إنَّ المَطْرَ أَقْسَمَ على ألا يبرح ذلك المكان . والقسم الافتراضيُّ هذا هو غلوُّ بمعنى الدَّوامِ والاستمرار ، كما أن الصُّورَةَ الواقعيَّةَ التَّالِيَةَ تعظم من احتفاله وهطوله :

إِذَا طَعَنْتُ فِيهِ الجُنُوبُ . تَحَامَلْتُ بِأَعْجَازِ جَرَّارٍ تَدَاعَى خُصُومُهَا

فقد كانت الرِّيحُ في الأبيات تَعَصِفُ به وتُزْجِيه . أما في هذا البيت ، فَإِنَّهُ تَنَاقَلَ عليه لانه ازداد امتلاءً ، فلم يُعُدْ للرِّيحِ قَبْلُ بِدَفْعِهِ . فَجَعَلَتْ تَقْعِي وتَعْيَا من دُونِهِ . وهذه الصُّورَةُ لا تعدو الأسلوب العام الَّذِي يَفْتَنِي عليه الأخطل ، وهو

العثور على المشهد الموحى العميق لا يتوسّل له الخيال النَّافذ فيما وراء الظاهر ، بل يُحسّن الاختيار من الواقع المبذول وعزله عمّا دونه وتمثيله به وحده .

أمّا في النهاية فإنّه يعود إلى صاحبه سلمى إذ يتمنّى أن يتنهمر ذلك المطر على ربوعها ويرويها ، بالرغم من أنها أصابته بداء لا يتنجع فيه دواء. ويمتدحها ، كذلك ، بعروبته الصّافية ، المتعافية .

ونقول إذ ذاك كلّه إن وصفه للمطر يتباين عن الوصف البدائي الذي يسفّه بعضه بعضاً وتناقض فيه المعاني وتختلّ مستوياتها بين علوٍ وانخفاض ، أما الأخطل فقد جرى في ذلك على متابعة المعنى ومطاردته ، مرحلة إثر مرحلة ، يكادُ لا يُوهمُ بأنه أجهزَ على المعنى وقضى عليه ، حتّى يطّالعك بذروة جديدة له يشتقّها اشتقاقاً من خبرته بالواقع الحسيّ ومعاناته له معاناة فعلية إبداعية . ومع ذلك ، فإنّه لا يبلُغُ مبلغَ امرئ القيس والأعشى وعبيد الأبرص ، إذ أنهم حشدوا له من الكنايات الحسية العميقة ما لم يكن للأخطل قبيلُ به .

وقد تجري الأبيات التّالية على هذا الغرار ، حيث استهلّ متسائلاً عن مواقع الطلل العافية لتقدّم عهدا ومرور الزّمن عليها ، فضلاً عن الرّياح ، فبدت وكأنّها بقايا كتاب الية ، ليخلص إلى وصف المطر المنهمر عليها :

لِمَنِ الدِّيَارُ بِحَايِلٍ ، فَوُعَالٍ دَرَسَتْ وَغَيْرَهَا سِنُونَ خِوَالٍ ١
دَرَجَ البَوَارِحُ فَوْقَهَا ، فَتَنَكَّرَتْ بَعْدَ الأَنِيسِ مَعَارِفُ الأَطْلَالِ ٢

١ - حايِل : موضع في اليمامة . وُعَالٍ : اسم موضع . دَرَسَتْ : زالت . خِوَالٍ : ماضية . م يتساءل على غرار القُدماء عن الدِّيَارِ القائمة في موضعَي حايِل وُوُعَالِ ويقول إن معالمها قد تغيّرت عبر السنين التي اختلفت عليهما .

٢ - البوارح : الرّياح الشديدة الحارّة - الأَنِيس : هنا السكّان . م يقول إن الرّياح الشديدة الحارّة تعصّفت بها ، فبدلتها ومحت معالمها ، فلم تعد تُدرِك .

- فكأنما هي ، من تقادم عهدِها ، وَرَقٌ نُشِرْنَ مِنَ الْكِتَابِ بِوَالِي ١
 دِمْنٌ تُدْعَدُهَا الرِّيحُ ، وَتَارَةٌ تُسْقَى بِمُرْتَجِزِ السَّحَابِ ثِقَالِ ٢
 بَاتَتْ يَمَانِيَّةُ الرِّيحِ تَقُودُهُ حَتَّى اسْتَقَادَ لَهَا بِغَيْرِ حِبَالِ ٣
 فِي مُظْلَمٍ غَدِقِ الرَّبَابِ ، كَأَنَّمَا يَسْقِي الْأَشَقَّ وَعَالَجاً بِدَوَالِي ٤
 وَعَلَى زُبَالَةَ بَاتَ مِنْهُ كَلْكَالٌ وَعَلَى الْكَثِيبِ وَقَلَّةِ الْأَدْحَالِ ٥

١- م يمثل ما تبقى منها ، إثر تقادم العهد عليهما ، بأوراق كتاب قديم ، قد نُشِرَتْ وَبُعْثِرَتْ .

٢- الدِّمْنُ : المنازل . تُدْعَدُهَا : تحركها وفترقها . الْمُرْتَجِزِ : الذي يتوالى قصف الرعد فيه . ثِقَالِ : أي مألئ ماء .

م يقول إن الرياح تعصف بها وتذرو رمالها حيناً ، فيما ينهمر عليها المطر الشديد من سحب مكنتظ بالماء ، لا يزال يقصف فيه الرعد .

٣- م يقول إن الرياح الجنوبية كانت تعبث به وتسيره كما تشاء ، دون أن تسوقه ، في ذلك ، بجبال أو أرسنة . ولقد أدّى الشاعر المعنى وفقاً لما ألفه من أمر الظعائن التي تساق بالأرسنة منوهاً بالتباين بين الرياح وسائقي الإبل وما إليها . وقد كان الشعر العربي ، في معظمه ، يؤدي المعاني ويستكملها في حدودها الواقعية .

٤- مُظْلَمٍ : سحب كثيف أسود . غَدِيقٍ : غزير . الرَّبَابِ : السَّحَابِ . الْأَشَقَّ : موضع . دَوَالِي : جمع دالية ، وهي أداة يُديرها الثور أو النَّاعُورَةُ يديرها الماء لتسقي الأرض .

م يقول إنه سحب كثيف ، مُتَجَهِّمٌ ، غزير الانهمار ، كأنه يسقي المواضع التي يتزل فيها بمثل مياه النَّواعير .

٥- زُبَالَةَ : موضع معروف بطريق مكة من الكوفة . قَلَّةِ الْأَدْحَالِ : اسم موضع .

م يقول إن ذلك السَّحَابِ انحدر حتى لامس الأرض في تلك المواضع ، مُشِيراً إلى ذلك بلفظة « كَلْكَالٌ » كأنما تمثل السَّحَابِ من خلالها بجمل هائل ، عظيم .

وقد يَسْتَهِيلُ في مواقعٍ أُخرى بتحيّةِ الطَّلّ وذكور الحبيبة التي خَلَّفَتْ في نَفْسِهِ السَّقَامَ واليأسَ ، ثم إنّه ليُخاطبها مخاطبة الوجد والوحشة ، واصفاً المطر الذي انهمَرَ إثرها على ساحات الدَّارِ ، فمحاها وعفَى عليها . ويخيّل لنا ان للمطر هنا معنى الذِّكْرَى والوُحْشَةَ والنَّدَمَ والبراح . فهو يقول :

أَلَا حَيَّيَا دَاراً لَأُمِّ هِشَامٍ وَكَيْفَ تُنَادِي دِمْنَةً بِسَلَامٍ ١
 أَجَازِيَةٌ بِالْوَصْلِ ، إِذْ حِيلَ دُونَهُ وَمَا الذِّكْرُ ، بَعْدَ الْيَأْسِ ، غَيْرُ سَقَامٍ ٢
 مَحَا عَرَصَاتِ الدَّارِ بَعْدِكَ مُلْبِسٌ أَهَاضِيبَ رَجَافِ الْعَشِيِّ رُكَامٍ ٣
 وَكُلُّ سَمَاكِيٍّ كَانَ نَشَاصَهُ إِذَا رَاحَ أَصْلاً حَافِلَاتُ نَعَامٍ ٤

ولتتمثل الشجوى والحزن اللذين يطالغاننا في قوله : « محَا عَرَصَاتِ الدَّرِّ بَعْدَكَ مُلْبِسٌ » ، وقد أفاض على لفظة « بعدك » بالرغم من تقريريتها كل معاني الوحشة

١ - م يخاطب صاحبيته ويدعوها إلى تحية دار أم هشام صاحبتة ، ويعجب أن تؤدي التحية إلى الديار الأرسية .

٢ - م يتساءل إذا كانت صاحبتة ستواصله ، بعد أن تعذر عليه لقاءها ، ويقول إن من يذكر صاحبتة بعد يأسه من حبها يرث من ذلك السقام .

٣ - عَرَصَاتُ : جمع عَرَصَة : ساحة . أَهَاضِيبُ : جمع هَضْبَة : مَطْرَة .

م يقول إن عرصات دارها قد تعفّت آثارها من انهمار المطر الغزير المتراكم السحاب الذي يقصف فيه الرعد عشية .

٤ - السَمَاكِيٌّ : السحاب المتلبّد . نَشَاصُهُ : ارتفاعه .

م يستكمل المعنى ويقول إن المطر ينهمر من السحاب المتراكم الذي يبدو عند ارتفاعه في العشي كالنعام الجافلة .

والألم والغربة . ففي هذه اللفظة معاناة لمأساة الرَّحِيل والشعور بالفراق الذي لا رجعة فيه . ولسنا ندرى ، بعد ذلك ، إذا كان أمحاء عرصات الدار والمطر هي مظاهر حسية وحسب ، أم أنها رموز عميقة جسّدت من خلالها تجربة الزوج والحنين . فهو يهطل هطلاناً ، وكأنما تنهمر أمطاره في الدّاخل ، أو كما يقول فرلين : « إنّها تُمطر في نفسي ، كما تُمطر في المدينة » . وهو ، كذلك ، يقصف فيه رعد المساء المتوالي ، وقصف الرّعد يحمل ، هنا ، معنى الوحدة والخلاء ، كأنما يُدوي ويتفجّر في عالم فارغ ، موحش .

فالطلل هو طلل حایل ووعال ، أي أنّه مُحدّد المكان ، كما هو في سائر القصائد وعامل العفاء الأوّل هو تقادم الزّمن عليه ، والعامل الثاني هو عامل الرّيح . والمعنى في البيتين ، جميعاً ، هو معنى تقريريّ ، مبذول من الذاكرة . فهو أدنى ما يتلقّف في موضوعه ، لا خيال ولا انفعال فيه ، ولا صورة . وربما سما على ذلك بقوله :

فكأنّما هي من تقادم عهدها ورق نُشِرَن من الكتابِ بـوَالِي

حيث مثل بقايا الطلل بقايا الكتاب ، وهو تشبيه يكرره إذ وقعنا على ما يماثله قبلاً بقوله :

هل عرّفتَ الديارَ يا ابن أُويسٍ دارِساً نُويّها كخَطِّ الزُّبورِ

أما العامل الثالث لتعفيها فهو المطر :

دَمِنْ تُدَعِّعُهَا الرِّيحُ وَتِـبَارَةٌ تُسْقِي بِمُرْتَجِزِ السَّحَابِ نِقَالَ
باتت يمانية الرّيحُ تقوِّده حتّى استقّاد لها بغيرِ حبالِ

فالمطر ينهمر من السحاب الحافل الثّقل بالماء ، الذي يقصف فيه الرّعد دون

انقطاع . ومنذ هذا البيت ندرك أنه يصف فيه وصفاً انفعالياً ، نازعاً الى الغلو
 إذ نعتَ السحاب بالثقل ، أي بكثرة الماء ، ونوّه بالرعد متكينياً به على شدة
 النوء والصخب . وإذا كان ثقل السحاب يوازي ما أشار اليه سابقاً بالأهاضيب ،
 فإن ذكر الرعد ، أي الارتجاج ، يبدو جديداً ، لم يُلم به أو يُلمح إليه ، قبلاً .
 ومثل ذلك صورة الرّيح التي تقودُ السحاب ، دون حبال أو أرسنة ، متأثراً ، في ذلك
 بواقع بيئته حيث لا يزال يُشاهد المطايا تُساقُ بأرستها . والصورة لا تُعدّم
 الخيال ، إلا أنه ضرب من الخيال الحسي القائم على المماثلة .

ويمضي في وصف ذلك السحاب بقوله .:

فِي مُظْلَمٍ غَدِقِ الرَّبَابِ كَأَنَّمَا يَسْقِي الْأَشْقَ وَعَالِجاً بَدَوَالِي

فهو مُظلم ، أي متكاثف بعضاً على بعض ، وبقدر ما يتجهّم السحاب ويسودُّ
 بقدر ذلك يزدادُ مطره وانهماره ، بل إنه لينهمر ، فعلاً ، كما ينصبُّ الماء
 من الناعورة . فهو ليس مطراً ، بل سيلٌ متسعٌ يُغدق على موضعي الأشقِّ
 وعالج كل اغداق . وذكر هذين الموضعين هو سبيل للتدليل على اتساعه وشموله ،
 كما كان تشبيهه بماء الدوّالي قد دلَّ على غزارته . بل إنه لا يقف عند ذلك الموضعين
 إذ تراه ينهمر أيضاً ، على الكثيب وزباله :

وعلى زباله بات منه كلِّكُلٌ وَعَلَى الْكُثَيْبِ وَقَلَّةُ الْأَذْحَالِ

وآية هذا البيت في نسبة الكلكل إلى السحاب نسبةً مباشرة . فكأنه تمثّل له
 في خياله المبدع بمثل جمّل هائل ينحدر من السماء ليُخني على الأرض ، ومع
 أن الصّورة تقف عند حدود المضمون الواقعي التمثيلي ، فإن الخيال بدا فيها أشدَّ
 نأياً وقدرة على استحضار المعنى والمشهد والتوحيد بينهما وصهرهما .

وعلى الجملة فإن الشاعر ترجّح في هذه الأبيات بين التقرير المُتهدان ، والمعنى

المباشر من جهة ، والصورة التي فكَّت قليلاً أو كثيراً من عقال النفس وحررتّها ، كما أنه ألمّ فيه بذكر الرّيح والرّعد والثقل والتّجهّم ، وهي ، جميعاً ، تجسيد لانفعاله بغزارته واتساعه وما اليهما . فالأخطل يوفّق ، غالباً . الى تلمّس المعادلات والكنايات والتشاييه ، بل والاستعارات التي تفي بغرّض التّجسيد .

إلا أن النزعة الوصفية ، كأنّما تعود فتسيطر عليه ، فيبدو وكأنّه يبصره ولا يُعانيه ، إذ يقول :

وكلُّ سماكيٌّ كأنَّ نِشاصَهُ إِذَا رَاحَ ، أَصلاً ، جَافِلَاتُ نَعَامِ

وقد انقطع بذلك سبيل الوجدان والشعور بالمفازة والفراغ ، فجعل يُطالع سحابه المتراكم بعضاً على بعضٍ في الأفق ، والمتسارع ، حيناً بعد حين ، فيتراءى له أنّه قطع من النّعام الجافل . ومثل هذا التشبيه يتصرّ على حدود الظّاهر ويطنغي عليه العقم واللاجدوى . لا شك ان المماثلة هي مماثلة فعلية حتى النقل والمحاكاة الفعلية . إلا أنّه لا طائل من دونه إذ اعاده الى ذاته ، ولم يبتّ فيه معاناةً ، أو يُضفّ عليه معنى .

ومهما يكن ، فإن السورة الحسية لا تبليغ المدى الذي طغت به على ما دون هذه الأبيات ، أو كما نجد فيما يلي حيث مثل هطولها بمثل مياه القرب ، مُشيراً الى دوامه واحتشاده :

أَهَاضِيبُ الدُّجَى مِنْ كُلِّ جَوْنٍ سَقَاهَا بَعْدَ سَاكِنِهَا سِجَالًا ١

- ١ - الأهاضيب : دفعات المطر . الدُّجَى : الظلمة وهنا إشارة إلى السحاب الأسود الداكن .
الجون : السحاب الأسود . السّجال : جمع سجل وهو الدنو .
م يقول إنّ المطر انهمرَ عليها من غيوم سوداء ، داكنة ، انهمار الماء من الدلاء العظيمة .

فَكَمْ مِنْ وَايِلٍ يَأْتِي عَلَيْهَا — يُلْتُ بِهَا ، وَيَخْفِلُ اخْتِفَالاً ١
 وقد يكرر ذكر الرعد والبرق تكراراً يسيراً ، كما في قوله :

يا دَارَ دَلْفَاءِ بَيْنَ السَّفْحِ وَالْغَارِ حُبَيْتٍ مِنْ دِمْنَةٍ أَقْوَتٍ وَمِنْ دَارِ ٢
 جَرَّتْ عَلَيْهَا رِيَّاحُ الصَّيْفِ أَذْيَلَهَا وَكَلُّ غَادِيَةٍ بِالمَاءِ مِهْمَارِ ٣
 تَلْتَجُ فِيهَا رُعُودٌ غَيْرُ كَاذِبِيَةٍ فِي بَارِقِ كَنْظَامِ الدَّرِّ مَوَّارِ ٤

خلاصة حول وصفه للطلل :

يستهلّ الأخطل ، غالباً ، بذكر الطلل ، ثم يُعيّن موضعه ويذكر صاحبه والعوامل التي أثرت فيه وأحالته . وهي ، غالباً ، الرياح والمطر والنبت الذي

- ١ — أَلْتَّ المَطْرَ : دَامَ أَيَّاماً ، لَا يُقْلَعُ . الاِحْتِفَالُ : هُنَا الاجْتِمَاعُ .
 م يقول إن مطراً كثيراً كان ينهمر عليها ولا يكف عنها طيلة أيام ، وإنه كان يجتمع ويزدحم فيها لكثرة هطوله .
- ٢ — الغار : المنخفض في الجبل ، أي أسفل الجبل . الدمّة : آثار الناس في الدار .
 أَقْوَتٌ : أَفْقَرَتْ وَخَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا .
 م يخاطب دار صاحبه ويعيّن موضعها ويحييها . بعد أن أفقرت وخلت من أهلها .
- ٣ — أَذْيَلَهَا : أَي غَبَارَ الرِّيحِ . الغادية : مَطْرَةٌ الصَّبَاحِ : المِهْمَارُ : الكثرة المطر .
 م يستكمل المعنى السابق ، ويقول إن الريح العاصفة الصيفية ، الكثيرة ، جرت عليها أذيالها ، وإن المطر الغادي المنهمر سكب صوبه عليها وعفى على آثارها .
- ٤ — تَلْتَجُ : يَرْتَفِعُ صَوْتُهَا . مَوَّارٌ : يَجِيءُ وَيَذْهَبُ .
 م يقول إن الرعد يقصف قصفاً غير كاذب ، إذ يعقبه المطر . كما أن المطر يتعاقب متألثلاً كالدر المنظوم .

يَسْتَبْعُهُ ، ثُمَّ يُعَرِّجُ عَلَى الْآثَارِ الْبَاقِيَةِ إِثْرَ ارْتِحَالِ سَكَانِهِ وَيُشَبِّهُهَا بِبَعْضِ النَّشَائِيبِ .
وَأَهَمُّ تِلْكَ الْآثَارِ النَّوْيُ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ١ :

وغير نؤي قديم الأثر ، ذي ثلمٍ ومستكين أميم الرأس ، مُسْتَلَبِ
وغير نؤي رمته الرِّيحُ أَعْصَرَهُ فهو ضَمِيلٌ كَحَوْضِ الْآجَنِ الْهَدَمِ
هل عَرَفْتَ الدِّيَارَ يَا بَنَ أُوَيْسِ دَارِسًا نَوِيْهَا كَخَطِّ الزَّبُورِ

وكذلك الموقد والرَّمَادُ كقوله :

حيِّ المنازلَ بَيْنَ السَّفْحِ وَالرَّحْبِ لَمْ يَبْقَ غَيْرَ وَشومِ النَّارِ وَالْحَطْبِ
وَعُقْرٍ خَالِدَاتٍ حَوْلَ قُبَّتِهَا وَطامِسِ حَبْشِيٍّ اللَّوْنِ ذِي طَبَبِ
أَتَعْرِفُ الدَّارَ أَمْ عَرَفَانَ مَنْزَلَةَ لَمْ يَبْقَ غَيْرُ مَنَاخِ الْقَدْرِ وَالْحُمَمِ

وقد يجمع ذكر النؤي والموقد والرَّمَادُ ، معاً كقوله :

أَتَعْرِفُ مِنْ أَسْمَاءَ بِالْجَدِّ رَوْسَمَا مَحِيلاً ، وَنَوِيًّا دَارِسًا قَدْ تَهَدَّمَا
وَمَوْضِعَ أَحْطَابٍ تَحَمَّلَ أَهْلُهُ وَموقدِ نارٍ كَالْحَمَامَةِ أَشْحَمَا

ويشير حيناً إلى المربض :

وأوار بَقِيْنِ فِيهَا خِـلَاءٌ حَوْلَ خَدِّ مِنْ القِطَا مَأْمُورِ

١ - عد إلى شرح ديوان الأخطل صفحة ٦٩١ و ٦٩٢ حيث نجد ثباتاً لهذه المعاني في الفهرس

والى بُرِّ الماء :

على آجِنٍ أَبَقَتْ لَهُ الرِّيحُ دَمْنَةً وَحَوْضاً كَأُدْحِيِّ النِّعَامَةِ أَثْلَمَا

وهذه الآثار تُوكِّد على التزعة الواقعية في وصفه ، يتخذ فيها جزئيات الواقع وخطوطه الظاهرة ، النائثة ، وهي التي تبقى فعلاً إثر ترحل الرّاحلين .

وربّما ذكر ترابه وشبّهه بالطّحين :

كَأَنَّ تُرَابَهَا مِنْ نَسْجِ رِيحٍ طَحِينٌ ، لَمْ يَدَعْنَ لَهُ نُخَالَا

أو تراه يُشَبِّه آثاره ببقايا الكتاب ، كما قدّمنا ، أو ببقايا الأمم :

فَأَصْبَحُوا لَا تُرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ كَانَهُمْ مِنْ بَقَايَا أُمَّةٍ ذَهَبُوا

وهناك مظاهر آخر يُدَلِّل بها على شدّة عفائه وخلائه ، وهي البهائم التي تحتلّه ، إثر ساكنيه ، وجلتها من التي لا تُقيمُ إلا في الأمكنة المففرة المتوحشة .
مثال ذلك البوم :

فَأَصْبَحَ مَا بَيْنَ الْكِلَابِ وَحَابِسِ قِفَاراً تُغْنِيهَا مَعَ اللَّيْلِ بُومَهَا
بُدِّلَتْ بَعْدَ نِعْمَةٍ وَأَنْيَسِ صَوْتِ هَامٍ وَمَكْنَسِ الْيَعْفُورِ

أو البقر الوحشية :

خَلَّتْ غَيْرَ أَحْدَاثٍ تَلُوحُ ، كَانَهَا نُجُومٌ بَدَتْ وَانْجَابَ عَنْهَا غُيُومُهَا

دَمْنٌ مَخْدَمَةٌ السَّوَادِ ، كَأَنَّهَا خَيْلٌ هَوَامِلُ بَتْنٍ فِي أَجْالٍ
تَرَعَى بِحَازِجُهَا خِلَالَ رِيَاضِهَا وَتَمِيسُ بَيْنَ سَبَاسِبِ وَرَمَالِ

وقد يجمع بين البقر الوحشية والنعام :

تَبَدَّلْتُ النَّعَامَ بِأَهْلِهِهَا وَصَوَارِ كُلِّ مُلَمَعٍ ذِيَّ مَالِ

وهو يبكي عليه حيناً ، ويحنُّ الى حبيته من دونه ، وقليلاً ما يظهر وعيه
لفاجعة التغيّر والزّمن . فهو أدنى الى أن يكون موضوعاً تقليدياً .

الباب الثاني

المرأة والغزل

تمهيد : لقد كانت المرأة أحد الموضوعات المهمّة التي تصدّى لها الجاهلي ،
كتعبير عن الهموم أو الأفراح الأساسية الملازمة لمصيره . فانت ترى امرأ
القيس ، وقد ألمّ بها إلاماً وصبياً ، حيناً ، في كلِّ ملمح من ملاحظها وعضو من
أعضائها ، بل وطبع من طباعها ، وحيناً آخر تراه يتولّأها باللذّة والشهوة والمغامرة
في قصائد تغلب عليها النزعة القصصيّة ، حيث يقتحم عليها محدعها ويؤاقعها
مواقعة الفجور والحرام ، غير متحرّج بحرجٍ أو مُتقيّد بحدٍّ أو فضيلة . ولقد
جى الأعشى مجراه في ذلك ، مع الحاف في الجانب الحسّي من التجربة ، حتى
إنّ قدوم الإسلام ، لم يخفّ هذا الإيقاع ، بل إنّه استكمل عدّته مع الشّمّاخ

ابن ضرَّار وسحيم عبد بني الحسحاس ومن اليهما . ثم اختصَّ جرير في العصر
الأموي بتلك المطالع الغزليَّة الشَّجِيَّة ، العميقة الايجاء ، النازعة ، غالباً ، متزج
الوجدانيَّة والعذريَّة .

أما الأخطل فقد أدمن الخمرة كامرئ القيس والأعشى ، ولكنه لم يذهب
مذهبهما في اعتناق فلسفة المُجُون والاحاد الاجتماعي ، مصرحاً بالتهتك الخُلُقِيَّ
العام . لقد كانت الخمرة بالنسبة إليه أداةً للهو والطرب ولم يتكرَّس بها للمجاعة
السَّادية الرَّعناء ، لهذا ظل موقفه من المرأة باهتاً ، تقليدياً ، إذا جاز التعبير ،
لا يقف فيه موقفاً واضح المعالم ، شديد التوتر ، كما في مدائحه السياسيَّة وأهاجيه .
فالأخطل ليس من الشعراء الوجوديين الذين يُعانقون اللذة والألم في كأس واحدة ،
ويبلون حسرة الخطيئة والنَّدَم والوحشة والعبث والفراغ ، ان هي إلا خواطر
تخطر له وأوصاف يتبارى بها ، وان كان يَبْثُ عبر قصائده شعوراً قانطاً أو
متشامئاً من المرأة ، مسيئاً بها الظن ، ناعياً عليها تَبَدُّها وغدرها .

وقد نُصنِّف غزله ، من هذا القبيل ، في أنماطٍ ثلاثةٍ أوَّلُها نمط الوصف
العام ، حيث يَشْخَصُ أمام المرأة بحواسِّه ، وبخاصَّة حاسة البصر ، يؤدِّي بها
ما يطالعه في المرأة ، يعظمه ويُغالي به ويقرُّنه بسواه . وفي هذا النمط تظهر
ملامح المرأة وأعضاؤها وقسماتها في لَوحةٍ كاملةٍ أو مجزوءة . وهناك النمط
الثاني الذي تطفر به الشهوة طفرتها ، يُلْمَحُ إليها أو يُصرِّحُ بها ، ويلوب حول
مواضع الفتنة واللذة من جسدها . أما النمط الثالث فهو نَمَطُ السرد والأقصوصة
حيث يُفخر بما ألمَّ به منها ، متعرِّضاً للمخاطر ، مقتحمًا لها على غرار سواه ،
دون أن يبلِّغ في ذلك مبلغ امرئ القيس ، قبلاً ، أو عمر بن أبي ربيعة
في عصره .

أولاً : وصفها : وهو يغلب على شعره فيها ، إذ كان الأخطل من شعراء
الوصف ، يميل إليه بميل من طبعه وهوايته . فهو يستهلُّ ، حيناً ، بذكر الطلل

والحبيبة وينزع إلى وصفها ، غالباً ، عبر هالةٍ من التذكّار حيث يستعيدُ صور
جمالها ، يشيدُ به ويتغنّى بكماله أو مثاله .

ففي الأبيات التالية ، مثلاً ، تراه يُخاطبُ صاحبةً مَوْهُومَةً دَعَاها أمّ
بِشْرٍ ، ذاكرًا نأيها وهجرها ، مستطرداً إلى وصفها :

ألا يا اسلمي يا أمّ بِشْرٍ على الهَجْرِ وعن عَهْدِكِ الماضي ، له قِدَمُ الدهْرِ ١
ليالي نَلهُو بالشَّبَابِ الذي خَلا بِمُرْتَجَةِ الأَرْدافِ ، طَيِّبَةِ النَّشْرِ ٢
أَسِيلَةُ مَجْرَى الدَّمْعِ ، خَفَاقَةُ الحِشا مِنْ الهَيْفِ ، مِبراقُ التَّرائبِ والنَّحْرِ ٣
وتَبَسُّمُ عَنْ أَلْمَى شَتِيَّتِ نَبَاتِهِ لذيذٍ ، إذا جادَتْ بِهِ ، واضحُ الثَّغْرِ ٤

١ - م يخاطب صاحبه أم بشر ويتمنى لها السلامة ، بالرغم من نأيها لما كان عهدده فيها ،
قبلاً ، من مودة قديمة صافية .

٢ - م يتذكر أيام لوه الماضية بامرأة ثقيلة العجز ، طيبة الرائحة . وهو يشير هنا إلى صاحبه أم
عمرو التي ذكرها في البيت السابق .

٣ - الأسيلة : السهلة الخدين . خفّاقة الحشا : ضامرة . الترائب : جمع تريبة وهي موضع
القلادة من النحر .

م يقول إنها سهلة الخدين ، ناعمة ، وإنها ضامرة القوام ، هيفأوه ، وإنها لماعة النحر .

٤ - اللَّمَى : اللثة تضرب إلى السواد . الشّتيت : الأسنان المنتظمة .

م يصف فمها ويقول إنه ألى ، منتظم الأسنان . لذيد المقبل ، متألق .

وما يُلَفَّتُ الانتباه في هذه الآيات تحسُّره على زمن الدَّهْوِ بالمرأة : « ليالي نَدَّهْوِ بالشَّبَابِ الذي خلا » . وفعل « لَهَا » قد يَنُمُّ على طبيعة صلته بالمرأة . وهي صِلَةٌ الدَّهْوِ الذي لا تأخذه فيه فاجعة العاطفة وعبوديتها ، وتنازعه فيها تَنَازَعًا عميقًا . أما وصفها فيسهلُ فيه بنبذة حسيَّة إذ يُشير الى ارتجاج ردفيها من دُونِهَا . وهو ارتجاج الشهوة والفتنة . إلا أَنَّهُ يَعْبرُ به وَيَتَجَاوِزُهُ إلى أوصاف أَعْفَى وَأَعَمَّ ، ذاكراً طيب نشرها واسالة خدَّهَا وضمورها ، وتألَّق تراثيها ووضوح ثغرها . وهذه الأوصاف لا تعدو ما هو مأثور في سُنَّة الغزل وتقاليده . وربَّما خفت فيها الانفعال الخالق ، فحشد من دونه فضائل نموذجية ، مثالية لها ، ولم يكد يُمثِّل عليها أو يَشبِّهها أو يستعير لها أو يتكسَّى عليها . فهو يؤدي الصفة وحسب ، يقول إنَّهَا طيبة النشر ولا يَصِفُ طيبها ولا يقرُّنه بسواه ، فيظلُّ خافِتَ الوَقْعِ في أنفُسِنَا ، لا تُطالِعُنَا سورته ولا تتمثِّل حقيقته . فهو في أدنى ما يتلقفه المرءُ من أمر الطَّيِّب . ومثل ذلك ذكره لاسالة وجهها ، وهي الصفة العامة لجمال المرأة العربيَّة اقتصر من الاشارة إليه على ادائه اللفظي المباشر . فهو وصف لفظيُّ ، إذا جاز التعبير . ثم إنَّه يتناولها عضواً عضواً ، فيلمُّ بِمُخَصَّرِهَا ويجعله خفياً ، أي ملتويًا ، يُقبَلُ وَيَصْدُ ، طرباً ، ضامراً ، وربَّما أضفى الخفقانُ عليه بعض التجربة وسما به عن الوصف اللفظي ، القاصر . أما تألَّقُ تراثيها والتماعها ، فداني المتناول ، قريب الملاحظة ، يَنُمُّ على أن الأخطل ما زال كالجاهليين يُؤخذ بما يَسَطع في ظاهر الحسِّ ، وهو استعارة لقول امرئ القيس : « تراثيها مصقولة كالسَّجَنجَلِ » ، وقد سما عليه الشاعر الضليل بالتشبيه دون أن ينفذ من دونه الى ما وراء الظاهر . أمَّا ثغرها فقد وصفه بأوصافه وألفاظه إذ قال إنَّه أَلْمَى ، شتيتٌ ، وهاتان اللفظتان هما نِعْتَاهُ المباشرتان ، تَحْتَصَّانُ به وتردفاً إثره كأبسط ما يذكر بشأنه .

وعلى الجملة ، فإن الأخطل لم يُبدِ صفحته الحقيقية في الغزل ولم يُبدع إبداعه . بل تلقف المعاني بيُسْرٍ واقتضاب .

وربما سما على التقرير في الآيات التالية ، دون أن يُدرك سورةً من سور الإبداع :

والمالِكِيَّةُ ، قَدْ أَبْصَرْتُ مَا صَنَعْتُ لَمَّا تَفَرَّقَ شَعْبُ الْحَيِّ ، فَاَنْصَدَعُوا ١
يُسَارِقُ الطَّرْفَ مِنْ دُونَ الْحِجَابِ ، كَمَا يَرْمِيكَ مِنْ دُونَ عَيْصِ السُّدْرَةِ الذَّرْعُ ٢
وَعَارِضَيْنِ ، يَجُولُ الطَّيِّبُ فَوْقَهُمَا وَمُقَلَّةٌ ، لَمْ يَخَالِطْ طَرْفَهَا قَمْعٌ ٣
فَأَنَا كَالسُّدْمِ مِنْ أَسْمَاءَ ، إِذْ ظَعَنْتُ أَوْهَتْ مِنَ الْقَلْبِ ، مَا لَا يَشْعَبُ الصَّنَعُ ؛

١ - المالِكِيَّةُ : امرأة من بني مالك . الشَّعْبُ : المتفرِّق . انصَدَعُوا : تفرَّقوا .

م ينقطع في هذا البيت إلى الغزل ، ويقول إنه أبصر ما قامت به صاحبه عند تفرُّق الشَّمَل والرحيل .

٢ - العَيْصُ : الشَّجَر الملتف . الذَّرْعُ : ولد البقرة .

م يقول إن صاحبه كانت تختلس النَّظْر إليه من دون الحجاب ، فتبدو عيناها كعيني ولد البقرة الوحشية المُنْتَفِ من خلال الأشجار . وقد أقامها بين الشَّجَر الملتف ليستقيم التشبيه بين عينيها من دون الحجاب وعينه فيما بين الشَّجَر .

٣ - العارِضَانِ : الحدَّانِ . القمَعُ : البئر يكون في الأجفان .

م يصف خديها المضمخين بالطيب وعينيها التقيتين اللتين لا تشوب أجفانها البثور .

٤ - السُّدْمُ : المغموم . الصَّنَعُ : الحاذق بالعمل . شَعْبٌ : أصلح .

م يقول إنَّ الهمَّ والغمَّ اعترياه ، إثر رحيل أسماء ، وإنها أحدثت في قلبه صدعاً لا يقوى على رأبه وإصلاحه الصَّنَاع الحاذق .

فالموقف ، هنا ، هو موقف تَفَرَّقٍ ووداع ، لكنَّ الشَّاعر أحاله إلى موقف وصف وسرد فيما نزع به واستطردَّ إليه . ذلك أن حبيته جعلتْ تُخالسه النَّظر بعيني ولد البقرة الوحشية . وقد اعتمد التشبيه التمثيليَّ ، المتعدِّد الأطراف ، دون خلق من لدنه ، بل بتصرُّفٍ في خلية التشبيه القديم ، العريق في المقابلة بين عَيْنِي الحبيبة وعَيْنِي البَقْرَةَ الوحشيَّة أو ولدها . ثم تراه وكأنَّه يستبطن الدلالة على نعيمها من ذكر الطَّيِّب المتضوِّع على خديها . والمرأة المتطية هي المرأة المرفقة . الناعمة : إلا أن سورة نعيمها تبدو باهتة ، كعظم معانيه الغزليَّة إذ لم يَسْتَقِّ لها تَأْوِيلُها واستعاراتها وكناياها ولم يَتَمَرَّسَ فيها بالصورة البعيدة ، الصعبة المتناول . وقد نتحقَّق من ذلك بقوله : « ومُقلَّة لم يُخَالِطُ طرفها قَمَعُ » ، أي لم تعثرها البثور ، وهو تعبير فني فاشل إذ اشادَ بالمُقلَّة بانتفاء العيب الافتراضيَّ فيها . فالأحطل يُبدعُ في الوصف الصَّحراويِّ ، أو ما إليه ، أما في وصف المرأة . فهو كأنما يتهادن بل يتخاذل ، فيَحْبِبُو على أديم المعاني والمظاهر ويقتصر على حدودها التَّفْظِيَّة و تشابيهها السَّاقِطَة .

أما في البيت الأخير ، فإنَّه يعود لذكر الفراق وما آلت إليه حاله منه ، مغرقاً في الماديَّة ، إذ مثله بالوعاء المتصدِّع والذي لا يُرَأَبُ . وهذا البيت يميلُ إلى الوجدانيَّة عن الوصفيَّة ، ولكنها الوجدانيَّة الفاقدة الشجو والذهول .

وقد نفع في أبيات أخرى على تشابهه أبعد متناولاً وأكثر تفصيلاً ، مع قليل أو كثير من الغنائيَّة والشجو . حيث يعرض لمثل المعاني السابقة ، دون أن يقتصر على إيرادها بشكلها التقريري . بل يَسْهَدُ إلى بعض التشابه التي تكسوها بالانفعال والغلوِّ . من ذلك قوله :

فَلَيْسَتْ ظَبِيَّةٌ غَرَاءُ ظَلَّلتْ بأعلى تَلَعَةٍ تُزْجِي غَزَالاً
بأحسن مُقلَّةٍ مِنْهَا جيداً ووجهاً ناعماً كُسي الجَمالاً

- جری منها السَّوَاكُ عَلَى نَقِيٍّ كَأَنَّ الْبَرْقَ إِذْ ضَحَكَتْ تَلَالِا ١
 كَأَنَّ الْمِسْكَ عُلِّ بِهَا ذَكِيًّا وراحاً خالطَ العَذْبَ السُّزُلَا ٢
 إِذَا مَا الْقَلْبُ وَالخَلْخَالُ ضاقَا جَرَى مِنْهَا وشاحاها ، فجالا ٣
 تَضُمُّ نِيَابُهَا كَشْحًا هَضِيمًا وَأَرْدافًا إِذَا قَامَتْ ثِقَالا ٤
 إِذَا قَامَتْ تَنوُّهُ بِمُرْجَحِينَ كَدَعِصِ الرَّمْلِ يَنْهَالُ انهيالا ٥

فالأخطل يقرن بين الحبيبة والظبية ، لكنه ينأى عن الابتدال بالتمثيل والتفصيل إذ يصفُ الظبية وهي تَرْتَعِي وتُرْجِي ابنها ، وربما تعمّد ذكرها في ذلك الوضع أو في تلك الحالة لأن الأمومة تضيء عليها الرقة والحنان والجمال . إلا

١ - السَّوَاكُ : عود تُطَهَّرُ به الاسنان .

م : يقول إن السَّوَاكُ يجري مِنْهَا على أسنان نظيفة نقيّة تتألق وتلمع كالبرق المتلالي .

٢ - م : يستكمل معنى البَيْتِ السابق ويقول إن رائحة فيها شبيهة برائحة الْمِسْكِ الذكي كما أن لريقها طعمَ الحَمْرَةِ الممزوجة بالماء البارد .

٣ - الْقَلْبُ : السَّوَارُ .

م : يقول إنّما ممثلة الذراعين والساقين بحيث يضيق عنها السَّوَارُ والخلخال . فيما يرجح ويتمايل وشاحها على خصرها لرقته وضموره .

٤ - م : يكرّر معنى الشطر الأخير ويقول إن خصرها ضامر ، فيما عظمت أردافها وتناقلت . والعرب يؤثرون هذا الضرب من الجمال .

٥ - الْمُرْجَحِينَ : الذي يهتزُّ من ثقله . الدَّعِصُ : كتيب الرَّمْلِ .

م : يقول إن عجزها ثقيل يتمايل ويرجع من دونها ، وإنه لطرقاته يكاد أن ينهار ككتيب الرَّمْلِ .

أن الضوح يسطع سطوعه الخاوي من تعداده لمواضع الشبه في صيغ التمييز ،
والشعر لا يسبغ هذه الصيغة لتزوعها منزع التوضيح والتفصيل . كما ان التقرير
المُسْفَ يَطْفِي على بعض معانيه كقوله : « ووجهاً ناعماً كُسيَ الجمالاً » .
ونعته بالنعمومة يدنو به الى العامية وذكره لاكتسائه بالجمال أوقعه بأفة التجريد ،
المتضاعفة بأفة التقرير . أما سائر التشايبه . فتسمو عليه بالانفعال والصورة ، جميعاً .
إذ جعل البرق يخطف ، بل يتلألأ في ضحكتها . وهذا التشبيه ينطوي على تنويه
ببياض أسنانها ، لكنه لا يقف عنده ولا يُحدُّ بحدوده ، لأنه يصف ضحكتها
وتألق الجمال وإشعاعه على محيّاها كالبرق . ولقد تنصت الشاعر . هنا . إلى
المعاني اللطيفة الخفيرة التي تتضوع وتواري خلف المعاني الظاهرة . فالوصف
انفعالي ، ابداعى وان لم تكن ظلال التقليد لم تنزل منه وتتعف فيه .

وقد يجري ، كذلك ، وصفه لرضابها :

كَأَنَّ الْمِسْكَ عُلِّ بِهَا ذِكْيٌ ————— وراحاً خالطَ العذبَ الزُّلالاً

فالعنى تألفي جمع فيه الدلالة على طيب رائحة فمها بالمسك وعدوبة علته
في الخمرة المزوجة بماء السحاب . والمسك هو التشبيه التقليدي الذي يرمز
به إلى طيب الرائحة . تداوله الشعراء القدماء للخمرة وظل قائماً فيهم حتى العصور
العباسية وما بعدها . ويجري على هذا الغرار تشبيه رضابها بالخمرة . وهو مسمند
من الشعر القديم ، كقول عبيد الأبرص :

إِذَا دُقَّتْ فَاهَا ، قُلْتَ طَعَمَ مُدَامَةَ مُشْعَشَعَةٍ . تُرْخِي الإِرَارَ . قَدِيحُ

وهذه النزعة التوفيقية ، التأليفية تطغى على سائر المعاني . إذ تراه يُؤلّف
بين ضُمُورِ الحصر وامتلاء الذراعين والساقين . فالسوار وهو حلي اليد .
والخلخال . وهو حلي الساق لا يتقلقلان ولا يترجحان ، فيما يخفق
وشاحها ويضطرب على خصرها لشدة ضُمُوره . ولقد كدّ الشاعر في مزوجة

المعنيين المتناقضين بحيث يغالي أحدهما بالآخر ، فيما هو يَنْقُضُهُ . التناقض .
هنا ، يُولِّدُ المِثَالِيَّةَ . ويتفق مع ذلك قوله :

تَضُمُّ ثِيَابَهَا كَشْحاً هَضِيماً وَأَرْدَافاً إِذَا قَامَتْ ثِقَالاً
إِذَا قَامَتْ تَنَوُّءٌ بِمُرْجَحِـنٌ كَدِغْصِ الرَّمْلِ يَنْهَالِ انْهِيَالاً

فالرِّدْفُ الثَّقِيلُ يترجِّحُ من دون خصرها الضَّامِرِ وشِدَّةُ ضموره تضاعف
من ثقل ردفه ، وهو المِثَالُ الذي لا يزال يترسِّمُهُ شعراء الغزل العرب ، ويرد
ذكر الرَّمْلِ المنهار ليؤكد على النزعة الماديَّة المغرقة ، الصَّمَاءُ .

وقد يجمع المعاني والأوصاف الغزليَّة المأثورة في مقطع مجزوء ، بشكلٍ تقريرِيٍّ ،
مباشر ، كذكره لضمورها وامتلاء ساقها وجمال منطقتها ودلالها واسترسال
شعرها ، مشبهاً جمالها بالتمثال والدُّمِيَّة ، معتمداً الإطلاق والتعميم بجلها تفوق
كُلِّ من دونها . فهو يقول ، مثلاً ، « في صورة تَمَّتْ وأكْمَلْ خَلَقَهَا » ،
حيث يُمَجِّدُ الجمال ويُشِيدُ به في الذَّهْنِ التجريدي اللَّغْظِي كالتَّمام والكمال
وما إليهما . ويكرِّرُ ذلك بمثل قوله :

تَمَّتْ لِمَنْ نَعَتَ النِّسَاءَ وَأَكْمَلْتَ نَاهِيكَ مِنْ حُسْنِ لَهَا وَجَمَالَ

وهو يكرِّرُ المعنى الإطلاقي السابق ويضيف إليه ذكر الحسن والجمال ، مضاعفاً
من النزعة اللَّغْظِيَّة التجريديَّة . إلا أنه قد يحاول أن يترنِّع عن أديم التقرير
واطلاقيَّة التجريد ، عندما يَنْزِعُ إلى تشبيهها بالرَّوضة :

بِغَرَبِرَةٍ نَفَخَ النَّعِيمَ شَبَابَهَا غَرْنِي الْوِشَاحِ ، شَبِيْعَةَ الْخَلْخَالِ ١

١ - الغَرَبِرَةُ : هنا الطَّيْبَةُ ، البريئة . غَرْنِي : هنا ضامرة .

م : يقول إنَّها فتاة غريبة ، ضامرة الحَصْر ، ممتلئة السَّاق ، وإنَّها نشأت في النعيم ، فازدهر
شبابها ونَمَا .

في صورةٍ تَمَّتْ وأكْمِلَ خَلْقُهَا للنَّاظِرِينَ ، كصورةِ التَّمثالِ ١
 تَمَّتْ لِمَنْ نَعَتَ النِّساءَ ، وأكْمِلَتْ ناهيكَ مِنْ حُسْنِ لها وَجَمالِ ٢
 وَمَلاحَةِ في مَنطِقِ مُتَرَحِّمٍ مِنْها ، وَحُسْنِ تَقْتُلِ وَدَلالِ ٣
 تَرْنُو بِمُقْلَةٍ جُوذِرِ بِخَميلَةٍ وبِمُشْرِقِ بَهجِ وَجيدِ غَزالِ ٤
 ويوارِدِ رَجِلِ ، كَأَنَّ قُروَنَهُ مِنْ طوولِهِ . موصولةٌ بِجِبالِ ٥
 ما رَوْضَةٌ خَضراءُ ، أَزْهَرَ نَورُها بالقَهْرِ بَينَ شقايقِ وِرمالِ ٦

١ - م : يقول إن خيالها تبدى له بصورة مكتملة الجمال كالتمثال .

٢ - م : يقول إن من نعت النساء ويصفهن ، يجد فيها غاية ما يصبو إليه من آيات الجمال .

٣ - التقتل : التكرار في السير .

م : يقول إنها جميلة الصوت رخيمة وإنها تسير سير الدل والتشني .

٤ - ترنو : تنظر الجوذر : ولد البقرة الوحشية . الحميلة : الموضع الكثير الشجر .

م : يقول إن طينها بدا له . وهي تنظر إليه بعين الجوذر الذي يرتعي الحميلة . ووجه مشرق وضاء ، ويجيدٍ شبيه بجيد الغزال .

٥ - الوارد : الشعر الطويل . المسترسل . رجيل : مسرَّح . القرون : هنا الصفائر .

م : يصف طول شعرها ، ويقول إنه يوهم الناظر إليه أنه موصول بجبال . أي إن طوله شبيه بطول الحبل .

٦ - القهر : موضع في أسافل الحجاز . الشقيقة : الفرجة بين جبلين . النور : الزهر .

م : يشرح في هذا البيت بوصف الروضة الخضراء . ليخلص من ذلك بعد أبيات إلى مقارنتها بخبيته . مؤثراً لها عليها . يقول إن الروضة الخضراء المتفتحة الأزهار في موضع القهر بين الأودية والرمال .

- بِهَجِّ الرَّبِيعِ لَهَا ، فَجَادَ نَبَاتُهَا ۱ وَنَمَتْ بِأَسْحَمَ وَإِبِلِ هَطَالٍ ۱
 حَتَّى إِذَا التَّفَّ النَّبَاتُ . كَأَنَّهُ ۲ لَوْنُ الزَّخَارِفِ ، زُيِّنَتْ بِصِقَالٍ ۲
 نَفَتِ الصَّبَا عَنْهَا الْجَهَامَ . وَأَشْرَقَتْ ۳ لِلشَّمْسِ ، غِبَّ دُجْنَةً وَطِلَالٍ ۳
 يَوْمًا ، بِأَمْلَحَ مِنْكَ بِهِجَةَ مَنْطِقِي ۴ بَيْنَ العَشِيِّ وَسَاعَةِ الْأَصَالِ ۴

وإذا أغفلنا الأبيات الأولى المتهادنة . بل المُسِفِّة ، نجد أن تشبيها بالروضة هو محاولة من المحاولات العسيرة التي يَرتادُ فيها التجارب الفنيّة الحديّة . كما هو شأنه في بعض المدايح . فهذه الروضة الخضراء قد عمّ وحفل نبتُها ، بل إن الربيع ينتشر فيها ويُبثُّ البهجة ويَبعثُ النَّباتَ العميمَ المرويَّ بالمطر الشديد الانهمار . وهناك ألوانٌ وزخارفٌ ووشيٌ وتمنيقٌ . أي زهور كثيرة . مُتعدّدة ، كما أنّ الشَّمسَ تألقت وسطعت فيها وبدّدت الظلام . ولقد حشد لهذه الروضة عناصر الرّوعة المطلقة . كما كان شأنه في وصف الفرات الذي تكتنّى به عن

١ - الأسحُم : السحاب المتكاثف الغيوم .

م : يقول إن الربيع أبقظها فتألقت نباتها ، كما أنّ المطر الغزير انهمر عليها من السحاب الأسود المتجهم .

٢ - يقول انه إذا ما تكاثرت النَّباتُ والتفَّ بعضاً على بعض . فبدا كالزخارف الكثيرة الألوان المصقولة .

٣ - الصَّبَا : الريح الشرقية . الجَهَام : السحاب البادي العُبوس . الدُّجْنَةُ : هنا الغمام المطبق . الريان ، المظلم . الطُّلال : جمع ظلّ وهو الندى أو المطر الخفيف .

م : يقول إن الريح الشرقية بدّدت عنها الغيوم وأشرفت صباحاً مبلّلة بالندى .

٤ - م : هنا ينتهي التشبيه الاستطرادي الذي باشره منذ أربعة أبيات ويقول إن تلك الروضة الطيبة النَّضرة النديّة ، ليست بأجمل من صاحبتة وأمتع من حديثها معه عندما يُقبل عليها في العشي .

الكرم . فالعنصر الأول هو الزَّهر وما ينطوي عليه من أشداء ولون وأشكال ، وإذا نسبناه الى المرأة بدا لنا أن المرأة الشبيهة بالزَّهرة هي امرأة الجمال والفرح والنشوة في نوع من الإحساس العميق بصوفيَّة الجمال المتجسِّد فيها . ثم يُضيف الى ذلك ذكر الربيع ، وهو تكرار للزَّهر ، بل إنَّه أعمُّ منه ، إذ يترأى لنا فيه الصَّحو والضياء والماء والخضرة ، ومعنى الجمال المُتفتِّح من جديد . والمرأة هي ربيع في جمالها وفي تفتُّح الجمال الجديد ، بل تفتِّحه في صباحها ، ويرد ، من ثمة ، اللّون ، وقد جعله كالزُّخرف ، إذ ان للمرأة ألوانها الجميلة في لون بشرتها وتورِّد خديها . وألق وجهها وبسمتها وعينيها ، وتستكمل هذه الصورة بالشمس ، وهي رمز النور والفرح والأجواء الخالية من أي كدر وهم . فالصُّورة مركبة ، متعدِّدة الأبعاد والجوانب نَمَتْ بتشبيه استطراديّ ، ولكنها تمثل الرؤيا الشعريَّة عند الأخطل المتجسِّد في إطارٍ حسيّ ، يُبدعه الشاعر من تحسُّسه العميق بروح الطبيعة وضميرها ونشوته في أرجائها . ومع أنَّ هذه الصُّورة ذات مؤدَّى غزليّ ، فإنَّها تُطلعنا على نموذج عميق الايحاء لمدى استغراق الشاعر في عالم الطبيعة وإلفته بها وفرحه في معانقة ألوانها وأشداها .

ولقد تمازج واقع المرأة وواقع الطبيعة منذ القدم في وجدان الشاعر ، يجتزىء ، حيناً ، بالمقارنة بينهما في التشبيه المبتسر ، وأحياناً في الصورة الاستطرادية المتمادية . فالمرأة تتباين عن الطبيعة ، ظاهراً ، لكنهما تتآلفان وتتعانقان في التدليل على العافية والجمال والفرح وكمال الوجود ومثاله . ولعنتره في معلقته مثل هذه المقارنة المتمادية بين المرأة والطبيعة ، لكنه ذهب فيها مذهب الوصف الثقلي المنسوخ .

وهكذا يمكننا القول ان الأخطل إذ يُمعِنُ في موضوعه : أياً كان ، ينفذ فيه ويستطلع منه أقصى ما يُدرك منه ، ويحدق به في كل جهة ويلمُّ بكل احتمال ، فضلاً عن النفاذ الى ضميره . ولتتمثّل عمق الإلتفاتة الأخيرة في قوله :

يَوْمًا ، بِأَمْلَحَ مِنْكَ بَهْجَةَ مَنْطِقِ بَيْنِ الْعَشِيِّ وَسَاعَةِ الْآصَالِ

فهو يؤثر بهجة الحديث على بهجة الروضة . والمهم في ذلك أنه تنصّت الى

جمال الصَّوت حيث وبلت المرأة الى ضميره من خلال اذنه ، ولم تكن تلج من خلال البصر . فهذه الفلذة تجعلُ الأخطلُ من رواد الأطياف الشعورية الخافتة ، المنطفئة .

وقد يُعرج من هذا الوصف العام للمرأة إلى بعض اعضائها وملاحظها ، فيُغرق ، مثلاً ، بوصف ثغرها ورضابها . عبر أبياتٍ تطولُ أو تقصرُ في نوعٍ من التشبيه الاستطرادي . فهو يستهل بذكر عناقها ومُقبَلها العذب ، الزلال ، وألق بسمتها المماثل للصحو غبَّ المطر . وبرودة ثغرها المزوج رضابه بالخمرة والثلج . وينطلق ، إثرئذ ، واصفاً الخمرة بأوصافها . فالموضوعات الوصفية الخاصة كانت تَخْلُبُ لُبَّ الأخطل ، حيناً ، فينصرف إليها . متروضاً على رياضة الشعر . متبارياً به على سواه . وربما كان الاستطراد سبيلاً إلى هذه المنافسة في ارتياد أقصى غاية المعاني .

اليكه يقول في مثل ذلك :

تَشْفِي الضَّجِيعَ ، إِذَا أَرَادَ عِنَاقَهَا بِمُقَبَّلِ عَذْبِ الْمَذَاقِ زَلَالِ ١
صَافٍ ، يَرِفُ كَأَنَّمَا ابْتَسَمَتْ بِهِ عَنُ غِبِّ غَادِيَةٍ ، غَدَاةَ شَمَالِ ٢
شِيمٍ ، كَأَنَّ الثَّلْجَ شَابَ رُضَابَهُ بِسُلَافِ خَالِصَةٍ مِنَ الْجَرِيَالِ ٣

١ - م : يقول انها طيبة الثغر ، تُعَلِّقُ مُقَبَّلَهَا منه بالريق العذب الزلال .

٢ - يَرِفُ : يبرق ويتلألأ . الغادية : المطرة المبكرة .

م : يصف تألق ثغرها ويقول إنه يتلألأ ويتألق فيما تلوه بسمنها فكانته قد علَّ بالمطرة المبكرة .

٣ - شِيمٍ : بارد . الجريال : الخمرة الحمراء .

م : يقول إن من يقبله يشعر ببرودة ونشوة كأنه يخنسي الخمرة الممزوجة بالثلج .

صَهْبَاءُ ، صَافِيَةٌ ، تَنْزَلُ تَجْرُهَا ، ببلادِ صَرَخَدَ ، مِنْ رُؤُوسِ جِبَالِ ١
 مِنْ قَرَقَفِ الزَّرْجُونِ فَتَّ خِتَامُهَا ، فَالِدُنُّ بَيْنَ حَنَابِجٍ وَقِلَالِ ٢
 مِنْ قَهْوَةٍ نَفَحَتْ ، كَأَنَّ سَطِيعَهَا ، تَضَوَّعَ فِي عَدَاةِ شَمَالِ ٣
 أَوْ رَاحِ ذِي نَطْفٍ ، يَظَلُّ مُتَوَجِّجًا ، لِلشَّرْبِ . أَصْهَبَ . قَالِصِ السَّرْبَالِ ٤
 فَكَذَلِكَ نَكَّهْتُهَا ، إِذَا نَبَّهْتُهَا ، وَالجِلْدُ غَيْرُ مُدْرِنٍ ، مِتْفَالِ ٥

١ - صَرَخَدَ : موضع في الشام ، شهر بخمرته .

م : يشير هنا إلى الموضع الذي اجتلبت منه تلك الحمرة ويقول إن تجارها حملوها من صرخد حيث نمت في رؤوس جبالها .

٢ - القَرَقَفُ : الحمرة التي تحدث رعدة في شاربها . الزَّرْجُونُ : شجرة الكرم . الحَنَابِجُ . جمع حنيج : الممتلئ الضخم .

م : يقول إنها حمرة ترعد شاربها وإنها استخرجت من العنب الكريم . وإن ختامها قد فت عنها لأنها كانت مقلقة ، معتقة في دنان كبار وصغار .

٣ - نَفَحَتْ : أي بعثت رائحتها . سَطِيعُهَا : انتشار رائحتها الطيبة .

م : يصف طيبها ويقول إنها تنفحه كطيب المسك المتضوع الذي تذريره ريح الشمال .

٤ - النَطْفُ : اللؤلؤ . أَصْهَبَ : أشقر .

م : يقول من راح ساق مُزْدَانٍ باللؤلؤ والحلي لا يزال قائماً لتأدية الحمرة . وأنه أشقر . مُتَقَلِّصُ الرِّدَاءِ .

٥ - المِتْفَالُ : الكريه الرائحة .

م : ينتهي من وصف تلك الحمرة ليخلص في هذا البيت إلى القول بأن طعم ثغر حبيته يشبهها في طيب مذاقه ويردف بأنها طيبة الرائحة .

ويُلَفِّتُنَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَصْفُهُ لِلشَّعْرِ فِي فَلذَّةِ تُمَثِّلُ وَقَعَهُ فِي النَّفْسِ فَضْلًا
 عَمَّا يَطَالَعُهُ فِي الْعَيْنِ وَالْحَسِّ . فَهُوَ يَقُولُ إِنَّهُ صَافٍ فِي نَعْتِ مُبَاشِرٍ ، لَكِنَّهُ
 لَيْسَ خَافِتًا أَوْ رَاكِدًا إِذْ أُنْ صَفَاءُ الشَّعْرِ لَيْسَ صِفَةً مَبْذُولَةً فِيهِ ، بَلْ إِنْ الشَّاعِرُ
 اسْتَطْعَمَهَا مِنْهُ . الصَّفَاءُ يَنْطَوِي ، هُنَا ، عَلَى مَعْنَى الْأَلْقِ وَالْبِيَاضِ ، يَتَكَامَلُ مَعْنَاهُ
 وَيَنْجَلِي بِقَوْلِهِ إِنَّهُ « يَرَفُّ » ، كَأَنَّمَا ابْتَسَمَتْ بِهِ عَنْ غَبِّ غَادِيَةِ غَدَاةٍ شِمَالٍ . وَقَدْ
 قَرِنَ بَيْنَ الشَّعْرِ وَنَوْعٍ خَاصٍّ مِنَ الصَّحْوِ ، لَيْسَ الصَّحْوُ الْمَطْلُوقُ ، بَلِ الصَّحْوُ
 الَّذِي يَتَأَلَّقُ بَعْدَ انْفِشَاحِ الْمَطَرِ الْمُبَكَّرِ وَهَدْوِ الْعَاصِفَةِ . وَفِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَشْهَدِ يَكُونُ
 الصَّحْوُ بَلِيلاً كَالشَّعْرِ ، بَلْ يَكُونُ عَاطِرًا مِثْلَهُ ، وَكَأَنَّ الشُّعَاعَ لَا يَنْطَلِقُ مِنَ الْجَوْ ،
 بَلْ يَنْبَعِثُ مِنَ الْأَرْضِ وَالزَّهْرِ وَالشَّجَرِ ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ ، فَانْ هَذِهِ الْمَقَارِنَةُ لَا
 تَقُومُ عَلَى الْمُعَادَلَةِ الْمُنطِقِيَّةِ وَعَلَى الْفَهْمِ ، بَلْ عَلَى الْحَدْسِ وَالْأَسْتِشْرَافِ وَالِاسْتِحْيَاءِ .
 فَأَيَّةُ رِقَّةٍ أَعْمَقُ وَالنُّطْفِ مِنْ هَذَا التَّوْحِيدِ بَيْنَ ثَغْرِ الْمَرْأَةِ وَالطَّبِيعَةِ النَّاهِضَةِ مِنْ
 دُونَ الْمَطَرِ وَالرِّيْحِ . هَذَا بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ الصَّافِي يَعْطُرُ فِي زِحْمَةِ الْآيَاتِ الْوَصْفِيَّةِ
 التَّقْلِيدِيَّةِ ، الْمُرْتَبِنَةِ لِلنَّسْخِ وَالنَّقْلِ .

وَيَنْطَلِقُ ، مِنْ ثَمَّةٍ ، إِلَى مَقَارِنَةِ رِضَابِهِ بِالْحَمْرَةِ ، مُؤَدِّيًا الْأَوْصَافَ التَّقْلِيدِيَّةَ
 الْحَاشِدَةَ . فَهِيَ صَافِيَةٌ ، صَهْبَاءٌ ، أَجْتَلَبَتْ مِنَ الْأَصْقَاعِ الْبَعِيدَةِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ
 أَحْدَاثٍ وَأَوْصَافٍ قَدْ تَعَظَّمَتْ مِنْ شَأْنِ الْحَمْرَةِ وَتَظْهَرُ بِرَاعَتِهِ فِي وَصْفِهَا ، دُونَ أَنْ
 يَكُونَ لَهَا طَائِلٌ فَعَلِيٌّ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ حَقِيقَةِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ .

ذَلِكَ كَانَ أَمْرُهُ فِي وَصْفِهَا اجْتِرَانًا بِهِ مِنْ قِصَائِدِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ . يَرِدُ إِثْرُ الْمَقْدَمَةِ
 الطَّلَلِيَّةِ وَمَا إِلَيْهَا . إِلَّا أَنْ لِلْأَخْطَلِ قِصَائِدَ خِصَّصَهَا بِالغَزْلِ ، مِنْ دُونَ سِوَاهُ مِنْذُ
 مَطْلَعِهَا حَتَّى نَهَايَتِهَا ، مُخْتَلَفًا فِيهَا إِلَى وَصْفِهَا وَتَشْبِيهِهَا بِوَلَدِ الطَّبِيعَةِ وَذَكَرَ زَوْجَهَا
 وَالكَاشِحَ الَّذِي يَعْدِلُهُ فِيهَا . يَغْمُرُ ذَلِكَ بِالْإِيْقَاعِ اللَّطِيفِ الشَّجِيِّ الَّذِي لَا يَقْصُرُ
 عَنْهُ الْأَخْطَلُ قَطُّ ، مَتَى طَلَبَهُ وَابْتِغَاهُ .

فَفِي الْقِصِيدَةِ التَّالِيَةِ يَسْتَهِيلُ بِذِكْرِ صَاحِبَتِهِ ذَلْفَاءَ التِّي يَسْفَحُ مِنْ دُونِهَا دُمُوعَ
 الْفِرَاقِ فِيمَا يَتَبَرَّحُ فُؤَادَهُ وَيُمَثِّلُ الْمَسَافَةَ النَّائِيَةَ الَّتِي تَفْصِلُهُ عَنْهَا مِنْ خِلَالِ الْجِبَالِ

الشَّاهقة والبيداء ، وهذه المسافة هي مسافة شعوريَّة تجسَّدت في هذه المظاهر الطبيعية التي توحى بمشقة الاجتياز . ويُعرَّج ، حيناً ، على وصف السَّراب الَّذِي تخوض فيه المطايا عبر تلك الصَّحاري ، وهو وسيلة أخرى للإفصاح عن الشُّعور بالنَّأي واستحالة اللِّقاء . ولقد أدَّى بذلك لمعنى البعد أداءه إذ لم يكن يترسِّمه إلا في المسافات الشَّاسعة ، أي في إطاره الماديِّ ، فيما هو يكون نأياً نفسياً تقيم صاحبه فيه إلى جنبه ، ولا تُقبل عليه ، وهذا القرب مع الصُّدود ، هو أشدُّ أذى من النَّأي بالمسافة . ولا يغفل عن الغريبان المنذرة بالنَّأي والتَّشئت والظَّبَاء البارحة ، وهي ثمُّ عن الشُّوم وتوقُّع الخسارة . تلك كانت المقدِّمة الواجدانيَّة الشَّجيرة في التَّعبير عن تجربة النَّأي ، وهو يميلُ ، إثرها ، إلى تشبيه صاحبه بالشَّادن ، أي ولد الظَّبية الَّذِي يَرتعي مرحاً ، مصوّتاً ويردف بأنَّها أملح منه وأبض وأحسن جيداً وثغراً وعيناً ، يتضوُّع منها طيب الكافور والمسك في كل غداة إذ تفسد الأنفاس . وبعد أن يهجو زوجها الخامل يردُّ على النَّاصح الكاشح بقوله إنه لا سبيل له إلى هجرها وسلوِّها .

هكذا نظم القصيدة التالية مُتَشَبِّهاً بصاحبه ذلفاء ، ذاكرأ بكاءه لفراقها وما يفصله عنها من صحراوات يغشاها السَّراب وتخوُّص عيون المطايا فيها ويصبح الغريبان ، ثم يقرن بينها وبين ولد الظَّبية ويؤثرها عليه ، ويصف طيها ، مشيراً خمول زوجها ، والكاشح الَّذِي يعزُّه عنها ، ثم يميل إلى ذكر صحبه الذين يجتاز بهم الهاجرة في الصحراء ، واحتسأهم للخمرة وإغارتهم وغنمهم . وينهي القصيدة مهدداً بني عمه بالارتحال لمتازعتهم له على نخل أعطوها لعائلته .

التقسيم

- ١ - ٤ ذكر صاحبه ذلفاء
٥ - ١٠ المقارنة بينها وبين ولد الظبية
١١ - ١٢ خمول زوجها
١٣ - ١٩ ذكر الكاشح
٢٠ - ٢٤ ذكره صحبه والخمرة والشواء
٢٥ - ٣١ الرحيل والغارة
٣٢ - ٣٤ مخاطبة بني قومه .

ذكر صاحبه ذلفاء

طَرِبْتُ لِي زَلْفَاءُ فَالذَّمْعُ يُسْفَحُ وَهَشَّ لَذَكَرَاهَا الْفَوَادُ الْمَبْرَحُ^١
 وَمِنْ دُونِ زَلْفَاءِ الْمَلِيحَةِ فَاضْطَبِرُ مِنَ الْأَرْضِ أَطْوَادٌ وَبَيْدَاءُ صَحْحُ^٢
 بِهَا حِينَ يَسْتَنُّ السَّرَابُ بِمَتْنَهَا لِخُوصِ الْمَطِيِّ إِنْ تَذَرَّعْنَ مَسْبِحُ^٣
 وَقَدْ صَاحَ غَرْبَانُ بَبِينٍ وَقَدْ جَرَتْ ظِبَاءُ بِصُرْمِ الْعَامِرِيَةِ بُرْحُ^٤

١ - الطرب : هنا بمعنى القلق . ذلفاء : الذلف : صعر الأنف واستواء الأرنبة ، ومنه سميت المرأة . المبرح : المصاب بالبراح أي بالعذاب الدائم الشديد .

م : يقول إن دموعه تنهمر لنزوح حبيته عنه وشعوره بالهم من دونها ، وإنه لا يزال يذكرها فيتبرح وجداً إليها .

٢ - الصحصح : هنا المكان الواسع .

م : يدعو نفسه إلى التصبر على فراق صاحبه ذلفاء ويقول إنه يفصله عنها الجبال الشاهقة والوادي الواسعة . والشاعر يشير بذلك إلى استحالة اللقاء عليهما وعظم المسافة التي تفصل بينهما فيه .

٣ - استن السراب : خفق واضطرب . الخوص : المطايا الغائرة الأحداق من الإرهاق . تذرعن : مددن ذراعهن .

م : يستكمل وصف الصحراء التي تفصله عن صاحبه ، ويقول إن المطايا الغائرة الأحداق تسبح سباحة في السراب ، إذ يخفق ويضطرب حولها .

٤ - الصرم : القطع والمجران : البرح : جمع بارح وهو من الطير والظباء ما مر عن يمينك إلى شمالك والعرب تنطير منه .

م : يقول إن الغربان كانت قد نعبت ، مؤذنةً بالفراق ، كما أن الظباء عبرت عن شماله ، مؤذنةً بالشتت واستحالة الوصال .

المقارنة بينها وبين ولد الظبية

- فما شادن يرعي الحمى ورياضها ١
 يرود بمكحول نوومٍ مُوشحُ
 بأحسن منها يومَ جدِّ رحيلنا ٢
 معَ الجيشِ لابلٍ هي أبيضٌ وأصبحُ
 وأحسنُ جيداً في السحابِ ومضحكاً ٣
 وأنجلُ منها مُقلتينِ وأملحُ
 لها أريجٌ ، جُحَّ العشاءِ ، كأنَّه ٤
 بمسكٍ وبالكافورِ يُطلَى ويُصَحُّ
 بأطيبٍ من أردانٍ ذلَّفاءِ بعدما ٥
 تغورُ الثُريا في السماءِ فتجَنِّحُ

١ - ٢ - شادن : ولد الظبية للذي فُطم عن أمه . الحمى : ما يحمي من الأرض حول البيت أو سواه ، ويمنع ارتياده على الآخرين . يرود : يُقبل ويُدبر . المكحول : هو الذي غشي عينه سواد كالكلحل . النووم : الذي له صوت خافت . أبيضُ النَّاسِ : أي أرقهم .

م : يقول إن شادناً يرتعي روضة ، يُقبل ويدبر فيها . مرحاً مصوتاً بصوته الخافت ، إن ذلك الشادن ليس بأجمل من صاحبه إذ طالعتَه يوم الفراق ، بل إنها أملح منه وأشدَّ بضاضة .

٣ - السحاب : الطول في الفضاء أي العلو . أنجلُ : من النجل وهو في العين سعة وكبر . الجيد : العتق .

م : يقول إن ذلك الشادن ليس أجمل عنقاً ومبسمًا وأوسع مقلّةً وأجمل منها .

٤ - ٥ - تجنَّح : تميل إلى الغروب . الأردنان : أكام القميص . جُحَّ العشاء : أي في وقت العشاء .

م : يقول إن الطيب الذي يُطلَى ويُمزج بالمسك والكافور والذي يشتدّ تَضَوُّعُه في المساء ، إن ذلك الطيب ليس بأشدّ من الطيب الذي يتضوع من أكام قميصها ، قُبَيْل الصبح . عندما تفسد الأطياب والأنفاس .

إذا اللَّيْلُ وَلَّى واسْبَطَرَتْ نَجُومُهُ وَأَسْفَرَ مَشْهُورٌ مِنَ الصَّبْحِ أَفْضَحُ ١

خمول زوجها

فَلَا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ أَنَّ حَلِيلَهَا إِذَا الْقَوْمُ هَشُّوا لِلْمَرِوَةِ زَمَّحُ ٢

بطيء إلى الداعي ، قَلِيلٌ غَنَاوُهُ إِذَا مَا اجْتَدَاهُ سَائِلٌ يَتَكَلَّمُ ٣

ذكر الكاشح :

أَذْلَفَاءُ كَمْ مِنْ كَاشِحٍ لَكَ جَاعِي فَأَحْفَظْتُهُ إِذْ جَاعَنِي يَتَنَصَّحُ ٤

١ - ٢ - اسْبَطَرَتْ : امتدَّت وأسْرعت . زَمَّحُ : ذمِيم لثيم .

م : يقول إنَّه إذا ولَّت النجوم وأدبر الليل وتبلج الصُّبح الواضح الصَّاحي ، فإنَّها تتجلَّى فيه دون أن يشينها عيب ، إلاَّ أن حليلها لشدة تولُّه بها ، لا يكف عن القيام بجانبها ، فيفتقد مروءته ، ويُلثفي قاعداً عن الجلتى في الناس . وربما أشار بذلك إلى أن حليلها كان فعلاً قعيداً ، كما يتبيَّن لنا من البيت التالي .

٣ - م : يستكمل معنى البيت السابق ويقول إن زوجها يتباطأ ، فلا يهرع إلى النَّجدة ، وإنَّه لا يُعْني ولا يفيد في مقام البطولة والشجاعة ، وإنَّه يتكلَّم ويتعبَّس ، إذا ما اجتداه مُجْتَدٍ ، وطلب عطاءه .

٤ - الكاشح : العدوُّ المُتَبَطِّنُ بالعداوة . أَحْفَظْتُهُ : أثرت حفيظته ، أي حقه .

م : يقول إنَّه طالما نصحه قوم بالتولِّي عنها ، وهم يُضْمرون له البغضاء ، فلم يُدْع عن لهم ، بل إنَّه ضاعف من حقدهم عليه لتمنعه عليهم .

يقولُ أَفِقْ عَن ذِكْرِ ذَلْفَاءِ وَانْسَهَا فَمَا لَكَ مِنْ حَتْفِ الْمَنِيَّةِ مَجْمَحُ^١
فَقُلْتُ اجْتَبَيْتَنِي لَا أَبَا لَكَ وَاطْرَحُ فِي الْأَرْضِ عَنِّي إِذْ تَبَاعَدْتَ مَطْرَحُ^٢
فَكَيْفَ تَلومُ النَّاسُ فِيهَا وَقَدْ ثوى لَهَا فِي سَوَادِ الْقَلْبِ حُبُّ مُبْرَحُ^٣
وَحُبِّي جِدٌّ لَيْسَ فِيهِ مُزَاحَةٌ فَيَرْتَاحُ قَلْبِي إِذْ يَرَاهُ وَيَفْرَحُ^٤
وَإِنِّي لِأَهْوَى الْمَوْتَ مِنْ وَجْدِ حُبِّهَا وَلَكَمَوْتُ مِنْ وَجْدِ أَلْدِّ وَأَرْوَحُ^٥
وَكَلُّ هَوَى قَدْ بَانَ مِنِّي وَلَا أَرى هَوَى أُمَّ عَمْرٍو مِنْ فَوَادِي يَبْرَحُ^٦

١ - مَجْمَحٌ : هنا مهرب وخلص .

م : أي أن الكاشح المضمّر للعداوة ، كان ينصحه ويدعوه إلى سلوّمها ، لأن حبّه لها سيّوره
موارد الهلاك .

٢ - اجْتَبَيْتَنِي : ملّتي . اطرحُ : أي إلتيك عني :

م : يخاطب الكاشح الذي يدعوه إلى هجرها ، ويقول له إن ذلفاء سلّبتني رشدي ، ويزجره
عنه ويقول له إن لك منأي عني في أي مطرح من مطارح الأرض .

٣ - م : يعجب أن يلومه الناس في حبّها ، فيما قد أدرك حبّها شغاف قلبه ، مُصْلِياً فِيهِ
العذاب .

٤ - م : يقول إنّه لا يهزلُ ويتمازح في حبّه ليتخلّى عنه ويسلوه ، بل إنّه يطرب لمرأى الحبيبة
ويفرح به .

٥ - م : يقول إنّه ليؤثر الموت على حبّها ، لأن الموت أيسر عليه من الحب .

٦ - م : يقول إنّه قد نسي كل حبّ من دون حبّها ، إذ لا طاقة له بسلوّه .

ولئن لم تكن هذه القصيدة من الوصف الخالص ، إذ تعترض فيها المناجاة والخواطر فقد آثرنا أن نبذلها كنموذج للقصيدة الغزليّة الكاملة ، القائمة بذاتها ؛ المستوفية حتى للمقدمة الطلليّة الماثورة . ولقد ذكر فيها الدّمع كامرئ القيس : « طرّبت إلى ذلّفاء ، فالدمع يُسْفَح » والدمع قد يتخذ ، هنا ، ككناية على العذاب ، من دون دلالة الفعلية . إنّه تعبّر فزيولوجي عن العذاب ، رسمه بشكله الخارجي ، ممّا يضعف من سورة الغلّو فيه ويدعه أكثر تعقّلاً . على أنه ، في ذلك كلّه ، معنى تقليديّ ، منهوك . وينهج على الغرار ذاته في استحضار سورة النّأي من خلال الأطواد والصحاري والسراب والغراب والطّباء البارحة . وقد لا تكون هذه العوائق قائمة ، فعلاً ، بينه وبين صاحبه ، إلا أنّه وقّعها توقعاً وجدانياً خاصاً . فأية مشقّة هي أعظم من اجتياز الجبال وقطع الصحاري ؟ فالجبل والصحراء لم يعودا ، هنا ، مادة للوصف ، بل كناية لمعاناة إنسانيّة متّصلة بالألم والمستحيل والشوق . وقد تنطوي كناية الصحراء فضلاً ، عن ذلك ، على معنى الوحشة والتفرد واللانتهاء ، يضرب فيها دون أن يُوفي إلى غاية أو مستراح ، كما أن السراب يؤدي تجربة الضلال والتيه والتشرّد ، فيخوض فيه ، كأنما يخوض من نفسه في عالم الحيرة والرّيبة ، تكتسب عليه سُبُل الخلاص من انشودة نفسه . فهذا العالم المادي الّذي تضافرت فيه العناصر الدّالة على العُربة والمفازة هو مماثل لإحائي للحالة الّتي يُعانيها الشّاعر ، كان الجبال والصحراء والسراب قائمة في نفسه وليس في العالم الخارجي . هنا بلغ التّجسيد مداه واهتدى إلى غايته وتسرّب إلى طينة المظاهر العمياء ليتخذ منها شكله وليؤدّي لها معناها .

إلا أن الأخطل ينزّع عن تلك الوجدانيّة السيّالة المُبدعة ، إلى الوصف الاستطراذي المتناول بالتفاصيل والجزئيات . فهو يُمثّل الشّادن في أوضاع لهوه وفرحه وطربه ، أي في تلك الأوضاع الّتي يتألّق فيها جماله ويؤثر عليه صاحبه ذلّفاء ، مُفصّلاً في ذلك بصيغة التّمييز النَّابية في الشّعْر لتزوعها متّزِع الإيضاح : « وأحسن جيداً . . . ومضحكاً . . . وأنجل منها مُقلّتين » ، والتّفصيل ألمّ بمعظم ملامح المرأة : له نها وجيدها وثغرها ومقلّتها ، فالمقابلة تخصّيصيّة بيتغي الشّاعر

منها الغلوّ والشّمول . ولو استبطنَ المقابلة وموّهها لكانت أكثر إيحائية .
ويُعَرِّجُ على وصف طيبها :

لها أَرَجُ جُنْحِ العِشاءِ ، كدّانتهِ بِمَسْكِ الكافورِ يُطْلَى وَيُنْضَحُ

وطيب المرأة هو رمزٌ لترَفِّها ونعيمها ، إذ لا يزال الطيب ريبب الرِّفاهية والفتنة .
وعلى ما دأب عليه ، فإنّه يدع طيبها يتضوّع في اللّحظة التي لا ينتشر من المرأة
إلاّ ريح الفساد ، أي في مطلع الصّباح ، وهو يقرنه بسواه ليُدنيه ويغالي به ، ذاكرةً
المسك والكافور . والأول أكثر تداولاً في الشّعر من الثاني .

وإذا كانت غايةُ الشّاعر أن يُوحى بطيبها ، فقد أدرك قليلاً أو كثيراً من
ذلك من تأديته بسورة الغلوّ اللفظي ، حيناً كلفظة « أَرَج » التي تدلُّ على الطيب ،
وفضلاً عن ذلك على شدّة تضوّعه ، إنه غلوُّ بالطيب، ويمثله، حيناً آخر، من خلال
خبرته الحسيّة بقوله : « جُنْحِ العِشاءِ »، وهي اللّحظة التي تشتدُّ فيها الروائح، إذ
تغيب الشمس التي تبددها وتبخرها بحرّها ، ويتّني إلى التشبيه ، استكمالاً لسورة
الغلوّ ، فيجعله مطلياً ، ناضحاً بالمسك والكافور ، متوسّلاً فِعْلِيّ « يُطْلَى وَيُنْضَحُ »
وهما ، كذلك ، فعلان انفعالان إذا قرّنا بما يُنسبان إليه . وهذه الأبيات ليست
من الأبيات اليسيرة في شعر الأخطل ، إذ لا تزال التشابيه الاستطراضية تنمُّ لديه على
ارتياح التجربة بالمشقّة والعسر .

وهنا يَرِدُ ذكر زَوْجِها ، وقد تردّد الشعراء على ذكره في باب فخرهم حتى
بتفريغ المرأة المحصّنة ، وجرى على رأسهم في ذلك امرؤ القيس والأعشى .
أما الأخطل فقد هجا زوج برّة خلال مدحه ليزيد إذ كان قميئاً ، منتناً يواقع إمراة
ليئة ، جميلة . أمّا زوج زلفاء ، فيتخذ ، خلال هذه القصيدة ، شخصيّة أخرى .
فهو ليس قميئاً ، أو منتناً ، بل أنّ له في نفسه مثل قماءة زوج برّة وثننه . ذلك
أنه غدا فاقد المرؤة والمسعى ، لقيامه الدائم في كنف زوجه الجميلة ، لا يطيق فراقها

حَتَّى يَدَّأَبُ دَأَبَهُ وَيَسْعَى سَعِيَهُ . لَا شَكَّ أَنَّ الشَّاعِرَ اعْتَرَضَ بِذِكْرِهِ فِي مَقَامِ
 الْغُلُوِّ بِحَسَنِ زَوْجِهِ ، كَأَنَّهُ اتَّخَذَهُ ذَرِيْعَةً ، يُعْظَمُ مِنْ أَمْرِهَا بِقَدْرِ مَا يُحَقِّقُ مِنْ
 شَأْنِهِ . إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى ذَلِكَ قَطُّ ، بَلْ تَوَلَّاهُ فِي طَبَاعِهِ الْفَرُوسِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ ،
 فَاقْدَعَ بِهِ وَثَلَبَهُ . ذَاكَ أَنَّ الْأَخْطَلَ ، فِي حَسِّهِ الْجَمَالِيَّ ، كَانَ يَأْتَفُ أَنْ يَلْتَقِيَ
 الْجَمَالَ الْقُبْحَ وَإِنْ يَرْتَهِنَ لَهُ . أَوْ كَانَ الْجَمَالَ لَا تَلِيْقُ بِهِ إِلَّا الْبَطُولَةَ أَوْ يَغْدُو جَمَالًا
 بَائِسًا كَجَمَالِ بَرَّةَ وَذَلْفَاءِ .

وَكَمَا تَوَسَّلَ الزَّوْجُ لِعَظِيمِ جَمَالِ زَوْجِهِ ، يَتَوَسَّلُ الْكَاشِحُ لِعُظْمٍ مِنْ أَمْرِ حَبَّةٍ
 لَهَا . وَهُوَ يَنْهَجُ هُنَا . أَيْضًا ، عَلَى نَهْجِ الْغُلُوِّ الْمَتَنَامِيِّ الَّذِي لَا تَحُدُّهُ حُدُودُ .
 مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ كَاشِحٍ وَاحِدٍ ، بَلْ كَشْحَاءُ كَثِيرُونَ : « كَمَّ مِنْ كَاشِحٍ » ،
 يَتَأَلَّبُونَ عَلَيْهِ . لِيَصْدُوهُ عَنْهَا ، وَلَكِنَّهُ يَتَعَصَّى عَلَيْهِمْ وَيَخَذِلُهُمْ حَتَّى لَوْ أَوْفَى
 بِهِ ذَلِكَ إِلَى الْهَلَاكِ . فَالْمَوْتُ فِي الْوَجْدِ أَلْذُّ مِنَ الْحَيَاةِ ذَاتَهَا . وَهَذِهِ التَّبَذَةُ الْأَخِيرَةُ
 تَدْنُو إِلَى الْعُنْدَرِيَّةِ الْمَأْتُورَةِ فِي شَعْرِ جَمِيلٍ وَمِنْ إِلَيْهِ حَيْثُ يَبْدُو الْمَحْبُّ وَقَدْ تَوَحَّدَتْ
 فِي نَفْسِهِ تَجْرِبَةُ الْحُبِّ وَالْيَأْسِ وَالْمَوْتِ .

ثَانِيًا : الْمَرْأَةُ وَالشَّهْوَةُ : كَانَتِ الشَّهْوَةُ مَكْتُومَةً فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ ، وَلَمْ
 تُسْفَرْ أَوْ تَتَطَفَّرْ إِلَّا فِي شَعْرِ أَمْرِيءِ الْقَيْسِ وَبَعْضِ لَمَعٍ مِنْ شَعْرِ الْأَعَشِيِّ وَقَصِيدَةِ
 يَتِيمَةَ لِلتَّابِعَةِ ، هِيَ قَصِيدَةُ الْمُتَجَرِّدَةِ . ثُمَّ جَاءَ الشَّمَاخُ وَسُحَيْمٌ ، فَبَثًّا قَلِيلًا أَوْ
 كَثِيرًا مِنْ تَنَقُّسَاتِ الشَّهْوَةِ فِي شَعْرِهِمَا ، وَلَمْ يَكِدْ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ يُوَاقِعُهَا
 أَوْ يُفْصَحُ عَنْهَا . إِذْ أَنَّهُ رَاوِدُ الْمَرْأَةِ مَرَاوِدَةِ الْفُتُونِ وَالتَّرَفِّ بِنَوْعٍ مِنَ التَّجْرِبَةِ
 الْمَفْعَمَةِ بِالْعِنَانَةِ . وَلَمْ يَكُنِ الْأَخْطَلَ مِنْ مَدْمَنِي لَذَّةِ الْجَنْسِ ، كَمَا يَبْدُو مِنْ سِيرَتِهِ
 وَشَعْرِهِ . بَلْ خَطَرَ بِفَلذَاتٍ مِنْ ذَلِكَ فِي مَقَاطِعِ وَأَبْيَاتٍ تَغْلُبُ عَلَيْهَا صِفَةُ التَّقْلِيدِ .
 وَالْوَاقِعُ أَنَّ التَّجْرِبَةَ الْأُولَى وَالذَّائِمَةَ لِلشَّعْرِ تَصْدُرُ عَنِ النَّزَاعِ بَيْنِ الْوَاقِعِ وَالْمَثَالِ ،
 وَاقِعِ الْعَبُودِيَّةِ وَالْإِرْتِهَانِ لِلْحَسَنِ وَالْفَرِيْزَةِ . وَهُمَا أَمْرَانِ حَتْمِيَّانِ ، وَمِثَالُ
 التَّحَرُّرِ وَالتَّطَهُّرِ وَالْإِرْدَاةِ . وَعَامِلُ الشَّهْوَةِ هُوَ الْأَطْفَى عَلَى شَعْرِ
 أَمْرِيءِ الْقَيْسِ . بَلْ إِنَّهُ بَاعَثُهُ الْأَوَّلُ وَهُوَ الَّذِي طَبَعَهُ بِطَبَاعِهِ الْوُجُودِيِّ الْحَادِّ ،

بل إنّه هو الّذي حرّك تجربة طرفة المتمادية التّمانطة . أمّا الأخطل ، فقد واقع
اللّدة في الحمرة ، لكنها موقعة حسيّة تنحدر بها إلى جوفه ، فيما لم تكن تنحدر
على جوف طرفه ، بل إلى ضميره . لهذا تراه يُعبّرُ بالشّهوة عبوراً طارئاً ، ولا
يُغرق في ذلك .

فهو يقول مثلاً :

وليلٍ كساجِ الطّيلسانِ ، لهوتِهِ بِمُرْتَجّةِ هيفٍ ، خِماصٍ بِطونُها
إذا احتشّتها الرّكبانُ ، كانَ الذّها إلى ذي الصّبي ، ذوضغِنها وحزُونُها

فهو يفخر ، هنا ، فخر امرئ القيس بموقعة المرأة في الليل الخالك الظلمة ؛
كما أنّه يصفها بوصف الشّهوة ، مشيراً إلى الأرداف المهتزة . إذ كان العربي
يؤثر سمن الرّدفين ويشبههما بدعص الرّمّل أو النّقا . وارتجاجها يتمّ عن لينها
ونضارتها إذ أن المرأة العاملة أو المتقادمة في السنّ تغلظُ وتقسو خلاياها ،
وعقبّ على رجاحة الكفل بضمور الحصر وهيفه . وأحدهما هو شرط للآخر ، إذ
ان شدّة الضمور تضاعف من رجاحة الكفل . ويذكر ، كذلك ، البطن ، وهي

١ - السّاج : الطّيلسان الأخضر أو الأسود . خِماص : جمع خِمَضاء : الضّامرة البطن .

م : يقول : كم ليلة قضيتها لاهياً بالمرأة اللّينة الأرداف ، الضّامرة الأحشاء .

٢ - احتشّتها : هنا بمعنى أهاب بها واستعجلها الوصل . الحزون : الصّعب الارتياح ، وهنا
بمعنى ذي الأخلاق السيّئة .

م : يقول إنّه إذا راودها الرّكبان ، وحاولوا أن يستميلوها ويدركوا وصالها ، فإنّها لا تسلس
قيادها ، ولا تقبل إلاّ على الذي يضاغنها ويتعصى عليها . ومؤدى المعنى أن المرأة تصدّ
عمن يقبل عليها ، وتقبل على من يصدّها عنها .

الظاهرة الشهوية الثالثة في عجالة هذا البيت ، الاولى هما الردفان والثانية الخصر ،
والثالثة البطن . الا أن الأخطل يلمح ولا يُصرِّح ويصف ويشفُّ ولا يخلع عذار
الحشمة إلى الأباحية السادية كامرئ القيس . ووجه الفخر أن تلك المرأة
استسلمت له . من دون سائر صحبه .

والابتسار يُرافقُ معظم أبياته الشهوية ، وقد يدنو به ، أحياناً ، إلى ما يشبه
الصراحة دون الاباحية . فهو لا يخرج من التكني عن بطنها بالموضع الذي يلتقى
عليه الزوج أو بالقول إنه مُنبطح يُبطح عليه . كما أنه يتكنى عن ردفيها
بالقول إنها تهتز في سيرها ، أي أن ردفيها يهترآن . والشهوة تنضح من هذه
الصورة القاطبة ، المولية . تقع على ذلك في مثل قوله :

تروكك عيناها ، وأنت ترى لها على حيث يلتقي الزوج مُنبطحاً سهلاً ١
إذا السابريُّ الحرُّ أخلصَ لونها تبينتَ لا جيداً قصيراً ولا عظلاً ٢

١ - الزوج : نمط من صوف يطرح على الهودج أو على الفراش .

م : يقول إنها جميلة العينين وإنها ضامرة الحشا ، إذ أُلقي النمط عليها يسهل ولا يرتفع
لضخامة خصرها .

٢ - السابري : الثوب الرقيق من أجود الثياب . الحرُّ : الخالص البياض : أخلصَ لونها :
زيئها . العطل : الخالي من الزينة .

م : يقول إنها ، إذا ما ارتدت ثوبها السابري ، تألق نحرها ، فبدت عنقها طويلة مزينة
بالخلي .

إذا ما مَشَتْ تَهْتَزُّ لا أَحْمَرِيَّةٌ ولا نَصَفٌ تَظُنُّ من جسمها دَخْلاً ١

فالوصاف الغالبة ، هنا ، هي أوصاف الشهوة والترّف ينسب بها إليها الجمال والحريّة والاصالة . ولكنها ليست الشهوة الموبقة التي يبتزّها بها من ثيابها ، كامرىء القيس ، بل نوع من الشهوة الجماليّة للمرأة الكاملة في نفسها وأصلها وجسدها . وقد كان الأخطل يَفْخَرُ في غزله بالأبيات التّالية ويجد أن سواه من الشعراء لم يُجَارِه بها . وقد استهلّها بمخاطبة صاحبتة هند ، ناسباً إياها إلى بني قَوْمِها الذين يُعَادون بني قومه . وعداوة الأهل قصة مأثورة للتّنويه بعذاب المحبّين في العراقيل التي تعرّض حبّهم ، إذ يحول من دونهم فيه بنو قومهم الأخصاء . وربما انطوى ذلك على دلالة في طبيعة الحبّ الذي يجري على منطوق خاص ، لا يحفل بما دون ذاته ولا يتقيّد بالقيود الخارجيّة القاسرة له ، المفروضة عليه . والأخطل لم يبتكر في ذلك تجربته ، إذ كان هذا المعنى متداولاً فيمن سبقه ، وقد ألمّ به في عجالة المطلع ، دون أن يُقَصِّر في بلوغ أقصى غايته منه ، إذ جعل العداوة قائمة حتى « آخر الدّهر » . ثم انه يَحْطَرُ بعرض آخر من أعراض الحبّ ، وهو اعتلاقه به وانسياقه إليه ، دون إرادة منه أو تنبّه إليه . فكما أن الحب لا يحفل بالقيود الاجتماعيّة ، فهو لا يحفل ، أيضاً ، بصاحبه ، فيعتربه بكل عُنْفٍ ويَزْجيه في سبيله ، على غفلة منه . وينصرف اثرثد إلى وصفها ، مترجّحاً بين الحسيّة والشّهوية فهو يقول :

١ - أَحْمَرِيَّةٌ : حمراء . الدّخْلُ : الدّاء . نَصَفٌ : هنا بمعنى المتقدّمة في العمر ، أو التي أوفت منه إلى منتصفه .

م : يقول إنها إذا ما مشت تهتزّ أردافها وإنتها ليست حمراء أي ليست أعجميّة . كما أنها لم تتقدّم في العمر ، بل هي فتية ، متعافية ، لا يخيل إليك أنّها مصابة بسقام . وإذا جاءت « نصف » بمعنى الخادمة يكون مؤدّى المعنى أنها ليست أعجميّة وليست أمة ، بل عربيّة حرّة .

ألا يا أسلمي يا هندُ هندُ بني بدرٍ وإن كان حياناً عدى^١ ، آخِرَ الدهرِ
 وإن كُنتِ قد أقصَدْتِني ، إذ رَمَيْتِني بِسَهْمِكِ . والرَّامِي يُصِيبُ ، وما يدري^٢
 أسيلةٌ مجرى الدَّمعِ . أمّا وشاحُها فجار ، وأمّا الحِجْلُ منها فما يجري^٣
 تَمُوتُ وتَحْيَا بالضَّجِيعِ وتَلْتَوِي بِمُطَرِّدِ المَتْنَيْنِ مُنْتَبِرِ الخَصْرِ^٤ ؛

فالبيتان الأولان هما أدنى إلى الخواطر في طبيعة الحبِّ وحتميَّته وإطلاقه وشعوره بالقهر والقسر في النَّاسِ . كأنَّ عالمه غريبٌ عن عالمهم . أمّا وصفها . فلا يعدو المحاسن العامة المكررة في سياقِ مُتَبَايِنٍ . فهي « أسيلةٌ مجرى الدَّمعِ » أي طويلة الوجه ، وهي ميزةٌ عامَّةٌ من مميَّزات الجمال العربيِّ . لا ذاتيَّةٌ ولا جدَّةٌ في ذكرها

١ - العدى : التباعده . يقال للمتباعدين . لا أرحام بينهم ولا أسباب من جوار ولا حالف قوم .

م : يخاطب صاحبتَه هنداً ويرجو لها السَّلامَةَ ويتنسَّبها إلى بني قومها . ويقول إنَّه يأمل أن يقيما على المودَّة بالرغم من الجفاء بين قوميَّتهما .

٢ - أقصده : أصاب به مقتلاً .

م : يقول إنَّه يتمنَّى لها خيراً ويرجو لها سلامة بالرغم من أنَّها أصابته بسهام حبتها دون أن تدري . فأصابت منه مقتلاً .

٣ - أسيلةٌ مجرى الدَّمعِ : أي سهلة الخدين . الحِجْلُ : موضع الخللخال .

م : يقول إنَّها سهلة الخدين . وإنَّ وشاحها جارٍ . أي أنَّها ضامرة الكشْحَيْنِ . وإن ساقها ممثلة . فلا يتحرَّك خلخالها فيها .

٤ - م : يصف لين جسدها وانتصاب قوامها . ويقول إنَّها إذا ما ضوجعت تُصاب بمثل إغماء الشَّهْوَةِ . وإنَّها مُطَرِّدَةُ المَتْنَيْنِ أي منتصبه القوام . وإنَّها منتبرة القوام أي ضامرة حتى ليكاد قوامها أن يقطع .

وعرضها . أمّا الوشاح والحجل فإنّ لهما شأناً خاصاً يَجْرِي في كلاسيّة الغزل في إيثار ضمور الكشخ والحصر وامتلاء السّاق وتعبّله . والصورة في قوله : « أمّا وشاحها ، فجار ، وأمّا الحجل منها ، فلا يَجْرِي » هي صورة كناية ، يَنْطوي جريانُ الوشاح فيها على نضح قليل أو كثير للشّهوة لا يَحْتاج بالتواء خصرها وانهباره وانخذاله . ولعلّ هذا الوصف أن يدنو إلى النَّحْت بالألفاظ ، كأنه يصوغ لها جسداً من طينة الألفاظ ، أو كأنه جار على غرار المذهب البرناسيّ الذي يتخذ النَّحْت مثلاً أعلى للشّعْر كله ، في تلك الحركة السّاكنة ، الثّابتة ، أو في ذلك الجمال الواضح السّاكّن ، الهادئ . إلا أن الأخطل لا يُحسن سبل البناء والنموّ ، غالباً ، فزرى وصفه مُتَفَكِّكاً ، متواتراً ، يتردّد ويتكرّر في مستويات متوازية للمعاني . فهو يعود إلى ذكر الحصر ، شاطراً إليه من خلال قواميها ، جميعاً ، ويجعل الحصر ضامراً حتى الانقطاع والانتثار . ومع أن هذه الأوصاف هي أوصاف لفظيّة ، افتراضيّة ، تظنّ عميقة الإيحاء بغرض الشّاعر وانفعاله . إلا أنّ الشّهوة تُسْفِر وتنفّس بل وتتلمّظ في قوله : « تموت وتحيا بالضحج » مصوراً في ذلك اغماء اللذّة وتماديها في الاستجابة اليها ، فكأن جسدها هو جسد اللذّة الصرف ، الخالصة . لقد ابنته الطبيعة وشكّلته بشكل اللذّة والشهوة إذ قطعت خصره وملأت ساقيه وبالتّالي ردفه وحركت صاحبتة بحركة الشّهوة العميقة ، فكأن صاحبتة تعانق اللذّة بمثل غيبوبة الموت ، بل إنها لتحيا فيها وتملاها وتبلغ منها أوجيها . وبالرغم من هذه الصّراحة الإيحائيّة ، فإنّ فضيلة المعنى قائمة هنا على التّكثيف الشّديد للتّجربة ، يُوْفي منها إلى أعماقها في أقل قدر ممكن من اللفظ ، جاعلاً للفظّة الواحدة مدى عشرات الألفاظ التفسيرية الباهتة . فالموت أو الانبعاث عبر الشّهوة يوحى بكلّ حالة من أحوالها ، وتَجْرِبَة من تجاربها ؛ فالانفعال ، هنا ، نافذ البصيرة يتّجه إلى الدّاخِل فينيره ، بدلاً من أن يَطْفُرُ طفرته الرّعاء إلى الخارج برهّات الغلُوّ والتّفشير .

وقد يرتاد لتجارب الشهوة في شعره سبيل الذكوري والحنين إلى لياليها ، مُفصَّلاً
بالتوضيح ، بدلاً من الابتسار بالتلميح :

- يا يَوْمنا عِندها عُدُّ بالنعيمِ لَنَا مِنْها ويا لَيْلي في بَيْتها عُودي ١
إذْ بَتُّ أَنْزِعُ عَنْها حَلِيها عَيْشاً بَعْدَ اعْتِناقٍ وَتَقْبِيلٍ وَتَجْرِيدِ ٢
كَمَا تَطاعَمَ في خَضراءِ ناعِمَةٍ مُطَوَّقانِ أَصاخا بَعْدَ تَغْرِيدِ ٣
وَقَدْ سَقَتني رُضاباً غيرَ ذي أَسَنِ كالمِسكِ ذُرٌّ على ماءِ العناقيدِ ٤
مِنْ خَمْرِ بَيْسانَ صِرِفاً فَوْقها حَبَبٌ شَبِيتُ بها نُظْفَةٌ مِنْ ماءِ يبرودِ ٥

١ - م : يتحسر على ما فاته من لقاء ونعيم ، فيما تزل على صاحبه ، وبات عندها ، ويتمنى أن يعود إليه ذلك الزمان السعيد .

٢ - م : يقول أنه كان يعايشها بانتزاع حليها عنها ، بعد أن أمعن بتقبيلها ومعانقتها وتجريدها من ثيابها .

٣ - خضراء : شجرة . مطوقان : منى مطوق : حمام . أصاخا : أنصتا .

م : يقول إنهما كانا يتعانقان كما يتعانق الحمام في الشجر بعد تفريد وتصويت .

٤ - الرضاب : الريق . الأسين : اللبن .

م : يقول إنه قبلها ، فعل من ريقها مثل الحمرة المزوجة بالمسك .

٥ - الحبيب : النفاقيع . شبيبت : مزجت . يبرود : بلدة في سوريا .

م : يستكمل وصف الحمرة التي علها في ثغرها ، ويقول إنها حمرة بيسانة نسبة إلى بيسان في الأردن وإن الحبيب والزبد يعلوانها لحدتها وإنها مزجت بماء صاف من يبرود .

غادى بها مازجٌ دِهْمَانُ قَرِيْبَتُهُ وَقَادَةَ اللُّوْنِ فِي كَاسٍ وَنَاجُودٍ ١
إِذَا سَمِعْتَ بِمَوْتِ اللَّبْخِيلِ فَقُلْ بَعْدًا وَسُحْقًا لَهُ مِنْ هَالِكِ مُودٍ ٢

فهو يستهلُّ مناجياً عهده بالنعيم ، مُتَمَنِّياً أَنْ يَعودَ ، وهذا التَّعِيمُ ، كما يبدو فيما يلي ليس نعيم الطمأنينة بل نعيم اللذَّة الحادَّة الَّتِي خَلَّفَتْ فِي نَفْسِهِ الحَسْرَةَ . وفي الشَّطْرَ الثَّانِي مِنَ المَطَّلَعِ يَشِيرُ إِلَى انْفِاقِهِ لَيْلَهُ فِي مَخْدَعِهَا ، وَهنا تَبْرُزُ مَوَاقِعَةُ الحَرَامِ إِذْ أَنَّهُ اقْتَحَمَ عَلَيْهَا فِي بَيْتِهَا ، وَلَسْنَا نَدْرِي إِذَا كَانَ بَيْتُ زَوْجِهَا ، أَمْ بَيْتُ أَهْلِهَا . وَأَيَّ مَا كَانَ مِنْهُمَا ، فَإِنْ مَوَاقِعَتُهَا فِيهِ ، يُمَثَّلُ مَوَاقِعَتُهُ لِلحَرَامِ ، يَتَضَاعَفُ ذَلِكَ مِنْ ذِكْرِ اللَّيْلِ ، وَاختِلَاءِ الرَّجُلِ بِامْرَأَةِ فِي اللَّيْلِ لَا يَزَالُ عُنْوَانُ الرَّبِيبَةِ وَالشَّبَهَةِ . وَإِذَا كَانَ الأَخْطَلُ قَدْ وَصَفَ مَوَاضِعَ الفِتْنَةِ وَالأَثَارَةَ مِنْ جَسَدِهَا وَحَسَبَ ، فَإِنَّهُ أَلَمَّ بِهَا وَاعْتَرَاهَا وَاسْتَقَى مِنْهَا كُلَّ لَذَّةٍ :

إِذْ بَتُّ أَنْزَعُ عَنْهَا حَلِيَّهَا عَبَثًا بَعْدَ اعْتِنَاقِ وَتَقْبِيلِ وَتَجْرِيدِ

فهو يعابثها بانتزاع حليها ، بعد أن عانقها وقبَّلها وجردَّها ، بل إنه لم يكن يُعبأُ بها فيه ، بل يحاول أن يتلمَّسَ عريها المُطْلَقَ ، لَا تُشَوِّبُهُ شَائِبَةٌ حَتَّى وَلَا حَلِيَّةٌ يَتَحَلَّى بِهَا . فَالْحَلِيُّ هُوَ أَدَاةُ تَشْوِيقٍ وَتَحْسِينِ ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ أَدَاةُ إِثَارَةٍ لِلشَّهْوَةِ ، وَإِذَا يَعَانِقُ الشَّاعِرُ الشَّهْوَةَ المَطْلُوقَةَ يَطِيبُ لَهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُعَانِقَ العَرِيَّ المُطْلَقَ .

١ - الدِّهْمَانُ : اسم لصاحب الضياع الكثيرة . النَّاجُودُ : هنا الكأس .

م : يقول إن بعض الدِّهْمَانِ كَانَ قَدْ اجْتَلَبَهَا لِبَنِي قَرِيْبَتِهِ وَإِنَّهَا مُتَأَلِّقَةٌ مُتَأَلِّقَةٌ فِي كَاسِهَا وَنَاجُودِهَا .

٢ - م : يَحْقَرُ مِنْ شَأْنِ اللَّبْخِيلِ الَّذِي لَا يُنْفِقُ مَالَهُ فِي سَبِيلِ اللّٰهُ وَيَقُولُ إِنَّكَ إِذَا سَمِعْتَ أَنَّ بَخِيلاً قَدْ أُوْدِيَ وَمَاتَ ، فَلَا تَتَحَسَّرْ عَلَيْهِ بَلْ ادْعُ لَهُ دَعْوَةَ المَهْلَاقِ .

وبتولتي ، اثرئذ ، تمثيل ذلك المشهد ومقارنته ، فيتخذ مثل الحمام المتعاقب بين الشجر ، فكأنه يوعز بذلك إلى أن أمرهما ليس مقتصرًا عليهما ، بل إنه أمر الأحياء كلهم من الطير إلى الانسان . وهو لا يتبرر بذلك ولا يعيه بوعيه الكامل بل ربّما حدس له في تأمله أو مشاهدته العابرة لواقع الحمام .

إلا أن للأخطل عفةً يعفُّ بها عن المضيِّ في وصف ما لا يُوصف ، إذ مهما أخذ أمر دينه بخفةً وتقليد ، فقد علق منه قليل أو كثير من أمر العفة التي يُحاسب فيها المرء حتى على نيته ، إذ قيل أن « من نظر إلى امرأة واشتهاها ، فقد زنى بها في نفسه » . ولسنا نزعم في ذلك أن الأخطل كان مُتعفِّمًا بالعفة المسيحية ، إلا أنها ربّما خلقت في نفسه بعض الحرج ، فلم يُقبل على وصف المشاهد الداعرة كخصمه جرير الذي كان يتمرغ بشعره في الخمأة الموبقة . لهذا تراه يقتصر على التلميح وينصرف إلى وصف رضاب الحبيبة قارئاً إياه بالخمرة ، كما هو مأثور في شعره وشعر سواه .

ولم يخرج الأخطل في ذلك عن دأبه إذ قرّن طيب فمها بطيب المسك ولذّة رضابها بلذّة الخمرة التي تكنّى عليها بماء العناقيد . ولا يزال طيب النفس وتنانته موضع مدح وقدح في شعر الأخطل . أو لم يهجع زوج برّة بتنانته جوفه؟ ذاك ان المرأة لا يتخلص ولا يتكملُ جمالها إلا إذا كانت مُتعافيةً ، تنعمُ بنعيم الصّحة ومتى استقامت لها العافية حلّت رائحة المسك في فمها من دُون البخر . ولشدة شغف الأخطل بالخمرة ، فإنه لا يكاد يذكرها حتى يستترد إلى وصفها ، حاشداً لها حشدها ، ذاكرًا أصلها : « من خمر بيسان » فكانت للخمرة اصالة تتحدّر منها كالعربيّ الذي يذكو ويكبر بأصله . وانك لتراه وكأنه يأخذها وينتشي بها في عينيه بقدر ما ينتشي بها في ذوقه ، يصف حبابها وكأنه روح خافق فيها ، ويذكر الماء الذي تمزج به وكأنه اعترى صفاءها المطلق وخلوصها .

ثالثاً : المرأة والمغامرة أو الغزل القصصي :

ولجت القصة على الغزل منذ الجاهلية ، وقد ألم بها امرؤ القيس في مُعلّفته وفي لامية أخرى منها :

فَقَالَتْ سَبَاكَ اللهُ إِنَّكَ فَاضِحِي أَلَمْ تَرَ النَّاسَ وَالسَّمَارَ أَحْوَالِي ...

وجرى على غراره كذلك الشماخ وبلغت السردية أوجها في شعر عمر بن أبي ربيعة ، ممّا لا مجال للإفاضة فيه . وللأختل بعض الفلذات القصصية في الغزل ، مثل قوله :

وَلَيْلَةَ نَجْوَى يَغْتَرِي أَهْلَهَا الصَّبِي سَلَبْتُ بِهَا رِيماً ، جَمِيلاً مَسَالِبُهُ ١
فَأَصْبَحَ مَخْجُوباً عَلِيٍّ ، وَأَصْبَحَتْ بَظَاهِرَةَ آثَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ ٢
وَبِتْنَا كَأَنَّا ضَيْفُ جِنِّ بَلَيْلَةَ يَعُودُ بِهَا الْقَلْبَ السَّقِيمَ صَبَائِبُهُ ٣

ولقد راود في هذه الأبيات النزعة القصصية ولم يرتدّها ارتياداً مباشراً ، إذ ذكر أنه سلبها وأنها حُجبت عنه ، دون أن يُفصّل . فهي أشبه بعنوان لكتاب أو لقصة . إلا أن النزعة القصصية تنجلى في الرائية التالية التي طلع فيها بطلع الطلل واستطرد إلى ذكر حسان ثلاث ، حلائل شيخ شديد الغيرة والحرص عليهن ، ثم يتلو ما كان من أمره معهنّ ، ومع صاحبة أخرى أدرك وصلها :

١ - النجوى : هنا صفاء النفس . الرّيم : هو الظبي الخالص البياض ، وهنا المرأة .

م : يقول إنّه كانت تسنح له فيه ليالي نجوى ومسارة يستلب فيها لبّ المرأة الجميلة البيضاء .

٢ - الظاهرة : المكان الضّاحي البارد .

م : يقول إنّه بعد أن أدرك تلك المرأة ، حُجبت عنه وجعلت تقيم من دونه في مقام بارد ، جميل ، أي أنها قطعت عنه ولم تحفل به .

٣ - الصّبّاب : جمع صّبابة . عاد المريض : زاره في مرّضه .

لَأَسْمَاءُ مُحْتَلٌّ بِنَاطِرَةِ الْبِشْرِ قَدِيمٌ وَلَمَّا يَعْفُهُ سَالِفُ الدَّهْرِ ١
يَكَادُ مِنَ الْعِرْفَانِ يَضْحَكُ رَسْمُهُ وَكَمْ مِنْ لِيَالٍ لِلدِّيَارِ وَمِنْ شَهْرِ ٢
ظَلَلْتُ بِهَا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ وَاقِفًا أُسْأَلُهَا أَيْنَ الْأَنْبَسُ وَمَا تَدْرِي ٣
سَفَاهًا وَقَدْ عُلِقْتُ مِنْ أُمَّ سَالِمٍ وَمِنْ جَارَتَيْهَا فِي فُودَايَ كَالْجَمْرِ ٤
ثَلَاثُ حِسَانٍ مِنْ نِزَارٍ وَغَيْرِهِمْ تَجَمَّعْنَ مِنْ شَتَى فَعُولِينَ فِي قَصْرِ ٥
حَلَاظِلُ شَيْخٍ فِي مُنِيفٍ كَأَنَّمَا نَمَاهُنَّ قَشَعَمٌ مِنَ الطَّيْرِ فِي وَكْرِ ٦

١ - البِشْر : موضع في ديار تَعْلَب .

م : يقول إنَّ دار صاحبه في موضع البِشْرِ لَمَّا تَزَلَّ وَتَتَعَفَّ آثَارَهَا .

٢ - م : يَحْتَلُّ إِلَيْهِ أَنْ رَسُمَ تِلْكَ الدَّارِ قَدْ عَرَفْتَهُ ، وَكَادَتْ أَنْ تَضْحَكَ وَتَهْسَلَ لَهُ بِالرَّغْمِ مِنْ تَعَاقِبِ الْأَيَّامِ وَالشَّهُورِ عَلَيْهَا .

٣ - م : يقول إنَّه أَقَامَ فِي دَارِ حَبِيبَتِهِ يَسْأَلُهَا عَنْ سَكَاتِهَا الَّذِينَ ارْتَحَلُوا عَنْهَا وَعَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي ارْتَحَلُوا إِلَيْهِ وَحَلُّوا فِيهِ .

٤ - سَفَاهًا : جهلاً .

م : يَذْكَرُ يَوْمَ عُلِقَ صَاحِبَتَهُ أُمَّ سَالِمٍ وَجَارَتَيْهَا فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ وَقَدْ أَذْكَبْنَ فِي نَفْسِهِ لَوْعَةَ صَلْتِهِ بِمَثَلِ لُطَى الْجَمْرِ .

٥ - م : يقول إنَّه علق أولئك النساء التزاريات النَّوَاتِي وَفَدْنَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَاعْتَلَيْنَ فِي قَصْرِ الرَّقِيعِ . وَذَكَرَ الْقَصْرَ فِي هَذَا الْمَقَامِ بَدَلًا عَلَى تَرْفَهُنَّ .

٦ - مُنِيفٌ : عال ، شَاهِقٌ . الْقَشَعَمُ : الْمُسِينُ مِنَ النَّسُورِ .

م : يقول إنَّهنَّ كُنَّ أَزْوَاجَ امْرِئٍ هَرَمٍ ، أَقَامَهُنَّ فِي قَصْرِهِ الْعَالِي الشَّبِيهِ بِوَكْرِ النَّسُورِ الْقَدِيمَةِ ، يَمَثَلُ بِذَلِكَ حَرَصَهُ عَلَيْهِنَّ وَمَنَعَهُ لَهُنَّ .

وما زلت أُصْبِيهِنَّ بِالْقَوْلِ وَالصَّبِي ١
لِعَطْشَانٍ حَجَّ الْمَاءِ حَتَّى أَطَاعَنِي ٢
لَهَا فَضْلٌ سِنٍ فَاسْتَقْدَنَ إِلَى الصَّبِيِّ ٣
وَأَعْطَيْتُهُنَّ الْعَهْدَ غَيْرَ مُمَائِيْنَ ٤
سفاهاً وَقَدْ يُصْبِي عَلَى الْخَالِفِ الْخِدْرِ ١
رَسُولٌ إِلَى الْعَسَاءِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ ٢
فَأَمْسَيْنَ قَدْ أَعْطَيْتُهَا عُقْدَ الْأَمْرِ ٣
وما أَنْزَلَ الْأَرْوَى مِنَ الْجَبَلِ الْوَعْرِ ٤

حديثه معهن :

وَحَدَّثْتُهُنَّ أَنِّي ذُو أَمَانَةٍ ٥
فَقُمْنَ إِلَى جَبَانَةٍ قَدْ عَلِمْنَهَا ٦
كريمٌ فما يَخْشَيْنَ خُلْفِي وَلَا غَدْرِي ٥
لَنَا أَثْرٌ فِيهَا كَمَنْزِلَةِ السَّفْرِ ٦

- ١ - أُصْبِيهِنَّ : أَسْتَمِيلِهِنَّ . الخالف الخدْر : المرأة المتخلفة في خدرها .
م : يقول الشاعر أنه أقام على التعرض لهنّ ليسيهن ويستميلهنّ إليه جهلاً وطيشاً ، ويردّف بأن هذه المرأة المخدّرة لا تمتنع عن الصبوة والغواية بل إنّ شأنها في ذلك شأن سواها .
- ٢ - الْعَطْشَانُ : يعني به هنا نفسه . حجّ الماء : أتاه . الْعَسَاءُ : الصّعبة الارتياذ .
م : يقول أنّه أنفذ رسوله بما يعاينه من وجد وطمأ إلى تلك المرأة ، الصّعبة المنال ، الذكيّة الرأحة .
- ٣ - عُقْدَ الْأَمْرِ : الْعَهْد .
م : يقول إنهنّ ملنّ إليه بما أنفذ إليهنّ من أمره وعهده بالوفاء لهنّ .
- ٤ - الْمُمَائِيْنَ : الكذوب . الْأَرْوَى : الوعل التّفور .
م : يقول إنّه أنفذ لهنّ عهده ويمينه ، دون كذب وعزم على الغدر ، لكنهنّ لم يثقنّ به بل ظلنّ ينفرنّ عنه بالرغم من ميلهنّ إليه ، كما ينفر الوعل في جبله الوعر .
- ٥ - م : يقول إنّه حدّثهنّ بصدقه ووفائه وامتناعه عن الغدر والإخلاف بالعهد .
- ٦ - جَبَانَةٌ : صحراء مستوية .
م : يقول إنهنّ نهضنّ إلى مكانٍ مُتقفر عهدته وعرفنه من قبلٍ وقد خلّفنّ فيه آثاراً شبيهة بالآثار التي يخلّفها المُسافرون .

فَمِثَّتَانِ مَهْمَا تُعْطِيَا تَرْضِيَا بِهِ وَأَسْمَاءُ مَا تَرْضَى بِثُلْثٍ وَلَا شَطْرٍ ١

صاحبه أسماء ووصفها :

وَمَا مَنَعَتْ أَسْمَاءُ يَوْمَ رَحِيلِنَا أَمْرٌ عَلِيٍّ مِنْ خَطَاءٍ وَمِنْ وَزْرِ ٢

رَأَيْتُ لَهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ بَهْجَةً فَهَشَّ لَهَا نَفْسِي وَهَمَّ بِهَا صَدْرِي ٣

فَمَمَّ تَنَاهَيْنَا كَلَانَا عَنِ الصَّبِيِّ وَلَا شَيْءَ خَيْرٍ مِنْ تَقَى اللَّهِ وَالصَّبِيرِ ٤

سَبْتِكَ بِمُرْتَجِّ الرُّوَادِفِ نَاعِمٍ وَأَبْيَضَ عَذْبِ الرِّيْقِ مُعْتَدِلِ الثَّغْرِ ٥

وَمُتْسِقِ كَالنُّورِ مِنْ كُلِّ صَبْغَةٍ يُضِيءُ الدُّجَى فَوْقَ التَّرَائِبِ وَالنَّحْرِ ٦

١ - م : يقول إن اثنتين من أولئك النسوة ترضيان بما يقسم لهما ، أما صاحبه أسماء فلا ترضى بالثلث الذي يقسم لها ولا بالتصف ، أي أنها طماعة لا ترضى بما ترضى به الأخريات .

٢ - الوزر : الإثم .

م : يقول إن صاحبه أسماء إذا امتعت عليه ، غداة الرحيل ، خلقت في نفسه ألماً يفوق ألم أي وزرٍ أو خطيئة .

٣ - م : يقول إنه وقع عليها حيناً مرحة ، متفائلة ، مقبلة عليه ، فأقبل عليها وهش لها وعني بها .

٤ - م : يقول لإنهما عرما ، فيما بعد ، على الانفصال والانقطاع عن الهوى ، متقين فيه الله مُنتهين بنواهي الدين ، صابرين على عذابهما فيه .

٥ - الروادف : الأعجاز .

م : يقول إنها استلقت لبه بعجزها الناعم ونفراها المتألق ، العذب الرقيق ، المعتدل .

٦ - المتسق : المنتظم ، وهنا العقد . الترائب : جمع تريبة ، وهي موضع القلادة في النحر .

م : يقول إنها سبته بعقدتها المنتظم ، المتعدّد الألوان ، المتألق فوق نحرها وتربيتها ، والذي يكاد أن يبدّد الظلمة .

إدراكه لوصلها :

- عَشِيَّةً بَطْنِ الشَّعْبِ إِذْ أَهْلُنَا بِهِ وَإِذْ هِيَ تُرِيكَ الْوَجْهَ مِنْ خَلَلِ السَّتْرِ ١
 نَزَلَتْ بِهَا ضَيْفًا فَلَمْ تَقْرِ مَهْنًا وَجَادَتْ بِلا تُعْلِلِ الثَّنَايا وَلَا حَضْرَ ٢
 فَمِلْتُ بِهَا مَيْلَ النَّزِيفِ وَنَازَعْتُ رِدَائِي وَالْمَيْسُورُ خَيْرٌ مِنَ الْعُسْرِ ٣

وقد تعتبر هذه القصيدة كقصيدة غزليّة كاملة من المطلع الطللي إلى وصف الحسان ، وسرد ما جرى مَعَهِنَّ ومع سواهن . والأبيات الطلليّة تتّصف ببعض الوجدانيّة إذ نَسَبَ إليه الضَّحْكَ ، فكأن الرُّسُومُ تُعَانِي الفرح والانس والغبطة بصورة الأحباب ، ممّا لم يُطالِعْنَا في المطالع الطلليّة السّابقة . ومن ثمَّ يُعْرَجُ إلى ذكر أم سالم وجارتها اللواتي أَذْكَبْنَ في قلبه جَمْرَ الحُبِّ ، بل انهنَّ صَلَّيْنَهُ بناره ، ولسنا ندرى كيف تستقيم هذه العاطفة المثلثة وتضطّرم لثلاثة نساء جميعاً ؛ ولو أنّهُ تعرّضَ لهنَّ في مقام التهنك السّادر والمجون ، لكان لذلك الأمر تبريره الواقعي ، أمّا أنّه اصطلحَ منهنَّ بنار الحُبِّ ، فإنّنا نحار في طبيعة تلك العاطفة . وإنّا

١ - الشَّعْبُ : ما انفرج بين الجبلين .

م : يقول إنّها سبته في ذلك الموضع ، حين طالعه من بين ستورها .

٢ - التعلل : التآكل في الأسنان . حَضْرَ : ما يراكم على الأسنان من مادّة صفراء . المهنتا : هنا من أهناه : أطعمه .

م : يقول إنّهُ نزل ضيفاً عليها ، فلم تَقْرِهِ طعاماً بل إنّها أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ بغيرها الذي لا تأكل ولا حَضْرَ في أسنانه ، أي أنّها قَرَّتَهُ قُبلاً .

٣ - النَّزِيفُ : الذي نزف دمه وهنا السكران أو ما إليه .

م : يقول إنّهُ مال إلَيْهَا كالذّاهل السكران أو كالعَيِّ ، فيما هي جعلت تشدّه بردائه ، فرضي منها بما ناله بيسر ، متخليّاً عن المطلب العسير .

لنَعْلَمَ أن العاطفة لا تخلص ولا تُصدق إلا في وحدانيَّتِها وتكرُّسها لامرأة واحدة .
وربَّما كان تأويل ذلك أَنَّهُ لم يُصَبِّ مِنْهُنَّ بنار الحُبِّ ليُخلص لواحدة مِنْهُنَّ
فيه ، بل بلفح الجمال المتألَّق في كُلِّ مِنْهُنَّ ، وما خلَّقنه في نفسه لا يَعْدُو الحسرة
الشَّديدة ، المَعْدَبَة لامتلاكه . وانك لتشاهد امرأة في غاية الجمال ، فتقع من نفسك
مَوْقع الفِتنة والإلم ، فتصدِّقَ في أملك وان لم تكن تعاني من ذلك التولِّه والتتيم .
وقد نتأكد من هذه الحسرة في قوله :

ثلاث حِسَانٍ من نزار وغيرهم تجمَعْنَ من شتَّى فُعولين في قَصْرِ
حلائل شَيْخٍ في مُنيف ، كَأَنَّما نماهُنَّ قِشْعَمٌ من الطَّيْرِ في وَكْرِ

ولم تُرى حرص الشاعر أن يدَعَهْنَ في قصر ؟ ربَّما كن فعلاً مقيمات فيه ،
ولعلَّ الشَّاعر أقامهْنَ فيه بانفعاله الَّذي اهتدى إلى الافصاح عن ذاته بذلك افصاحاً
أصمَّ . ذاك أن القَصْر يُوحى بالعزِّ والحُرْمَة وبعد المنال وعسر الارتياذ . وقد
يكون شعوره بالحسرة والمحال تولَّد من قيامهنَّ فعلاً في القصر ، أو أَنهنَّ
لم يكنَّ في قصر ، بل أن شعوره أبدوعه ليؤدي به معاناة النَّأي والحسرة والعجز عن
الدُّثُوِّ من الجمال وامتلاكه . والافتراض الثاني أعمقُ وأبدعُ لأنَّه ينمُّ عن وظيفة
الحلِّقِ واكتشاف العلاقات اللطيفة الهاربة بين المَشاعر والمظَاهر .

إلا ان انفعال الشَّاعر لا يَهْدَأ ولا يَسْتَكِين ، بل يتمادى في الأبداع ،
فَيَتَمَثَّلُهْنَ وكَأَنَّهْنَ في وكر نسرٍ ، جامعا بذلك الدَّلالة على نأيهنَّ فضلاً عن
صعوبة إدراكهنَّ إذ لا يزال النسر يدافع عن فراخه ومن يتعرض لها يلقي من
دونها الموت . ولعلَّه اهتدى إلى وكر النَّسر في هذا المقام بمثل اهتدائه إلى القصر في
نوع من المعاناة الحميمة لمعنى الأشياء ورموزها . وهل أبلغ من القصر وكر النَّسر
في التَّدليل على عسر الارتياذ ووعورته ؟ هنا تَعَقَّتْ آثار التَّقليد ، وغدا الشَّاعر
يَنْظُم بِخُلُقٍ من لدنه .

وتجري القصيدة كلها على هذا السياق من الشعور بالعسر والتمنع واستحالة اللقاء . فهو يقول إنه جعل يراودهنّ ، ساعياً إلى التفرير بهنّ ، زاعماً أن المرأة المخدرة لا تمتنع عن الصبي . ولكن أنى له بالتعرض هنّ في ذلك المقام المنيع ؟ لقد انفذ هنّ رسوله ، يعاهدنّ على الوفاء والمودة ، فلم يستقدنّ له ، بل أقمنّ على النفور كوعول الجبال . ولقد كان الرسول أداة لاستكمال التجربة في مضمونها العام . كما أنّ قيامهنّ على النفور أوفى به إلى غايته ونهايته . وعبر ذلك كله يتوسل السرد الذي لا يطفو طُفُوّاً نابياً ، إذ طغى عليه الانفعال وخضبه بمعاناة الحسرة والألم . وموضوع هذه الأبيات لا يزال مستطرفاً إذ لم نكد نقع من قبل . على غزل مُشَلَّتٍ يُفصِحُ عنه الشاعر بمثل هذا الوضوح ، وهذه العفة والحسرة . فعمّر يقول .

سلامٌ عليها إنْ أرادت سلامنّا وإن لم تُردّه ، فالسلامُ إلى الأخرى

ولا غرابة لهذا المعنى في باب المجون ، وإنّما الغرابة في سَفْحِ الشوق والعهد لهؤلاء النسوة . ومهما يكن . فانه ينزع منزع القصص المأثور في الغزل ، وبخاصّة فيما تتطور الأحداث وينمو السياق ، وتتحوّل النساء من العسر إلى اليسر ، فيقبلن عليه ويواعدنه على اللقاء في جبانةٍ معهودة :

وحَدَّثهنَّ أنني ذو أماننة كريم ، فما يخشينَ حلفي ولا غَدري
فقمنا إلى جبانةٍ قد علِمَناها لنا أثرٌ فيها كمنزلة السفَر
فثنتان مَهْمَا تُعْطِيا ترضيا به وأسماء ما تَرْضَى بثلت ولا شَطْرٍ

وهنا تلتقي قصيدة الأخطل وقصيدة عمر بن أبي ربيعة في نَعْم ، في استسلام الحبيبة لقدر الحبّ . الا أن عمر اقتحم عليها في منزلها ، فيما اعددها الأخطل بين أحضان الطبيعة . ولقد جمع امرؤ القيس هذين الموقفين ، جميعاً ، إذ اقتحم عليها منزلها واستاقها إلى أحضان الطبيعة . وهناك وقعت الواقعة إذ تعذّر عليه أن يُنصِفَ بينهنّ ، إذ أن اثنتين اقتنعتا بما نالنا ، فيما تعصّت أسماء ولم ترضَ بكل

ما أصابها . لقد تفرّدت على من دونها واعتزلت وغدت هي الحبيبة الوحيدة . هنا عاد الحب الى وحدانيته وغدت اسماء السيدة وتانك الامراتان كجارتين تصحبانها . سقط عنه الشرك في الثنائية أو الثالوثية وصفا إلى ذاته واستقل بها . تلك هي عبقرية الأخطل ، كأنما كان يُفصح من خلال هذه الأحداث واولئك الأشخاص عن خلوص الحُبِّ من تشتهه وتقسّمه إلى التطهّر والوحدانية . وليس لعمر قبل بهذة المعاناة العميقة النازعة من نار اللبس والحيرة في المطلع . يتوزّع بين منازع ثلاثة لا يدرك اليقين الثأني عنه . المتحصّن عليه . حتى ينتهي إلى معانقة الحُبِّ الأوحد بين أحضان الطبيعة .

وليس فيما ندّعه دعوى وتزويد . بل إن الزرعة الروحية ماثورة عبر هذه الأبيات ثم إنها تطالعنا في مثل قوله :

وما منعتُ أسماءُ ، يومَ رَحيلنا أمرٌ عليّ من خطأٍ ومن وزرٍ

فأياً يكون ذلك الشاعر الذي يتوسّل الخطيئة والوزر للتدليل على المرارة وألم الحرمان؟ إنّه، ولا شك ، امرؤ عانى مرارة الخطيئة وآلامها ، فكأنه في تماديه باحتساء الحمرة كان يتأنّب ولم تستطع نشوة الحمر أن تخدّر شعوره بمرارة العصيان . هذه نبذة تنذر في شعر الأخطل ، وقد انبعثت من قاع نفسه وضميرها المظلم . والقصيدة ، جميعاً ، تحفل بأجواء التبتّل ، إذ أنّه لم يؤخذ بجيبته في الوهلة الاولى بالفتنة والشهوة بل بالفرح والانس والبهجة التي حرّكتها في نفسه :

رأيتُ لها يوماً من الدهرِ بهجَةً فَهَشَّ لها نَفسي ، وَهَمَّ بها صَدْرِي

وقلّما وقَعْنَا على شعر تستولي المرأة فيه على صاحبها بالبهجة ، فكأنّ الأخطل لا يُفتنُ ، هنا ، بفتنة الشهوة ، بل بفتنة الجمال الذي طهّر نفسيهما وسما بهما إلى العبادة والتقى :

فثمّ تناهينَا كلانا عن الصبَا ولا شيءَ خيرٌ من تُقى الله والصبرِ

ولقد اسفرت منازعُ العفة عن ذاتها وتجلت وسطعت في الوعي بما لا غموض ولا لبس فيه .

إلا أن هذه القصيدة تتطور عبر ثلاثة مراحل ، الأولى استلبته فيها تلك المرأة بالبهجة والإلفة وروعة الجمال ، ثم إنه استبان له في المرحلة الثانية جسدها في مواضع الفتنة والإثارة فيه ، فأخذته بما نتأ وارتج من رديها وفمها العذب المقبل . وما تألق واشتعل من حليها ، وقد نزل على قومها ضيفاً فأقرته القبل الشهية ؛ إلا أنها زوجت من بعد إلى ذلك الشيخ الفاني . فتعصى بها واحتبسها فتطهر الحب بالكتمان والحرمان فتناها عن الصبي :

فشمّ تناهينا كلاننا عن الصبي ولا شيء خير من تقى الله والصبر

هكذا يجيل إلينا أن الأمور جدت بينهما ، إذ لا سبيل إلى تأليف المعاني والأحداث المتناقضة من دونه . فهو يزعم ، حيناً ، أنها أخذته بالبهجة ، ثم بأنها سبته بمرجج الروادف ناعم ، وأنها انتهيا عن الصبي ، وهي معانٍ متناقضة لا تتألف إلا بما أولناها به . والله أعلم .

رابعاً : المرأة انعمّة : جرى العربي بشأن المرأة كما يجري الكلاسيكيون ، لا يأخذون من حياتها الا الجانب المترف ، الجميل في مثاله الشهائي . فليس في شعرهم امرأة واقعية ترجح بين الحسن والقبح والخير والشر . تعاني البؤس ، تقبل وتدبر ، متنازعة مع أفراح الحياة وأطراحها ، بل هناك امرأة شبه وثنية استقامت فيها مقاييس الجمال كلها وبدت كالحياة تشغف الناس بها وقلما ترق لهم وتتعطف بهم . وصفة النعيم والجمال الملازمة جعلت المعاني تتواتر وتكرر بين الشعراء في مستويات متباينة من الغلو والانخفاض . فأمرؤ القيس يقول في وصفها : « نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل » ، أي أنها لا تقوم بالخدمة والعمل الشاق ، وكان الهجّؤون يزرّون ببعضهم بعضاً ، إذ يثلب أحدهم نساء الآخر بالقول إنهن يمتطين الدواب وينصرفن إلى الخدمة كالإماء . فترف المرأة كان دائماً كناية عن سؤدد بني قومها

وثرائهم . أما في الشعر ، فإنّ لترفهنّ بعداً آخر إذ كان يحنّ الشاعر ، من خلال ذكره ، إلى عهد السعادة والعافية والصِّبَا . بعد أن تداولته الحياة بأقدارها المترجِّحة بينَ الأملِ والفشَلِ والسَّعدِ والتَّعَسِ .

والأخطل لا يزال يُنوّه بصفة النِّعيمِ في النِّساء اللواتي يَصِفهنّ ، يُعبِّر عن ذلك ، حيناً ، بالتَّعبير المُباشِر ، ويتكَنَّى عنه ، حيناً آخر ، ويفترض للشيء شتى الافتراضات التي تُمثِّله أو تُوهم به . وقد يُسمو على ذلك ، فيَجْعَلُ القدر مؤاتياً لمنّ لم يُخنِ عليهنّ بمصيبة ولا كدر ، كأنّ الجمال هو برىء من العاهة ومن التَّكد ، أيضاً .

فهو يقول ، مثلاً ، أنهن نواعم ، لم يلقين ترحاً ولا نكدآ ، فرَقَّتْ جلودهنّ ونَعُمَتِ حتّى أن النمل الصَّغير ، يُخدش جلودهنّ فيما لو سرى عليها :

نواعِمَ ، لَمْ يَلْقَيْنَ فِي العَيْشِ تَرْحَةً وَلَا عَشْرَةً مِنْ جَدِّ سَوْءٍ يُزِيلُهُنَّ ١
وَلَوْ بَاتَ يَسْرِي الذَّرُّ فَوْقَ جُلُودِهَا لِأَثَرٍ فِي أَبْشَارِهِنَّ مُحِيلُهُنَّ ٢

١ - التَّرْحَةُ : بؤس المعيشة . الجَدَّة : الحِطُّ .

م : يشير إلى النِّعيم الذي يتعمَّن به ، على ما أثير عند سائر الشعراء ، ويقول لإنهنّ منعمات ، لم يُكدِّر حياتهنّ مُكدِّر ، ولم يطالعهنّ حِطُّ سوء يزيل عنهنّ نعيمين .

٢ - الذَّرُّ : صغار النمل . البَشْرَةُ : ظاهر الجلد . المُحِيل : أصغر الذر ، هنا .

م : يمثِّل رقتهن ويقول إنّه إذا ما سار النمل الصغير على أجسامهن خدش أشدّه صفراً من رقتهن ونعومة بشرتهن . ومؤدى المعنى أنّهن لم يعرفن شَطَفَ العَيْشِ وقسوته لتسو به أجسادهن . والشاعر إذ يقالي بنعيم صواحيبه ، لأنما يرمز به إلى حالة من السعادة التي لا تشوبها شائبة .

إلا أنه يَدُكِرُ نعيمهنَّ في سياق الذكرى ، مستعيداً عهده معهنَّ عندما نَزَلَ فيهنَّ ، فأذكين في نفسه نار الحُبِّ . إنه يُحِنُّ اليهنَّ من خلال -حينه إلى الشَّبَابِ حيث كانت تَوَاتِيهِ السَّعَادَةُ وتَقْبَلُ عليه إقبالها . وهو يَسْمِي تلك الأيام بالصَّالِحَاتِ . وصلاحها هو فيما اهتبل من لَذَّةٍ وأنس فيها . وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه في القَوْل بأنَّ نعيم المرأة يَتَوَحَّدُ في ذهنه والشَّبَابِ واللَّهْوِ ، في أيام لم تكن الحياة قد أدمته وخذلته والقتَّ به في فيافيها النَّازِحَةِ .

وقد تتباين ضفة النِّعَمِ الَّذِي يَتَّعَمَّنُ به بين مقطع وآخر ، فكما مثله ، سابقاً ، بالذَّر الَّذِي يَخْدِشُ رِقَهُ جلودهنَّ ، يستعير له في الآيات التَّالِيَةِ أحداثاً مستمدَّة من واقع البيئَةِ وطبيعة الصَّحْرَاءِ . فهؤلاء النَّسْوَةُ يَبْدُلُنَّ من مقامهنَّ بالنِّسْبَةِ إلى تبدُّل المناخ ، يضربن خيامهن في المصايف ، يَرُحِّلُنَّ إليها في الهوادج ، يقوم العبيدُ والاماءُ على خدمتهنَّ ، فيبدن كالظباء المترفات الجميلات :

أَلَمْ تَعْرِضْ ، فَتَسْأَلِ آلَ لَهْوٍ وَأَرْوَى ، وَالْمُدَّةَ ، وَالرَّبَّابَا ١
بِأَيَّامِ خَوَالِ صَالِحَاتٍ وَلِذَاتٍ ، تُذَكِّرُنِي الشَّبَابَا ٢
نَزَلَتْ بِهِنَّ فَاسْتَذَكَيْتُ نَاراً قَلِيلاً . ثُمَّ أَسْرَعَنْ الدَّهَابَا ٣
وَكُنَّ إِذَا بَدَوْنَ بِقُبُلِ صَيْفٍ ضَرَبْنَ بِجَانِبِ الْجَفْرِ الْقَبَابَا ٤

- ١ - ٢ - أَرْوَى وَالْمُدَّةَ وَالرَّبَّابَا : من أسماء النساء .
م : يخاطب صاحباً موهوماً ، ويدعوه إلى سؤال أولئك القوم عن أيام سعيدة سنحت له ولذات اجتناها فيما كان شاباً .
٣ - م : يقول إنَّه نزل في أولئك النسوة ، فأذكين في قلبه نار الحُبِّ . ثم وليتن عنه : مُخَلِّفَاتٍ لِثَرَهْنَ الْحَسْرَةَ فِي نَفْسِهِ .
٤ - قُبُلِ الصَّيْفِ : أوَّله . الجفْر : اسم موضع .
م : يقول أنهم كنَّ يتزلن إلى جواره في مطلع الصَّيْفِ ، إذ يقصدن البادية ، ويضربن فيها خيامهن .

نَوَاعِمُ لَمْ يَقْظَنَّ بِجُدِّ مُقْلٍ وَلَمْ يَقْذِفَنَّ عَنْ حَفْصِ غُرَابَا ١
كَأَنَّ الرِّيطَ فَوْقَ ظَبَاءِ فُلْجٍ غَدَاةَ لَيْسَنَ ، اللَّيْنِ ، الثِّيَابَا ٢

وللتنعيم صور وكنيات أخر يُصوِّره به الأخطل وهو سيرهنّ كسير الأبل الكريمة التي تطأ الرَّمْلَ الشديد الأنهار ، وقد جعله ينهار ، كذلك ، للتدليل على تودة سيرهن ، إذ لا يسعين فيه الى عمل ، بل للنزهة والسلوى ، كما أنه يشير إلى ما تزيّن به من دُرٍّ وذهب يوحيان ، أيضاً ، بالتنعيم :

يَمْشِينَ مَشْيَ الهِجَانِ الأُدمِ ، يُوعِثُهَا أَعْرَافَ دَكْدَاكَةِ ، مِنْهَالَةِ الكُثْبِ
مِنْ كُلِّ بِيضَاءِ مَكْسَالٍ ، بَرَهْرَهَةٍ زَانَتْ مَعَاظِلَهَا بِالذَّرِّ وَالذَّهَبِ

وربّما سما على ذلك كُلُّهُ ، متخذاً لهنّ مثلاً نادراً ، تغلّب عليه الصفة الإبداعية . فكما ذكر أنهم يَرُحِلْنَ على هوداجهن للمصيف ، يشير إلى اصطلاحهنّ النَّارَ في الشتاء ، والمصيف والاصطلاء هما من خصائص الترف ، ولكنه لم يدعهنّ يَصْطَلِينَ النَّارَ وحسب ، كالعامة ، بل الذَّارَ بأعواد اللينجوج ، وهي من العيدان الكريمة ، الطيبة الرائحة . فأياً يكون نعيم تلك المرأة التي تَصْطَلِي النَّارَ ، فيما هي تَتَضَمَّخُ بالطيب المنبعث من أعوادها . هكذا ، تجري عملية الأبداع في شعره ، يشقّ له إهابها من أديم الواقع وينسج له نسيجاً خاصاً ، صنع نفسه ويقينه . هكذا

١ - الجُدّ : البئر . مُقْلٍ : أرض . الحَفْصُ : البعير ، يحمل متاع القوم .

م : يمتدح أولئك النسوة بالتنعيم الذي ينعمن به ويقول لهنّ لا يَقْمِنَنَّ في أيام القَيْظِ إلى جانب الآبار ، بل يرحلن للمصيف ويحملن متاعهن على بعير يقوم عليه العبيد ، فلا يَتَكَلَّفَنَّ من أمره شيئاً ولا يدفعن عنه حتى الغُرَابِ ، إذا ألمّ به . والشعراء يصفون نعيم حبيباتهم ، ليفاخروا بهنّ ، ويؤنّهون بامتناعهنّ عن العمل ، مُسْتَعْتَبَاتٍ عنه بالعبيد والحوادم ، ممّا يُضَاعَفُ من رقتهنّ ونعومتِهِنَّ .

٢ - فُلْجٍ : واد بين البصرة وحِمَى ضريبة . الرِّيطُ : ضرب من الثياب .

يبدو نعيم المرأة في رقة جلدها وزينتها وقيام الخوادم على خدمتها وسكنها الحيام
وارتجالها إلى المصيف واصطلاحها الدّفء والنعيم بأعواد البخور :

وقد تكونُ بها هيفٌ ، مُنعمَةٌ لا يلتفتعنَ على سوءٍ ولا سقَمٍ ١
لا يصطَلينَ دُخانَ النَّارِ ، شاتِيَةً إلاَّ بعُودٍ يَلنَجُوجُ على فحَمٍ ٢
يَمشِينَ مَشْيَ الهِجَانِ الأُدْمِ رَوَّحها عند الأصيلِ ، هديرُ المُصعَبِ القَطْمِ ٣

رأيه في المرأة : فيما تقدّم ، جميعاً ، ألمّ الأخطل بالمرأة بشكلها وإطارها الماديّ ،
في روعة الطبيعة المتمثلة فيها وفي إستثارتها للشهوة ودلالاتها على الترف والنعيم . إلا
أن للأخطل آراء خاصة وعامة في المرأة يُفصح فيها عن سوء ظنّه بها ، ناعياً عليها
غدرها وتقلّبها وصدّها عمّن خذله الشباب وتولّى عنه . بل إنّه ليُوغل من دُون
ذلك ، فيجد أنّهنّ يغررن بالرجل :

يَمدُدُنَ من هفواتهنّ إلى الصبّسى سببا ، يصدنّ به الغواة طوالا

١ - الهيف : جمع هيفاء . وهنا المرأة الضامرة . يلتفتعن : يلتحفن .
م : يشرع في هذا البيت بذكر صواحيبه التّواتي كنّ يقمنّ في ذلك الموضع ، ويقول إنهنّ
نحيلات ضوامر ، ذوات نعمة وترف ، وانهنّ يفضنّ عافية ، لا يقمنّ في سرير ولا يلتحفنّ
سقماً .

٢ - اليلنَجُوج : عود يُتبخّر به .
م : يستكمل وصفه لنعيمهنّ ويقول إنهنّ إذا ما أشتدّ برد الشتاء لا يصطَلين الدُخان بل
طيب أعواد اليلنَجُوج الذكيّة .

٣ - الهجان : كرائم الإبل . الأُدْم : جمع أدماء ، وهي الناقة البيضاء . المُصعَب : الفحل
الصّعب المراس . القَطْم : الهائج .

م : يمثّل في هذا البيت نعيم أولئك النسوة من خلال مشيتهنّ ويقول إنهنّ يمشين كالإبل
الكريمة التي يهدر بها الفحل ، فتتبخّر وتختال .

ما إن رأيتُ كغدرهنَّ ، إذا جرى فينا ، ولا كجبالهنَّ جبالاً

فالمرأة تمدُّ شباكها لتصطاد بها الرجال ، فهي كأنما تقنصهم قنصاً ، تفرح في الايقاع بهم ، ثم أنها لا تُشاطرهم الحنانَ والمودَّةَ . ورأي الأخطل في ذلك أن المرأة معجبة ، مزهوة بذاتها ، لا تظنُّن ولا تبلغ أربها ، حتى تصرع الرجال ، مؤكدة سلطتها عليهم ، وتفوق ضعفها على قوتهم وجبروتهم . فهنَّ يبدن الضعف والاستكانة ويُقبلنَّ على الرجل حتى يُدخلنَّ في روعه أنهنَّ عاشقات له . متيمات به ، فإذا أخذ بسحرهنَّ واقبل عليهنَّ ينفرنَّ مولياتٍ ويغدرنَّ به . فالمرأة هي امرأة خلافة وليست امرأة حنانٍ وصدق .

والمرأة لا تُطلع ضميرها ، بل تكتمه ، إذا أحبَّت رجلاً كرهها منها وقسراً عنها ، كأنما تنتقم من ذاتها ومنه ، فلا تظهر له المودَّةَ ، بل أنها لا تزال تعاكسه وتغيظه ، مُظهرةً غير ما تُضمّر . وإذا ما كرهت امرأةً عذبتَه بدلها ، تقبل عليه حتى تدنو منه غاية الدنو ليتوهم أنها غدَّت بين أحضانه ، فاذا مدَّ إليها يده ليطالها باليقين ، فرّت عنه ، مورية في نفسه الحرقه والأسى :

المهديات لمن هويْن مَسْبَةً والمحسنات لمن قلَّين مَقَالاً

أو قوله :

صرمتُ جبالك زَيْنْبُ وقُدُورُ وجِبَالُهنَّ ، إذا عقدنَّ غرورُ
يرمينَ بالحدقِ المراضِ قُلُوبِنَا فغويهنَّ مُكَلَّفُ ، مَضْرُورُ
وإذا نصَّبنَ قرونهنَّ لغدرة فكأنَّما حلَّتْ لهنَّ نُدُورُ

والمرأة لا تُقبل على المرء حتى يكون شباهاً مقبلاً عليه ، إذ أنهنَّ يؤثرن الفتي لما يقعنَّ عليه من جماله وفتوته ، فاذا تولَّى عنه شباهاً تولَّينَّ عنه :

إن الغواني إن رأينك طـاويأً برَدَ الشَّبَابِ ، طَوِينَ عَنكَ وَصَالَا
وَإِذَا دَعَوْنِكَ عَمَّهْنَ ، فَإِنَّهُ نَسَبُ يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ خَبَالَا
بل انهن ضعيفات العقول ، يستبدن بهن الهوى :

وَإِذَا وَزَنْتَ حُلُومَهُنَّ إِلَى الصَّبِيِّ رَجَحَ الصَّبِيُّ بِحُلُومَهُنَّ ، فَمَا لَا

ولا مجال للاطالة في ذلك إذ أنه مكرور معاد ، وإنما نوجزه بالقول إنه كان
يجد المرأة رمز الحتل والحديعة ولا يثق بها ولا يسلس لها .

الباب الثالث

الناقة والحمار الوحشي وأتته

أسرف الجاهلي في وصف الحمار الوحشي وأتته يستطرد اليه من خلال وصفه
للناقة . وللأعشى والنابغة في ذلك قصائد تؤثر ، لعل أهمها قصيدة لبيد ، إذ ألمَّ
فيها بالحمار الوحشي من خلال رموز متعدّدة أهمها الغيرة والكفاح المضني
الهالع في سبيل تنازع البقاء بين يدي الطبيعة والقدر اللذين يرهقانه بالقحط
والجفاف والقسوة ، ويُسَلِّطان عليه الموت ، يطالعه في كلّ غداة بأسهم الصيادين .
والنابغة مقطوعات تؤثر في هذا الشأن ، إلا أنه لم يحملها محملاً إنسانياً كليد
لأنه لم يكن من رواد التجارب الوصفية المنطوية على مضامين وجودية عميقة ،
وشعراء المدح الجاهليون ، هم ، غالباً ، شعراء وصف يقدمون به لمدائحهم ، وفقاً
لسنة مأثورة وفي معانٍ مكرورة ، تباين ، حيناً في بعض التآويل والتخريج .

وممّا لا ريبَ فيه أنّ الأخطل يتأثرُ النَّابغة والأعشى في ذلك كُلِّه ، مع قليلٍ أو كثيرٍ من التَّطوُّر والذَّاتِيَّة في ارتياد المواضيع ومضاعفة وقع معانيه في النَّفس .
 وفضلاً عن ذلك كُلِّه ، فإن الأخطل مدّ في سياق الموضوع واستطالَ به ، ممّا لم يَكْد يتيسَّر لمن دونه ، قبلاً . والمأثور في مثل ذلك أن نوذِّي نماذج من وصف النَّابغة والأعشى وليد لتقرن بينها وبين نماذج من شعر الأخطل في الموضوع .
 إلا أنّ هذا الكتاب يَضيقُ عن هذه المقابلة لأن فصل الوصف يردُّ فيه كجزءٍ مُتَمِّم ولا يَخْصُّ به أو يتفرَّغُ له . فمن أراد التوسُّع في ذلك ، فليعدُّ إلى كتابينا النَّابغة وفن الوصف ١ حيث يقع على تفصيل ذلك وسواه ، ممّا قد يُمهِّد لهذا الباب . ونقتصر هنا على معالجة ما ورد من ذلك عند الأخطل ، نقابله بسواه ، عندما تقتضي الضَّرورة ذلك .

* * *

يُقبل الأخطل على وصف الحمار الوحشيِّ ، عبَّر مدائحُه ، كما قدَّمنا ، إذ يشرع بذكر النَّاقة التي نقله إلى المدوح ، مبتسراً بوصفها ، قارناً إياها بالحمار الوحشي ، منصرفاً إليه من دونها ، ولا ينتهي إلى ذكرها ، إلا في نهاية مطافه في وصف الحمار . وربّما ألمَّ بذكر النَّاقة في باب الغزل ، مُتَّخِذاً من ذكر المطيَّة سبيلاً إلى بلوغها أو التروُّح عما يعتريه من همومٍ بحبِّها . ففي الأبيات التالية ، يذكر صاحبه أروى ويمتطي إليها ناقة تعدو مُسرَّعة ، لا تَميلُ ولا تزورُ ، ثم يشبَّهها بفحل الحمر الوحشيَّة الذي يرتعي مع أُنثى ، متغضباً ، خائفاً على أُنثاه ، يدفَع عنها سائر الفحول ، ولا يطيبُ له الاقبالُ على ماء . وإثر هذه النَّبذة التي تعرَّض فيها إلى الحمار الوحشيِّ من الدَّاخل وبالمعانة القانطة الفاجعة لمأسة الغنيرة ، يميل إلى وصفه الخارجيّ في لونه الشَّبيه بالورس وسرعته التي يهوي بها كالحجر المتدرج ، ويلمُّ ، كذلك ، بوصف إنائه وسمنها وسقوط شعرها وحاجتها للماء ، بعد أن اعترأها الظَّمُّ الشَّديد ، وقد ساقها إلى نبعه بقسوة

١ - نشر هذان الكتابان في دار الكتاب اللبناني - بيروت - شارع سوريا .

يزجوها دونه، بعضها، فترمه، واذ تشتد الحرارة، يحترق الرمل لياثر فيه الموضع البارد، الرطب، وإذ بلغ الماء، وجده قد جفّ ونضب، فتذكر منهاً آخر عرفه، قبلاً، فأزجى أثنه إليه، زاجراً إياها بقسوة وعنف.

فهو يقول :

هل تدنينك من أروى مُقتَلَةٌ لا ناكثٌ يُشتكى منها ولا زورُ
 كأنَّ فأرةً مسكٍ غارَ تاجرِها حتى اشتراها باغلي سِغْرِها التجرُ ١
 على مُقبَلٍ أروى أو مُشعشعة يعلو الزجاجة منها كوكبٌ خصرُ ٢
 هلْ تُدنينك من أروى مُقتَلَةٌ لا ناكثٌ يُشتكى منها ولا زورُ ٣

١ - فأرةُ المسك : عاؤه . غار : هنا أنفق غاية جهده .

م : يصف ثغر حبيته ويقول إنّه يتضوع عليه الطيب كأنّ فأرة المسك التادر الغالي الثمن .

٢ - المُشعشعة : هنا الخمرة . الخصر : البارد .

م : يقول إن ذلك المسك يتضوع من ثغرها ، أو كأنه يعلّ منها مثل الخمرة المُشعشة التي تتألق في الزجاج كالكوكب .

٣ - المُقتَلَة : هنا الناقة ، كأنها تقاتل في سيرها . الناكث : هنا قرح يصاب به باطن الذراع من حرف الرّحل .

م : يستطرد في هذا البيت إلى وصف الناقة ، ويتساءل إذا كانت تُدنيه إلى صاحبه أروى ، ويقول إنّها تعدو عدواً سريعاً ، وإنّه لا يعوقها فيه قرحٌ أو ازورار تميل به إلى جهة دون أخرى .

- كأنها أخدرِي في حلائِلِهِ له ، بكلِّ مكانٍ عازِب ، أثرُ ١
أحفظُ ، غيرانُ ، ما تُستطاعُ عانتُهُ لا الورْدُ ورْدٌ ولا إصدارُهُ صدرُ ٢
وقد يُغادي أبو غيلانَ رُفقتَهُ بِقهوةٍ ، ليسَ في ناجودِها كدرُ ٣
سُلافةٍ ، حصَلتْ من شاربٍ خلقَ كأنما نازَ منها أبجلُ نعرُ ٤
عانيةٌ ، ترفعُ الأرواحَ نفتحُها لو كان يُشفى بها الأمواتُ ، قدنُشروا ٥

- ١ - الأخدري : هنا الفحل من الحُمُر الوحشيّة . حلائله : هنا أثنه . عازِب : خال .
م : يشبهها بالحمار الوحشي الذي يقيم بين أثنه ، يرتعي معها ، حيث يطيب له في الأمكنة
الحالية .
٢ - أحفظُ : أي شديد الغضب ، ومنها الحفيظة . عانتُهُ : أثنه . لا تُستطاع : أي لا طاقة
لفحل آخر بها . ورْد الماء : أقبل عليه . إصدارُهُ : من صدر عن الماء ، أي عاد عنه .
م : يقول إنّه لا يزال متغضباً ، خائفاً على أثنائه ، يدافع عنها سائر الفحول ، وإنّه لشدة
غيرته ، لا يطيب له إقبال على الماء أو رجوع عنه ، لأنّ خوفه على أثنائه يُثير لوعته وهمّه .
م : يمتدح صاحبيّه بشراً وأبا حنش اللذين يحضران معه الشراب ويقول إنهما كريمان لا
تتقبض أيديهما بخلاً ، كما انهما لا يوغلان على سواهما من الشرب دون أن يدعيا إلى
ذلك .
٣ - القهوة : الحمرة التي لا يشتهي صاحبها عليها الطعام . الناجود : وعاء الحمرة وكأسها .
م : يشير في هذا البيت إلى أحد السقاة أو الندمان الذي يباكر صحبه بجمرة طيبة ، صافية ،
لا يفشاها كدر .
٤ - السُلافة : الحمرة في أول سيّانها . حصَلتْ من شاربٍ : أي من دنّ قديمة . الخلق :
القديم ، الذي أو شك أن يزول . الأنجل : عرق . النعر : الذي يتفور منه الدّم ويصوت .
م : يقول إنهم اتخذوا خميرتهم من خابية قديمة ، هرمة ، فسالت منها حمراء قانية كالدم
الذي يتفور من العرق إذ يُفصد .
٥ - عانية : منسوبة إلى عانة ، وهي إحدى القرى على الفرات .
م : يقول إنّها ، إذا ما احتسّيت ، فإنّها تُحي نفس مُحسّيتها ، حتى أنّها قد تبعث
الميت وتعيده إلى الحياة ، فيما إذا علّ منها .

ذكر صاحبه أروى

- وَقَدْ أُحْدِثُ أَرْوَى ، وَهِيَ خَالِيَةٌ ۱ فَلَا الْحَدِيثُ شَفَانِيهَا وَلَا النَّظْرُ ۱
 لَيْسَتْ تُدَاوِيكَ مِنْ دَاءِ تُخَامِرُهُ ۲ أَرْوَى ، وَلَا أَنْتَ ، مِمَّا عِنْدَهَا ، تَقْرِ ۲
 أَحْمَرُ تَحْسَبُ لَوْنَ الْوَرَسِ خَالِطَهُ ۳ كَأَنَّهُ حِينَ يَهْوِي مُدْبِرًا حَجْرُ ۳
 بَعَانَةٌ رَعَتِ الْأَوْعَارَ صَيَّفَتْهَا ۴ حَتَّى إِذَا زَهَمَ الْأَكْفَالُ وَالسَّرْرُ ۴

١ - م : يقول إنّه كان يحدث صاحبه أروى ، وهي خالية ، طيبة النفس ، إلاّ أن الحديث لم يُجَدِّه ولا نظره إليها ، أي أنّهما لم يطفئا شوقه ووجده .

٢ - تخامره : تلازمه . تقري : تصم أذنك وتميل عما يأتيك منها .

م : يقول إن صاحبه أروى لا تصله فتشفيه من الداء الذي يلازمه ، كما أنّه لا يقوى على الصد والميل عنها .

والشعراء العرب لا يزالون يُنمّون إلى الحمار الوحشي الغيرة ويرمزون إليه بها . ولليد مقطع في معلقته بصور به غيرة الفحل أدق تصوير وأفجمه .

٣ - م : يذكر لونه الضّارب إلى الصّفرة ، ويقول أنّه يبدو وكأنّه قد خالطه الورس ، ثمّ يصف سرعته ويشبّهها بسرعة الحجر الهاوي المنحدر . ولعلّه تأثر في هذا التشبيه بامرئ القيس في تشبيه إقبال فرسه وإدباره معاً بصخر حطّه السيل .

٤ - عانة : هنا إناث الحمار الوحشي . الأوعار : موضع بناحية السماء ، وهي من بلاد كلب . زهم : سمن . الأكفال : جمع كفل وهي الأعجاز . السرر : جمع سرّة ، هنا البطن .

م : يقول إنّه كان يقيم بين أنّه وإنّه ارتعى بها في موضع السماء ، طيلة الصبف ، حتى سمّت وامتلأت أعجازها وبطونها .

- صَارَتْ سَمَاحِيحٌ قُبَاً ، سَاعَةً أَدْرَعَتْ شَعْبَانَ ، وَانجَابَ عَنْ أَكْفَالِهَا الْوَبْرُ ١
كَأَنَّ أَقْرَابَهَا الْقَبْطِيَّ ، إِذْ ضَمَرَتْ وَكَادَ مِنْهَا بَقَايَا الْمَاءِ يُعْتَصِرُ ٢
يُشْلَهُنَّ عَلَى الْأَهْوَاءِ ذُو حَرَدٍ عَلَى الطَّعَائِنِ ، حَتَّى يَذْهَبَ الْأَشْرُ ٣
دَامِي الْخِيَاشِيمِ ، قَدْ أَوْجَعْنَ حَاجِبَهُ فَهَوَّ يَعَاقِبُ ، أحياناً ، فَيَنْتَصِرُ ٤
سَحَاجُ عُونٍ ، طَوَاهُ الشَّدُّ صَيَّفَتَهُ فَالضَّلَعُ كَاسِيَةٌ وَالكَشْحُ مُضْطَمِرٌ ٥

١- السّمَاحِيحُ : الطّوَالُ . القُبْ : هُنَا السَّمَانُ ، المُتَنَفِّخَاتُ البَطُونُ . ادرَعَتْ : هُنَا دَخَلَتْ . شَعْبَانَ : هُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَوَّلِ شَهْرِ القَيْظِ .

م : يَقُولُ إِنَّهَا ، لِإِثْرَاتِهَا ، سَمِنَتْ وَطَالَتْ ، فِيمَا أَخَذَ الْوَبْرُ بِتَسَاقُطِهَا عَلَى أَعْجَازِهَا . عِنْدَ دُخُولِهَا فِي شَهْرِ القَيْظِ .

٢- الأَقْرَابُ : الْخَوَاصِرُ . القَبْطِيُّ : أَيِ ثَوْبٍ قَبْطِيٍّ وَهُوَ الثَّوْبُ الأَبْيَضُ .

م : يَقُولُ إِنَّ خَوَاصِرَهَا أَخَذَتْ بِالضَّمُورِ ، فَبَدَتْ كَالثَّوْبِ القَبْطِيِّ الأَبْيَضِ ، وَإِنَّ الْمَاءَ جَفَّ فِي بَطْنِهَا وَأَخَذَ يُعْتَصِرُ مِنْهُ اعْتِصَاراً ، حَتَّى تَسِيلَ بِقَايَاهُ . وَالشَّاعِرُ يَشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ النَّبَاتَ قَدْ جَفَّ وَأَنَّهَا لَمْ تَعُدْ قَادِرَةً عَلَى أَنْ تَحْتَرِيءَ بِهِ عَنِ الْمَاءِ ، وَأَنَّ الظَّمَأَ بَدَأَ يُخَفِّفُ أَحْشَاءَهَا .

٣- يُشْلُ : هُنَا يَمِيلُ وَيُدْفَعُ وَيَمْنَعُ . حَرَدٌ : هُنَا غَضَبٌ . الأَشْرُ : هُنَا الْبَطْرُ وَالغَضَبُ . م : يَقُولُ إِنَّهُ كَانَ يَسُوقُهُنَّ وَيَزْجِيهُنَّ بِقَسْوَةٍ مُتَنَفِّسَةً عَنِ غَضَبِهِ وَحَقْنِهِ .

٤- الْخِيَاشِيمُ : جَمْعُ خَيْشُومٍ وَهِيَ الْأَنْفُ .

م : يَقُولُ إِنَّهُ لَا يَزَالُ يَدْفَعُهَا عَمَّا تَمِيلُ إِلَيْهِ . فَتَرْمَحُهُ أَوْ تَعْضُهُ مِمَّا يُدْمِي خِيَاشِيمَهُ وَحَاجِبِيَهُ . فَيَمِيلُ إِلَيْهَا وَيَرْمَعُهَا أَوْ يَعْضُهَا بِدَوْرِهِ . مَعَاقِبَةٌ لَهَا . وَيَمْنَعُهَا مِنْ أَنْ تُؤْذِيَهُ .

٥- السَّحَاجُ : هُنَا الشَّدِيدُ العَدُوُّ . عُونٌ : هُنَا الْإِنَاثُ غَيْرُ الأَبْكَارِ . الشَّدُّ : العَدُوُّ . م : يَقُولُ إِنَّهُ لَا يَزَالُ يَعْدُو . لِإِثْرَاتِهِ . وَإِنَّ أَضْلَاعَهُ كَاسِيَةٌ بِاللَّحْمِ . فِيمَا اضْطَمَرَ خَصْرَهُ لِشِدَّةِ عَدُوِّهِ ، أَثْنَاءَ الصَّيْفِ .

حتى إذا وضحت في الصبح ضاحيةً جوزاؤه ، وأكب الشاة يحفر ١
 وزمت الريح بالبهى جحافلته واجتمع الفيض من نيمان والخضر ٢
 فظل بالوعر الظمان يعصيه يوم شحوم الوحش تصطهر ٣
 يبحث الأحساء من ظبي ، وقد علمت من حيث يفرغ فيه ماءه وعر ٤
 وعزه كل ظن كان يأملته من الثماد ، ونشت ماءها الغدر ٥

١ - الضاحية : هنا ارتفاع النهار . جوزاؤه : هنا من الكواكب التي يصحبها القيظ الشديد .
 الشاة : هنا الثور .

م : يقول بعد أن أرتفع الصبح وبدت فيه كواكب القيظ الشديد وأكب يحفر الأرض
 لياشر بها الرطوبة ويستكن بها .

٢ - زمت : ذهبت . البهى : نوع من النباتات الصحراوي . نيمان : موضع بالشام .
 الجحافل : جمع جحفل وهي بالنسبة إلى البعير كالشفة للإنسان .

م : يستكمل معنى البيت السابق ويقول إنه أخذ يأكل نبات البهى الذي جففته الريح ،
 فرمت به شفتاه .

٣ - م : يقول إنه أقام ظمان يعصبه القيظ والظما ويكاد أن يذيب لحمه وشحمه .

٤ - ظبي ووعر : واديان . الأحساء : موضع .

م : يقول إنه ظل يتحرى عن الماء في موضع الظبي وإنه كان عليماً بالمجري التي توصل
 المياه إليه من وادي وعر .

٥ - الثماد : الماء القليل . نشت : جفت .

م : يقول إنه أخفق في العثور على قليل من الماء في تلك المواضع ، إذ ألقى الغدران ، وقد
 نصب ماؤها ، جميعاً .

فَهُوَ بِهَا سِيٌّ ظَنًّا ، وَلَيْسَ لَهُ ۱ بِالْبَيْضَتَيْنِ وَلَا بِالْعَيْصِ ، مُدْخَرٌ ۱
 ذَكَرَهَا مَنَهْلًا زُرْقًا شَرَائِعُهُ لَهُ ، إِذَا الرِّيحُ لَفَّتْ بَيْنَهَا ، نَهْرٌ ۲
 فَحْلٌ ، عَدُومٌ ، إِذَا بَصَبَصْنَ أَلْحَقَهُ شَدٌّ يُقَصِّرُ عَنْهُ المِعْبَلُ الحَشِيرُ ۳
 يَشْلُهِنَّ بِصَلْصَالٍ يَحْشِرُجُهُ بَيْنَ الضُّلُوعِ وَشَدٌّ لَيْسَ يَنْبَهُرُ ۴

١ - البَيْضَتَانِ وَالْعَيْصِ : اسما موضعين .

م : وإذا خاب ظنه في كل موضع طلب فيه الماء ، ولم يجد مدخراً ، أي بقية منه في البيضتين أو في موضع العيص .

٢ - الشَّرَائِعُ : جمع شريعة ، وهي سبيل الماء .

م : يقول إنه بعد أن افتقد الماء في كل مكان ، تذكر منهلًا عرفه من قبل ، فيه مياه زرقاء ، صافية ، لا يجف ولا ينضب ، وإن لفتحته الريح الحارة ، بل يبقى فيه بقية ماء .

٣ - عَدُومٌ : عضو . بَصَبَصْنَ : أسرعن . الشَّدُّ : العَدُوُّ والسَّرِيعُ . المِعْبَلُ : سهم له نصل عريض . الحَشِيرُ : المُرَقَّقُ .

م : يقول إنه لا يزال يعض أنه ويزجرها ، وإنها إذا ما عدت دونه ، لحق بها ، يعدو عدوًا سريعاً ، يقصر عنه السهم العريض المُرَقَّقُ .

٤ - يَشْلُهِنَّ : يطردهن . الصَّلْصَالُ : التَّعِيقُ . يَنْبَهُرُ : يتقطع فيه النَّفْسُ .

م : يقول إنه لا يزال يُزْجِهِنَّ ويدفعهن ، صائحاً إثرهن ناهقاً فيهن بصوت يتحشرج في ضلوعه ويعدو عدوًا لا يتقطع فيه نفسهُ .

ووصف الناقة مُبْتَسِرٌ ، كما قدّمنا ، وإنّما المهمُّ وَصْفُه للحمار الذي بذل فيه كُفْلُ جهد للأداء والنّظْم . وقد استهلّ بالأشارة إلى قيامه في أثنه ، يُعاني من دونها الغيرة . ومنذ هذا المطلع نجد أنّ وصف الحمار ينطوي على رمز هو أنّى منه ، رمز الرّجل - ولعلّه العربيّ - الذي يَهْلَعُ إذ يَخْتَلِإُ إليه أنّ حليلته تحنُّ إلى سواه ، فيرود عليها ، يصدّها ويردّها ، مقيماً على عطشه ، لا قبل له بارتياح الماء . فهذا الحمار يُعاني حالات إنسانيّة في نفسه وجسده ، إذا جاز التّعبير . فأياً يكونُ هذا الحمار الذي لا يقوى على احتساء الماء لأنّه مصاب بداءٍ في نفسه ، فكأنّ الانسان لا يطيبُ له ما كُفِلَ أو مشرب إلا مع راحة البال وكرامة النّفس . وهذا الحمار يتحلّى ، فضلاً عن ذلك ، بميزتين : الجمال والقوّة . الجمال يبدو في قوله : « أحمر تحسب لون الورس خالطه » والقوّة في سرعته التي لا تجارى : « كأنّه حين يهوي مُدبراً حَجَرٌ » . إلا أنّ الأخطل لا يُمكنُ في ذلك وإن كان قد تنبّه له واستطلعها ، كمظهر من مظاهر الطبيعة المتكاملة ، الجميلة .

وإثر هذا الوصف يقصُّ قصّته وأثنه التي أكلتْ خَيْرَ الطّبيعة فسمّنت ، إلا أنّ الماء فاتها ، فكأنّ القدرَ ينعمُ بنعمة ، ثم يعقّبها بنقمة ، يُبَسِّرُ له الغذاء ، فيتطيّبُ به ، فيظمأ ، فيطلب الماء ، فيخذلُ به . لعلّ الفحل افتقد الماء فعلاً ولعلّه لم يتفقده ، بل إن الشّاعر هو الذي وقع الاحداث في ذلك الموقع ليبتُّ من خلالها شعوره بعبوديّة الانسان للقدر وقيامه فيه تحت رحمته ومصائره . بل إنّ الفحل ليبدو ، هنا ، وكأنّه ربُّ عائلة يتدبّر أمرها ويؤمّن لها رزقها ، إلا أنّه مدّعورٌ ، متوحّشٌ ، يقسو في سوق أثنه أو أنّ شدّة خوفه تفقده روعه ، فيضرب ضرباً في الفيافي ، ينهر أثنه التي تلهو عنه ، فكأنّها تُقصّرُ به عن غايته وتدفعه عن همّه ومهمّته . ويعرض لحاله مع أثنه بالقول :

دامي الخياشم ، قد أوجنّ حاجبه فهو يُعاقب ، أحياناً ، فينتصرُ

لقد أدّمته برمحتها ورفسها وعضّها ، فكأنّه لا هناة له في القيام بينهنّ . ولسنا ندري إذ كانت جراحه هي في خياشيمه ، كما يزعم الشّاعر ، ولعلّها أدمتْ

خياشيمه ، وأدمت نفسه إذ لا يزالُ الفحلُ يُسيءُ الظنُّ بأنته ويتقسو عليها لشدة حقدِه وضراوته .

وهناك آفة أخرى تعترض سبيله وترهق مصيره ، وهي الهاجرة الشديدة التي تمنعه من العدو والسعي في طلب الرزق والماء . وهذا الحيوان يحتمل عليها بحيلته ، دون أن يفلح في النجاة . وإذ بحث الثراب ليُبَاشِر الرطوبة ، تتوارد في ذهننا حياة العربي الذي لم يكن يروى إلا للماء ، يترصد أو يظمأ أو يشرب على القدي ، أو يفخر بشرب الماء حينما يطيب له كما يقول السَّمُول :

بنى لي عاديًا حصناً حصيناً وبثراً كلما شئتُ استقيتُ

وآفة القيظ لا تُصيبه بمائه ، بل بطعامه إذ تجفُّ وتيبسُ من دونه الأعشاب ، فيأكل البهيمى اليابسة :

حتى إذا وضحت في الصبح ضاحية جوازوه ، وأكبَّ الشاةُ يَحْتَضِرُ
وزمتِ الرِّيحُ بالبُهْمِي جحافلَه واجتمعَ الفيضُ من نَعْمَانَ والخضِرُ
فظلَّ بالوَعْرِ الظَّمَانُ يعصبه يومٌ تكادُ شحوم الوحش تصطهرُ

القيظ ضاعف من عطشه ، فطلب الماء ، فلم يفلح إذ وجده قد نضب . ومعنى ذلك أن الطبيعة قد تقسو وتنبؤ وتخذل أبناءها ، يهزَع إلى ضرعها ليستقي منه ، فإذا هو جافٌ ، كالقربة الحلقة . والقصيدة ، جميعاً ، تحفل بأجواء الكفاح المرير ، كفاح في حفظ كرامة النفس والاحتفاظ بالحيولة وكفاح في طلب الرزق واحتمال القيظ والتسعر إلى الماء . ففي مثل هذه الأبيات تقوم التجربة على أحداث جلييلة ترتفع بها من المنازعة اليسيرة ، الجزئية إلى المنازعة الانسانية المطلقة ، فهو يتلو ظاهراً أحداثاً في سياقٍ متطوّرٍ متنمٍ ، ولكنه يُعالج ، ضمناً ، أزمةً ، بل فاجعةً ليست الأحداث سوى مراحل فيها ، أو أن في كلٍّ منها وجهاً من وجوها . فالمرحلة الأولى مرحلة الغيرة ، وهي رمز للحتمية النفسية

الدّامية ، وفي المرحلة الثّانية القيظ والثالثة الظّمأ وعبرها وجه ذلك الحيّ الذّي يعدو هارباً من قدر الموت ، وراء طيف الحياة ، بل سراها . إلاّ أنّ الأخطل يظّل مُتفائل النّزعة إذ يدع الماء يتعدّر حيناً على الحمار ، لكنّه يُوحى بأنّه وجد منه نبعاً لا ينضب ماؤه ، فكان الحياة تُنعسُ حيناً ابناها وتقسو عليهم ، إلاّ أنّها تتعطف ، أخيراً ، وتقدمهم وتريحهم . وإذا كان الشّعْر في طبيعته لا يسبغُ السّرد ، فإنّ الشّاعر وقّعه ، هنا ، توقّيعاً انفعالياً ، مؤثراً ، بالرغم من طفو الأحداث وطغيانها عليه .

وفي أبيات أخرى يرادُ مثل هذه التّجربة ، مُنتظماً من موضوع النّاقة ، مشبهاً إياها بالفحل وأنته ، إلاّ أنّ الفاجعة تتضاعف فيها ، إذ يكشفُ لنا وجهاً جديداً من مأساته ، يطالعه في الصّيادين الذّين يربّصون له ، فيما هو يقبل على الماء ، يتوجّس منهم ويسْتَطلع كلّ جرس ونبأة ، بدعْر وحذر كأنّ فخاخ الموت نُصبت له في كل صوب .

فهو يستهلّ بذكر النّاقة ، عامّة ، وقد خصّها في الأبيات التّالية بأوصافٍ أشدّ وضوحاً وأكثر استيفاءً لغرض الوصف ، إذ يقول إنّها أمون لا تتعشّر في سيرها ، وأنها تنجي صاحبها من الهلاك ، أي ما كانت الأهوال التي يقاسيها ، لا تزال تعدو وان ثلّت سائر الذّياق الكريمة . فهي فريدة ، متفوّقة في نشاطها ، وربّما استطرد في وصفها إلى معانٍ تفريريّة كالقول إنّها طويلة الخطم ، وإن مرفقيها منفرجان ، لكنّه لا يُعتمّ أنّ يستدرك في ذلك ، فيؤدّي الأوصاف الانفعاليّة التي تظهر شدّتها من خلال العرق المتصبّب أو النّاصح من وراء أذنيها وانفتال خلايا صدرها وشدّة وثوقها وإحكامها ، من خلال الشّرر الذي يتطاير بيّن أخفافها من وطئها الشّديد على حجارة المرؤ . ومع أنّ هذه المعاني تبلغ غايتها في الإيحاء بعظم القوّة ، فإنّها مأثورة في تقليد وصفها ، منذ الجاهليّة وليس للأخطل فيها إلاّ حسن النّظم والتّوقيع .

وإذ يميلُ إلى تشبيهها بالحمار الوحشيّ ، يُشير إلى خاصّتيه التلمعتين ،

متكئياً بهما عنه ، ثم يذكر قيامه في أنه ببادية السّماوة حيث عزّ عليه المرعى واستبدّ به الظّمأ ، لكنّه لم يطق الرّحيل إلى الماء إذ كانت سُبُلُهُ مرصودةً عليه . إلا أنّه يقتحم على الماء ، بالرغم من خوفه وذعره ، فيستقي وأتنته من المياه العذبة ، منكداً وإياها بالخوف ، لا تزال عَيْنَاهُ وأَعْيُنُهَا تطيف بما حوّلها حذرةً وجلّة ، تحديق في الأشجار الملتفة متوقّعة أن يُطالِعها الصياد من قلبها . فالماء أزرق صاف ، عدب ، وهي شديدة الظّمأ ، تُقبل عليه بلهفة لا يُعادِلها إلا شدّة الخوف ، فكأن خوفها أحال ذلك الماء إلى كدر وأقذاء لا تُستَساغُ ، تغصُّ به غصّة الموت والهلاك . ولقد صدّقها ظنّها وتحقّق خوفها إذ لم تكد تحسني قليلاً منه ، حتى انقضّ عليها ، من قلب الغيل ، صياد أنفذ إليها أسهماً مصبوغةً بل نضاحةً بالدّماء لكثرة ما ألمّ بها في الطرائد . إلا أنّه أخطأها فتولّت مُدبرة أمام فحلها ، تصّليها الهاجرة المهلكة ويرمّحها ويزجرها الفحل ، مثيراً ملاءاتٍ من الغبار في عدوّها :

فَسَلَّهَا بِأَمُونِ اللَّيْلِ ، نَاجِيَةً فِيهَا هِبَابٌ ، إِذَا كَلَّ الْمَرَايِلُ ١
قَنَوَاءً ، نَضَاحَةَ الذَّفْرَى ، مُفْرَجَةً مِرْفَقُهَا ، عَن ضُلُوعِ الزُّورِ . مَفْتُولٌ ٢

١ - أمون : هي الناقة التي يؤمن عثارها في السّفر . الناجية : الناقة الشريفة التي تنجو بمن يمتطيها . الهباب : النشاط . المراسيل : النياق السريعة .
م : يتخلّص في هذا البيت إلى وصف الناقة ، مُتَسَلِّياً بها عن همومه ، على غرار الجاهلين ، ويقول إنها ناقة قوية ، لا تودي بمن يمتطيها ، بل تُلْفِي في غاية النشاط ، فيما تعجز النياق السريعة وتكلُّ من دونها .

٢ - قنواء : طويلة الخطم . نضاحة : أي يكثر نضخ العرق من مسامها . الذفرى : العظم الذي خلف الأذن . مُفْرَجَةٌ : بعيدة ما بين المِرْفَقَيْنِ من الإبط . الزور : الصّدر . المَفْتُولُ : المحكم .

م : يستكمل وصف تلك الناقة ويقول إنها طويلة الخطم ، يكثر نضخ العرق من وراء أذنيها . بعيداً ما بين مرفقيها ، كما أن مرفقها يتصل بصدرها اتصالاً وثيقاً . وهذه الاوصاف تردُّ من خلال انفعال عامٍ للشاعر بكما لها وسرعة عدوّها .

- تَسْمُو ، كَأَنَّ شَرَاراً بَيْنَ أَذْرُعِهَا ۱
 مِنْ نَاسِفِ المَرُو ، مَرْضُوحٌ وَمَنْجُولٌ ۱
 كَأَنَّهَا وَاضِحُ الأَقْرَابِ فِي لِقَاحِ ۲
 أَسْمَى بِهِنَّ ، وَعَزَّتُهُ الأَنَاصِيلُ ۲
 تَذَكَّرَ الشَّرْبَ ، إِذْ هَاجَتْ مَرَاتِعُهُ ۳
 وَذُو الأَشْيَاءِ طَرِيقَ المَاءِ مَشْغُولٌ ۳
 يَحْدُو خِمَاصاً ، كَأَعْطَالِ القِسِيِّ ، لَهُ ۴
 مِنْ صَكَّهِنَّ ، إِذَا عَاقَبْنَ ، تَخْبِيلٌ ۴

١ - تَسْمُو : أي كَأَنَّهَا تُحَلِّقُ فِي عَدْوِهَا مِنْ شِدَّةِ سُرْعَتِهَا . نَاسِفٌ : مَا نَسَقَتْ وَأَطَارَتْ مِنَ الحِجَارَةِ أَثْنَاءَ عَدْوِهَا . المَرْضُوحُ : المَكْسُورُ . المَنْجُولُ : المَدْفُوعُ .

م : يَقُولُ إِنَّهَا تَعْدُو وَتُسْرِعُ فِي سِيرِهَا ، فَتَنْفِرُ الحِجَارَةَ مِنْ دُونِ أَخْفَافِهَا وَتَتَطَايَرُ كَمَا يَتَطَايَرُ الشَّرْرُ مِنَ الحَدِيدِ المَحْمِيِّ إِذْ يَضْرِبُ . وَيَعْظَمُ مِنْ أَمْرِ سُرْعَتِهَا فِي الشَّطْرِ الثَّانِي إِذْ يَجْعَلُ الحِصْيَ فِيمَا تَنْسِفُهُ مَكْتَسِراً ، أَوْ مُنْدَفِعاً بِسُرْعَةٍ قَوِيَّةٍ . وَهَذَا الوَصْفُ مَأْثُورٌ عِنْدَ القَدَمَاءِ ، وَهُوَ يُمَثَّلُ أُسْلُوباً دَابُوعاً عَلَيْهِ وَبِهِ يَفِيدُونَ الغُلُوَّ وَيَجَسَّدُونَهُ مِنْ خِلَالِ مَشْهَدِ حَسْبِيَّ يُوَدِّي غَايَةَ المَعْنَى بِدَلَالَتِهِ الظَّاهِرَةِ .

٢ - وَاضِحُ الأَقْرَابِ : الحِمَارُ الوَحْشِيُّ ذُو الخَوَاصِرِ المَتَلَمِّعَةِ . لِقَاحِ . أَسْمَى بِهِنَّ : أَي لَزِمَ السَّمَاءَ وَهِيَ بَادِيَةٌ . عَزَّتُهُ : صَعَبَتْ عَلَيْهِ . الأَنَاصِيلُ : هِيَ مَا نَصَلَ مِنَ البَهْمِيِّ أَي مَا سَقَطَ مِنْ شَوْكِهِ .

م : يَمِيلُ فِي هَذَا لَبِيتٍ إِلَى تَشْبِيهِ نَاقَتِهِ بِالحِمَارِ الوَحْشِيِّ المِتَالِقِ الخَاصِرَتَيْنِ ، وَالَّذِي يُقِيمُ فِي أَتْنِهِ وَيَلْزَمُ بِهِنَّ بَادِيَةَ السَّمَاءِ حَيْثُ يَطْلُبُ المَرْعَى ، فَيَعِزُّ عَلَيْهِ .

٣ - الأَشْيَاءُ : صِغَارُ التَّخْلِ . وَذُو الأَشْيَاءِ : اسْمُ مَوْضِعٍ .
 م : يَقُولُ إِنَّهُ بَعْدَ أَنْ رَتَعَ وَطَالَ بِهِ المَرْحَ ، أَلَمَّ بِهِ الظَّمَا ، لَكِنَّهُ أَحْجَمَ عَنِ وِرْوُدِ المَاءِ لِأَنَّ السَّبِيلَ الَّذِي سَبَلَكَ إِلَيْهِ كَانَ مَرْصُوداً .

م : يَقُولُ إِنْ نَابَ ذَلِكَ الحِمَارُ قَدْ ظَهَرَ مِنْهُ سَتْنَيْنِ ، وَإِنْ شَعِرَهُ الأَوَّلُ قَدْ جَعَلَ يَتَسَاقَطُ ، وَإِنْ حَوَافِرُهُ قَدْ غَدَّتْ مَرْضُوضَةً مِنْ كَثْرَةِ مَا يَطَأُ بِهَا حِجَارَةَ المَرُو القَاسِيَةِ أَثْنَاءَ عَدْوِهِ .

٤ - خِمَاصٌ : ضَامِرَاتٌ . الأَعْطَالُ : القِسْيَ الَّذِي لَا أَوْتَارَ لَهَا . تَخْبِيلٌ : جَرَحَهُنَّ إِيَّاهُ .
 م : يَصِفُ سَوْقَهُ لِأَنَّهُ أَمَامَهُ وَيَقُولُ لِأَنَّهُنَّ ضَامِرَاتٌ كالأَقْوَاسِ الَّذِي لَا وَتَرَ لَهَا ، يُلْمِئْنَ بِهِ وَيَخْلُقْنَ فِيهِ جِرَاحاً مِنْ عَضِّهِنَّ لَهُ .

أوردها منهلاً ، زرقاً شرائعهُ
 وقد تعطّشت الجحشان والحول^١
 يشربن من بارد عذب ، وأعينها
 من حيث تخشى ، وراء الرامي الغيل^٢
 نالت قليلاً ، وخاضت ، ثم أفزعها
 مُرمَلٌ ، من دماء الوحش ، معلول^٣
 فانصعن كالطير ، يحدوهن ذوزجل
 كأنه ، في تواليهن ، مشكول^٤
 مستقبل وهج الجوزاء ، يهجمها
 سح الشايب ، شد فيه تعجيل^٥

١ - الحول : جمع حائل : الأنثى من أولاد الإبل .

م : أي أنه قدم بها إلى مياه صافية زرقاء ، فيما كانت أولاده قد أصابها الظم الشديد .

٢ - م : يقول إنها كانت تشرب الماء ، وأعينها قلقة . تستطلع الصياد الذي يترصدها وراء الغيل ، أي الأشجار الملتفة حول ذلك الماء .

٣ - مُرمَلٌ : ملطخ بالدم . معلول : أي دأب على الشرب الكثير .

م : يقول إنها لم تكد تحسو قليلاً من الماء وتحوض فيه ، حتى فاجأها صياد بسهمه الملتخ بالدماء .

٤ - انصعن : ملن وخضعن وهنا بمعنى ملن إلى العدو . يحندو : يسوق . ذوزجل : الحمار الذي يرفع صوته . تواليهن : إثرهن . مشكول : هنا مقيّد بهن ، لا يفارقهن .

م : يقول إنهن هربن من الصياد وأخذن في العدو كالطير المُسرعة ، والفحل يسوقهن ويُرجهن أمامه ولا يبارجهن كأنه موثق إليهن .

٥ - الجوزاء : هنا إشارة إلى الحرّ الذي يصحب طلوعها . يهجمها : يسيل عرقها . الشدّ : العدو السريع . سحّ : نصح بكثرة . الشايب : جمع شؤبوب : دفعة من المطر .

م : يقول إنه ، في هربه ، جعل يعدو في الحرّ الشديد والعرق ينضح من أثنه . فيما كانت حوافرها تطنّ الأرض ، محدثةً وقعاً كوقع المطر الغزير .

إِذَا بَدَتْ عَوْرَةٌ مِنْهَا ، أَضْرَبَ بِهَا بادِي الكراديس ، خَاطِي اللَّحْمِ ، زُغْلُولٌ ١
يَتَّبِعُهُ مِثْلُ هُدَابِ الْمَلَأِ ، لَهُ مِنْهَا أَعَاصِيرُ : مَقْطُوعٌ وَمَوْصُولٌ ٢
يَا أَيُّهَا الرَّكَّابُ الْمُزْجِي مَطِئْتَهُ أَسْرٍ ، فَإِنَّكَ ، إِنْ أَدْرَكَتَ ، مَقْتُولٌ ٣
لَا يَخْدَعَنَّكَ كَلْبِيٌّ بِذِمَّتِيهِ إِنَّ الْقُضَاعِيَّ إِنْ جَاوَزْتَهُ غَوْلٌ ٤
كَمْ قَدْ هَجَمْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ مُسَوِّمَةٍ شُعْثٌ ، فَوَارِسُهَا الْبَيْضُ ، الْبِهَالِيلُ ٥

١- العورة : هنا الخلل والنقص في عدوها . أضرب بها : هنا رمحها ورتسها ليردعها عما هي عليه . الكراديس : جمع كردوس ، وهي رؤوس العظام . الخاطي : الشديد اللحم . الزغلول : الخفيف اللحم .

م : أي أتها ، إذا ما تخلفت أو حادت ، وهي تعدو ، فإنَّ الفحل كان يرمحها ويرفسها ليستقيم عدوها أمامه .

٢- هُدَابِ الْمَلَأِ : الملاحف .

م : يصف الغبار الذي تثيره في عدوها ويشبهه بالغبار الذي يثيره الإعصار ويقول إنَّه كان ينقطع حيناً ، ويتصل حيناً آخر .

٣- أَرْجَى : دَفَعُ أَمَامِهِ . الْمَطِيَّةُ : مَا يُمْتَطَى وَيُرَكَبُ مِنَ الْإِبِلِ وَسِوَاهَا . أَسْرٍ : هُنَا مِنْ سَارَ فِي اللَّيْلِ .

م : يميل في هذا البيت عن وصف الحمار الذي استطرد إليه من خلال وصفه للناقة ويخاطب راكباً ويستحثه ويدعوه إلى السير ، حتى في الليل ، لأنه إذا ما لحق به من يقتفون إثره ، فسوف يقتلونه .

٤- الْغَوْلُ : هُنَا بِمَعْنَى الْإِفْتِرَاسِ وَالْهَلَاكِ .

م : يهجو بني كلاب وقضاة ويقول إنهم لا يخفون ذمة من يجاورهم ، بل يغتالونه .

٥- الْمُسَوِّمَةُ : هِيَ الْخَيْلُ الْكَرِيمَةُ الْمَعْلُومَةُ بِسَمَةِ لِتَدْلِيلِ عَلَى أَصْلَانِهَا . الْبِهَالِيلُ : جَمْعُ بُهْلُولٍ وَهُوَ السَّيِّدُ الْجَامِعُ الْخَيْرِ .

ولعلَّ هذه الأبيات لا تتعرَّض للتفاصيل والجزئيات الوصفية كالأبيات السابقة ، إلا أنها تحطَّتْها في إظهار المصير الهالِع ، الفاجع الَّذِي كَتَبَ للفَحْلِ وأنته في الصحراء . فهذا الفحل لا يَبْدُو شديد الغيرة كالفحل السَّابِق ، إذ أنه كان يَمْرَحُ واتنه ، أي أنه لم يكن يُعاني بؤساً في داخله ، ولكنَّ البؤس أُحدِقَ به من الخارج ، إذ طلب الماء ليرَوِي واتنه . والماء لم يَتَعَصَّ عليه ، إذ وقع منه على نبع صافٍ عذب ، وكأنَّه يُوعزُ بذلك إلى أن الطبيعة تَقدِّم الحياة في الشَّعْبِ والرِّي . إلا أن الحياة تُلغى مُهدَّدةً ، أبدأً ، بالموت ، يَلْحَقُ بها كالظلِّ ، تعدو من دونه وهو يعدو إثرها ، أو يتربَّص لها ويُمَاجِئُها ، فتولِّي من جديد . فظاهر القصيدة يتناول الفحل وأنته ولكن مضمونها يتناول موضوعاً وجودياً يظهر بؤس الأحياء وتتكذِّبهم إذ لا تطيبُ حياة أحدهم أو لا تقوم إلا بما يغتذي من لحومهم ويعلُّ من دِمَائِهِمْ .

ومثل هذا المشهد يتردَّد في شعر ذي الرُّمَّة ومن إليه من شعراء البادية ، حيناً يدعون الفحل يَنْجُو وحيناً يَصْرَع ، أما الأخطل ، فلا يُوقِع الأحداث بما يدع الفحل أو آيةً من أنته تُصرع إذ لَسْنَا نَسْتَشْفُ عَبرَ شعره ، جميعاً ، تلك النظرة المأساوية الحالكة لواقع الوجود . ذلك أن أحداثه كانت تَصْطَخِبُ وتضطرب في وجدانه ، فتفُغمه بالضوضاء وتمنعه من التَنَنُّصُتِ لوقوع أقدام المَوتِ على أديم الحياة . ومع ذلك ، فإنَّ لديه حساً فاجعاً وإن لم يكن نهائياً ، مطلقاً ، نستطلعه من طبيعة الأحداث . فبينما الفحل يلهو ويمرَحُ بأنته ، إذا به يَشْعُرُ بالظَّمِّ ، فيعود إلى الماء ، أي يتكلَّفُ مشقةً ، وليس في ذلك ضيْرٌ ، فيما لو كان يَنْتَجِعُه ويرَوِي به هنيئاً . إلا أنه لم يكد يَحْتَسِيهِ : « نَالَتْ قَلِيلاً ، وَخَاصَّتْ ، ثُمَّ أَفْرَعَهَا مَرْمَلٌ فَانْصَعَنَ كَالطَّيْرِ » . لقد شَارَفَتِ الماء ، لكنَّها لم تَرَوِّ واتدَّتْ عنه ، جافلةً ، واجلةً ، ناجيةً بذاتها . أو ليس لتوقيعه الحادثة على هذا الغرار مؤدى خاص ، رمز به إلى تنكد الانسان الدائم بالخوف من العوادي يفيض أمامه نبع الحياة الأزرق الصَّافِي ، يَهْمُ به ليرَوِي غليله ، فاذا بالموت ينقضُّ عليه وتطالعه من دونه مطالع الهلاك . لقد تَفْطَنَ الاغارقة إلى ذلك منذُ البدء إذ أنتهم ألتهوا ألتهتهم ولكنَّهم جعلوا يد القدر فوق أيديهم ، جميعاً ، موعزين بذلك إلى أن الانسان هو عبد له ، يَلْهُو به في قبضته ، أو أنه يُسَلِّطُ طوارئه ومصائبه دون حكمة ،

تَنْفُضُ عَلَيْهِ مِنْ غَيْلِ الْحَيَاةِ ، كَمَا انْقَضَتْ أَسْهُمُ الصَّيَّادِ عَلَى ذَلِكَ الْفَحْلِ مِنْ غَيْلِ الصَّحْرَاءِ . وَالْمَصَائِبُ لَا عَقْلَ لَهَا وَلَا حِكْمَةَ فِي تَوَقُّعِهَا ، إِذْ تَرُدُّ وَتَتَعَاقَبُ بِمَا يَضُنِّي صُمُودَ الْإِنْسَانِ وَبَطُولَتَهُ . فَبَعْدَ أَنْ فَرَّ ذَلِكَ الْفَحْلُ الظَّامِءُ الْبَائِسُ ، سَلَّطَتْ عَلَيْهِ أَشْعَةَ الْهَاجِرَةِ كَأَنَّهَا أَدَاةٌ ظَاهِرَةٌ خَفِيَّةٌ يَضْطَهْدُهُ بِهَا الْقَدْرُ .

ونقع في ديوان الأخطل على مقطوعات مُتَعَدِّدَةٌ لوصف النَّاقَةِ والحمار الوحشي ، مما لا مجال لآيراده ، جميعاً ، لأنه متماثل ، متكرر ، وإنما نبذل هذه المقطوعة الأخيرة التي استهلَّها ، كدأبه بذكر الناقة في أوصافها المتداولة . فهو يقرنها بالصخرة الصلبة ويقول إنها لا تكلم حتى ولو ذاب سنامها وتخلقت عنها سائر النياق لشدة الحرِّ وتَنَقَّبَ أَخْفَافَهَا . ثم يُشَبِّهها بالفحل الذي يقيم في أثنه وَيَسُوقُهَا إِلَى الْمَاءِ ، هَارِباً مِنَ الْقَيْظِ . أَقَامَ عَلَى مُرْتَفَعٍ عَالٍ ، يَسْتَشْرِفُ الْأَمَاكِنَ الَّتِي يَسْتَنْقِعُ فِيهَا الْمَاءَ وَدَفَعَ أَتْنَهُ أَمَامَهُ ، يَرْمِحُنَّ وَيَعُضُّنَّ ، وَهُنَّ يُحَاذِرُنَّهُ ، وَيَجْهَضْنَ بِأَوْلَادِهِنَّ مِنْ شِدَّةِ الْعِيَاءِ وَالْأَرْهَاقِ ، كَمَا أَنَّ الصَّيَّادِينَ يَطَالِعُونَهُ ، مَتَرَبِّصِينَ بِأَسْهُمِهِمُ الْمُرْنَانَ :

هَلْ تُبَلِّغُنِي يَزِيداً ذَاتَ مَعْجَمَةٍ كَأَنَّهَا صَخْرَةٌ صَمَاءٌ صَيْخُودٌ ٢
مِنَ اللَّوَاتِي إِذَا لَانَتْ عَرِيكُتُهَا كَانَ لَهَا بَعْدَهُ آلٌ وَمَجْلُودٌ ٣

١ - راجع الشرح : ٦٩ : ٢١ - ٢٦ : ٩٨ - ٢٦ : ٢٨ - ١١٦ : ١١ - ١٤ : ٢١٩ : ١١ - ٣١ : ٥٩٨ : ١٠ - ٣١ : ٦٠٩ : ١٤ - ٣٢ : ٦٣٤ : ١٤ - ١٩ .

٢ - الْمَعْجَمَةُ : الغلابة . الصَّلْبَةُ . أَي النَّاقَةِ . صَيْخُودٌ : صليب .

م : يشرع في هذا البيت بوصف الناقة التي تُقَلِّهُ إِلَى يَزِيدٍ . وَيَقُولُ إِنَّهَا ذَاتُ صَلَابَةٍ كَأَنَّهَا صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ .

٣ - الْعَرِيكَةُ : السنام . الْآلُ : الشَّخْصُ . مَجْلُودٌ : صَبْرٌ .

م : يَقُولُ إِنَّهَا بَعْدَ أَنْ يَلِينُ سَنَامُهَا وَيُوشِكُ أَنْ يَذُوبَ . تَنْظِلُ مَقِيمَةً عَلَى سِيرِهَا ، تَتَجَالَدُ عَلَيْهِ وَتَثْبِتُ فِيهِ .

تَهْدِي سَوَاهِمَ يَطْوِيهَا الْعَيْنِقُ بِنَا فَالْعَيْسُ مُنْعَلَةٌ أَقْرَابُهَا سُودٌ ١
يَلْفَحُهُنَّ حَرُورٌ كُلُّ هَاجِرَةٍ فَكُلُّهَا نَقِبُ الْأَخْفَافِ ، مَجْهُودٌ ٢

الفحل وأتته

كَانَهَا قَارِبٌ أَقْرَى حَلَائِلَهُ ذَاتَ السَّلَاسِلِ ، حَتَّى أَيْبَسَ الْعُودُ ٣
ثُمَّ تَرَبَّعَ أْبْلِيًّا ، وَقَدْ حَمَيْتُ مِنْهَا الدَّكَادِكُ وَالْأَكْمُ الْقِرَادِيدُ ٤
فَظَلَّ مُرْتَبِيًّا ، وَالْأَخْذُ قَدْ حَمَيْتُ وَظَنَّ أَنَّ سَبِيلَ الْأَخْذِ مَثْمُودٌ ٥

١ - تَهْدِيهَا : تَتَقَدَّمُهَا . السَوَاهِمِ : الضَّمْر . العيس : التي يترجح لونها بين البياض والشقرة . العينق : ضرب من السير تعدو به الإبل . أقربها : خواصرها .

م : يقول إن ناقته تتقدم سائر النياق المتعبة ، وقد انعكس ظلها من دونها ، لشدة الحر .

٢ - م : يقول إن حرّ الهاجرة لا يزال يلفحها ، كما أنّها حفيت من شدة العدو وحرارة الرمل حتى تنقبت أخفافها .

٣ - القارب : فحل الحُمُر الوحشيّة . حلائل : جمع حليلة : هنا أتان الحمار الوحشي .
أقربى : اتبع . ذات السلاسل : موضع .

م : يشبه ناقته ، كدأبه في معظم مدائمه ، بالحمار الوحشي الذي يسوق أنه إلى الماء ، بعد أن كان يقيم معها في موضع ذات السلاسل ، وبعد أن جفّ المرعى .

٤ - أبلّي : جبل معروف عند أجلا وسلمى . الدكادك : جمع دكدك : المكان السهل .
القراديد : الأمكنة الغليظة .

م : أي أنه انتقل إلى جبل أبلّي ، بعد أن اشتدّ القيظ في المواضع التي كان يرتعي فيها .

٥ - مرتبياً : مرتفعاً على رابية . الأخذ : جمع أخذ ، وهي أماكن تُمسك الماء ، فيحتمى فيها من حرارة الشمس . مثمود : فيه بقية ماء .

م : أي أنه أقام على مُشرف يستطلع بعض الأماكن التي يستنقع فيها الماء ، وقد ظنّ أنّها مازال يرسب فيها شيء منه ، لم تبخره الهاجرة .

١ ثم استمرَّ يُجاريهنَّ لا ضَرَعٌ مُهْرٌ ، ولا ثَلِبٌ أَفْنَاهُ تَعْوِيدٌ ١
 طَويِ المعَا ، لَاحَهُ التَّعْدَاءُ ، صَيَّفَتَهُ كَأَنَّمَا هُوَ ، فِي آثَارِهَا ، سِيدٌ ٢
 ضَخْمُ المِلاطَيْنِ ، مَوَارُ الضُّحَى ، هَزِجٌ كَأَنَّ زُبْرَتَهُ ، فِي الآلِ ، عُنُقُودٌ ٣
 يَنْضَحْنَهُ بِصِلاَبٍ مَا تُؤَيِّسُهُ ، قَدْ كَانَ فِي نَحْرِهِ مِنْهُنَّ تَقْصِيدٌ ٤
 وَهُنَّ يَنْبُونَ عَنْ جَبِّ الأَدِيمِ ، كَمَا تَنْبُو عَنِ البَقْرِيَّاتِ الجِلاَمِيَّاتِ ٥

١ - الضَّرَعُ : الحديث السنّ . المُهْرُ : الصَّغِيرُ . الثَلِبُ : الكَبِيرُ العُودُ . والعُودُ : الحَرَمُ .
 م : يقول إنه ظلّ يعدو مع أُنْتَه ، وهو مُقْتَدِر ، لا حَدَثٌ أو مُهْرٌ أو مَسْنٌ ، حتّى يعجز عن
 طرادها .

٢ - التَّعْدَاءُ : الجُرْحِيُّ والعُدُو . السِيدُ : الذَّنْبُ .

م : أي أَنْتَه لكثرة ما عدا في الصَّيْفِ ، فَقَدْ ضَمَّرَ حتّى بدا كالذَّنْبِ ، وهو يقنفي على
 آثَارِهَا .

٣ - المِلاطُ : الكَتِيفُ . المَوَارُ : السَّرِيعُ . هَزِجٌ : كثير النّهيق والصّياح . زُبْرَتُهُ : الشَّعْرُ
 الذي على كَتِفِهِ .

م : يقول إنه ضخم الكَتِفَيْنِ ، سريع العُدُو ، عند الضُّحَى ، لا يزال يصيح وينهق ، وإنّ
 شعر كَتِفِيهِ يراءى فيما يخوض في الآلِ ، كالعُنُقُودِ .

٤ - يَنْضَحْنَهُ : أي يرمحنه وينطحنه . الصِّلاَبُ : الحوافر . تُؤَيِّسُهُ : تؤثر فيه . تَقْصِيدٌ :
 إصابة .

م : يقول إن أَنْتَه كانت ترمحه دون أن تُصِيبه بألم وإن خَلَّتْ بعض الآثار في نحره .

٥ - الجَبُّ : الغليظ . البَقْرِيَّاتُ : ترس من جلد البقر .

م : يقول إن حوافرَها كانت تنبُو عن جلده وترتدُّ عنه ، كما ترتدُّ الحجارة التي تُرْمَى على
 ترس من جلد البقر .

- إِذَا انصَمَى حَنِقًا حَاذِرًا شِدَّتَهُ فَهِنَّ مِنْ خَوْفِهِ شَتَى عَبَّادِيدُ ١
يَنْصَبُ فِي بَطْنِ أُبْلَى ، وَيَبْحَثُهُ فِي كُلِّ مُنْبَطِحٍ مِنْهُ أَخَادِيدُ ٢
إِذَا أَرَادَ سَوَى أَطْهَارِهَا ، امْتَنَعَتْ مِنْهُ سَرَاعِفُ أَمْثَالِ ، الْقَنَا قُودُ ٣
يَصِيفُ عَنْهُنَّ ، أحيانًا ، بِمَنْخَرِهِ فَبِاللِّبَانِ وَبِاللِّيتِينَ تَكْدِيدُ ٤
يَنْضَخْنَ بِالْبَوْلِ أَوْلَادًا مُغْرَقَةً ، لَمْ تَفْتَحِ الْقَفْلَ عَنْهُنَّ الْمَقَالِيدُ ٥
بَنَاتُ شَهْرَيْنِ ، لَمْ يَنْبِتْ لَهَا وَبَرٌّ مِثْلُ الْيَرَابِيعِ حُمْرٌ هُنَّ أَوْ سَوْدُ ٦

- ١ - انصمى : أي إذا انصبَّ عليهن . حَنِقًا : مغتاظًا . العباديد : المتفرقة .
م : أي أنه إذ يرتدُّ عليها ، فإنَّها تحاذر منه وتتفرق في كلِّ جهة ، هرباً منه .
٢ - يبحثه : أي يبحث في الوادي . الأخاديد : جمع أخذود : حفرة مُسْتَطِيلَة .
م : يقول إنَّه ينصبُّ مع أتنه في ذلك الوادي ويعدو فيه ، ويكاد لا يدع فيه موضعاً لا يرتادُه .
٣ - سراعيف : طِوال . القودُ : جمع القوداء ، أي الطويلة الظهر .
م : يقول إنَّه إذا أراد أن يتزو على إحدى أتنه الحوامل ، فإنَّها تمتنع عليه . ويرُدُّف بأنَّها
طويلة المتون والأعناق .
٤ - يَصِيفُ : يعدل . اللبان : الصَّدر . اللبان : صَفَّتَحْنَا العُنُقُ . تكديد : أثر الحوافر
في الصَّدر .
م : يقول إنَّه يميل عنها ، أحياناً . بعد أن يُصِيبه منها تكديد في صدره .
٥ - القفل : الرَّحْم . المقاليد : المفاتيح .
م : يقول إنَّها تضع أولادها مع البول ، وإنَّها تُجْهَضُ بها ، قبل أن تفتح أرحامها عند
الوضع الطبيعي .
٦ - م : يصف أولادها التي أجهضت بها ، ويقول إنَّ عمرها لم يعددُ الشهرين ، فهي دون
وَبَرٍّ ، تبدو كاليرابيع السوداء أو الحمراء .

مِثْلُ الدَّعَامِيصِ فِي الْأَرْحَامِ غَائِرَةٌ ۱ سُدَّ الْخِصَاصُ عَلَيْهَا ، فَهُوَ مَسْدُودٌ ۱
 تَمُوتُ طَوْرًا ، وَتَحْيَا فِي أَسْرَتِهَا ، كَمَا تَقَلَّبُ فِي الرُّبْطِ الْمَرَاوِيْدُ ۲
 كَانَ تَعْشِيرُهُ فِيهَا ، وَقَدْ وَرَدَتْ عَيْنِي فَصِيلَ قَبِيلِ الصُّبْحِ تَغْرِيدُ ۳

الصِّيَادُونَ وَأَسْمُهُمْ

ظَلَّ الرُّمَاءُ قُعودًا فِي مَرَاصِدِهِمْ لِلصَّيْدِ، كُلُّ صَبَاحٍ عِنْدَهُمْ عِيدٌ ۴
 مِثْلُ الذِّيَابِ، إِذَا مَا أَوْجَسُوا قَنَصًا كَانَتْ لَهُمْ سَكْنَةٌ مُصْنَعٌ وَمَبْلُودٌ ۵

١ - الدعاميص : جمع دغموص : ديدان حمراء . الخصاص : النافذة .

م : يستكمل وصفها ويشبهها ببعض الديدان ، ويقول إنها غائرة في أرحامها التي لم تفتح عنها في حينها .

٢ - أسرتها : أرحامها . الربط : يعني المرباط جمع المربط : ما تشدُّ به القربة أو إليها .
 المراويد : الخيل التي تروح وتجيء .

م : يقول إن أولادها تموت وتحيا في أرحامها وتقلَّب فيها كالخيل التي تروح وتجيء في مراتبها .

٣ - تعشيره : نهيقه . عيني فصيل : اسم موضع .

م : يصف صياحه ونهيقه عند الفجر ، ويقول إنه أشبه بالتغريد .

٤ - م : يشير في هذا البيت إلى الصيادين الذين كانوا يترصدون الحمار وأتته ، وهم فرحون في صيدهم ، كأنهم في حفل أو عيد .

٥ - أوجسوا : أحسوا . القنص : الصيد : مبلود : بليد .

م : يشبههم بالذئاب ، ويقول إنهم إذا توقعوا طريدة وتوجسوها سكتوا ، بعضهم يتنصت لعدوها وحركتها والبعض الآخر متبلد ، غير آبه .

بِكُلِّ زَوْرَاءِ مِرْنَانَ ، أَعِدَّ لَهَا مُدَاخِلَ صَحْلٍ بِالْكَفِّ مَقْدُودٌ ١
على الشَّرَائِعِ مَا تَنْبِي رَمِيَّتُهُمْ لَهُمْ شِوَاءٌ ، إِذَا شَاءُوا ، وَتَقْدِيدٌ ٢

تحليل : أولا : وصف النَّاقَةِ : يَنْزِعُ فِيهِ مَنْزَعًا مِثَالِيًّا إِذْ يَضْفِي عَلَيْهَا
الخصائص العامة التي تجعلها ناقةً مُتَفَوِّقَةً فِيهِ « ذات معجزة » ، شديدة الصَّلابة ،
أي أنه نعتها بالنَّعْتِ المَبَاشِرِ الذَّهْنِيِّ ، وهو لا يقف عند ذلك ، بل تراه يتوسَّلُ به
كمقدمة للتشبيه حيث يقربها بالصَّخْرَةِ الصَّلْبَةِ . والتشبيه مُغْرَقٌ فِي المَادِيَّةِ ، إِلا أَنَّهُ
كان يبدو بليغاً ، عصرئذ ، إذ لم يكن العربيُّ يمثِّلُ الصَّلابةَ فيما دون الصَّخْرَةِ ،
بل يخيلُ إليه أَنهَا مِثَالُهَا . والواقع أَنَّ الصَّخْرَةَ صَلْبَةٌ وَلَيْسَ فِيهَا يَطَّلِعُ العَيْنُ أَفْضَلَ
منها للتدليل على الصَّلابة ، إِلا أَن الأخطل يتلقَّفُ في مثل ذلك أيسر ما يتداول في
هذا الشَّانِ ولم يفتزع له كنياته بخلق يَخْلُقُهُ ، كما كان شأنه فيما دون ذلك . وكما
سما من التقرير الوصفي الى التشبيه ، يسمو عن هذا الأخير الى الكناية القرينة
المتناول من خلال سنامها ، وهو مخزن الشحم الذي يعصره التعب ، فيذوب دون أن
تحفل بذلك ، كأنَّهَا تستمدُّ نشاطها من قُوَّةٍ غَرِيبَةٍ فِي ذَاتِهَا ؛ فِيهَا لَا تَخْذُلُ
صَاحِبَتِهَا وَلَا تَبُو مَهْمَا طَالَتْ عَلَيْهَا مَشَقَّةُ السَّرِّ . والغلوُّ بَيْنَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ،
وفيما دونه ، أيضاً ، فكأنَّه يوقع أوصافها بإيقاع الفخر . ويعود ، ثانيةً ، إلى
الكناية بقوله :

تَهْدِي سَوَاهِمَ يَطْوِيهَا العَنِيقُ بِنَا فَالعِيسُ مُنْعَلَةٌ أَقْرَابَهَا ، سُودٌ

١ - الزَّوْرَاءُ : القَوْسُ ، مِرْنَانَ : لها رنةٌ عندما يترع عنها السهم . المُدَاخِلُ : الوتر الشَّدِيدُ
الْقَتْلُ . الصَّحْلُ : سهم له صوت كالبحّة .

م : يصف القوس ، ويقول إنَّهَا مِرْنَانَ ، تترع عنها أسهم مصوِّتة ، قَدَّتْ وَصَقَّتْ بِاليدِ .

٢ - الشَّرَائِعُ : جمع الشَّرِيعَةِ : المورد . رمى فنيى : أي أخطأ .

م : يقول أنهم يصطادونها فيشترون اللحم أو يقطعونه كي يجفَّ .

والشاعر يُمثّل شدة القيظ الذي تُصلى به من خلال الظلّ ، يترسّمه بصورة مكثّفة إذ جعلها تتنّعل ظلّها ، أي أنه يكاد أن يتلاشى لانتصاب الشمس انتصاباً عمودياً ، بالغة أشدّ القيظ والتّهجير . فانتعال الإبل لأخفافها تعبير أدنى إلى الواقعية ، مُستمدّ من المشاهدة البصريّة ، إلا أنه يسمو على التشبيه لشدة الخيلز موحّلاته ، بل إنّه يؤلّف فيه بين الكناية والتشبيه إذ أن هذه الصورة تنطوي على مقارنة بين الظلّ والنعل . وهنا لا يتلقّف الأخطل أيسر ما يتداول ، بل يتمرّس بالفنّ الصّعب الذي يدرك أدلّ المظاهر على الأفكار والمعاني . إلا أن أمر الغلو لا ينتهي به عند هذه الصّورة ، بل تراه محاولاً أن يتخطّاه إذ يجعل تلك الناقّة تهدي سواها ، أي تتقدّمها ، بالرغم من تلك القانظة الشديدة . والأخطل يخضع من نفسه على موضوعه ، هنا ، إذ يقيم منافسة بين النياق . كما تقوم المنافسة بين الشعراء وبين القبائل ، وهو يزهو بنوع من الشعور الساذج بالتفوّق .

وللكناية مستويات متباينة في ذلك . فانتعال الإبل لأخفافها أسمى من قوله : « فكلّها نعب الأخفاف » . ومع أن القول الثاني يتمّ عن شدة الأرهاق ، فإن القول الأول أكثر تكثيفاً وتعقيداً إذ لم يقتصر على الكناية لوحدها ، بل أضمر فيها التشبيه . ففيه عنصران للايحاء والغلوّ وفيما دونه عنصر واحد ، منقول عن أديم الواقع .

ثانياً : الفحل وأتته : يستهلّ مقارنتها به بالقول إنّه أرعى حلاله في موضع ذات السلاسل ، حتى أقبل الحرّ وأيس العشب والورق ، أي أنه نهد به ، منذ المطلع ، إلى مأساة الظمّ . لقد توفّر له الطّعام ، فيما خذله الماء الذي يحدث أزيمة دائمة ؛ ولعلّ افتقاده هو الذي جعل الصّحراء صحراء . فمأساته هي في بيئته ولا سبيل له من دونها إلا السعيّ المضني ، مُنتقلاً من مكان إلى آخر :

ثُمَّ تَرَبَّعَ أُبْلِيًّا ، وَقَدْ حَمَيْتْ مِنْهَا الدَّكَادِكُ وَالْأَكْمُ الْقَرَادِيدُ

فهذا الحمار مسيرٌ بمسير الظمّ أو الهاجرة ، فكان الأقدار تضطهده وتطرده وترجي به في يدٍ خفيةٍ إلى انتجاع الأماكن التي يتوهّم ان الماء يستنقع فيها . وكرب

العائلة المأخوذ بهموم عائلته وتدبير رزقها، يصعد إلى إحدى الروابي ، ليستشرف ما دونه :

فَظَلَّ مُرْتَبِيًّا ، وَالْأَخْذُ قَدْ حَمِيَتْ وَظَنَّ أَنَّ سَبِيلَ الْأَخْذِ مَثْمُودٌ

فهو يتفكّر ويعاني ويظنُّ ، فكأنّه إنسانٌ سويٌّ يُعاني همَّ العيشِ ويحتال له ؛ ولتتمثّل تلك البهيمة القانطة تقف على رابية ، تستطلع الغيب والمجهول ، وتحسّب وتفترض لتجد سبيلاً إلى الهرب والنفاذ من المحنة التي تقاسيها وتشارف منها الموت والهلاك . وهذه الصورة تعيد إلى ذهننا واقع العربيّ الذي يجفُّ الماء عليه ، فيستشرفه من على التلال ويتفكّر بما عرّف وألف من ينابيعه ومستنقعاته .

إلا أن الظمّاً لا يُعيقه عن العدو ومجارة أُنته ، وقد أسرف في ذلك حتّى هزّل وضمّر وبدا كالذئب . فما جدوى هذا القول بالنسبة إلى وصف الحمار الوحشيّ ؟ ولعلّه انصرف إلى نقل الواقع ووقع تحت وطأته ، يتقيّد بما يجري فيه ، مستطرّداً عمّا استهلّ به من مأساته في القيظ والهاجرة . ولعلّه أراد بذلك أن يوحي بعظم نشاطه وقوّته ، رغم ضموره وعطشه . إلا أن النزعة الوصفية تغلب وتطفو في قوله :

ضخّم الملاطين ، موار الضحي ، هزجٌ كأنّ زُبْرته ، في الآل ، عنقودٌ

فالتشبيه يقوم على الدقّة وبخاصة في لفظة « عنقود » ، ولعلّه أوعز بذلك إلى سرعته إذ أنه يغيب بسرعة عن النّظر ويكاد يخرج من متناوله . والله أعلم .

وتطغى النزعة الواقعية فيما يلي من أبيات إذ يسرد ما يجري له معهنّ من عضّ وكدم ورفس . إلا أن للفحل هيئته ، إذ غضب حاذرنه ونأين عنه . ولا نشهد فيما نعت به الصيادين تلك الدقّة المأثورة ، كما أنه ألمح إلى دأبهن على القتل والنحر من خلال أسهمهم ولم يتفرّع للجزيئات والاعراض .

وعلى الجملة ، فإن وصفه للفحل هو وصف لأنته معه وللوهو ومرحه وصراعه في سبيل تنازع البقاء عبر الطبيعة التي تنعم عليه وتحرمه ويطلعه من بين أشجارها الرّبص والموت .

الباب الرابع

الناقة والثور الوحشي

خصّ الأخطل الثور الوحشي بمقطوعات متعدّدة تفوق أيّ موضوع آخر من موضوعاته الوصفية وبث فيه من التجارب والمعاناة ما لم يثمه في سواه ، وحتى في وصفه للخمرة . ويقترن وصفه بموضوعين آخرين هما الناقة التي تتقدّمه والصيد الذي يلحق به . فهو يستهلُّ كدأبه بذكر الناقة ، يصفها بعض الوصف ويعرّج ، من ثمة ، على الثور الوحشي ، فيشير إلى قيامه بكنف شجرة الأروطة ، اتقاءً للمطر المتدفّق والريّح العاصفة ، يحنّ الظلام وتعزّيه الحيرة ، كما أن السيل ينهمر عليه في مفرعه بالترّب والوحول . وإذ يخطف عليه البرق يبدو ، من دونه ، كمن ارتدى حلّةً اصفهانية أو كمن يقوم على النّار ليصطلي بها . وإذ يطّلع عليه الصّباح ، يفاجئُه الصّياد بكلابه التي تهرع إليه كالجنّ ، فتولّي عنه ، يلتمع جلده كالكوكب الدرّي ، المتألّق ، تقتفي الكلاب على أثره ، مثيرة التراب والغبار وتكاد لا تلحق به وهمّ أن تُنفذ فيه أنيابها ، حتى يكفّ عن العدو ويرتدّ عليها ، يطعنها بقرنيه ويعفرها بالتراب ، فيما هي تحاول أن تنجو ، لائثة بالأرض الغليظة . لقد هزمها وتولّي فرحاً يخوض في التّبّ يطرّب لطنين الذّبان ويفيض منه طيبٌ من خرج من بيتّ العطار . من ذلك قوله :

وَمَهْمَه طَامِسٌ تُخْشَى غَوَائِلُهُ قَطَعَتْهُ بِكُلُوءِ الْعَيْنِ ، مَسْهَارٌ

١ - يقول إنه اجتاز القفر على ناقة ساهرة ، بقطة .

بِحُرَّةٍ كَأَنَّانِ الضَّحْلِ ، أَضْمَرَهَا ١
 أَخْتِ الْفَلَاةِ ، إِذَا شَدَّتْ مَعَاقِدُهَا ٢
 كَأَنَّهَا بُرْجُ رُومِيٍّ ، يُشِيئُهُ ٣
 بَعْدَ الرَّبَالَةِ تَرْحَالِي وَتَسْيَارِي ١
 لَأَنْتَ قُوَى النَّسْعِ عَنِ كِبْدَاءِ مِسْفَارِ ٢
 لَزَّ بِجِصٍّ وَأَجْرٍّ وَأَحْجَارِ ٣

وصف الثور الوحشي

أَوْ مُقْفِرٌ ، حَاضِبُ الْأُظْلَافِ ، جَادَلَهُ ٤
 فَبَاتَ فِي جَنْبِ أَرْطَاةٍ تُكْفِئُهُ ٥
 غَيْثٌ ، تَظَاهَرَ فِي مَيْثَاءِ مِبْكَارِ ٤
 رِيحٌ شَامِيَةٌ ، هَبَّتْ بِأَمْطَارِ ٥

١ - حُرَّةٌ : ناقةٌ كريمةٌ . الأنان : الصخرةُ الكبيرةُ . الضحْلُ : الماءُ القليلُ . الربالةُ : السمنُ والحصبُ .

م : يصف تلك الناقةَ ويعظمُ من أمرها ، ويقول إنَّها كريمةٌ ، عظيمةٌ كصخرةِ الماءِ ، قد هزَلَتْ وضمُرَتْ من شدةِ ترحاله وتسياره عليها ، بعد أن كانت سميئةً .

٢ - كِبْدَاءٌ : ضخمةُ الصدرِ . مِسْفَارٌ : قويَّةٌ على السفرِ .

م : يقول إنَّها أَلِفَتِ السَّيْرَ في الفلاةِ ودأبت عليه ، وإنَّ جبالَ الرَّحْلِ التي تعقدُ عليها ، تزل عنها لضمورها من شدةِ السَّيرِ .

٣ - يُشَبِّهُهَا بِبُرْجِ الرُّومِيِّ في ارتفاعِ هامتها ويصف ذلك البُرجَ ويقول إنَّه ابتناه بمختلف أنواعِ الحجارةِ الصَّلبةِ .

٤ - مَيْثَاءٌ : أرضٌ سهلةٌ . مِبْكَارٌ : أرضٌ باكرها المطرُ .

م : يشرح في هذا البيت بتشبيهِ ناقتهِ بالثورِ الذي دأب على ملازمةِ الفقرِ ، والذي تَخَصَّبَتْ أظلافه من كثرةِ وطئه للنباتِ الرَّخِصِ في أرضٍ سهلةٍ ، باكرها سقوطُ المطرِ .

٥ - أَرْطَاةٌ : شجرةٌ كبيرةٌ . تُكْفِئُهُ : تقلِّبهُ .

م : يقول إنَّه لاذ إلى كنفِ شجرةِ الأَرْطَاةِ ، فيما جعلت الرِّيحُ الشَّامِيَةَ التي يصحبها المطرُ تضربه من كلِّ جهةٍ .

يَجُولُ لَيْلَتَهُ ، وَالْعَيْنُ تَضْرِبُهُ مِنْهَا بَغِيثُ الرَّغْدِ ، نَيْارٍ ١
 إِذَا أَرَادَ بِهَا التَّغْمِيزَ ، أَرْقَهُ سَيْلٌ ، يَدِبُّ بِهِمْ التُّرْبُ ، مَوَارٍ ٢
 كَأَنَّهُ ، إِذْ أَضَاءَ الْبَرْقُ بَهْجَتَهُ فِي أَصْفَهَانِيَّةٍ فِي أَوْ مُصْطَلِي نَارٍ ٣
 أَمَّا السَّرَاةُ ، فَمِنْ دِيبَاجَةٍ لَهَقَ ، وَبِالْقَوَائِمِ مِثْلُ الْوَشْمِ بِالْقَارِ ٤
 حَتَّى إِذَا انْجَابَ عَنْهُ اللَّيْلُ ، وَانْكَشَفَتْ سَمَاوُهُ عَنْ أَدِيمِ مُصْحَرٍ ، عَارٍ ٥
 آتَسَنَ صَوْتَ قَنِيصٍ ، إِذْ أَحَسَّ بِهِمْ كَالْحِنِّ ، يَهْفُونَ مِنْ جَرْمٍ وَأَنْمَارٍ ٦

١ - العَيْنُ : السحاب . الأَجَشَّ : الرعد الغليظ الصَّوت . نَيْارٍ : شديد الأنصباب .

م : يقول إنَّه أفنق ليله يُجبل حدقتيه في الظلام ، فيما ينهمر عليه السحاب بالمطر الشديد الذي يصحبه رعد أجش القصف .

٢ - يقول إن ذلك الثور كان يسعى إلى النوم ، محاولاً أن يُغمض عينيه ، إلا أن السيل المندفع كان يهبل عليه التراب الذي يلج إلى عينيه ، فيمنعهما من الاغتماض ويحول بينه وبين النوم .

٣ - أَصْفَهَانِيَّةٍ : ثوب اصفهانى مصبوغ بالزعفران الأصفر .

م : يصف الثور فيما يتخطف البرق حوله وينيره ، ويقول إنَّه يبدو كمن يرتدي حلة اصفهانية صراء أو من يصطلي ناراً ينعكس وهجها عليه .

٤ - السراة : أعلى الظهر . لهقَ : أبيض .

م : يقول إن أعلى متنه من ديباج أبيض ، أما قوائمه ، ففيها نُقَطُ سود ، شبيهة بوشم من القار ، أي الزفت .

٥ - م : يقول إنَّه بعد أن قضى ليلته تلك مؤرَّقاً من الريح والمطر والسييل ، طالعه الصبح بسماء نقيّة الأديم صافية .

٦ - آتَسَنَ : أي الكلاب . أَحَسَّ : أي الثور . بِهِمْ : أي الصيادين .

م : يقول إن الثور أحسَّ بقدم الصيادين ، فدُعر ، فأنست به الكلاب وتنصتت له ، ثم يصف الصيادين ، ويقول إنَّهم يهرعون كالحنن يترصدونه وإنَّهم من قبيلتي جرم وأنمار الشهيرتين باحتراف القنص .

فانصاع كالكوكب الدرّي ميعته ۱
فأرسلوهن يذرين التراب ، كما
يذري سبائخ قطن نذف أوتار ۲
وَأَرْهَقْتُهُ بِأَنْيَابِ وَأَظْفَارِ ۳
وَطَعَنَ مُحْتَقِرِ الْأَقْرَانِ ، كَرَارِ ۴
فَعَفَّرَ الضَّارِيَاتِ اللَّاحِقَاتِ بِهِ ۵
عَفَّرَ الْغَرِيبِ قِدَاحًا بَيْنَ أَيْسَارِ

١ - مَيْعَتُهُ : أول عهده . المَعَج : الإسراع في العدو . الإِحْضَار : الارتفاع في العدو .

م : يقول إنّه ، أثر رؤيته للكلاب ، انطلق يعدو ، يُسْرِع ، حيناً ، ويرتفع في عدوه حيناً آخر ، فبدأ كالنجم الدرّي المُنْقَض في الفضاء .

٢ - سَبَائِخ : جمع سبيخة : قطعة .

م : يقول إنّ الصيادين أرسلوا الكلاب ، تعدو إثر الثور ، وهي تُثير التراب وتذروه في عدوها كما يذري قطع القطن من يَنْدَفُه بالمندفة ذات الأوتار .

٣ - ٤ - أَرْهَقْتُهُ : لحقت به وأعملت فيه أنيابها وأظفارها .

م : يقول : لم تكد تلك الكلاب تلحق به وتُعمل به أنيابها وأظفارها حتى مال إليها ، مُحاذراً ، وجعل يطعنها طعن من يحقّر من شأن خصمه ولا يحفل به ، إذ أنه أليف الصراع ودأب عليه .

٥ - الضَّارِيَات : أي الشديديات الضراوة في الصيد . عَفَّرَ الْغَرِيبِ قِدَاحًا : لأن الغريب لا قداح له ولا مطمع له في الميسر ، ولأنه لا يحايي .

م : يقول إنّه ارتدّ على سوابق الكلاب التي اشتدت ضراوتها عليه وهزمها وعفرها بالتراب تعفير قداح الميسر .

يَعُدْنَ مِنْهُ بِحِزَانِ الْمِتَانِ ، وَقَدْ فُرِّقْنَ عَنْهُ بِذِي وَقَعٍ وَأَثَارِ ١
 حَتَّى شَتَا ، وَهُوَ مَغْبُوطٌ بِغَائِطِهِ يَرَعَى ذُكُورًا ، أَطَاعَتْ تَعْدًا أَحْرَارِ ٢
 فَرَدُّ تُغْنِيهِ ذِبَّانُ الرِّيَاضِ ، كَمَا غَنَى الْغَوَاةُ بِصَنْجِ ، عِنْدَ إِسْوَارِ ٣
 كَأَنَّهُ ، مِنْ نَدَى الْقُرَاصِ ، مُغْتَسِلٌ بِالْوَرْسِ ، أَوْ خَارِجٌ مِنْ بَيْتِ عَطَّارِ ٤

١ - يَعُدْنَ : يَسْتَجِرْنَ .

م : يقول إن تلك الكلاب لا ذتُ خوفًا منه بالأرض الغليظة ، وقد تفرقت بعد أن أعمل فيها قرنه وأثنى جراحها مخلفًا آثار طعنه لها .

٢ - الغائط : هنا المكان الذي يأوي إليه . الذكور : ما غلظ من البقل . الأحرار : ما حلا من البقل في أو نموّه .

٣ - إسوار : قائد فارسيّ .

م : يصف الذبّان التي تترنم في تلك الرياض ويشبه طينتها بطنين الصنج الذي يقرعه الماجنون عند قائد من قواد الفرس .

٤ - القرّاص : ضرب من البقل . الورس : نبت أصفر .

م : يقول إنّه خاض في النبت الذي وقع عليه الندى ، فغشيّه الورس الأصفر ، كأنّما أغتسل به أو كأنّه خارجٌ من معطرة لشدة الطيب الذي يتصوّع منه .

بين ، منذ المطلع ، أنَّ الشَّاعِرَ يَسْتَهْلُ مُفَاخِرًا بِاجْتِيَازِ الْفَلَوَاتِ الْخَطْرَةَ .
 وهو معنى والـج في سنَّة الفخر منذ الجاهليَّة . مستمدٌّ من طبيعة بيتها . وقد ورد
 ذكر النَّاقَةِ في هذا السِّياق ، أي في باب الفخر . ممَّا نَفَّحَ وصفها بالغلوِّ والمثاليَّة .
 وهو يَسْتَعِيدُ تشبيهاً بالصَّخْرَةِ للتدليل على شدَّتها وصلابتها . ولعلَّ هذا التَّشْبِيهَ
 كان كنفخ المسك بالنَّسبة لطيب الحمرة وعين الديك بالنَّسبة إلى صفائها ، أي
 التَّشْبِيهَ الأَدْنَى متناولاً : تكاد لا تذكر النَّاقَةَ حتى يُقْرَنَ بها . فكما ان الجاهلي لم
 يكن يذكر طيب الحمرة حتى يقرنه بالمسك . كذلك . لم يكن يذكر صلابة النَّاقَةَ
 حتى يقرنها بالصخر .

وذاك يُطلَعنا على ان التجربة الشعريَّة تتأثَّرُ بالمستوى الحضاري للنَّمس ومدى
 قدرتها على التَّجريد والتَّعميد والتَّوليد . أي قدرتها على تداول المعاني وتكثيفها
 واكتشاف رموزها الحسيَّة النَّائِيَّة . لا شكَّ أن تشبيه النَّاقَةَ بالصَّخْرَةِ لصلابتها
 يَنطوِي على قليل أو كثير من الخبرة الحسيَّة أفاد منها في أداء المعنى ، لكنها
 خبرة بدهيَّة ، عامَّة ، بل مبتدلة ، إذ لا يقصر أيُّ من النَّاس على التَّمثِيل بالصَّخْرَةِ
 تدليلاً على الصَّلابَةِ .

ولا تعدو الكناية هذا المستوى المتدني من الخبرة الحسيَّة إذ يقول : « أضمَّرها ،
 بعد الرِّبالة تَرَحَّلي وتسياري » . فالكناية في نقطة انطلاقها الأولى تصدر عن المعرفة
 الحسيَّة . أيضا ، في معنى السَّمْنِ والضَّمور . الأول يعني الرَّاحَةَ والثاني التعب
 والمشقَّة . والأخطل ساق ذلك في سياقه النَّثْري ، موضحاً المعادلة غاية الإيضاح ،
 مفسراً ما التبس منها في ربطه بين النَّتِيْجَةِ والسَّبَبِ ، أي بين الضَّمور ومشقَّة الأسفار .

إلا أن الخيال يَسْمُو بالشَّاعِرَ بعض السُّمو ، فلا يَعُودُ يَنْفَصِحُ بما يُوضَح . بل
 يتولَّى الأشياء في وقعها النَّفسي ومدى إنخائها إذ يقول :

كَأَنَّهُ بَرَجٌ رُومِيٌّ . يُشِيِّدُهُ لُزٌّ بِجِصٍّ وَأَجْرٌ وَأَحْجَارٌ

فالمُماثِلَةُ بين النَّاقَةَ وبرج الرُّومِيِّ لا تقوم على الدَّقَّة التَّقْريْريَّة في الشَّبه الحسيِّ ،

بل على ماثلة في السورة النَّفْسِيَّة ، إذا جاز التَّعْبِير ، فيه افصاح عن الشَّمُوخ والارتفاع وصورة القنطرة ومعنى الصَّلابة واحكام البنيان وما إلى ذلك مِمَّا يَقَع وَقَعُهُ فِي النَّفْس . إلا أن هذه الصورة سَلَفَتْ بِمَعْنَاهَا وَمَبْنَاهَا عند طرفه بن العبد ، إذ قَدَرْتَهَا بِقَنْطَرَةِ الرَّومِيٍّ وَأَرْدَفَ بِأَنَّهَا أُشِيدَتْ بِالْقِرْمَد ، فيما ذكر الأخطل أنها شِيدَتْ بِالْأَجْر والأحجار .

أما صورة الثور الوحشي ، فتبدو أرقاً من الصَّوْرَةِ الَّتِي تَرَسَّمَهَا لِلْحِمَار . فهو يَنْوَهُ بِتَخْضَبِ أَظْلَافِهِ مِنْ شِدَّةِ عَدُوهِ فِي النَّبَات . ومنذ هذه الصَّوْرَةِ نَسْتَشْفُ الرِّقَّةَ الَّتِي يُنْمِيهَا الشَّعْرَاءُ الْعَرَبُ لِهَذِهِ الْبَهِيمَةِ فَكَانَهَا أَدَاةَ جَمَالٍ بِقَدْرِ مَا هِيَ أَدَاةُ قُوَّة . ففي التَّخْضَبِ دَلَالَةٌ عَلَى عَلَى اللَّهْوِ وَالْمَرْحِ وَالْكَرِّ وَالْفَرِّ ، مما طالعنا ، قبلاً ، في الحمار والتدامي . إلا أَنَّهُ كَانَ نَوْعاً مِنَ الْمَرْحِ الْبَطَّاشِ ، السَّاخِطِ بِالْكَدْمِ وَالرَّمْحِ وَالنَّهْشِ وَالتَّدَامِي . مرح الحمار يُخَلِّفُ الْخَدُوشَ عَلَى أَدِيمِ وَجْهِهِ وَخَاصَرْتَيْهِ وَالذَّمَّ عَلَى سَائِرِ أَنْحَاءِ جَسَدِهِ ، أَمَّا مَرْحُ الثَّوْرِ ، فِيدَعُ لَوْنَ الْأَعْشَابِ يَعْطِقُ عَلَى أَخْفَافِهِ ، فَيَتَخَضَّبُ بِهِ ؛ وَمَعَ إِجْحَاطِيَّةِ هَذِهِ الصَّوْرَةِ ، فَإِنَّهَا مَا زَالَتْ تَقْلِيدِيَّةً ، إذ لم يكذب الجاهليُّون يذكرون الثور حتى يشيروا إلى تَخْضَبِهِ . وَجَرَّتْ سَنَةٌ وَصَفَهُ ، كَذَلِكَ ، عَلَى أَحْدَاثٍ مُعَيَّنَةٍ ، تَكْتَبِي عَنْ أَحْوَالِ يِعَانِيهَا أَوْ أَوْضَاعٍ يُفْسِدُ فِيهَا بِجَيَاتِهِ . وَلَعَلَّ الْأَهْمَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ أَحْدَاثٌ ثَلَاثَةٌ هِيَ : سَقُوطُ الْمَطَرِ عَلَيْهِ وَالتَّجَاوُزُ إِلَى شَجَرَةِ الْأُرْطَاةِ ، وَتَوَجُّسُهُ الدَّائِمُ مِنْ تَرْتَبُّصِ الصَّيَّادِينَ وَاضْطِرَارِهِ لِلْقِتَالِ دَفَاعاً عَنْ النَّفْسِ . فعند هطول المطر أي عند المحنة الأولى تراه وقد أقام في كنف الشجرة ، يَحْتَمِي مِنَ السَّيْلِ الْمُنْهَمِرِ :

فَبَاتَ فِي كَنْفِ أُرْطَاةٍ تُكْفُّهُ رِيحٌ شَامِيَّةٌ ، هَبَّتْ بِأَمْطَارِ

فأولى عادات الطبيعة عليه هو المطر ، مع ما يَصْنُجُهُ وَيَعْقِبُهُ مِنْ صَفِيعٍ وَمَا يَتَّعَصَّفُ فِيهِ مِنْ رِيحٍ شَامِيَّةٍ بَارِدَةٍ . فهذه الطبيعة التي كان يمرح ويلهو على صدرها وبين أحضانها ، يجدها ، وقد جنَّ جُنُونُهَا ، فَجَاءَتْ ، كَأَنَّهَا تَقْضُ عَلَيْهِ ، يَخْطِفُ بَرَقَهَا وَيَقْصِفُ رَعْدَهَا وَتُثَوِّرُ رِيَّاحَهَا وَيَشْتَدُّ صَفِيعُهَا ، أَي كَأَنَّهَا كَانَتْ تَضْطَّهِدُهُ ، بعد أن كانت تؤويه وتعضده . ولتتمثل تلك البهيمة التي كانت

تمرح منذ حين وكأنها رمز للحَيوية والدَّقق والجمال، إذا بها تنزوي وتُفشي
ويَعثرها الخفقان والوجيف . مخدولةً تَسْتُرُ ذاتها وتحتمي . دون أن تفلح في
ذلك قط . لقد غدت رمزاً لضعف الانسان وهزاله بين يدي الطَّبِيعَة ؛ ولعلَّ لفظة
« تَكْفُثُه » تؤدي معنى الاستمرار فيما اضطهدته به الطَّبِيعَة ، يَمِيلُ من جهة إلى
أخرى، وهي تقتفي حَرَكَاته لتمعن في أذبتِها. وقد كان دأبُ ذلك الثور أن
ينامَ ، لَيْلاً ، إلا أنَّ النَّومَ استحال عليه لَيْلَتَيْهِ :

إذا أرادَ بها التَّغْمِيزَ أَرَقَّهُ سَيْلُ يَدِبُ بهدم التَّربُّ ، مَوَّارُ

ويخيل إلينا في ذلك أن انزعاج الثور من النَّومِ . كما أدَّاه الشَّاعر هنا ، هو
انزعاج فيزيولوجيٌّ، إذا جاز التعبير . وليس انزعاجاً نفسياً لعله ألف حياة القفر
كالبدوي . الثور هو هنا العربي في القفر . وشجرة الأُرطاة هي الحيمة . تؤويه
ولا تسره . تتخطَّف فيها البروق وتزجر الرُّعود . وربما ألف العربي ذلك كلَّه .
إلا أن السَّيْلَ يَفْتَحُم عليه ويزعجه عن مقامه . وهي كذلك لا تزال تمُّ عن الضَّيْمِ
والقَهْرِ، وفي أدنى حالاتها ، عن الانزعاج الفيزيولوجي . على الأقل .

وفي هذا الإطار يرسم للثور صورةً طارئةً خاصَّةً . عندما ينعكس عليه لمعانُ
البرق :

كَانَهُ إِذْ أَضَاءَ البرقُ بهجته في اصفهانية أو مصطلي نَارِ

وليس لهذه الصُّورة دلالة نفسية ، بل إنَّ غايتها في ذاتها ، في تمثيل وضع من
أوضاع الثور. وقيمة التشبيه هي قيمة تعادليةً مثاليةً . تقرن الواقع بما يُشبهه ويؤدِّيه
ويُضفي عليه قليلاً أو كثيراً من الانفعال والغلوِّ . ومثل ذلك الدِّيابِجة ووشم
السَّاقين بالقار .

إلا أن العاصفة تعبر به وتجوِّزُ عليه . إذ يَنشَقُّ اللَّيْلُ عن أديم الصَّحو .
وهنا يلج إلى محنة أخرى أمضٍ وأخطر من الأولى إذ يطالعه الصَّياد بكلابه :

آسَنَ صَوْتَهُ أَنَيْسٌ ، إِذْ أَحَسَّ بِهِمْ كَالجَنِّ يَهْفُونَ مِنْ جَرَمٍ وَأَنْمَارٍ
فَانصَاعَ كَالكوكبِ الدَّرِيِّ مِيعَتَهُ غَضْبَانَ ، يَخْلُطُ مِنْ مَعْجٍ وَإِحْضَارِ

في الليل كان يُحْدَقُ به الخطر من الأمطار ، ولم يكد ينام . وفي الصُّبْحِ ،
إِذْ أَهَلَ عَلَيْهِ الضَّوْءُ وَاَنْشَعَتْ عَنْهُ سَحْبُ الهمومِ ، أَحْدَقَتْ بِهِ الكلابُ كَالجَنِّ ؛
وَإِذَا كَانَ المَطَرُ مَطْرَ قَلْقٍ وَأَرْقٍ ، فَإِنَّ الكلابَ هِيَ كلابُ المَوْتِ ، تَمْزُقُهُ مَزَقًا
بِالْأَنْيَابِ وَالْأظْفَارِ . أَنْتَمِلُ فِي وَاقِعِ الثَّوْرِ هُنَا وَاقِعِ العَرَبِيِّ الَّذِي يُصَبِّحُهُ العَدُوُّ
بِالغَارَةِ ؟ . رَبِّمَا اسْتَبَطْنَ الشَّاعِرُ هَذِهِ الدَّلَالََةَ وَرَبِّمَا غَفَلَ عَنْهَا ، إِلا أَنَّهُ تَطَالَعْنَا
مِنْ خِلَالِ الأَحْدَاثِ الدَّلَالَةَ عَلَى التَّنَازَعِ الفَاجِعِ لِلبَقَاءِ . وَلَقَدْ عَدَا الثَّوْرُ غَايَةَ عَدُوِّهِ ،
لأنَّهُ يَعْانِي غَايَةَ الخَطَرِ ، فَهُوَ نَاقِمٌ ، ثَائِرٌ ، إِلا أَنَّ الكلابَ السَّرِيعَةَ تُدْرِكُهُ وَتُعْمَلُ
فِيهِ أَنْيَابُهَا فَيَرْتَدُّ إِلَيْهَا ، إِذْ أَيْقَنَ أَنَّ الهَرَبَ لَنْ يُؤَدِّيَ بِهِ إِلَى النِّجَاةِ . فَالْخَطَرُ إِذْ
يَتَهَدَّدُ الحَيَّ بِتَحْدَاهُ . كَانَمَا يَمْتَضِيهِ المِوَاجِهُةُ . وَلا بَدَّ لَهُ مِنَ التَّعَرُّضِ إِلَيْهِ :

أَنْحَى إِلَيْهِنَّ عَيْنًا ، غَيْرَ غَافِلَةٍ وَطَعْنَ مُخْتَقِرَ الأَقْرَانِ ، كَرَّارٍ
فَعَقَّرَ الهَادِيَاتِ ، اللَّاحِقَاتِ بِهِ عَفْرَ الغَرِيبِ قَدَاحًا بَيِّنَ أَيْسَارِ

فَالطَّبِيعَةُ الَّتِي سَلَّطَتْ عَلَيْهِ الأَخْطَارَ جَهَّزَتْهُ بِمَا يَدْعُهُ يُجَهِّزُ عَلَيْهَا ، سَلَّطَتْ
عَلَيْهِ الأَنْيَابَ وَجَهَّزَتْهُ بِالقُرُونِ وَبِالسَّاقِينَ لِلْعَدُوِّ ، يَقُومُ أَحَدُهُمَا إِذَا لَمْ يَقُمْ الأُخْرَى .
وَعَلَى دَأْبِهِ فِي كُلِّ حِينٍ ، يَدْعُ الأَخْطَلَ ثَوْرَهُ يَنْتَصِرُ عَلَى الكلابِ وَيَخْلِفُهَا صَرَخَى عَلَى
الأَرْضِ الغَلِيظَةِ وَيَمْضِي فِي سَبِيلِهِ ، لا يَلْتَوِي عَلَى شَيْءٍ . وَكَأَنَّ الثَّوْرَ اسْتَحَالَ إِلَى
رَجُلٍ كَفَّاحٍ ، إِلَى مِصَارِعٍ بَطْلٍ يَقْضِي عَلَى مَا يَعْترِضُ سَبِيلَهُ ، يَشْعُرُ مِنْهُ بِبَعْضِ الجِرَاحِ
وَالدَّمَاءِ ، لَكِنَّهُ لا يَرْتَدُّ عَمَّا يَبْتَغِيهِ .

وَإِثْرُ هَذِهِ الصُّورَةِ الَّتِي مِثْلُهَا بِطَوْلَتِهِ يَعُودُ إِلَى النَّاحِيَةِ الأُخْرَى مِنْ حَيَاتِهِ ،
حَيَاةَ اللُّهُوِّ ، حَامِلًا مِنْهَا مِثْلَ طِيبِ العَطَّارِ . فَهُوَ ، حِينًا ، مُوشَّحٌ بِالدَّمَاءِ وَحِينًا آخِرٌ مُطِيبٌ

بالطيب: مؤلفاً في ذاته الجمال والقوة. فيما كان يمثل الحمار الوحشي القوة البطاشة
واللهو العنيف الدامي والغيرة المتأكلة في داخله كالنار .

ومعظم ما نفع عليه في وصفه للشور يجري على هذا الفرار . يستهلُّ بذكر الناقة
في فلذات متخطفة ليستطردَ منها إلى الثور الوحشي، مقيماً تحت المطر ليلاً،
وهارباً من دون الصيادين أو مرتدّاً على كلابهم صباحاً، ناجياً بنفسه منها . وعبر
ذلك تباين بعض الأوصاف التي يصفُ بها الناقة وبعض التشابيه التي يشبهه بها .
وهو مقيم بكنف شجرة الارطاة من المطر . ولا تكاد تبدل الأحداث أو تعدل
فيما دون ذلك كله . ومن ذلك قوله . أيضاً :

على مُذَكَّرَةٍ . ترمي الفُروجَ بها غُولُ النَّجَاءِ ، إذا ما استعجَلَ العَنَقُ ١
وَوَظَلَّ حِرْبَاوَهَا لِلشَّمْسِ مُصْطَخِداً كَأَنَّهُ وَاوِرُ الأَوْدَاجِ مُحْتَنِقٌ ٢
وَالرَّجُلُ لَاحِقَةٌ مِنْهَا بِأَوَّلِهَا فِي يَدَيْهَا إِذَا اسْتَعْرَضَتْهَا ، دَفَقٌ ٣

١ - المُذَكَّرَةُ : هي الناقة الشبيهة بالجمال . الفُروج : جمع فرج ، وهنا شعب الطريق .
الغول : هنا الشديد . النَّجَاء : السرعة . العَنَق : ضرب من السير .

م : يقول إنّه ارتحل على ناقة شبيهة بالجمال ، تلتهم المسافات التهاماً بعدوها السريع .

٢ - مُصْطَخِدٌ : متعرض للنار ، حتى الاحتراق . مُحْتَنِقٌ : هنا المُحْتَق ، المُغْتَاط الذي
تنتفخ أوداجه .

م : يمثل القائظة التي اصطل بها خلال سفره ، ويقول إنّه تكاد أن تحرق الحرباء حرقاً ، فيقيم
فيها لاهثاً منتفخ الأوداج ، محنقاً ، مغتاطاً . وذكره لاختناق الحرباء وانتفاخ أوداجه هو
وسيلة لتعظيم أمر المهاجرة لأن الحرباء يطلب الشمس وتطيب له الإقامة فيها .

٣ - دَفَقٌ : سريع ، كأنّها تندفق تدفقاً .

م : يقول إنَّ أُرْجُلَ مطيئته كادت أن تتلاحق وتتماسك من سرعة العدو وتدفعها فيه ، دون
ككلل .

الثور الوحشي

كَانَهَا ، بَعْدَ ضَمِّ السَّيْرِ جَبَلْتَهَا ۱
 مِنْ وَحْشِ غَزَّةَ ، مَوْشِي الشَّوَى ، لَهَقُ ۱
 بَاتَتْ إِلَى جَانِبِ مِنْهَا يُكْفُضُهُ ۲
 لَيْلٌ طَوِيلٌ ، وَقَلْبٌ خَائِفٌ أَرِقُ ۲
 بَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ هَاجَتْ بَوَارِحُهَا ۳
 وَمُزْرِمٌ مِنْ سَحَابِ الْعَيْنِ يَأْتَلِقُ ۳
 فَالْقَطْرُ كَاللُّوْلُو الْمَشُورِ يَنْفُضُهُ ۴
 إِذَا اقْشَعَرَ بِهِ سِرْبَالُهُ لَثِقُ ۴

١ - جَبَلْتَهَا : هنا بدتُها ولحمها . غَزَّةَ : اسم موضع . الشَّوَى : القوائم . المَوْشِي : المنقط بياض . لهق : أبيض .

٢ : يشرع في هذا البيت بتشبيها بالثور الوحشي ، ويقول إنها بعد أن ضمرت وذاب لحمها من شدة السير ، بدت كالشور الوحشي الذي تغشى قوائمه النقط البيض والذي يقيم في موضع غزّة .

٢ - الهاء في منها عائدة إلى شجرة الأروطاة التي يلتجئ إليها الثور ، وقد أغفل الشاعر ذكرها لكثرة ورودها في مثل هذا المقام ، بحيث غدا القارئ يدركها وإن لم يستدرك الشاعر ذكرها .
 ٣ : يقول إن ذلك الحمار أقام في كنف شجرة ، يميل في كل جهة ، ولا يقبل له بالنوم لخوفه من المطر أو من طارئ يطرأ عليه . ولقد نوى الشاعر بذلك إلى الثور صفة إنسانية ، وهو مما لم يألفه ويدأب عليه ، وإن كان الأقدمون قد ألما به من مثل لبيد في معلقته وعبيد الأبرص .

٣ - البوارح : هي الريح التي تصحب نجوم القيط . المُرْزَم : السحاب الذي يصحبه الرعد . العين : هنا عَيْنُ السَّمَاءِ . يَأْتَلِقُ : يَبْرُقُ .

٣ : يوضح في هذا البيت ما أجمله في البيت السابق ، ويقول إن الريح الحارة تعصفت به في الليل وانهمر عليه مطر غزير يصحبه رعد متألق مُلْتَمِعٌ .

٤ - لَيْثِقُ : مُبْتَلٌ .

٤ : يقول إن المطر ينهمر عليه ، فيبدو وهو منهمر كالدر ، فيما ينهمر على جلده الذي يقشع من البرد ومن تبلُّله بالمطر .

يَلُوذُ لَيْلَتَهُ مِنْهَا بَغْرَقَدَةَ وَالغُصْنُ يَنْطُفُ فَوْقَ المَنْ وَالوَرَقُ ١
حتى إذا كاد ضوءُ الصُّبْحِ يَفْضُحُهُ وَكَادَ عَنْهُ سِوَادُ اللَّيْلِ يَنْطَلِقُ ٢

كلاب الصيد

هَاجَتْ بِهِ ذُبْلٌ ، مُسْحُ جَوَاعِرُهَا كَأَنَّمَا هُنَّ مِنْ نَبِيعَةِ شَقِّقُ ٣
فَظَلَّ يَهْوِي إِلَى أَمْرٍ يُسَاقُ لَهُ وَأَتْبَعَتْهُ كِلَابُ الحَيِّ تَسْتَبِقُ ٤
يُفَرِّجُ المَوْتَ عَنْهُ ، قَدْ تَحَضَّرَهُ وَكَذَنْ يَلْحَقْنَهُ ، أَوْ قَدْ دَنَا اللِّحْقُ ٥

١ - الغرقدة : شجرة عظيمة من العضاه ، أو كبار العوسج . ينطف : يقطر .

م : يقول إنه لاذن المطر بشجرة كبيرة من أشجار العضاه ، فيما أخذت الأغصان والأوراق تقطر وينحدر ماؤها عليه .

٢ - ٣ - الذبل : أي الكلاب ذات الآذان المتدلّية الذابلة . المسح : الرقيقة المؤخرة .
الجاعرة : حرف الورك المشرف على الفخذ . الشقق : جمع شقة وهو ما
شقّ مستطيلاً . تبعية : قوس متخذة من شجر التبع .

م : يقول إنه لم يكد الظلام ينحسر عنه ويظالعه ضوء الصباح حتى ثارت كلاب الصيد
المسترخية الآذان ، عادية لئيه وهي ضامرة ، قد مسحت أعجازها وضعفت أبدانها ،
فبدت كالقسي المتخذة من شجر التبع .

٤ - م : يقول إنه ذعر عن ملاذه وهوى يعدو ناجياً بنفسه ، فيما لحقت به كلاب الصيد ،
وهي تتسابق لإدراكه .

٥ - م : يقول إنه أخذ يعدو ناجياً من الموت المحذق به ، فيما أوشكت الكلاب أن تدركه
وتعمل فيه أنيابها .

لَمَّا لَحِثْنَ بِهِ أَنْحَى بِمِغْوَلٍ—ِهِ يَمَلًا فَرَانِصَهَا مِنْ طَعْنِهِ الْعَلَقُ ١
فَكَرَّ ذُو حَرْبَةٍ ، يَحْمِي حَقِيقَتَهُ إِذَا نَحَا لِكُلَّهَا الرُّوقُ يَمْتَزِقُ ٢
فَهَنَّ مِنْ بَيْنِ مَتْرُوكٍ بِهِ رَمَقٌ صَرَغِي ، وَآخَرَ لَمْ يُتْرَكْ بِهِ رَمَقٌ ٣

وصف الناقة : استهزل وصفها بالنعوت التشبيهيّة : « مذكرة » أي ان لها قوّة الذكر وشدّته في العدو . كما أنها ترمي فروجها رمياً لسعة خطاها والتهامها المسافات الشاسعة التهاماً ، لا تعيقها الهاجرة الشديدة . وكدأبه تراه يتكئ على قوتها وشدّة احتمالها بما يقبسه من أديم الظواهر الحسيّة الواقعيّة في ذروة بلاغتها ودلالاتها على المعنى الذي يسيطر بها . وقد أتخذ لذلك الحرباء عندما تصلبها الهاجرة ، فتورّم أوداجها ويضيق عليها نفسها وتوشك أن تتمزق أو أن تختنق . ولو أنّه لم يوفّق إلى هذا المشهد التمثيليّ الحيّ في التدليل على شدّة الهاجرة لكان أحق

١ - المِفْعُول : القرن . العَلَقُ : الدّم . الفَرَانِصُ : جمع فريضة ، وهي من قوائم الحيوان عند رجل راكبه .

م : يقول إن تلك الكلاب لحقت به ، فمال إليها يطعنُها بقرنه في فرائصها ، مخلصاً فيها فيضاً من الدّماء .

٢ - ذُو حَرْبَةٍ : أي قرنه . الحَقِيقَةُ : ما ينبغي للمرء أن يحميه . الكَلْبِيَّةُ : رقعة تخزر تحت عروة المزادة ، لتتمكّن . وقد عني بها هنا صدور الكلاب . الرُّوقُ : القرن .

م : يكرر معنى البيت السابق ويستكمّله ويقول إنّه كرّ عليها بقرنه مدافعاً عن نفسه ، ممزقاً به صدورها .

٣ - الرَّمَقُ : الأنفاس الأخيرة .

م : يصف الكلاب إثر قتال الثور ، ويقول إنّه خلّف بعضها صريعةً ، دون رمق ، وبعضها الآخر تحتضر وتلفظ أنفاسها .

في استحضاره وتأديته بالتعوت والألفاظ . لقد انتزع مما وقعت عليه حواسه في الطبيعة ، أبان الهاجرة ، ما يختصر ويؤجز التعبير عنها في أقصى حدودها ، فلم يعثر على أفضل من الحرباء المتحشرج ، المختنق تحت وطأتها . فمثلها به وخلع عليها غلو الفن في أقصى مدها ويقين الواقع في أدق جزئياته .

وعبر ذلك كله تراه يستكمل شروط الإطلاق والمثالية لتلك الناقة إذ أن قيامها على العدو السريع الذي يغول المسافات في أشد أوقات الهاجرة ، يجعلها قادرة على اقتحام كل مشقة دون تعذر وتراخ . ويعقب على ذلك بقوله :

والرَّجُلُ للاحقة منها بأولها وفي يديها ، إذا استعرضتها دفتُ

وفي هذا البيت تأدية للغلو في حدود ما يطالعه الشاعر عبر الناقة ذاتها ، لم يستمر له ولم يشبهه . ذلك أن حركة يدي ورجلي الناقة دلالة ذهنية ، يخلص إليها المرء من تحديقه بها ، فيدرك أن تلاحق اليدين والرجلين ينفصح بذاته عن السرعة ، فكانه كناية واقعية مباشرة لها . ثم تراه يسمو على ذلك إذ يستعير لها التدفق ، كأنها تفيض فيضاً بالحركة . ولقد اقتصر من أمر الناقة على سرعتها وحسب لأنه لا يتموم بالوصف للوصف بل في سبيل المدح واطهار ما تكبد من مشقة وما اجتاز من مسافات شاسعة في سبيله . ولو لم يكن في هذا المقام لأنصرف إلى نعت كل عضو من أعضائها وملح من ملامحها ، كما فعل طرفة الذي لم يغفل حتى عن شعر لحيتها وتسنتن عظام رأسها . وبما أن وصف الثور الوحشي والحج في سنة القصيد المدحية منذ النابغة والأعشى ، فقد انحرف في المباراة بوصفه دون أن يفلح في ترسمه بما يتخطى ما ألف فيه وأدرك منه الجاهليون . فهو يعرضه قائماً بجنب شجرة الأروطة :

باتتُ إلى جانب منها يكفئسه ليلٌ طويلٌ وقلبٌ خافقٌ أرقُ

وهذا المشهد مكرور مبذول في شعره وشعر سواه ، اقتبس في نقطة انطلاقه الأولى

اقتباساً فنياً خالصاً إذ ألمّ به في حالة متأزّمة ، على غرار المسرح الكلاسيكيّ ، حيث تشدّد الانفعالات ويلعب الحيّ ورقة مصيره مع الحياة . ويرد ذكر اللّيل الطويل والقلب الأرق وروداً ذهنيّاً باهتاً ، إذ لم يُلحَف فيه بمعالجة واقعه الدّاخلي . ثمّ إنّه يُفصّل فيما أوجزه بالقول :

بَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ هَاجَتْ بِوَارِحِهَا وَمُرْزَمٌ مِنْ سَحَابِ الْعَيْنِ يَأْتَلِسُقُ
فَالرَّيْحُ وَالْعَاصِفَةُ وَالْمَطَرُ الْمَنْهَمِرُ بِغَزَارَةٍ تَتَرَدَّدُ فِي هَذَا الشَّأْنِ ، وَهِيَ أَدَاةٌ حَسِيَّةٌ
وَاقِعِيَّةٌ تَرْتَسِمُ مِنْ خِلَالِهَا حَالَتُهُ الْقَلْقَلَةُ الْمَضْطْرِبَةُ .

وكما شبّهه في الأبيات السّابقة بمن يرتدي حلّةً أصفهانيّةً أو بمن يصطلي ناراً ، عندما يخطف البرق من دونه ، يشبّه المطر المنهمر عليه ، هنا ، باللؤلؤ المشور . إلا أنّ لهذه اللّيلة نهايةً يعقبها صبح جليّ ، صاح . ولقد حرص الأخطل وسواه على نعت الصّباح بالصّحو لغاية واضحة أو غامضة ، لعلهم يصدّرون فيها عن نزعة تفاعليّة يُوعزون من خلالها بأنّ لكلّ ليلٍ داجٍ حالِك ، صبحاً جليّاً ، باهراً ، وانّ الأمل والخلّاص ينبثق من قلب اليأس والمحنة . وقد يَكونون قد نقلوا هذه الأحداث نقلًا واقعيّاً أصمّ إذ يتغلّب أن يكون صباح الصحراء صاحياً بعد اللّيلة العاصفة . والله أعلم .

وكما كان شأنه في الأبيات السّابقة يتصدّى لكلاب الصيد :

هَاجَتْ لَهُ ذُبُلٌ مُسْحٌ جَوَاعِرُهُهَا كَأَنَّمَا هُنَّ مِنْ نَبِيعَةِ شَقَقُ

ولقد أحلّ الصّفة من دون الموصوف في قوله : « ذُبُلٌ » أي كلاب ذابلة الآذان ، مُسْتَرْخِيَّتِهَا . ولسنا ندرى إذا كان لاسترخاء الآذان دلالة خاصة على الضّراوة والسّرعة في العدو أو أنّها صفة ملازمة للكّلاب السّلوقيّة ، تلحق بها دون أن يكون لها ارتباط بالغلو في سرعة تلك الكّلاب . ولعلّ الشّاعر غالى بضمورها مُعْغَلَاةً ، انفعاليّةً ، فنيّةً ، ليبالغ بقدرتها على العدو ، كما أنّ تشبيهها بالقسيّ

هو تشبيه شعري وان كان متداولاً لأنه لا يقوم على المقابلة التعادلية بل على نوع من الإيحاء الغامض بصلابتها بالرغم من ضمورها .

وهنا لا يجد الثور سبيلاً إلى الفرار :

يُفَرِّجُ الموت عنه ، قد تحضره ، وكذَنَ يَلْحَقُهُ أو قد دنا اللَّحِقُ
لما لحقنَ به أنحى بمغوليه يَمَلأ فرائصها من طعنه العَلَقُ

لقد أنف، في البدء، من القتال ، فهو لا يبأسه ، لكنّه إذ اقتضي عليه أظهر فيه كُلَّ قوّة وبسالة ، يَطعن الكلاب ويُسيل الدّم منها ويمزّقها تمزيقاً ، مخلّفاً إياها صرعى . ولعلّ البيت الأخير هو الذي يفيدُ منه في التّديل على قوّة النّاقة التي يَمْتطيها ، إذ مثّل به مشهداً من مشاهد البطولة المطلقة .

* * *

ولست أدري إذا كانت الدّراسة تَقْتضينا أن نسوق نماذج أخرى من وصفه للحمار لعظم ما يتّصف به من تكرار . وقد رأيت أن أسوق هذا النموذج الأخير لانصرافه فيه إلى التّفصيل وجمعه ، من خلاله ، معظم التّشايه والأحداث التي يسوقها في شأنه . والشّاعر لم يعرض للثور الوحشي فيه من خلال تعرّضه للنّاقة ، بل في سبيل التّديل على معالم العفاء والتّوحّش التي طفرت في منزل صاحبه ، إثر ارتحالها .

ولقد حرص الشاعر ، في هذه الأبيات ، على تمثيل التّعيم الذي يَنعم به ذلك الثور من خلال ارتعائه وخوضه في الماء الكثير ؛ ولعلّ توفر الكلاً والماء هما رمز ذلك الرّخاء الطّارىء الذي يقيم فيه ، بل إنه ليطلّبعنا في التّبت العميم الحافل الذي تطيّب به وانتعل منه الورس الأصفر الجميل . وهو يذكّر في هذا المقام زهر

الخزامي وذكره لا ينمُّ وحسب على الشَّعْب والارتعاء ، بل على الطَّيِّب واللَّوْن
والفرح بحديقة الطبيعة ، أي الحياة .

إلا أن الليل يجتّه بالظلمة والمطر ، وقد خصَّ الشاعر المطر ببعض الوصف ،
إذ يقول إن الرِّيح تستدرّه من السَّحاب الثقيل ، الحافل الذي ينهمر كالسَّيل ،
فتضيق عنه الأرض والسَّيل :

داني الرِّباب . إذا ارتجَّتْ حَوَامِلُهُ بالماء ، سدَّ فُروجَ الأرض واحتفلا

ولقد قعد الثور يُحدِّق في البرق الذي يرسم على الآفاق صورهِ الذَّاهلة ،
المخيفة ، كأنه مريض لا قبل له بالتَّوْم :

فبات مكتلياً للبرق . يَرْقُبُهُ كليلَةَ الوَصْبِ ، ما أغْفَى وما عَقَّلا

وقد ألمنا بذكر أرقه قبلاً . إلا أن الشاعر أضاف إليه معنى السَّقم والدَّاء ،
مغالياً به بعض الغلوِّ . كما أنه يمثّل الثور ، عبر البرق ، بصورة مباينة إذ يجعله
كالسَّاجد الذي قام في الليل مسبِّحاً :

كأنه ساجدٌ ، من نضح ديمته مُسَبِّحٌ ، قام ، نصَّفَ اللَّيْلَ ، فابتهلا

ويضيف إلى ذلك مشهداً آخر في نعبه للتراب بقرنيه وصدرة ويمثله بقائد ينتخب
الحَيْلَ الأصيلة :

ينفي التُّرابَ بروقيهِ وكلِّكليه كَمَا استمازَ رئيسُ المقنَّبِ النَّفْلا

وبدلاً من التُّلوُّنِ نخلُ المَرْجانِ في تمثيلِ المطرِ المتساقطِ عليه :

كأنما القطرَ مرجانٌ يُساقطُ أعلى الرُّوقِ والتَّنينِ والكفِّلا

وفيما دون ذلك فإنه يصف الكلاب بأوصافها والصيد بأحداثه المأثورة .

خلاصة في وصفه للشور :

لا تقع في وصفه للشور على الأبعاد الجنسية التي وقعنا عليها في وصفه للحمار الوحشي ، فهو لا يؤديه لنا بين أثنه ، هالماً عليها هلع الغيرة ، يخاصمها ويدمئها ، كما أن تجربة التصرد والظماً لا تطالعنا في وصفه ، إذ يُظهره . غالباً . ناعماً بالماء . خائضاً في التبت يفوح منه الطيب وتصطبغ أقدامه بالورس الأصفر . إلا أنه يعاني كالفحل من تربص الصيادين وكلابهم . فيقبل بعد ادبار ويعمل روقيه ويولتي منتصراً . زاهياً . كما أن وصفه من دون المطر . في الليلة الممطرة يعرض لتشابهه مماثلة بين درّ ومرجان ولؤلؤ ، ووصفه تحت البرق يترجّح بين من يَصْطلي النَّار ومن يرتدي حلة اصفهانية أو من يقوم في الليل للعبادة .

* * *

الباب الخامس

سائر موضوعات وصفه

أولاً : المطايا : ألمنا بوصف المطيئة ، أي الناقة في أبيات مجزوءة قدّم بها لوصف الثور . إلا أن هناك أبياتاً ومقاطع أدلّ على وصفه لها . والأخطل لا يعرض للناقة بذاتها ، بل من خلال سياق عام يحتشد به ليُمثّل هلاكها في السفر إلى الممدوح . ومعظم المعاني التي يلمّ بها تقع في حدود هذا الانفعال ، تتصافراً ، بعضاً مع بعض ، لتؤدي بهذه الصورة إلى أقصى غايتها .

ومن ذلك أنّه يذكر إجهاضها لأولادها من شدة الضى ، يهرع إليها الذئب فيفترسها ، بعد أن تُخلفها على الطريق :

ترى العرمس الواء يَضْرِبُ حَاذَهَا ضَيْلٌ كَفَرُوجِ الدَّجَاةِ مُعْجَلُ
يَشْتُقُّ سَمَاحِقَ السَّلَا عَنْ جَنِينِهَا أَخُو قَفْرَةٍ ، بَادِي السَّغَابَةِ أَطْحَلُ

يقول إن ناقتة الصلبة ، العظيمة الوجنتين يضطرب في أحشائها جنينها ، فتجهض به ، فيبدو لهزاله كأنه فرّوج الدجاجة لخروجه من الرحم قبل أوانه وإن الذئب الذي ألف القفر والجوع يفترسها ويشقّ عن وجهها غشاوة الرحم . ومؤدى هذه الصورة أن تلك النياق لم تعد تطيق السير فأنحلت عنها متونها وتشققت أرحامها ، فكأنها تكاد أن تتنازع وتموت على الطريق . هنا تقوم فضيلة التعبير على الحادثة أو على الكناية الحسية التي تحمل الدلالة على الفاجعة بذاتها وفي حدوثها

الواقعي . فهي ليست ابداعية ، بل تقليدية ووظيفة الابداع اقتصرت فيها على انتخابها من الواقع وتوقيعها في سياقها من المعاني . فلو لم يُنقل الشاعر هذا المشهد من الواقع . بل لو وقعنا عليه بأنفسنا فيه لكان أثارنا بالشفقة والشعور بالارهاق والهلاك . وهنا تبرز خبرة الشاعر الحسية وقدرته في استحضار المشهد التأفد . البليغ .

ولا يزال الأخطل يسوق مثل هذه الأحداث الذروية في مثل قوله :

فما زالَ عنها السَّيرُ حتَّى تَوَاضَعَتْ عَرَائِكُهَا . مِمَّا تَحِلُّ وتُرْحِلُ

فكما أنها أجهضت أجنحتها . فإن شحم أسمنتها ذاب عنها كذلك : فلم يبعُد لها مصدر للقوة يغذيها ويدفعها للنشاط . وكان الأصل أن يذكر ذوبان أسمنتها ، قبل اجهاضها لأن الثاني أبلغ وأدل من الأول .

ومن ثم يؤدي أسباباً تضاعف من مشقة السير . فبالإضافة إلى طول المسافة ووعورة الطريق ، هناك الهاجرة . وقد أخذت عليها وصلتها بمثل النار المحرقة . حتى أن الحرباء بات يتململ ويختنق في الرَّمضاء :

وتكليفُناها كُلَّ نازِحَةِ الصَّوْى شَطُونٍ ، تَرَى حرباءها يتَمَلَّمُ

فلقد أزجها في كل صحراء بعيدة الأعلام ، مُضِلَّة ، يكاد حرباؤها أن يهلك فيها ، فغارت عيونها واحتفرت فيها حفر فبدت كأنها بقايا الماء في نِقَر الصَّخُور ، كما أن سيور الرِّحْل اضطربت وتقلقلت عليها لما أصابها من نحول وضمور :

وقد ضمرت حتى كأنَّ عِيُونَهَا بقايا ، قلاتٍ ، أو ركيٍّ مُمَكَّلٌ
وَعَارَتْ عيون العيسِ ، والتقت العرى فهنَّ من الضراء والجهد نُحَلُّ

وتراه يكرّر هذه المعاني ويستجمعها ، بعضاً مع بعض ، في مثل قوله :

مُحَلَّقَةٌ منها العيُونُ . كأنَّها قلاتٌ . ثَوَتْ فيها مطَّائِطُها الحفَرُ

وَقَدْ أَكَلَ الْكِرَانُ أَشْرَافَهَا الْعُلَى وَأُبْقِيَتِ الْأَلْوَاحُ وَالْعَصَبُ السُّمْرُ
وَأَجْهَضْنَ ، إِلَّا أَنْ كُلَّ نَجِيئَةً أَتَى دُونَ مَاءِ الْفَحْلِ مِنْ رَحْمَتِ سِتْرُ

فهذه المطايا بدت غائرة الأحداق كأنها حفر في صخر استنقع فيها الماء فتغير
واخضر وقد ذابت أسنمتها ولحومها ، فلم يبق منها إلا أعصابها ، وقد أجهضت
جميعاً ، إلا تلك التي لم يدرك ماء الفحل رحمها ليئلقحها .

وربما وصف سرعتها بالقول إن فأراً يقوم بكنف جنبها ، لا يزال يخذلها
لتجد في السير :

كَأَنَّمَا يَعْتَرِيهَا كُلَّمَا وَخَدَّتْ هُرٌّ جَنِيْبٌ ، بِهِ مَسٌّ مِنَ الْكَلْبِ

وقد جعله كلباً للتدليل على كثرة عضها . وقد يشبهها بالحصن أو بالفحل :

جُمَالِيَّةٌ ، غَوْلُ النَّجَاءِ ، كَأَنَّهَا بِنِيَّةُ عَقْرٍ أَوْ قَرِيْعٍ هِجَانِ

والعقر هو الحصن والقريع هو الفحل . ويشبهه ضمورها بالقسي :

بِخُوصِ كَأَعْطَالَ الْقِسِيِّ ، تَغْلَغَلَتْ أَجْنَتُهَا مِنْ شَقَّةٍ وَدُوُوبِ

ثانياً : الغراب والذئب : وفي القصيدة الأولى التي امتدح بها يزيد بن معاوية ،
يُعرِّجُ عَلَى وَصْفِ غَرَابٍ وَذئبٍ اعْتَرَضَا لَهُ فِي الْقَفْرِ ، فَجَعَلَ يُطْعِمُهُمَا مِنْ زَادِهِ ،
فِي تَنَافُسَانِ عَلَيْهِ :

خَلِيلِيَّ لَيْسَ الرَّأْيُ أَنْ تَدْرَانِي بِدَوِيَّةٍ ، يَعْوِي بِهَا الصَّدْيَانِ ١

١ - الدويّة : الفلاة الخالية التي تدوي فيها الأصداة . الصديان : صدى الهام واليوم .

م : يخاطب صاحبه ، ويقول : إنّه ليس من الحكمة أن تلتفاني وحيداً في الفلاة المقفرة التي
تدوي فيها أصداة الهامات واليوم .

وَأَرْقَيْتِي مِنْ بَعْدِ مَا نِمْتُ نَوْمَةً
 تَصَاحِبُ ضَيْفِي قَفْرَةً يَعْرِفَانِيهَا:
 إِذَا حَضَرَانِي عِنْدَ زَادِي ، لَمْ أَكُنْ
 إِذَا ابْتَدَرَا مَا تَطْرَحُ الْكَفُّ . فَاتَهُ
 يُبَاعِدُهُ مِنْهُ الْجَنَاحُ . وَتَارَةً
 إِذَا غَشِيَانِي هِلَّتِ النَّفْسُ مِنْهُمَا
 وَعَضْبٌ جَلَّتْ عَنْهُ الْقَيْونُ يَمَانِي ١
 غُرَابٍ وَذَنْبٍ دَائِمِ الْعَسَلَانِ ٢
 بِخَيْلًا . وَلَا صَبِيًّا إِذَا تَرَكَانِي ٣
 بِهِ حَبَشِيٌّ كَيْسُ اللَّحْظَانِ ٤
 يُرَاوِحُ بَيْنَ الْخَطْوِ وَالْحَجَلَانِ ٥
 فُشْعَرِيرَةً . وَازْدَدْتُ خَوْفَ جَنَانِ ٦

وفضيلة هذه الأبيات أن الشاعر لا يقوم فيها مقام الفخر والعنجهية ، فلا يغالي أو يوقّع الأحداث توقيعاً مثالياً ساقطاً ، بل إنّه يسوقها وفقما تقع له كتجربة من تجاربة مع طوارئ الأيام والأحداث . فهو لم يفتحم الدويّة اقتحاماً بإرادته ، بل إن صاحبه خلقها فيها وقد جعلت أصداء الهام واليوم تدوي فيها ، مشيرة بنفسه

١ - ٢ - العَضْبُ : السيف القاطع . والتأويل هنا : معي سيف . العَسَلَانُ : عدو الذئب .

م : يقول إنّه لم يكد ينام . والسيف اليماني الصقيل إلى جنبه . حتّى أرقه غراب وذب . ألفا القفر وأقاما فيه .

٣ - يقول : إنهما إذا دتوا إلى زادي ، كنت أودّي لهما منه . وإذا ما ابتعدا ، لم أرغب في إدناهما إلي ، أي أنّه كان يقف منهما موقف اللامبالاة ، يبادرهما بمثل ما يبادرانه به .

٤ - الحبشيّ : هنا الغراب لسواد لونه .

م : يقول : إنني لا أكاد ألقى إليهما من زادي . حتّى يسارع الغراب إليه ، إذ كان أحدهم بصراً .

٥ - يقول : إنّه كان يباعد الذئب بجناحه ، يخطو حيناً ، ويقفز حيناً آخر .

٦ - ينتقل في هذا البيت إلى وصف خوفه منهما . ويقول : إنهما لا يكادان يدتوان مني . حتّى يعتريني الهول منهما وتتولاني القشعريرة .

الشعور بالهول والوحشة والتفرّد . وقد يكون الهام والبؤم قد صوّتت ، فعلاً ، في أرجاء القمر ، وقد يكون الشاعر ذاته قد استحضرها بخلق خلقه إذ ليس ، ثمة ، ما هو أدلُّ منها على الشؤم والفراغ والتوحش . وإذا ارتحل صاحباه عنه ، قام من دونهما صاحبان آخران ، ضاعفاً من وقع الوحشة والخوف في نفسه ، وقد حاول ، حيناً ، أن يؤكّفهما بما يبذل لهما من طعامه ، وهما يتسابقان لتلقّفه ، يطرُدُ الغراب الذئب عنه بجناحه ويبعده ، وما زال الأمر به كذلك حتى اعتراه الخوف الشديد واقشعر له بدنه . ولم نكد نشهد شاعراً فارساً كالأخطل يذكّر خوفه وتوجّسه في الفلاة ، بل إنه كان يضاعف من أهوالها كذلك . الهاجرة وافتقاد الاعلام والماء واجهاض المطايا وتقلُّل أعنتها ليفخر بأنه صمد على المشتقات من دونها . فهذا الشعر هو من التجارب الوجدانية اللطيفة ، حيث تُسفر النفس عن ذاتها دون جبروت وقناع وتقيّة . وربما كان الغراب والذئب ، هنا ، كشخصين في هذا المشهد المسرحي الموحش على أديم الفلاة والعراء .

ثالثاً : الهقلة أو أنثى النعام : وكما شبّه ناقته بالثور والحمار الوحشيين ، يشبّهما بالهقلة التي يعارضها الذكر ، فلا يفلح في اللحاق بها ، يعدوان وهما يثيران الغبار :

أَوْ هِقْلَةٌ مِّنْ نَّعَامِ الْجَوِّ، عَارِضَهَا قَرَدُ الْعِفَاءِ، وَفِي يَأْفُوخِهِ صَقْعٌ ١
هَيْقٌ خَفِيفٌ يُبَارِيهَا، إِذَا نَهَضَتْ وَهَوَّهَا، بَعْدَ جِدِّ مَنِهْمَا، تَبَعٌ ٢

١ - الهقلة : الانثى من النعام . القرد : القصر الرّيش . العفاء : ما كثر من ريش النعام . الصقّع : البياض .

م : يشبّه ناقته بأنثى النعام التي تعرّض لها ذكر قصر الرّيش ، تعلو رأسه بقعة بياض .

٢ - هَيْقٌ : ذكر النعام الخفيف .

م : يقول إن ذلك الذكر الخفيف يعدو إثر أنثاه ويباريها في الجري ، ثمّ يُلغى بعد أن يجدا في السير طويلاً ، لاحقاً لها . أي أنه يعجز عن إدراكها وتجاوزها . فهي أعدى منه .

تعاورًا الشَّدَّ ، لما اشتدَّ وَقَعُهُمَا
 وكان بَيْنَهُمَا مِن غَائِطٍ وَشَعٌ ١
 نَعَابَةٌ بَعْدَ جُهْدِ الأَيْنِ ، يُفْزِعُهَا
 صَوْتُ لآخِرِ تَالٍ ، بَعْدَهَا ، يَقَعُ ٢
 خَمْسًا وَعَشْرِينَ ، ثم استدرَّعَت زَغَبًا
 كأنَّهِنَّ بَأَعْلَى لَعَلَعٍ رَجَعُ ٣

فالشاعر ينسب الهقلة إلى موطنها في موضع الجوّ ، كما كان ينسب الوحوش إلى موضع وجرة . ونسبتها إليه كنسبة العربي إلى أصله تمنحه بعض الخصائص الملازمة له . ثم إنه وصفها في وضع تبذل به أقصى غايتها من السرعة إذ جعل الذكر يطاردها . وكما جعل الثور والحمار الوحشيين في مأزق يُبذلان أقصى قوتيهما ، فإن هذه الهقلة تولي مدبرة من دون ذكرها حتى تُوفي قبله إلى بيضيهما . وهو ، مع سرعتها الفائقة ، يُخذل في مجاراتها . ولو أنه جاراها أو تخطاها لكان أحرى بالشاعر أن يقدر ناقته به بدلا منها . ولعلّه شعر أنه ما زال يؤدي المعنى تأدية ذهنية ، فساقه من جديد من خلال صورة حسية تُعبّر عنه وتُعالي فيه ، وهي صورة الغبار

١ - التّعاوُرُ : التداول . الشَّدُّ : العَدُو . الغائِطُ : ما انخفض من الأرض . وشَعٌ : طرائق يسلكها الغبار عند هبوبه .

م : يصف عدوها وتباريهما فيه . ويقول إنهما كانا يثيران الغبار به في موضع الغائط الذي جريا فيه .

٢ - النعَابَةُ : السريعة التي تهزُّ رأسها في عدوها . الأَيْنُ : التعب .

م : يقول إنها ظلت تعدو ، وقد جعل رأسها يهتزُّ من شدة ما نزل بها من الإعياء . وهي لا تزال تجزع من صوت الذكر الذي يتناوب وإياها احتضان البيض .

٣ - استدرَّعَ : جعل الشيء على ذراعه . الرجَّعُ : صغار الإبل وهنا صغار النعام .

م : يقول إنهما حضنا بيضهما ، يختلفان على ذلك خمسًا وعشرين ليلة . حتى تصدَّع البيض وظهرت الفراخ الرُّغَبُ ، فوضعتها على ذراعها . فبَدَّتْ لَهَا كصغار الإبل .

الغبار المتصاعد اثرهما في أشكال متعددة . وفضلاً عن تلك البواعث كلُّها يُضيفُ عاملُ الجزعِ والهلجِ من الذِّكْرِ ممَّا يَحْتُثُّها على مضاعفةِ عَدْوِها :

نَعَابَةٌ بَعْدَ جُهْدِ الأَيْنِ . يُفْزِعُهَا صوتُ لآخرِ تالٍ ، بعدها ، يَقَعُ

أمَّا ذكره لاحتضانها للبيّض ، فينبؤُ عن سياق الموضوع إذ لا دلالة له على القوّة أو على السرعة . إلا أن الوصفَ بمجملة ليس وصفاً تقريرياً ، موضوعياً ، بل وصف انفعالي التزم من حياة الهقلة باللحظات التي نَمُّ عن شدتها وسرعتها ، ولم يعرض لما دونهما كشكلها وقوامها وما إلى ذلك ممَّا يعرض في الوصف الذي تقتصر غايته على ذاته .

رابعا : القطا : القطا طير يَضْرِبُ به العرب المثل على الاهتداء ، ولعلّه يطير جماعات . ولَسْنَا نَقَعُ له في شعر الأخطل على وصف للوصف ، بل غالباً ما يتّخذهُ كدليل على شدّة الهاجرة وافتقار الماء بحيث يطير ويطوف في كُلِّ مكان ، دُونَ أن يعثر منه حتّى على نطفة . ففي القصيدة الأولى التي امتدح بها يزيد يُعْرَجُ على ذكر القطا في مثل هذا السِّياق :

لِيَالِي لا يُجْذِي القَطَا لِفَرَاخِهِ بِيْذِي أَبْهَرِ ماءً ولا يجفان ١
يُقَلِّصُ عَن زَغْبِ صِغَارٍ ، كأنها إذا دَرَجَتْ تحتَ الظلالِ أفاني ٢
كَأَنَّ بقابا المَحِّ من حيثَ دَرَجَتْ مُفَرَّكٍ حُصٍّ في مبيتِ قيان ٣

١ - يُحْذِي : يحمل - يقول إنها ليالٍ شديدة القَيْظِ ، بحيث يفقد الماء ولا تقوى القطا على العثور عليه في موضعي أبهر وجفان .

٢ - يُقَلِّصُ : يقصّر . الأفاني : جمع فنية ، بقلة صغيرة - يقول ان تلك القطا كانت تقصر عن جلب الماء لفراخها الصّغيرة الشبيهة بالأفاني .

٣ - المَحُّ : صفار البيّض . الحُصُّ : الورس . يقول أن بقايا المح الأصفر من حيثُ تفرّختُ شبيه بالورس في بيت القيان .

إلى كُلِّ قَيْضٍ مِنْ ضَيْلٍ ، كَأَنَّمَا تَفَلَّقُ فِي أَفْحَوْصِهِ صَدَقَانَ ١

وهذه الأبيات لَيْسَتْ متوازنةً ولا متوازية الدلالة إذ أنه اتخذها في المطلع كتنقيّة له للتدليل على شدّة الحرِّ بحيث أن القطا الشّدِيد الاهتداء تكاد أن تهلكُ فراخه من دونَه ولا قبل له بالعثور على ما ينقع ظمأها . وذكره لدروج تلك الفراخ على الأرض كالنبات الهزيل الهالك يلج في سياق المطلع ، ممثلاً الحالة التي آلت إليها . أما ما انثنى إليه من وصف لبقايا المح وتمثيله بالورس أو المقارنة بين البيض والصدف ، فذاك ككلّه كان نبوّاً عن الموضوع وانجذاباً إلى الواقع وسقوطاً تحت وطأة أعراضه من دون أعراضه . ولا بدع في ذلك إذ أنّ الأخطل كان لا يزال مُتدرّجاً في الشّعْر ، يُؤخّذُ بخلاصة المظاهر عن جوهرها ، ويفتتنُ بها لذاتها ولا يقوى على أن يجتنب انفعاله من التيه والضّياع فيما يطالعه في الواقع دون أن يكون له علاقة به . وفي البائية التي امتدح بها عبد الملك ، يقرن بين ناقته السريعة والقطا التي تعدو مسرعةً في طلب الماء :

كَأَنَّ رِحَالَ الْقَوْمِ حِينَ تَنْزَعَزَعَتْ عَلَى قَطَوَاتٍ مِنْ قَطَا عَالِجٍ ، حَقْبٍ ٢
أَجَدَّتْ لوردٍ مِنْ أَبَاغٍ وَشَفَّهَا هَوَاجِرُ أَيَّامٍ وَقُدْنَ لَهَا شَهْبٍ ٣
إِذَا حَمَلَتْ مَاءَ الصَّرَائِمِ قَلَّصَتْ رَوَايَا لِأَطْفَالٍ بِمَعْمِيَّةٍ ، زُغْبٍ ٤

١ - القَيْضُ : البيض ؛ الأفحوص : موضع بيض القطا - يمثل خروج الفراخ من بيضها بمثل خروجها من الصدف .

٢ - الحقب : التي احتبس عليها الماء - يقرن بين مطيته والقطا في السرعة .

٣ - يقول إنها اسرعت إلى عين اباغ وقد أهرلتها الهاجرة الشديدة .

٤ - الصرّائم : منقطع الرمل . قلّصت : مضت . الروايا : حاملة الماء . - يقول إنها تعود حاملة الماء لفراخها .

توائم أشباه بأرض مريضة يلدن بخذرافِ المتان وبالضربِ ا

والقطا تقومُ ، في هذا المقطع ، بالمهمة التي قامت بها ، قبلاً ، أي اجتلاب الماء ، وهي تعثر عليه ، فيما كانت قد طلبته ولم تعثر عليه . ذلك أن غاية الشاعر من وصفه تباينت . فيما تقدّم اتخذ ظمأ القطا وعدم اهتدائها إلى الماء كهيئة على شدة الهاجرة ، أما في هذه الأبيات فإنه يتخذها كناية لسرعة العدو وليست الهاجرة إلا سبيلاً استحشها به إليه . وفي المقطعين ، جميعاً ، لم يصف القطا لذاتها ، بل وقع وصفها في حدود انفعاله ، وبخاصة في المقطع الأخير . فقد مضت وعادت مسرعةً لتروّي أولادها العاجزة عن تحصيل الماء ، بل عن الطيران فتراها تلوذ بالمتان والنبات . وربما وقع الأخطل للغلو إيقاعه الخاصّ به وألحف به إلى نهاية مطافه . ذلك أن البيت الأخير منها كان شديد الصلة والثوق بالبيت الأول ، وقيام الفراخ الهزيلة في الأرض الغليظة يعظّم من حاجتها إلى والديها أو تهلك . وهذه القطا هي في وضع يجعلها تدرّ أفضل طيرانها لأنها في أشدّ حالة من العجلة والدّعر .

ويعرض إلى وصف القطا بمثل ذلك في قوله :

مصاحبٌ خوصٍ قدّ نحلنَ كأنما يقينَ النفوسِ أن تمسّ الكلا كلاً
إذا كان عن حينٍ من الليلِ نبّهتْ بأصواتها زغباً توافي الحواصلا
توائم كسيت بعدعُرّي ، وألبست برانس كوراً لم تُعنّ الغوّازلا

فهو يقول إن تلك المطايا قد ضمرت حتى أوشكت صدورها أن تمسّ الأرض ، وهي تُبذل جهدها كي لا تقع إليها . أنّها تُوقظ في عدوها ، ليلاً ، فراخ القطا فتهرع إلى أمهاتها لترقيها ما اخترنته لها في حواصلها ويردف بأنها توائم ، نما لها الريش

١ - يصف صغار القطا ويقول إنّها توائم ، نقيم بأرض هادئة وأنها تلوذ بين أشواك البهي .

ونسج أبدانها دون أن تغزله لها غازلة أو تحوكه حائكة. وليس في هذا الوصف مثل ايقاع المقطعين الأولين في الدلالة الانفعالية ، وإنما استطرده به استطراداً فاقد المبرر ، فكانه فلذة من الوصف للوصف .

ويعرض الأخطل ، كذلك ، للقطا في قصيدة تحدث بها عن صاحبه أم بشر ويقول إنَّها تبغي له الحَيْر ، فيما يتغي الآخرون له الشر ، ثم يمثل البعد الذي تنزح عنه بمقازات موحشة يلعب فيها السراب وتُصلى فيها القطا بالهاجرة . وبعد أن يذكر ارواء القطا لفراخها ، يصف الناقة التي يمتطيها في رحلته وتطوافه عبر الأمصار ويشبهاها بألواح المشجب لنحوها ويقول إنَّها بالرغم من ذلك ما زالت تتقدم سائر النياق وتسير في الليل عندما تعوي الذئاب بالركب وتلحق بهم :

هوى أمٌ بشرٍ أنْ تراني بغيطةٍ وتَهوى نُمَيْرٌ غيرَ ذلكَ وأكْلُبُ^١
قُضَاعِيَّةٌ أَحْمَتُ عَلَيَّهَا رِمَاحُنَا صَحَارِي فِيهَا لِلْمَكَاكِي مَلْعَبٌ^٢
فَكَمْ دُونَهَا مِنْ مَلْعَبٍ وَمَفَازَةٍ تَظَلُّ بِهَا الْوُرُقُ الْخِفَافُ تَقْلَبُ^٣

١ - أمٌ بشرٍ : هي صاحبه . نُمَيْرٌ : هي نُمَيْرٌ بن عامر بن صعصعة . اكلب : أي أكلب ابن ربيعة بن نزار بن خنعم .

م : يقول إنَّ صاحبه تمنى له التميم والغبطة ، فيما يتمنى له أبناء نُمَيْرٍ وأكلب الشرّ وسوء المصير .

٢ - أَحْمَتُ : أي جعلتها حمى لا يُقرب . المكاكي : طائر أبيض يكون بالحجاز ، وسمي كذلك لأنه يمْكُو أي يَصْفُر .

م : يقول إن صاحبه من بني قضاة وإن بني قومه يمنعون عليها بسلاحهم ارتياد صحارٍ لا يزال يُقيم ويرتع فيها طائر المكاكي . وذكره للصحاري هو إشارة وتجسيد للبعد القائم بينهما ، وذكره لعداوة قوميهما هو وسيلة للغلو بالعقبات التي تفرق بينهما .

٣ - الْوُرُقُ : هنا الإبل التي يحالط سوادها بياض . المفازة : القصر المهلك .

م : يمثل في هذا البيت المسافات الشاسعة التي بينهما ، مُكْرَرًا المعنى السابق ومفصلاً له ويقول كم يحول بيننا من مقازات موحشة يلعب فيها السراب وتقلب الإبل الخفيفة في اجتيازها .

إذا ما مصاييفُ القَطَا قَرَبَتْ بِهِ مِنْ الْقَيْظِ أَدَاهَا السُّرَى وَهِيَ لُغَبٌ^١
 إذا ما اسْتَقَمَتْ مَا تَسْتَقِي الْهَيْفُ فَرَعَتْ مِيَاهَ سَوَاقِيهَا حَوَاصِلُ نُضْبٍ^٢
 بُوْفُرٍ رِقَاقٍ لَمْ تُجْزَزْ قُعُورُهَا وَلَا شُرْبُهَا أَفْوَاهُهَا لَا تُصَوَّبُ^٣
 وَعَنْسٍ بِرَاهَا رِحْلِي فَكَأَنَّهَا مِنْ الْحَبْسِ فِي الْأَمْصَارِ وَالْحَسْفِ مِشْجَبٌ^٤
 عَلَى أَتْنَاهَا تَهْدِي الْمَطْيَ إِذَا عَوَى مِنَ اللَّيْلِ مَمَشُوقُ الذَّرَاعَيْنِ هَبِيبٌ^٥

١ - المصاييف : التي فرخت في الصيف . قَرَبَتْ : قعدت . الْقَيْظُ : الحر . السُّرَى : سير اللّيل . لُغَبٌ : جمع لاغب : الشّدِيدُ التعب .

م : يقول إنّه إذا ما قصدت مصاييف القَطَا إلى ذلك المكان ، فإنّها تُصَلِّي بِالْقَيْظِ حَتَّى تَدْرِكهُ بَعْدَ سُرَى اللَّيْلِ ، وَهِيَ مَرَهَقَةٌ ، شَدِيدَةُ الْعِيَاءِ .

٢ - الْهَيْفُ : الْقَطَا . السَّوَاقِي : هُنَا حَوَاصِلُ الْقَطَا . نُضْبٌ : جَافَةٌ لَا مَاءَ فِيهَا .

م : يَقُولُ إِنَّ الْقَطَا تَسْتَقِي قَدْرًا مَا تَشَاءُ . ثُمَّ تَعُودُ فَتُفْرِغُهُ إِلَى فَرَاحِهَا ، فَتَنْضُبُ حَوَاصِلَهَا مِنْ جَدِيدٍ .

٣ - الْوُفُرُ : الضَّخَامُ . رِقَاقٍ : ضَعْفٌ . لَمْ تُجْزَزْ : لَمْ تَقْطَعْ . قُعُورُهَا : أَسَافِلُهَا . لَا تُصَوَّبُ : لَا تَنْكَبُ .

م : يَقُولُ إِنَّهَا تُفْرِغُ الْمَاءَ بِسِقَاءٍ لَمْ تُجْزَزْ قُعُورُهُ أَي لَمْ تَقْطَعْ أَسَافِلَهُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهَا تَفْرِغُهَا فِي أَفْوَاهِ فَرَاحِهَا ذَوَاتِ الْأَذْنَابِ ، وَيُرَدِّفُ بِأَنَّ ذَلِكَ الْمَاءَ لَا يُصَبُّ خَارِجًا ، لَشِدَّةِ ظِلْمِ الْفَرَاحِ ، بِحَيْثُ لَا يَفِيضُ عَنْهَا .

٤ - الْعَنْسُ : النَّاقَةُ الصَّلْبَةُ . الْحَسْفُ : الضَّرُّ . الْمِشْجَبُ : خَشْبَةٌ مُعَلَّقَةٌ أَوْ مَنْصُوبَةٌ تَعَلَّقَ عَلَيْهَا الثِّيَابُ .

م : يَصِفُ النَّاقَةَ الَّتِي يَمْتَطِيهَا فِي رِحْلَتِهِ وَتَطَوَّافَهُ عِبْرَ الْأَمْصَارِ ، وَيَقُولُ إِنَّهَا لَشِدَّةٌ مَا لَقِيَتْهُ مِنَ الضَّرِّ وَالْحَسْفِ ، هَزَلَتْ كَأَلْوِاحِ الْمَشْجَبِ .

٥ - مَمَشُوقُ الذَّرَاعَيْنِ : أَي الذَّنْبِ . الْهَبِيبُ : الذَّنْبُ الْخَفِيفُ . تَهْدِي : هُنَا تَتَقَدَّمُ . م : يَقُولُ إِنَّهَا بِالرَّغْمِ مِنْ هَزَالِهَا وَغُدُوِّهَا كَالْمِشْجَبِ . فَإِنَّهَا لَا تَزَالُ تَتَقَدَّمُ سَائِرَ الْمَطَايَا وَتَقُودُهَا فِي اللَّيْلِ ، عِنْدَمَا يَعْوِي بِالرَّكْبِ الذَّنْبُ الْخَفِيفُ . وَذَكَرَهُ لِلَّيْلِ هُوَ لِلتَّذَلِيلِ عَلَى طَوْلِ السَّفَرِ ، وَلِلذَّنْبِ هُوَ لِلتَّذَلِيلِ عَلَى الْوَحْشَةِ وَالْقَفْرِ وَالْحَوْفِ .

ولقد وردت هذه الأبيات كنزوع واستطراد من وصف المهمة المقفر الذي تهلك فيه حتى القطا ، فكيف بالركاب مطيةً ؟ وانا لنعلم أن القطا هي من أكثر الطيور قدرةً على اجتياز المسافات والاهتداء إلى الأماكن بغريزتها الغامضة ، فإذا كانت ترهق فيه من القيظ ويتعذر عليها التحليق وتعاني من دونه الهلاك ، فإن أي حيٍّ آخر سيقصر في اجتيازه . ولقد ساق الشاعر القطا هنا مساق الحبراء في أبيات سابقة كذريعة لتمثيل حدة الهاجرة وشدتها من خلال تَمَلُّمُهُ واختناقهِ . والأخطل يقيم هنا ، على حدود الموضوع ولا ينجذب عنه باستعراض الحقائق الواقعية التي تصحُّ فيه ، دون أن يكون لها اتصال بانفعاله . وكنا قد قدّمنا مراراً أن وظيفة الانفعال الفني أن يُفكِّك أطر الظواهر ، أن يُضيفَ ويحذفَ ، يُضعف ما انفعَل به ويسقط ما لا صلة له بانفعاله . إلا أن الشاعر قد يتغافل عن الانفعال ويلمُّ بكلِّ ما يطالعه في الظاهرة ، فتحوّل الحتمية الفنية إلى حقيقة واقعية ، فعليّة لا طائل نفسياً من دونها . ومؤدى ذلك كلّهُ ان أموراً كثيرة تطرأ على الواقع وتجري فيه ولا عذر للشاعر في استحضارها ولا جدوى لأنها لا تجسّد الرؤية الخاصة التي يراه بها أو الرؤيا الذاتية التي يترأى له فيها . فهل إنَّ ما ذكره من إرواء القطا لفراخها يُلجِّجُ في حدود الانفعال ؟ الواقع ان نقطة انطلاق الموضوع صدرت عن رغبة في الإيجاء المُطلَق العميم بالقيظ ، توسّل له ، في البدء ، إرهاق القطا ، ثم أردف بذكر اروائها لفراخها كاستكمال لمشهد القيظ العميم الذي أصاب الفراخ وجعل حُلُوقها تنضّبُ وتجفُّ والذي جعل القطا تهرع إلى الاستقاء وافراغ الماء في حواصل الفراخ . وفقاً لهذا التّأويل يتكامل الانفعال وينمو ويتطوّر . وبخاصة في قوله :

بِوُفْرِ رِقَاقٍ ، لم تجزّز قُعوْرُها ولا شربها أفواهاها ، لا تُصَوَّبُ
وغاية المعنى هنا أن الفراخ ، لشدّة ظمئها ، لا تدع الماء يفيض عنها ، بل إنَّها ترشفه جميعاً . وذلك ما يُوحى بشدّة القيظ .

وهكذا يرد هذا الوصف ، أيضاً ، وسيلة لسواه ، أو ككناية مُتطاولة ، متمادية ، تلمُّ بالأحداث الجزئية لتوضح دلالتها وتغالي بها .

وكما كان الأخطل قد اتخذ القطا سبيلاً للايحاء بعظم القيظ ، وكما تولاه كمادة للتشبيه في سبيل الغلوّ بسرعة النّاقة ، فإنه يتوسّله ، في الأبيات التّالية ، للتدليل على التّوحّش والعفّاء اللّذين أحنيا على مقام الحبيبة ، إثر ارتحالها . ولقد اعتاض به عن ذكر البقر الوحشي والظباء وما إلى ذلك من بهائم درّج على ذكرها لأظهار توحّش الطّلل وتعفّي آثاره ، بعد أهله .

ففي البدء ذكر قيام الحمام البرّي فيه ، حتّى إذا ارتحلّ حلّ من دونه القَطَا الذي يسقي فراخه التوائم والقرادى . إلا أن الأخطل يتحرّف عن سياق الموضوع الدّال على الخراب والهجر وينصرف إلى وصف وثائق تنبو عنه ولا تغالي بالموضوع لانعدام اتصالها به . فهو يصف استقاء القطا وانتفاخ حواصلها بمثل الكيزان الحُضْر ، تنقله إلى فراخها المقيمة في الفلاة الموحشة ، فتوقظها وتعلّتها منه . ثم يعود إلى ما قبل ذلك إلى احتضان القطا للبيض حتّى يفرّخ وتتحمّم قشرته ويتفرّق في كل ناحية كالعصابة التي يتبعثر أفرادها ، إثر السلب ، كي لا يدبّ فيهم الشّقاق :

على آجِنٍ أبقت له الرّيحُ دِمنَةَ وحوَاضاً ، كأدْحِيّ النّعامِ ، أنلّما
تري مشفّرَ العيساء ، حينَ تسوفهُ إذا وجدت طعمَ المرارةِ أكرماً

١ - الآجِن : الماء الذي مكث طويلاً في موضعه ، فتغيّر لونه . الدّمنة : هنا الغناء الأخضر الذي يغشى الماء المستنقع . الأدْحِي : موضع بيض النعام .

م : يقول إنّ ذلك الطّلل يقيم إلى جنب ماء طال مكوثه ، حتى علاه غناء أخضر ، وإن له حوضاً متقلّصاً شبيهاً بالموضع الذي يضع فيه النعام بيضه .

٢ - المشفّر : للإبل كالشّفة للإنسان . العيساء : النّاقة البيضاء . تسوفهُ : تشمه . أكرم : متقلّص .

م : يقول إن مطيته البيضاء تكاد لا تهمّ به ليردّ منه ، حتى يتقلّص مشفراها لشدة مرارته .

كَانَ الْيَمَامِيُّ الطَّيِّبَ انْبَرَى لَهَا فذَرَ لَهَا فِي الْحَوْضِ شَرِيًّا وَعَلَقَمًا^١
بَأُحْنَاءِ مَجْهُولٍ ، تَعَاوَى سِبَاعُهُ تَقَوَّضَ ، حَتَّى كَانَ لِلطَّيْرِ أُدْرَمًا^٢

القطا وفراخها

إِذَا صَدَرَتْ عَنْهُ حَمَامٌ ، تَرَكْنَهُ لَوْرِدِ قَطَاً ، يَسْقِي فُرَادَى وَتَوَآمًا^٣
تَرَاهَا إِذَا رَاحَتْ رِوَاءً ، كَأَنَّهَا مُعَلَّقَةٌ عِنْدَ الْحَنَاجِرِ حَنْتَمًا؛
تَأَوَّبُ زُغْبًا بِالْفَلَاةِ ، تَرَكْنَهَا بِأَغْبَرِ ، مَجْهُولِ الْمَخَارِمِ ، أَقْتَمَاهُ

١ - الْيَمَامِيُّ : نِسْبَةٌ إِلَى الْيَمَامَةِ . انْبَرَى لَهُ : أَلَمَّ بِهِ وَعَرَضَ لَهُ . الشَّرِيُّ : شَجَرٌ مَرَّةً .

م : يُمَثِّلُ مَرَارَتَهُ وَيَقُولُ إِنَّهُ يَحْتَمِلُ لِمَنْ يَحْتَسِي مِنْهُ أَنَّ أَحَدَ الْأَطْبَاءِ الْيَمَامِيِّينَ قَدْ أَلَمَّ بِهِ وَذَرَّ فِيهِ مِنْ مَاءِ الشَّرِيِّ وَالْعَلْقَمِ .

٢ - أُحْنَاءُ مَجْهُولٍ : أَيُّ مَتَزِلٍ مَجْهُولٍ . تَقَوَّضَ : انْهَدَمَ . الْأُدْرَمُ : الْمُسْتَوِي .

م : يَقُولُ إِنْ ذَلِكَ الْمَاءُ كَانَ يَجَلُّ إِلَى جَنْبِ مَتَزِلٍ مَجْهُولٍ ، تَأَلَّفَهُ السَّبَاعُ وَتَعَاوَى فِيهِ ، كَمَا أَنَّ الطَّيْرَ تَنْزِلُ فِيهِ لِحُلُوهِ مِنَ السَّكَّانِ الَّذِينَ قَدْ يَزْعَجُونَهَا عَنْهُ .

٣ - يَقُولُ إِنَّ الْحَمَامَ الْبَرِيَّةَ تَوَمَّهَ لِرَدِّ الْمَاءِ مِنْهُ ، فَإِذَا صَدَرَتْ عَنْهُ عَقَبَهَا الْقَطَا ، يَأْتِيهِ فُرَادَى وَتَوَآمٍ ، لَيْسَتْ قِيَّ مِنْهُ . وَذَكَرَهُ لِلْسَّبَاعِ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ وَالْحَمَامِ الْبَرِيِّ وَالْقَطَا فِي هَذَا الْمَقَامِ كَانَ سَبِيلًا لِمُتَمَثِّلِ جَوْ الْخَلَاءِ الَّذِي يَغْمَرُهُ .

٤ - فِيهَا الْحَنْتَمُ : أَيُّ الْكَبِيرَانِ الْخَضِرِ .

٥ - تَأَوَّبُ : تَعَوَّدُ . زُغْبًا : فِرَاحًا لَمْ يَنْبُتْ لَهَا رِيشٌ . الْفَلَاةُ : الْقَفْرُ . أَغْبَرُ : أَيُّ أَنَّ الْغَبَارَ لَا يَزَالُ يَنَارُ فِي جَوْهَا . الْمَخَارِمُ : الْمَسَالِكُ . الْأَقْتَمُ : الْمُظْلَمُ .

م : يَقُولُ إِنْ الْقَطَا كَانَتْ تَسْقِي مِنْهُ الْمَاءَ ، وَتَنْقُلُهُ إِلَى فِرَاحِهَا الَّتِي خَلَفَتْهَا فِي فِلَاةِ غَبْرَاءَ ، مُوَحَّشَةً ، مُظْلَمَةً .

إذا نبهتَهُنَّ الرَّوَاغِدُ بِالْقِرَى سَقَيْنَ مُجَاجَاتٍ هَوَامِدَ جُثْمًا
يُنْبِهْنَ قَيْظِيَّ الْفِرَاحِ . كَأَنَّمَا يُنْبِهْنَ مَغْمُورًا مِنَ النَّوْمِ أَعْجَمًا
ثَنِينَ عَلَيْهِ الرِّيشَ . حَتَّى تَلَا حَقَّتْ وَصَارَ شَعَاعًا قَيْظُهَا ، قَدْ تَحَطَّمًا
فَصَارَتْ سِلَالًا ، وَابْدَعَرَتْ كَأَنَّهَا عَصَابَةُ سَبِي . شَعَّ أَنْ يُتَقَسَّمَا

وانك لو نظرت في هذه الأبيات لما اهتديت إلى غاية الشاعر منها لأنه لا يُزجى معانيها في إطار نفسي^١ خاص . فغايتها متعددة الجوانب ، يُستدلُّ بها ، حيناً ، على التوحش من قيام الطير في دار حبيته الرَّاحلة ، والقطا من الطيور البرية التي تنفر من النَّاس . كما أنه ضاعف من هذا المعنى إذ ذكر هلاك الفراخ لقيامها في ذلك المكان القاطن . المقفر . وربما تبادى في ذلك وبلغ منه أوجه إذ وصف

١ - الرَّوَاغِدُ : هنا الأمهات اللواتي يرفدن الماء . الهوامِدُ : جمع هامد وهو الضَّعيف . الجاثمُ : اللاصق بالأرض .

م : يقول إن أمهات تلك الفراخ من القَطَا كانت تنبه فراخها الضَّعيفة الجاثمة التي لا قدرة لها على الطيران وتسميها من الماء الذي نقلته إليها .

٢ - الْقَيْظِيَّ : ما فرخ في القَيْظِ . أَعْجَمَ : هنا الذي لا يقوى على الإفصاح .

م : يقول إن الأمهات كانت تنبه فراخها التي كان النَّوْمُ قد أثقلها ، فجعلت تَرْقُو ولا تفصح .

٣ - الشَّعَاعُ : الْمُتَفَرِّقُ . الْقَيْظُ : هنا بمعنى القِيض وهو قشور البيض .

م : يقول إن تلك القَطَا حَضَّتْ بِيضِهَا وَأَقَامَتْ عَلَيْهِ ، تَغْطِيهِ بِرِيشِهَا ، حَتَّى أَفْرَخَ وَخَرَجَ مِنْ بِيضِهِ . فَتَحَطَّمَتْ قَشْرَتُهُ وَكُسِرَتْ .

٤ - السَّلَالُ : الْمُتَفَرِّقَةُ . ابْدَعَرَتْ : أُسْرِعَتْ فِي تَفَرُّقِهَا . شَعَّ : هنا تَفَرَّقَ .

م : يقول إن الفراخ بعد أن خرجت من بيضها تفرقت كل تفرق ، كأنها عصابة قامت بسبي توزعته وتفرقت ، خوفاً من أن يدبَّ فيها الانقسام .

هزها وعجزها من خلال نومها الدائم الشبيه بالاغماء. إلا أنه نبا وتولّى فيما ذكر احتضان القطا للبيض وتَحَطُّم القشرة وخروج الفراخ . لأن ذلك يفتقر إلى المدلول الظاهر على العناء . ولعلنا إذا أمعنا في التأويل نقع على نوع من الصلّة التي يتصل بها احتضان البيض وتفرُّخه بالموضوع الأصيل أي موضوع الخلاء والقفر وانقطاع السّابلة . ذاك ان القطا وضع بيضه في ذلك المكان واحتضنه مدّة من الزّمن . ثم تفرّخ وخرج وتفرّق ، وكل حدث من هذه الأحداث يقتضي زمناً يطول أو يقصر . وبذلك يغدو ذكره لهذه الدقائق وسيلة للاجاء بطول مدّة خلائه وتعفّيه . ولو لم يكن خالياً ، مُقْفراً لنزحت عنه القطا وجفّلت ولم تضع بيضها فيه . والله أعلم في ذلك كلّّه .

خلاصة حول وصفه للقطا :

لقد كانت القطا أحد الموضوعات التي استهوت الأخطل واستولت على وجدانه ، لأنها من طيور الصحراء التي جهّزت بغرائز متعدّدة تثير بالدهشة والتفوق . فهناك غريزة الاهتداء ، تتوسّلها لمعرفة الأمكنة وبخاصة تلك التي يستنقع أو يفيض فيها الماء ، فكأنّ هذه الغريزة مظهرٌ لرّوعة الطبيعة وجمالها وعمقريتها . معاً . فأياً يكون ذلك الطير الذي يفوق الانسان في فطنته وذكائه بحيث يهتدي إلى ما يقصّر عنه ؟ ذاك هو موضوع الدهشة التي استتارت في الشاعر الحالة الشعريّة من تأمله ومطالعته لمظاهر الوجود وعجائب المخلوقات فيه . وهناك قدرتها على التحليق في القائظة الشديدة ، فكأنّها في جوّ الصحراء صنوّ للنّاقة على أرضها . وفضلاً عن ذلك كلّّه هناك غريزة الأبوة التي تدع القطا يجتاز المسافات الشاسعة ، يحمل الماء في حواصله الهالكة ليروّيها وينقذها من الهلاك المهدق بها . فهذا الطير هو طيرٌ متفوق ، لا ينطق ولا يعي ولكنّه يتصرّف بما هو أبلغ من النطق والوعي بنوع من الحركة الداخليّة الصّماء التي يتنازع بها بقاءه وبقاء فراخه ، منتصراً على محن الطبيعة وآفاتها .

والأخطل يفتيد من هذه الغرائز كلّها ، ليتكسّى بها عمّاً يعيه من معانٍ أو

يعانيه من مشاعر . وما زالت الغريزة المعين الأول والأبلغ للشاعر ، يتوسّل بها في الكناية والاستعارة والتشبيه لأنّها لها صفة الاطلاق والديمومة والمثاليّة، فهي لا تخطيء ، كما أنّها تغطّي في صاحبها على ما دونها كأنّها تتحقّق في ذروتها بحيث يعجز المرء أن يتمثّل ما هو أكمل منها . ذلك كان أمره مع الفحل والثور اللذين تتجلّى فيهما غريزة القتال والغضب والبطش ، وهو أمره ، كذلك ، مع القطا التي توسّلها للتدليل على السّرعَة حين شبّه بها ناقته وعلى شدّة القائظة حين ذكر هرعها لاستقاء الماء وعلى الخلاء والعفاء ، حين ألم ببيضها وتفريخها وقيامها من دون صاحبتة في الديار المهجورة .

خامساً : الصقر والقطا : وللأخطل مقطع في وصف القطا وهي فريسة مهزومة بين مخالب الصّقر ، تواجه الموت مُفترّسةً ، بعد أن أوْشَكَتْ أن تردّي فيه ظمأً . فهو يَقْرِنُ فرسه بالصّقر ، ممثلاً قوّته وسرعته من خلال مشهد افتراس القطا :

رَجَعْتُ بِهِ يرمي الشّخوصَ كأنه قطامي طيرٍ أنخنَ الصّيدَ خاضباً^١
 أحمُّ حديدُ الطّرفِ أوحشَ لَيْلَةَ وأعوّزَه أذخارهُ والمكاسبُ^٢
 فظلَّ إلى نِصفِ النّهارِ يلقهُ بذِي الحرثِ يومٌ ذو قطارٍ وحاصبٍ^٣

١- الشّخوص : ما يشخص أمامه من البقر . القطامي : الصّقر الحديد البصر ، الرّافع رأسه للصّيد . الخاضب : هنا المخضّب بدم الطريفة . أنخن الجرح : عمقه .

م : يقول إنّه بعد أن ألفاه قادراً على العدو والصّيد ، عاد يضرب به ما يشخص أمامه من بقر متخضباً بدمها كالصّقر الحادّ البصر الذي أنخن فريسته بالجراح .

٢- أوحشَ لَيْلَةَ : أي جاع .

م : يستكمل وصف الصّقر ويقول إنّه حديد البصر أمضى ليله جائعاً ، دون أن يدخّر طعاماً ممّا أذكى شهوته للانقضاض والافتراس .

٣- قطار : هنا مطر شديد . الحاصب : البرد والثلج .

م : يقول إن ذلك الصّقر أقام على جوعه حتى منتصف النّهار ، فيما كان يلقه السحاب الكثير القطر والبرد والثلج .

فَأَصْبَحَ مُرْتَبِيًّا إِلَى رَأْسِ رُجْمَةٍ يُقَدِّبُ زَرَاقَوَيْنِ فِي مُجْرَهْدَةٍ فَحُمَّتْ لَهُ أُصْلًا وَقَدْ سَاءَ ظَنُّهُ فَعَارَضَهَا يَهْوِي وَصَدَّتْ بَوَجهِهَا فَلَمْ أَرَ مَا يَنْحُوهُ يَنْحُو لَطَائِرٍ فَأَهْوَى لَهَا مَا لَا تَرَى وَتَحَرَّدَتْ

كَمَا أَشْرَفَ الْعِلْيَاءَ لِلجَيْشِ رَاقِبًا فَلَ هُوَ مَسْبُوقٌ وَلَا الطَّرْفُ كَاذِبٌ مُصِيفٌ لَهَا بِالْحَبَّاتَيْنِ مَشَارِبٌ كَمَا صَدَّ مِنْ حَسِّ الْعَدُوِّ الْمَكَالِبُ وَلَا مِثْلَ تَالِيهَا رَأَى الشَّمْسَ طَالِبُهُ وَقَدْ فَرَّقَتْ رِيشَ الذَّبَابِي الْمَخَالِبُ

١ - مُرْتَبِيًّا : أي مرتبًا : مشرفًا على مكان عال .

م : يقول إنّه أقام على رجمة من الحجارة العالية يرقب ما يطلعه به الأفق كأنه ريثة الجيش الذي يستطلع له الطرق .

٢ - زَرَاقَوَيْنِ : أي عَيْنَيْنِ زَرَاقَوَيْنِ . مُجْرَهْدَةٍ : أرض واسعة .

م : يقول إنّه ظلّ يقلب عينيه الزرقاوين في الأفق لا يفوته طارئ ولا تخونه أحداقه .

٣ - حُمَّتْ لَهُ : قُدِّرَتْ . المُصِيفُ : القِطَاةُ المُفْرَخَةُ فِي الصَّيْفِ . الْحَبَّاتَانِ : موضع .

م : يقول إنّه بعد أن يش من أن ينال فريسة طالعه قطاة وضعت في آخر الصيف وهي تقصد إلى مورد عهدته في موضع الحبّاتين .

٤ - الْمَكَالِبُ : المخاصم ، المنازع .

م : إنّه تصدّى للقطاة المعترضة ، فصدت عنه ، كما يصدّ العدو إذ يشعر بحسّ عدوه .

٥ - تَالِيهَا : متابعها .

م : يقول إنّه لم يشهد مثل انقضاضه على تلك الفريسة ، وكما أنّه لم تقع الشمس على تابع يقتفي أثر طريده كذلك الصقر ، والشمس كناية هنا عن العين .

٦ - تَحَرَّدَتْ : تفرّدت .

م : يقول إنّه عاجلها دون أن تبصره ، فمالت عنه ، وقد نشر ريش ذنبها بمخالبه .

بَلَمَعٍ كَطَرَفِ الْعَيْنِ لَيْسَتْ تَرِيثُهُ وَرَكُضٍ إِذَا مَا وَاكَلَ الرَّكُضَ ثَائِبٌ^١
 فَعَارِضَ أَسْرَابِ الْقَطَا فَوْقَ عَاهِنٍ فَمُمْتَنِعٌ مِنْهُ وَأَخْرُ شَاجِبٌ^٢
 إِذَا غَشِيَ حَسِيًّا مِثْلَ حَسَاءِ دَرْتٍ لَهُ صَوَادِرُ يَتَلَوْنَ الْقَطَا وَقَوَارِبُ^٣
 يُفَرِّقُ خِزَانَ الْخَمَائِلِ بِالضُّحَى وَقَدْ هَرَبَتْ مِمَّا يَلِيهِ الثَّعَالِبُ^٤
 فَلَمَّا تَنَاهَى مِنْ قُلُوبِ طَرِيَّةٍ تَذَكَّرَ وَكَدَّرَ فَهُوَ شَبَعَانُ آيِبٌ^٥

١ - الرَّيْثُ : الإِبْطَاءُ . رَكُضُهَا : جَرِيهَا .

م : يَقُولُ إِنَّهُ انْقَضَ عَلَيْهَا بِمِثْلِ لَمَحِ الْبَصْرِ . دُونَ أَنْ تَبَاطَأَ لَهُ لِيدْرِكَهَا ، بَلْ انْتَهَى جَعَلَتْ تَعْدُو وَتَسْرِعُ بَعْدَ أَنْ تَتَمَهَّلَ فِي جَرِيهَا إِثْرَ انْقِضَاضِهِ عَلَيْهَا .

٢ - عَاهِنٌ : جَبَلٌ . شَاجِبٌ : هَالِكٌ .

م : يَقُولُ إِنَّهُ تَدَسَّى لِأَسْرَابِ الْقَطَا فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ فَأَقْلَبَتْ مِنْهُ بَعْضَهَا وَهَلَكَ الْبَعْضُ الْآخِرُ .

٣ - الْحُسْنِيُّ : السَّهْلُ الْمُسْتَنْقَعُ فِيهِ الْمَاءُ . دَرْتٌ : خَتَلَتْ . الصَّوَادِرُ : الْعَائِدَاتُ عَنِ الْمَاءِ . الْقَوَارِبُ : الدَّائِيَاتُ إِلَيْهِ .

م : يَقُولُ إِنَّهُ إِذَا مَا أَلَمَّ بِمَوْضِعٍ مُسْتَنْقَعٍ فِيهِ الْمَاءُ تَنَدَارَكُهُ الْقَطَا الْعَائِدَةُ مِنَ الْوَرْدِ أَوْ الدَّائِيَةِ إِلَيْهِ .

٤ - الْخِزَانُ : جَمْعُ خِزَانٍ : ذُكُورُ الْأَرَانِبِ .

م : يَقُولُ إِنَّهُ يَنْقُضُ عَلَى الْأَرَانِبِ فِي خِمَائِلِهَا ، فَتَجْفَلُ الثَّعَالِبُ اللَّاحِقَةُ بِهَا مِنْهُ وَتَفْرُ عَنْهَا .

٥ - م : يَقُولُ إِنَّهُ بَعْدَ أَنْ افْتَرَسَهَا وَأَكَلَ قُلُوبَهَا الطَّرِيَّةَ تَذَكَّرَ وَكَدَّرَ فَوَاوَاهُ وَهُوَ شَبَعٌ بَعْدَ جُوعٍ .

فمنذ البيت الأول تطالعنا خصائص الافتراس في ذلك الصَّقر وبخاصَّة في قوله : « أَنْخَنَ الصَّيْدَ ، خَاصِبٌ » إذ صَبَغَ الصَّوْرَةَ بنَجِيعِ القَتْلِ ، بل مثله بمثل الخَضَابِ . فالإنفعال هو انفعالُ عُنْفٍ وَبَطْنِشٍ ، بل إِنَّهُ مَشْهَدُ مَوْتٍ يَزْهُو مِنْهُ القَاتِلُ بِرِداءِ الدَّمِ . تلك كَانَتْ الصِّفَةُ العامَّةُ الَّتِي أَلَمَّ بِهَا فِي مَطْلَعِ هَذِهِ الأَيَّاتِ ، ثُمَّ تَرَاهُ يَنْحَدِرُ إِلَى الأَحْدَاثِ التَّفْصِيلِيَّةِ ، ذَاكِرًا حَدَّةَ طَرْفِهِ وَنَفَاذَهُ فِي الأَبْعَادِ وَالمَسَافَاتِ ، حَيْثُ يَسْتَطْلِعُ فَرِيستَهُ . وَفَضلاً عَنْ ذَلِكَ نَمَّا إِلَيْهِ الجُوعَ دُونَ أَنْ يُوفِّقَ فِي الاحْتِيَالِ بِاشْبَاعِهِ ، لَمْ يَجِدْ مَا يَلْتَمُهُمْ فِي وَكْرِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي نَهَارِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَدَّخَرَ مِنْ قَبْلِ . هَكَذَا وَقَعَ الأَحْدَاثُ لَتُوَدِّي نَوْعاً مِنَ الجُوعِ الضَّارِي ، دُونَ أَنْ يَكُونَ الجُوعَ المُطْلَقَ الَّذِي يَنْهَدُ لَتَمَثِيلِهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ يَعْرِضُ لَهَا ، وَاصِفاً أَوْ مَتَكْنِياً أَوْ مُسْتَعِيراً . وَهُوَ لَا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ ذَلِكَ وَحَسَبِ ، بَلْ يُكْمَلُ أَشْوَاطَ المَعْنَى بِقَوْلِهِ :

فَطَلَّ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ ، يَلْفُهُ بِنَدِي الحَرِّثِ يَوْمٌ ذُو قَطَارٍ وَحَاصِبُ

وَلَقَدْ أَوْلَجَ عُنْصُرِينَ جَدِيدَيْنِ لِلْغُلُوِّ بِجُوعِهِ أَيْ بِشَهْوَةِ الإِفْتِرَاسِ المُنْضَرِّمَةِ فِي أَحْشَائِهِ وَهَذَانِ العُنْصُرَانِ هُمَا البَرْدُ وَالثَّلْجُ أَوْ لَعَلَّهُمَا عُنْصُرٌ وَاحِدٌ هُوَ عُنْصُرُ الصَّبْغِ الَّذِي يُحَرِّكُ الشُّعُورَ بِالجُوعِ فَضلاً عَنِ الضَّعْفِ وَيَمْنَعُهُ مِنَ السَّعْيِ أَوْ يُعِيقُهُ عَنْهُ ، عَلَى الأَقْلِ ، وَيُدْفَعُ بِهِ إِلَى المَشَقَّةِ ، فَتَرَاهُ يَقِفُ عَلَى مَرْتَفَعٍ يَسْتَشْرِفُ بِهِ الأَرَاضِي الوَاسِعَةَ مِنْ دُونَ نَظَرِهِ ، فَكَأَنَّهُ قَائِدٌ يَسْتَطْلِعُ مَطَالِعَ الأَعْدَاءِ :

فَأَصْبَحَ مُرْتَبِياً إِلَى رَأْسِ رُجْمَةٍ كَمَا أَشْرَفَ العَلِيَاءُ لِلجَيْشِ رَاقِبُ
يُقَلِّبُ زَرْقَاوِينَ فِي مُجَرَّ هِدَّةٍ فَلَا هُوَ مَسْبُوقٌ وَلَا الطَّرْفُ كَاذِبُ

وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الأَنْتِظَارُ القَانِطُ ، الوَاجِفُ عُنْصُرًا جَدِيداً لِلإِيحَاءِ بِالشَّدَّةِ إِذْ أَقَامَ عَلَيْهِ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ ، مُرْتَبِياً يَكَادُ أَنْ يَتَجَمَّدَ فِي لَفْحِ البَرْدِ وَالثَّلْجِ . وَإِذْ كَادَ أَنْ يَنَالَه اليَأْسُ مِنْ نَيْلِ فَرِيستِهِ ، تُطَالِعُهُ القَطَا :

فَحُمَّتْ لَهُ ، أَصْلًا ، وَقَدْ سَاءَ ظَنُّهُ ، مَصِيفٌ لَهُ بِالْجِبَاتَيْنِ مَشَارِبُ
فَعَارِضَهَا يَهْوِي ، وَصَدَّتْ بِوَجْهِهَا كَمَا صَدَّ مِنْ حَسِّ الْعَدُوِّ الْمَكَالِبُ

لقد كانت القطا تَطْلُبُ الماءَ لتجيا ، وكان الصَّقْرُ يَطْلُبُ فريسة لينقذ بها نفسه من الموت ، جوعاً . كلاهما يسعى متنازعاً بقاءه . القطا تمثل السَّعي المسالم والصَّقْرُ السَّعي الحاد ، الدَّامي الَّذي يتلمَّظ بالدماء والاشلاء ، فاذا به ينقضُّ على فريسته ، فتصدُّ عنه ، فيتعقبها . وقد ركذ انفعال الشَّاعر في التعبير عن ذلك ، إذ قال :

فَلَمَّ أَرَّ مَا يَنْحُوهُ يَنْحُو لَطَائِرٍ وَلَا مِثْلَ تَالِيهَا رَأَى الشَّمْسَ طَالِبُ

وأداته للتَّمثيل ، هنا ، هو ذلك الضَّرْب من التَّعميم اللَّفظي أو العامي ، إذ جعل ذلك المشهد فريداً لا يُرَى ولم يَر مثله . ولا يعدو وصفه لقصصها هذا الإيقاع الخافيت ، الدَّاني ، إذ يُشير إلى تناسُّر ريش ذنَبها وانقضاضه عليها بمثل لمح البصر ، ينجو بعضها ويتردَّى البعض الآخر . ذاك هو دأبه ، يستطلع الفرائس فينقضُّ على الأراب في الحمامل ولا يقفل عائداً إلى وكره إلا مخضباً بالدماء ، مكتظاً بالأشلاء .

سادساً : وصف السُّفن : أَلَمَّ الأَخْطَلُ بوصف السُّفن في مقدِّمة طويلة لاحدى القصائد التي امتدح بها سعيد بن العاص . وكانت سنَّة المدح تقضي وصف الظَّاعنات على النِّياق في الهوادج ولم نكد نقع على وصف ارتحالهنَّ على السُّفن . وقد يُعتبر هذا الوصف من الموضوعات الجديدة الطارئة على قصيدة المدح أو أنه وجه من وجوه الابتكار في اسلوب الأَخْطَل المدَّحي . فهو يقول ان الظَّاعنات فارقتنَ الحليط الَّذين كانوا يُسأكونهم على سُنُنٍ تفتزع المَوْج المتعالي كالأجام والغابات . وهنَّ يُشحننَ عن الملاح الَّذي يرْتدي السَّروال الصَّغير لسر عورته ، ويميل الشَّاعر من ثمة إلى ذكر الماء الَّذي يتدافع على جدار السُّفينة العائمة في خضمِّ يرهبة حتى الفيل . وبخاصة عندما تزدهمُ أمواجه في المضيق كالابل التي يزجوها الرَّاعي

ويزجرها . ولشدّة خوف الظّاعنات لم تكد السفينة ترسو حتى هرعن إلى اليابسة كالسّبايا المصعّعات في الجبال .

وهذا الوصف يترجّح بين الواقعيّة الجزئيّة في سراويل الملاحين الصّغيرة وتدافع الماء على جدار السفينة، وبين الوجدانيّة المعبرّ عنها بالدّهشة من تعرّؤم السفينة على البحر ومن ازدحام الموج كالابل المطرودة ومن خوف الظّاعنات وهرعهن إلى اليابسة ، يُضنّفرُ ذلك كلّهُ ويبث فيه الشّجو نغم الوزن والعبارة وهو وزن متسارع سيّال :

ففارقنَ الخليطَ على سفينِ يشقُّ بهنَّ أمواجاً صعباً ١
تري الملاحَ مُحْتَجِزاً بليفِ يؤمُّ بهنَّ آجاماً وغاباً ٢
إذا الثّبّانُ قلّصَ عنْ مُشِيحِ صدفنَ ، ولمْ يردنْ لهُ عتاباً ٣
يعدُّ الماءَ تحتَ مُسَخّراتِ يصكُّ القارَ والحشَبَ الصّلاباً ٤

١ - الخليط : القوم الذين نخالطهم في السّكن .

م : يخالف الأخطل الوصف المأثور للظّعان في هذا البيت ، إذ يجعل رحيل الظاعنات على السفن ، فيما دأب سواه من الشعراء على وصف رحيلهن على النياق . ولعله أفاد ذلك من واقع البيئة التي قلما تظهر معالمها الجديدة ، عبر شعره فيما عدا هذه النّبذة النادرة .

٢ - مُحْتَجِزاً : شاداً على وسطه .

م : يصف في هذا البيت الملاح الذي يشدُّ خصره بالليف ويعبر بهنَّ آجاماً وغابات . ولعله كنى بالغابة والأجمة عن الأمواج العاتية أو السّبل المجهولة في الماء الغامر .

٣ - الثّبّان : سراويل قصيرة ، تستر عورة الملاحين والمصارعين . قلّص : ارتفع . مُشِيح : شجاع .

م : يقول إن أولئك النسوة بغضضن أنظارهنّ ويملن بها عن الملاح ، عندما يرتفع عنه سراوله الصغير ، فيبدو طرف من عورته ، كما أنهن لا يزجرنه ولا يعاتبنه في ذلك .

٤ - يعدُّ : يجري دون انقطاع . المُسَخّرات : السّفن . القار : الرّفت .

م : يميل إلى وصف السفينة إثر الملاح ، ويقول إن الماء لا يزال يجرّري من دونها ، فيرتطم بجدارها القويّ ، المطّلي بالقار .

يَعْمُنَ عَلَى كَلَاكِلِينَ فِيهِ وَلَوْ يُزْجَى إِلَيْهِ الْفِيلُ^١ ، هَابَا^١
 وَإِمَّا اضْطَرَّهُنَّ إِلَى مَضِيقٍ وَمَوْجُ الْمَاءِ يَطْرُدُ الْحَبَابَا^٢
 تَتَابَعُ صِرْمَةَ الْوَحْدِيِّ تَأْوِي لِأَوْلَاهَا ، إِذَا الرَّاعِي أَهَابَا^٣
 دَجَنَ بَحِيثٌ تَنْتَسِغُ الْمَطَايَا فَلَا بَقَاءَ يَخْفَنَ وَلَا ذُبَابَا^٤
 إِذَا أَلْقَوْا مَرَايِسَهُنَّ ، حَلُّوْا دَيْبَ السَّيِّ ، يَبْتَدِرُ النَّمْبَابَا^٥
 تَفَرَّجَ مَائِحُ السُّبْحَاءِ عَنْهَا إِذَا نَزَحَتْ ، وَقَدْ لَذَّ الشَّرَابَا^٦

١- يَعْمُنُ : يَسْبَحُن . الكلاكل : جمع كلكل : الصَّدر . يُزْجَى : يُسَاق .

م : كان الشاعر يعجب من قدرة السفينة على العوم في الماء الذي يرهبه الفيل القوي ، فيما لوسبق إليه . ونقع في هذا البيت على تصوير غير مباشر لنفس الأخطل أمام الظاهرة . إذ أنه لو أُلْف ارتياد البحر وأقام إلى جانبه ، لما تَرَوَّعَ من طُفُو السفينة على متنه .

٢- ٣- أهاب : هنا زجر .

م : يقول إنهن إذ تعبر السفينة بين مضيقاً ، يطرّد فيه الموج ويزدحم ويتتابع تتابع جماعة الإبل التي تتلاحق ، بعضاً إثر بعض ، فيما يزجوها الرَّاعي ويسوقها . وتشبيهه لتدافع الموج بتتابع الإبل ، يوحي بعظم تأثره بواقع الصَّحراء التي يكتنظُ ذهنه بمشاهدتها وأحداثها .

٤- تَنْتَسِغُ : تَتَفَرَّقُ . وفي هذا البيت يستكمل معنى البيت الأسبق . دجن : أقمن .

م : يقول إن السفينة لم تكد ترسو ، حتى هرعن إلى اليابسة ، حيث تُقيم المطايا وتتفرق ، دون أن يحشين أذى البقِّ والذُّباب ، لشدة الهلع الذي أصابهن في البحر .

٥- النَّقَاب : جمع نقب : الطريق النَّافذ في الجبل .

م : يستكمل المعنى ويقول إن السفينة لم تكد ترسو ، حتى هرعن إلى اليابسة يسعين فيها ، مهرولات كالسبأيا المصعدات في الجبال .

٦- تَفَرَّجَ : تَفَرَّقَ وانزاح . مائح : من ماح أي اغترف الماء بيده ، وهنا ابتدبه .

م : يقول إن السُّبْحَاء يتفرقون من دونها ، إذ تمضي في سبيلها وقد لذَّ لهم ما هم فيه .

لياليَ وافَتِ الصُّبْحَ الثُّرَيَّا وأحْمَتَ كُلُّ هاجِرَةٍ شِهَاباً

مخاطبة فاطمة وأم بشر

أفاطِمَ أعْرِضِي قَبْلَ المَنَايا كَفَى بالموتِ هَجْراً واجتِناباً^٢
بَرَقَتْ بعَارِضِيكَ ، ولمْ تجودي ولمْ يكُ ذاكُ مِنِ نُعْمِي ثواباً^٣
كذلكَ أَخْلَفْتَنَا أمُّ بِشْرٍ على أنْ قدْ جَلَّتْ غُزْراً ، عذاباً
شَتِيّاً يَرْتَوِي الظَّمآنُ مِنْهُ إذا الجوزاءُ أَحْجَرَتِ الضُّبَابَ

١ - الثُّرَيَّا : كوكبٌ إذْ قاربَ الصُّبْحَ اشتدَّتْ الحرارةُ . الهاجِرَةُ : اشتدادُ الحرِّ في النهارِ .
الشُّهَابُ : الكوكبُ المضيءُ .

م : أي حينَ اشتدَّتْ الحرارةُ ، منذ الصُّبْحِ الباكرِ ، فيما جعلتِ الهاجرةُ تُصَلِّي نارها فتوهج
توهجاً .

٢ - أعْرِضِي : مكْنِي من وصالِكِ .

م : يخاطبُ صاحِبتهُ ويدعوها إلى مواصلتهُ ، قبل أنْ يُلِمَّ بهما الموتُ ، إذْ يكفِي به مَفْرَقاً
للأهلِ والأحبابِ ، عندما يتزل فيهم .

٣ - العارِضانُ : صَفْحَتَا الخَدِّ .

م : يقولُ إنَّها تَبَسَّمتْ له ، ولمْ تُقْبَلْ عليه ، كالبَرْقِ يلمعُ ولا يَلْحَقُه غَيْثٌ ، ويردِفُ
بأنَّ ذلكَ يَنْطوي على جحودِ النُّعْمِي والمودَّةِ اللَّتِي قَدَّ مَهْمَا لها .

٤ - ٥ - الشَّتِيَّتِ : الثَّغْرِ .

م : يقولُ إنْ صاحِبَةَ أُخْرَى قَطَعْتَهُ ، فيما خَلَبْتَهُ بما بدا من ثغرها المُفْلَجِ الذي يروي
الظَّمآنَ رضابُه ، حتَّى في أشدِّ أوقَاتِ احتدامِ الهاجرةِ . وقوله : إذا الجوزاءُ أَجْحَرَتِ
الضُّبَابَ ، يشيرُ إلى شدةِ الحرِّ التي تَصْحَبُ ظهورَ الجوزاءِ ، بحيثُ تسوقُ الضُّبَابَ ، وهي من
الدَّوَابِّ الصَّغِيرَةِ ، إلى الاختباءِ في جُحْرِها ، اتقاءً لها . وآيةُ الغُلُوِّ هنا أنْ رضابُ حبيبتِه
يَنْقَعُ الظَّمأَ الأشدَّ الذي تصلِيه به الهاجرةُ ، وهو ضربٌ من الغلُوِّ المباشرِ الفاقِدِ الرؤيا
والذي يتزعجُ إلى الخارجِ ولا يُوغِلُ في الدَّاخلِ .

خلاصة حول وصفه : عالج الأخطل الموضوعات المتصلة بحياته الأولى المتبدية أو الموضوعات التي اقتبسها من التقليد الشعري ؛ ومعظم الموضوعات التي تعرّض لها انهكت في عمود الشعر القديم ، إلا أنه عالجها برؤيته الحسيّة ورؤياه الجماليّة والنفسية ، أحياناً ، بحيث أخرجها من عقم التقليد وأضفى عليها قليلاً أو كثيراً من أجواء التجديد . كما سرى في بحثنا لخصائصه الفنيّة العامة .

* * *

الفصل السادس

الطبائع الفنية العامة

تمهيد : كان برغسون يرى ان الشّعْر ، في نقطة انطلاقه الأولى ، يَصْدُر عن الانفعال الخالق ، بحيث أنه يُحرِّك أطر الحسّ والعقل وينفذ إلى نوع من الحقيقة التي سَقَطَتْ عنها الأعراض والشّوائب والتي فَصُحَتْ وانجَلَّتْ لأنها أوفَتْ إلى لحظة من اليقين النهائي المُطلق . ولقد يَرُدُّ الانفعال ويظفر ويزو ، فلا يتّصل بالحقيقة ولا يتلمّسها ، بل يُسْفِها وينقضها ، مثيراً في النّفس حالة من الطّرب والنزق لا تقوم ولا تلبث لافتقارها للمعانة الانسانية الجديّة . ووظيفة الخلق في ذلك الانفعال لا تقتصر على ما يُحرِّك به النّفس ، بل في قدرته على تلبّس الأحوال والمظاهر الخارجيّة دون ان تزيّف طبيعته وتبدّل ولا يبقى منها إلا بعض الاشارات المجرّدة أو الدّهنيّة الموات . فالمشكلة ليست في اضطراب النّفس بالانفعال ونزوعها فيه منزع الغلوّ والمثاليّة ، بل في القدرة على تجسيده وتوليده بحيث ينجلي انجلاءً حدسيّاً ، شعوريّاً ، ويتلبّس المظاهر ويحلّ فيها باعثاً عبرها من روحانيته ، بدلاً من أن يتكثّف وينطفئ فيها بالماديّة والحسيّة . فما نداوله في أطر الفهم وحدوده لا يُفصِح عن الحقيقة الشعريّة ، بل عن الحقيقة العقليّة ، الثابتة ، المتجمدة ، الشّاحصة . وكأن جوهر الحقيقة ليس عقليّاً يفهم ، بل هو نفسيّ يُحيا به ويُعاني ويكون في النّفس صنواً لها أو جزءاً منها . فالعقل هو أداة للتعبير عن العالم الخارجي الفاقد الدّاتيّة ، الجاري على نواميس دائمة لا تتعدّل ولا تتبدّل ،

هو أداةٌ لقيّد الأحجام والأبعاد والأعداد وما يتداول وما يتعامل به ، سامياً إلى النظرية بالمطلق الذهني الفاقد للانفعال والخيال . وعالم العقل هو ، فضلاً عن ذلك ، عالم تماثل ، متكرر ، فوق الافراد وحدود الزّمان والمكان ، بل ان الأفكار تتضح وتسطع فيه وضوح المظاهر والأشكال والأحجام ، لا يلتبس أمره وان وان تباينت مستويات المعرفة فيه . الا ان الانسان يظل يشعّر أنّ في نفسه ما هو أنّأى من حدود العقل وما هو متباين عن معطياته. ولو رضي الانسان بما أدركه العقل ، وحسب ، من الوجود ، لما كان هناك فنٌّ إلى أيّ نوعٍ انسب ، وانّما كانت حالة واحدة أو أحوال متكررة ، مَمْلولة . فالحقيقة الشعرية هي تلك التي ينفذ بها الشّاعر من أطر المادّة والحسّ والعقل إلى الرّوح ، فيغدو في جوهره الفعليّ ، الخالص ، تعبيراً عن ميتافزيقيّة الانسان والحياة والأشياء ، عن تلك الحالة التي لم تكن قد تَطَيّنت فيها بطينة الحواس ولم تخضع لمقتضيات العقل ولم تتكيّف لتحلّ في العالم الخارجي المتحرّج الشّاخص . تلك هي الحقيقة الأولى التي تتلامح لنا عندما يتحرّك الانفعال ويُفكك طينة الأشياء أو يُرَقِّق كثافتها، فنشف ويطالعنا من دونها الضوء الآخر . إلا أن الانسان يظلُّ ، مع ذلك ، مرّتهاً لقيود العالم ولا يَسْطع ذلك ذلك الضوء الا في لحظات عابرة ، تطول أو تُقصر ويقعي من جديد في اللبس والظلمة ، قانماً ، بل مُتغرّراً بما تبذله له الحواسّ والعقل . وليس من المعجب أن يكون كبار الانبياء هم ، في الآن ذاته ، كبار الشّعراء ، ذاك أنهم وفقوا إلى استطلاع الغيب ومشاهدة الحقيقة في تخومها النّائية .

ولا نتوهمنّ بذلك أننا نعدم العقل اعداماً من الشّعْر ، بل أننا نزيل مظاهره الواعية ، وأفكاره الثابتة ونظرياته المجرّدة من دون جوهره ، إذ لا يكون الشّاعر عظيماً ، إلا بقدر ما تعظم إنسانيّته وعقله . العقل في الشّعْر نغمه الظلمة وتكسوه الظلال بدلاً من الأضواء، والهلالات المموّهة، بدلاً من الأشكال الثابتة. إنّهُ العقل الدّاهل الذي التبست فيه سُبُل الوضوح فلم يَعدُ يشاهد الحقيقة كأنّها مُنفصلة عنه ، بل إنّها تكون فيه لا قبل له بفهمها فيكتفي من ذلك بمعانقتها والحلول فيها والتوحّد معها. وإذا انعدم العقل في التجربة الشّعريّة استحالت إلى ترّهاتٍ من الغلوّ

والنزوة وانعدمت فيه المعرفة وانقطعت صلته بالحقيقة . وليس الشعر ، في نهاية مطافه ، سوى العقل الذي حركه الانفعال وانصهر به وتولاه الخيال ليرسم ما طالعه في صور بدلاً من فهمه وتقريره .

ولإنما نسوق ذلك ونقدم به كي نوضح ان غاية الشعر لا تقتصر على اجهاض الانفعال بصور الغلو والمبالغات الحاشدة التي تذهب في النفس حماساً أصمّ يفشو ويخبو دون أن تفيد منه النفس يقينا او معرفة لذاتها أو للوجود. وأيا ما كانت حال التجربة من الجزئية أو ما دونها ، فإن الشاعر الكبير يستطلع لها جذورها الانسانية العامة في القيم والمبادئ التي لا يزال يتنازع فيها المرء بين الواقع والمثال . وهناك حدود أخرى للتقييم الفني سنوردها ، تباعاً ، عبر دراستنا للطبائع الفنية العامة .

أولاً : طبيعة الانفعال الشعري عند الأخطل : تعدّد بواعث الانفعال بين الشعراء ، وعند الشاعر ذاته بين قصيدة وأخرى وتجربة وتجربة ثانية . الا أننا قد نستقرئ عبر هذه التجارب المتباينة الباعث الأهم والاكثر تردداً وتكراراً ، وهو عند الأخطل باعث فروسي فيما يتعرض له من مدائح وأهاج ومفاخر ، وباعث تقليدي وجداني فيما يلم به من أوصاف . وللفروسية وجهها الإيجابي في النخوة والبطولة وقرى الضيف والدؤود عن الجار وما إلى ذلك، ووجهها السلبي المناقض للأول فيمن يفقد النخوة ويقعد أو يجبن عن البطولة ويتغلى عن الجار أو يستبيحه . ألم الأخطل بالوجه الأول في مدائحه ومفاخره وبالوجه الثاني في أهاجيه ، متصرفاً بالمبادئ العامة ومتطوراً إلى الأحوال الخاصة ، مصوراً كل تجربة في أقصى حدودها الحسية والذهنية . وقد اتخذت تجربته بذلك طابعاً إيجابياً، سداه ولحمته الأخلاق والعادات والتقاليد ، وهي بدورها ، استجابة اجتماعية للغرائز والميول والاهواء المتأصلة في النفس البشرية . والأخطل لم يعدد بذلك عصره ، بل إنّه استقاد له ومضى به في سبيله المأثور ، إذ لم تكد تتباين القيم التي امتدح أو افتخر بها عن القيم الجاهلية ، وكذلك النقائص والعاهات ، فيما عدا المدح بالايمان وتأييد الله، والهجاء بالعصيان والمروق من الدين . وربما طغت بعض الخصائص السياسية

على شعره في الأحداث والأيام والأشخاص ، إلا أنه كان يخرج ذلك كله تخريجاً
فروسيّاً لا لبس ولا غموض فيه .

وبذلك تعود معظم بواعث النظم والإنفعال في شعر الأخطل إلى الصراع والتنازع
بين الواقع والمثال في القيم الاخلاقية والاجتماعية ، متخذاً في الفخر طابعاً ذاتياً
وفيما دونه طابعاً غيرياً .

الا أن انفعال الشّاعر يتخذ مستويات مُتباينة من البلاغة ، يتتبع حيناً ،
ويُجهض حيناً آخر بالعلو ، فيما يتصل ، غالباً ، بضمائر المظاهر الشّاحصة أو
المتحرّكة في الطّبيعة ومعنى الغرائز التي يتخذ منها الدّلالة المثاليّة ، المطلقة .

إلا أن آفات اعترت تجربته وجعلتها ترسّف في قليل أو كثير من القيود الخارجيّة
الطارئة التي تدنيها إلى حدود النثر وطبائعه ، منها :

أولاً : السّرد : ذكرنا أنّ طبيعة الشّعر لا تسبغُ السّرد حيث يعتمد الشّاعر
إلى عرض الأحداث في تسميتها أو وصف بعض ما جرى في سجلّها ، مضمناً عليها
بعض الغلو ، أو مؤدّباً إياها في هالة عامة من الانفعال . ذاك أن السّرد هو من خصائص
النثر الناحي منحى الدقّة والايضاح ، يسيطر عليه وعي العقل ومعطيات الواقع .
فلونظرنا في مثل قوله :

كأني غداة انصعنَ للبين مُسلمٌ
بضربة عُنُقٍ أو غويٍّ معدّلٌ
صريعٌ مُدام يرفعُ الشّرْبُ رأسه
ليحيا وقد ماتت عظام ومفصّل
نُهاديه أحياناً ، وحيناً نجره
وما كاد إلا بالحُشاشة يعقل
إذا رفعوا عَظْماً تحامل صدره
وآخرُ مما نال منها مخبّل
فقلت اصبحوني لا أبا لأبيكم
وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا
أناخوا فجرّوا شاصياتٍ كأنها
رجالٌ من السودان لم يتسرّبوا

وجاءوا ببَيْسَانِيَةٍ هي بعدما يَعَلُّ بها الساقى أَلْدُ وَأَسْهَلُ
 تمرٌ بها الأيدي سَنِيحاً وبارِحاً وتوضَعُ باللَّهْمِّ حَيٌّ وتُحْمَلُ
 وتوقَفُ أحياناً فيفصِلُ بيننا غناءً مغنٌ أو شِواءٌ مُرْعَبَلُ

أنتَ ترى أن الأحداث تجري في هذه الأبيات عبر الأفعال التالية : يرفع -
 يحيا - ماتت - نهديه - نجره - رفعوا - تحامل - شربت - أصبحوني - أناخوا -
 فجرؤا - وجأؤوا - تمرٌ - توضع - تحمّل - توقف - يفصل - لذت -
 طابت - راجعني - لبثنا - نعلٌ - ننهل - تدب - اقتلوا .

وآية هذه الأفعال أن دلالتها تقتصر على الحدث ، من دون الأحوال والصفات
 الجائمة ، وان كان الشاعر قد اعترض ، غيرها ، بقليل أو كثير من التبعوت .
 فهل ان في قوله : « نهديه ، احياناً ، وحيناً نجره » صورة شعرية أم أحداث واقعية
 أم نوع من الكناية المجزؤة عن الواقع .

لو نظرنا في ذلك كله بباب التقسيم النهائي للشعر الصافي ، لوجدنا أن آثار الخيال
 تعفّت فيه لانعكاس الحركات الخارجية عبره ، تدليلاً على أحوال داخلية ، كما
 ان الانفعال لم يُبدع لذاتٍ ويشتق لها تأويل في الرؤيا ، مما لا تطالعه الحواس في
 حدودها المبذولة ، بل إنّه اقتصر على عزل الحادثة من اطارها وابرزها لتنتزؤ
 وتعمّ دلالتها . وربما تعاضم أمر السردية وطغى بلفظي « أحياناً » ، و« حيناً »
 التآزعتين منزع الدقة في نقل الوقائع . وكنا قد ذكرنا ، كذلك ، أن لفظه « نجره »
 هي لفظه نثرية حتى العامية والابتدال . وذلك لا يعني ان الشعر لا يستحضر
 الواقع أو أنّه لا يقتبس منه ، الا أن الأقتباس يكون إيحائياً نافذاً أو ابداعياً يُطلع
 ضمائر المظاهر الهاجعة فيها . وذلك يعني أن الشاعر كان في حالة انفعال ولم يكن
 في حالة ذهول تسقط بها الأحداث ويبقى وقعها في النفس .

ولا يعدو ذلك قوله :

إذا رفعوا عضواً تحامل صدره وآخر ممّا نال منها مخبَلُ

فالمعنى تأدّي عن حادثة واقعية سردية ناحية منحي الوصف ، تسوق ما طالع الشاعر في حدوده الشائعة ، لم يسم عليه ولم ينفذ فيه ولم يستحضر له صورة إبداعية من لدنه وما شاهدناه تقع عليه أعيننا في واقعها .

ولنؤمنُ بذلك في سياقه اللغويّ، فنجد أن لفظة « رفع » هي لفظة حسية، واعية، نثرية، لا انفعال ولا خيال فيها ، بل إنَّها مغرقة في المادية لتقريرها ظاهر التصرف أي الحركة أو الحادثة المرتبطة بواقع الانسان من خلال أحواله الخارجية . والشعر الصافي يأنف منها لعقم دلالتها وثباتها . ثم إن لفظة « عضو » تم عن الامام بالجزئيات والدقائق السردية ، كما أنها لم تحمّل على غير محلها النثري المبذول ، بل إنَّها مغرقة في النثرية والابتدال لأنها وصف حسي علمي لما في جسم الإنسان . والأخطل في تنبئه لرفع العضو وتحامل الصدر كان في حالة من الصحو الذهني المطبق الكامل ، ينظر بل يحدّق في الأشياء ، يُسمّيها بأسمائها ويقتفي إثر حركاتها وأحداثها ، ممّا يدعُ الشعر ، دون مُبرّر أو غاية . ولنتمّثل التقرير المتهدان الوصفيّ في قوله : « وآخر ممّا نال منها مُخبّلٌ » . وقد يكون الخبّل ينطوي على بعض العمق والرؤيا كأنه نما به إلى العضو العبيّ ، المخذول نوعاً من افتقاد الوعي والرشد . إلا أنه أجهض ذلك كلّهُ من النزعة التفسيرية التي وخطت في تلك الرؤيا شبه الذّاهلة خطوط الوعي النثري . وإنا لنعلم أن الشعر الكبير لا يُفسّر ولا يُعكّل ولا يؤدّي البيّنات والحِثّيات . لذلك نبا قوله : « ممّا نالَ منها » لان « ممّا » هي أداة تفسيرية أوضحت التخبّل وسردت قصّته بباعثها الواقعي ، أي ما نال منها . وهنا يتلبس السرد بالتفسير لأنّ الثّاني هو احدى خصائص الأوّل ، وهما ، جميعاً ، ينزعان منزع الايضاح السّاقط تحت وطأة العالم الخارجي في حركاته وتنفساته . وقد لا نُقسط في الحكم على مثل هذه الأبيات إذا ما عربّيناها تعريةً كاملة عن الشعر، وانما السوية ان نقول إنَّها ترجّح بين الشعر والنثر ، لها من الأوّل الايقاع الانفعالي العام ، ومن الثّاني التقيّد بأسلوب السرد في ذكر الأحداث وتفسيرها وتعليلها بما يُوافق الفهم ومقتضياته . وربما تحلّل السرد بعض الحوار كقوله :

فقلتُ اصبحوني ، لا أبا لأبيكم وما وَضَعُوا الأثقالَ إلا لِيَفْعَلُوا

وقد كان قوله حادثة جديدة في سياق القصيدة العام ، نزع به من سرد أحوال السَّكران إلى احتسائه للخمرة ، مفسراً ذلك بوضعهم للأحمال والأثقال . ولتمثّل فعل « وضع » وما ينطوي عليه من تقرير سردي باهت إذ لم يُعدّ الحركة الواقعيّة في لفظها شبه العامي المتدل ، ويردُّ فعل « لِيَفْعَلُوا » في ادنى سورة من سور التعبير العامي إذ أنه الأشدُّ تداولاً والأكثر ابتداءً . أما اداتا الحصر : ما وإلاّ » فهما أداتان تعليلتان ، نائيتان ، تعملان على توثيق الصّلة بين الباعث والنتيجة وايضاح أحدهما بالآخر . وفضلاً عن ذلك كُله تطراً في الشطر الثّاني حادثة جديدة ندرك بها ان اولئك القوم لبّوا طلبه واستجابوا لندائه . وماذا يعني أنّه طلب الصّبح ؟ إنّه يعني ، وحسب ، أنه شغوف بالحمرّة ، وقد أدّى هذا المعنى بالتصرّف المعبّر عن ذاته من خلال الحوار . والمعنى بدائيٌّ سَطحيٌّ ، في نقطة انطلاقه ، مغرق في الماديّة حيث يلتبس في الحادثة العاديّة التي تقرن به وتكنّى عنه في العرف الدّانيّ . فالشّاعر إذ يتقيّد بالحادثة يقتصّر على ما يطفو ويغشى اللّجة ، وهي لا تتبدّل ولا تتعدّل في وجودها الشعري عن وجودها الواقعي .

وفيما دون ذلك من أبيات تسطع النّزعة السّردية وتنبو ، متضاعفة بالنّزعة التفصيلية الملازمة للسّرد . فهو يقول :

أناخُوا فجرّوا شاصياتٍ كأنها رجال من السّودان لم يتسرّبوا

وفعل « أناخُوا » و « جرّوا » هما فعلاَن سَردِيّان ، واقعيان ، يتعاقبان في العبارة تعاقب الحدّين اللّذين يشران إليهما . ذاك أنّه لا قبل لهم بجرّ الشاصيات قبل إناخة الجمال . والشّاعر إذ اقتضى أثر الواقع بدقائقه ألمّ بما لا جدوى من الالمام به ، وقد وقع تحت وطأة الأحداث التي تُصوّر لذاتها ولوقوعها فعلاً في حقيقة الواقع . فأولئك القوم أناخوا المطايا وجرّوا الشّاصيات ، وتمرسوا بذلك

كداً بهم في كلِّ حين . إلا أن الاناخة والجرَّ لا شأن فنياً لهما ، إذ لا اتّصال لهما بالانفعال الجاري في سياق القصيدة ، وهو انفعال الغلوِّ بإدماها والاقبال عليها . وربّما أراد الشّاعر أن يُظهر بذلك شدّة الحافه وعجزه عن الانتظار ، إلا أنّه لم يُوفّق في الصّقل والانتخاب إذ بدت التجربة ساقطة ، مغرقة في السّطحيّة والبدائيّة . وإذا كانت النّزعة السّردية قد خدمت الانفعال إذ وقّعت بعض الأحداث لتُظهر سورة الغلوِّ ، فان تنويه بهذا الأمر يؤكّد أنه خلّب بمجريات الواقع ، فنقل منه ما حدث فيه بجزئياته العارضة . وفضلاً عن ذلك كلّته فان فعلي الاناخة والجرَّ منعداً الخيال والانفعال بطبيعة لفظهما إذ أوجز بهما الأحداث بلفظها العاري ، المباشر ، النّري .

وكما ورد ذكره للجرَّ إثر الاناخة ، استجابة للضرورة السّردية واقتفاءً على أثر الأحداث ، نراه يُشير إلى قدومهم بها كحادثة ثالثة أعقبت الحادثتين السّابقتين :

وجاءوا ببيسانية هي بعدما يُعلُّ بها السّاقى الذُّ وأسهلُّ

وفعل المجيء اقتصر على الحادثة المباشرة في إطارها الفعليّ الذي يأنف منه الشّاعر إذ يسمو عن ا عراض ويضمّرها إلى الحالة النفسية التي تستحضرها في عالم نفسي آخر . وإ ما تحرّينا عن لفظة أخرى أدنى منها للتدليل على معناها ، فإننا نعجز إذ أنها من البساطة والبداهة بحيث تدنو إلى ما يُشبه العامية . وهذه النّزعة السّردية المباشرة تتعدّى ما يتداوله من أحداث العالم الخارجيّ إلى الأحوال النفسية التي يعانها من احتسائه للخمرة . فهل ثمة أدنى من قوله ان الخمرة تبدو الذُّ وأسهل بعد أن يتناول الحقائق المغرقة في البداهة والتي لا تحفل بها التجربة المبدعة ، ذاك أنه لم يكن يُنشئ واقعاً فنياً جديداً من انقراض الواقع الفعلي ، بل إنّه يقتصر على نقل حقيقة ما يبصره وما يعاناه بما ينطوي عليه من ابتذال وعقم . تلك هي آفة السّرد في الشّعر ، تُولج فيه ما لا شأن له به وتدع الحادثة الفعلية تُسيطر على الأحداث الدّاخلية ، فيغدو الشّعر تقليداً ومحاكاة للأشياء بدلاً من

أن يكون جلاءً واستظهاراً لها . والسوية في ذلك ان يحتضن الشاعر الواقع احتضاناً نفسياً وان يعيد خلقه في تخوم الحلم والرؤيا حيث تسقط منه الاعراض ويصنمو جوهره وتبين من خلاله الأبعاد الروحية شبه الخالصة والتي لا تتقمص بالواقع ذاته ، بل بمظاهر حسية تستحضر روحه . ويقدر ما تكون العلاقة بين تلك المظاهر ورمز الواقع نائية ، غير مبذولة في حدود التشابه والمقارنة ، بل بتلمس للصدى التأني ، العميق ، المكتوم ، بقدر ذلك تعظم قيمتها الفنية . فالسرد يُعَدُّم الرؤيا ، ويجمد الروح ويظلي المظاهر بطلاء الحس والواقع ، فيعبر الشاعر على سطحها ، فاهماً منها ما يفهم ، ومبصراً فيها ما يبصر فيما يكون الشعر محاولة لاقتناص ما لا يفهم وما لا يبصر الا بالحدس وبتلك الحدقة المنظفة في الخارج والتوهجة في الداخل . لانه الشعر هكذا ، يعف ويأتف من كل ما هو واقعي ، حسي ، وما يجري في حركة ويحدث يحدث ويظل يطارد تلك الأطياف الهاربة والظلال الموهمة التي تطالعه عندما يستسلم العقل ، كما في الحلم ، إلى الأخيلة والصور . والحقيقة الشعرية ليست في الواقع ، بل هي في الحلم ، أو هي في تلك اللحظة التي تُسفر بها الأشياء وتخلع قناعها ، فيشاهدها الشاعر في أطر تخالف ما تشاهد به في العالم الأليف ، المنبوذ . ولعل ما أورده الشاعر ، جميعاً ، هنا ، وقف به عند حدود الحماس والهمة والإحاف ولم يوفق في اكتشاف جذوره الأولى الغائرة في الوجدان . ذاك أن الأخطل كان فاقد الرؤحانية أو كأنه كان ينفعل انفعالاً فيزيولوجياً ، بيولوجياً بما جهزته به الطبيعة من غرائز وحواس ، ولا ينطلق من انفعاله الفيزيولوجي إلى اكتشاف ما يقابله في عالم الحقيقة الشعرية الخالصة ، المتحررة من طينه الحس وخلاياه والمتضوءة كالضوء الشاحب في أصقاع الغيب النفسى . وذلك يسوقنا إلى القول بل التأكيد على ان الشاعر مسؤول ، في نهاية المطاف ، عن الرصيد الأنساني لشعره ، ينبغي له أن يؤدي لنا معرفة هي وراء المعرفة التي نتداولها أو أنها هي تلك المعرفة عندما تُعاد إلى حقيقتها الأولى وقبل أن تكتسب في المظاهر والأحداث التي تتداول عليها وتصحب بها ، في تلك التخوم حيث يكتشف علائق بين المعاني والمظاهر هي متباينة كل تباين عن العلائق العلمية . فرفع الرأس والجر والتحامل والوضع والاناخة والمجيء هذه كلها من الأحداث الفاشلة

السطحية والخطوط التي يهتدي بها الوعي النَّثْرِي وإذا ما اكتفى الشاعر بها ، إنما يقف من ذلك عند حواجز العقل والحسِّ ولا يجوز إلى عالم الشعر . فأية ذروة أو رؤيا شعرية تطالعنا في قوله :

وتُوقَفُ ، أحياناً ، فيفْضَلُ بَيْنَنَا غناءً مُغَنٍّ أو شواءً مُرَعْبَلُ

أو لسنا نقع في فعل : « توقف » على تلك السردية النَّثْرِيَّة ، الواقعية ؟ ذاك ان هذا الفعل هو الفعل العامي المباشر لتأدية هذا المعنى بين الناس في حديثهم الشائع . ولا يعدو ذلك فعل « ويفضل » لما ينطوي عليه من واقعية ساقطة . هكذا يتردى الشاعر تحت وطأة الطفيليات ، بحيث يفقد الفن مبرره .

وإذا عدنا إلى ما تمثلنا به من نماذج في مدائحه وأهاجيه ومفاخره وأوصافه لطالعتنا النَّزعة السردية في كثير منها ، وبخاصة في المقدمات التي يمهّد بها لمدائحه حيث يسرد قصة السفر والسرى والآل وهزال المطايا وتقلقل الأعتة من دونها وتنقّب أخفافها ، وما إلى ذلك ممّا تكاد لا تخلو منه أية قصيدة من قصائده . الا ان السرد الذي يطالعنا في مثل تلك المقدمات قد لا يترتّب إلى الاحداث ولا ينصرف إليها كغاية بذاتها ، بل يتولّاها في سورة إنفعالية شديدة الغلوّ ، تقتبس من الواقع الحادثة الذروية ، النَّاتئة ، الطاغية على ما دونها ، والمستقلة في نوع من الدلالة البالغة حدّ الرّمز ، بالرغم من اقتصارها على الحدود الواقعية ، فهو يتلو قصّة المطية المسافرة ويستحضر لها من الأحداث ما يدعنا نُقيم في أجوائها ونعاني معاناتها .

وإذا عرّجنا على مفاخره تظهر لنا النَّزعة السردية في تعداده للأيام وذكره لاسماء القبائل والأشخاص والتعقيب على كل منها بما يصحبه أو يعقبه من أحداث تباين قيمتها الفنية من تباين اللحظة الابداعية التي يعبر بها الشاعر . وفضيلة السرد - إذا كان للسرد من فضيلة في الشعر - هي فضيلة التأليب والحشد والإكتظاظ ممّا يروّع روع القارئ أو السامع ويخلبه ويؤهمه باليقين الذي يبتغيه ، دون أن ينفذ الشاعر في ذلك كلّهُ إلى حقائق أنأى من الحقيقة الواقعية

المتحرّكة بالانفعال . ولنقل في ذلك أنّ التعداد السّردي قد يحشد للانفعال أجواءه ويؤدّي له بيناته الفعلية ، إلا أنّه ينبو عن السويّة الشعريّة من شدّة وثوقه بالأحداث الخارجيّة المرتبطة بالذّاكرة الواعية . والشاعر المبدع يعترض عن التعداد بالصورة النافذة التي تبلغ مبلّغه وتتخطّاه وتوجزه ، دون أن تنساق انسياقه إلى التفصيل والتدليل والتعليل .

أما في أوصافه فإنّ السرد يتخذ شكل القصة السويّة في حدودها الماثورة بين مقدّمة وعقدة وحلّ ، تنمو عبر الأزمة وتنداح وتنفشّى بالغة ذروتها ، متفكّكة أو منحلّة إلى نهايتها . وأكثر ما يبدو ويتحقّق ذلك في وصفه للشور والحمار الوحشيين . متّخذاً من الأوّل سبيلاً إلى التّدليل على تجارب ومصائر إنسانيّة معيّنة وبخاصّة موقف الحيّ من عناصر الطّبيعة المتمثّلة في المطر والريّح والصقيع والسيل ومن المصائب المرتبطة بقضاء من القدر أو من طبائع الأحياء المتمثّلة في الصياد وكلابه . أما الثاني فيفصح من خلاله عن تجربة الغيرة المتأكلة ، فضلاً عمّا تقدّم بشأن الشور ، يوقّع لذلك الأحداث في سياقها السّرديّ الذي ألمنا به قبلاً .

إلا أنّ السرد الوصفيّ الذي يطالعنا في مثل تلك الموضوعات ينطوي على ما يشبه الرّمز الكبير المتكامل في حدود تلك الأحداث . وقد تكون له قيمة شعريّة خاصّة لتعبيره عن معاناة مصيريّة تراود الفاجعة ، دون أن تندحر وتستسلم إليها لنزوع الشاعر فيه منزع التّعبير عن البطولة التي لا تُقهر مهما تألّبت عليها المحن من الطّبيعة والأحياء . غير أنّ السرد ، أياً كان مُبرّره ، يظلّ غير مستساغٍ في الشّعْر لسقوط الشّاعر فيه تحت وطأة المعطيات الخارجيّة .

وقد يكون من الخير أن نظهر بنموذج تطبيقيّ النزعة السردية في وصفه للفحل ونبيّن الخصائص الثّرية التي تصحبها أو تطنّي عليها . فهو يقول ، بعد أن يقرن ناقته بالفحل :

ثمّ تربّع إلبياً ، وقد حميت
منها الدكادك والأكم القرايد
فظل مرتبياً والأخذ قد حميت
وظنّ أن سبيل الأخذ مثمود

فحرف العطف « ثم » عن التدرُّج والتلاحق وهما من طبائع السرد ،
ويدلُّ على أنه يقتضي أثر الأحداث ويعاقب بينها ، مرَّتها لها ، وقلَّما تتَّمثل
التَّجربة الشَّعريَّة وتَسبغُ هذه الأداة اللَّاحقة بالنَّثر في طبيعة دلالتها . وتجرِّي
مجرَّها الواو الحاليَّة وقد التحقِّق ، إذ تنطويان على معنى التَّخصيص والتَّدقيق والتَّنبيه
إلى التَّفاصيل أو رصد الأحوال المصاحبة للحدث ذاته في إطاره الزَّمنيِّ والمكانيِّ .
وذكره لحميان الدِّكادك لا يَنبو عن السِّياق الأنفعاليِّ لأنَّه يعظَّم من شدَّة احتماله
للقيِّظ . إلا أن آفته في أنه يقتضي على خطِّ واقعيِّ . وترد الفاء ، إثرئذ ، في البيِّتِ
الثَّاني لتدلَّ على الاستئناف والتَّدريج ، فضلاً عن الواو الحاليَّة تكرر للتَّخصيص .
وتراه يكمل السرد بالقول :

ثمَّ استمرَّ يُجَارِين ، لا ضَرَعٌ مَهْرٌ ولا ثَلِبٌ أفناه تَعْوِيدُ
إذا انصَمَى حنقاً حاذِرُنَ شدَّته فَهُنَّ من خوفه شتى قراديدُ

وبعد أن تابع السرد بـ « ثم » ، استدرك باداة الشرط « إذا » وهي أداة تحديد وضبط
للشروط التي يقتضيها الحدث .

وربما توسَّل بلمَّا الحينيَّة في مثل قوله :

فلَمَّا علَّوَنَ الأرضَ شَرقيَّ مَعْتَقِ ضَرَحَن الحِصِي الحِصِيَّ كُلَّ مَكَانِ
(٧٢ - ٣٦)

ولما ذرعن الارض تسعين غلوة تمطرت الدماء بالصلتان
(٧٣ - ٣٧)

كأنهما لما استحمًا وأشرفا سليمان من ثوبيهما حردان
(٧٣ - ٣٨)

ولمّا نأى الغاياتُ حدّاً كلاهما فلا ورد إلا دون ما يردانِ

(٧٣ - ٣٨)

لما أتوها بمصباحٍ ومبزلهم سارت إليهم سؤور الأبنجلِ الضاري

(٨٢ - ٤٠)

لما لحقنَ به أنحى بمغوله يملا فرائصه من طعنه العَلَقُ

(١٤٢ - ٢٧)

فلمّا تلوّى في جفافه السّفا وأوجعهُ مركوزه وذوابلهُ

(٢١٩ - ١٤)

وانّا لم نُشر إلى هذه الأداة في مقام السرد إلاّ لما تنطوي عليه من دلالة الزمّنة التي تُضمّر أو تُظنّ قليلاً أو كثيراً من الشرطيّة . فهي من الظروف التي تعلّق بخبرها إذا جاز التعبير أي أنها تقتضيه وتردّ إليه . ففي البيت الأوّل قيد ضروجهن للحصى باعتلائهن لموضع شرقي معنق ، وقد أدّت للشاعر تعيين مكان الحادثة وزمانها ، وان كان هذا الأخير مُبهما . ومثل ذلك التمتطر ، فانه لم يقع إلا بعد أن ذرعن الأرض تسعين غلوة ، واستلاب ثوبيهما إذ لم يراء كذلك إلا بعد ان استحماً بعرقهما . ولا تعدو الأبيات الأخرى هذا الشرط أو ذاك التّعيين ، في شكله الواقعي النَّثري . الا ان الدّارس يُدرك ان الزّمن الخارجيّ المقيّد بحدوده يَسْقَطُ في التجربة الشعريّة المبدعة إذ أنها تنبوع الأحداث في واقعها وتضمحل ، من دونها ، في حلويّة التأمل . وهذه الأداة « لما » هي أداةٌ وعيٍ تقريرية سرديّة لأنّ الشاعر ينصرف فيها إلى ضبط الأحداث وتوقيعها في موقعها ، كأنه يجاريها ويقنفي على أثرها ويتردّى تحت وطأتها . ولهذا الأداة السردية وظيفة أخرى في السياق القصصي ، هي وظيفة التعقيب والمدارحة بين الأحداث تعين ما يتقدّم ويسبق وما يلحق ويلى منها .

وفي مثل ذلك نقول أن التجربة الشعريّة لا تخلو من عنصر الزّمن ، بل ان الزّمن ليحتضنها في رحمه . الا أنه ليس الزّمن الخارجيّ المقيّد بالإحداث بل الزّمن الدّاخلي المتمثّل في نوع من النموّ والنّضج ، وهو لا يتناول الأحداث بل الأحوال النّفسية التي تتوالد بعضها من بعض في إطار الأزمنة النّفسية . لا شك أن تلك الأحوال تتولّد عن بواعث هي في معظمها خارجيّة ، كأن نشاهد الشّاعر في مطلع القصيدة وكأنّه يتردّد تحت وطأة الحيرة أو اليأس . ثم تنمو تجربته ، بتأثير الطوارئ وردّة النّفس عليها ومن خلال اكتشافه لمعانٍ ورموز جديدة للحقيقة ، فنلّفها وقد انبعث فيها الأمل من قلب اليأس والحركة من قلب الجمود والايمن من خلال الاحداث ، أو انها قد تجري في سياق سلبيّ معاكس ، الا أنها لا تقيم على بعد واحد . ذاك هو معنى الزّمن الفنّي في الشّعور ، وهو يتولّد من الطوارئ، لكنّه لا يظهرها ولا يقف عندها بل يتولّى صداها ونتيجتها في النّفس كحركة يتحرّك بها الانفعال . وقد لا نغالي ، إثر ذلك ، بالقول إنّ تردّد الشّاعر على هذه الأداة ، وبخاصة في الفلذات والمقطوعات القصصيّة يتمّ عن نزوعه إلى الخارج واستحضاره الأحداث التي لا تخلو من الدلالة على الغلوّ أو الإيحاء به ، مقيمة حدوداً بين الشّاعر ومشاهدته للأشياء في الرؤيا المتخلّصة من شوائبها وطفيلياتها .

ولقد يُسرفُ الشّاعر ، كذلك ، في التوسّل بالعدد في سياق السّرد . والعدد هو أداةٌ من أدوات الإيضاح الخارجيّ ، بل إنّه سبيل إلى التّعين والتّحديد بما لا لبس ولا تردّد فيه . وهو أكثر نبوّاً من « لما » الحينية لأنّه أكثر تقيّداً بالحدود والقيود ، إذ أن غايته تقتصر على الدقّة في أقصى مداها . فهو رمز للحدّ النّثري ؛ وكنتأ قد قدّمنا ان التجربة المبدعة تأنف من التّعبير عن عالم المقاييس والأحجام والأرقام . والشّعور الكبير لا يابه له ولا يحفل به ويجد فيه وسيلة للغلوّ الرقمي اللّفظي الفاقد الابداع .

من ذلك قوله :

تصاحبُ ضيفي قفّرةٍ يعرفانها : غرابٌ وذئبٌ دائم العسلانِ
(٦٨ - ١١)

أتاني وأهلي بالأزغب أنه تتابع من آل الصريح ثماني
٣٤ - ٧٢

ولما ذرعن الأرض تسعين غلوة تمطرت الدَّهْمَاءُ بالصَّلْتَانِ
٣٥ - ٧٥

كُمْتُ ثلاثة أحوالٍ بطبيعتها حتى إذا صرَّحت من بعد تهذَّارٍ
٣١ - ٨٠

وان لها يومين : يومَ إقامةٍ ويوماً تشكى القضاة من حدِّ الدَّربِ
٢٨ - ١٨٧

خَمْساً وعشرين ثم استذرعت زغباً كأنهن بأعلى لعلِّع رجع
٢٤ - ٢٠٧

ثلاث ليالٍ ، ثم صبَّحْنَ ربةً وخضراً من الوادي رواء أسافلِه

والعدد في البيت الأول أفاد التفصيل ، دون أن يتنبؤ نبؤاً شديداً عن سياق التجربة ، فيما اتَّصَفَ البيت الثاني بالتقرير أو بقليل من الغلو ، إظهاراً لتفوق فرس الممدح إذ أنها لم تَفْزْ على فرس أو فرسين بل على ثمانية . أما البيت الثالث فنقع فيه على ذلك النوع من العدد القياسي ، السَّردي ، المنبوذ في الشعر الذي لا يَسِغُ الأقيسة قط . أما قوله بأنها كُمْتُ ثلاثة أعوام فهو سبيل للغلو في قدمها أفصح عنه في معادلته النَّريَّة ، إذ قاس القدم بالزمن أي بالأعوام التي قضتها الحمرة في الدن . ولعلَّ الشَّاعر لم يُوقِّقَ حتى إلى الغلو إذا ما وُوزِنَ بالمعاني المتداولة في قدم الحمرة . وفي البيت التالي يتأدَّى عن العدد معنى الإطلاق والتعميم إذ قصر حياة الخيل على يومي الرَّاحة والقتال ، والإطلاق هو وَجْهٌ من وَجُوهِ الغلو الذي أدرك أقصى غايته ، دون أن يتصل بالحقيقة أو بالمعاناة الانسانية العاقلة . فهو افتراضي ؛ أما البيت الأخير فقد تألفت فيه غايته التحديد والتعيين ، مظهرة نزوع

الشاعر إلى استحضار مقاييس العالم الخارجي وحدوده . وهكذا ، فإن الشاعر يفيد من السرد العددي إما التحديد والتعيين ، واما الغلو والاطلاق والتعميم في وسائل لا تتمثلها ولا تسيغها التجربة الشعرية .

ولقد انساق الشاعر بنزعه السردية إلى بعض أدوات التفصيل مثل الفاظ : « تارة » ، و « حيناً ، و « طوراً » وما إلى ذلك ، وهي وسائل للايضاح والتدقيق والتفصيل ممّا لا يحفل به الشعر التأملي ، الرائي . من ذلك قوله :

يُبَاعِدُهُ مِنْهُ الْجَنَاحُ ، وَتَارَةً يُرَآوِحُ بَيْنَ الْخَطْوِ وَالْحِجْلَانِ
تَصَدَّعَ ، أحياناً ، وَحِيناً يُصَكِّهَا كَمَا صَكَ دَلْوُ الْمَاتِحِ الرَّحْوَانِ
يَصِيفُ عَنَهُنَّ ، أحياناً ، بِمَنْخَرِهِ فَبِاللِّبَانِ وَبِاللَّيْتَيْنِ تَكْتَدِيدُ
تَمُوتُ طَوْرًا ، وَتَحْيَا فِي أَسْرَتِهَا كَمَا تَقَلَّبُ فِي الرِّيطِ الْمَرَاوِدِ
فَهَنَّ مِنْ بَيْنِ مَتْرُوكٍ بِهِ رَمَقٌ صَرَعِي ، وَآخِرٌ لَمْ يَتْرِكْ بِهِ رَمَقُ
فِي غَمْرَةٍ مِنْ سَحَابِ الْآلِ تَرْفَعُهُمْ يَطْفُونُ فِيهَا ، قَلِيلًا ، ثُمَّ تَنْخَرِقُ

فهذه الأدوات : تارة ، طوراً ، حيناً ، بين ، قليلاً ، ترد كإحدى مستلزمات الاسلوب السردية الذي يعنى ويؤخذ بالدقائق والتفاصيل .

وربما توسل إذا بمعناها الشرطي الزماني الماثور ، وهي توثق علاقة الأحداث بعضاً ببعض ، وتضفي عليها قليلاً أو كثيراً من خصائص التدرج :

إِذَا قُلْتُ قَدْ حَازَيْنَ أَوْ حَانَ نَائِلٌ تَقَاذِفْنَ لِرَّأْيِي الَّذِي كَانَ أَبْعَدَا

٦ - ٨٦

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَلْهَوْ بِبَعْضِ حَدِيثِهَا رَفَعْنَ وَأَنْزَلْنَ الْقَطِينَ الْمَوْلِدَا

٧ - ٨٦

- إذا كاد قلبي يَسْتَبِلُ انبرى له
بِهِنَّ تَكَالِفُ الصَّبَا ، فَرَدَّ دَا
١٢-٨٧
- من اللّواتي إذا لانت عريكتها
كان لها بعده آلٌ ومجلودٌ
٢٣-٩٨
- إذا أرادَ سوى أطهارها امتنعتُ
منه سرايف امثال القنا قودُ
٣٦-١٠٠
- إذا اليعافيرُ في أطلالها لَجَّاتُ
لم تَسْتَطِعْ شأوها المقصومةُ الحُرْدُ
٤-١١٥
- إذا مُعْجَلٌ غادره عند منزل
أُتِيحَ لجوَابِ الفلاةِ كَسُوبِ
٨-١٣٢
- إذا قلت نالتهُ العوالي ، تقاذفتُ
به سَوْحَقُ الرَّجْلينِ ، صابية الصَّدْرِ
١٦-١٥٣
- إذا حَمَلَتْ ماء الصَّرايمِ قَلَّصَتْ
روايا لأطفالٍ بمعمية زُغْبِ
٦-١٨٢
- إذا صخب الهادي عليهنّ برزت
بعيدة ما بين المشافر والعَجَبِ
٨-١٨٣
- إذا طلع العيوق والنجم أوجلتُ
سوالفها بين السَّمَاكينِ والقَلْبِ
١٣-١٨٤
- إذا كَلَّفُوهُنَّ التَّنَائِيَّ لم يَزَلْ
غرابٌ على عوجاء منهنّ أو شعبِ
٢٤-١٨٦

إذا ابتزّها من بطن غيبٍ تكشّفتُ برّوعاته جحشانه وحلائلهُ

٢١ - ٢٢١

وقد أجتزأنا هذه الأبيات اجتزاءً عمماً دونها ، إذ تكاد لا تخلو صفحة من هذه الأداة الملازمة لطبيعة السرد والتي تُعيّن شروط الحدث وتلاحقه أو ترابطه . وهي توثق الصلة بين حدثين في الايجاب والسلب ، تقرّر أحدهما بالنسبة إلى الآخر ، يوقعهما بعضاً ببعض ، وذلك كلّهُ ينزع به منزعاً خارجياً . وإذا نظرنا فيما أدّت هذه الاداة للشاعر نجد أنه أفاد في البيت الأولى التقرير السردى مع بعض الغلو ، وفيما دونه الحينية والمبالغة والتفصيل والافتراض .

ومن الأدوات الجارية هذا المجرى « حتى » الزمنية ، وهي صنو لإذا ولما ، مع تدليل خاص على الانتهاء وادراك أقصى الغاية :

كأنها قاربٌ أقرى حلائله ذات السلاسل حتى أبيض العودُ

٢٦ - ٩٨

حتى إذا علم الاله نكاله وتصاغروا للجري أي صغار

٢٩ - ١١٠

في ذبّل كقداح النبل يعدمها حتى تُنوسيت الأضغانُ واللددُ

١٣ - ١١٦

رعى عنازة حتى صرّ جندُبها وذعد الماء يومُ صاخذ . يعيدُ

١٢ - ١١٦

حتى إذا كان ضوء الصبح يفضحه وكاد عنه سواد الليل يتنطلق

٢٣ - ١٤١

حتى إذا هنّ ورَكْنَ القُضيم ، وقد أشرفنّ أو قلنّ هذا الخندق الحفرُ

١٥ - ١٦٦

حتى هبطن من الوادي لغيبته أرضاً تحلّ بها شيان أو غُبْرُ

١٥ - ١٦٦

رعى العود ماء الرّوض حتى تحسّرتْ عقيقته وانضمّ منه ثمائله

١٣ - ٢١٩

فطال عليه الشدُّ حتى كأنما برى بسواد القلب قرناً يصاله

١٩ - ٢٢٠

وقد يطولُ بنا أمرُ التعداد ، إذا ما عزمنا على إيراد الأبيات التي تتخلّتها « حتى ». وإنما نقتصر على الإشارة إلى أنها ترتبط بالأحداث وبالدلالة على نهاية أحدها وتولّد آخر من دونه . فهي أداة سرديّة مباشرة .

وهكذا قام السرد في شعر الأخطل على الأحداث المتلازمة فيما بينها بالسباق القصصيّ بين عقدة ونهاية ، وفي الأسلوب الملازم لأدوات الايضاح والتحديد والتعيين والتفصيل والحنيّة والنهائيّة ، وما شاكل مما هو ماثور في طبائع السرد . إلا أن القيمة الفنيّة لا تعدم في مثل تلك المقطوعات إذ كان يستبطن الشاعر عبرها بعض الدلالات المصيريّة الفاجعة .

ثانياً : التقرير : يقوم التقرير على إيراد الأفكار ، فيما يقوم السرد على إيراد الأحداث . هو تعبير عمّا يفهم ويتداول في حدود الايضاح والوعي ، وبه يركدُ الإنفعال وتخبو جذوة الخيال . وربما طغى على القصائد ذات المنحى السياسي حيث يكثر الشاعر من إيراد البيّنات والحجج وعرض الآراء الخاصة والعامة ، ودحض آراء الآخرين بما يناقضها . من ذلك قوله :

وَلَقَدْ أَكُونُ لَهْنًا صَاحِبَ لَذَّةٍ حَتَّى تَغْيِرَ حَالَهُنَّ وَحَالِي
فَتَنَكَّرَتْ لِمَا عَلَتْنِي كَبْرَةٌ عِنْدَ الْمَشِيبِ ، وَأَذَتْ بَرِيَالِ
لِمَا رَأَتْ بَدَلَ الشَّبَابِ بَكَتْ لَهُ وَالشَّيْبُ أُرْذَلُ هَذِهِ الْأَبْدَالِ

أو قوله :

لَمْ يَبْقَ مِمَّنْ يَتَّقِي اللَّهَ ، خَالِيًا وَيُطْعِمُ ، إِلَّا خَالِدُ بْنُ أَسِيدِ
سِوَى مَعْشَرٍ لَا يَبْلُغُ الْمَدْحَ فَضْلَهُمْ مَنَاعِشٌ لِلْمَوْلَى ، مَطَاعِمٌ جُودِ

فأنت لو نظرت الى هذه الأبيات لوجدت أنها لا تعدو الأفكار الذهنية المرتبطة
بقليل أو كثير من الملامح الحسية ، يعرضها كما يفهمها ، وقد تعففت فيها ملامح
الخيال ، فلم تقع فيها على الصورة ، كما أن الإنفعال لم يتحرر لذاته عن تشابهه أو
استعارات ، ولم يكند يتكنى بكناية ، بل إنه ساق الأفكار شبه عارية ومباشرة .
وكما كانت الأفعال الدالة على حدث وحركة تغلب على الأبيات السردية ، فإن
الأفعال الدالة على المعاني والأحوال تغلب على الأبيات التقريرية كأفعال تغيير
وتنكرت وأذنت وبكت . أما البيتان الآخران ، فأنهما أدنى الى الحديث العادي ،
بالرغم من نزعة الاطلاق الطاغية عليهما . ذاك ان التقرير يصدر عن العقل الفاهم
والمفهم ، يسوق أفكاره في حدودها الماثورة .

ونقع على كثير من الأبيات التقريرية في المطالع الطللية ، كما في قوله ،
مثلاً :

عَقَا وَاسِطًا مِنْ آلِ رَضْوَى ، فَنَبْتَلِ فَمَجْتَمَعِ الْحَرِّينَ ، فَالْصَبْرُ أَجْمَلُ
فَرَايَةِ السُّكْرَانِ قَفْرًا ، فَمَا لَهُمْ بِهَا شَجٌّ إِلَّا سَلَامٌ وَحَرَمٌ مَلُ
صَحَا الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ ظُعَانِنِ فَاتِنِي بَيْنَ ابْنِ خَلَّاسٍ طَقَيْلٌ وَعَزْهَلُ
أَعَاذَلُ إِلَّا تُقْصِرِي عَنِ مَلَامَتِي أَدَعَكَ وَأَعْمَدُ لَتِي كُنْتُ أَفْعَلُ

فأنت ترى ان الأفكار تطغى على هذه الأبيات ، في ذكر الصفاء والأماكن وما أشبه . ولعلها ترجح بين السرد في ذكر الأماكن والتقرير في ذكر الأفكار ، فيما أسفرت النزعة التقريرية عبر البيت الأخير بنوع من الحوار الدأني من الحديث النثري والقائم على المقدمات الشرطية ونتائجها . فالأخطل لا يشبه ولا يتكفى ، هنا ، وإنما يسوق ما يدركه في ذهنه الواعي وما يتفكر به .

وقد يجري هذا المجرى قوله :

على ابن أبي العاصي قريش تعظفت	وقد جعل الله الخلافة فيكم ...
ولكن رآه الله موضع حقها	على رغم أعداء وصدادة كذب
عتبتم علينا قيس عيلان كلكم	وأبي عدو لم نبتة على عتب
فإن تك حرب ابني نزار توأضعت	فقد عذرتنا من كلاب ومن كعب

ففي الشطرين الأولين يقرر الشاعر المعنى في شكله الذهني المباشر ، ثم إنه يؤدي له بيتاته ، متوسلاً اداة الاستدراك « ولكن » وهي تنطوي على معني النفي والتأكيد ، معاً ، في مجال الرد والنقض والإبانة . ويضعف من وقعها ما ألحقها به من تخصيص بقوله : « على رغم » حيث أفاد الغلو النثري واستكمل المعنى السابق في الإحاطة بوجوه كلها . وإذا كانت مخاطبة قيس عيلان قد سمت عن التقرير المباشر من صيغة الإنشاء التساولي التي ادأها من قلبها ، فإن البيت الأخير يقوم على العرض والنقض بالجدل والنقاش السياسي . وبذلك تبدو الآفة التي تلحقها المعاني السياسية بالسوية الشعرية ، إذ تجعلها مطية للحوار والبرهان والجدل مما لا يشأن ولا طعم شعرياً له .

وقد يمكن أن نصنف هذا المنحى التقريري في ظاهرات ثلاثة ، اولها تبيين فيما يؤديه من خواطر كخلاصة لتجاربه في الحياة والأحياء ، وبخاصة ما كان من أمره مع النساء ، كقوله :

يا قَلَّ خَيْرَ الْغَوَانِي كَيْفَ رُغِنَ بِهِ
أَعْرَضْنَ عَن شَمَطٍ فِي الرَّأْسِ لَاحَ بِهِ
فَهُنَّ يَشْدُونَنِّي مَنِّي بَعْضَ مَعْرِفَةٍ
يَقْلَنَ لَا أَنْتَ بَعْلٌ يُسْتَقَادُ لَهُ
لَنْ يَرْجِعَ الشَّيْبُ شَبَانًا وَلَنْ يَجِدُوا
إِنَّ الشَّبَابَ لِمَحْمُودٍ بِشَاشَتِهِ
فَشْرَبُهُ وَشَلٌّ فِيهِنَّ تَصْرِيدُ
فَهُنَّ مِنْهُ ، إِذَا ابْصَرْنَهُ ، حِيدُ
وَهُنَّ بِالْوُدِّ لَا بِخُلِّ وَلَا جُودُ
وَلَا الشَّبَابُ الَّذِي قَدَفَاتِ مَرْدُودُ
عَدَلَ الشَّبَابِ لَهُمْ ، مَا أَوْرَقَ الْعُودُ
وَالشَّيْبَ مَنْصَرَفٌ عَنْهُ وَمَصْدُودُ

فهناك حديث عن الاعراض والصدء والبخل والجود والحوار والحكمة شبه الذهنية ، وهي أنواع من التقارير الذهنية التي لا تخلو من الإنفعال ، إلا أنه انفعال واعٍ ، جارٍ على حدود الأفكار والمعاني بطاريء من طواريء الزمن . فالشيب ألمٌ به ، وهو يتفكر بما آل إليه حاله مع الغواني إذ انصرفن عنه ، متخلصاً إلى خلاصات واستنتاجات نثرية في قوله ان الشباب يُقبل عليه والشيب يُصد عنه . ومثل هذه التقارير تُقَصِّر عن الحكمة الماثورة عند المتنبئ وتسفُّ إلى الخواطر العارضة الفاقدة البصيرة . ولتقبل على هذه الأبيات في بعض خصائصها الجزئية ، فنجد أنه يُسمِّي الأشياء بأسمائها المباشرة ، كالشَّمَط ، معيناً حدودها بما لا ضرورة له : « في الرأس » ، متخلصاً الى نتيجة مبدولة بذاتها : « فهنَّ منه » ، إذا ابصرنه ، حيدٌ » ولفظة « حيد » تدنو الى فعل « أَعْرَضْنَ » أي أنه استخلص من الشطر الأوَّل معنى يماثله ويكرِّره ، دون غاية أو مبرر .

وينحدر من ذلك الى الحوار الذي يسوق فيه على لسانهنَّ بيِّنات لا شأن لها كالقول إن المرأة تنقاد الى الرَّجُل ، إذا كان بعلاً لها ، أو إذا كانت متيِّمة به لشبابه ، وهنَّ يَصْدَفْنَ عنه لذلك ، أي لأنه ليس بعلاً لهن ولا شاباً يَغْوِيهنَّ . والتقرير تلبس ، هنا ، المنحى التفسيري المعتمد على البدايات العقلية والمعارف والاستنتاجات الشائعة ، موفياً من ذلك الى غاية العقم في قوله تكررراً :

إن الشباب لمحمودٌ بشاشته والشيب مُنصرفٌ عنه ومصدودٌ

ويجري هذا المجرى قوله :

يبرقنَ بالقوم ، حتى يحبطنهمُ
يا قاتلَ اللهُ وصلَ الغانيات إذا
ما يرعوينَ إلى داعٍ لحاجته
ورأيهنَّ ضعيفٌ حين يُختبرُ
أيقنَ نك مِمَّنْ قد زها الكبيرُ
ولا لهنَّ ، إلى ذي شيبة ، وطرُ

أو قوله :

صرمتُ جبالك زينبٌ وقذور
برميينَ بالحدق المراض قلوبنا
وزعمنَ أني قد ذهبتُ عن الصبي
وحالهنَّ ، إذا عقدنَ ، غرور
فغويتهنَّ مكلفٌ ، مغرورُ
ومضى لذلك أعصر ودُهورُ

فالحواطر والأفكار تطغى على هذه الأبيات فيما لا يعدو المعاني السابقة بنوع من التقرير أو الاستنتاج والخلاصة . فهو يقول « إن رأيهنَّ ضعيفٌ » وهو معنى واعٍ خلص إليه من تجاربه وتجاربه سواه في شأنهنَّ . ومع أنه يصدر عن موقف منهنَّ أو رأي فيهنَّ ، فقد غلب عليه العنصرُ الفكريُّ ، الغثُّ ، وزالتُ ، بل تعفَّتْ مبررات الشعر . وفي البيت الثاني يظهر تحسره على وصالهنَّ ، ومؤدَى المعنى أنهنَّ يتخلينَ عمنَ ألمَّ به الكبر ، كما أنهنَّ يُغررنَ به ويخذلنه . وهذه التقارير الفكرية ، قد تكون صادقة المعاناة ، أو قد تنطوي على قليل أو كثير من الحقيقة غير الشعرية .

وربما اتخذ التقرير شكل التعداد الذي يأنف منه الشعر ، دون أن يعرض ذلك في سياقٍ عددي :

وقد سرتني من قيسِ عيلانٍ أنْتِي رأيتُ بني العَجَلانِ سادُوا بني بَدْرِ
ونحنُ رفَعنا عن سَلُولِ رِمَاحِنَا وعمدًا رغبنا عن رِمَاحِ بني نَصْرِ
ولو ببني ذبيانٍ بَلَّتْ رِمَاحُنَا لقرتُ بهم عيني وبآءِ بهم وتري

ثالثاً : النُّعوتُ : يعظم أمر النُّعوتِ في التجارب الشعرية النازعة ممتزعاً وصفيّاً في محاكاة المظاهر ونقلها أو تقرير الأحوال النفسية وتفسيرها. وإذا لم يكن من ضمير في الاجتزاء بقليل منها ، فإن حشدها يتمُّ عن تعمد الشاعر للصيغ اللفظية كأداة للغلوّ والإيهام ، يحدق بالمعنى في كلّ وجه من وجوهه واحتمال من احتمالاته ، متوسلاً الجزئيات والدقائق ، عاجزاً عن النفاذ إلى التعبير المباشر القاطب الذي يُعني بلفظة واحدة عن أي حشد آخر .

وتكثر النعوت في شعر الأخطل خلال وصفه للناقة، وفي قليل أو كثير مما يتعرّض به للثور والحمار الوحشيين ووصف كلاب الصيد ، وما إلى ذلك . يقول في وصف الناقة والثور والصيد :

جماليةً ، غُولَ النَّجاءِ ، كأنّها بنية عَقْرٍ أو قريع هجان
(١٧-٦٨)
بذي حُصَلٍ سَبَطِ العَسِيبِ كأنّته على الحاذِ والأنساءِ غُصْنُ إهانِ
(١٩-٦٩)
ومَهْمَهٍ طامِسٍ تُخَشَى غَوائِلُهُ قَطَعَتْهُ بَكْلَوءِ العَيْنِ ، مِسْهَارِ
(٧-٧٥)
أخت الفلاة ، إذا شُدَّتْ معاقدها زلّتْ قوى النَّسْعِ ، عن كبداءِ ، مِسْفارِ
(٨-٧٥)
أو مُقْفِرٍ خاضِبُ الأظلافِ ، جادَ له غَيْثُ تَظَاهِرِ في مِشاءِ مِبْكارِ
(٩-٧٥)

- هل تُبْلِغِنِّي زَيْدًا ذَاتُ مَعْجَمَةٍ ۚ
كأنتها صَخْرَةٌ، صَمَاءٌ، صِيخُودٌ
(٢٣-٩٨)
- يَلْفَحُهُنَّ حَرُورٌ كُلُّ هَاجِرَةٍ ۚ
فكلَّها نَقَبِ الْأَخْفَاقِ مَجْهُودٌ
(٢٣-٩٨)
- طاوي المَعَا، لَاحَةُ التَّعْدَاءِ صِيْفَتُهُ
كَأَنَّمَا هُوَ فِي آثَارِهَا سِيدٌ
(٣٠-٩٩)
- ضَخَمَ الْمَلَاطِينَ، مَوَارُ الضُّحَى، هَزَجٌ
كَأَنَّ زَيْرَتَهُ فِي الْآلِ عَنقُودٌ
(٣١-٩٩)
- أَمْسَتْ مُنَاهَا بِأَرْضٍ مَا تُبْلِغُهَا
بِصَاحِبِ الْهَمِّ إِلَّا الْجَمْرَةَ الْأَجْدُ
(٧-١١٠)
- كَأَنَّهَا وَاضِحُ الْإِقْرَابِ، أَفْرَعُهُ
غَضْفٌ نَوَاحِلُ فِي أَعْنَاقِهَا الْقِدَادُ
(٩-١١٦)
- دَسَمَ الْعِمَامُ، مَسَحَ، لَا لُحُومَ لَهِمْ
إِذَا أَحْسَوْا بِشَخْصٍ نَابِيٍّ، لَبَدُوا
(١٦-١١٧)
- عَلَى شَرَائِعِهَا غَرْنَانٌ مُرْتَقِيْبٌ
أَبْصَارَهَا، خَائِفٌ إِدْبَارَهَا، كَمِدٌ
(١٢-١١٧)
- مَسَانِفٌ يَطْوِيهَا مَعَ الْقَيْظِ وَالسُّرَى
تَكَالِيفُ طَلَّاعِ النَّجَادِ، رَكُوبٌ
(١٠-١٣٢)
- عَلَى مَذْكَرَةٍ، تَرْمِي الْفُرُوجَ بِهَا
غُولِ النَّجَاءِ، إِذَا مَا اسْتَعْجَلَ الْعَنْقُ
(١٥-١٣٩)
- كَأَنَّهَا، بَعْدَ ضَمِّ السِّيْرِ جَبَلْتَهَا
مِنْ وَحْشٍ وَجْرَةٍ، مَوْشِي الشَّوَى، لَهْقٌ
(١٨-١٤٠)
- هَاجَتْ بِهِ ذُبُلٌ مَسَحَ جَوَاعِرَهَا
كَأَنَّهَا مِنْ نَبْعِيَّةٍ شَقَقَ
(٢٤-١٤١)

ونحصى فيما يلي النعوت فإذا هي :

جمالية - غول - قريع - هجان - طامس - سبط - ككؤء - مسهار -
أخت الغلاة - كبداء - مسفار - مقفر - خاضب - ميثاء - مبكار - ذات معجمة -
صمءاء - صيخود - حرور - نقب - مجهود - طاوي - ضخم - موآر -
هزج - الجسرة - الأجد - غضف - نواحل - دسم - مسح - غرثان - مرتقب -
خائف - كمد - مسانيف - طلاع - ركوب - مذكرة - غول ، موشي -
لهق - ذبئل .

وإذا أردنا أن نحصى ما دون ذلك من نعوت في الديوان ، لطل بنا الأمر
وضاق علينا المجال ، وانما اجتزأنا بذلك لغاية التمثيل . ويبن من ذلك كئلته
ان الشاعر توسل هذه النعوت اداةً للتحديد الذي يفيد منه الغلو . فالناقة الجمالية ،
مثلاً ، أي ان نسبتها الى الحمل أفادتها معنى القوة ، وغول النجاء ضاعف من معنى
السرعة وجعلتها تدرك أقصى غايته . وقد تكون هذه النعوت ذات طابع تقريرى ،
يُذعن فيها الشاعر للمظاهر ، فيحكيها باللفظ ، بعد أن يشتط به عن الانفعال
كقوله في وصف ذنبها بأنه « ذو خصل سبط » ، مما لا شأن له في الدلالة على
قوتها أو سرعتها ، وان كان يدل على جمالها ، بخلاف ذلك النعوت ذات الصيغ
المطبوعة على الغاء بطبيعتها كوزني « فعول » و « مفعال » في قوله : « كلوء
ومسهار » . وساتان الصيغتان تمنان عن الغلو في حدود لفظية صرفة خالصة .
وقد تولد النعت لديه بنوع من النسبة الخاصة : « أخت الفلاة » . أي أنها
دأبت على السير فيها ، وقد استبطن عبرها ما يشبه الكناية . إلا أن النزعة الغالبة
تظهر في النعوت ذات الصيغ الاشتقاقية : كبداء - مسفار - ميثاء - مبكار -
صيخود - نقب - موآر - هزج - غرثان - أي أوزان فعلاء - مفعال -
فيُعول - فعيل - فعّال - فعّلان - وهي أعمق الأوزان انطواءً على الغلو
بذاتها . وتراه يعمد ، حيناً آخر ، إلى النعوت في صيغ الجمع : غضف -
نواحل - دسم - مسح - مسانيف - ذبئل - اي أوزان فُعّل - مفاعل -
مفاعيل - فُعّل - وقد وردت في أصل اللغة حاملة معنى المبالغة والحشد والكثرة .

وحشد النعوت لا يقتصر على أوصاف الناقة والثور وما إليهما ، بل إنه ليُطالِعنا في وصفه للمرأة . كما قدّمنا ، وكما نجد في قوله :

أَسِيلَةٌ مَجْرَى الدَّمْعِ ، أَمَّا وَشَاحِهَا فَجَارٍ ، وَأَمَّا الحِجْلُ ، مِنْهَا فَمَا يَجْرِي
تَمُوتُ وَنَحْيَا بِالضَّجِيعِ وَتَلْتَوِي بِمُطَرِّدِ المُنْتَنِينِ . مُنْتَبِرِ الحِصْرِ

وإذا ما عدنا الى خمرياته نجد ان قوام الوصف يقوم فيها على النعوت ، وبعض الأحداث . لذلك نقول ان النعت الحسيّ . الماديّ ، المكنيّ هو المعتمد الأول لشعر الأخطل الوصفي .

وفي المدائح تكثر . غالباً ، النعوت المعنويّة الدالّة على الفضائل والقيم في صيغ تماثل صيغ النعوت الحسيّة :

إلى مُسْتَقْبَلٍ بِالنَّوَابِ ، وَاصِلٍ قِرَابَةٌ فَيَاضُ العِطَاءُ ، وَهُوَبِ
رَبِيعٍ لِهَلَاكِ الحِجَازِ ، إِذَا ارْتَمَتِ رِيَاحُ الشَّرِيَّاتِ مِنْ صَبَاً وَجَسْتَسُوبِ
حَبَانِي بِطَرْفِ أَعُوجِيٍّ وَقَيِّنَسَةِ مِنْ البَرَبَرِيَّاتِ الحِصَانِ . لَعُوبِ
وَحَمَالُ أَثْقَالِ ، وَفَرَّاجِ غَمْرَةٍ وَعَعِيْتُ لِمَجْلُومِ السَّوَامِ . حَرِيبِ
كَرِيمِ مَنَاحِ الضَّيْفِ ، لَا عَاتِمِ القَرَى وَلَا عِنْدَ أَطْرَافِ القَنَا بَهَبُوبِ
كَثِيرِ بَكْفِيهِ النَّدى حِينَ يُعْتَرَى عَشِيَّةً لَا جَافٍ وَلَا بَعْضُوبِ
عُرُوفٍ لِحَقِّ السَّائِلِينَ ، كَأَنَّهُ لَعَقَرِ المَتَالِي . طَالِبِ بَدَنُوبِ
إِلَى امْرِيٍّ لَا تَخْطَاهُ الرِّفَاقُ وَلَا جَدْبِ الحِيَوَانِ . إِذَا مَا اسْتَبْطِءَ المَرَقُ
صُلْبِ الحِيَازِيمِ ، لَا هَدْرِ الكَلَامِ ، إِذَا هَزَّتْ القَنَاةَ وَلَا مُسْتَعَجَلِ . زَهِقُ
والمُسْتَقْلَ بِأَمْرٍ مَا يَقُومُ لَهُ غُسٌّ مِنَ القَوْمِ ، رَعْدِيدِ ، وَلَا فَرِيقُ
مُوطَأُ البَيْتِ ، مُحَمَّدِ شَمَائِلِهِ عِنْدَ الحِمَالَةِ . لَا كَنْزٌ وَلَا وَعِيْتُ

وفي هذه الأبيات يُمكن أن نُحصي النعوت المعنويّة التّالية :

مستقلّ - واصل - فيّاض - وهوب - هلاك - حصان - لَعُوب - حمّال -
فَرّاج - مَجْلُوم - حريب - كريم - عاتم - هَبُوب - كثير - جافٍ -
غضوب - عروف - السّائلين - طالب .

وقد جرت على الأوزان التّالية :

مستفعل - فاعل - فعّال - فعول - فعّال - مفعول - فعيّل . وهي صيغ
غلوّ ، لكنها لا تبلغ فيه إلى حدود الصّيغ السّابقة ، والنعوت الجارية عليها تبدو
غالباً ، تجريديةً باهتة ، بالرّغم من شدّة الصّيغ الّتي أُجريت فيها ، وهي رمز
لغلبة النزعة التقريرية الواعية .

رابعاً : الجمل الانشائية : جاءت صيغ الانشاء في اللّغة كأداة للتعبير عن بعض
الانفعالات المترجحة بين الدهشة والتعجب والتأكيد والتساؤل والأمر وما إلى
ذلك . وفضلتها في أنها تُخرج العبارة عن سياق الرّثابة المتكرّر ، المأثور وتنفّح
فيها بحركة الحياة وتبثّ بها حرارة وعصباً . وإذ كان الأخطل ممّن يتعمّدون
جلال التعبير ووقاره فانه لم ينصرف إلى هذه التّعابير الا في فلذات قليلة بالنسبة
إلى ما دونها .

اولا : الاستفتاح والنداء :

وهو يتوسّل بهما ، غالباً ، في مطالع القصائد وفي الخطاب المباشر ، كما أنه قد
يُلحّف بهما ، تديلاً على الغلوّ والالحاح . من ذلك قوله :

ألا يا اسلما على التّمّادم والبلى بدومة خببتِ أيّها الطّلّان
خليليّ ليس الرأي أن تدراني بدويّة يعوي بها الصّديانِ

أبا خالد دافعتني عني عظمة
يا ابن القريعين لولا أن سيهم
وأدركت لحمي قبل أن يتبددا
قد عميت لم يجيني داعياً أحداً
إذا هرت الضيفان كل ضجور
أخالد إياكم يرى الضيف أهله
ولا كلبكم للمعتني بعمور
أخالد أعلى الناس بيتاً وموطناً
أغشنا بسيب عن عطاك غزير

وإذا كان للنداء أداءً واحداً متماثلاً ، فإن الشاعر يوقعه في نوع من التوقيع الذي يضمني عليه لوناً نفسياً معيناً . ففي البيت الأول جمع أداتي نداء مع أداة استفتاح ، مجسداً الأجواء التقليدية للاستهلال بمخاطبة الطلل ومناجاته . أما عبارة النداء : « خليلي » فهي عريقة في القدم ، جارية في سنة الغنائية . أما مخاطبته لأبي خالد ، فقد نحى فيها منحى الحديث والنداء المباشرين ، بخلاف العبارة المتكررة ثلاثاً « أخالد » حيث أفاد منها معنى الاحفاف والرجاء .

وقد يتوسل صيغة الاستفهام المنطوي على معنى التعجب والدّهشة كقوله :

وكيف يدواني الطيب من الجوى
وبرة عند الأعور بن بيان
أنجعل بطناً مننن الرياح ، مقفراً
على بطن خود دائم الحفقان

أو الأمر والتحضيز :

فهلأ زجرت الطير ليلته جثته
بضيفة بين النجم والديبران
أعنتي ، أمير المؤمنين ، بنائل
وحسن عطاء ليس بالريث النزر
إلى امرئ لا تعدنا نوافله
أظفره الله ، فلهناً له الظفر
فعليك بالحجاج لا تعدل به
أحداً إذا نزلت عليك أمور

فلا تَجْعَلْنِي يا بن مروان كأمريءِ غَلَّتْ في هوى ابن الزبير مراجلُهُ
 فلا تُطْعَمن لحمي الأعادي إنّه سريعٌ إليكم مَكْرُها ونمِيمُها
 فسائلُ بني مروان ما بال ذمّةٍ وحبيلٍ ضَعيفٍ لا يزالُ يُوَصِّلُ

وقد تلونت صيغ الأمر بمعاني متعددة . فالبيت الأول ينطوي على معنى الدهشة والتعجب وفيما يليه معنى الرجاء والالحاف فمعنى التمني ، فالتنصح فالطلب فالخيرة . ومع ان صيغة الأمر تتخذ دلالة خاصة من ذاتها ، فإن الشاعر نزع فيها منزعا إبداعيا وبث فيها من انفعاله . بحيث لم تجر على وتيرة واحدة . وقد كان تلوثها بلون الانفعال لطيفاً . خفراً ، في نوع من الحركة الضمنية المكتومة التي تؤثر على وجدان القارئ دون أن تثيره .

ويدنو من الأمر المباشر الأمر باللام المضاعف للدلالة في نون التوكيد الصمّاء :

لأُحِبِّرُن لابنِ الخليفةِ مِدْحَةً ولأُقَدِّفَنَ بها إلى الأُمصَارِ
 لأُعْلِغِلِنُ إلى كريمِ مِدْحَةٍ ولأثْنينَ بنائِلِ وفعالِ
 فأُجْعَلِنَ بني كَلِيبِ شُهْرَةً بعوارمِ ذَهَبَتِ مع القُفَّالِ
 فلا تُخْلِنَنَ الظَّنَّ إنكُ والتدَى حلينا صفاءِ في مَجَلِّ قِيامِ

وبينما نمت هذه الصيغة ، في المطلع ، على التأکید والعزم ، مال بها الشاعر ، من بعد ، إلى التهديد . فالترجي . وذلك يسوقنا إلى الاعتقاد بأن الأخطل لا يكمل أمر التعبير إلى الأداء المباشر ، بل يتصرف به تصرفاً خاصاً وان كان مستمداً من الصيغ الصرفية العامة . الا ان ذلك كله لا يحرك العبارة الأخطلية العامة القائمة على الاسلوب المباشر الجاري على الحمل الفعلية والاسمية وما يلحق بها من قيود .

خامساً : التشبيه : وقد يكون التشبيه اكثر الأساليب البلاغية تداولاً بين

الشعراء الجاهليين والامويين الذين يقتفون على آثارهم . وآية هذا الاسلوب أنه سبيل إلى تأدية الغلو ونقل السور الانفعالية بواسطة المقارنة والاستتاج ، متخذاً صفة أو حالة أو ظاهرة عبر معاناته لها وانفعاله بها ، بحيث يشعر أن في نفسه منها أكثر مما في نفوس الناس أو فيما جرى عليه العرف أو دأب عليه التقليد . فالشاعر قد يفعل ، مثلاً ، بسرعة فرسه ، وتراه ينعتها بنعتها المباشر فيقول أنها سريعة ، لكنه يشعر ان ما قاله لا يفي بغرضه وان في نفسه أكثر مما نقله في تلك العبارة . فيحاول أن ينهض ويسمو بهذه الفكرة إلى ذروتها في مقابلتها بما يُضفي عليها عنصر السرعة كأن يقول :

مكراً ، مفرّاً ، مُقبِل ، مدبرٍ معاً كجلمود صخر حطّه السيّل من علّ

ففي الشطر الأوّل سما بالسرعة عن معناها التجريدي الذّهني ، إذ مثل الفرس مقبلاً ، مكتنّباً عليها بالمشاهد التي تتحتّمق فيها . أما في الشطر الثاني ، فإنّه عظم من أمر السرعة من مقارنتها بالصخر القوي المتحدّر في السيّل ، ومنظر الجلمود المتقاذف المتدافع في السيّل يجمع معنى القوّة ويوهم بمثل ذلك بشأن الفرس . هكذا يحوّل الشاعر ظاهرة إلى أخرى أشهر منها ، متفطناً إلى رموز المظاهر ودلائلها الظاهرة والمضمرة . فامرء القيس لم يقرن قوة فرسه وسرعته بالجلمود المنحدّر الا بعد ان شاهد ذلك المشهد وتروّع به وتفطن إلى ما ينطوي عليه بذاته من دلالة القوّة والعنف . هذه هي نقطة انطلاق التشبيه ، يرفع عنصراً بالغلو النفسي إلى عنصر آخر هو أسمى منه في حدود الواقع ، وذاك هو وجه الافصاح والابلاغ . والتشبيه أرقى من التقرير بالأفكار ، والسرد بالحوادث ، والوصف بالنعوت لأنّه يُبقي على قليل أو كثير من سور الإنفعال ، إلا أنّه يظلّ مقصراً ، مُتتعتعاً ، مخدولاً ، إذ لا يبلّغ الإنفعال فيه أقصى غايته ولا يطغى على ما دونه ويستحلّه ويفرض عليه يقينه ، كما أن الحقيقة لا تتصل ولا تتحدّ فيه ، بل إنّها تنشط وتنفصم وتتقابل دون أن تلتئم . ففي قول امرء القيس إن فرسه ، في كرهه وفره ، شبيه بالجلمود في تدافعه ، عبر السيّل ، لا نعر على حقيقة فعلية جديدة ،

بل على ضرب من المماثلة والافتراض والمقارنة ، فيما أقامت الفرس على حدودها وطبيعتها ، منفصلة عن الجلمود والسيئل . فالعلاقة إيهامية ، إيحائية أكثر منها فعلية . فهل ان في الفرس المتدافع بعدوه شيئاً من الجلمود المتدافع بسيئله ؟ لا شك ان ثمة مماثلة في ذلك ، إلا أنها مماثلة صمَاء ، تنقل المعنى من ظاهرة إلى أخرى وتعيده إلى ذاته ولا تُفصح فيه عن أي شيء آخر . فهو لم يفترع معنى السرعة ، لم يكشفه لنا ولم يؤدّه في تخوم أنأى وأعمق من الظاهر المبذول . ذاك أن الشاعر ظل في حدود الحواس ولم يستبطن من دونها حدقةً أخرى تستحضر ضمير المعنى وتدعنا نفطن منه إلى ما يقصّر عنه في العرف المتداول ، المبدول . ويحاول الشاعر أن ينهض عن ذلك إلى أقصى من حدود التشبيه ، فتراه يوحد بين ظاهرة وسواها ، يعزو ما لإحدهما إلى الأخرى كما ترى في قول امرئ القيس واصفاً الليل :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْنَجَازًا وَتَاءَ بِكَلِّكَالِ

حيث وحد بين الليل الذي يهبط والجمل الذي يُناخ ، مبصراً الليل وكأنه يتناول بصلبهِ ويقعبي بمؤخرته وينوء بصدرة . وآية الصورة هنا أنها تولدت في حدود الخيال المبصر الرائي ، متجاوزاً عن العقل والحس اللذين لا يقرآن هذه النسبة . وذاك يعني ان انفعال الشاعر بات أعمق وأشدّ سيطرةً بحيث استحلّ المظاهر الأخرى وأخضعها لمنطقه واستحضرها بخياله ، مبصراً ما لا يبصر في حدقة الحس وان كان يبصر في حدقة النفس ؛ نقول في مثل ذلك إن الاستعارة الانفعالية الخيالية هي أرقى فنياً من التشبيه لأن الأنفعال يستبيح ما دونه فيها ويعفّي عليه ويقيم من دونه . ومع ذلك كُله ، فان الشاعر لبث على حدود المشاهدة ، وإن كانت قد ارتدت طابع الخيال التائي . لذلك ينهد بعض الشعراء إلى ما هو أنأى من التشبيه والاستعارة ، جميعاً ، إلى الرمز وهو يخالف التشبيه في أنه لا يقوم على المماثلة والافتراض والمقاربة ، كما أنه يتفق مع الاستعارة في البعد الخيالي والتوحد المطلق بين ماهيتي الظاهرتين ، إلا أنه يوحد ما تعجز عنه الاستعارة أي ما بين النفس والحس ، يبصر الانفعال وكأنه قائم قياماً فعلياً في الحواس

ويستطلع من المظاهر الحسيّة معاناة نفسيّة غير مبذولة في عالم الحواس . ولقد خطر امرؤ القيس ذاته بمثل ذلك في لمحة عابرة ، متخطّفة كقوله :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

ففي الشطر الأوّل يُوحّد الشّاعر بين اللَّيْلِ في ظلامه والحِمْيَةِ في سدولها ويَنسَب ما للثانية إلى الأول في نوع من التوحيد المُطلَق بينهما . إلا أنه استطلع في الشّطر الثّاني معنى الهموم عبر سدول اللَّيْلِ ، أي حالة نفسيّة عبر المظاهر الحسيّة ، مبصراً الهموم منسدلة على أفق نفسه كما ينسدل الظلام على أفق اللَّيْلِ . هنا عرف الشّاعر شيئاً من الرمز ، وهو أرقى من التّشبيه والاستعارة ، جميعاً . وللرمز حدود ومظاهر أخرى لا مجال لبذلها ، الآن ، وإنما نقتصر من ذلك على القول ان الرّمز لا يكشف الحقيقة بالمشابهة ، بل بالرؤيا أي بمشاهدتها مشاهدة فعليّة في رحم الأشياء والنفس .

ويمكن أن نضيف إلى هذه المستويات الفنيّة المتباينة الكناية وهي تدنو من التشبيه دون أن تتخذ شكله ، كأن يتكّنّى الشّاعر عن الضيافة والكرم بالنار المتوقدة والقذور الملامى بالأسنمة ، أو أن يغالي بذلك في توقيع الضيافة حينما تقسو الطّبيعة ويشتدّ الصّقيع وتعصف الرّيح بأكناف البيوت . وبذلك تكون الكناية نوعاً من الاستحضار الحسيّ للمعنى في حدوده المكانية والزّمانية أو في إطار الأحداث التي يواقعها أو يقع فيها .

والناظر في شعر الأخطل من هذا القبيل يجد أن الشّاعر أفاد فيه من خبرته الحسيّة في واقع الأشياء عبر الأشخاص وفي حدود الطبيعة ، مقتصرأ من ذلك على حدود التّشبيه على أنواع ومستويات متباينة والكنايات—وهي أكثر حشداً من سواها—وقليل أو كثير من الاستعارات ، دون أن يدرك حدّ الرّمز لتعقّب النزعة الرّوحيّة الخالصة من تجاربه ولضعف الخيال المبدع فيها .

يتوسّل الأخطل التّشبيه لغايات متباينة أهمّها الغلوّ والمحاكاة والتّمثيل والتّفصيل ، وإن لم تكن بين هذه المنازع حدود حاسمة ، واضحة .

أ - تشبيه الغلو : وهو يقوم على مقارنة ظاهرة بأخرى ، تسمو بمعناها وتوفي منه إلى أقصى غايته . مثال ذلك قوله :

جمالية ، غول التجاء . كأنها
 أنسنَ صوتَ قنيصٍ إذ أحسَّ بهم
 كالجَنِّ يَهفون من جرمٍ وأعمارٍ
 مستشرف ، قد رماه النَّاسُ كلَّهم
 كأنَّه من سموم الصَّيفِ سُفُودُ
 زاد الضراءَ بروقيه وكرَّ كما
 ذاد الكتيبة عنه الرَّامح النَّجدُ
 على جهلة الوادي بطون حمير
 وقتلى بني رعل كان بطونها
 حاجت به ذُبُلٌ مسح جواعرها
 كأنما هي من نبيعة شقَّتْ
 فيصبح كالحفاش بذلك عينه
 فقَبَّح من وجه لثيم ومن حجر

فأنت لو نظرت في هذه التشابيه لألفيت ان المظاهر تتقابل فيها وتسمو إحداها بالأخرى من تفتن الشاعر إلى المضامين المعنوية للمظاهر الحسية . فهو إذ يُشبهه ناقته بالحصن أو بالفحل يُفصح ، من جهة ، عن قوتها وصلابتها ، ومن جهة ثانية عن تفتنه إلى المعاني المتمثلة أو المتجسدة في الحصن القوي أو في الفحل . لقد وقف أمام الحصن وقفة التأمل . المتنصت لوقعه في الوجدان ، فابصر فيه ظاهرة من ظواهر التماسك والصلابة في الطبيعة ، وقد وقع ذلك في وجدانه موقع الفتنة ، حتى إذا شاهد الناقة وأخذ بقوتها تواردت في ذهنه صورة الحصن ، فقرن بينهما وأفاد من الثاني تعظيماً للأوّل . في مثل ذلك نقول إنّه وفّق في تأدية سورة الغلو بالانفعال إذ ساوى بينه وبين ما يفوقه في الدلالة على معنى القوّة والصلابة .

الا ان للقوّة معنى كامناً في داخلها . وهو يتباين فيها عما يطالعنا منها . والشاعر ضاعف من شدتها ومثلها بصورة أخرى ، لكنّه لم يُفصح عنها ، فكان ظاهرة القوّة ما زالت مطروحة أمامنا في حدود الحواس القاصرة والعقل الثابت المقيم على معنى واحد ، متكرّر .

أما في البيت الثاني فإن الغلو لا يتخذ شكلاً محدوداً ، تام الوضوح ، كما في البيت السابق ، إذ أنه قرن الكلاب ، في هرعها ووثوبها الشديد ، بالجن . والمقارنة تفيد السرعة والظفرة من كل صوب وتكثّر الأنياب وتهدّل الأذان ، وما إلى ذلك ممّا تمثّله عبر هذه المقارنة . وقد نتمادى في ذلك فنقرن بين الكلاب والجن في القدرة على مواجهة الشرّ والالتزام بجانبه ، ممّا يمدُّ في أبعاد التشبيه ويُعمّق معاناة الشّاعر فيه . وحتى الآن ما زلنا نجد الأخطل يأنف من التشبيه المتبدّل ، المقتبس عن الملاحظات العامية الدّانيّة ، وإن كانت مُقارنته النّاقّة بالحصن لا تنطوي على خلق أو بعد في الرؤيا الحسيّة . ومع ذلك كلّهُ ، فإن التشبيه لا ينطوي لديه على أبعادٍ حسيّة وعقليّة ، تقتضي قليلاً أو كثيراً من التأمل والكد . فهل ان مقارنة الكلاب بالجن مستفادة من البدهة والعمق والعمق والعمق أم أنها اقتضت بعض الجهد لإدراكها ؟ يخيل إلينا أنها ترجّح بين العمق والعمق والعمق إذ ان مقارنة الغرابة والضرارة والقبح بالجن جارية على ألسنة النّاس ، غالباً . ثم إننا لتساءل إذا كان الشّاعر قد أدرك غايته من الافصاح في ذلك ، فنقول إنه أدرك أبعاداً كثيرة منها لان نسبة الكلاب إلى الجن سمّت بتلك البهائم ، أو بما أراد أن يبرزه فيها إلى غايته القصوى ، وان كان الشّاعر ما زال يصدر عن الموقف الوصفيّ .

وقد نعتّر على تشبيهه تعظم فيه نسبة الابداع إذ يكفّ فيه عن النّقل والمقابلة بين الجزئيّات والدّقائق ، وقيم على التماثل في الوقع النفسيّ كما بدا في البيت الثالث حيث قرن بين ذلك المرء المنبوذ ، المضطهد ، الذي أكلته الفيافي والهجرة ، فبدا وكأنّه سفودٌ من الهزّال والضّمور . وانك إذا أمعنت في المقارنة لم تتعّ فيها على مشابهة حسيّة دقيقة تستقيم على مظاهر ملموسة . ذاك أن الشّاعر أفاد هنا ، أيضاً ، من خبرته الحسيّة النفسية في معنى الأشياء ، إذ طالما شاهد السّفود ، فطالعه فيه سورة العري المطلق والهزال العميم ، والدقّة . وهو إذ اندهش وانفعل بهزال ذلك المرء خطرت له صورة السّفود العاري ، الهزيل ، فقرنه بها من تماثل وقعهما في النّفس . فالأخطل كسائر الجاهلين والأمويين يقتبس من تجاربه في العالم العمليّ الذي يُعايشه ويتواق معه في كل غداة ، ينفع به

ويتمثلهُ ويختزن من تجاربه . وسوف نرى خلال دراستنا للكناية في شعره أنه لم يكد يدع ظاهرة من مظاهر الطبيعة أو حركة من حركات الأحياء والأشياء ، دون أن يولجها في تجربته ، ليجسّد بها معانيه . وحتى الآن وقعنا على الحصن ، وهو من الطبيعة الميتة، والفحل، وهو من الطبيعة الحيّة، والخنّ، وهي من طبيعة خاصة يقول القرآن إنها من نار، والسّفود، وهو من الطّبيّعة الجامدة . ذلك ان المظاهر لم تكن تُقيم وحسب في ناظره وسائر حواسه بل تغور في نفسه وترفدها بتلك الثّقافة الحسيّة العميقة .

وربّما سما الشّاعر بالمعاناة وأناط بها بعداً إنسانياً في مثل مقارنته للشّور، وهو يطعن الكلاب بروّقيه، بالمقاتل الباسل الذي يَطْعَنُ الكتيبة ويردّها عنه . والصّورة التشبيهيّة أفادت الغلوّ هنا بمهارة الشّور وقوّته ، ممثّلة مشهداً من مشاهد الدّفاع عن النّفس وتنازع البقاء . ولقد طالما شاهد الأخطل المقاتلين يذودون ويطعنون ، وخيل إليه اذ شاهد الشّور ان سنّة القتال مأثورة في البهائم العجماء ، كما في الأحياء ، فقرن أحدهما بالآخر عازياً إلى الشّور صفة إنسانيّة ملازمة . ومع ذلك ، فإننا لا نزال نقول إنّ المقارنة سمت بقوة الشّور ومهارته ، لكنها ظلّت قاصرة عن افتراع احشائها المقلّدة . فنحن ، إزاءها ، أشدّ انفعالاً بالقوّة ، ولكننا لسنا أعمق فهماً لمعناها القوّة، لقد عظم سورة المشاهدة ، لكنّه عجز عن تأويلها وربطها بجذور وجوديّة انسانيّة متّصلة بحقائق الوجود الدّائمة ، المكتومة . والشعر ، من بعد ، ليس نقلاً للأشياء ومحاكاة لها وغلوّاً بمظهرها ومعناها ، بل إنّه استكشاف لحقائقها المضمّرة ، للغيب القابع وراءها ، وللمعرفة التي لا تُعرف ، بل تُشاهد وتُستحضر وتُعاني . وقد يكون الصّواب في ذلك أن الأخطل أدرك التّعبير عن الأشياء في الحدود التي عرفها المستوى الشّعوري والنّفسي في عصره ، وان كان بعض الشّعر الأوّل تجاوزها إلى الرّؤيا المتّصلة بغيب النّفس .

أمّا في البيت الخامس حيثُ شبه بطون القتلى من بني رعل ببطون الحمير ، فقد أضمر معنى من خلال ما أظهر ، فجاء وقع التشبيه مضاعفاً بين البطون المنتفخة

في العراء والتي لم تُؤارَ - فكان الدَّلَّ لاحقاً بها حتى إلى ما بعد الموت - ومن مقارنة بني رعل بالحَمير . وهنا ألمٌ بنوع من الغلوِّ الانحداريِّ ، إذا جاز التَّعبير ، فيما كان غلوّاً تصاعدياً بمقارنة الثور والمحارب . الانفعال ، هنا ، هو انفعال زراية واحتقار ، جسده الشَّاعر من خلال المشاهد المزرية ، المُبَدولة في الطَّبيعة . ومثل ذلك الخفَّاش في الدَّلالة على الهزال والتبج . هكذا يَحشد الأخطل مظاهر الطبيعة من جمادٍ ونباتٍ وحيوان ، عازلاً منها دلالتها الأظهر لينفج بما يعيه ويعانيه سور من الغلوِّ حيث تَطفر الأشياء من حدودها المقرَّرة ، الرُّبَّية .

ب - تشبيه محاكاة : قلنا إن الأخطل توسَّل التشبيه ، فيما تقدَّم ، للسموِّ بالأشياء إلى ما هو أنأى من ذاتها ، أو إلى مثالها الذي يَفوقُ طبيعتها . إلا أنَّه يركن ، أحياناً ، إلى حدود الأشياء وحتميتها ، فيتروَّض بالمعارضة بيَّنها ، مقتصرأ على حدود المحاكاة والتقليد ، مقيماً نوعاً من المعادلات الحسية أو الذهنية . من ذلك قوله :

بذي خُصَل ، سبط العَسيبِ ، كأنَّه	على الحاذ والأنساء ، غُصنُ إهانِ
كأنَّه ، إذا أضاء البرقُ بهجته	في أصفهانية أو مصطلي نار
أدبرت منه عجالاً ، وقع أكرعها	كما تساقط تحت الغيبة البردُ
والمشرفية أشباه البروق لها	في كُلبٍ جُمجمة أو بيضة خدرُ
وهنَّ بنا عوجٌ كأن عيونها	بقايا قلاتٍ قلصت لنضوبِ
ويبداء محال كان نعاما	بأرجائها القصوى أباعرُ همَلُ
ملاعب جنانٍ كان ترابها	إذا اطردت فيه الرياحُ مغرَبَلُ
مُدحٌ كأن البرق في حجراته	مصايحُ أو أقراب بلقٍ تُجفَلُ

فأنت لو نظرت في هذه التشابيه لوجدت ان سورة الغلوِّ انحسرت فيها قليلاً أو كثيراً ، فيما شطر الشاعر إلى العناية بالانضباط والدقَّة في المعادلة . ذلك ان

مقارنة ذيل الناقة بغصن النخيل لا تُغالي بمعناه أو بأي شيء أثر فيه ، بل تنقل الظاهرة من مشهد إلى آخر يماثله ويعادله . والواقع ان الشبه الحسي بين الذئب وغصن السعف هو شبه دقيق حتى النقل والمحاكاة الكاملة ، وكأن الشاعر غدا يصف هنا للوصف ، للمماثلة كغاية بذاتها . وبينما كان منفعلاً بالقوة في تشبيه الناقة بالحصن ، وبالسرعة والظفرة من كل مكان في تشبيه الكلاب بالجن ، والمهارة والعنف في تشبيه الثور بالمقاتل البارح ، فإن الانفعال تعفّى أو أنه استسلم وركد في تشبيه الذئب بغصن النخيل . فالتشبيه هنا هو تشبيه محاكاة .

ومثل ذلك تشبيه الثور عندما يتخطف عليه البرق ، فتلتحم ألوانه المتعددة ، من دونه ، فيبدو من انعكاس الثور عليه كأنه يرتدي حلّة فارسيّة ، متألّقة ، متعددة الألوان أو أنه يصطلي ناراً ينعكس وهجها عليه . والتشبيه ، هنا ، متعدد الاطراف إذ قرن بين مشهد ظهر فيه الثور وجلده المتباين الألوان والتماع البرق عليه ، ومشهد آخر بدت فيه الحلّة الاصفهانية واصطلاء النار . لا شك أن هذا التشبيه ينطوي على بعض الغلوّ في ألوان الثور ، إلا أن الشاعر بدا خلاله كمن خُلبَ بألوان الأشياء ومظاهرها ، فجعل يُحاوّل أن يجسّدها بما يحاكيها ويعيدها إلى ذاتها . لقد شاهد واقعاً وقرنه بسواه في حدود المماثلة الصادقة وحسب ولم يكن له من دون ذلك غاية أخرى ، كما في التشابيه السابقة . هنا نفع على التشبيه للتشبيه ، كأنّ الشاعر رسّامٌ يُؤخذ باللون لذاته ، لفرحه به ، لدهشته أمام منظره .

وفي البيت الثالث ، يمثّل وقع اقدم الاتن الهاربة أمام الحمار الوحشي بمثل وقع البرد . والشبه صوتيّ يدلّ على التواتر والترادف . وتظهر المحاكاة في المماثلة الدقيقة بين وقع الاقدام ووقع المطر ، وان كان الأخير أسرع ، ممّا يُضفي على المشبه بعض الغلوّ . وفضيلة الشاعر في ذلك أنّه ما زال يتنصّت لوقع المظاهر في الطبيعة ، للمطر الذي يقرع قرعاً على أديم الأرض عندما يشتدّ هطولُه وحوافر البهائم التي تتواتر بمثل ذلك على أديمها . فالقضيّة هي قضيّة جمع لما هو متوحّد على مستويات متباينة عبر المظاهر المشتتة المطروحة على أديم الوجود .

ج - تأليف المحاكاة والغلو :

ومهما يكن فإن التشبيه يتم عند الأخطل في حدود الوعي الساطع ، الواضح كما في قوله : « والمشرقية أشباه البروق » فلفظة « أشباه » هي أكثر اظهاراً للمقابلة الواعية في ذهن الشاعر . والتشبيه واقعي إذ ان انعكاس النور على السيوف يجعلها تنوهج وتلمع ، وقد ألف الشاعر بذلك المحاكاة في التماع السيوف والغلو من صيغة الجمع التي تنم عن الكثرة والاحتشاد . ويجري على هذا الغرار تشبيهه لأحداق المطايا الهالكة بالنقر الغائرة في الصخور حيث يستنقع قليل من الماء . فالمماثلة بين الحدقة الغائرة والنقرة في الصخرة هي مماثلة دقيقة ، وبخاصة في ذكره للماء حتى تستقيم المعادلة بين ماء العيون وماء الصخرة . الا ان التشبيه يستبطن ، مع ذلك ، الغلو في نوع من الكناية الحسية للتدليل على شدة الإرهاق والنصب . أما تشبيهه للنعام بالأباعر السارحة فوجه المحاكاة فيه بين من المقابلة بين حيوان وآخر وآخر ووجه الغلو في التدليل على عظم الوحشة والخلو . وهنا قرن حيواناً بأخر فيما قرن ، قبلاً ، بين عين حيوان ومظهر من الجماد . ولتتمثل عظم تنبه الشاعر لدقائق الطبيعة حتى أنه لم يغفل عن الوقوف عند النقرة في الصخرة فكأنه كان يتحرى تحرياً ويتعمد تعمداً العثور على مواضع للشبه والمماثلة بين مظاهر الوجود . ولعل تنبهه لما تحدثه الرياح في الرمل ، لا يعدو هذه الدقة الواقعية في الملاحظة والتقدير ، حيث تظفي المادية حتى لتسد منافذ الروح كلها .

وربما تدنى المشبه به عن المشبه عندما تستبد نزع المحاكاة استبداداً تاماً كتشبيه تلمع البرق بنور المصباح أو بتلمع أقراب البلق .

وعلى العموم ، فإن الأخطل يحاول أن يضمّر أو أن يظهر الانفعال عبر التشابه ، الا أنه يتغرر ، أحياناً ، ويرسّف في حدود المظاهر وقبورها فتغلب المحاكاة على الغلو أو تتالفان ، بعضاً مع البعض الآخر ، كما أن الغلو يسيطر ، حيناً ، ويستبد مما يبقي للشعر غايته ومبرره .

د - التشبيه التمثيلي : ويُلْمُ الأخطل بنوع من التشبيه التمثيلي^٢ حيث تعدد أطراف المقابلة وتبرز فيها بعض الجزئيات والأعراض ، فيغدو التشبيه استفاداً من المقارنة بين مشهدين في دقائقهما . وقد يكون التدقيق والتفصيل وسيلة للغلو ، حيناً ، ووسيلة للمحاكاة الجزئية حيناً آخر . من ذلك قوله :

فأرسلوهنَّ يذرين التُّراب كما	يذري سبائِخَ قُطنٍ نَدْفُ أوتارِ
غداة تحامتنا حريش كأنها	كلاب بدت أنيابها لهرير
إليه أشار الناظرون كأنه	هلال بدا من قتمة وغيوب
رفعتُهُ ، وهو يهفُو في عمائمهم	كأنه طائر في رجله علق
فظلَّ يُفدِّيها وظلَّتْ كأنَّها	عقَّابٌ دَعَاها جنحُ ليلٍ إلى وكُرٍ
يُغَنِّيهِ بالفيض البعوض كأنه	أغانيُّ عُرْسٍ صنَّجُه وِجَلَّاجِلُه
إذا انفَرَجَ الأبوابُ عنه رأيتُه	كصدر اليمانيِّ أَخْلَصْتَه صيَاقِلُه

فالكلاب التي تذري التُّراب شبيهة بمن يندف قطناً ، والتماثل لا يقوم بين المشهدين على الدقَّة في اللون ، بل على الشَّكل الذي يتَّخذهُ ذرُّ التُّراب وندف القطن. وغاية التشبيه الغلو بصرَاوة الكلاب وسرعتها من خلال نثرها للتُّراب في عدوها . والمشهدان ، جميعاً ، استفادان من خبرة الشَّاعر الحسيَّة ، وبخاصة البصريَّة منها ، ولا يخلوان من الانفعال وان خليا من الخيال . ولعلَّ الميزة الأولى التي يختصُّ بها التشبيه التمثيلي هي خاصَّة التفصيل والتجزئ كوسيلة للشرح الذي يُوهم بالغلو ويؤدِّيه بالتَّنويه ببعض الأجزاء والأطراف . ومن البديهي أن يتضاءل ، إثر ذلك ، قدرُه الفني إذ لا فرَّقَ بين الاقناع بالتفاصيل والجزئيات في باب الشرح ، والاقناع بالبينات والبراهين ، في باب الجدل والنقاش . والشَّاعر إذ يشي لمثل ذلك إنما يُغررُّ بالقارئ بالقرائن الواقعيَّة المبذولة له بذاتها على أديم المظاهر في الوجود . ومع أنَّ التشبيه التمثيليَّ أفاد بعض الغلوِّ فإنه ينزع منزع الوضوح النَّثري لسطوع المقابلة فيه ولتقيُّدها بقيود الواقع . وفي البيت الثاني

يبدو نحامي جريش وشمها لهم بمثل ما تبديه الكلاب من أنياب إذ تفتح أشداقها للهرير . ولعلَّ هذا التشبيه يَسْمُو على ما قَبْلَهُ من الوتر والحِدَّة اللَّتَيْنِ نَفَحَهُمَا الشَّاعِرُ فِي المُشَبَّهِ بِهِ ، حَيْثُ يَبْدُو وَكَأَنَّهُ حَدَسَ فِي عَصَبِ كَرِيهِ ، مَشْحُودٌ بِالنَّقْمَةِ. ذَاكَ أَنَّ طَبِيعَةَ التَّشْبِيهِ ذَاتَهَا تَبَدَّلُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى قُدْرَةِ الْخَلْقِ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ ، وَعِنْدَ الشَّاعِرِ ذَاتَهُ بَيْنَ لِحْظَةٍ وَأُخْرَى. وَفَضِيلَةُ التَّشْبِيهِ الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ إِنَّهُ أَعْمَقُ اسْتِعَابًا وَأَشْمَلُ اتِّصَالًا بِالْأَنْفَعَالِ ، أَدَّى لَهُ بَعْضُ مَا يَجْسَدُهُ ، فِيمَا أَدَّى لَهُ فِي التَّشْبِيهِ الْأَوَّلِ بَعْضُ مَا يُوضِّحُهُ .

ومع ذلك كُلُّهُ ، فَإِنَّ انْصِرَافَ الشَّاعِرِ إِلَى التَّفْصِيلِ فِي شَأْنِ الْكِلَابِ وَتَوْقِيعِ الْأَحْدَاثِ وَتَخْصِيصِهَا بِمَا يُؤَدِّي أَدَاءَ الزَّرَايَةِ فِي شَكْلِهَا الْوَاقِعِي ، أَنَّ ذَلِكَ الْانْصِرَافَ ظَلَّ يَشْدُو الشَّاعِرَ وَيَجْذِبُهُ إِلَى التَّفْسِيرِ وَالتَّقْرِيرِ وَشَتَّى الْأَعْرَاضِ التَّثْرِيَّةِ ، فَرَسَمَ إِطَارَ الْمَشْهَدِ وَتَحْدِيدَهُ وَالتَّدْقِيقَ فِيهِ يُؤَكِّدُ أَنَّ الشَّاعِرَ يَشْطُرُ إِلَى تَحْقِيقِ مَا طَالَعَهُ بِهِ حَوَاسُّهُ ، مَذْعَنًا لَهَا . وَيَجْرِي عَلَى هَذَا الْغَرَارِ تَشْبِيهُ طَلْعَةِ الْمَدْحُوحِ بِالْبَدْرِ ، وَتَخْصِيصِهِ لِذَلِكَ فِي طَلُوعِهِ مِنَ الظُّلْمَةِ بَعْدَ غِيَابِ . وَتَوْقِيعِ الطَّلُوعِ فِي ذَلِكَ الْإِطَارِ ضَاعِفٌ مِنْ جَمَالِ الْمَدْحُوحِ ، وَفِي الْآنِ ذَاتِهِ ، مِنْ وَضُوحِ النَّزْعَةِ الْوَصْفِيَّةِ حَيْثُ يَسْتَمِدُّ الشَّاعِرُ قُدْرَتَهُ عَلَى الْإِقْنَاعِ مِنْ اسْتِحْضَارِ التَّفَاصِيلِ الَّتِي لَا يَحْفَلُ بِهَا الشُّعْرُ الْخَالِقُ . وَذَكَرَ الْقَتْمَةَ وَالغَيْوَبَ يَغَالِي بِالْغُلُوِّ الْخَارِجِي الْإِفْتِرَاضِي السَّاقِطَ . وَمِثْلَ ذَلِكَ ، صُورَةَ الطَّائِرِ الَّذِي فِي رِجْلِهِ عُلِقَ ، إِذْ كَانَ نَزُوعَهُ إِلَى التَّخْصِيصِ نَزُوعًا إِلَى التَّوَضِيحِ وَاسْتِكْمَالِ الْمَشْهَدِ الَّذِي يَفِيدُ الْغُلُوَّ فِي سِيَاقِهِ الْوَاقِعِي . وَرَبَّمَا تَرَأَى لَنَا عِبْرَ ذَلِكَ شَيْءٌ مِنْ نَزْعَةِ الْمَحَاكَاةِ الَّتِي تُعْنَى بِضَبْطِ أَطْرِ الْمَشْهَدِ التَّشْبِيهِي حَتَّى تَتَوَازَنَ مَعَادِلَتُهُ تَوَازِنًا تَامًا . أَمَا فِي الْبَيْتِ الْخَامِسِ فَإِنَّهُ يَقْرُنُ الْفَرَسَ الَّتِي امْتَطَاهَا ابْنُ بَدْرِ لِهَرَبِهِ بِالْعَقَابِ الَّتِي تَهْرَعُ مُسْرَعَةً إِلَى وَكْرَاهَا ، قَبْلَ أَنْ يَجَنِّهَا اللَّيْلُ . وَمَقَارَنَةُ الْفَرَسِ بِالْعَقَابِ هَدَفٌ إِلَى تَمَثِيلِ السَّرْعَةِ وَالْغُلُوِّ بِهَا ، أَمَا مَا أَرْدَفَ بِهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّيْلِ الَّذِي يَعَاجِلُهَا ظِلَامُهُ قَبْلَ أَنْ تُؤَنِي إِلَى وَكْرَاهَا ، فَقَدْ ابْتَغَى مِنْهُ تَوْقِيعَ طَيْرَانِهَا فِي اللَّاحِظَةِ الَّتِي تَعْدُو بِهَا أَقْصَى عَدُوِّهَا . وَالْإِخْطَلُ يَتَمَثَّلُ بِذَلِكَ التَّجَارِبِ الْوَاقِعِيَّةِ إِذْ وَفَّقَ بِتَأْدِيَةِ مَعَادِلَةِ لِسُرْعَةِ الْقَصُوفِ ،

إلا أنه كان كمن يوضحها ويُفسرها ليرهن على إدراكه لها .
فالمعادلة واقعية لا تُفصح عن أكثر مما تُفصح عنه في دلالتها الشائعة التي تُبذل
لنا ، دون حاجة لشعر شاعر أو صورة مُصوّر .

وفي البيت السادس يقرن البعوض في طينه بأغاني العرس حيث تهزج الصنوج
وتترنُّ الجلاجلُ وقد اختلّت معادلة التشبيه إذ بدا الطرف الثاني في غاية العاوة
والتعاطم على الطرف الأول . فليس ثمة من نسبة بين طنين الذباب وأصوات الصنوج
والجلاجل . ولعلَّ الشاعر لم يبتغ بذلك المحاكاة الفعلية بل تأدية حالة
الفرح والطرب التي أحدثها ذلك الطنين في داخله ، قارناً إياها بمثل حالة الطرب
في قرع الصنوج وما إليها . ومهما يكن ، فإن نزعة التفصيل والتدقيق لا تزال تتمُّ
عن رغبته في إيهام القارئ والاستحواذ على لبه بالشرح والتفسير ، وهما أسلوبان
ساقطان في الشعر .

هـ - تشبيه افتراضي : ونفهم به ذلك النوع من التشبيه حيث يكون الطرف
الثاني مستحيل الوقوع والتحقق بالنسبة إلى الطرف الأول ، وقد ابتدعه الشاعر
بالافتراض ليوهم القارئ ويؤدي له نوعاً من الانفعال الذي قد يتولد في نفسه إذا
ما تحققت معادلة التشبيه . فالشاعر إذ قرن بين إثارة الكلاب للتراب
وندف القطن توّل المعادلة الواقعية ، أي الممكنة الوقوع والتي لها رصيد فعلي .
أما التشبيه في قوله :

كَأَنَّ قَلْبِي غَدَاةَ الْبَيْتِ مُقْتَسِمٌ طَارَتْ بِهِ عُصَبٌ شَتَى لِأَمْصَارِ

فهو لا يقوم على معادلة فعلية واقعية ، بل على مقارنة افتراضية إذ يستحيل أن
يتقسّم قلبه ويسعى به إلى الأمصار والآفاق النائبة . والافتراض ولد الغلو بشدة
عذابه للفراق ، لكنّه غلوٌّ تألّفي مُصطنع استنبط له الشاعر التأويل والتعليل بالكدِّ
الذهني والاصطناع . وقيمته هذا التشبيه تدنّى إذ لم يكن الخلق فيه حديسياً ،
يستطلع حقيقةً مُضمرة ، بل تخمينياً يتوسل المستحيل .

ومثل ذلك قوله في وصف انقضاخ الشور الوحشي :

فانصاع كالكوكب الدرّي مبعته غَضبانَ يخلط من معجٍ وإحضارٍ

فالصلة بين الشور والكوكب الدرّي هي صلة إيهامية ، إيحائية وليست فعلية تحقيقية ، وربما ابتغى من ذلك الدلالة على لونه وتألقه ، الا ان العلاقة بين الشور والنجم ، أياً كان مبررها ، لا يرآل افتراضياً ، احتمالياً .

و - التّشبيه الاستطراذي : وقد أشرنا إليه مراراً ، فيما تقدّم ، وكأنه امتداد من التّشبيه التّمثيلي يتضخّم به الطرف الثاني ويتمدّد ويتناول ، ليضاعف من الغلوّ بمعنى الطّرف الأوّل . ومن البيّن أن هذا الضّرب من التّشبيه يشيع في البدائين الشّديدي الإنفعال والذين يعجزون عن النفاذ في انفعالهم ، فيطفرون به طفرة إلى الخارج ، يوسعونه شرحاً وتفصيلاً وحشداً واكتظاظاً ، حتى يتعاطم أمره وينعكس منه على الطّرف الأوّل . وقد تردّد عليه في المعاني الجليلة التي سعى بها إلى السّموّ عن مستويات المعاني المألوفة ، ليحشد للمعنى حشده كلّه ويوفي إلى أقصى غاية وذروته بالنسبة إلى قدرة الشاعر عصرئذ . ومؤدّى ذلك أن الأخطل لا يلمّ بهذا التّشبيه بيسر سائر التشابيه وبعدها ، فهو الأندر والاكثر احتفالاً بينها ، بالرغم من أن ذائقة النّقد المعاصر لا تسيغه ، إذ تستعص عنه بالرّمز القاطب ، النافذ الغنيّ عن كلّ تفسير وشرح وحشد واطناب واسهاب .

وقد نَقَعُ على الاستطراد في ذكره للخمرة ، إذ يتشبه ، إثر رحيل أحبّته بالسّكران الذي صرعته وخبّلته الخمرة ، نازعاً إلى وصف دقائقها ، أو سارداً بعض أحواله معها . نعثر على مثل هذه النّبذة في القصيدة الّتي امتدح بها عبد الله بن معاوية مستهلاً بالقول :

صدع الخليطُ فشافني أجواري ونأوكَ بعد تقاربٍ ومزّارٍ

١٠٤ - ١

وكأنّما أنا شارب جادت له بَصْرِي بِصَافِيَةِ الْأَدِيمِ عَقَارِ
٢-١٠٥

ويُعْرَجُ ، من ثَمَّة . إلى تحدرها من كروم الأعاجم التي تحديق بها الأسوار
وترويتها الجداول والعيون. ويصف من العنب توهجه وشدة نضجه والكرمة وفتوتها
وصفاء العصاره وتصريحها وفصحها عن الغناء . وقد ورد ذلك كله في ثمانية أبيات ،
انطلاقاً من تشبيه تجلُّ الشوق بذهول السّكران . وما وقّعه بين ذلك كلّه من
ذكر للكرم والنّهر والعنب إنّما يعود في نهاية مطافه إلى الغلوّ بسكر النشوان الذي
تشبه به . وإذا كتبنا قد أخذنا على الشّاعر انصرافه إلى الجزئيات في التّشبيه
التّمثيليّ ، فأياً يكون حالنا معه في التّشبيه الاستطراذي حيث يتوسّل السّرد
فضلاً عن الوصف ، كأنّما استقل الطرف الثاني واختلّت معادلة التّشبيه ،
جميعاً . ولعلّ السّويّة في ذلك أن نعتبر التّشبيه هنا شكلياً أي ذريعة للنزوع من
موضوع إلى آخر ووسيلة للإيلاج بعض التجارب الخاصّة أو التقليديّة في متن
القصيدة .

وقد يجري على هذا الغرار وصفه للخمرة في لاميته الشهيرة حيث يقول :

كاني غداة انصعنّ للبين مسلم بضربة عنق أو غويّ معدّل
صريع مدام يرفّع الشّرب رأسه ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل

وقد فصلنا في ذلك مواضع السّرد والوصف والنّثريّة ، مما لا مجال لتكراره .
وليس ما يعرض من وصفه للشّور والحمار الوحشين وما يتخلّله من دقائق منعمة ،
وأحداث واقعيّة ، ان ذلك كله يرد في باب التّشبيه الاستطراذي إذ يقرون ناقته
بهما .

وربّما توسّل للإستطراد صيغة الاستدارة التي يستلها بما التي من أخوات ليس ،
معرضاً بين اسمها وخبرها بثلاثة أو أربعة أبيات ، كما رأينا تكراراً في تشبيه كرم

المدح بالفرات أو الحبيبة بالروضة . ونكتفي من ذلك بالقول ان النفس البدائية تطبع أسلوب شاعرها بطبائعها ، وهي نفس مشوشة لا سياق دائماً . مُوحداً لها . مما اعتري أسلوب الشاعر بمثل ما عريت به نفسه .

سادساً : الكناية : قد تقوم الكناية المقام الأوّل في فنية الأخطل ، يُحلُّ بها الصورة محلّ الفكرة ويدعُ التجارب والأفكار والخواطر تُشاهدُ من خلال الواقع الحسيّ الذي يتكئى به عليها . تجارب الأخطل هي صنعة بيته ، تقع فيها وتقتبس منها وتتجسّد من خلالها . وهو يجري في ذلك على أسلوب حدسيّ ، أو فكري ، إذ يكادُ لا يدعُ عنصراً من عناصر الطبيعة أو مظهراً من مظاهرها سواءً ما دبّ وزحف وسعى ومشى أو طار ، لا يدعُ أيّاً من ذلك كلّهُ حتّى يفيد من الصفة الاعم والاشهر والأبلغ التي خصته بها الطبيعة . أو من الغريزة الأطنى على طباعه . ومن هذا القبيل فأن لدى الشاعر نوعاً من التوارد والتجاوب بين أحوال العالم الدّاخلي ومظاهر العالم الخارجى يستمدُّ منها العلاقات الغامضة والواضحة عبر تجاربه وممارسته الحسيّة للعالم ومعاناته النفسيّة للحياة .

فهو قد شاهد الحصن ، مثلاً ، فراعه منه - وهو البدائيّ الذي يألف الخيام - تلك الصلابة العميقة والتّماسك الشديد بين أجزائه ومناعته على الاقتحام . فالحصن ظاهرة حسيّة ، إلا أن لها معنى ذهنيّاً في الفكر . بل معاناة نفسيّة تتولّد من وقع ذلك الحصن في نفسه . وعندما يقوم الشاعر في مقام الوصف وتعبّره انفعالات القوّة والصلابة وعظم الهامة ، تتوارد إلى خاطره صورة الحصن فيقرن ما بنفسه أو بذهنه به في حدود المماثلة أو الكناية ، كما رأينا في تشبيه النّاقة بالحصن إذ قال :

جماليّة ، غول النّجاء كأنها بنية عقر أو قريع هجان

٦٨ - ١٧

وهو إذ يرغب في تجسيد معنى المشقّة والهزال ، يقتبس من الطبيعة ما يتكئى عليه به ، فلا يجد أفضل من الهاجرة والريّج الحارة . والفرق بين المعنى الذهنيّ في ذكر

المشقة وصورة الهاجرة أن الثانية توهم بواقعيته وفعليته ، كما أنها تدنيه إلى القارىء
كانه يشاهده بأب عينه واقعاً أمامه . يقول في ذكر الحمار الوحشي :

رعاها بصحراوينِ ، حتى تيقظتْ وأقبل شهرا وقدةٍ وعيكانِ
وما هاجها للورد حتى تركزتْ رياح السفا في صحصح ومتانِ

فشهرها الوقدة ورياح السفا هما كناية عن مشقة العيش وتعذره ، أفادهما من
واقع البيئة واستحضرا بهما في شعره الدلالة الواقعية ، الفعلية على الضنى والضمور .
وفي هذين البيتين ذكر للصحراء وللورد أي للاقبال على الماء ، وهما أيضاً مظهران
من مظاهر الطبيعة في بيئته وشأن من شؤونها . وربما ذكر الصحراء والثور
تكنياً غامضاً عن حياة العربي في بيئته القاسية ، المهلكة . وهكذا نرى المشاهد
والمظاهر تتكاثف وتكثف في شعره ، تكاثف الأحوال النفسية واكتظاظها في نفسه .
وقد يذكر التراب وأنواع الأرض تدليلاً على السرعة والصلابة :

فصاحبَ تسعاً كالقسي ضرائراً يثرون تراب القف بالندفانِ
(٧٠ - ٢٤)

يعذون منه بحزانِ المتانِ ، وقد فرقن عنه بني وقع وآثارِ
(٧٩ - ٢٤)

ليست بسوداء من ميثاء مظلمةٍ ولم تعدبُ بإدناؤ من النارِ
(٨٠ - ٣٣)

فالقف والمتان والميثاء هي أنواع من الأرض ، وإذا كانت الأولى وردت في باب
التكنية على سرعة العدو وصلابة الحوافر ، فإن الثانية اتخذت في شكلها التقريرية ،
فيما دللت الثالثة أي الميثاء على الأرض الهزيلة ، السوداء . وهو إذ جعل الكرمة فيما
دونها من أرض إنما غالى بطيب عنصرها من خصب أرضها . ويكاد لا يغفل في ذلك
حتى عن الحصى والأحجار على أنواعها :

فَلَمَّا عَلَوْنَ الْأَرْضَ شَرْقِيَّ مَعْتِقٍ ۖ ضَرَحْنَ الْحَصَى الْحِمَصِيَّ كُلَّ

(٧٢ - ٣٦)

كَأَنَّهَا بَرْجٌ رُومِيٌّ ، يُشِيدُهُ لُزٌّ بِحَصٍّ وَأَجْرٌ وَأَحْجَارٌ

(٧٦ - ١٠)

وقد كان الحصن أداةً لتمثيل شدة عَدُوها وصلابة وقعه على الأرض ، فيما أدَّى الجص والآجر والأحجار معنى القوة والركانة والعظمة في البنيان .

ويتخذ لذلك ، أيضا ، الصخرة في سياق التشبيه بمدلولها البدائي الداني المتناول على الصلابة وما إليها :

بِحِرَّةٍ كَأَنَّهَا فَحْلٌ ، أَضْمَرَهَا بَعْدَ الرَّبَالَةِ تَرْحَالِيٍّ وَتَسْيَارِيٍّ

(٧٦ - ٨)

هذه نبذة مجزوءة عارضة عما يطالعنا في شعره من مظاهر الطبيعة ، وقد يلم بسائر عناصرها كالمطر والرعد والبرق والسيول والضوء والموج والنار ولا يعف حتى عن الغناء .

يذكر المطر ككتابة على الخصب في قوله :

أَوْ مُقْفَرٍ خَاضِبِ الْأُظْلَافِ جَادَ لَهُ غَيْثٌ تَظَاهَرَ فِي مِيثَاءِ مِبْكَارٍ

(٧٦ - ١١)

والرعد كعنصر من عناصر الطبيعة التي تهول الاحياء :

يَجُولُ لَيْلَتَهُ ، وَالْعَيْنُ تَضْرِبُهُ مِنْهَا بَغِيثٌ أَجَشُّ الرَّعْدِ ، نِيَّارٌ

(٧٦ - ١٣)

والبرق في شكل من أشكال الالتماع الذي يخطف على الأشياء ويكسوها
بالألن :

كأنه إذ أضاء البرق بهجته في أصفهانية أو مُطْصَطي نَارٍ
والسَّيل كناية عن الأرق والازعاج عن الرَّاحة :

إذا أرادَ بها التغميض أرقه سَيْلٌ يَدِبُّ بهدم التُّرب موارٍ
(١٤ - ٧٧)

والنَّار للتدليل على انضاج الحمرة :

لَيْسَتْ بسوداء من ميثاء مظلمةٍ ولم تُعَدَّبْ بإدناء من النَّارِ

ولا قبل لنا باحصاء المظاهر الطبيعية التي يتوسلها ، جميعاً ، وقد بدلنا بعضها
للتمثيل ، وإنما نقول إن أهم الكنايات ترد لديه في ذكر الخيل عبر القتال للتدليل
على بسالة المدوح وبطولته ، وقد قدّمنا نماذج منها وفي الغلوّ بالضيافة من خلال
القدور المترعة والكرم من خلال الضيف الذي يحلُّ بالقوم عندما يشتد عصف
الريح ويعمم الصقيع ، فضلاً عن مشقة الأسفار من خلال المطايا الهالكة .

هذا ما رأينا أن نسوقه بشأن الطبائع الفنية لشعره ، وهناك طبائع أخرى متعدّدة ،
عرضت لنا اثناء البحث ، فليعد القارئ إليها في مظانها ، محاولين وضع عجالة لمظاهر
التقليد والتجديد في شعره .

التقليد والتجديد : يترجّح الشعر ، غالباً ، بين التقليد والتجديد ، ينمو
أحدهما في الآخر ، يُغذّيه ويتغذّى منه . الا أن حدود كلٍّ منهما تظلُّ ملتبسةً
مموّهة ، ومفهوم التجديد وطبيعته يتباينان بالنسبة للشاعر والنقاد ، وأنما الماثور
في معنى التقليد أن تقتفي الشاعر أثر سواه في اسلوب القصيدة أي في بنائها الشكلي

وفي معانيها وصورها وتكثيتها، فيما يقوم التجديد على الرؤيا الجديدة للمعاني القديمة بل إنه يقوم على اكتشاف معانٍ جديدة من الاتصال الحميم بالحقيقة واستجلائها والحلول فيها . وعندئذ تتعدّل الصورة وتتبدّل طبيعتها وتناهى أبعادها ، ونوقن ان الشّاعر وفقّ إلى إدراك أصقاع نائية شكلاً ومضموناً ، إذ أن التجديد في أحدهما يستدعي التجديد في الآخر .

وقد كان يخيّل للعرب أن المعاني مستنفدة ، محدّدة ، لا سبيل إلى التجديد والابتكار فيها كما نفع في قول امرئ القيس :

أترانا نقول إلا معاراً ومعاداً من قولنا مكرورا
أو قول عنبرة :

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدّار بعد توهم

وقد تأدّى عن ذلك ان قام التجديد على نوع من المباراة بين الشعراء في الغلوّ واستنباط تأويل للمعنى المطروق وتخريجه تخريجاً خاصاً أو تعقيده وتوليده . فالصفة الغالبة هي صفة التكرار والتقليد إلا في فلذات قليلة كان يتخطى بها الشاعر الحدود المأثورة للمعاني . ولم تكن الفنون الأدبيّة إلا سبيلاً لترسيخ هذا التقليد إذ تعيّن فيها المعاني والتشابه والكنائيات ، مع قليل أو كثير من التعديل والتبديل . ففي الحمرة دارت المعاني حول لونها وطيبها ونشوتها وقدمها وصفائها وكأسها وساقبها ومجلسها كما قوبلت بها تشابيهها وكنائياتها . فاللون كالفصوص أو كالشمس والصفاء كعين الديك والطيب كالمسك والنشوة كالخدر والموت ، وللشّاعر أن يجتهد اجتهاده ويخرّج تخريجه في هذا المجال وفقاً لقدرته على التجريد والمزج والتوليد . وتدرّجت هذه الصنعة إلى تأليف معنيين ، معاً ، واستنباط سبيل للغلوّ فيهما ، كما شاع ، من بعد ، في العصر العبّاسي . وفي المدح والهجاء والفخر تماثل تلك المعاني ، متناقضة بين السلب والإيجاب في المدح والهجاء، ومتشابهة بين المدح والفخر مع تباين في النسبة .

وقد اقتصر على الأصل وما يتصل به والكرم والنجدة وإيثار الضيف وإيواء الملهوف والاطعام في زمن الجذب وقتال الأعداء ومزاولة البطولة والفروسية في امتطاء الخيل وما أشبه . ومن البين أن هذه القيم مرتبطة بالمثل العليا الشائعة في العصر وبقدرة الشاعر على استحضار المضامين القصية وابتداع التأويل الكفيلة بتمثيل ذروتها ومثالها ، أو الصور والكنيات التي تُمثلها. ولقد جرى الأخطل على هذا الفرار إذ استمد من القديم المظاهر التالية ، على الأقل :

أولاً : مظاهر التقليد :

أ - **المطلع الطللي** : قدّمنا أن الأخطل كان يستهلُّ بذكر الطلل مسمياً إياه باسمه معيماً مكانه وذاكراً النُوي والوتد والريح والبهايم التي تقطنه إثر أهله . وموضوع الطلل متحدّر من صلب القصيدة الجاهلية مع امرئ القيس ومن قبله ، أيضاً ، إذ تراه يقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الطلّول ، كما بكى ابن حزام

ولم يشق الأخطل بهذا الموضوع معاناة جديدة ، بل اتّخذ في المعاني التي نفذت إليه كاسياً إياها بحلّة تعبيرية خاصّة . وتقليد الطلل ليس آفة مقتصره على الأخطل ، وإنما هي عامة في سائر شعراء عصره وفيمن قبلهم ومن بعدهم . ذلك أن الإسلام هدم الأصنام الجاهلية ، كافة ، فيما عدا صنم الشعر ، إذ ظل مقيماً في كعبة التقليد ، متصفاً بالشعائر الوثنية بتمجيده المادة واقتصاره على حدودها . فنورة الاسلام لم تنفع فيه روحاً جديدة ، كما أن الأبعاد النفسية والفكرية التي أنزلت فيه لم تتسرّب إلى تجارب الشعراء لتُطلّ بهم على عالم الروح ، أي عالم الحقيقة الفعلية . وإذا كان الشاعر يحتذي مثلاً ، فإن مثاله الأعلى ظل الشعر الجاهلي ، كما أن بيئته المادية ظلت ، عند الشعراء الكلاسيكيين أمثال المثلث الأموي ، البيئية الجاهلية ذاتها .

ب - الموضوعات والمعاني الوصفية : قلنا إن بيئة الشاعر الأموي ظلّت جاهليّة يستحضر فيها معالم الصحراء في نباتها القاسي وسرابها وحيوانها وبخاصّة الحمار والثور الوحشيين في طبيعة عيشهما وصراعهما وطلبهما للماء والكأ. وقد شغف الأخطل شغفاً خاصاً بهذه الموضوعات ، فتراه يتردّد عليها ، كما بيّنا ويستطرد فيها ويمعن بالسرد وإيراد الجزئيات والاعراض . ويكاد الأخطل لا يمدح أو يهجو أو يفخر حتى يستهلّ بهذه الموضوعات في مقدّمات فد تطول حتى على الموضوع الرئيسي وتطغى عليه ، وربّما وردت أبيات المدح أو الهجاء في نهاية القصيدة كذيل ملحق بها . وهو لا يستعير من القدماء في ذلك موضوعاتهم وحسب ، بل تكنية الاسلوب المتردّد على الظاهرة الواحدة عبر القوضى ، يلمّ بها ثم يدعها ليرتدّ إليها من جديد ، كما أنّه يفرق في الكنايات والتشايه الحسية مثلهم . وقد رأينا أن بعض معاني الدّين الحديد تسرّبت إلى خمريّاته ، الا أنّها ظلت ، في مجملها ، تقليديّة ، تحتذي حدو الأعشى ، وربّما تقتبس منه اقتباساً حرفياً .

يقول الأعشى في وصف الزق :

تَحَسَّبُ الزَّقُّ لَهَا مَسْنَدًا حَبَشِيًّا نَامَ عَمْدًا ، فانبطح

والتشبيه يقوم على الدقّة التعادليّة المؤلّفة تأليفاً . فالزق يشبه الحبشيّ ، في لونه الأسود ، وقد جعل الحبشي منبطحاً لتكامل وتمائل الصّورة إذ لا يكون الزق قائماً ، بل منبطحاً . ولئن وافق ذلك الوصف طباع الجاهلي القائمة على المادبيّة المفرقة ، فإن الأخطل لم يعفّ عن اقتباسه وتقليده إذ قال :

أناخوا فجرؤوا شاصبيات كأنّها رجالٌ من السّودانِ لم يتّسّر بلكوا

فالتشبيه متمائل ، كما أن اسلوبه متقابل ، أيضاً ، إذ جعل الأول الحبشيّ منبطحاً ، فيما أكّد الثاني على السّواد ، فجعل الحبشي عارياً ليتألّق سواده ويسطع . والمهم

في ذلك أن الأخطل اتخذ المعنى الحمري من التقليد وخرجه بنوع من التخريج
الذاتي العاطل عن الخلق .

ولا يعدو ذلك ما وصفاه ريحها في سورة الغلو إذ قال الأعشى :

من خمر عانة قد أتى لختامها حول ، تسلُّ غمامة المزكوم

وآية القول ، هنا ، ان المزكوم تعطل في حاسة الشم ، وقد بلغت الحمرة من
الحدة أنها تنفذ إلى خياشيم من تعطلت فيه حاسة الشم وتنفع فيه ريحها . ومع أن
الأخطل واقع الحمرة الواقعة ذاتية ، حميمة ، فإنه لم يوفق إلى تلمس ما دون ذلك ،
فاستعاره ، بل تلقفه بأيسر سبيل إذ قال :

وإذا تعاورت الأكف زُججها نَفَحَتْ ، فشمَّ رباحها المزكومُ

ولقد خرَّج المعنى السابق تخريباً خاصاً به في أسلوبه اللفظي حيث ذكر ريحها
بصيغة الجمع ، موحياً من ذلك بشدتها وكثرتها ، بل لأنها لتعصف عصفاً إذ الريح
تستكين ولا تتبلد كالنسيم . وهذا ما كنا نشير إليه في قولنا إن مظهر التجديد اقتصر
لديه على التأويل والتخريج والتعبير لتأدية الغلو في سورته النائية .

ويجري على ذلك قوله فيما يلي :

قال الأعشى : فترى إبريقهم مسترعفاً بشمولٍ صُفِّقَتْ من ماءِ شَنِّ

أي ان الحمرة تنزف من الابريق ، كما ينزف الدَّم من الجريح ، وهو انما يمثل
بذلك احمرار الحمرة ، نامياً اليها صفة حية إذ لا تزال الدماء ترمز إلى الحياة . فكان
الدينَّ جريح ، أو كأن الناس يحسون دمه . وقد تولى الأخطل مثل هذا المعنى ، بفعل
« أدمي » وهو يوازي فعل استرعف :

تُدْمَى إِذَا طَعَنُوا فِيهَا بِجَانْفَةٍ فَوْقَ الزَّجَاجِ ، عَتِيقٌ غَيْرُ مُسْتَطَارٍ
وَوَجْهَ الْجُدَّةِ فِي قَوْلِهِ أَنَّهُمْ يَطْعَنُونَهَا طَعْنًا ، كَأَنَّ الدَّنَّ نَاقَةٌ تُذْبِحُ فِتْنًا وَيَسِيلُ
دَمَهَا . فَالْمَعْنَى مُسْتَفَادٌ مِنَ الْقَدِيمِ وَمُخْرَجٌ تَحْرِيحًا جَدِيدًا .
ويقول الأعشى :

وَإِذَا غَاضَتْ رَفَعْنَا زَقْنًا طَلِقَ الْأُودَاجِ فِيهَا فَانْسَفَحَ
فَالزَّقُ يُسْفَحُ سَفْحًا وَيَبْذُلُ دَمَهُ وَتَطَلَّقَ أُودَاجُهُ . فَهُوَ مِثْلُ اللَّزْقِ الْمَتَقَدِّمِ ذَكَرَهُ .
أَمَّا الْأَخْطَلُ فَيُصْنَفُ بِالْقَدَمِ وَالْهَرَمِ وَيُمَثَّلُ تَفَوُّرَ الْحَمْرَةِ مِنْهُ بِالذَّمِّ الَّذِي يَتَفَوَّرُ مِنَ
الْعَرَقِ الْمَبْزُولِ ، التَّعَرُّ :

سُلَافَةٌ حَصَلَتْ مِنْ شَارِفِ خَلَقٍ كَأَنَّمَا ثَارَ مِنْهَا أَبْجَلٌ نَعِيرٌ
وَإِذَا يَقْرَنُ الْأَعْشَى شِعَاعَهَا بِالشَّمْسِ فِي قَوْلِهِ :

كَأَنَّ شُعَاعَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِيهَا إِذَا مَا فَتَّ عَنْ فِيهَا الْخِتَامَا
يَقْرَنُهُ الْأَخْطَلُ بِالْكَوْكَبِ الْمَرِيخِ الشَّدِيدِ التَّالِقِ :

فَجَاءَ بِهَا كَأَنَّمَا فِي إِثَائِهِ بِهَا الْكَوْكَبُ الْمَرِيخُ تَصْفُو وَتُزْبَدُ

وَيَذَكُرُ الْأَعْشَى تَمَاظِلَ صَاحِبِهَا بِهَا وَامْتِنَاعَهُ عَنْ بَيْعِهَا ، مُؤْمَلًا الثَّرَاءَ وَالرِّيحَ
الكَثِيرَ :

يُؤْمَلُ أَنْ تَكُونَ لَهُ ثَرَاءٌ فَأَغْلَقَ دُونَهَا وَغَلَا سِوَامَا

وَكَذَلِكَ صَاحِبُ الْحَمْرَةِ الْأَخْطَلِيَّةِ ، تَرَاهُ يَضُنُّ بِهَا وَيَحْرَصُ عَلَيْهَا :

إِذَا أَقُولُ تَرَاضِيْنَا عَلَى ثَمَنِ ضَنْتَ بِهَا نَفْسُ خَبِّ الْبَيْعِ مَكَارَ

أَمَّا تَشْبِيهُ صِفَاتِهَا بِعَيْنِ الدِّيَكِ ، فَهُوَ قَائِمٌ ، مَكْرُورٌ بَيْنَ الشَّاعِرِينَ .

يقول الأعشى :

وكأسٍ كعَيْنِ الدِّيكِ بِأَكْرَتْ حَدَّهَا
بِفَيْتِيَانِ صِدْقٍ والنَّوَاقِيسُ تُضْرَبُ

الأخطل :

وكأسٍ مِثْلَ عَيْنِ الدِّيكِ صِرْفٍ تُنْسِي الشَّارِبِينَ هَا الْعُقُولَا
ولم يقتصر تأثير الأخطل في وصف الخمر على الأعشى ، فتأثر في بعض صورته
بامرئ القيس ، وحسان بن ثابت ، وعدي بن زيد .

امرؤ القيس :

وَكَانَ شَارِبَهَا أَصَابَ لِسَانَهُ مُومٌ يُخَالِطُ خَبْلَهُ بِعِظَامِ

الأخطل :

وَكَانَ شَارِبَهَا أَصَابَ لِسَانَهُ مِنْ دَاهِ خَيْبَرَ أَوْ نِهَامَةِ مُومِ

امرؤ القيس :

وَأَخِي إِخَاءَ ذِي عَافِظَةٍ سَهْلِ الْخَلِيقَةِ مَا جَدِ الْأَصْلِ
حُلُوِي إِذَا مَا جُنْتُ قَالَ أَلَا فِي الرَّحْبِ أَنْتَ وَمَنْزِلِ السَّهْلِ
نَازَعْتُهُ كَأْسَ الصَّبُوحِ وَلَسْمِ أَجْهَلِ مُجِدَّةِ عِذْرَةِ الرَّجُلِ

الأخطل :

وَشَارِبِ مُرْبِجِ بِالْكَأْسِ نَادِمَتِي لَا بِالْحَصُورِ وَلَا فِيهَا بَسْوَارِ
نَازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِي

١- الأخطل: مصطفى عازي ، ص : ٢٢٦

امرؤ القيس :

فَظَلَلْتُ فِي دِمَنِ الدَّيَّارِ كَأَنِّي نَشْوَانُ بَاكَرِهِ صَبُوحُ مُدَامِ

الأخطل :

كَأَنِّي شَارِبٌ يَوْمَ اسْتُبِيدَ بِهِمْ مِنْ قَرَقَفٍ ضَمَيْتُهَا حِمْنُ أَوْ جَدَرِ

حسان :

تَدَبُّ فِي الجِسمِ دَبِيْبًا كَمَا دَبَّ دَبِيٌّ وَسَطَ رَفَاقِ هَيَامِ

الأخطل :

تَدَبُّ دَبِيْبًا فِي العِظَامِ كَأَنَّهُ دَبِيْبٌ نِمَالٍ فِي نَقَا يَتَهَيَّلِ

حسان :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ الحَمْرَ فِي حَانُوتِهَا صَهْبَاءَ صَافِيَةً كَطَعْمِ الفُلْفُلِ

الأخطل :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ الحَمْرَ فِي حَانُوتِهَا وَلَعِبْتُ بِالقَيْنَاتِ كُلِّ المَلْعَبِ

عدي :

كَأَنَّ رِيحَ المِسْكِ فِي كَاسِهَا إِذَا مَرَجْنَاهَا بِمَاءِ السَّمَاءِ

الأخطل :

كَأَنَّمَا المِسْكَ نُهَبِي بَيْنَ أَرْحُلِنَا مِمَّا تَصَوَّعَ مِنْ نَاجُودِهَا الجَارِي

وقد أفاد كذلك معاني في سائر أوصافه :

كعب :

بَانَتْ سَعَادُ فقلْبِي اليَوْمَ مَتَبُولٌ مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولِ

الأخطل :

بانت سعادُ فقي العينين مملول من حبها وصحيحُ الجسمِ مَجْبُول

كعب :

من كلِّ نَضَاحَةِ الذَّقْرِى إِذَاعَرَقْتُ عَرُضَتُهَا طَامِسُ الأَعْلَامِ مَجْهُول

الأخطل :

قَنَوَاءَ نَضَاحَةِ الذَّقْرِى مَفْرَجَةٍ مِرْفَقُهَا عَن ضُلُوعِ الزَّوْرِ مَقْتُول

كعب :

يَوْمًا يَشَلُّ بِهِ الحِرْبَاءُ مُصْطَخِذَا كَانَ ضَاحِيَهُ بِالشَّمْسِ مَمْلُول

الأخطل :

وظَلَّ حِرْبَاؤُهَا لِلشَّمْسِ مُصْطَخِذَا كَانَ وارمُ الأوداجِ مَحْتَنِق

طرفة :

كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَقْسَمَ رَبُّهَا لَتُكْتَفَنَ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَد

الأخطل :

كَأَنَّهَا بُرْجُ رُومِيٍّ يُشِيدُهُ لُزٌّ بِحَصٍّ وَأَجْرٌ وَأَحْجَار

علقمة :

هَلْ تُلْحِقِنِّي بِأُولَى القَمَمِ إِذْ شَحَطُوا جُلْدِيَّةً كَأَتَانِ الضَّحْلِ عُلُكُوم

الأخطل :

بِحِرَّةٍ كَأَتَانِ الضَّحْلِ أَضْمَرَهَا بَعْدَ الرِّبَالَةِ تَرْحَالِي وَتَسْيَارِي

امرؤ القيس :

كَأَنَّ بِهَا هَرًّا جَنِيًّا تَجْرُهُ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَادَفْتَهُ وَمَازَقِي

الأخطل :

كَأَنَّهَا يَعْتَرِيهَا كَلَّمَا وَخَدَتْ هِرًّا جَنِيْبًا بِهِ مَسٌّ مِنَ الْكَلْبِ

امرؤ القيس :

إِلَى عِرْقِ الشَّرَى وَشَجَتْ عُرُوقِي وَهَذَا الْمَوْتُ يَسْلُبُنِي شِبَابِي
وَنَفْسِي سَوْفَ يَسْلُبُنِي وَجِرْمِي وَيُلْحِقُنِي وَشِيكَآ فِي التَّرَابِ
وَأَعْلَمُ أَنَّيَ عَمَّا قَلِيلٍ سَأَنْشَبُ فِي شَبَا ظُفْرٍ وَنَابِ

الأخطل :

وَنَفْسُ الْمَرْءِ تَرُضُّهَا الْمَنَابِإُ وَتَحْدُرُ حَوْلَهُ حَتَّى يُصَابَا
إِذَا أَمَرْتُ بِهِ أَلْقَتْ عَلَيْهِ أَحَدًا سَلَاحِيهَا ظُفْرًا وَنَابَا
وَأَعْلَمُ أَنِّيَ عَمَّا قَلِيلٍ سَتَكْسُونِي جَنَادِلَ أَوْ تَرَابَا

النابعة :

نَظَرْتُ بِمَقْلَةٍ شَادِنٍ مُتَرَبِّبٍ أَحْوَى أَحَمَّ الْمُقْلَتَيْنِ مُقْلَدٌ

الأخطل :

تَرَنُو بِمَقْلَةٍ جُوذَرٍ بِجَمِيلَةٍ وَبِمُشْرِقٍ بِهَجٍّ وَجِيدٍ غَزَالِ

الأعشى :

غَرَآءُ فَرَعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا
تَمْشِي الْهُوَيْنَى كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الْوَحْلِ

الأخطل :

غَرَاءُ فَرَعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا كَأَنَّهَا أَحْوَرُ الْعَيْنَيْنِ مَكْحُولٌ

الأعشى :

وقد قالت قُتَيْلَةُ إذ رَأَتْني وقد لا تَعْدَمُ الحسَاءُ ذَامَا
أَرَكَ كَبِيرَتَ واستحدثتَ خُلُقًا وودَّعتَ الكوَاعِبَ والمُدَامَا
فإنْ تَكُ لِمَتِّي يا قَتْلُ أَضحتُ كأنَّ على مفارقِها ثَغَامَا
وأفصَرَ باطِلي وصحوتُ حتى كأنْ لمْ أَجرِ في دَدَنِ غُلَامَا
فإنْ دوائرَ الأيامِ يُفْنِي تَتابعُ وقَعِها الذِّكْرَ الحسامَا

الأخطل :

فإن يك رَيْقِي قد بان مني فقد أروي به الرِّسْل اللُّهَابَا

وربَّما قلَّده رنسخ عنه في وصف الشور الوحشي . قال النابغة :

مُجْرَسٌ وَحَدٌ جَابٌ أَطَاعَ لَهُ نَبَاتُ غَيْثٍ مِنَ الوَسْمِيِّ مِبْكَارِ

الأخطل :

أو مُقْفَرٌ خَاضِبُ الأظلافِ جَادَ لَهُ غَيْثٌ تَظَاهَرَ فِي مَيْثَاءِ مِبْكَارِ

النابغة :

وبات ضيفاً لأرطاةٍ وألجأه مع الظلام إليها وابلٌ سار

الأخطل :

بات في جنبِ أرطاةٍ تُكفئُهُ رِيحٌ شاميةٌ هبتُ بأمطار

النابعة :

باتت له ليلةٌ شهباءُ تضربه منها مخاشِبُ شَفَّانٍ وأمطار

الأخطل :

يجول ليلته والعَيْنُ تضربه منها بغيثٍ أجشُ الرعد نيار

النابعة :

سَرَّاتُهُ ما خلا لِبَّاتِهِ لَهَقُ وفي القوائم مثلُ الوشمِ بالقار

الأخطل :

أما السَّراةُ فمن ديباجةٍ لَهَقِ وبالقوائم مثلُ الوشمِ بالقار

النابعة :

حتى إذا ما انجلت ظلماءُ ليلته وأسفر الصبحُ عنه أيَّ إسفار

الأخطل :

حتى إذا انجاب عنه الليلُ وانكشفتُ سماؤه عن أديمٍ مُضجِرٍ عار

النابعة :

أهوى له قانِصٌ يسي بأكلبيه عاري الأشاجع من قنَّاص أنمار

الأخطل :

آنسنَ صوتَ قنِيصٍ إذ أحسنَ بهم كالجِينِ يَهْفُونُ من جرَمٍ وأنمار

النابعة :

مُحَالَفُ الصَّيْدِ هَبَّاشٌ لَهُ لَحْمٌ مَا إِنْ عَلَيْهِ ثِيَابٌ غَيْرُ أَطْمَارِ

الأخطل :

فِي بَيْتٍ مَنْخَرِقِ السَّرْبَالِ مَعْتَمِلٍ مَا إِنْ عَلَيْهِ ثِيَابٌ غَيْرُ أَطْمَارِ

النابعة :

انْقَضَ كَالْكُوكَبِ الدُّرِّيِّ مُنْصَلْتاً يَهْوِي وَيَخْلِطُ تَقْرِيباً بِإِحْضَارِ

الأخطل :

فَانْصَاعَ كَالْكُوكَبِ الدُّرِّيِّ مَيِّعْتَهُ غُضْبَانَ يَخْلِطُ مِنْ مَعَجٍ وَإِحْضَارِ

ولقد توسل ، غالباً ، القسم في معرض التأكيد كقوله :

فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وَمَا هُرَيْقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِدَاتِ الطَّيْرِ تَمْسُحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغَيْلِ وَالسَّعْدِ
مَا قَلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتَيْتَ بِهِ إِذَا فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَى يَدِي

وقوله :

خَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَهَلْ يَأْتَمَنُ ذُو أُمَّةٍ وَهُوَ طَائِعٌ
بِمُصْطَحِبَاتٍ مِنْ لَصَافٍ وَثَبْرَةٍ يَزُرْنَ إِلَّا سِيرُهُنَّ التَّدَاغُ
سَمَاماً تَبَارِي الرِّيحَ خَوْصاً عِيُونُهَا لَهْنٌ رذَايَا بِالطَّرِيقِ وَدَائِعِ
عَلَيْهِنَّ شَعْتُ عَامِدُونَ لِحُجَّتِهِمْ فَهِنَّ كَأَطْرَافِ الْقَسِيِّ خَوَاضِعِ
لِكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ أَمْرِي وَتَرَكْتَهُ كَذِي الْعُرِّ يُكْوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعِ

وقوله :

حلفتُ يميناَ غيرَ ذي مثنويَّةٍ ولا عِلْمٍ إلا حُسْنُ ظَنِّ بصاحب
لئنْ كانَ للقَبْرَينِ: قَبْرٍ بِجِلْقٍ وقَبْرٍ بِصَيْدَاءِ الذي عندَ حَارِبِ
وللحارثِ الجَحْفِيِّ سَيِّدٍ قَوْمِهِ لَيَلْتَمِسَنَّ بِالْجَيْشِ دارَ المُحَارِبِ

ولقد اتخذ الأخطل أداة القسم وخرَّجها على فنَّيته الخاصة به في قوله :

إنِّي حلفتُ برَبِّ الراقصاتِ وما أَضْحَى بِمَكَّةَ من حُجْبٍ وأَسْتارِ
وبالهِدْيِ إذا احمرَّتْ مذارعُها في يومِ نُسْكِ وتَشْرِيقِ وتَنْحارِ
وما بزَمَزَمَ من شَمْطِ محلِّقَةٍ وما بيثربَ من عُونِ وأَبْكارِ
لأَجْأَتْنِي قَرِيشٌ خائفاً وجِلاَ ومولتني قريش بعد إقتارِ

وفي مدح عبد الله :

ولقد حلفتُ برَبِّ موسى جاهداً والبيتِ ذي الحُرُماتِ والأَسْتارِ
وبكلِّ مُهْتَبَلٍ عليه مُسوحُه دونَ السماءِ مَسْبُوحِ جَأَرِ
لأَحْبَرَنَّ لابنِ الخليفةِ مِدْحَةَ ولأَقْدِفَنَّ بها إلى الأَمْصارِ

وفي مدح بشر :

إنِّي وربِّ النَّصارى عندَ عيدِهِمِ والمسلمينِ إذا ما ضَمَّها الجُمُعُ
وربِّ كلِّ حَبِيسٍ فوقَ صَوْمَعَةٍ يُمَسِّي ولا همُّهُ الدُّنيا ولا الطَّمَعِ
والمُلْبِدينِ على حُوصٍ مُخْدَمَةٍ قد بانَ فيهنَّ من طولِ السُّرَى خَضَعِ

هذا وقد اتخذ من زهير تكنية الشعر الحولي ، المثقف ، المحكك القائم على
الموصوفات وعرض المشاهد الحسية المتمادية والتنامية والمبدولة على أقساط حتى

نهايتها ، بل إنّه اقتبس منه التّعبير الصّوري حيث تستحيل الفكرة المخترنة في الذّهن الى صورة تشاهد في البصر، مستمدّة من واقع البيئة ومستفادة من الخبرة الحسيّة في معالم الطبيعة وغرائز الحيوان وطباع الانسان .

وعلى الجملة نقول إن الرّؤيا الشعريّة العامة ، عند الأخطل ، ظلّت مماثلة للرؤيا الجاهليّة ، كما أن القيم التي استمدّت منها معانيه ظلّت جاهليّة ، فيما عدا بعض المعاني السياسيّة الطّارئة .

ج - أنه التزم جانب الأحداث ، من دون التأمل : ذكرنا مراراً ان الشعر ينطلق من الأحداث ، يفعل بها أو يفعل فيها ، لكنّه لا يحفل بها في حدود تجربته القائمة على التأمل حيث تتضاءل رقعة الواقع وسجلّ أحداثه . ولقد انخرط الأخطل في السّياسة والتزم جانباً فيها ووقف موقفاً ، ممّا اقتضاه سوق الادلّة والبراهين والجدل والنقاش . وهي من مستلزمات النثر ، تهبط بالشعر وتسفحه . واتصال شعره بالوقائع الفعلية ونقله لديّها وأحداثها ، أضفى عليه الصّفة الواقعيّة البرهانيّة ، كذكر الأيام واسماء القبائل والأبطال ، مُفصّلاً ، مجزّأً ، مغالياً ، مؤكداً لوجهة نظر ألزمته ببعض الاعراض والردّ والاحتجاج ، فظلّ شعره بذلك ، كمعظم الشعر الجاهلي أداةً للنّضال ، ينتضى في وجه الخصم كالسيف . ولستا نزع من أن الشعر هو تعبير عن الغيبيّات والمجرّدات والذهنيّات ، بل إنّه متصل أشدّ الاتصال بالواقع ، لكنّه واقع آخر ، مستمدّ من الواقع المبدول ، هو الواقع الذي تسقط منه الاعراض والجزئيّات والأحداث السردية ويُسْتَبطن عبر الرّؤيا ، يحلّ فيها ولا ينفصل عنها ولا تبين معالنه فيها . الشعر هو استحضار لضمير الواقع وكشف لرموزه فوق الأحداث والاشخاص والزّمان والمكان ، يتلامح الواقع من خلاله ويُسْتَشْفى ، لكنّه لا ينبو ولا يطغى ولا يجفو . ومع أن الوصف يصدر عن نزعة المحاكاة والتقليد والتضخيم ، فإنه أدنى الى السويّة الشعريّة من السرد وإيراد الاحداث والحجج . ذاك أن المتعة الجماليّة تغلب عليه ، فيما تغلب على السرد المنفعة والأهداف الخارجيّة وغاية الاقناع بالحجّة . والشعر يُقنّع بذاته ،

من دون حاجة لغاية خارجية عنه . ويمكننا القول ان الجانب السياسي وجانب النقائص هما ساقطان من حيث مبدأ الشعر لظفواً أقداء الواقع وغناه عليهما . وقد يكون غزل عمر بن أبي ربيعة أدنى إلى السوية الشعرية لو لم ينصرف فيه هو الآخر إلى الأحداث والمنزع القصصي . وقد كان الشعر العربي مرتهاً للتقليد المباشر ، فإذا خرج الشاعر عنه ، وأفصح عن معاناته لم يتولها في إطار من التأمّل والرؤيا ، بل إنه يسيخ لها وينحني للأحداث الطارئة المدوية فيها . وفي ذلك كله وجه من وجوه التقليد المستمر المتحدّر من صلب الشعر العربي أو المستقرّ في عموده .

د - اذعانه فيه لمقتضيات المناسبة : ولقد تولد من ذلك كله ان الشاعِر فقد حرّيته إزاء نفسه وإزاء القيم والحياة والعالم ، ينفعل بانفعال سواه ويرى برؤيته ويتسخّر له ، جاعلاً صوت الشعر في بوق الدّعاية والدّعوة ، ينفخ فيه بريح النّفاق والكذب والمداجاة . وشاعر المدح يفقد ، أبداً ، صوته ونبرته الخاصة ويستعير أصوات الآخرين ، يقول فيهم ما يطيب له سماعه ، ويؤيد لهم أو عليهم ، وفقاً للمنفعة والربّح والخسارة . وصوت الشعر الأوّل هو صوت الصّدق والاخلاص ، بل إنّه متصل اتصالاً مباشراً بالضمير ، وإذا ما التفت الشاعر إلى خارج نفسه أو صحبه طيف النَّاس ودويّ الأحداث واذعن لها وانساق في سياقها انقطعت صلته بالحقيقة أو تضاءلت . فهل ان الأخطل كان صادقاً في مدحه عبد الله بن معاوية ، وقد كان قُعدّة ، خاملاً ، أهزوءة لوالده ولذويه ؟ لقد استدرّ بمدحه عطاء والديه ، مزوراً المعاني في مدح والده معاوية . والشاعر الكبير يأنف من ذلك ويعفّ عنه لأن الشعر الكبير يتولّد من ممارسة الحقيقة ومعايشتها والتأمّل بل الاستشهاد من دونها . وقد تشفع به براعه التعبير وحسن التدخل أو التكيّف أو الترام مقتضى الحال . إلا أنه ، مع ذلك ، يظلّ مستعبداً لأغراض خارجية ، ساقطة تحت وطأة الوعي ورغبة الممالأة والتكيّف ، فيتعطل الذّهول ومعه الخلق . الشعر الكبير يتولّد من الحرّية المطلقة المتخلّصة حتى من قيم الخير والشر والحلال والحرام ، الحرية المتمرّدة على مفاهيم العالم كله لتهدمه وتبنيه من جديد بالخلق النّفسي . فإذا اقتضى على الشاعر الترام موقف التقيّد بمعطيات ومقتضيات بات ينظم نظماً

ويؤلف تأليفاً ويزور ويرقش ، مما يفقد الشعر غايته النهائية الا وهي الحقيقة الأولى الحالة فيه أو الكائنة في ضميره ، يشاهدها بالرؤيا المنبثّة من داخله ، ليست مفصولة عنه ، لا يفهمها بفهمه أو يحكم عليها بحكمه . ولا غلوّ ، من بعد ، في القول بان شعر المدح والاسترضاء ، أي الشعر الذي لا تتحد فيه ذات الشاعر وذات الممدوح ، كما كان دأب المتنبي ، حيناً ، وسيف الدولة ، إنما هو شعر محمول ، مدخول ، تعطلّ فيه الابداع من تعطل الحرّيّة . ومن هنا كانت العلاقة بين التجربة الشعرية والتجربة الصوفيّة ، إذ كلاهما تستطلعان وجه الحقيقة والله بالتخلّص النهائي من ادران الوعي وأحكامه ومستلزماته، ومن وطأة الوجود وحدوده والمنطق ومداوراته . ولعلّ مدائح الأخطل في عبد الملك ذاته ، وان كانت أصفى مدائحهم لم تخلص من الشوائب إذ كان الغرض الخارجي يطغى عليها والمصلحة السياسية توجهها وتزججها ، كما تولد المعاني وفقاً لمأربها . وأظهر ما يبدو ذلك في دعوته لعبد الملك دعوة دينيّة ، يقول فيها بالايمان والاحاد ، ممّا لم يكن يؤمن به ويجري عليه . وبذلك يكون الأخطل قد سقط سقطة مميتة ، منذ انطلاقه ، إذ حوّل الشعر إلى بوق أو صنج يعدو به أمام الآخرين أو لإثرهم ، يرتن لذلك كالأجير .

ولا معوّل لذلك كله ولا شفاعة في جمال العبارة وحسن توقيعها ، إذ لا فاصل ولا حدّ في ذلك . فالرؤيا الشعرية الصّادقة تحدس لها عبارتها وتكون فيها بخلق سويّ متكامل . وهل نزع إثر ذلك أن مدائح الأخطل عديمة القيمة في الرّصيد الأخير للتقييم الفني . نقول إن شعر المدح ساقط في مبدئه لآزدواج التجربة فيه ومضاعفتها بين الشاعر والممدوح ومن ارتهانه لغاية الارضاء والاعجاب ؛ وربّما خطر بعض الشعراء بفلذة أو فلذات شعريّة عبرها ، وذلك إذ تتحد المعاناة الخاصة والمعاناة العامّة ويرتفع الشاعر عن أديم الأحداث والمظاهر ومن واقع الأشخاص إلى واقع الوجود ، يوحدّ الجزء بالكل ويتصل بالحقيقة العاقلة الفعلية والمعاناة الوجوديّة ، من دون تلك المبالغات الحمقاء ، وذلك التفسير الأرعن الذي يحيل الشعر إلى ترّهات عجفاء .

نقع على مثل ذلك في مقاطع يتغنى فيها الأخطل ببطولة عبد الملك حيث تتحد

ذاتا الشّاعر والمدح في معاناة البطولة . وقد كان الأخطل يعجب بالمدح اعجابا فعلياً ، فامتنع الازدواج وتوحّد الولاء للحقيقة ، فصفت التجربة وتجلّت في مثل قوله :

بَغَشَى القناطر بينها ويهدمها مسومٌ فوقه الرّآيات والقتر
حتى تكون له بالطفّ ملحمة وبالثّوية لم ينْبض لها وتَرُّ

كما ان وصفه لفيضان القرات قد يُحمّل على محمل آخر ، نقطع فيه صلته بمعنى الكرم والمفاضلة بين النّهر والمدح لتتخذ منه نموذجاً تغنّى فيه الشاعر بأحد عناصر الطبيعة ، ممجّداً القوّة ، متروّعاً أمامها ، حاشداً لها حشده الفنيّ كلّهُ . وقد يخرّج مدحه للوليد مخرج المودّة والصّداقة والعتاب والزّهو والفرح بنعمة الوجود ونشوة الطبيعة ، إذ يعرض فيه لوصف الحَيْلِ والقطا ، كما يعرض لوصف النّهر ، كظاهرة من مظاهر الطبيعة التي يُفتنّ بجمالها أو سرعتها أو غريزتها وقدرتها على الاحتمال . ولعلّ مدائحهُ في الوليد بن يزيد تُسِفُّ وتُداعى لانخداه عبرها وتزويره للمعاني ، بعد ان افتقد عنجهيّة القديمة وبات يستدرّ العطف ويسترحم . وهكذا يمكننا القول ان مدحه يسمو ويصفو عندما يتجاوز به المدح ولا يبرّتهنّ له فيه ولا يكاذب ويخاتل في سبيله ، بل يعرض من خلاله إلى القيم الانسانية العامّة والمظاهر الطبيعية حيث يتحد انفعاله ويحلّ فيها بنوع من الصّوفيّة العميقة والوثائق الحميمة التي تنفذ به إلى ضمائرها ، كما سوف نبين . وجملة القول في ذلك إن الأغراض الخارجيّة أكدّت على صفاء التجربة الشعرية وأشركت بها عند الأخطل ، كما أن سعيه إلى تقض معاني خصمه قيده في حدود الردّ والبينة والمبارزة ، ممّا أفقد الشعر قليلاً أو كثيراً من حرّيته .

ثانياً : مظاهر التجديد :

أ - الدّآيّة : ونفهم بها تلك النّبرة الخاصة التي يبثّها الشاعر في الموضوعات ومعانيها ، فتبدو وكأنّها صدرت عن معاناة فعليّة صادقة ، تفصح عن نفسه وعن

واقعه ، وان كانت قد سلفت فيمن تقدّمه أو وردت فيمن عاصره . وإذا كانت هذه الذّاتية شبه متعقّية في مطالعه الطللية لانعدام همومه الوجودية وشعوره بتزوح الزّمن وتصرّمه ، فإنّه بثّ قليلاً أو كثيراً منها في سائر موضوعاته . فأنت لو نظرت في مدحه ليزيد بقوله :

ألا يا اسلما على التّقدام والبلى بدوّمته خبّت أيتها الطّلان
 فلو كنت محصوباً بدومة ، مدنفاً أسقى بريق من سعاد شفاني
 وكيف يداويني الطبيب من الجوى وبرّة عند الأعور بن بيان
 أتجعل بطناً مُنتن الرّيح ، مُقفرأ على بطن خود ، دائم الحفقان
 ينهنهي الحراس عنها وليتي قطعت إليها الليل بالرّسّان
 فهلاًّ زجرت الطير ليّلة جتته بضيقة بين النجم والدبران

هذه الأبيات وبخاصة أوّلها لا تحمل معنى جديداً إذ أن تحيّة الطلل مأثورة منذ امرئ القيس ومن اليه . إلا أنك تشعر عبرها ، مع ذلك ، بمعاناة الوجد والوحشة التي تنتمي ، ظاهراً ، إلى الطلل ، فيما هي تصدر فعلاً عن شعور بالحبية من مصير الأشياء في الوجود . بل ان النغم الذي يكسوها به موحش في ذاته ، تنداح عبره لفظة لفظة « ألا » بالشجو والقنوط والسويداء ، كما أن الألف وسائر حروف اللين ومضت كالأنغام على أوتار البيت ، فبات مفعماً بحسّ الندم والافتقاد . أو ليس في مخاطبة طللين ، بدلاً من الطلل الواحد شيء من الذّاتية ؟ إن الأخطل لا يتحدّق بالطلل وليس لديه وعي أو معاناة دائمة لتجربته ؛ وهو في هذا البيت يصدر عن حسّ عام بالتخاذل أفصح عنه في الأبيات التالية من خلال مصير الجمال في الوجود . نقول في مثل ذلك إن الشّاعر بثّ سويداءه الخاصّة الصّادقة من خلال الموضوع التقليديّ الموات . وليس في البيت جدّة في المعنى وان كان شديد الغلوّ ، ومع ذلك ، فإنه عميق الوقع لما ينطوي عليه من ذهول وبراعة وعدوبة في العاطفة .

فهو يتمنى أن يُصيبه الداء ليبراً برضاب الحبيبة وسذاجة العاطفة تعوِّض عن قدمها ، كما أن النِّغم كثيب ، شاحب . فهذا كلام خاص بالأخطل وحده ، عاناه ونفته بروح جديدة نفحت فيه الحياة . ولئن لم ينفذ فيه إلى رؤيا عامة ، فان شدة صدقه فيه توهم بجدته ، بل تجعله جديداً فعلاً . وسرعان ما تتحوّل السَّويداء إلى يأس ، يُلْمَح إليه ولا يُفصح إذ يتساءل بالقول :

وكيف يدواني الطَّيب من الجوى وبرّة عند الأعور بن بنان

والتساؤل يتمُّ ، هنا ، عن القنوط ، عن قنوط شبه وجودي إذ لا يطيق الشَّاعر العيش ما دام الجمال مرتهناً إلى القبح والنَّتن . وبذلك يتَّسع أفق معاناته ، لا يلتزم فيها الدفاع السَّاقط عن خليفة بشهادة زور ، بل يدافع ويأس ويقنط لمصير القيم وهلاكها في الوجود . الذاتيّة تولدت من هذا الموقف العفوي البريء الذي لا قبل له بدفع أساه لأنه حتم مطبق عليه . وربّما عانقت الذاتيّة ، هنا ، الموضوعيّة والتجربة الشاملة العامة إذ أيقن الشَّاعر إن أقدار الظلم والغباء تصيِّر مصائر الناس وأقدارهم . هنا عثر الأخطل على نفسه ، وعانى مصير الحقيقة ، لا يراضي امراً ولا يقول قوله ولا يخدم مأربه .

ومن اليأس تتطور تجربته إلى الثورة والنقمة إذ يتساءل :

أنجعل بطناً منتن الرِّيح مقفراً على بطن خود دائم الخفقان

والذاتية تتمثل هنا ، أيضاً ، براءة الانفعال وصراحته . فهو لا يأنف من ذكر لفظة « البطن » تدليلاً على تدنس الجمال وتعفُّره وامتهانه تحت وطأة القبح وريحه الكريهة . لقد ضامه أن يدع القبح يفتزع الجمال ويروغ عليه ويمتلكه وينعم به . وليس القنوط الذي يعانيه في ذلك كله الا تعبيراً عن تقديسه المطلق للجمال وتعبُّده في محرابه . هكذا ، فإن عمق تحسسه الذاتي بمعنى الأشياء جعله يقف منها موقفاً ، ويعاني من جرأتها أشد أحوال اليأس والثورة والحيرة .

هذا شعر لا تتضاعف فيه الصورة ولا تمحلك ولا تتحوّل إلى رؤيا ، ومع ذلك ، فإن عمق الذاتيّة فيه وشدة البراءة يجعلانه من أصدق الشعر وأعمقه ، خارجاً عن الأطر المألوفة والمموم المتداولة المطروقة في تجاربه . وقد نُسمّي هذا الشعر هجاءً ، إلا أنه ليس هجاء القذف ، بل هجاء وجوديّ يعاني حسرة الحقيقة ووحشة انكسارها وتبدّلها . ولتتمثل الفلذة الفولكلوريّة الحميمة ، الصادقة في قوله :

فهلّا زجرتِ الطير ليلة جثته بضيقه بين النجم والدبرانِ

ولقد تَمصّت ذاتيته ، هنا ، بالبيئة وتقاليدها وإيمانها الغامض بأقدار النحس والسعد ، مما عمق تجربته الخاصّة بمضمون التجربة العامة . وفي يقيني أن هذا الشعر على براءته وسويدائه وعدوبة وقعه هو أعمق من تلك المعاني الطائشة الحرقاء التي كان يزورها للممدوح . وإذا كانت لا تمحلو من الصنعة في توقيع العبارة ، فإنها صنعة لطيفة ، خفيّة لم تُعفّ على ذاتيته وصراحته وبداءة عاطفته وعمقها .

ولقد كان الأخطل يعاني في تلك المرحلة معاناة جماليّة صائبة ، يعالج بها تجاربه الخاصّة ، فيذكر مثلاً التقاهه بذئب وغراب في القفر ولا يأنف من ذكر خوفه إذ لم يكن قد ارتدى ، بعد ، رداء الفروسية المخادعة . وبذكر هذه الحادثة تتماثل الذاتيّة والسيرة الخاصّة . ويعرض في هذه القصيدة للصحراء وللقطا والسباق ، وهي ذاتية ، طبعت تجربته بطابع العذوبة والصدق .

وربّما انساق الشاعِر بهذه الذاتيّة الظاهرة المضمرة إلى الاسراف في اعتماد الموضوعات الوصفية واستحضار أجواء الصحراء بحيوانها وطيرها ونباتها وسراها وريحها ومطرها وبرقها ورعدها . ومع أن هذه الموضوعات تقليديّة ، فإن انصرافه إليها انصرافاً خاصاً نمّ عن عمق تجربته وإيثاره لها ، فكأنه كان يتغنّى برومنسية الطبيعة والبداءة والصحراء . ولم يكن تردّدُه على الحمريّات من باب العرض والتقليد وحسب ، بل في سبيل التعبير عن تجربته الذاتيّة التي كانت تتحرّر ، حيناً ، وتقع في أسر التقليد ، حيناً آخر . وعندما تسرّبت تلك الذاتيّة إلى مدايح طعمتها وبثت فيها تلك العنجهيّة السيّالية في مثل قوله :

بني أمية قد ناضلت دونكم ابناء قوم هم آووا وهم نصروا
بني أمية إني ناصح لكم فلا يبين فيكم آمنا زُفَرُ

وعبر المدائح كانت ذاتيه تتقمص في وصف مشاهد البطولة والخيال وتسطع وتأتلق في مفاخره بذاته وبقومه . أو لم تكن تفاؤليته سبباً في توقيع الأحداث بحيث ينجو الحمار والثور الوحشيّان ويعثران ، غالباً ، على الماء ؟ ومن فضائل هذه الذاتية أنها معتدلة ، عاقلة لا تشتط ولا تهذر ولا تهذي ، بل تتسرّب كالروح الغامضة إلى ضمير الموضوع ومعانيه .

ب - اللفظية أو النغمية : وهي ترتبط بمعانيه الفائقة باللفظ وتخيره وتثقيفه في العبارة ، وهي لا تعني قط أنه كان يُشغف باللفظ لذاته ، كغاية مستقلة ، والقائمه صريحة ، في معظمها ، يؤثر منها المباشرة الموثقة أشدّ وثاق بمعناها ، إلا أنه يوشّيها ببعض التعاويذ والأدوات ليضعف من وقعها وينأى بها عن حدود معناها . فهو إذ يقول مثلاً :

ألا يا اسلمي يا هندُ ، هندَ بني بدرٍ وان كان حيّانا عدى ، آخر الدهر
أسيلة مجرى الدّمع ، أما وشاحها فجارٍ أما الحجل منها ، فما يجري

نجد أن « ألا » الاستفتاحية تستهلُّ بكثير من الترنح والدُّهول واللهفة ، وهي معانٍ تواكب معنى التحيّة وتضفره ولا تسفر وتنجلي . ويتضاعف ذلك كلّه بحرف النداء الذي أردف به وتكرار لفظه هند ، فكأنه وقع عبارته توقيماً خاصاً ليفيد منه ذاك السّوع من البتّ الذي يتسرّب إلى النّفس ويفعل فيها دون وعي منها . وقد يوشّح العبارة بنوع من الجناس التكراري اللطيف ، الحفر ، كما في قوله : « أما وشاحها ، فجارٍ ، أما الحجل منها فما يجري » ، حيث تردّد على « أمّا » التفصيلية ولفظي جارٍ ويجري ، فكأن لهذه الأدوات والألفاظ وظيفة إيحائية ، ايقاعية ترفد وظيفتها المعنوية الملازمة لها . وإذا كانت الصنعة لا تطفو ولا تطفئ

في ذلك كُله، فذاك لأن الأخطل لم يتردد في غواية البديع والزخرف التي تخلب وتطرب ، فيما هي تظللُ خرساء لا تُفصح ولا تُلمح . وحتى في قوله التالي :

وكنتم إذا تنأون منا ، تعرّضت خيالاً لتُكم أو بت منكم على ذكرٍ

نعثر على تخيّر لطيف للفظ وتوزيع إيحائي لحروف اللين بين الألفاظ ، فكأنه ينتخب اللفظة عبر سياق إيقاعي عام . وفعل تعرّضت المنسوب إلى الخيالات يتم عن بعض الألفاظ التصويرية الشفافة التي يعترزي بها الشاعر ، حيناً . ومثل ذلك قوله : « تموت وتحي بالضحج » حيث ازدوج المعنى الواقعي والمعنى التصويري .

وعلى الجملة فإن هذه الأبيات وقعت في عبارة محكمة ، مصنوعة ، إلا أن صنعتها لا تتجهّم ولا تحلوك بل تجدها متوارية ، خفية . والأخطل يحمل بعض الصيغ على غير محلها ليشتق منها دلالة تقوم بغايته ، فيتوسّل صيغة الماضي للتدليل على الغلو ، فضلاً عن الديمومة والاستمرار كقوله :

وكنتم بني العجلان أأم عندنا وأحقر من أن تشهدوا عالي الأمر

ففي فعل « كنتم » ضرب من الغلو من تدليله على القدم والعراقة والزمن البعيد ، فكأن لؤم بني العجلان وحقارتهم هما أمران مأثوران ، مقرران فيهما ، منذ عهد سحيق بعيد ، كما أنهم ما زالوا يُقيمون على ما وُسِمُوا به .

ويعمد ، كذلك ، إلى الألفاظ القاطبة التي تسمو بالمعنى إلى ذروته دون تفصيل وانهاك ، كما في قوله :

ونجى ابن بدر ركضه من رماحنا ونضّاحة الأعطاف ، ملهبة الحُفر

فلفظ « ركض » أوجز المعنى وغالى به ، وبخاصة بعد أن أردفه بالرّمح حيث استحال الرّكض إلى مظهر من مظاهر الهرب والجبن . وقد أضمر في لفظة « ركض »

فضلاً عن ذلك معنى السخرية والشّامة والعار ، وهي لم تحدس له مباشرة أو أنها حدست وفقاً لتوقيع خنفر لطيف يؤلف معاني متعددة ويُعمّقها من خلال معنى واحد متداول . ويسمو ، كذلك ، إلى ذروة نسبية بما ساقه من نعوت في الشّطر الثّاني حيث تكنّى عن الفرس بما يُظهر شدّة عدوها وارهاقها أي شدّة جنب صاحبها الذي يتولّى ناجياً بنفسه على متنها . ولقد عزل من مظاهر الفرس المظهر الأدل على غايته، وهو نضح الأعطاف والتهاب العدو ، ولفظنا « نضّاحة والتهاب » أوفنا بالمعنى إلى ذروته وغايته الأخيرة إذ مثلاً عظم ما أنهكت به الفرس من عدو . هنا تماثلت الكناية واللفظة واحتضنت إحداهما الأخرى ، بل ان اللفظة تحطّت حدود معناها الأصيل إذ تضاعفت فيها الضاد ، دالة على الشدّة والغلو . ولعلّ ألفاظ البيت التّالي هي أدلّ على فضيلة العبارة الأخطلية حيث تنطوي اللفظة الواحدة على معنى ، يتضاعف ويشدّد بألفاظ أخرى ماثلة :

ركوب على السّوات قد شنّم استه مزاحمة الاعداء والنّخس في الدّبر

فالألفاظ هي ألفاظ حاشدة هنا : « السّوات ، الاست ، النّخس ، الدّبر » ؛ ومنذ مطلع البيت يتوسّل للغلو أدوات وصيغاً متباينة . فثمة صيغة « فعول ، ركوب » وهي صيغة مبالغة في أصل اشتقاقها ، ولفظة « السّوءة » التي أدّيت بصيغة الجمع الدّال على الكثرة بما لا حدّ له ولأنواعه ، ثم إنّه يُزجي المشهد في سياقه ، بل إنه يتجاوزه إذ جعل استه تشنّم بالضرب والنّخس . وفعل شنّم اشتقّ من صيغة « فعّل » الدّالة على الشدّة والحدّة والكثرة ، كما أن لفظة « نخس » تضمر بذاتها الدّلالة على أنه يُزجر وينخز كالدّابة . هكذا يؤلف الأخطل للمعنى ألفاظه ويستدرّها ويحشدها ، لا يقبل عليها بيسر ولا يرضى عن اللفظة المباشرة ، بل يتخيّر اللفظة المكثّفة التي تستودع معاني متعددة ، وتجسّد أقصى غاية المعنى . وهذه اللفظية المتمثلة حيناً بصيغ المبالغة أو صيغ الجمع أو حشد الألفاظ المتماثلة والمتنامية هي التي جعلت النقاد يصنّفونه في مذهب زهير وسواه من أصحاب الصنعة والتثقيف والتحكك . فهو إذ يثبت لفظه ويقرّها وإنما يثبت اللفظة الأخيرة التي تفوّقت على ما دونها ونزعت بالمعنى إلى نهاية مطافه . فهل أن لفظي « النّخس والدّبر » وردتا

في الصدفة والاتفاق أم أن الشاعر ألحف في السعي حتى عثر عليهما . يُخيّل إلينا أنهما لفظتان مُختارتان أوفى إليهما الشاعر في دربته العميقة التي تدع اللفظ يحمل ذروة المعنى دون أن ينوء بها ويعيا من دونها . هذا هو الاسلوب الزُهيري ، إنّه ضرب من النَّحت للمعنى باللفظ أو أنه اللفظ الضنين بذاته لا يتبدّل ، بل يوقع على إيقاع مضمّر للمعنى . وإذا كان الشاعر قد أسفّ ، حيناً ، في بعض الألفاظ النَّثرية ، التقريرية ، كما شهدنا في وصفه للخمرة ، فإنّه إذ يُمارس فه الصّعب يأنف من اللفظة الثابتة ، المحدّدة ، ويظلُّ يرود على اللفظ والمعنى ، حتّى يزاوجهما باعتدال وموازنة .

ولتتمثّل عنجهية اللفظ وعنفوانه في قوله :

سَمَوْنَا بِعَرَيْنٍ أَشْمٍ وَعَارِضٍ لَنَمْنَعُ مَا بَيْنَ الْعِرَاقِ إِلَى الْبِشْرِ

وألفاظ الشطر الأوّل تَحْتَشِدُ احتشاداً على معناها حيث يَنْضَحُ السُّمُو بِالْحَيْلَاءِ والعرين بالعنفوان والتيه ، وقد توسّله عن الأنف أو ما اليه لأن صيغة لفظه مشحونة في ذاتها بالشدّة والكبرياء والأنفة .

وأبلغ ما يُظهر ضيلة اللفظ في شعره وصفه للفرات بقوله :

وَمَا الْفُرَاتُ ، إِذَا جَاسَتْ حَوَالِيَهُ فِي حَافَتَيْهِ وَفِي أَوْسَاطِهِ الْعُشْرُ
وَذَعْدَعَتَهُ رِيَّاحُ الصَّيْفِ وَاضْطَرَبَتْ فَوْقَ الْجَاحِيءِ مِنْ آذِيَةِ غُدْرُ
مَسْحَفَرٍ مِنْ جِبَالِ الرُّومِ ، يَسْتَرُهُ مِنْهَا أَكَافِيْفُ فِيهَا ، دُونَهُ ، زَوْرُ

فهو يتوسل في البيت الأول بصيغ الجمع الدالة على الكثرة بطبيعة وزنها كلفظي « حوالب » و« أوساط » ، فضلاً عن الألف الممدودة والحروف المشدّدة التي تعقبها قافية متتالية الحركات ، ممّا يوحي للقارئ بأن الأخطل كان يتعمّد مضاعفة المعنى والايحاء به من خلال ما يواكبه من أجراس الحروف واداء العبارة وبنائها .

وإذا ما أنعمنا في البيت الثَّاني من هذا الوصف ، لبدا لنا أن الشَّاعر أقام فيه على أسلوب الغلوِّ المتولِّد من صيغ اللَّفظ . فهو لم يَقُلْ "إن ريح الصَّيْف ذعدته ، بل أنه ألم من دونها بلفظة « رباح » ، وهي أشدُّ ذعدَةً وبالتَّالي أبعاد إبحاءٍ بجوِّ الصَّخب الَّذي يُمثِّله . وقد تدانى ذلك لفظة « جآجىء » ، وهي تطلعننا على كثرة عدد السُّنن التي ينتابها الموج ، ممَّا يمدُّ أبعاد المشهد ويضاعف من سورة الفيضان والتدفُّق التي لا يزال يتألب لرسمها . أما لفظة « مسحفر » فهي على غرابتها في هذا المقطع تدلُّ على حشد لفظيٍّ وصورِيٍّ ومعنويٍّ جسَّد به ما وقع في نفسه منه ولم على النَّقل المباشر .

• • •

رأي القدماء في شعره

جمع ابن سلام الأخطل والفرزدق وجرير في طبقة واحدة ، هي الطبقة الأولى التي تقابل الطبقة الجاهلية الأولى أي امرئ القيس والأعشى والنابغة وزهير . ولهذا أجمع أرباب اللغة وأصحاب النحو على تقديمه ، ففضلوه على جرير والفرزدق بأنه كان أكثر منهما عدد طوال جياذ ليس فيها سقط ولا فحش . وأشد منهما تهدياً للشعر ٢ . واعترف جرير بذلك ، فقال : « كان أشدنا اجترأ بالقليل ٣ » .

ولهؤلاء النقاد القدامى لفتات قيمة في تقدير شاعرية الأخطل . فهم قد تنبهوا مثلاً إلى أنه يجيد صفة الملوك ، ويصيب نعت الخمر ، وفضله جرير في ذلك على نفسه وعلى الفرزدق ، فقال : « فاما الأخطل ، فأنعتنا للخمر وأمدحنا للملوك ٤ » . وأكد ذلك الفرزدق ، فقال : « كفاك باين النصرانية إذا مدح ٥ » . وجمعوا إلى براعته في المدح إجادته للهجاء ، وأشاروا إلى تعففه في الهجاء عن الفحش ، وبينوا دقة موقفه في هجاء خصومه .

(١) جميع هذه الأحكام وأحصاها وعلق عليها السيد مصطفى غازي في كتابه عن الأخطل صفحة ٢١٠ وما بعدها .

(٢) م . ن ، ج ٨ ص ٢٨٣ و ١٩١ و ٢٩٢ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٦ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٧٢ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٠٦ .

وقال مروان بن أبي حفصة :

ولقد هجا فأمضَّ أخطلُ تغلبٍ وحوَى اللّهُمَى بمدِيحِهِ المشهور (١)

وقال إسحاق بن مروان الشيباني لابن النطاح : « الأخطل عندنا أشعر الثلاثة » ، فقال : « يقال إنه أمدهم » ، فقال : « لا والله ، ولكن أمدهم (٢) » . وقال عمر بن شبة : « كان مما يقدم به الأخطل أنه كان أخبثهم هجاء في عفاف عن الفحش (٣) » . وسأل سليمان بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز عن الأخطل وجريير ، فقال : « إن الأخطل ضيق عليه كغمه القول ، وإن جرييراً وسع عليه إسلامه قوله ، وقد بلغ الأخطل منه حيث رأيت (٤) » . واعترف جريير لابنه بقدرة خصمه على الهجاء ، فقال : « يا بني ، أدركت الأخطل وله ناب واحد ، ولو أدركته وله ناب آخر لأكلني به ، ولكني أعانفتي عليه خلصتان : كبر سن ، وخبث دين (٥) » .

ويحدثنا الرواة بأن الأخطل كان معجباً بنفسه أشد الإعجاب ، معتزاً بشعره أشد الاعتزاز .

أنشد أبو حية النميري يوماً أبا عمرو :

يَا لَمَعَهُ وَيَا لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ وَيَا لِفَاتِهِمْ يَوْمًا وَمِنْ شَهْدَا

كأنه معجب بهذا البيت ، فجعل أبو عمرو يقول له : « إنك لتعجب بنفسك كأنك الأخطل (٦) » . وبلغ من اعتداده بشعره أنه لم يعترف لأحد من المعاصرين

١ - ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٤١ .

٢ - أبو الفرج : الأغاني ، ج ٨ ص ٢٨٧ .

٣ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٠٠ .

٤ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٠٦ .

٥ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٥ .

٦ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٩٠ .

بالفضل عليه . ويبدو أنه كان مقدرًا لما يبذله في شعره من جهد ، كما كان مقدرًا لما لشعراء الجاهلية عليه من فضل . سأله عبد الملك عن أشعر الناس ، فقال : « أنا يا أمير المؤمنين (١) » . وسأله عمر بن الوليد نفس السؤال ، فقال : « الذي كان إذا مدح رفع ، وإذا هجا وضع » ، قال : « من هو ؟ » ، قال : « الأعشى » ، قال : « ثم من ؟ » ، قال : « ابن العشرين » (يعني طرفة) ، قال : « ثم من ؟ » ، قال : « أنا » (٢) . وسئل عن موقفه من الفرزدق وجريير ، فقال : « أنا واللوات أشعر منهما (٣) » . وأخبر المدائني أنه قال : « أشعر الناس قبيلة بنو قيس بن ثعلبة ، وأشعر الناس بيتاً آل أبي سلمى ، وأشعر الناس رجلاً قي قميصي (٤) » . وقال له بشر وعنده الراعي : « أنت أشعر أم هذا ؟ » ، فقال : « أنا أشعر منه وأكرم (٥) » . واستنشده داود بن المساور ، فقال : « أنشدك حبة قلبي » ، ثم أنشد :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَسْرَيْتُ لَيْلَ عَاجِزٍ بِسَاهِمَةِ الْحَدَّيْنِ طَاوِيَةَ الْقُرْبِ

فقال داود : « من أشعر الناس » ، قال : « الأعشى » ، قال : « ثم من ؟ » ، قال : « ثم أنا (٦) » . وبلغ من اعتداده بنفسه أنه امتدح هشاماً فأعطاه خمسمائة درهم ، فلم يرضها وخرج فاشتري بها تفاحاً وفرقه على الصبيان (٧) .

وكان الشعبي يضيق بهذا الاعتداد ، فيذكره بفضل السابقين عليه وبخاصة أعشى قيس ونابغة ذبيان . وقد تحداه الأخطل يوماً ، فقال : « يا شعبي ، فعل الأخطل بأمهات الشعراء جميعاً » ، فقال : « بأي شيء ؟ » ، قال : « حين يقول :

- ١ - نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢١ .
- ٢ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٩٣ .
- ٣ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٨ .
- ٤ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٧ .
- ٥ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٩٤ .
- ٦ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣٠٣ .
- ٧ - نفس المصدر ، ج ٩ ص ١٢٣ .

وتظللّ تنصيفنا بها قَرَوِيَّةٌ إِبْرِيْقُهَا بِرِقَاعِه مَلْشُومٌ
فإذا تعاورتِ الأَكْفُ زجاجَها نَفَحَتْ فِشْمٌ رِيَاحَها المَزْكُومُ «

فقال : أشعر منك الذي يقول :

«وَأَدْكِنَ عَاتِقِي جَحْلِي رِبْحَلِي صَبَحْتُ بِرَاحِهِ شَرِباً كِرَاماً
من اللّائِي حُمَلْنَ عَلَى المَطَايَا كَرِيحِ المِسْكِ تَسْتَلُّ الرُّكَامَا «

فقال : « ويحك ! ومن يقول هذا » ، قال : « الأعشى ، أعشى بني قيس بن
ثعلبة » ، فقال : « قدوس ! قدوس ! فعل الأعشى بأمهات الشعراء جميعاً وحق
الصليب (٢) ! » . وسأله عبد الملك وعنده الشعبي : « ويحك ! من أشعر الناس ؟ »
فقال : « أنا يا أمير المؤمنين » ، فقال الشعبي : « أشعر منك الذي يقول :

هذا غلامٌ حسنٌ وجهُهُ مستقبلُ الخَيْرِ سريعُ التمامِ «

فقال : « صدق والله يا أمير المؤمنين ، النابغة والله أشعر مني (١) » . وفي رواية
أخرى أنه رد على الشعبي ، فقال : « إن أمير المؤمنين إنما سألتني عن أشعر أهل زمانه ،
ولو سألتني عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حريّاً أن أقول كما قلت أو شبيهاً به (٢) » .

وتنبه النقاد القدامى إلى أن تأثير الأخطل بالنابغة الذي ياني وأشاروا إلى التشابه القائم
بين أشعارهما ، كما تنبهوا إلى تأثير الأخطل بالشعر الجاهلي عامة ، وذكروا أنه كان
أشد في ذلك من جرير والفرزدق . قال أبو عبيدة : « وكان أبو عمرو يشبه الأخطل
بالنابغة لصحة شعره (٣) » . وقال أيضاً : « الأخطل أشبه بالجاهلية وأشدهم أسر

١ - نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢١ و ٢٢ .

٢ - نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢٠ .

٣ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٦ .

شعر وأقلهم سقطاً (١) . وقال ابن قتيبة : « وكان الأخطل يشبه من شعراء الجاهلية بالنابغة الذبياني (٢) » .

على أن هؤلاء النقاد ، وإن كانوا قد تنبهوا إلى ذلك ، فهم لم يعنوا بتتبعه واستقصائه ، ولم يعقدوا الموازنات التي تبين مداه وتلم أطرافه . وما أكثر ما نفع لهؤلاء النقاد على النقد اللماح المركز الذي يكتفي بالإشارة عن التفصيل ، ويتجه إلى الإيجاز والتركيز أكثر مما يتجه إلى تحليل النصوص تحليلاً يقف على خصائصها الدقيقة . نفع لهم على هذا اللون من النقد حين يقابلون بين الأخطل والسابقين ، أو حين يقابلون بينه وبين المعاصرين ، فيكتفون في ذلك بالإشارة الدالة والمحة المعبرة .

سأل معاوية بن أبي عمرو بن العلاء محمد بن سلام : « أي البيتين عندك أجود ، قول جرير :

أَلَسَمَ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايِسَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ ؟

أم قول الأخطل :

شُمْسُ الْعِدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا ؟ »

فقال : « بيت جرير أحلى وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرصن » ، فقال : « صدقت . وهكذا كانا في أنفسهما عند الخاصة والعامة (٣) » .

وقال الأخطل للفرزدق : « والله إنك وإياي لأشعر منه ، ولكنه أوتي من سير الشعر ما لم نؤته . قلت أنه قال بيتاً ما أعلم أن أحداً قال أهجى منه ، قلت :

١ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٩٢ .

٢ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص ١٨٩ .

٣ - أبو الفرج : الأغاني ، ج ٨ ص ٢٠٥ .

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلبَهُمْ قالوا لأهمهم : بُوي على النار !
فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر ، وقال هو :

والتغليُّ إذا تنحج للقرى حكَّ استه وتمثَّل الأمثالا
فلم تبق سقاة ولا أمثالها إلا روه (١) .

وأشد عبد الملك قول كثير فيه :

فما تركوها عنوةً عن مودةٍ ولكن بحدِّ المشرِّفي استقالها
فأعجب به ، فقال له الأخطل : « ما قلت لك يا أمير المؤمنين أحسن منه » .
قال : « وما قلت ؟ » ، قال : « قلت :

أهلثوا من الشهرِ الحرامِ فأصبحوا موالِيَ مُلكِ لا طريفٍ ولا غضب
جعلته لك حقاً ، وجعلك تأخذه غضباً » ، قال : « صدقت (٢) » .

وإذا كان القدامى قد فطنوا إلى الأغراض الشعرية التي يجيد فيها الشاعر ، أو إلى
الغرض الذي انصرف إليه وبرع فيه ، فهم لم يفصلوا القول في مواطن هذا الإجابة ،
واكتفوا في ذلك بالبيت الواحد يرون به الشاعر أشعر العرب أو أمدح الناس أو
أهجي الشعراء ، وقد يتناولون البيتين أو الثلاثة ، وهذا في القليل النادر .

فالأخطل أهجي الشعراء بقوله :

ونحنُ رفعنا عن سَلُولِ رماحنَا وعمدأ رغبتنا عن دماء بني نصر (٣)

١ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٣١٨ .

٢ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٨ .

٣ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢٨٧ .

وهو أمدح الشعراء بقوله :

شُمْسُ العداوةِ حتى يُستَقادَ لهم وأَعْظَمُ الناسُ أحلاماً إذا قدرُوا (١)

والأخطل نفسه يقول : « فضلت الشعراء في المديح والهجاء والنسيب بما لا يلحق بي فيه . فأما النسيب ، فقولي :

ألا يا اسلمي يا هندُ هندَ بني بَدْرِ وإن كان حيّانا عِدِي آخر الدهر
من الخفِرات البيضِ ، أمّا وشاحُها فيجري ، وأمّا القلبُ منها فلا يجري
تموت وتحيّا بالضحيجِ ، وتلتوي بمطرّد المتنين مُنبتِرِ الحَصْرِ

وقولي في المديح :

نفسى فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النّواجدَ يوم عارمٌ ذكر
الخائضُ الغمرةَ ، الميمونُ طائرهُ خليفةُ الله ، يُستسقى به المطر

وقولي في الهجاء :

وكنْتَ إذا لقيتَ عبيدَ تيمٍ وتيماً ، قلتَ : أيهمُ العبيدُ ؟
لئيمُ العالمين يسود تيماً وسيدُهم ، وإن كبرها ، مسود (٢) »

على أن فريقاً من النقاد لم يعترف للأخطل بهذه المترلة التي كان يرفع نفسه إليها ، ويعترف له بها المعجبون به من الرواة والعلماء . سأل ابن سلام بشاراً العقيلي عن الثلاثة ، فقال : « لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه (٣) » .

١ - ابن رشيقي : العمدة ، ج ٢ ص ١٣٢ .

٢ - أبو الفرج : الأغاني ، ج ٨ ص ٢٩٧ و ٢٩٨ .

٣ - ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٣٩ .

وقال أبو الفرج : « فأما قدماء أهل العلم والرواة ، فلم يسووا بينهما وبين الأخطل ، لأنه لم يلحق شأوهما في الشعر ، ولا له مثل ما لهما من فنونه ، ولا تصرف كتصرفهما في سائرهما ، وزعموا أن ربعة أفرطت فيه حتى ألحقته بهما (١) . وقال أيضاً : « وهو ، وإن كان له فضله وتقدمه ، فليس نجره من نجار هذين في شيء (٢) » . وبالغ بشار بن برد في الخط من شأنه ، فقال : « والله ما كان الأخطل مثل جرير والفرزدق ، ولكنهما كانا من مضر ، فكهرت ربعة ألا يكون منها مثلهما ، فتعصبت له ، ورفعت منه . ولقد كان يجتمع هو وجماعة من قومه على شراهم ، فيقول هذا بيتين ويقول هو الأكثر ، ويختار الأخطل حتى تجتمع قصيدة ، فيبعث بها إلى جرير (٣) » .

وعنى بعضهم بتتبع سقطاته ، واتهموه بالإغارة على شعر القدامى ، فقد مدح سماكاً الأسدي ، وقومه يلقبون القيون ، فقال :

قد كنت أحسبه قيناً وأنبأه فاليوم طير عن أثوابه الشرر

فقال سماك : « يا أخطل ، أردت مدحي فهجوتني ، كان الناس يقولون قولاً فحققتة (٤) » . وفي رواية أخرى أنه قال : « أبا مالك ، كان هذا بزاً ننبز به ، فأردت نفيه عنا فأثبتته علينا (٥) » . وهجا سويداً السدوسي ، فقال :

وما جذع سؤء خرق السؤس جوفه لما حملته وائل بمطيق

فقال سويد : « يا أبا مالك ، لا والله ما تحسن تهجو ولا تحسن تمدح ، بل تريد الهجاء فيكون مديحاً ، وتريد المديح فيكون هجاء . قلت لي وأنت تريد هجائي

١ - أبو الفرج : الأغاني ، ج ١٩ ص ٤٨ .

٢ - نفس المصدر ، ج ٨ ص ٤ .

٣ - المرزباني : الموشح ، ص ١٣٨ و ١٣٩ .

٤ - أبو الفرج : الأغاني ، ج ٨ ص ٣١٢ .

٥ - المرزباني : الموشح ، ص ١٣٦ .

« لما حملته وائل بمطيق » ، فجعلت وائل حملتي أمورها ، وما طمعت في ذلك من بني ثعلبة فضلا عن بكر بن وائل ، ومدحت في نفسك سماك بن عمير أخا بني أسد ، وأردت أن تنفي عنه شيئا ، فحققته عليه (١) . وأخذوا عليه قوله في هجاء قيس :

وثائرُ قيسٍ لا ينام ولا يَنسي وإنْ لا يَجِدُ إلا العَشيمةَ يَغشِم

فقالوا : « جزى أبو مالك خيراً ، فقد بالغ في المديح (٢) » . وذكروا أنه لما أنشد عبد الملك : « خف القطين فراحوا منك أو بكروا » ، تطير منه الخليفة ، وقال : « بل منك ، لا أم لك ! » ، فعدل الأخطل ، فقال : « فراحوا اليوم أو بكروا (٣) » .

وآتهموه بالسرقه من الشعر القديم ، ورووا أنه كان يقول : « نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة (٤) » . وذكروا أنه أنشد ابن بشير المدني قصيدته « صرمت جبالك زينب ورعوم » ، فلما انتهى إلى قوله :

حتى إذا أخذ الزجاج أكفنا نفحت فأدرك ريحها المزكوم

قال : « ألسنت تزعم أنك تبصر الشعر ؟ » ، قال : « بلى » ، قال : فكيف لم تشق بطنك فضلا عن ثوبك عند هذا البيت ؟ » ، قال : « قد فعلت عند البيت هو ؟ » ، قال : « بيت الأعشى :

من خمر عانة ، قد أتى لِحتامها حَوْلٌ ، تفضُّ غمامةَ المزكوم »

١ - نفس المصدر ، ص ١٣٥ .

٢ - نفس المصدر ، ص ١٣٦ .

٣ - نفس المصدر ، ص ١٤٢ .

٤ - نفس المصدر ، ص ١٤١ .

مختارات

فما يزال جدا نعماك يمطرني

من مدائحك في يزيد

ذكر الحبيبة والبين والمشيبي

- ١ بانَتْ سَعَادُ ، ففي العَيْنَيْنِ تَسْهَيْدُ واستَحْقَبْتُ لُبَّهُ ، فالقَلْبُ مَعْمُودُ
- ٢ وقد تَكُونُ سَلِيمِي غيرَ ذي خُلْفِ فالْيَوْمَ أَخْلَفَ من سَعْدِي المَوعِدُ
- ٣ لَمَعًا وإِيمَاضَ بَرَقِ ، ما يَصُوبُ لَنَا وَلَوْ بَدَأَ من سَعَادَ النَّحْرِ والجَيْدُ
- ٤ إِمَّا تَرَيْني حَنَانِي الشَّيْبُ من كِبَرِ كَالنَّسْرِ أَرْجُفُ ، وَالإِنْسَانُ مَهْدُودُ

- ١ - استَحْقَبْتُ : أَخَذْتُ فِي حَقِيْبَتِهَا . المَعْمُودُ : الَّذِي هَدَاهُ العِشْقُ .
م : يَقُولُ إِنَّ صَاحِبَتَهُ سَعَادٌ قَدْ نَأَتْ عَنْهُ ، فَتَفَرَّ النَّوْمُ عَنْهُ ، وَإِنَّمَا حَمَلَتْ قَلْبَهُ مَعَهَا مُخْلَفَةً فِي نَفْسِهِ الشَّقَاءِ .
- ٢ - م : يَقُولُ إِنَّهُ عَهْدَ سَلِيمِي صَادِقَةٌ ، لَا تُخْلَفُ وَعُودُهَا ، إِلَّا أَنْهِيَ الآنَ جَعَلَتْ تَحْتَهُ بِهَا وَتُخْلَفُهَا .
- ٣ - م : يَقُولُ إِنَّهَا تُطَلِّعُ عَلَيْنَا وَتَطَالِعُنَا بِجِدِّهَا وَنَحْرُهَا ، وَلَكِنَّهَا لَا تُقْبَلُ عَلَيْنَا وَلَا تَوَاصَلْنَا فَكَأَنَّهَا تَلْتَمِعُ لِأَحْدَاثِنَا كَالْبَرْقِ الخُلْبِ الَّذِي لَا يَصْجُبُهُ وَلَا يَعْقِبُهُ مَطَرٌ .
- ٤ - م : يَقُولُ : لِنَّ أَبْصَرْتَنِي الآنَ ، وَقَدْ حَتَّى المَرَمَ ظَهَرِي ، فَبِتُّ أَرْجُفُ كَالنَّسْرِ كَكَلِّ إِنْسَانٍ طَعَنَ بِهِ العُمُرُ .

- ٥ وقد يكون الصبا مني بمنزلة ، يوماً ، وتقتادني الهيف الرعديد
٦ يا قل خير الغواني ، كيف رغن به ، فشربته وشل ، فيهن تصريد
٧ أعرضن من شمت في الرأس لاح به ، فهن منه ، إذا أبصرته ، حيد
٨ قد كن يعهدن مني مضحكاً حسناً ومفرقاً حسرت عنه العناقيد
٩ فهن يشدون مني بعض معرفة وهن بالود لا بخل ولا جود
١٠ قد كان عهدي جديداً ، فاستبد به والعهد متبع ما فيه منشود

٥ - الرعديد : جمع رعديد : الجبان ، وهنا المُسرع .

٦ : يقول : لئن أبصرتني ، وقد اضناني الكبر ، فقد كنت ، فيما سلف ، ريقاً أمتطي الخيل الضامرة التي تسرع في عدوها كالجبان الهارب .

٦ - رغن : من راغ خادع واحتال . الوشل : الماء القليل العكبر . التصريد : شرب دون ارتواء .

٧ : يتحسر على ما فات من شبابه ويظهر سوء ظنه بالمرأة التي خدعته وتخلت عنه ، فكأنه احتسى من تبيمه بها ماء عكراً ، لم ينقع ظمأه .

٧ - الشمت : يياض الرأس بخالطه سواده .

٨ : يقول إنهن ملنّ وحدثن عنه ، إذ شاهدن الشيب ، وقد جعل يغشى رأسه .

٨ - العناقيد : هنا الجدائل .

٩ : يقول إنهن كنّ قد عهدتني فتياً ، ريق الثغر ، يعتلي رأسي شعر كثيف مجدول .

٩ - يشدون : يطلبون :

١٠ : يقول إنهن يستطلعنني ويحاولن التعرف إليّ ، بعد أن عراني الكبر ، وقد أقمن على تردّد لا يصلن ولا يتخلنن بالوصال لالتباس أمرني عليهن .

١٠ - استبد به : أكرهه على النأي والفراق . منشود : مطلوب .

١٠ : يقول : لقد كان عهدي جديداً ، أي كنت في مطلع الصبا ، ثم ولي الشباب عني ، مكرهاً فبت أتحسر على ما فات ، ويردف بأن المرء إذا عهد شيئاً وألفه ، فإنه لا يزال يتبعه ويُنشد عودته .

- ١١ يَقْلَنَ لَا أَنْتَ بَعْلٌ يُسْتَفَادُ لَهُ وَلَا الشَّبَابُ الَّذِي قَدْ فَاتَ مَرْدُودُ
 ١٢ هَلْ لِلشَّبَابِ الَّذِي قَدْ فَاتَ مَرْدُودُ أَمْ هَلْ دَوَاءٌ يَرُدُّ الشَّيْبَ مَوْجُودُ
 ١٣ لَنْ يَرْجِعَ الشَّيْبُ شُبَانًا ، وَلَنْ يَجِدُوا عِدْلَ الشَّبَابِ لَهُمْ ، مَا أَوْرَقَ العُودُ
 ١٤ إِنَّ الشَّبَابَ لَمَحْمُودٌ بِشَاشَتِهِ وَالشَّيْبَ مُنْصَرَفٌ عَنْهُ وَمَصْدُودُ

مخاطبة يزيد

- ١٥ أَمَا يَزِيدُ ، فَإِنِّي لَسْتُ نَاسِيَهُ حَتَّى يُغَيِّبَنِي فِي الرَّمْسِ مَلْحُودُ
 ١٦ جَزَاكَ رَبُّكَ عَنْ مُسْتَفْرَدٍ ، وَحَدٍ نَفَاهُ عَنْ أَهْلِهِ جُرْمٌ وَتَشْرِيبُ

١١ - يُسْتَفَادُ لَهُ : يُخْضَعُ لَهُ .

م : أي يقلن له : لست بعلاً لنا لنستفادك ولست قادراً على استعادة شبابك لتغويننا به .

١٢ - م : يتحسر على شبابه ويتمنى لو يعثر على دواء يعيده إليه .

١٣ - العادل : المتثيل .

م : يظهر في هذا البيت يأسه من استعادة الصبا ، فيما كان يؤمل في البيت السابق ويتمنى أن يعثر على سبيل لذلك . يقول إنه لن يعود وإن الشيب لن يجدوا ما يعوضهم عنه .

١٤ - م : يعيد المعنى تكراراً ، ويقول إن الشيب منبوذ ، يُصد عنه ، وإن الشباب عمود ، ريق .

١٥ - ملحود : قبر ذو لحد ، وهو الشق المائل الذي يكون في جانب القبر .

يشير في هذا البيت إلى ما كان من حماية يزيد له ، ويقول إنه لن ينسى فضله عليه وإنقاذه له ، حتى يموت ويغيب في الرمس .

١٦ - وحده : منفرد .

م : يمتدح يزيد بلبوائه للضيف والمشرّد ويرجو الله أن يكافئه لقاء حمايته لأمريء متوحّد ، متفرد ، تخلّى عنه أهله لجرم اتّهم به ، فخلف شريداً . وهو يشير بذلك إلى نفسه .

- ١٧ مُسْتَشْرَفٌ، قَدْرَمَاهُ النَّاسُ كُلَّهُمْ كَأَنَّهُ ، مِنْ سَمومِ الصَّيْفِ، سَفُودٌ
 ١٨ جَزَاءً يُوسُفَ إِحْسَاناً وَمَغْفِرَةً أَوْ مِثْلَ مَا جُزِيَ هَارُونُ وَدَاوُدُ
 ١٩ أَوْ مِثْلَ مَا نَالَ نُوحٌ فِي سَفِينَتِهِ إِذِ اسْتَجَابَ لِنُوحٍ ، وَهُوَ مَنْجُودٌ
 ٢٠ أَعْطَاهُ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَأَسْكَنَهُ فِي جَنَّةٍ نِعْمَةً فِيهَا وَتَخْلِيْدُ
 ٢١ فَمَا يَزَالُ جَدَا نِعْمَاكَ يُمَطِّرُنِي ، وَإِنْ نَأَيْتُ ، وَسَيْبٌ مِنْكَ مَرْفُودٌ

١٧ - مُسْتَشْرَفٌ : مَظْلُومٌ . السَّفُودُ : قَضِيْبٌ يَشْوِي عَلَيْهِ اللَّحْمُ .

م : يَسْتَكْمَلُ مَعْنَى الْبَيْتِ السَّابِقِ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ اتَّهَمَ ظَلَمًا ، قَدْ طَعَنَهُ النَّاسُ جَمِيعًا فَظَلَّ مُشْرَدًا ، تَصْلِيهِ الْهَاجِرَةُ وَتَذْيِيبُهُ ، حَتَّى غَدَا مِنْ هَزَالِهِ كَالسَّفُودِ . وَلَعَلَّ الْأَخْطَلَ يَشِيرُ إِلَى ذَاتِهِ فِي وَصْفِهِ لِذَلِكَ الْمَشْرُدِ ، الْمُنْبُودِ .

١٨ - يُوسُفَ وَهَارُونَ وَدَاوُدَ : مِنْ أَوْلِيَاءِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ .

م : يَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ يُثَبِّتَهُ بِمَا أَثَابَ بِهِ الْأَوْلِيَاءَ قَدِيمًا فَكَأَنَّ الْأَخْطَلَ يَرْفَعُهُ إِلَى مَصَافِهِمْ .

١٩ - مَنْجُودٌ : مَكْرُوبٌ .

م : يَسْتَكْمَلُ مَا تَقَدَّمَ وَيَرْجُو لَهُ مِثْلَ ثَوَابِ نُوحٍ ، إِذْ كَانَ أُسِيرًا فِي سَفِينَتِهِ .

٢٠ - م : يُوَضِّحُ مَا أَجْمَلَهُ وَأَشَارَ إِلَيْهِ ، سَابِقًا ، وَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى نُوحًا مَتَاعَ الدُّنْيَا وَخَلُودَ الْآخِرَةِ ، فَكَأَنَّ الْأَخْطَلَ يَتَمَنَّى لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ .

٢١ - الرَّفْدُ : الْعَطِيَّةُ .

م : يَقُولُ إِنَّ نِعْمَاكَ وَعَطَايَاكَ مَا تَزَالُ تَنْهَمُرُ عَلَيَّ ، أَكُنْتُ قَرِيبًا أَمْ بَعِيدًا ، كَمَا أَنَّكَ لَا تَزَالُ تَرْفُدُنِي بِالْمُهَابَاتِ .

ذكر الناقة

- ٢٢ هَلْ تُبَلِّغُنِي يَزِيداً ذَاتُ مَعْجَمَةٍ كَأَنَّهَا صَخْرَةٌ صَمَاءٌ صَيْخُودٌ
 ٢٣ مِنَ اللّوَاتِي إِذَا لَانَتْ عَرِيكُتُهَا كَانَ لَهَا بَعْدَهُ آلٌ وَمَجْلُودٌ
 ٢٤ تَهْدِي سَوَاهِمَ يَطْوِيهَا الْعَنِيقُ بِنَا فَالْعَيْسُ مُنْعَلَةٌ أَقْرَابُهَا سُودٌ
 ٢٥ يَلْفَحُهَا حَرُورٌ كُلُّ هَاجِرَةٍ فَكُلُّهَا نَقِبٌ الْأَخْفَافِ، مَجْهُودٌ

الفحل وأتته

- ٢٦ كَأَنَّهَا قَارِبٌ أَقْرَى حَلَالِئُهُ ذَاتَ السَّلَاسِلِ ، حَتَّى أَيْبَسَ الْعُودُ

٢٢ - المَعْجَمَةُ : الغلابة ، الصَّلْبَةُ ، أي الناقة . صَيْخُودٌ : صليب .
 م : يشرع في هذا البيت بوصف الناقة التي تُقْلَهُ إلى يزيد ، ويقول إنها ذات صلابة كأنها
 صخرة عظيمة .

٢٣ - العَرِيكَةُ : السنام . الآل : الشخص . مَجْلُودٌ : صَبْرٌ .
 م : يقول إنها بعد أن يلين سنامها ويوشك أن يدوب ، تظلّ مُقِيمَةً على سيرها ، تتجالد عليه
 وتثبت فيه .

٢٤ - تَهْدِيهَا : تَتَقَدَّمُهَا . السَوَاهِمُ : الضُّمُرُ . العَيْسُ : التي يَرَجَّحُ لونها بين البياض
 والشقرة . العَنِيقُ : ضرب من السَّيرِ تعدو به الإبل . أَقْرَابُهَا : خواصرها .
 م : يقول إن ناقةه تتقدم سائر النياق المتعبة ، وقد انعكس ظلها من دونها ، لشدة الحر .

٢٥ - م : يقول إن حرّ الهاجرة لا يزال يلفحها ، كما أنها قد حفيت من شدة العَدْوِ وحرارة
 الرَّمْلِ حَتَّى تَنْقَبَتْ أَخْفَافَهَا .

٢٦ - القَارِبُ : فحل الحُمْرِ الوحشيّة . حَلَالِئُ : جمع حليلة : هنا أتان الحمار الوحشي .
 أَقْرَى : اتبع . ذَاتَ السَّلَاسِلِ : موضع .

- ٢٧ ثُمَّ تَرَبَّعَ أُبْلِيًّا ، وَقَدْ حَمَيْتَ مِنْهَا الدَّكَادِكُ وَالْأُنْحُمُ الْقَرَادِيدُ
 ٢٨ فَظَلَّ مُرْتَبِيًّا ، وَالْأَخْذُ قَدْ حَمَيْتَ وَظَنَّ أَنَّ سَبِيلَ الْأَخْذِ مِنْهُ مَنُودُ
 ٢٩ ثُمَّ اسْتَمَرَّ يُجَارِبُهُنَّ لَا ضَرَعُ مُهْرٌ ، وَلَا ثَلِبٌ أَفْنَاهُ تَغْوِيدُ
 ٣٠ طَاوِيِ الْمَعَا ، لِأَحَةِ التَّعْدَاءِ ، صَيَّفَتْهُ كَأَنَّمَا هُوَ ، فِي آثَارِهَا ، سِيدُ
 ٣١ ضَخْمُ الْمَلَاطَيْنِ ، مَوَارُ الضُّحَى ، هَزَجٌ كَأَنَّ زُبْرَتَهُ ، فِي الْآلِ ، عُنُقُودُ

م : يشبه ناقته ، كدأبه في معظم مدائحها ، بالحمار الوحشي الذي يسوق أثنه إلى الماء ، بعد أن كان يقيم معها في موضع ذات السلاسل ، وبعد أن جف المرعى .

٢٧ - أُبْلِي : جبل معروف عند أجب وسلمى . الدَّكَادِك : جمع دَكَدَك : المكان السهّل .
 القراديد : الأمكنة الغليظة .

م : أي أنه انتقل إلى جبل أُبْلِي ، بعد أن اشتد القيظ في المواضع التي كان يرتعي فيها .

٢٨ - مُرْتَبِيًّا : مرتفعاً على رابية . الْأَخْذُ : جمع أَخَذ ، وهي أماكن تُمْسِكُ الماء ، فيحشى فيها من حرارة الشمس . مَثْمُود : فيه بقية ماء .

م : أي أنه أقام على مُشْرِفٍ يستطلع بعض الأماكن التي يستنقع فيها الماء ، وقد ظنَّ أنها مازال يرسو فيها شيء منه ، لم تَبَخَّرْهُ الهاجرة .

٢٩ - الضَّرَعُ : : ديث السن . المَهْرُ : الصغير . الثَلِبُ : الكبير العود . والعود : الهرم .

م : يقول إنه ظلَّ يعدو مع أثنه ، وهو مقتدر ، لا حدّث أو مَهْرٌ أو مسنّ ، حتى يعجز عن طرادها .

٣٠ - التَّعْدَاءُ : الجري والعدو . السِيدُ : الذئب .

م : أي أنه لكثرة ما عدا في الصَّيْفِ ، فقد ضَمُرَ حتى بدا كالذئب ، وهو يقنفي على آثارها .

٣١ - الْمَلَاطُ : الكتف . المَوَارُ : السَّريع . هَزَجٌ : كثير النهيق والصياح . زُبْرَتُهُ : الشعر الذي على كتفيه .

م : يقول إنه صخم الكتفين ، سريع العدو ، عند الضُّحَى ، لا يزال يصيح وينهق ، وإن شعر كتفيه يترأى فيما يخوض في الآل ، كالعنقود .

- ٣٢ يَنْضَحْنَهُ بِصِلَابٍ مَا تُؤَيِّسُهُ . قَدْ كَانَ فِي نَحْرِهِ مِنْهُنَّ تَقْصِيدُ
 ٣٣ وَهُنَّ يَنْبُونَ عَنْ جَابِ الْأَدِيمِ ، كَمَا تَنْبُو عَنِ الْبَقْرِيَّاتِ الْجَلَامِيدُ
 ٣٤ إِذَا انْصَمَى حَنِقًا حَاذِرًا شِدَّتَهُ فَهِنَّ مِنْ خَوْفِهِ شَتَّى عَبَادِيدُ
 ٣٥ يَنْصَبُّ فِي بَطْنِ أُبْلَى ، وَيَبْحَثُهُ فِي كُلِّ مُنْبَطِحٍ مِنْهُ أَحَادِيدُ
 ٣٦ إِذَا أَرَادَ سَوَى أَطْهَارِهَا ، امْتَنَعَتْ مِنْهُ سَرَاعِفُ ، أَمْثَالُ الْقَنَا قُودُ
 ٣٧ يَصِيفُ عَنْهُنَّ ، أحيانًا ، بِمَنْخَرِهِ فَبِاللَّبَانِ وَبِاللَّيْتَيْنِ تَكْـدِيدُ

٣٢ - يَنْضَحْنَهُ : أي يرمحه (ينطحنه) . الصَّلاب : الحوافر . تُؤَيِّسُهُ : تؤثر فيه . تقصيد : إصابة .

م : يقول إن أثنه كانت ترعجه دون أن تُصيبه بألم وإن خلقت بعض الآثار في نحوه .

٣٣ - الجَاب : الغليظ . البقرِيَّات : ترس من جلد البقر .

م : يقول إن حوافرها كانت تنبو عن جلده وترتدُّ عنه ، كما ترتدُّ الحجارة التي تُرمى على ترس من جلد البقر .

٣٤ - انْصَمَى : أي إذا انصبَّ عليهن . حَنِقًا : مغتاظًا . العباديد : المتفرقة .

م : أي أنه إذ يرتدُّ عليها ، فإنها تحاذر منه وتنفرق في كلِّ جهة ، هرباً منه .

٣٥ - يَبْحَثُهُ : أي يبحث في الوادي . الأَحَادِيد : جمع أَحَدُود : حفرة مُسْتَطِيلة .

م : يقول إنّه ينصبُّ مع أثنه في ذلك الوادي ويعدو فيه ، ويكاد لا يدع فيه موضعاً لا يرتادُه .

٣٦ - سَرَاعِف : طِوال . القُودُ : جمع القُوداء ، أي الطويلة الظهر .

م : يقول إنّه إذا أراد أن يترو على إحدى أثنه الحوامل ، فإنها تمتنع عليه . ويرُدُّف بأنّها طويلة المُتُون والأعناق .

٤٧ - يَصِيفُ : يعدل . اللَّبان : الصِّدر . اللَّيتان : صَفْحتا العُنُق . تَكْـدِيد : أثر الحوافر في الصِّدر .

م : يقول إنّه يميل عنها ، أحياناً ، بعد أن يُصيبه منها تكديد في صدره .

- ٣٨ يَنْضَحْنَ بِالْبَوْلِ أَوْلَاداً مُغْرَقَةً ، لَمْ تَفْتَحِ الْقُفْلَ عَنْهُنَّ الْمَقَالِيدُ
 ٣٩ بناتُ شَهْرَيْنِ ، لَمْ يَنْبُتْ لَهَا وَبَرٌّ مِثْلُ الْيَرَابِيعِ حُمْرٌ هُنَّ أَوْ سَوْدُ
 ٤٠ مِثْلُ الدَّعَامِصِ فِي الْأَرْحَامِ غَائِرَةٌ سُدَّ الْخِصَاصُ عَلَيْهَا ، فَهَوَّ مَسْدُودُ
 ٤١ تَمُوتُ طَوْرًا ، وَتَحْيَا فِي أُسْرَتِهَا ، كَمَا تَقَلَّبُ فِي الرُّبْطِ الْمَرَاوِيدُ
 ٤٢ كَأَنَّ تَعَشِيرَهُ فِيهَا ، وَقَدْ وَرَدَتْ عَيْنِي فَصِيلِ قَبِيلِ الصَّبْحِ تَغْرِيدُ

٣٨ - القُفْلُ : الرَّحْمُ . الْمَقَالِيدُ : الْمَفَاتِيحُ .

م : يقول إنَّها تضع أولادها مع البول ، وإنَّها تُجْهَضُ بها ، قبل أن تفتح أرحامها عند الوضع الطبيعي .

٣٩ - م : يصف أولادها التي أجهضت بها ، ويقول إن عمرها لم يعدد الشهرين ، فهي دون وبر ، تبدو كاليرابيع السوداء أو الحمراء .

٤٠ - الدَّعَامِصُ : جمع دَعْمُوسُ : ديدان حُمْرُ . الْخِصَاصُ : النَّافِذَةُ .

م : يستكمل وصفها ويشبَّهها ببعض الديدان ، ويقول إنَّها غائرة في أرحامها التي لم تفتح عنها في حينها .

٤١ - أُسْرَتِهَا : أَرْحَامُهَا . الرُّبْطُ : يعني المرباط جمع المربط : ما تُشدُّ به القربة أو إليها .
 المَرَاوِيدُ : الحَبِيلُ التي تروح ونحجى .

م : يقول إن أولادها تموت ونحيا في أرحامها وتتقلب فيها كالخيل التي تروح ونحجى في مراتبها .

٤٢ - تَعَشِيرُهُ : نَهَيْقُهُ . عَيْنِي فَصِيلِ : اسم موضع .

م : يصف صياحه ونهيقه بينها عند الفَجْر . ويقول إنَّه أشبه بالتغريد .

الصيادون

- ٤٣ ظلّ الرّماة فُعوداً في مراصدِهِمْ للصيّدِ ، كلّ صباحٍ ، عندهُمْ عيدُ
 ٤٤ مثلُ الذّيابِ ، إذا ما أوجسوا قنصاً كانت لَهُمْ سَكَنَةٌ مُصنَعٌ ومبلسودُ
 ٤٥ بِكُلِّ زوراءِ مِرْنانٍ ، أعدّها لها مُداخلٌ صَحِلٌ بالكفِّ مَقْدُودُ
 ٤٦ على الشّرائعِ ما تَنمي رَمِيَّتُهُمْ لَهُمْ شِواءٌ ، إذا شاءوا ، وتَقديدُ

٤٣ - م : يشير في هذا البيّت إلى الصيادين الذين كانوا يترصدون الحمار وأتنته ، وهم فرحون في صيدهم ، كأنتهم في حفل أو عيد .

٤٤ - أوجسوا : أحسوا . القنص : الصيّد : مبلود : بليد .

م : يشبههم بالذئاب ، ويقول إنهم إذا توقعوا طريدة وتوجسوها سكتوا ، بعضهم يتنصت لعدوها وحركتها والبعض الآخر متبلد ، غير آبه .

٤٥ - الزوراء : القوس . مِرْنان : لها رنة عندما ينزع عنها السهم . المُداخل : الوتر الشديدي القتل . الصّحيل : سهم له صوت كالبحّة .

م : يصف القوس ، ويقول إنهما مِرْنان ، تنزع عنها أسهم مصوتة ، قُدّت وصُقلت باليد .

٤٦ - الشّرائع : جمع الشريعة : المورد . رمى فتمى : أي أخطأ .

م : يقول إنها يصطادونها فيشتنون اللحم أو يقطعونه كي يجفّ .

خف القطين

من مدائمه في عبد الملك

ذكر الرحيل

١ خَفَّ القَطِينُ، فراحوا منك، أوبكروا وَأزَعَجْتَهُمْ نَوَى فِي صَرَفِهَا غَيْرُ

وصف الخمرة والسكران

١ كَأَنِّي شَارِبٌ ، يَوْمَ اسْتُبِدَّ بِهِمْ مِنْ قَرَقَفٍ ضَمِنَتْهَا حِمصُ أَوْ جَدْرُ

٣ جَادَتْ بِهَا مِنْ ذَوَاتِ القَارِ مُتْرَعَةً كَلْفَاءُ ، يَنْحَتُّ عَنْ خُرْطُومِهَا المَدْرُ

١ - خَفَّ : أسرع إلى الرحيل . القَطِينُ : القَوْمُ القاطنون معاً في محلة أو ما إليها . راحوا : ذهبوا في العشي . بكَرُوا : ذهبوا في الغداة . أزعج : أفلق عن المكان ودفع إلى الرحيل . نوى : نية الفراق . صرفها : دفعها . غير : مشاق .

م : يقول إن الأجابة الذين كانوا يساكننا ، قد تعجلوا الرحيل ، في العشي أو في الغداة ، وإنهم أكرهوا على الفراق بما لا طاقة لهم على دفعه . والتساؤل في هذا البيت يفيد الغلو .
٢ - استبدَّ بهم : أي قوم قُسرُوا على الرحيل وأكرهوا عليه . القَرَقَفُ : الخمرة التي تُقرَقَف صاحبها ، أي تُرْعده . حِمصُ : مدينة بين دمشق وحلب . جَدْرُ : قرية بين حمص والسلمية .

م : يشبه ، لآثر رحيل أحبته المُكْرَه ، بمن صرَعته الخمرة التي تُرْعِد صاحبها ، والتي اجْتَلَبَتْ من حمص وجدلر ، فكانَ ورودها منهما كان ضماناً وكفالةً لجودتها وطيب عنصرها .

٣ - ذوات القار : الخاية المطلية بالزُف . مُتْرَعَةٌ : مَلأى حتى الشفاه . الكلفاء : الخالية التي أصابها كلف لقدمها ، فتراكم عليها بعض الطين أو ما إليه ، أو أنها أصيبت ببعض الفجوات في قشرتها . ينحتُّ : يفض . خُرْطُومها : قمها . المدرُ : الطين الذي ختمت به .

٤ لَدُّ أَصَابَتْ حُمَيَّاهَا مِقَاتِلَهُ فَلَمْ تَكْذُ تَنْجَلِي عَنْ قَلْبِهِ الْخُمْرُ
٥ كَأَنِّي ذَاكَ ، أَوْ ذُو لَوْعَةٍ خَبَلَتْ أَوْصَالَهُ ، وَأَصَابَتْ قَلْبَهُ النَّشْرُ

عودة الى ذكر الراحلين

٦ شَوْقًا إِلَيْهِمْ ، وَوَجْدًا يَوْمَ اتَّبِعُهُمْ طَرْفِي ، وَمِنْهُمْ ، بِجَنبِي كَوْكِبِ زُمْرٍ
٧ حَثُوا الْمَطِيَّ ، فَوَلَّتْنَا مَنَاكِبَهَا وَفِي الْخُدُورِ ، إِذَا بَاغَمْتَهَا ، الصُّورُ

٤ - اللدُّ : هو المرء الذي يلذُّ حديثه ومنادمته على الشراب . حُمَيَّاهَا : جدَّتُها . مِقَاتِلَهُ : المواضع التي يسهل بها قتلُه ، إذا ما أُصِيبَ فيها . الْخُمْرُ : جمع خمرة : الصَّدَاعُ الذي تخلفه الخمرة في الرأس .

م : يكرر المعنى السابق ويغالي فيه ، ويقول : إن تلك الخُمرة قد فعلت فيه وصرعته كأنها أصابت منه مقتلاً وخلفت في رأسه صداعاً لا يزول ولا يتنقضي . والشاعر إذ يعظم من تأثير الخُمرة في شاربها ، إنما يعظم ، من خلال ذلك ، تأثير فراق الأحبة في نفسه .

٥ - اللوعة : الوجع الشديد في البدن . خَبَلَتْ : اختلطت بعضاً ببعض واضطربت . النَّشْرُ : هنا جمع النَّشْرَة وهي رقية أو تعويذة يعالج بها المريض أو المجنون .

م : يتمثل في هذا البيت ، تكراراً ، بمن صرعه المرض ، فاختلطت وخبطت أعضاؤه . كأنما أصيب بداء لا تُجدي فيه الرقى أو التعاويذ .

٦ - كَوْكِب : هنا اسم موضع . زُمْرُ : جمع زمرة : جماعة .

م : يقول : إن ما ألمَّ به من سُقْمٍ وعذاب وصفهما فيما تقدّم ، كان من جراء الشوق الذي يعاينه لظمان الأحبة ، فيما كان يقتفي أثرهم بنظره ، وهم يجتازون موضع كَوْكِب .

٧ - بَاغَمْتَهَا : من بَغَمَ أصلها في صوت الظبية وهنا بمعنى تكلم بصوت رخيم .

م : يقول إنهم استحسوا مطاياهم ، وولوا له ظهورهم ، فيما أقامت صواحبُه في خدورهن ، يَسْتَرْنَ جَمَاهُنَّ الشَّيْبَةَ بِجَمَالِ الصُّورِ وَالتَّمَائِيلِ .

رأيه في النساء

- ٨ يُبْرِقْنَ بِالْقَوْمِ ، حَتَّى يَحْتَبِلَنَّهُمْ وَرَأْيُهُنَّ ضَعِيفٌ ، حِينَ يُخْتَبِرُ
 ٩ يَا قَاتَلَ اللَّهِ وَصَلَ الْغَانِيَاتِ ، إِذَا أَيْقَنَ أَنَّكَ مِمَّنْ قَدْ زَهَا الْكَبِيرُ
 ١٠ أَعْرَضَنَ ، لَمَّا حَنَى قَوْسِي مُوتَرُهَا وَابْيَضَّ ، بَعْدَ سَوَادِ اللَّمَّةِ ، الشَّعْرُ
 ١١ مَا يَرَعَوِينَ إِلَى دَاعٍ لِحَاجَتِهِ وَلَا لَهْنٍ ، إِلَى ذِي شَيْبَةٍ ، وَطَرُ

العودة الى ذكر الظعائن

- ١٢ شَرَّقْنَ ، إِذْ عَصَرَ الْعِيدَانَ بَارِحُهَا وَأَيْبَسَتْ ، غَيْرَ مَجْرَى السَّنَةِ ، الْخُضْرُ

- ٨ - يُبْرِقْنَ : يُلَوِّحْنَ . يَحْتَبِلَنَّهُمْ يُوقِعْنَهُمْ فِي الْحُبَالَةِ أَي الشَّرِكِ .
 م : يستكمل وصفه للنساء المخدّرات ، ويقول : لإنهنَّ يلوحنَّ للقوم بنظرهنَّ وكلامهنَّ ،
 كي يَسْفُنَّهُمْ إِلَى حَبَائِلِهِنَّ ، فَإِذَا اخْتَبُرْنَ وَجُرِّبْنَ الْفَيْنَ ضَعِيفَاتِ الرَّأْيِ ، صَعَلَاتِ
 الْعُقُولِ .
 ٩ - زَهَا الْكَبِيرُ : هنا إشارة إلى ما يعتلي رأس الشيخ من شيب يبدو به زاهياً .
 م : يقول ، مُتَحَسِّرًا ، إِنَّ الْغَانِيَاتِ يَقْطَعْنَ الْمَرْءَ ، فِيمَا يَدْهَمُهُ الْكَبِيرُ وَيَعْلُو رَأْسَهُ
 الشَّيْبُ . وَالْأَخْطَلُ لَا يَزَالُ يَرُدُّ هَذَا الْمَعْنَى أَوْ مَا يُدَانِيهِ فِي مَعْظَمِ مَطَالَعِ قِصَائِدِهِ .
 ١٠ - قَوْسِي : هنا ظهري ومتني . اللَّمَّةُ : الشعر المجتمع في مقدّمة الرّأس .
 م : يقول لإنهنَّ أَعْرَضْنَ عَنِّي ، فِيمَا حَنَتِ الْأَيَّامَ ظَهْرِي وَابْيَضَّ شَعْرَ رَأْسِي ، بَعْدَ أَنْ كَانَ
 أَسْوَدَ ، أَي فِيمَا هَرَمْتُ ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ شَابِيًا .
 ١١ - مَا يَرَعَوِينَ : لَا يَقْطَنُ وَلَا يَتَنَبَّهْنَ . وَطَرُ : غَايَةٌ أَوْ هَدَفٌ .
 م : يقول إنهنَّ يغلغلنَّ عمنَّ يسعى إليهنَّ في أمر يبغيه ، كما أنّه لا غاية لهنَّ فيمن عراه الشيب .
 ١٢ - شَرَّقْنَ : ذَهَبْنَ شَرْقًا . عَصَرَ الْعِيدَانَ : أَيْبَسَهَا . الْبَارِحُ : الرِّيحُ الْبَارِدَةُ الَّتِي تُجَفِّفُ
 الْكَلَأَ .
 م : يقول لإنهنَّ رَحَلْنَ وَانْتَجَهْنَ شَرْقًا ، فِيمَا كَانَتِ الرِّيحُ الْبَارِدَةُ تَعْصِفُ وَتُجَفِّفُ كُلَّ نَبْتٍ
 وَكَلَأٍ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ أَثَرِ الْخُضْرَةِ ، إِلَّا مَا يُسْتَنْبَتُ بِالْحَرِثِ وَالرِّيِّ فِي مَجْرَى السَّكَّةِ .

- ١٣ فالعينُ عانيةٌ بالماء ، تَسْفَحُهُ مِنْ نِيَّةٍ ، فِي تَلَاقِي أَهْلِهَا ، ضَرَرُ
 ١٤ مَنْقُضِبِينَ انْقِضَابَ الْجَبَلِ ، يَتَّبِعُهُمْ مِنْ الشَّقِيقِ ، وَعَيْنُ الْمَقْسَمِ الْوَطْرُ
 ١٥ حَتَّى هَبَطْنَ مِنَ الْوَادِي لِعُضْبِيهِ أَرْضاً تَحُلُّ بِهَا شَيْبَانُ أَوْ غُبْرُ
 ١٦ حَتَّى إِذَا هُنَّ وَرَكْنَ الْقَضِيمَ ، وَقَدْ أَشْرَفْنَ ، أَوْ قُلْنَ هَذَا الْخَنْدُقُ الْحَفَرُ
 ١٧ وَقَعْنَ ، أَصْلاً ، وَعُجْنَا مِنْ نَجَائِنَا وَقَدْ تُحَيِّنُ مِنْ ذِي حَاجَةٍ سَفَرُ

١٣ - العانية : المُعْتَاة ، الكَلِيفَةُ . تَسْفَحُهُ : تَصُبُّهُ . مِنْ نِيَّةٍ : مِنْ رَغْبَتِهِمْ فِي الْمَسْلُوكِ الَّذِي سَلَكَوهُ . فِي تَلَاقِي أَهْلِهَا ضَرَرُ : أَي ضَيِّقٌ ، فَهَمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجْتَمِعُوا الْكَثْرَتِمْ .

م : يَقُولُ إِنْ عَيْنَهُ تَذَرُفُ الدَّمْعِ ، فِيمَا رَأَتْ أَهْلَ صَاحِبَتِهِ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى نِيَّةِ السَّفَرِ ، وَقَدْ كَثُرَتْ جُمُوعُهُمْ ، حَتَّى لِيَضِيقَ عَنْهَا الْمَقَامَ .

١٤ - مَنْقُضِبٍ : مَنْقُطِعٍ . الشَّقِيقِ : مَوْضِعٌ . عَيْنُ الْمَقْسَمِ : اسْمُ بَيْتٍ .

م : يَصِفُ فِي هَذَا الْبَيْتِ رَحِيلَهُمْ ، وَيَقُولُ لِإِنْتِهِمْ بَدَا مَتَفَرِّقِينَ فِي سِيرِهِمْ كَالْحَبْلِ الْمُنْقَطِعِ . وَإِنْتِهِمْ مَهْمَا تَنَافَا ، بَعْضًا عَنْ بَعْضٍ ، وَأَيًّا مَا كَانَتْ الْمَوَاضِعُ الَّتِي يَجْتَازُونَهَا ، لَا يَكْفُونَ عَنْ السَّعْيِ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يَرْتَادُونَهُ .

١٥ - غَضْبَتَهُ : جَانِبُهُ . شَيْبَانُ : قَبِيلَةٌ : غُبْرُ : مِنْ بَنِي تَيْمٍ مِنْ بَنِي يَشْكُرَ .

م : يَقُولُ لِإِنْتِهِنَّ دَأْبُنَ عَلَى سِيرِهِنَّ حَتَّى نَزَلْنَ فِي جَانِبِ وَادٍ يَقْطُنُهُ بَنُو شَيْبَانَ أَوْ بَنُو غُبْرَ .

١٦ - ١٧ - وَرَكْنَ : عُدْنَ . الْقَضِيمِ : مَوْضِعٌ . خَنْدُقٌ : هُوَ خَنْدُقُ سَابُورٍ فِي بَرِيَّةِ الْكُوفَةِ . الْحَفَرُ : الْمَحْفُورُ . أَصْلاً : عَشِيًّا . عُجْنَا : مَلْنَا .

م : يَقُولُ لِإِنْتِهِنَّ فِيمَا عَدَلْنَ إِلَى مَوْضِعِ الْقَضِيمِ ، وَتَرَأَى لَهْنَ مَوْضِعَ خَنْدُقِ سَابُورٍ وَعَيْنَ مَكَانَهُ ، انْتَهَجْنَهُ وَبَتْنَ فِيهِ عَشِيًّا ، فِيمَا حَضَرَ الشَّاعِرَ حِينَ سَفَرِهِ الَّذِي سَارَ فِيهِ إِلَى الْخَلِيفَةِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ . وَالشَّاعِرُ يَتَخَلَّصُ فِي هَذَا الْبَيْتِ مِنْ وَصْفِ الظَّمْعَانِ إِلَى الْمَدْحِ تَخَلُّصًا وَاهِيًّا كَدَأْبِهِ وَدَأْبِ سِوَاهُ مِنْ شِعْرَاءِ الْمَدْحِ الَّذِينَ يَرْتَادُونَ الْمَقْدَمَاتِ الطَّوِيلَةَ بَحْثَ يَعْسُرَ عَلَيْهِمُ التَّخَلُّصَ الدَّاخِلِيَّ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى آخَرَ .

مباشرة المديح

- ١٨ إلى امرئ لا تُعدينا نوافله أظفره الله ، فليهنأله الظفرُ
 ١٩ أَلخائِضِ الغمْرِ ، والميمونِ طائرهُ خليفةَ الله يُستسقى بهِ المطرُ
 ٢٠ والهَمُّ ، بَعْدَ نَجِيّ النَفْسِ ، يَبْعُثُهُ بِالْحَزْمِ ، والأصمغانِ القَلْبُ والحذرُ
 ٢١ والمُسْتَمِرُّ بهِ أمرُ الجميعِ ، فما يَغْتَرُّهُ ، بَعْدَ تَوَكِيدِ لَهُ ، غَرُّرُ

١٨ - تُعَدِينَا : أَي تَتَخَطَّأَنَا وَتَفُوتُنَا . نَوَافِلُهُ : عَطَايَاهُ .

م : يشرع في هذا البيت بامتداح عبد الملك . ويقول إنه امرؤ لا يزال يُغدق على الشاعر عطاياهُ ، لا يفوته منها شيء . ثم يردف بأنَّ الله قد خصه بالنصر ويتمنى له الهناء به . وذكره الله في هذا المقام كأنما ينطوي على ردِّ من الشاعر على الذين يتهمون الأمويين باغتصاب السلطنة والمروق من الدين .

١٩ - الغمْرُ : الماء الكثير وهنا الحرب الشديدة . الميمون طائرهُ : من اليمن واليمن . إشارة إلى ما كان الجاهليون يقومون به من زجر الطير ، فإن اتجهت يمينا إلى اليمن ، تفاءلوا أو تيمنوا ، وإذا اتجهت شمالا إلى الشام ، تشاءموا .

م : يقول إنه لا يبرح يخوض غمار الحرب ويتنصر فيها يمين طالعه الذي أنعم عليه الله به . ثم يردف بالقول إنه خليفة الله يتضرع ويتشفع إليه به ، فيما يحبس المطر ، كي تدر به السحب . والشاعر يُنمي إلى الخليفة صفات قدسية ، توافق مقتضى الدين الإسلامي وواقع النزاع السياسي بالرغم من نصرانيته ، فكأنه يوفّي لكلِّ مقام مقالهُ ، وفقاً لسنة البلاغة المأثورة .

٢٠ - نَجِيّ النَفْسِ : ما ناجى به نفسه ورغب في تحقيقه . الأصمغان : مثنى الأصمغ : الذكي . م : يقول إنه إذا ما همَّ بشيء كان لا يزال يتفكّر ويتناجى به في نفسه ، فإنه يحققه ولا يكتفي منه بأمر التفكير والتجوى . يسعفه في ذلك قلبه الذكي ودأبه على الحذر .

٢١ - م : يقول : يلزم ما عزم عليه وما عهد به ، فيوفيه ولا يتعاطمه سلطانهُ أن يحنث به ، بالرغم من قدرته عليه .

وصف كرمه

- ٢٢ وما الفُراتُ ، إذا جاشتُ حوالبُهُ في حافتيهِ وفي أوساطِهِ ، العُشْرُ
 ٢٣ وَذَعْدَعَتُهُ رِيحُ الصَّيْفِ ، واضطربتُ فَوْقَ الجَاجِيَةِ ، مِنْ آذِيَةِ ، غُدْرُ
 ٢٤ مُسْحَنَفِرٌ مِنْ جبالِ الرُّومِ ، يَسْتُرُهُ مِنْهَا أَكافيفٌ فيها دونُهُ ، زَوْرُ
 ٢٥ يوماً ، بأجودَ مِنْهُ ، حينَ تَسألُهُ ولا بأجهرَ مِنْهُ ، حينَ يُجتَهَرُ

تهديد الوُشاة

- ٢٦ ولم يزلْ بكَ واشيهِمْ ومَكْرُهُمْ حتى أشاطوا بغيِبِ لحمَ مَنْ يَسروا

٢٢ - حوالبه : أمواجه . العُشْرُ : نوع من الشجر العظيم .

م : يشرع في هذا البيت بوصف الفُرات في فيضانه العظيم ، ليردف بعد بيتين آخرين بتشبيهه بغطاء عبد الملك . يقول إن الفرات عندما يضطرب موجهً ويقتلع الأشجار عن حافتيه ويسوقها إلى أوساطه .

٢٣ - ذَعْدَعَتُهُ : حركته وأثارت الاضطراب في موجه . الجَاجِيَةُ : جمع جَوْجُو : الصلدر . آذِيَةِ : أمواجه .

م : يقول إنه إذا ما حركته رياح الصيف وعصفت به ، مثيرةً أمواجه القوية ، فارتفعت تضرب مقدمة السفينة كأنها الغُدْران .

٢٤ - المُسْحَنَفِرُ : السَّريع الجري بامتداد ومضاء . أَكافيفٌ : جمع كفاف وكفة : ما يكفئ الماء عن الجري . زَوْرٌ : مَيْلٌ ، أي أنها تدعه يميل عن مجراه .

م : يقول إنه إذ يسرع في جريه من جبال الروم ، عابراً الأكَافيف التي تمنع سيره وتكفه عن عدوه ، فيما تُضاعف من صَخْبِهِ ، مائلةً به عن مجراه .

٢٥ - م : يقول إن الفُرات في تآلبه وحشده وفيضانه ، لا يعادل الخليفة في كرمه وفي احتشاده وعزمه عندما يُسْتنار في مواقف الغضب .

٢٦ - أشاطوا : قتلوا . يَسروا : لعبوا بالميسر أي القمار . ←

٢٧ فَمَنْ يَكُنْ طَاوِياً عَنَّا نَصِيحَتَهُ وَفِي يَدَيْهِ بَدْنِيَا دُونَنَا حَصَرُ
فَهَوَ فِدَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِذَا أَبَدَى التَّوَاجِدَ يَوْمَ بَاسِلٍ ذَكَرُ

العودة الى المديح

٢٩ مَفْتَرِشٌ كَافْتَرِاشِ اللَّيْثِ ، كَلْكَلُهُ لِيَوْقَعَةِ كِائِنٍ فِيهَا لَهُ جَزْرُ

٣٠ مَقْدَمًا مَائِي أَلْفٍ لِمَنْزِلِهِ مَا إِنْ رَأَى مِثْلَهُمْ جَنَّ وَلَا بَشَرُ

٣١ يَغْشَى الْقَنَاظِرَ بَيْنِيهَا وَيَهْدِمُهَا مَسُومٌ ، فَوْقَهُ الرِّيَاةُ وَالْقَتَرُ

م : يقول إن أعداء بني تغلب لا يزالون يشنون بهم ، ويتماكرون عليهم عند الخليفة ، حتى إنهم مزقوا لحومهم ، وخلقوهم أشلاء ، كالتأفة التي يقطعها المياسرون ويقتسمونها فيما بينهم وفقاً لنصيب كل قِدْح من القِدَاح .

٢٧ - ٢٨ - حَصَرَ : ضيق وبُخْل . التَّوَاجِدُ : الأضراس .

م : يقول إن عبد الملك لم يكن ليَمْتَنِعَ عن نُصْحِهِمْ ، وإنه قد يبخل به على من دوننا من النَّاسِ . أو أن يكون الضمير في يكن عائداً إلى الواشي الذي أشار إليه في البيت السابق ، وهو الأصح ، وعندئذ يغدو المعنى متصلاً بالبيت اللاحق كما يلي : يقول إن من يمتنع عن إسداء النَّصْحِ إلينا والإخلاص لنا وهو يضيق بالمقام الذي نحتله والدنيا الشاسعة التي نقيم فيها ، فيشي بنا ويمكُر علينا ، إن ذلك المرء هو فدَى لأمير المؤمنين ، في يوم الوغى . أي أن التغلبيين سيعاقبونه على وشايتهم بهم وحسده لهم ، فيقاتلونه ويفتكون به في العراك الشديد الذي تنكشتر فيه الأنياب هلعاً وغضباً .

٢٩ - م : يقول إن عبد الملك يرَبِضُ رَبَضَ الْأَسْوَدِ ، متوثباً بوقعة يجزر فيها أعداءه جزراً .

٣٠ - مائِي أَلْفٍ : أي من الجنود .

م : يقول إنّه إذ يمضي للقتال ، يتقدمه جيش حاشد ، لم يُبْصِرْ ما يماثله ، لا البشر ولا الجن .

٣١ - الْمُسُومُ : المُعْلَمُ بعلامة يُعرف بها . الْقَتَرُ : جمع قَتَرُ : غُبار المِعارِكِ .

م : يقول إنّه يبني القناظر لتعبر جنوده عليها ، ثم يهدمها ليمنع جنود الأعداء من اجتيازها ، وهو مُعْلَمُ بعلامة البأس والشجاعة ، لا يزال غبار المِعارِكِ وراياته تحيط به .

٣٢ حتى يكون لهم بالطَّفِ مَلْحَمَةٌ وبالثَّوْبَةِ لَمْ يَنْبُضْ بِهَا وَتَرُّ
 ٣٣ وَتَسْتَبِينَ لِأَقْوَامٍ ضَلَّاتُهُمْ وَيَسْتَقِيمَ الَّذِي فِي خَدِّهِ صَعْرٌ
 ٣٤ ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِأَنْفَالِ الْعِرَاقِ ، وَقَدْ كَانَتْ لَهُ نِقْمَةٌ فِيهِمْ وَمُدْخَرٌ

مدح بني قريش

٣٥ فِي نَبْعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، يَعْصِبُونَ بِهَا مَا إِنْ يُوَازِي بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ
 ٣٦ تَعْلُو الهِضَابَ ، وَحَلَوْا فِي أَرْوَمَتِهَا أَهْلُ الرِّبَاءِ وَأَهْلُ الفَخْرِ ، إِنْ فَنَخَرُوا

٣٢ - الطَّف: موضع على ريف العراق ، فيه قُتل الحسين . الثَّوْبَة : موضع بالكوفة . لم يُنبض بها وترٌ : أي لم تُرم فيها نبال .

م : يذكر ما كان من أمره في تينك الموقعتين ، ويقول إن جنوده لبسائهم تصدوا لأعدائهم وجهاً لوجه وأخذوا يضربونهم ويلتحمون معهم .

٣٣ - صَعْر : ميلان ، وهنا خيلاء .

م : يقول إن عبد الملك لا يقاتل أعداءه طمَعاً بالسلطة والملك ، بل ليردّهم عن ضلالهم وخيلائهم ويعودوا إلى صوابهم وإلى حظيرة الدين .

٣٤ - م : يقول إنّه حمل أعباء أهل العراق واستقلّ في حكمهم ، لا ينازعه فيهم منازع ولا تورّ فتنة . وقد فرض عليهم الأمن من شدّة بطشه بهم وعزمه عليه عزماً لا يفت ولا يلين . أي أنّه مزع على التنكيل بهم ويدخّر لهم ما يمانله فيما إذا ظهرت منهم فتنة .

٣٥ - النْبَعَة : هي من الشجر أجوده . يَعْصِبُونَ بِهَا : يُطِفُونَ بِهَا وَيَلْزَمُونَهَا .

م : يمتدحه بأصله القرشيّ العريق ، ويقول إنّه من أقحاح قريش الذين لا يزالون يُحيطون بشجرة أصلهم الكريمة ويلازمونها ، ثمّ يرُدّف بأنّ أغصان الشجر لا تعادل أصلها أي أن سائر القرشيين لا يعادلون عبد الملك ومن إليه .

٣٦ - الرِّبَاء : هنا أداء المعروف .

م : يقول إن شجرة قريش تعلو ما دونها وتسمو عليه وإنّ بني أمية حلّوا في جذعها وأصلها وإنّه لا قبيل لأحد بأنّ يجاريمهم في الفخر ، إذا ما فخرُوا .

- ٣٧ حُشِدُوا عَلَى الْحَقِّ، عَيَافُوا الْخَنَى أَنْفُ إِذَا أَلَمَتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ ، صَبَرُوا
- ٣٨ وَإِنْ تَدَجَّتْ عَلَى الْآفَاقِ مُظْلِمَةٌ كَانَ لَهُمْ مَخْرَجٌ مِنْهَا وَمُعْتَصِرٌ
- ٣٩ أَعْطَاهُمُ اللَّهُ جَدًّا ، يُنْصَرُونَ بِهِ لَا جَدًّا إِلَّا صَغِيرٌ ، بَعْدُ ، مُخْتَقَرٌ
- ٤٠ لَمْ يَأْشُرُوا فِيهِ ، إِذْ كَانُوا مَوَالِيَهُ وَلَوْ يَكُونُ لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ ، أَشْرُوا
- ٤١ شُمْسُ الْعَدَاوَةِ ، حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسَ أَحْلَامًا ، إِذَا قَدَرُوا

٣٧ - الخنى : الفحشاء .

م : يقول إنهم يحشدون حشودهم دفاعاً عن الحق ، لا يطيقون الفحشاء ، بل يأتقون منها ، وإذا ما نزلت بهم مصيبة صبروا عليها ولم يتصجروا .

٣٨ - تَدَجَّتْ : أظلمت . الْمُعْتَصِرُ : المعقل ، الملجأ .

م : يقول إنه إذا ما أظلمت آفاقهم بما نزلَ فيهم من كرب ، فإنهم لا يُخْذِلُونَ وَلَا يَسْتَسْلِمُونَ بَلْ يَنْجُونَ مِنْهَا بِحَسَنِ تَدْيِيرِهِمْ وَعِظَمِ عَقُولِهِمْ .

٣٩ - جَدًّا : حظاً .

م : يشير هنا إلى الخلافة الأُموية ، ويقول إن الله يَقْسِمُ الْحُظُوظَ فِي النَّاسِ وَقَدْ خَصَّهُمْ بِحِطَّةِ النَّصْرِ وَالنَّجَاحِ بِمَا يَسْعُونَ إِلَيْهِ ، وَمَهْمَا تَأَلَّبَ النَّاسُ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِالْإِنْتِصَارِ لِكَبْرِ حِظِّهِمْ وَضَّالَّةِ حِظِّ الْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِ .

٤٠ - لَمْ يَأْشُرُوا : لم يَبْطُرُوا . مَوَالِيهِ : أوليائه .

م : يمتدحهم بكبر نفوسهم ويقول إنهم لم يَبْطُرُوا وَيَغْتَرُوا بِمَا آثَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ حِطَّةٍ بَلْ ظَلُّوا عَلَى أَحْلَامِهِمْ وَتَوَاضَعُوا لَهُمْ ، ثُمَّ يُرَدُّ بِأَنَّهُ لَوْ قُدِّرَ لِسَوَاهِمُ أَنْ يَنَالُوا مِثْلَ حِظِّهِمْ ، لَبَطُرُوا بِهَا وَأَخَذَهُمُ الصَّلْفُ وَالْكِبَرُ .

٤١ - شُمْسُ : جمع شمس ، أي عسير .

م : يقول إنهم يُعَانِدُونَ أَعْدَاءَهُمْ وَيَنْكَلُونَ بِهِمْ ، مَا دَامُوا يَعْصُونَهِمْ وَيُثِرُونَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى إِذَا أذَعَنُوا لَهُمْ وَأَعْلَنُوا طَاعَتَهُمْ بَدَلُوا لَهُمُ الْحَلْمَ وَالْأَنَانَةَ . أَي أَنَّ الْأُمُومِينَ يَأْخُذُونَ بِالْبَطْشِ الْعَظِيمِ وَالْحَلْمِ الْأَعْظَمِ ، كُلٌّ مِنْهُمَا فِي مَوْضِعِهِ .

٤٢ لا يَسْتَقِيلُ ذُو الْأَضْغَانِ حَرْبَهُمْ وَلَا يُبَيِّنُ فِي عِيدَانِهِمْ خَسْرًا

٤٣ هُمْ الَّذِينَ يُبَارُونَ الرِّيَّاحَ ، إِذَا قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعَافِينَ أَوْ قَتَرُوا

مخاطبة بني أمية

٤٤ بني أمية ، نِعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةٌ تَمَّتْ فَلَا مِنَّةَ فِيهَا وَلَا كَسْرًا

٤٥ بني أمية ، قَدْ نَاضَلْتُ دُونَكُمْ أَبْنَاءَ قَوْمٍ ، هُمْ آوُوا وَهُمْ نَصَرُوا

٤٦ أَفْحَمْتُ عَنْكُمْ بَنِي النَّجَّارِ ، قَدْ عَلِمْتُ عَلَيْهَا مَعَدَّةً ، وَكَانُوا طَالَمَا هَدَرُوا

٤٢ - م : يقول إن أعداءهم لا يستخفون ببطشهم ، بل يجزعون منه أشد الجزع ، كما أنتهم مهما امتحنوا لا يعترى صلابتهم وهن أو ضيم .

٤٣ - قَتَرُوا : أصابهم الإقتار أي القلة والفقير .

م : يقول إنهم يسابقون الرياح في هرعهم لتجددة المعوزين المقلتين . ووجه الجدة في هذا القول لا يعتمد على المعنى أو أدائه بل للمباراة التي أقامها بينهم وبين الرياح في السرعة . الرياح تُسرع لإحلال الجذب والإملاق ، وهم يسابقونها لإحلال الخصب والخير من دونها .

٤٤ - م : يخاطب الأمويين ويقول إن نعمهم وعطاياهم قد جللت عنقه وطوقته دون أن يكدرها بالمنة وتعظيم الجميل .

٤٥ - م : يخاطب الأمويين ويقول إنّه قد نافح عنهم وأفحم الأنصار الذين آووا النبي وناصروه . يشير إلى ما كان من أمره مع الأنصار الذين هجأهم ، فوفدوا على معاوية طالبين الاقتصاص منه فأباحهم لسانه .

٤٦ - مَعَدَّة : هم العرب عامة .

م : يقول إنّه أسكتهم عنه في مشهد من العرب . جميعاً ، بعد أن كانوا قد صالوا وجالوا دون أن يردّ عنهم رادع .

٤٧ حتى استكانوا، وهم مني على مضضٍ والقولُ ينفذُ ما لا تنفذُ الإبرُ
 ٤٨ بني أُمّية ، إنني ناصحٌ لكمُ فلا يبيتنَّ فيكمُ آمناً زفر
 ٤٩ واتخذوه عدوّاً ، إن شاهدهُ وما تغيبَ من أخلاقه دَعَر
 ٥٠ إن الضغينةَ تلقاها ، وإن قدّمتُ كالعرّ ، يكمنُ جيناً ، ثم ينتشرُ

فخره بمنصرة الأمويين

٥١ وقد نصرتَ أميرَ المؤمنينِ بنا لما أتاك ببطنِ الغوطةِ الخبِرُ
 ٥١ يُعرفونك رأسَ ابنِ الحُبَابِ ، وقد أضحى ، وللسيفِ في خيشومه أثرُ

٤٧ - م : يقول إنهم لانوا واستكنوا مكرهين ، مقسورين ، ويردف بأن المرء قد يدرك بقوله ما يقصر عن إدراكه بسيفه .

٤٨ - ٤٩ - زفرُ : هوزفر بن الحارث ، كبير زعماء القيسيين .

م : يحذر بني أُمّية من تأليفهم لزفر وإدائته إليهم ، ويدعوهم إلى النظر إليه كعدو لأن ما ظهر منه و استتر ينطوي على الشر والفساد .

٥٠ - العرّ : الحرب .

م : يقول إن ما يضمنه لكم من ضغينة يستتر ويكتم ، لكنّه ، لا يزول . فهو كالحرب ، لا يلبث أن ينتشر ، فيما يجمل أنه زال وامتحت آثاره . فكان الأخطل يوعز بذلك إلى أن الحقد في النفس هو كالحرب للجسد ، قلما يبرأ منه صاحبه .

٥١ - ٥٢ - الغوطة : موضع قرب الشام .

م : يشير إلى ما كان من أمر التغلبيين مع عمير بن الحُبَابِ الذي قتله التغلبيّون وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى عبد الملك . يقول مخاطباً الخليفة : لقد جيء إليك برأسه ، فلم تكذ تعرفه لشدة ما أصابه من تمثيل وتمثيل ذهباً بمعالم وجهه .

- ٥٣ لا يَسْمَعُ الصَّوْتِ مُسْتَكْتًا مَسَامِعُهُ وليسَ يَنْطِقُ ، حتى يَنْطِقَ الْحَجْرُ
- ٥٤ أَمَسَتْ إِلَى جَانِبِ الْحَشَاكِ جِيْفَتُهُ وَرَأْسُهُ دُونَهُ الْيَحْمُومُ وَالصُّورُ
- ٥٥ يَسْأَلُهُ الصَّبْرُ مِنْ غَسَّانَ ، إِذْ حَضَرُوا وَالْحَزَنُ : كَيْفَ قَرَأَكَ الْغَلْمَةُ الْجِشْرُ
- ٥٦ وَالْحَارِثُ بْنُ أَبِي عَوْفٍ لَعِينٍ بِهِ حَتَّى تَعَاوَرَهُ الْعِقْبَانُ وَالسَّبْرُ

٥٣ - م : يصف رأسه الذي اجثت وحمل إلى الخليفة ، ويقول إنه لا يسمع ، وقد تقبضت مسامعه ، كما أنه لا يحير جواباً ولا ينطق . فهو كالحجر . والشاعر لا ينوه بهذه الأمور التي لا حاجة للتصريح بها ، لأن المرء يلمّ بها ويتمثلها ، دون أن تذكر له ، لا يؤدي ذلك ، الا ليعظم من أمر قتله ويوحى إلى الخليفة بأن بني قومه أنقذوه من شره إلى الأبد . فهو لا يسمع ولا ينطق حتى يتأمر بهم ويؤتّب عليهم .

٥٤ - الحشاك : موضع مرّ ذكره قبلاً . اليحموم : موضع بالشام . الصور : موضع على الخابور .

م : يستكمل وصف قتلهم لعمر ، ويقول إن جثته ألقيت في موضع ، فيما نقل رأسه إلى موضع آخر ، وهو إذ يذكر ذلك ، كأنما يوحي به أنهم أنزلوا به أكثر من الموت ، أو كأن موته لم يشف غليلهم منه ، فظلوا ينكلون به إثر موته . وهو يعظم ، في الآن ذاته ، من أمر مناصرتهم للأمويين .

٥٥ - الصبر والحزن : بطنان من غسان . الجشر : القوم يخرجون بإبلهم ودوابهم إلى المرعى ، ويبيتون مكانها ، ولا يأوون إلى البيوت . وكان عمير يقول إن بني تغلب إنما هم جشر لي آخذ منهم ما شئت ، فلما مروا برأسه على هذه القبائل ، قالوا : كيف رأيت قري غيلمتك الجشر ، مستهزئين به . وهو إنما يعبر في هذا البيت وما قبله عن شماته بمقتله .

٥٦ - الحارث بن أبي عوف : هو رجل من بني عامر بن صعصعة . السبر : جمع سابر : طائر دون الصقر . تعاوره : تداوله .

م : يقول إنهم فتكوا بذلك الرجل وخلفوا جثته طعاماً للعقبان والصقور .

٥٧ وقيسُ عَيْلانُ ، حتى أقبلوا رَقْصاً فبايعوكَ ، جهاراً ، بعدما كَفَرُوا

هجاء القيسيين واحلافهم

٥٨ فلا هدى اللهُ قَيْساً مِنْ ضَلالَتِهِمْ ولا لَعاً لِبَنِي ذَكوان ، إذ عَشَرُوا

٥٩ ضَجُّوا من الحرب إذ عَضَّتْ غوارِبُهُمْ وقيسُ عَيْلانُ ، مِنْ أخلاقِها ، الضَّجْر

٦٠ كانوا ذَوِي إِمَّةٍ ، حتى إذا عَلِقَتْ بِهِمْ حَبائِلُ الشَّيْطانِ وابْتَهَرُوا

٦١ صُكُّوا على شارِفٍ ، صَعَبٍ مَرَّكِبُها حَصاءَ لَيْسَ لها هُلْبٌ ولا وَبَرٌ

٥٧ - رَقْصاً : خيباً .

م : يقول إنهم أذلّوا قيس عيلان ، حتى خضعوا له وأقبلوا يبايعونه ، بعد أن ناوأوه وخرجوا على سنة الدين . وقوله أقبلوا « رقصاً » أي أقبلوا مُسرّعين .

٥٨ - لالعاً : أي لا اقامهم الله . بنو ذكوان : رهط عمير بن الحباب .

م : يتمنى أن يُقيم بنو عيلان على ضلالهم وخرجوهم على الدين ويرجو ألا ينهض بنو ذكوان من عثرتهم . يعودوا إلى قوتهم ليقاتلوا من جديد . وهو إنمّا يتمنى لهم في ذلك كلّه أن يبقوا هدفاً . مضطهاد والتنكيل ، لا تقوم لهم معه قاعة .

٥٩ - غواربهم : أعالي أكتافهم .

م : يقول إنهم لا يطيقون القتال عندما يشتدّ عليهم ، وإنهم دأبوا على التصدّج من المشقات والتخاذل من دونها .

٦٠ - ٦١ - إمّة : نعمة . ابتهروا : غرّ بهم . صكّوا : حملوا . شارِف : ناقة مسنة . الحصاء : التي لا وبر لها . الهلب : شعر الذئب .

م : يقول إنهم كانوا ذوي نعمة ، يرتعون بحيرها ، حتى وسّوس لهم الشيطان وغرّر بهم . فناروا وركبوا مركباً وعرّاً ، لا خلاص لهم منه . وقد مثل امتطاءهم للأمر الصّعب بركوب الناقة المسنة التي تساقط الوبر عن جسمها ، جميعاً .

- ٦٢ وَلَمْ يَزَلْ يَسْلِمُ أَمْرَ جَاهِلِيهَا حتى تعايا بها الإيرادُ والصَّدْرُ
 ٦٣ إِذْ يَنْظُرُونَ، وَهُمْ يَجْنُونَ حَنْظَلَهُمْ إلى الزَّوَابِي، فَقُلْنَا بُعَدَ مَا نَظَرُوا
 ٦٤ كَرُّوا إِلَى حَرَّتِيهِمْ يَغْمُرُونَهُمَا كما تَكَرُّ إلى أوطانها البَقَرُ
 ٦٥ وَأَصْبَحَتْ مِنْهُمْ سِنْجَارٌ خَالِيَةٌ والمَحْلِيَّاتُ فالخابور فالسرر
 ٦٦ وما يُلاقونَ فَرَاصاً إلى نَسَبٍ حتى يُلاقِي جَدِّي القَمَرُ

٦٢ - سُلَيْمٌ : هم من نسب عُمير بن الحباب . تعايا : هنا عجز .

م : يقول إن عُمير بن الحباب لم يزل يسوق سُلَيْمًا بحماقته وجهله ، حتى ضلَّت السَّبِيلَ ولم تعد تدرك سَبِيلَ الإقبال والإدبار .

٦٣ - الزَّوَابِي : جمع زاب : المواضع التي كان التغلبيون يقطنونها . الحَنْظَلُ : المرارة ، وهنا إشارة إلى الحرب .

م : يقول إنهم بعد أن أهلكتهم الحرب وذاقوا مرارتها ، جعلوا يَنْظُرُونَ إلى مواقعنا طامعين بها ، ثم يُرُدُّونَ ساخرًا من مطامعهم إذ يتعذَّر عليهم أن يَلْمُوا بديار تغلب .

٦٤ - الحَرَّةُ : الأرض فيها حجارة سود .

م : يعرِّضُ في هذا البيت بمقام القَيْسِيِّينَ ويقول إنهم بعد أن أخفقوا في احتلال مواقعنا الحصبة ، هرعوا إلى ديارهم القاحلة التي تكثر فيها الحجارة السود مُحاولين إعمارها .

٦٥ - سِنْجَارٌ : قصبة كورة الفرج من تل اعفر . المَحْلِيَّةُ : بلدة عند الموصل . السرر : أرض بالجزيرة .

م : يقول إننا قد أجليناهم عن جميع مواقعهم ، فأفقرت إثرهم ، دون أن يجسروا على العودة إليها .

٦٦ - فَرَاصٌ : هو ابن معن بن مالك ويقال إنَّه تغلبي . جَدِّي : نجم إلى جنب القطب ، يدور مع بنات نعش ويتعذَّر التقاؤه بالقمر .

م : يقول إنهم يُسامونَ فَرَاصاً ويعارضونه بنسبهم ولا قبيل لهم بإدراكه والالتقاء به ، حتى يلتقي الجددي والقمر ، وهو أمر متعذَّر بل مستحيل .

٦٧ ولا الضَّبَابَ إِذَا اخْضَرَّتْ عِيُونُهُمْ وَلَا عَصِيَّةَ إِلَّا أَنَّهُمْ بَشَّرُ
٦٨ وَمَا سَعَى فِيهِمْ سَاعٍ لِيُدْرِكَنَا إِلَّا تَقَاصَرَ عَنَّا ، وَهُوَ مُنْبَهَرٌ
٦٩ وَقَدْ أَصَابَتْ كِلَابًا ، مِنْ عِدَاوَتِنَا إِحْدَى الدَّوَاهِي الَّتِي تَخْشَى وَتُنْتَظَرُ
٧٠ وَقَدْ تَفَاقَمَ أَمْرٌ غَيْرُ مُلْتَمَسٍ مَا بَيْنَنَا رَحِمٌ فِيهِ وَلَا عِذْرٌ

هجاء بني كليب

٧١ أَمَا كُليبُ بنُ يَرْبوعٍ ، فليس لهم عِنْدَ التَّفَارُطِ إِيرَادٌ وَلَا صَدْرٌ
٧٢ مُخَلَّفُونَ ، وَيَقْضِي النَّاسُ أَمْرَهُمْ وَهُمْ بَغِيبٍ فِي عَمِيَاءٍ مَا شَعَرُوا

٦٧ - الضَّبَابُ : قوم من قيس عيلان . اخْضَرَّتْ : هنا اسودت . عَصِيَّةٌ بطن من بني سليم .
م : يقول إنه لا طاقة للضَّبَابِ ولا لبني عَصِيَّةِ أن يساموه برفعة الأصل والمحتد ، ولا يتسبون
إليه بنسب ، إلا بكونهم بشرًا .

٦٨ - انْبَهَرَ : انقطع نفسه من شدة الإعياء .

م : يمثل التفاضل فيما بين تغلب وقيس بمثل السباق ويقول إن القيسيين لا يسعون إلى
اللتحاق بهم ، حتى تتقطع أنفاسهم ويصيبهم البهر ويشرفوا على الهلاك .
٦٩ - الدَّوَاهِي : جمع داهية .

م : ينقطع في هذا البيت إلى هجاء قوم جرير ، ويقول إنهم قد انزلوا بهم الدَّوَاهِي العظيمة التي
لا يبرح القوم يخشونها ويتحسبون لوقوعها .

٧٠ - م : يقول إنه قد تفاقم وساء الأمر بيننا ولا سبيل إلى رأبه ومداراته ، إذ لا صلة رحم
تؤلف بيننا ولا عذر لنا في الإحجام عن التعرض لهم ومقاتلتهم .

٧١ - التَّفَارُطُ : التقدم إلى الماء في زحمة من الناس . وَرَدَ : أقبل على الماء . صَدَرَ : عاد عنه
م : يمثل قلة شأن بني يربوع ، قوم جرير ، ويقول إنه إذ يجتمع القوم متزاحمين على ورود
الماء ، فإنهم يخلفون في الذيل ، لا يردون ولا يصدرون .

٧٢ - م : يقول إنهم قاصرون ، أدلاء ، لا يملكون زمام أمرهم ، يقضي به الناس عنهم ،
وهم غافلون لا يلمون بشيء ولا يشعرون به .

- ٧٣ مُلْطَمُونَ بِأَعْقَارِ الْحِيَاضِ ، فَمَا يَنْفَكُ مِنْ دَارِمِيٍّ فِيهِمْ أَثَرُ
- ٧٤ بئس الصُّحَاةُ ، وبئس الشَّرْبُ شُرْبُهُمْ إِذَا جَرَى فِيهِمْ الْمِزَاءُ وَالسُّكْرُ
- ٧٥ قَوْمٌ أَنَابَتْ إِلَيْهِمْ كُلُّ مُخْزِيَةٍ وَكُلُّ فَاحِشَةٍ سَبَتْ بِهَا مَضْرُورٌ
- ٧٦ عَلَى الْعِيَارَاتِ هَذَا جُونَ ، قَدْ بَلَغَتْ نَجْرَانَ أَوْ حُدَّتْ سُوءَاتِهِمْ هَجَرَ
- ٧٧ أَلَّا يَكْلُونَ خَبِيثَ الزَّادِ ، وَحَدَهُمْ وَالسَّائِلُونَ بظَهْرِ الْغَيْبِ مَا الْخَبِيرُ
- ٧٨ وَأَذْكَرُ غُدَانَةَ عِدَانًا مَرْنَمَةً مِنَ الْحَبَلَتِي تُبْنِي حَوْلَهَا الصَّيْرُ

- ٧٣ - أعقار : جمع عقر وهو مؤخر الحوض . الدارمي : نسبة إلى دارم أحد جدود الفرزدق .
 م : يكرر المعنى الأسبق ويقول إنهم إذ يردون بإبلهم الماء ، يخلقون وراء الجميع ، ينكل بهم الدارميون ، ويخلقون فيهم آثار زجرهم وضررهم لهم .
- ٧٤ - المزاء : الحمرة التي طعمها بين الحلاوة والحموضة .
 م : يقول إن بني يربوع سيئو الخلق ، سفهاء ، أكانوا سكارى أم صحاة . أي أن أخلاقهم هي أخلاق المجون دون أن يحسبوا لذلك خمراً .
- ٧٥ - م : يقول إن المخازي والفواحش التي سببت بها مضر وعيبت عليها ، لا تزال تشب إليهم وتنصل بهم .
 هجر : موضع .
- م : يقول إنهم لا يزالون يسعون ببطء على الحمير ، أي أنهم ليسوا بفرسان يمتطون الخيل أو الإبل ، وإن أبناء مساوئهم قد تديعت وانتشرت في الناس ، حتى أدركت الأمكنة القصية .
- ٧٧ - يقول إنهم ليجلهم يأكلون زادهم الخبيث ، منفردين ، ولا يشركهم فيه ضيف أو جار ، وإنهم مغفلون ، لا يطلعون على الأمور ولا يستشارون بها ، بل تراهم يسألون عنها دون معرفة بها ، كالدَّهْمَاءِ الَّذِينَ لَا شَأْنَ لَهُمْ .
- ٧٨ - غُدَانَةٌ : من بني يربوع . العِدَانُ : جماعة من المعزى . مَرْنَمَةٌ : التي تدلني من حلقتها . الْحَبَلَتِي : أولاد المعزى الصغار . الصَّيْرُ : الحظائر .
 م : يمثل بني غُدَانَةَ بجماعة من المعزى الصَّغِيرَةِ الَّتِي تُزْرَبُ فِي الزَّرَائِبِ .

٧٩ تُمَدِّي ، إِذَا سَخَنْتَ فِي قُبُلِ أَذْرُعِهَا وَتَزَرَّتِمُ إِذَا مَا بَلَّهَا الْمَطَرُ
 ٨٠ وما غُدَانَةٌ فِي شَيْءٍ مَكَانَهُمْ أَلْحَاسِو الشَّاءِ ، حَتَّى يَفْضَلَ السُّورُ
 ٨١ يَتَّصِلُونَ بِبِرْبُوعٍ ، وَرَفَدُهُمْ عِنْدَ التَّرَافِدِ ، مَغْمُورٌ وَمُحْتَقَقٌ
 ٨٢ صَفْرُ اللَّحْيِ مِنْ وَقُودِ الْأَدْحِنَاتِ ، إِذَا رَدَّ الرَّفَادَ وَكَفَّ الْحَالِبِ الْقِسْرُ
 ٨٣ ثُمَّ الْإِيَابُ إِلَى سَوْدٍ مُدَنَّسَةٍ مَا يَسْتَحِينُ ، إِذَا مَا احْتَكَّتِ النَّقْرُ
 ٨٤ وَأَقْسَمَ الْمَجْدُ ، حَقًّا ، لَا يُحَالِفُهُمْ حَى يُحَالِفَ بَطْنَ الرَّاحَةِ الشَّعْرُ

٧٩ - تُمَدِّي : تبول . المَزَرَّتِمُ : المنقبض من شدة البرد .

م : يبرز أربهم ويحقر من أمرهم ، مستكملاً معنى البيت السابق ، ويقول إنهم يبولون على سوقهم ، إذا ما ضربتهم الحرارة ، وإذا ما أصابهم البرد وهطل عليهم المطر ، ينقبضون على أنفسهم .

٨٠ - السُّورُ : جمع سؤور : ما فضل في الإناء .

م : يقول هم أذلاء ، فلا يقدر أن يسقوا شاءهم حتى يشرب الأقوياء وإنما يسقون ما أفضل الأشراف .

٨١ - الرَّفْدُ : الإعانة .

م : يقول إنهم يستنجدون ببني يربوع القليلي العدد ، المخمورين الذين لا نصر لمن يناصروهم .

٨٢ - الرَّفَادُ : قذح ضخم . الْقِسْرُ : جمع قرّة وهي البرد .

م : يقول : إن لحاهم قد اصفرّت لكثرة ما يستخدمون ليوقدوا النار في المداخن ، أيام الصقيع ، عندما يجيء الحالب بالرفاد ، فيردّه به البرد ، خالياً ، لشدته .

٨٣ - النَّقْرُ : الثقب في وسط الورك .

م : يقول إن أولئك الرجال يأوون إلى نساءهم القدرات ، السود ، اللواتي لا يعترفن حياة في طلب الرجال ومواقعتهم .

٨٤ - م : ينهي القصيدة بالقول إن المجد قد أقسم ألا يبيت وينبت فيهم حتى ينمو الشعر في باطن الكف .

أعني أمير المؤمنين من مدائحه ايضاً في عبد الملك

ذكر حبيته سلمى

- ١ ألا يا اسلمي يا هندُ هندَ بني بدرِ وإن كان حيانا عدى، آخرَ الدهرِ
- ٢ وإن كنتِ قد أقصدتني، إذ رميتني بسهمك ، والرّامي ، يُصيبُ وما يدري
- ٣ أسيلةُ مجرى الدّمعِ ، أمّا وشاحها فجارٍ ، وأمّا الحجُلُ منها فما يجري
- ٤ تموتُ وتَحيا بالضّجيعِ وتلتوي بِمُطرِدِ المتّنينِ مُنتَبِرِ الخَصْرِ
- ٥ وكُنْتُمْ إذا تناونَ مِنّا ، تعرّضتَ خيالنا تُكُمُ ، أوِ بِتُّ منكمُ على ذكرِ

- ١ - العدى : يقال للمتباعدين ، لا أرحام بينهم ولا أسباب من جوار ولا حلف قوم .
م : يخاطب صاحبتَه هنداً ويرجو لها السّلامة وينسبها إلى بني قومها . ويقول إنّه يأمل أن يقيما على المودة بالرغم من الخفاء بين قوميّهما .
- ٢ - أقصده : أصاب منه مقتلاً .
م : يقول إنّه يتمنى لها خيراً ويرجو لها سلامة بالرغم من أنّها أصابتَه بسهام حبتها دون أن تدري ، فأصابت منه مقتلاً .
- ٣ - أسيلةُ مجرى الدّمعِ : أي سهلة الخدين . الحجُلُ : موضع الخلخال .
م : يقول إنّها سهلة الخدين ، وإن وشاحها جارٍ ، أي أنّها ضامرة الكشّحين ، وإن ساقها ممثلة ، فلا يتحرك خلخالها فيها .
- ٤ - م : يصف لين جسدها وانصباب قوامها ، ويقول إنّها إذا ما ضوجعت تُصاب بمثل إغماء الشهوة ، وإنّها مُطرِدَة المتّنين أي منتصبه القوام ، وإنّها منتبرة القوام أي ضامرة حتى ليكاد قوامها أن ينقطع .
- ٥ - م : يقول إنّه لشدة شفقّه بها يتتابه طيفُها ، ويتعرض له ، أو أنّه كان يقيم على ذكرها .

هجاء القيسيين ومن إليهم

- ٦ لَقَدْ حَمَلَتْ قَيْسَ بْنَ عَيْلَانَ حُرْبُنَا عَلَى يَابِسِ السَّيِّئِ ، مُحَمَّدُ وَدُبِ الظَّهْرِ
 ٧ وَقَدْ سَرَّيَ مِنْ قَيْسِ عَيْلَانَ ، أَنِّي رَأَيْتُ بَنِي الْعَجْلَانَ سَادُوا بَنِي بَدْرِ
 ٨ وَقَدْ غَبَرَ الْعَجْلَانُ حِينًا ، إِذَا بَكِي عَلَى الزَّادِ ، أَلْقَتْهُ الْوَالِدَةُ فِي الْكَسْرِ
 ٨ فَيُصْبِحُ كَالْخُفَّاشِ ، يَدُلُّكَ عَيْنُهُ فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهِ لَثِيمٍ ، وَمَنْ حَجَرَ
 ١٠ وَكُنْتُمْ بَنِي الْعَجْلَانَ الْأُمَّمَ عِنْدَنَا وَأَحْقَرَ مِنْ أَنْ تَشْهَدُوا عَلَيَّ الْأَمْرَ

٦ - السَّيِّئِ : مَنْتَظَمٌ فِقَارُ الظَّهْرِ .

م : يقول إن قاتله لقيس عيلان ، جعلها تركب مركباً وعرأ ، أشرفت فيه على الهلاك .

٧ - الْعَجْلَانَ : هو ابن عبد الله بن قيس بن ربيعة وهم من قيس عيلان . بنو بدر : هم جماعة من القيسيين .

م : كأنَّ الأخطل يهدف في هذا القول إلى إثارة الفِتْنَةَ والشَّقَاقَ بين القيسيين ، فيذكر طربه لتسلط بعضهم على البعض الآخر .

٨ - الْكَسْرُ : جَانِبُ الْبَيْتِ .

م : يقول إن ابن العجلان أقام زماناً ، إذا طلب الزَّادَ واندفع لِيَيْتِهِ جَرَّتَهُ وَالدَّتُهُ ودفعته إلى جوار البيت . يمثل بذلك بخُلْمِهِمْ حَتَّى لَاتَهُمْ لِيَقْتَرُونَ عَلَى وَلَدَانِهِمْ .

٩ - الْحَجَرُ : هُنَا مَحْجَرُ الْعَيْنِ .

م : يستكمل معنى الْبَيْتِ السَّابِقِ ويصفه مقيماً خارج البيت ، هزبلاً كَالْخُفَّاشِ يمر يده على عينيه ، بَأَكْيَا ، ثُمَّ يَقْبَحُ بِوَجْهِهِ وَعَيْنِهِ .

١٠ - م : يقول لآتهم يُزْرُونَ بَنِي الْعَجْلَانَ لِدَنَاءَتِهِمْ وَلِزُومِهِمْ وَلَا يُلْفُونَهُمْ حَقِيقِينَ بِأَنْ يَشْهَدُوا مَشَاهِدَ الرَّأْيِ وَالشُّورَى .

- ١١ بَنِي كُلِّ دَسْمَاءِ الثِّيَابِ ، كَأَنَّمَا طَلَاهَا بَنُو الْعَجْلَانِ مِنْ حُمَمِ الْقِدْرِ
 ١٢ تَرَى كَعْبَهَا قَدْ زَالَ مِنْ طَوْلِ رَعِيهَا وَقَاحَ الذَّنَابِي بِالسَّوِيَّةِ وَالزَّفْرِ
 ١٣ وَإِنْ نَزَلَ الْأَقْوَامُ مَنْزِلَ عِفَّةٍ نَزَلْتُمْ بَنِي الْعَجْلَانِ مَنْزِلَةَ الْخُسْرِ
 ١٤ وَشَارَكَتِ الْعَجْلَانُ كَعْبًا ، وَلَمْ تَكُنْ تُشَارِكُ كَعْبًا فِي وِفَاءٍ وَلَا غَدْرِ

وصف هرب ابن بدر

- ١٥ وَنَجَى ابْنُ بَدْرِ رِكْضَهُ مِنْ رَمَاحِنَا وَنَضَاحَةَ الْأَعْطَافِ مُلْهَبَةً الْحُضْرِ

١١ - حُمَمٌ : جمع حمّة : أي الفحَم والرّماد .

م : يحقر من أمر نساءهم ويحقرهم من خلاهن ، إذ يصف شظف عيشهم وقذارة نساءهم ويقول إنهن سود الثياب ، كأنما صبغت ثيابهن بسواد القُدور .

١٢ - الذَّنَابِي : هنا العَجْزُ . السَّوِيَّةُ : قَتَبَ مَعْرَى . الزَّفْرُ : الحِمْلُ .

م : يستكمل هجاءه لهم بوصفه لنساءهم ويثلبهم ثلباً مُقَدِّعاً ، ويقول إن العَجْلَانِيَّةَ قَدْ بُرِيَ كَعْبٌ قَدْ مَهَا مِنْ كَثْرَةِ عَدْوِهَا عَلَيْهِ فِي الْمَرْعَى وَالْقِيَامِ عَلَى الْخِدْمَةِ كَالْأَمَةِ ، كَمَا أَنَّ عَجْزُهَا قَدْ تَقَيَّحَ مِنْ كَثْرَةِ مَا تَحْمِلُ الْأَثْقَالَ عَلَيْهِ . ومؤدّى الهجاء في هذا البيت أن القوم الشرفاء كانوا يدعون نساءهم في نعيم ويسوقون الإمام لخدمتهن .

١٣ - م : يقول إذا ما تبارى الأقوام بالتصون والعفة ، فإن كفة بني العجلان لا ترجح ولا يفوزون في ذلك بشيء ، يتهمهم بالدنس ومواقعة الفحشاء والدناءة .

١٤ - كَعْبًا : يريد هنا كعب بن ربيعة .

م : يقول إنهم لزال أصلهم أقحموا أنفسهم على كعب . فانتموا إلى قومه ، فهم يلحقون بهم ، كمن لا أصل لهم .

١٥ - نَضَاحَةُ : أي أن العرق ينضح منها . الحُضْرُ : العَدُو .

م : يقول إن ابن بدر نجا من رماحنا بإدباره من دوننا وتولّيه على فرس سريعة العَدُو ، ينضح العرق ويتصبّب منها لشدة زجره لها ، حتى ينجو بنفسه .

- ١٦ إذا قُلْتُ نَالَتُهُ العَوَالِي، تَقَادَفْتُ بِهِ سَوْحِقُ الرَّجْلَيْنِ، صَابِيَةُ الصَّدْرِ
 ١٧ كَأَنَّهُمَا وَالآلَ يَنْجَابُ عَنْهُمَا إِذَا انْغَمَسَا فِيهِ يَعْوَمَانِ فِي غَمْرِ
 ١٨ يُسِرُّ إِلَيْهَا، وَالرَّمَاخُ تَنْوِشُهُ: فِدَى لِكَ أُمِّي، إِنْ دَأَبْتَ إِلَى الْعَصْرِ
 ١٩ فَظَلَّ يُفِدِّيهَا، وَطَلَّتْ كَأَنَّهُمَا عُقَابٌ، دَعَاها جُنْحُ لَيْلٍ إِلَى وَكْرِ
 ٢٠ كَأَنَّ بِطَبِيِّئِهَا وَمَجْرَى حِزَامِهَا أَدَاوَى تَسْحُ الْمَاءَ مِنْ حَوْرِ وَفَرٍ
 ٢١ رَكُوبٌ عَلَى السَّوَّاتِ، قَدْ شَنِمَ اسْتَهُ مُزَاخِمَةُ الْأَعْدَاءِ وَالنَّخْسِ فِي الدُّبْرِ

١٦ - العوالي : أطراف الرماح . تقاذفت : ترامت به . سوحق الرجلين : طوليتهما .

صابية : أي سريعة الممر ، لا تميل في استوائها .

م : يقول إنه لا تكاد رماحنا تظاله ، فإنه يعدو من دوننا ، ويهرب بنفسه على تلك الفرس المستوية العدو ، الطويلة الساقين . وهو إنما يعظم من سرعة عدو فرسه ، ليعظم من خلالها من شدة رعب ابن بدر وهلعه في الحرب .

١٧ - الآل : السراب . ينجاب : ينكشف : انغمسا : هنا ورجلا . الغمر : الماء الكثير .

م : يستكمل معنى البيت السابق ، ويصف عدو ابن بدر في الصحراء ، حيث كان يغمره السراب وفرسه ، وينقشع عنهما ، ويمثل خوضهما فيه بمثل خوض غمار البحر .

١٨ - يسر إليها : هنا يهمس لها .

م : أي أن ابن بدر كان يخاطب فرسه ويفدئها ويستحثها حتى تتأبر على عدوها إلى العصر ، فينجو من الهلاك .

١٩ - الجنح : العشي . طلّت : هنا تدلّت .

م : أي أنه ظلّ يستحثها ، فيما هي أقامت على عدوها ، كأنها عقاب تسرع إلى وكرها ، قبل أن يعاجلها الظلام .

٢٠ - طبيئها : مفردا طبي أي ثدي . حور : جلد مدبوغ . وفر : ضخم . الأداوى :

جمع الإداوة : إناء صغير من جلد .

م : يمثل العرق المنصب من ثديئها ومجرى حزامها بالأداوى التي ينهمر منها الماء .

٢١ - الركوب : الذلول . شنم : جرح . النخس : الضرب بأداة حادة . الدبر : المؤخرة .

م : يقول إنه يدلّ ويستسلم لما يسوءه وإن عجزه قد جرح من تراحم أعدائه على ضربه به ونخسه له فيه ، يسوقونه ويزجونهم كالدابة .

هجاء أعدائه ومفاخرتهم

- ٢٢ فطاروا شِقَاقاً لِأُنْتَتَيْنِ ، فَعَامِرٌ تَبِيعُ بَنِيهَا بِالْخِصَافِ وَبِالتَّمْرِ
 ٢٣ وَأَمَّا سُلَيْمٌ ، فَاسْتَعَاذَتْ حِذَارَنَا بِحَرَّتِهَا السُّودَاءِ وَالْجَبَلِ الْوَعْرِ
 ٢٤ تَنَقُّ بِلا شَيْءٍ شُيُوخُ مُحَارِبِ وَمَا خَلَّتُهَا كَانَتْ تَرِيشُ وَلَا تَبْرِي
 ٢٥ ضَمْفَادُعُ فِي ظُلْمَاءِ لَيْلٍ تَجَاوَبَتْ فَدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتُهَا حَيَّةَ الْبَحْرِ
 ١٦ وَنَحْنُ رَفَعْنَا عَنْ سَلُولٍ رِمَاحَنَا وَعَمْدًا رَغَبْنَا عَنْ دِمَاءِ بَنِي نَصْرِ

٢٢ - شِقَاقاً لِأُنْتَتَيْنِ : أي انقسموا إلى فرقتين . الخِصَافِ : جَلَّةٌ تعمل من الخِصَافِ للتمر .

م : يقول إنهم انقسموا إلى فرقتين ، إحداهما العامريون الذين دأبوا على بيع أولادهم بالتمر والخِصَافِ . أي أنهم لذلتهم يتجرون بأبنائهم وبيعونهم عبيداً لقاء ثمن زهيد .

٢٣ - الْحَرَّةُ : الأرض السوداء التي لا تَبْتُ فيها .

م : أمَّا الفرقة الثانية ، وهم سليم ، فقد ولت الأدبار ولحات إلى أرضها السوداء الكثيرة الحجارة واعتصمت بالجبال الوعرة . أي أنهم أزعجوها عن مرابعها وأجبروها على الإقامة في مواقع لا يطيب لها فيها العيش ، إذ لا ماء فيها ولا خصب .

٢٤ - تَنَقُّ : أي ترسل مثل أصوات الضفادع . تَرِيشُ : تضع الريش للسهام . تَبْرِي : تتقف السهام .

م : يقول : إن أولئك الشيوخ يكتفون بالصباح والجلبة ، دون أن يقووا على أي عمل ودون أن يجدوا في شيء .

٢٥ - م : يستكمل معنى البيت السابق ، ويقول إنها أخذت تُصَوِّتُ حتى سمعتها حية البحر ، وأقبلت إليها ، أي أنها جنت على نفسها .

٢٦ - م : يفخر في هذا البيت بأنهم هم الذين رفعوا رماحهم عن سلول أي عثوا عن قتلهم وهم قادرون عليه ، تحلماً ، وأنهم عمدوا كذلك حقن دماء بني نصر . وإنما يفخر الأخطل هنا بقدرتهم التي لا حد لها على البطش ، بحيث أنهم باتوا تعطفهم الشفقة على أعدائهم ، فيعفون عنهم .

٢٧ وَلَوْ بِنِي ذُبْيَانَ بُلَّتْ رِمَاخُنَا لَقَرَّتْ بِهِمْ عَيْنِي وَبَاءَ بِهِمْ وَتَرِي
 ٢٨ شَفَى النَّفْسَ قَتْلَى مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ وَلَمْ تَشْفِهَا قَتْلَى عَنِّي وَلَا جَسْرٍ
 ٢٩ وَلَا جُشْمٍ شَرِّ الْقَبَائِلِ ، إِنَّهَا كَبَيْضِ الْقَطَا ، لَيْسَ وَابَسُودٍ وَلَا حُمْرِ
 ٣٠ وَمَا تَرَكَتْ أَسْيَافُنَا حِينَ جُرِدَّتْ لِأَعْدَائِنَا قَيْسِ بْنِ عَيْلَانَ مِنْ عُنْدِ
 ٣١ وَقَدْ عَرَكَتْ بَابِنِي دُخَانَ فَاصْبَحَا إِذَا مَا أَحْزَأَلًا مِثْلَ بَاقِيَةِ الْبَطْرِ

٢٧ - بَلَّتْ : أي علققت . بَاءَ : أي أصاب لنفسه إذ أدرك ثاره .

م : يمثل في هذا البيت حقه على بني ذُبْيَانَ ويتمنى لو أنَّ رماحهم أدركتهم ليشفي نفسه من الحقد عليهم والرغبة بالثأر منهم . وبينما كان يفخر في البيت السابق بعفوه عن خصومه ، فإنه يتحسّر في هذا البيت لعجزه عن الإيقاع بخصوم آخرين . وقد كان قوله السابق يتمُّ عن احتقار لقدَّر أعدائه ، فيما أفصح في البيت الثاني عن شعوره بالوثر والتعقمة .

٢٨ - م : يقول : إنّه أدرك ثاره وأجهض حقه إذ أنخن بقتل عامر بنِ وسليم ، فيما لم يشف نفسه ممّن قاتلهم دونهما ولم يبلغ فيهم غاية مآربه .

٢٩ - القطا : طائر يضرب به المثل لشدة اهتدائه .

م : أي أنه لم يدرك غاية الثأر من بني جشم الذين يترجّح لون وجوههم بين السواد والاحمرار كبيض القطا .

٣٠ - م : يقول إنهم بطشوا بقيس عيلان كلّ بطش ، حتى لم يدعوا لهم خلاصاً وألّوا بهم في كلّ موقعة حتى إنهم لم يدعوا لهم عذراً يعتذرون به .

٣١ - عَرَكَتْ : ذللت . ابنا دخان : هما غني وباهلة . أَحْزَأَلًا : أي ارتفعنا : البَطْرِ لحمة في فرج المرأة .

م : يقذع في هجاء ابني دخان ويقول إن سيفونا فكتت بهما ، حتى استسلما وتعقرا وغدوا ، إذا مارفعا رأسيهما ، بيدوان كباقيّة البَطْرِ .

٣٢ وأذركَ علمي في سُوءةَ ، أَنهَـا تُقيمُ على الأوتارِ والمشرَبِ الكدَرِ
 ٣٣ وظَلَّ بَجِيسُ الماءِ مِنْ مُتَقَصِّدٍ على كُلِّ حالٍ مِنْ مذاهِبِهِ يَجري
 ٣٤ فأقسِمُ لوَ أذركَـهُ لَقَدَفَنَهُ إلى صَعْبَةِ الأرجاءِ ، مُظْلِمَةَ القَعْرِ
 ٣٥ فوسَدَ فيها كَفَهُ ، أوْ لِحجَلَتْ ضِبَاعُ الصَّحاري حَوَلَهُ ، غيرَذي قَبْرِ
 ٣٦ لَعَمري لَقَد لاقَتْ سُلَيْمٌ وعامِرٌ على جانبِ الثَّرثارِ راغِبَةَ البَكْرِ

٣٢ - سوءة : من قيس عيَّلان وكذلك بنو العَجَّلان وهو وزن وغني . الكدَر : العكر .

م : يقول : إنَّتي علمت بأن بني سوءة يُقيمون على ثاراتهم ولا يبعون بها، وأنَّهم يسفون الماء الكدَر أي أنَّهم يرضون بما قد يلمُّ بهم ، بالرَّغم من أنَّه يصيبهم بالذَّل .

٣٣ - بَجِيسُ الماء : أي سائلُهُ . مُتَقَصِّدٌ : من تقصَّده وأقصده ، إذ أصابه وأسأل دمه وهنا وردت بمعنى السيلان .

م : أي أنَّ الماء الكدَر الذي يَحْتسونه ظلَّ يجري في مجراه ، ولم يعترضوا له ولم يعلموا من أمره شيئاً ، أي أنَّهم أقاموا على الذَّل ولم يثوروا لكرامتهم ويتأروا لها .

٣٤ - م : يعود في هذا البيت إلى ذكر ابن بدر الذي وصف هربه على فرس سريعة داخلًا في السَّراب وخارجاً منه ، وقد استطرد عنه بذكر بعض الأيام والقبائل . يقول لو أنَّ خيلنا أدركتَهُ لأودت به إلى الهلاك أي إلى القَبْرِ الذي مثله بالحفرة الصَّعبة الأرجاء المظلمة القعر .

٣٥ - م : يستكمل معنى البيت السابق ، ويقول إنَّ خيلهم كانت قد أودت به إلى القَبْرِ حيث يتوسد كَفَهُ أو خلقتَهُ صريعاً في القَعْرِ دون قَبْرِ تتسارع الضبَاع لافتراسه .

٣٦ - راغِبَةَ البَكْرِ : أي كرهاً ناقة صالح التي رَغَتْ بِنبي ثمود فأهلِكوا . الثَّرثار : موضع ذُكر قبلاً ، كانت فيه وقعة بين تغلب وأعدائها .

م : يقول : إنَّهم أذاقوا أعداءهم في يوم الثَّرثار الهلاك والموت .

مخاطبة الخليفة

- ٣٧ أَعْنِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَائِلٍ وَحُسْنَ عَطَاءٍ ، لَيْسَ بِالرَّيِّثِ النَّزْرُ
 ٣٨ وَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا بِنَا إِلَى صُلْحِ قَيْسِ يَابْنَ مَرْوَانَ مِنْ فَقْسِرِ
 ٣٩ فَإِنَّ تَكُ قَيْسٌ ، يَابْنَ مَرْوَانَ ، بَايَعْتَ فَقَدْ وَهَلَتْ قَيْسٌ إِلَيْكَ ، مِنَ الْعُذْرِ
 ٤٠ عَلَى غَيْرِ إِسْلَامٍ وَلَا عَنَ بَصِيرَةٍ وَلَكِنَّهُمْ سَيَقُوا إِلَيْكَ عَلَى صُغْرِ
 ٤١ وَلَمَّا تَبَيَّنَا ضَلَالَةَ مُصْعَبٍ فَتَحْنَا لِأَهْلِ الشَّامِ بَاباً مِنَ النَّصْرِ
 ٤٢ فَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنَّا هَوَازُنُ كُلِّهَا كَوَاهِي السَّلَامِي ، زَيْدٌ وَقِرَاءٌ عَلَى وَقْرِ

٣٧ - م : يخاطب الخليفة ويطلب إليه أن يمده بعطاء كثير .

٣٨ - م : يقول مخاطباً الخليفة : إنك أنت أمير المؤمنين أي أنك صاحب السُّلْطَة والحول والقدرة ، لا تفتقر بها وبنا إلى عقد الصُّلْح مع قيس عيلان . وقد كان الأخطل يخشى أن يؤلف الأمويون القيسيين . فيُلْغِي التَّغْلِبِيَّوْنَ دُونَ عَضُدِ بَعْضِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ وَهُوَ لَا يَبْرَحُ لِذَلِكَ يَحْذَرُ الْخَلِيفَةَ مِنْ تَقْدِيمِ الْقَيْسِيِّينَ وَإِيثارِهِمْ وَتَأْلِيْفِهِمْ .

٣٩ - وَهَلَتْ : أي نزلت إليك عن خوف .

م : يحذر الخليفة ويقول إن القيسيين هرعوا إلى مبايعته خوفاً من فتكهم بهم ، إثر مناصرتهم لابن الزبير ومقاتلتهم دونه . وهم إنما بايعوه ليعتذروا له عما أسلفوه له من عداة ليصفح عنهم . فهم لم يبايعوا عن اختيار بل عن اضطرار .

٤٠ - م : يكرر معنى البيت السابق ويوضحه ، ويقول إنهم لم يبايعوا عن عقيدة وإيمان وهداية ، لكنهم دُفِعُوا إِلَى ذَلِكَ دَفْعاً وَسَيَقُوا إِلَيْهِ صَاغِرِينَ مُكْرَهِينَ .

٤١ - م : يقول إننا إذ تحقق لنا أن مُصْعَباً كَانَ ضَالِّاً عَنْ سَوِيَّةِ الْحَقِّ وَالْدِينِ مِنْ دُونِكُمْ ، نَاصَرْنَا أَهْلَ الشَّامِ عَلَيْهِ ، فَانْتَصَرُوا بِنَا . وَالْأَخْطَلُ يَسُوقُ إِلَى الْخَلِيفَةِ مَا قَدْ يَسُوقُهُ الْمُسْلِمُ وَفَقاً لِمَبَادِيءِ الدِّينِ وَسُنَّتِهِ .

٤٢ - السَّلَامِي : عِظَامُ خَفِّ الْبَعِيرِ . الْوَقْرُ : الصَّدْعُ فِي الْعِظْمِ .

م : يشير إلى ما أنزله بنو قومه من قتل وبطش بني هوازن وهم من بطون قيس ، ويقول إنهم غدوا كالعظام التي صدعت وازدادت تحطيماً .

- ٤٣ سَمَوْنَا بَعْرَيْنِ أَشْمَ وَعَارِضٍ لَنَمْنَعَ مَا بَيْنَ الْعِرَاقِ إِلَى الْبِشْرِ
 ٤٤ فَأَصْبَحَ مَا بَيْنَ الْعِرَاقِ وَمَنْبِجٍ لَتَغْلِبَ تَرْدِي بِالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ
 ٤٥ إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَسِيرُهَا تَخُبُّ الْمَطَايَا بِالْعَرَائِينَ مِنْ بَكْرِ
 ٤٦ بِرَأْسِ امْرِئٍ ذَلَّى سُلَيْمًا وَعَامِرًا وَأُورَدَ قَيْسًا لُجَّ ذِي حَدَبٍ غَمْرٍ
 ٤٧ فَأَسْرَيْنَ خَمْسًا ، ثُمَّ أَصْبَحَنَ ، غُدُوَّةٌ يُخْبِرُنَ أَخْبَارًا أَلَذَّ مِنَ الْخَمْرِ

٤٣ - العرينين : الأنف . العارض : الجمع الكثير وأصله في السحاب المتراكم الكثير المطر .
 البشر : موضع بين العراق والشام ، وفيه قتل الجحاف بن حكيم بن تغلب ، وكان
 الأخطل قد تظلم إلى الخليفة من ذلك اليوم بالقول : « لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة »
 إلا أنه يتخذ هنا من ذكره مفعلة ، ويقول إنهم ارتادوا المربع القائمة بين العراق
 وموضع البشر بجيوشهم العظيمة واحتلوا ومنعوا عنها كل من دونهم .

٤٤ - منبج : قرية بينها وبين العراق ثلاثة فراسخ . تردي : تمشي . الردينية : نسبت إلى
 ردينة في البحرين ، نبت فيها القنا .

م : يذكر المواقع التي احتلها بسلاحهم ويفخر بذلك .

٤٥ - العرائين : جمع عرينين : الأنف وهنا الأسياد .

م : يقول مخاطباً الخليفة ، متفاخراً بأنهم كانوا يسوقون إليه رؤساء بكر وأسيادها أسارى
 تخب بهم مطاياهم إلى الشام .

٤٦ - رأس امرئ : هو عمير بن الحباب . ذلئى : من تدلية الدلو ، أي أنه ساقهم إلى ما
 كان يتفقيه من أمر وغرر بهم . لُجج : جمع لجة : معظم الماء . الحدب : البحر . الغمر :
 الماء الكثير .

م : يقول إنهم ساقوا إليه رأس عمير بن الحباب الذي كان قد غرر بسليم وعامر وساق
 القيسيين إلى لجة كان فيها هلاكهم .

٤٧ - م : يقول إن تلك الخيول عدت برأس عمير طوال خمس ليال ، حتى أدركت الشام
 غدوة وحمل فرسانها إلينا أخباراً تطيب لها النفس بما هو ألد من الحمرة . وتشبيهه
 للذة الخبز بلذة الحمرة ، قد يكون مستفاداً من تجربته الحمرية .

- ٤٨ تَخَلَّ ابْنُ صَفَّارٍ ، فَلَا تَذْكُرِ الْعُلَى ، وَلَا تَذْكُرْنَ حَيَاتِ قَوْمِكَ فِي الذِّكْرِ
 ٤٩ فَقَدْ نَهَضَتْ لِلتَّغْلِبِيِّينَ حَيَّةٌ كَحَيَّةِ مُوسَى يَوْمَ أُيُدَ بِالنَّصْرِ
 ٥٠ يُخْبِرُنَا أَنَّ الْأَرَاقِمَ فَلَقُوا جَمَاعِمَ قَيْسِ بَيْنَ رَاذَانَ فَالْحَضْرِ
 ٥١ جَمَاعِمَ قَوْمٍ ، لَمْ يَعَافُوا ظُلَامَةَ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَيْنَ الْوَفَاءِ مِنَ الْغَدْرِ

٤٨ - ابن صفّار : هو نفع بن صفّار المحاربي الذي كان يدأب على الفخر بيوم الفدين وما إليه .
 حَيَات : جمع حية وقد تكنى بها عن القدرة على الأذية .

م : يخاطب ابن صفار الذي لا يزال يفخر بأيتام بني قومه على التغلبين ويردعه عن ذلك ،
 ويقول له لا تدع المعالي ولا تتبجح بقدرتكم على مساورة الأعداء والقضاء عليهم .

٤٩ - م : يستطرد منساقاً بلفظة « حية » إلى تشبيه قدرة التغلبين في القضاء على أعدائهم بحية
 موسى التي توسلها يوم أيده الله بنصره .

٥٠ - الأرقام : قوم من التغلبين مرّ ذكرهم . فلقوا : شققوا . راذان : كورة بسواد
 بغداد . الحضر : حصن في جبال تكريت .

م : يبدو أن هذا البيت كان لاحقاً بالبيت رقم ٤٦ حيث قال إن الخيل أصبحن غدوة
 يخبرن أخباراً الذّ من الحمر . فإذا ألحقنا به هذا البيت إذ يقول « يخبرنا أن الأرقام . . . »
 يستقيم أداء المعنى وتسلسله .

٥١ - م : يستكمل هجاء القيسيين الذين لم يعفوا عن أي نوع من الظلم ولم يميزوا قطّ بين الوفاء
 والغدر ، بل إنهم دأبوا على الغدر والوقعة .

إلى ابن اسيد خالد أرقلت بنا
(من مدائحه في خالد بن أسيد)

ذكر الأحبة والظعائن

- ١ عفا واسط من آل رضوى، فنبتل فمجتمع الحرين ، فالصبر أجمل
- ٢ فرايئة السكران قفر ، فما لهم بها شبح ، إلا سلام وحرمل
- ٣ صحا القلب إلا من ظعائن فاتني بهن ابن خلاس طفيل وعزهل

١ - عفا : درس وذهبت معالمة . آل : أهل . رضوى : اسم صاحبة الأخطل . نبتل : موضع في الشام . الحران : واديان .

م : يقول إن أهل صاحبه رضوى ، قد رحلوا عن تلك المواضع ، واندرست آثارهم من بعدهم ، فلم يبق له أمل بقاء حبيته ، وأجمل به أن يتصبر على الفراق وأن يتعزى عنه .

٢ - السكران : موضع بالشام . سلام : جمع سلامة : نوع من الشجر . حرمل : ضرب من التبت .

م : يقول إن رايبة موضع السكران قد أقترت منهم ، فلم يعد يراى من صورهم ومشاهدهم فيها سوى أشجار السلام ونباتات الحرمل .

٣ - الظعائن : النساء في الهوادج . خلاس وعزهل : ابنا عم من قبيلة تغلب .

م : يقول إن قلبه كاد أن يصحو من ذهوله ، وأن يتمالك روعه ، إثر وقوف الشاعر على أطلال تلك الأماكن . إلا أن رؤيته للظعائن الراحلة التي يقودها طفيل وعزهل ، أثارت وجدّه وذهوله من جديد .

٤ كَأَنِّي ، غَدَاةً انصَعَنَ للْبَيْنِ ، مُسَلِّمٌ بِضَرْبَةِ عُنُقِي ، أَوْ غَوِيٌّ مُعَدَّلٌ

الخمرة وشاربوها ومجلسها

٥ صَرِيحٌ مُدَامٍ يَرْفَعُ الشَّرْبُ رَأْسَهُ لِيَحْيَا ، وَقَدْ مَاتَتْ عِظَامٌ وَمَمْفِصِلٌ

٦ نُهَادِيهِ أحياناً ، وَحِيناً نَجْرُهُ وَمَا كَادَ إِلَّا بِالْحُشَاشَةِ يَعْقِلُ

٧ إِذَا رَفَعُوا عَظْمًا تَحَامَلَ صَدْرُهُ وَآخِرُ ، مِمَّا نَالَ مِنْهَا ، مُخْبَلٌ

٤ - انصَعَنَ : مضين وتفرفقن وأذعن . البَيْنَ : الفراق . مُسَلِّمٌ : مُسْتَكِينٌ . مَخْدُولٌ .
ضَرْبَةُ عُنُقِي : أي بطعنة في العنق . غَوِيٌّ : ضالٌ . مُعَدَّلٌ : مَنْ يُعَدَّلُ وَيُلَامُ عَلَى
مَا يَقُومُ بِهِ وَيَدَأْبُ عَلَيْهِ .

م : يَتَشَبَّهُ ، لِثَرَجِ حِيلِ الْأَحْبَةِ ، بِالْقَتِيلِ الَّذِي طُعِنَ عُنُقُهُ وَأُلْقِيَ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ بِالرَّجُلِ
الغَوِيِّ ، الماحن ، السُّكْرَانِ الَّذِي لَا يَبْرَحُ الْعُدَّالَ يُلُومُونَهُ عَلَى إِسْرَافِهِ فِي احْتِسَاءِ الْخَمْرَةِ .

٥ - مُدَامٌ : الخمر التي قد سَكَنْتْ فِي دَنِّهَا لِكَثْرَةِ دَوَامِهَا فِيهِ . الشَّرْبُ : جَمْعُ الشَّارِبِ .
مَمْفِصِلٌ : مَكَانُ انْفِصَالِ الْأَعْضَاءِ ، بَعْضًا عَنِ الْبَعْضِ الْآخَرِ .

م : يَسْتَكْمَلُ التَّشْبِيهَ الَّذِي أَلْتَمَّ بِهِ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ بَدَأَ ، لِثَرَجِ حِيلِهِنَّ ، كَمَا
صَرَعَتْهُ الْخَمْرَةُ وَذَهَبَتْ بِهِ ، فَلَمْ يَعُدْ يَقْوَى عَلَى حَمْلِ هَامَتِهِ . وَقَدْ أَخَذَ سَائِرَ الشَّارِبِينَ
بِهَادُونِهِ .

٦ - نُهَادِيهِ : نَسُوقِهِ . الْحُشَاشَةُ : بَقِيَّةُ النَّفْسِ وَالرَّمَقِ .

م : يَقُولُ إِنَّ الشَّرْبَ كَانُوا يَسُوقُونَهُ وَيُزْجُونَهُ أَمَامَهُمْ ، حِينًا ، وَحِينًا آخَرَ يَجْرُونَهُ جَرًّا ، فِيمَا
هُوَ لَبِثٌ مُخْبَلًا ، ذَاهِلًا لَمْ تَبْقَ فِيهِ إِلَّا حُشَاشَةٌ مِنْ نَفْسِهِ .

٧ - م : يَقُولُ إِنَّهُمْ يَرْفَعُونَ أَحَدَ عِظَامِهِ ، فَيَتَحَامَلُ صَدْرُهُ وَيَسْعَى لِلتَّهْوِضِ ، فِيمَا تُنْفَى
سَائِرُ أَعْضَائِهِ مُخْبَلًا ، مَخْدَرَةً مِنْ كَثْرَةِ مَا احْتَسَى مِنَ الْخَمْرَةِ . وَوَصَفَ السُّكْرَانَ كَمَا
وَرَدَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ يُمَثِّلُ طَائِعَ الْوَاقِعِيَّةِ فِي شَعْرِ الْأَخْطَلِ وَعَنَابَتِهِ بِاللِّدَائِقَاتِ
وَالجَزْئِيَّاتِ . وَالتَّشْبِيهُ بِأَكْلِهِ هُوَ تَشْبِيهُ اسْتِطْرَادِيٍّ حَذَا بِهِ حَذُو الْجَاهِلِينَ .

- ٨ شَرِبْتُ ، ولاقاني لِحْلَّ أَلِيَّتِي قِطَارٌ تَرَوَّى مِنْ فِلَسْطِينَ مُثْقَلٌ
 ٩ عَلَيْهِ مِنَ الْمِعْزَى مُسُوكٌ رَوِيَّةٌ مُمَلَّاةٌ . يُعَلَى بِهَا وَتُعَدَّلُ
 ١٠ فَتَمُلْتُ : اصْبَحُونِي ، لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ وَمَا وَضَعُوا الْأَثْقَالَ ، إِلَّا لِيَفْعَلُوا
 ١١ أَنَاخُوا ، فَجَرُّوا شَاصِيَّاتٍ ، كَأَنَّهَا رِجَالٌ مِنَ السُّودَانِ ، لَمْ يَتَسَرَّبَلُوا
 ١٢ وَجَاءُوا بِيَسَانِيَّةٍ ، هِيَ ، بَعْدَمَا يَعْلُ بِهَا السَّاقِي ، أَلْدُّ وَأَسْهَلُ

٨ - الأليَّة : اليمين . القِطار : قطعة من الإبل على نسق واحد .

م : يستطرد في وصف احتسائه للخمرة ويقول إنه كان قد أقسم على الامتناع عنها ، بعد أن
 أكثر من احتسائها ، إلا أنه لقي قافلة محملة بالزقاق المملوءة خمراً والتي جيء بها من
 فلسطين .

٩ - المعزى : أي الماعز . مسوك : جمع مسك أي جلد . الروية : الضخام . تُعدَّل : هنا
 توضع على الجانبين .

١٠ - اصْبَحُونِي : من الصُّبوح وهو شرب الغدَاة .

م : يقول إنه سألمهم أن يسقوه من الخمرة التي جاءوا بها ، فوضعوا أحمالهم وسقوه .

١١ - الشَّاصِيَّات : الشَّاتلات القوائم ، وعنى بها هنا الزِّقاق ، لأنها إذا ملئت ارتفع جانباها .

م : يشبه الزِّقاق في هذا البيت بالسودان العُراة لسوادها ، إذ كانوا يطلونها بالقار الأسود .
 والتشبيه حسي لا غاية له في أداء المعنى الذي يؤدِّيه الشاعر ، بل إنه جُدِّب فيه لاستكمال
 المشهد .

١٢ - بيسانِيَّة : هي خمرة منسوبة إلى بيسان في الأردن . يَعْلُ بها : من العَلَل وهو الشرب
 الثاني والتَّهَل هو الشرب الأول .

م : يقول إنهم سَكَبُوا له خمرة بيسانِيَّة تزيد الشَّارِب متعة بقدر ما يَزْدَاد شربُه لها .

- ١٣ تَمُرُّ بِهَا الْأَيْدِي ، سَنِحًا وَبَارِحًا وَتَوْضَعُ بِاللَّهْمِّ حَيٌّ وَتُحَمَلُ
 ١٤ وَتُوقَفُ ، أحياناً ، فِي فِصْلٍ بَيْنَنَا غِنَاءٌ مُغْنٍ ، أَوْ شِوَاءٌ مُرْعَبَلٌ
 ١٥ فَلَدَّتْ لِمُرْتاحٍ ، وَطابَتْ لِشَارِبٍ وَرَاجَعِي مِنْهَا مِرَاحٌ وَأَخْيَلٌ
 ١٦ فَمَا لِبِثْنَا نَشْوَةٌ لِحَقَّتْ بِنَا تَوَابِعُهَا ، مِمَّا نُعَلُّ وَنُنْهَلُ
 ١٧ فَصَبُّوا عُقاراً فِي إِناءٍ ، كَأَنَّهَا إِذا لَمَحُوهَا ، جُدُوَّةٌ تَنَأَكُلُ
 ١٨ تَدِبُّ دَبِيباً فِي العِظامِ ، كَأَنَّهُ دَبِيبُ نِمالٍ فِي نَقَأٍ يَتَهَيَّلُ

- ١٣ - السنيح : ما جاء عن يمينك . البارح : ما جاء عن يسارك .
 م : يقول إن الأيدي كانت تتداولها من كل جهة ، وإنهم إذ يضعونها أو يرفعونها يذكرون اسم الله عليها ، تبريكا لها وتعظيماً لأمرها .
 ١٤ - مُرْعَبَلٌ : اللحم المقطع لتصل إليه النار ، فتضجبه .
 م : يقول إنهم كانوا يكفون ، حيناً ، عن احتساء الحمرة ، ليلتهموا بعض الشواء المقطع قطعاً أو ليسمعوا غناء أحد المغنين . وهو يستكمل بذلك وصف مجلس الشراب والمنادمة وما يكون فيه .
 ١٥ - المُرْتاح : المهتز أريحية . مِرَاحٌ : طرب ونشاط . أَخْيَلٌ : من الخيلاء : الكبير والتباهي .
 م : يقول إنه لقي فيها لذّة وإنها عرّته باهتزاز الأريحية وبعثت فيه المرح والزهو والخيلاء .
 ١٦ - النَشْوَةُ : السكر . تَوَابِعُهَا : أي ما تبع ذلك من السكر في نفوسهم .
 م : يتزع في هذا البيت متزَعاً تقريرياً عاطلاً عن الانفعال والغلو ، ويقول إن الحمرة عرّتهم بالسكر وما يلحق به ، بعد أن احتسوا منها مراراً .
 ١٧ - الجُدُوَّةُ : قطعة متوهجة من النار ، وهي الحمرة .
 م : يقول إنهم سكبوا حمرة في الكأس ، فبدت متألقة ، متوهجة كالجُدُوَّة المتقدة . وفي هذا البيت غلوٌّ بألق الحمرة وبخاصّة في قوله إن الجُدُوَّة كانت تتأكل تأكلاً من شدّة احتدامها .
 ١٨ - نِمالٌ : النمل . النَّقَأُ : ما ارتفع من الرمل . يَتَهَيَّلُ : ينحدر .
 م : يُمَثِّلُ دَبِيبَ الحِمْرَةِ فِي العِظامِ بدبيب النمل على الرمل المنهار دونه .

- ١٩ فَقُلْتُ اقْتُلُوهَا عَنْكُمْ بِمِزَاجِهَا فَاطِيبٌ بِهَا مَقْتُولَةٌ ، حِينَ تُقْتَلُ
 ٢٠ رَبَّتْ وَرَبًّا فِي حَجْرِهَا ابْنُ مَدِينَةٍ يَظَلُّ عَلَى مِسْحَاتِهِ يَتَرَكَّلُ
 ٢١ إِذَا خَافَ مِنْ نَجْمٍ عَلَيْهَا ظَمَاءَةٌ أَدَبٌ إِلَيْهَا جَدُولًا يَتَسَلَّسَلُ

مخاطبة العاذلة

- ٢٢ أَعَاذِلَ ، إِلَّا تُقْصِرِي عَن مَلَامِي أَدْعُكَ ، وَأَعْمِدُ لَلَّتِي كُنْتُ أَفْعَلُ

- ١٩ - قَتَلَ الحَمْرَةَ : إِذَا مَزَجَهَا بِالمَاءِ ، وَأَضْعَفَ مِنْ حَدَّتِهَا .
 م : يَقُولُ إِنَّهُ طَلَبَ مِنَ السَّقَاةِ أَنْ يُضْعَفُوا حَدَّتِهَا بِمِزَاجِهَا بِالمَاءِ ، فَطَاطِبُ لَهُ وَيَعَذِبُ طَعْمُهَا .
 وَقَدْ اسْتَعَارَ لِذَلِكَ لَفْظَةَ « قَتَلَ » نَامِيًا إِلَى الحَمْرَةِ الحَيَاةِ وَالرُّوحِ مِنْ شِدَّةِ شَغْفِهِ بِهَا
 وَإِثَارِهِ لَهَا .
- ٢٠ - رَبًّا فِي حَجْرِهَا : نَشَأَ فِي كَنَفِهَا . ابْنُ مَدِينَةٍ : أَيِ امْرَأَةٍ عَارِفِ حَدِّقِ . المِسْحَاةُ : مَا
 يُسْحَى بِهِ الأَرْضَ : أَيِ يُقَشَّرُ . يَتَرَكَّلُ : يَدْفَعُ بِقَدَمِهِ .
 م : يَصِفُ فِي هَذَا البَيْتِ الكَرَمَ الَّذِي اقْتَطِفَ عِنَبَ تِلْكَ الحَمْرَةِ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ جِيءَ بِهَا مِنْ
 كَرَمٍ يَلْزَمُهُ عَامِلُ حَدِّقٍ بِأَمْرِهَا ، لَا يَبْرَحُ يُعْمَلُ فِيهَا مِسْحَاتِهِ ، لِيَحْرَثُهَا وَيُخَصِّبُهَا فَيَذْكُو
 عِنَبَهَا . وَالشَّاعِرُ يَعْظَمُ الحَمْرَةَ بِتَعْظِيمِ العِنَبِ المُسْتَدْرَةِ مِنْهُ وَيَعْظَمُ العِنَبَ بِحَدِّقِ القَائِمِ عَلَيْهِ
 وَمَهَارَتِهِ . وَلَقَدْ أَوْفَى بِذَلِكَ إِلَى غَايَةِ الاستِطْرَادِ ، فِيمَا أَوْفَى ، فِي الآنَ ذَانَهُ ، إِلَى غَايَةِ تَعْظِيمِ
 الحَمْرَةَ .
- ٢١ - تَسَلَّسَلَ المَاءُ : إِذَا جَرَى فِي انْحِدَارٍ . أَدَبٌ : أَيِ سَاقٍ إِلَيْهَا المَاءُ ، فَزَحَفَ كَأَنَّهُ يَدْبُ
 دَبِيئًا . النَجْمُ : هُنَا نَجُومُ الصَّيْفِ الَّتِي يَصْحَبُهَا انْقِطَاعُ المَطَرِ ، وَهِيَ الثَّرِيَا وَالدَّبْرَانُ
 وَالجَوْزَاءُ وَالشَّعْرَى وَالعَدْرَةُ .
 م : يَقُولُ إِنَّهُ إِذَا خَافَ أَنْ يُصِيبَهَا العَطَشُ . أَثْنَاءَ انْقِطَاعِ المَطَرِ ، صَيْفًا ، رَوَّاهَا بِجَدُولٍ تَدْبُ
 إِلَيْهَا مِيَاهُهُ دَبِيئًا . وَهُوَ لَا يَبْرَحُ يَعْظَمُ الحَمْرَةَ مِنْ خِلَالِ تَعْظِيمِهِ لِأَصْلِهَا .
- ٢٢ - أَعَاذِلَ : تَرْخِيمٌ عَاذِلَةٌ .
 م : يُمَثَّلُ دَبِيبُ الحَمْرَةَ فِي العِظَامِ بِدَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الرَّمْلِ المُنْهَارِ دُونِهِ .
 ١٩ - قَتَلَ الحَمْرَةَ : إِذَا مَزَجَهَا بِالمَاءِ ، وَأَضْعَفَ مِنْ حَدَّتِهَا .

٢٣ وَأَهْجُرْكَ هِجْرَانًا جَمِيلًا ، وَيَنْتَحِي لَنَا ، مِنْ لِيَالِنَا الْعَوَارِمِ ، أَوَّلُ
 ٢٤ فَلَمَّا انْجَلَتْ عَنِّي صَبَابَةٌ عَاشِقٍ بَدَا لِي مِنْ حَاجَاتِي الْمَتَمَّأَلُ
 ٢٥ إِلَى هَاجِسٍ مِنْ آلِ ظَمِيَاءَ ، وَالتِي أَتَى وَنَهَا بَابُ بَصِيرِينَ مَقْفَلُ

وصف البداء

٢٦ وَبِبِدَاءِ مِمْحَالٍ ، كَأَنَّ نَعَامَهَا بِأَرْجَائِهَا الْقُصْوَى ، أَبَاعِرُ هُمْلُ

م : يميل في هذا البيت عن ذكر الحمرة إلى مخاطبة العاذلة التي دأب الجاهليون على التوسل بها كذريعة لإظهار ما يدور في نفوسهم من حوار داخليٍّ ومن خواطر ، ويقول لها إنك إن لم تكفني عن عدلي وتقصري ، فسوف أمضي فيما دأبت عليه ومضيت فيه ، أي أنه سيمضي في سبيل الغواية والمجون .

٢٣ - يَنْتَحِي : يعرض لي . لِيَالِنَا الْعَوَارِمِ : أي الليالي التي كانت تحفل بالشراسة والأذى والطيش .

م : يتهدّد عاذلته بالعودة إلى سيرته الأولى في الطيش والشراسة ، متخلياً عن الحلم والتؤدّة .
 ٢٤ - يعود في هذا البيت إلى ذكر الحبّ الذي استهلّ بالحديث عنه في مطلع القصيدة والذي استترده عنه إذ تشبّه بالسكران المُخَبَّل ، إثر رؤيته لظمآن الحبيبة الراحلة - يقول إنّه بعد أن زالت عنه أعراض الشوق والصبا وتمالك روعه ، عاد إلى التفكير بما كان يؤمله من آمال ويتزع إليه من حاجات .

٢٥ - الْمَاجِسِ : ما يقع في خلد المرء من خواطر متردّدة . وَقَوْلُهُ : «إلى هاجس» يعود إلى قوله في البيت الأسبق : «اهجرك» أي اهجرك إلى هاجس من آل ظمياء . صِيرِينَ : بلد في الشام .

م : يقول إنّه بعد أن انجلى عنه عشقه لحبيته رضوى . تَفَكَّرَ بِامْرَأَةٍ مِنْ آلِ ظَمِيَاءَ لَا قِبَلَ لَهُ بِوَصَالِهَا ، إذ قد أوصدت من دونه السبيل .

٢٦ - مِمْحَالٍ ، أي لا نبت فيها . الْأَرْجَاءُ : التواحي . الْمُمَلِّ : التي لا راعي لها يرعاها ، فتذهب وتجيء ، كيفما شاءت .

- ٢٧ ترى لامعات الآل فيها ، كأنها رجالٌ تعرّى ، تارةً ، وتسربلُ
 ٢٨ وجوزِ فلاةٍ ما يُغمضُ ركبُها ولا عينُ هاديتها من الخوفِ تغفلُ
 ٢٩ بكلِّ بعيدِ العولِ ، لا يُهتدى له بعرفانِ أعلامٍ ، وما فيه منهلُ
 ٣٠ ملاعبِ جنانٍ ، كأنَّ ترابها إذا اطردت فيه الرياحُ مغربلُ
 ٣١ أجزتُ ، إذا الحرباءُ أوفى كأنه مُصلُّ يمانٍ ، أو أسيرٌ مكبَّلُ

م : يشرع في هذا البيت بوصف الصحراء التي يجتازها ، ويقول إنها ماحلة ، لا نبت فيها ، وان النعام يمرح في أرجائها كأنه أباغر لا راعي لها . وذكره للنعام يدلُّ على خلوة المكان ، لأن النعام لا يرتاد الأمكنة الآهلة .

٢٧ - الآل : السراب .

م : يصف السراب الذي يلتمع فيها ، ويقول إنه يبدو كرجال عراة ، حيناً ، وحيناً آخر يبدو كرجال ارتدوا الثياب . وهو انما يصور الوهم الذي يغشاه به السراب في الصحراء .

٢٨ - الجوز : هنا الوسط . الركب : اسم جمع للراكب ، أي الممتطي المطية . هاديتها : المتقدم في مطلع القافلة ليهديها إلى سواء السبيل .

م : يصف الفلاة المروعة التي تجتازها ، ويقول إن من يعبرونها لا يغمض لهم جفن من خوفهم ، كما أن من يهديم السبيل فيها ، لا يغفل البتة من شدة الروع الذي يحيط بهم .

٢٩ - العول : الأرض النائية التي يُغتال الناس فيها . الأعلام : حجارة تُنصب ليستدل بها . المنهل : المكان الذي يُسْتقى منه الماء .

م : يستكمل وصف الفلاة ويقول إنها تغول من يرتادها ، إذ يَصَلُّ فيها لخلوها من الأعلام التي يُهتدى بها والماء الذي يطفنون به ظمأهم .

٣٠ - جنان : جمع جان .

م : يقول إن الجن يلعب فيها ويمرح ، كما أن الرياح تعبت بترابها ، فيبدو وكأنه مغربل بغربال . وذكر الجن والريح يدل على الوحشة والخلاء .

٣١ - الحرباء : دُوِيَّة . أوفى : أقام . مكبَّل : مقيد .

٣٢ إلى ابنِ أسيدٍ أَرْقَلَتْ بِنَا مَسَانيفُ ، تَعْرُورِي فَلَآةٌ تَعَوَّلُ
٣٣ ترى الثَّعْلَبَ الحَوَّلِيَّ فِيهَا ، كَأَنَّهُ إِذَا مَا عَلَا نَشْرًا ، حِصَانٌ مَجَلَّلُ

وصف المطايا

٣٤ ترى العرْمَسَ الوَجْنَاءَ يَضْرِبُ حَاذَهَا ضَيْئِلٌ كَفْرُوجِ الدَّجَاجَةِ ، مُعْجَلُ

م : يقول إنه اجتازها في الهجرة الشديدة ، إذ يكون الحرباء مُنتصباً كأنه مصلٌ يتجه ناحية اليمن أو أسير مكبل .

٣٢ - خالد بن أسيد : هو ممدوحه . أَرْقَلَتْ : مشت مشبة الإرقال ، وهو ضرب من العَدْو .
مَسَانيفُ : التي قد استرخت جبالها من الإعياء . تَعْرُورِي : تَرْكَبُ . تَعَوَّلُ : أي
تتلون وتتحيل إذ كان العرب يعتقدون أن الغيلان تراءى للناس في الطريق وتتلون لهم لتصلهم .

م : يقول إنه اجتاز تلك الفلوات على ناقة أصابها الإعياء الشديد ليؤني بها إلى الممدوح .
والأنخل يقتضي في ذلك كلة سنة المديح ، كما أثر عن الجاهليين والإسلاميين ،
حيث كان الشاعر يُمَعِنُ بوصف السرى والفلوات وهلاك المطايا قبيل الولوج إلى
باب الممدوح .

٣٣ - الحَوَّلِيَّ : الذي مر عليه حول من ذوات الحافر . النَشْرُ : التراب المرتفع عن سواه . مَجَلَّلُ :
أي يرتدي جلالاً .

م : يصف الثعلب الذي يطالعه فيها ويشبهه بالحصان المُجَلَّلُ القائم على مُرْتَفَعٍ من الأرض .

٣٤ - العرْمَسُ : الناقة الصلبة . وأصلها الصخرة القوية . الوجْناء : العظيمة الوجنتين . حاذها :
جنبها . ضَيْئِلٌ : نعت لمنعوت محذوف هو الحوار ، وهو ابن الناقة هنا . مُعْجَلُ :
الذي وضعته قبل تمامه لعيائها .

م : يقول إن الناقة القوية الصلبة ، تضع ولدها قل أو انه لشدة عيائها ، فيبدو لهزاله كفروج
الدجاجة .

٣٥ يُشَقُّ سَمَاحِقَ السَّلَا عَنْ جَنِينِهَا أَخُو قَفْرَةٍ بَادِي السَّغَابَةِ أَطْحَلُ
 ٣٦ فَمَا زَالَ عَنْهَا السَّيْرُ ، حَتَّى تَوَاضَعَتْ عَرَائِكُهَا ، مِمَّا تُحَلُّ وَتُرْحَلُ
 ٣٧ وَتَكْلِفُنَاهَا كُلَّ نَازِحَةِ الصَّوَى شَطُونٍ ، تَرَى حَرْبَاءَهَا يَتَمَكَّمَلُ
 ٣٨ وَقَدْ ضَمَرَتْ ، حَتَّى كَأَنَّ عُيُونَهَا بَقَايَا قِلَاتٍ ، أَوْ رَكِيٍّ مُمَكَّكَلُ
 ٣٩ وَغَارَتْ عَيْونُ الْعَيْسِ ، وَالتَّقَتِ الْعُرَى فَهِنَّ ، مِنَ الضَّرَاءِ وَالْجَهْدِ ، نُحَلُّ
 ٤٠ وَحَارَتْ بَقَايَاهَا إِلَى كُلِّ حُرَّةٍ لَهَا بَعْدَ إِسَادٍ مِرَاحٍ وَأَفَكَّكَلُ

٣٥ - السَّمَاحِقُ : هي الغشاوة التي تغشى وجه المولود ، وتدعى أيضاً السلا . أخو قفرة :
 الذئب . السَّغَابَةُ : الجوع . الأَطْحَلُ : الذي يُشَبَّه لونه لون الطحال .

٣٦ - عَرَائِكُهَا : جمع عريكة : السنام .

م : يقول إنها دأبت على السير حتى ذابت أسنمتها من العياء ومن كثرة حلها وترحالها .

٣٧ - الصَّوَى : الأعلام في الفلاق . شَطُونٌ : بعيدة .

م : يُكْرَرُ المعنى ويقول إنَّه أرغمها على السير في بادية نازحة الأعلام ، نائية ، حرباؤها
 يَتَمَكَّمَلُ من الحرِّ والمهجير .

٣٨ - القِلَاتِ : جمع قَلَتْ وهي نقرة في الصخرة . رَكِيٍّ : جمع ركيّة . مُمَكَّكَلُ : منزوح .
 م : يصف ضمورها من خلال تغور عينيها اللتين يشبههما بفجوة في صخرة أو ركية جفت
 المياه فيها .

٣٩ - م : يكرر المعنى ، ويقول إن عيون المطايا قد غارت وإن عراها جعلت تلتقي بعضاً ببعض
 من شدة نحوها .

٤٠ - حَارَتْ : سَقَطَتْ . الإِسَادُ : السير من أول الليل . الأَفَكَّكَلُ : النشاط .

م : أي أن الضعاف من المطايا قد سقطت في الطريق ، ولم تسلم إلا المطايا الكريمة التي تسير في
 الليل دون أن تعيا ويصيبها الكلال .

٤١ وإلّا مبالٌ آجنٌ في مُناخِها ومُضطّمراتٌ كالفلّافلِ ذُبْلُ
٤٢ حواملٌ حاجاتٍ ثِقَالٍ ، تَجْرُها إلى حَسَنِ النُّعمى ، سَواهِمُ نُسَلُ

مباشرة المدح

٤٣ إلى خَلِدٍ ، حتى أَنخنا بِمَخْلِدٍ فَنِعَمَ الفَتى يُرْجى وَنِعَمَ المُؤمِّلُ
٤٤ أَخالِدُ ماؤاكُمْ ، لَمَنْ حَلَّ ، واسِعٌ وَكفّاكَ غَيْثٌ للصَّعاليكِ ، مُرْسَلُ
٤٥ هو القائِدُ الميمونُ ، والمُبْتغى بِهِ ثباتَ رَحىٍ كانتَ قديماً تَزَلْزَلُ
٤٦ أبى عُوذُكُ المَعجُومُ إِلاّ صِلابَةً وَكفّاكَ إِلاّ نائِلاً ، حينَ تُسألُ

٤١ - مبالٌ آجنٌ : أي فاسد ، متغير . المُضطّمرات : أي الأبعاد الضامرة في وسطها .
م : يقول إنتها لم تُقم طويلاً في مُناخها ، حتى يأجن بولها ويفسد . كما أن أبعادها بدت
جافة لأنّه لا ماء فيها ولا مرعى لها .

٤٢ - السَواهِم : جمع ساهمة ، أي شاردة النظر ، هائمة . نُسَلُ : سِرَاع .
م : أي أنها تتحمل حاجات كثيرة تعدو بها إلى امرىءٍ كثير التّوال ، وهي شاردة النظر ،
هائمة الوجوه .

٤٣ - م : يعبث الشاعر بلفظ اسم المدوح خالد بن أسيد ، ويقول إنتها مَصَّتْ إلى امرىءٍ قوي
على الدّهر وأناخت في فنائه الذي لا يَتَزَعزَع ، فنعَم خالد امرءاً يُرْجى وتعدّد
عليه الآمال .

٤٤ - م : يخاطب المدوح ، ويقول له إن بيتَه رجب لمن يتّبعه وإنّه يُغْدق على الصَّعاليك
المالكيين الذين يطلبون رِفده .

٤٥ - م : يشرع في هذا البيت بالمدح المُباشر ، ويقول مخاطباً خالداً : إنك القائد الذي يصحبه
اليُمن والنّصر في القتال ، والذي تَثَبّت به أركان المُلك ، بعد أن كانت مُزَعزعة
مُضطربة .

م : أي أن الثّابّات التي تحلّ به تضاعف من صلابته وقوّته ، كما أنّه لا يبرح يُغْدق على من
يَتَّبِعُه ويسأله .

- ٤٧ ألا أيها الساعي لِيُدْرِكَ خَالِدًا تَنَاهَ وَأَقْصِرْ بَعْضَ مَا كُنْتَ تَفْعَلُ
 ٤٨ فَهَلْ أَنْتَ إِنْ مَدَّ الْمَدَى لَكَ خَالِدٌ مُوَازِنُهُ ، أَوْ حَامِلٌ مَا يُحْمَلُ
 ٤٩ أَبِي لَكَ أَنْ تَسْطِيعَهُ ، أَوْ تَنَالَهُ حَدِيثُ شَاكَ الْقَوْمِ فِيهِ وَأَمِثْلُ
 ٥٠ أُمِّيَّةٌ وَالْعَاصِي ، وَإِنْ يَدْعُ خَالِدٌ يُجِيبُهُ هِشَامٌ لِلْفَعَالِ وَنَوْفَلُ
 ٥١ أَوْلَيْكَ عَيْنُ الْمَاءِ فِيهِمْ ، وَعِنْدَهُمْ ، مِنَ الْخَيْفَةِ ، الْمَنْجَاةُ وَالْمُتَحَوِّلُ

وصف المطر

- ٥٢ سَقَى اللَّهُ أَرْضًا ، خَالِدٌ خَيْرٌ أَهْلِهَا بِمُسْتَفْرِغٍ بِاتَتْ عَزَالِيهِ تَسْحَلُ

٤٧ - ٤٨ - مُوَازِنُهُ : أي معادل له .

م : يخاطب من يسعى إلى إدراك خالد ويقول له : كُفَّ عَنْ ذَلِكَ وَأَقْصِرْ ، فَهَلْ أَنْتَ إِنْ أَوْسَعَكَ خَالِدٌ قَادِرٌ عَلَى أَنْ تَوَازِيَهُ وَأَنْ تَحْمَلَ أَحْمَالَهُ ؟

٤٩ - شَاهَ : سَبَقَهُ وَفَاتَهُ .

م : يقول إنه لا قبيل لك بذلك إذ تفوق عليك بما يتداوله الناس فيه من عظمة ومجد ورثما عن أجداده الأولين .

٥٠ - الْفَعَالُ : الْفِعْلُ الْحَسَنُ .

م : يعدد أجداده الذين تحدر منهم ويقول إنه متى ما استنجد يُجِيبُهُ الْخَلِيفَةُ هِشَامٌ وَنَوْفَلٌ وَيَهْرَعَا إِلَيْهِ بِمَا عَرَفَ عَنْهُمَا مِنَ الْمَأْتَرِ وَالْفَعَالِ الْمَحْمُودَةِ .

٥١ - عَيْنُ الْمَاءِ : أَي الشَّرْفُ ، لِأَنَّ الْمَاءَ غِيَاثُ كُلِّ شَيْءٍ .

م : يمتدحهم بشر فهم ويقول إنهم يُنْجُونَ الْخَائِفَ وَيَحْوِلُونَ عَنْهُ الذُّعْرَ وَالْهَلَاقَ .

٥٢ - الْمُسْتَفْرِغُ : الْكَثِيرُ الْإِنْهَارِ . عَزَالِيهِ : مَخَارِجُ مَائِهِ : تَسْحَلُ : تَصُبُّ بِكَثْرَةٍ شَدِيدَةٍ .

م : يستسقي للأرض التي يقيم فيها الممدوح المطر الشديد الانهيار والانسكاب ، أي أنه يطلب لها الخصب والصلاح .

- ٥٣ إذا طَعَنَتْ رِيحُ الصَّبَا فِي فُرُوجِهِ تَحَلَّبَ رِيَانُ الْأَسْفَلِ أَنْجَلُ
- ٥٤ إذا زَعَزَعَتْهُ الرِّيحُ ، جَرَّ ذِيولَهُ كَمَا زَحَفَتْ عُوذُثِقَالُ تُطْفَلُ
- ٥٥ مُلِحٌ ، كَأَنَّ الْبَرْقَ فِي حَجَرَاتِهِ مَصَابِيحُ ، أَوْ أَقْرَابُ بُلُقٍ تَجَفَّلُ
- ٥٦ فَلَمَّا انْتَحَى نَحْوَ الْيَمَامَةِ ، قاصِداً دَعَتْهُ الْجَنُوبُ ، فانشئ يَتَخَزَلُ
- ٥٧ سَقَى لَعَلَاءَ وَالْقُرْنَتَيْنِ ، فَلَمْ يَكْذُ بِأَثْقَالِهِ عَن لَعَلَعٍ يَتَحَمَّلُ
- ٥٨ وَغَادَرَ الْأَكْمَ الْحَزْنَ تَطْفُو ، كَأَنَّهَا بِمَا احْتَمَلَتْ مِنْهُ ، رَوَاجِنُ قُفْلُ

٥٣ - فُرُوجٌ : جمع فرج أي ما بين جنبيه . أنجل : واسع .

م : يستكمل وصف الغيث ويقول إنه إذا ما ضربت ريح الصبأ فيما بين جنبيه ، يتحلَّب مطره أي ينسكب بكثرة .

٥٤ - زَعَزَعَ : حرك . العوذُ : الحديثات النتاج . تُطْفَلُ : تغدو .

م : يقول إذا ما حركت الرياح السحاب يدنو إلى الأرض كأن له ذنباً يزحف به عليها كما تزحف النياق الحديثة النتاج ، لترضع أطفالها .

٥٥ - المُلِحُّ : الدائم المطر . حَجَرَاتِهِ : نواحيه . الأقراب : الخواصر . البُلُقُ : النياق ذات اللون الأسود والأبيض .

م : يصف البرق الذي يخطف في ذلك السحاب ويقول إنه إذ يلتصع في جوانبه يبدو كأنه مصباح أو خواصر نياق بلق ، جافلة .

٥٦ - انتحى : مال . المتخزلُ : المتقطع والعاثد القهقري إلى الورا .

م : يستكمل وصف السحاب ويقول إنه إذ يتجه إلى اليمامة تصدُّه ريح الجنوب ، فيرتدُّ ويتقهقر .

٥٧ - لَعَلَعٌ : اسم موضع . القرنتان : موضعان بين البصرة واليمامة .

م : يذكر موضع انهماك ذلك السحاب ويقول إنه سقى لعلأً والقرنتين ولم يكذب ينزع عنهما .

٥٨ - غَادَرَ : خَلَّفَ . الأكمُ : ما ارتفع من الأرض من دون الجبل . الرواجين : التي تمسك وتعلف في البيت من الإبل والماشية . قُفْلُ : ضوامر .

م : يقول إنه لشدة انهماكه خلف الآكام وقد طفت عليها المياه ، بدت للنظر وكأنها الماشية أو الإبل المجتمعة ، بعضاً على بعض ، حيث تعلف .

٥٩ وبالمعرسانياتِ حَلٌّ ، وأرْزَمَتْ بِرَوْضِ القَطَا مِنْهُ مَطَافِيلُ حُفْلُ

ذكر وقعة الجحاف

- ٦٠ لَقَدْ أَوْقَعَ الجَحَافُ بالبِشْرِ وَقَعَةً إِلَى اللَّهِ مِنْهَا المُشْتَكِي والمُعَوَّلُ
٦١ فسَائِلُ بني مَرَوَانَ ، مَا بِالْ ذِمَّةِ وَحِبْلِ ضَعِيفٍ ، لَا يَزَالُ يُوصَلُ
٥٢ بِنزْوَةِ لَصٍّ ، بَعْدَمَا مَرَّ مُصْعَبٌ بِأَشْعَثَ ، لَا يُفْلَى ، وَلَا هُوَ يُغْسَلُ
٦٣ أَتَاكَ بِهِ الجَحَافُ ، ثُمَّ أَمْرَتُهُ بِجِيرَانِكُمْ عِنْدَ البُيُوتِ تُقْتَلُ

٥٩ - المعرسانيات وروض القطا : موضعان . أرزمت : صوتت . المطافيل : الواضعة
ولندا ، والمثثلة الضرع بالحليب . حفل : جمع حافل : الممتلئ الضرع لبناً .
م : يقول إن ذلك الغيث نزل في ذنك الموضعين ، فأخصبهما وأنى كلاهما ، فارتعته
الإبل ، فدر لبنها وحفل ضرعها ، فجعلت تصوت حيناً إلى أطفالها .

٦٠ - الجحاف : هو ابن حكيم السلمي . البشّر : موضع من منازل بني تغلب وقد وقع فيه
قتال بين التغلبيين وقوم الجحاف السلمي . المعوّل : هنا الاعتماد والمقرع .
م : يشرع في هذا البيت بمخاطبة عبد الملك ويشكو إليه ما أوقعه الجحاف فيهم من فتك وقتل
لم يكذبهم منه إلا الله .

٦١ - م : يظهر في هذا البيت تعتبه على بني مروان لتخلّفتهم عن نجدة التغلبيين ضد
أعدائهم ويعجب من ذلك ويقول إنهم لم يخفروا ذمتهم وإنهم لا يبرحون يوهون
صلتهم بهم ، تكاد لا تقوى حتى تهبي وتضعف من جديد . يشير هنا إلى ما كان
يجري بين الأمويين والتغلبيين من منازعات حول النجدة والذمة والولاء .

٦٢ - أشعث : هو ابن زياد الذي قتله مصعب ، فجاء أخوه عبيد الله بن زياد بن ظبيات فاحترق
رأس مصعب . وقوله لا يفلى ولا يغسل : أي أنه ميت .

٦٣ - م : أي أن الجحاف أتى برأسه ، فلم يزرّجه عبد الملك بل دعاه إلى تقتيل التغلبيين ومن
إليهم وهم مقيمون آمنين في بيوتهم . وقوله : عند البيوت تقتل ، هو لتعظيم
الأمر ، لأن من يقيم في بيته لا يكون قتاله إلا غدرآ به . وقد أفادت مضاعفة عين
الفاعل المعنى غلوا وتكثيراً .

٦٤ لَقَدْ كَانَ لِلجِيرَانِ ، مَا لَوْ دَعَوْتُمْ بِهِ عَاقِلَ الأَرْوَى أَتَتَكُمُ تَنَزُّلُ
٥٥ فَإِنْ لَمْ تُغَيِّرْهَا قُرَيْشٌ بِمُلْكِهَا يَكُنْ عَنْ قُرَيْشٍ مُسْتَمَازٌ وَمَرَحَلُ
٦٦ وَنَعْرُزُ أَنَاسَا عَرَّةٌ يَكْرَهُونَهَا وَنَحْيَا كَرَامَا ، أَوْ نَمُوتُ ، فَنُقْتَلُ
٦٧ وَإِنْ تَحْمَلُوا عَنْهُمْ ، فَمَا مِنْ حَمَالَةٍ وَإِنْ ثَقَلْتِ ، إِلَّا دُمُ القَوْمِ أَثْقَلُ

٦٤ - أَرْوَى : جمع أروية وهي أنثى الوعل . العاقيل : أي المُعْتَصِمَة في الجبال لا تبرحها ولا
تقيم في النَّاسِ ، فهي في أشد النُفُور منهم .
م : يمثل لين جيرانه ومودتهم ويقول إنَّه لو عوملت وعول الجبال بمثلها لَلَانَتْ وَانْحَدَرَتْ
من معاقلها وامتنعت عن النُفُور .

٦٥ - مُسْتَمَاز : من ماز رحل وانقل من مكان إلى آخر .

م : كَانَ الشَّاعِرُ يَتَهَدَّدُ الأُمُويِّينَ وَيَقُولُ لَكُمْ إِنْ لَمْ تَمْنَعُوا عَنَّا الضَّيِّمَ بِمَا أُثِرْتُمْ بِهِ مِنْ مُلْكِ
وَسُلْطَةِ ، فَإِنَّا سَنُرْحَلُ عَنْكُمْ وَنَقْطَعُ صِلَتَنَا بِكُمْ . وَقِيلَ إِنْ عَبْدُ المَلِكِ إِذْ سَمِعَ الأَخْطَلُ يَقُولُ
هَذَا البَيْتَ سَأَلَهُ : إِلَى أَيْنَ تَرْحَلُ يَا ابْنَ النَّصْرَانِيَّةِ ؟ فَقَالَ : إِلَى النَّارِ . فَتَبَسَّمَ عَبْدُ المَلِكِ
وَقَالَ : أَوَّلَى لَكَ ، لَوْ قُلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ لَقَتَلْتُكَ . وَالشَّاعِرُ يَرُدُّ لَفْظَةَ جِيرَانٍ وَهِيَ لَا تَعْنِي
مَعْنَاهَا المَبَاشِرَ هُنَا ، بِقَدْرِ مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ فِي مَفْهُومِهِ الجَاهِلِيَّ ، حَيْثُ كَانَ العَرَبِيُّ أَحْرَصَ فِي
الدَّفَاعِ عَنِ جَارِهِ مِنْهُ فِي الدَّفَاعِ عَنِ نَفْسِهِ .

٦٦ - نَعْرُزُ : هُنَا نَصِيبُ العَرِّ وَمُؤَدَاهُ أَنَّهُ يُصِيبُهُمْ بِأَذَى مِنْ يَصَابُ بِالعَرِّ أَيَّ الجَرْبِ .

م : يَمْضِي فِي تَهْدِيدِهِ وَوَعِيدِهِ وَيَقُولُ : إِذَا لَمْ تَمْنَعُوا عَنَّا الضَّيِّمَ ، نَتَّصِدِّي لِأَعْدَائِنَا بِمَا يَكْرَهُونَ .
فَإِمَّا أَنْ نَقْضِي عَلَيْهِمْ وَنَحْيَا كَرَامَا مِنْ دُونِهِمْ ، وَإِمَّا أَنْ نُقْتَلَ ، فَيَذْهَبُ عَنَّا الذُّلُّ بِمَوْتِنَا
الشَّرِيفِ .

٦٧ - الحَمَالَةُ : الدِّيَّةُ الَّتِي تَحْمَلُ عَنِ القَاتِلِ فَيُدْفَعُهَا سِوَاهُ عَنهُ .

م : يَقُولُ إِنْ قَاضَيْتُمْ عَنْهُمْ دِيَّةَ القَتْلِ ، فَإِنْ ذَلِكَ لَا يُحِلُّ الوَثَامَ وَلَا يُبْرِئُ الجِرَاحَ ، إِذْ مَهْمَا
عَظُمَتِ الدِّيَّةُ ، فَإِنَّ دِمَاءَ القَتْلِ تَنْظَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا .

٦٨ وَإِنْ تَعَرَّضُوا فِيهَا لَنَا الْحَقَّ ، لَمْ نَكُنْ عَنْ الْحَقِّ عُمِيَانًا ، بَلِ الْحَقُّ نَسَّأَلُ
٦٩ وَقَدْ نَزَلُ الثَّغْرَ الْمَخُوفَ ، وَيُتَّقَى بِنَا النَّاسُ وَالْيَوْمُ الْأَعْرُ الْمُحَجَّلُ

* * *

٦٨ - م : يميل في هذا البيت إلى المسألة ، ويقول إذا أديتم لنا فيها الحق ، فإننا لا نعدل عنه ، بل إننا نبتغيه ونقف عنده .

٦٩ - الثَّغْرُ : طرف البلاد الذي يدافع عنه . يُتَّقَى بنا الناس : أي أن الخائفين من أعدائهم يفرعون إليهم ويحتمون بهم منهم . الْمُحَجَّلُ : المضيء . المشرق بالسُّرُور .

م : ينهي القصيدة بالتفاخر بقوة نبي قومه ويقول إنهم لا يرحون يقاتلون أشد القتال وينتصرون أروع انتصار . فيحمون ثغور البلاد ويلجأ إليهم الخائفون ويجزع أعداؤهم منهم لأنهم لا يخوضون غمار المعركة حتى يجلوا فيها ويكون لهم اليوم الأعزُّ الفريد بين سائر الأيام .

رأينا أن نبذل هذه القصائد الكاملة ليطلع القارئ على
نماذج منها ، إذ أن شعر الأخطل الذي ضمه متن البحث
جاء مجزوءاً . ونشير هنا ، كذلك ، إلى أننا اقتبسنا الشعر
وشروحه من كتابنا « شرح ديوان الأخطل التغلبي » . ولم
نشأ أن نثبت أرقام الصفحات في الذيل ليسر الوقوع عليها
من مرة فهارس الديوان .

المصادر

- الأمدي المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم
 وبعض شعرهم ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .
- ابن الأثير الكامل في التاريخ ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ .
- أحمد أمين فجر الإسلام ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .
- ضحى الإسلام ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ .
- الأخطل (شرح ديوان الأخطل — بيروت ١٩٦٩ .
- الأصمعي الأصمعيات ، القاهرة ، ١٣٧٤ هـ .
- الأعشى الصبح المنير في شعر أبي بصير ميمون بن قيس بن جندل الأعشى
 والأعشى الآخريين ، فينا ، ١٩٢٧ م .
- امرؤ القيس ديوان امرؤ القيس ؛ انظر « أهلوآرت » .
- البستاني الأخطل ، بيروت ، ٣٦ — ١٩٤٠ م .
- جرير ، بيروت ، ٤١ — ١٩٤٢ م .
- الفرزدق ، بيروت ، ١٩٤١ م .
- أبو تمام نقائض جرير والأخطل ، بيروت ، ١٩٢٢ م .
- ديوان الحماسة ؛ انظر التبريزي » .
- الجاحظ البيان والتبيين ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .
- جرير ديوان جرير ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .
- جميل سعيد تطور الحمريات في الشعر العربي من الجاهلية إلى أبي نواس ،
 القاهرة ، ١٣٦٤ هـ .
- حسان ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ .

- ابن خلكان
ديوان زهير ؛ انظر « أهلوارت » .
زيقان
تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٢٤ م .
— تاريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٠٢ م .
ابن سلام
طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، القاهرة ، ط .
المحمودية ، بدون تاريخ .
أبو الفرج
الأغاني ، القاهرة ، الأجزاء من ١ — ١١ ، ط . دار الكتب ،
١٣٤٥ ؛ بقية الكتاب ، ط . الساسي ، ١٣٢٢ هـ .
الفردق
ديوان الفردق ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .
ابن قتيبة
الشعر والشعراء ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .
— أدب الكاتب ، القاهرة ، ١٣٥٥ هـ .
القرشي
جمهرة شعراء العرب ، القاهرة ، ١٣٤٥ هـ .
ابن كثير
البداية والنهاية في التاريخ ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .
محمد حسين
الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، القاهرة ، ١٣٦٧ هـ .
— الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ، القاهرة ، ١٣٦٧ هـ .
المرزباني
معجم الشعراء ، القاهرة ، ١٣٥٤ هـ .
— الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء ، القاهرة ، ١٣٤٣ هـ .
المسعودي
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ .
المفضل
المفضليات ، القاهرة ، ١٣٦١ هـ .
النابغة
ديوان النابغة ، انظر « أهلوارت » .
نوفل
شعر الطبيعة في الأدب العربي ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ .
ياقوت
معجم البلدان ، لبيزج ، ١٨٦٦ م .

الفهرس

٥	الفصل الأول : سيرته ونفسيته
٧	الباب الأول : تغلب قبيلة الشعاع
١١	الباب الثاني : اسمه ونسبه
١٧	الباب الثالث : ولادته وفتوته وشبابه
٢٥	الباب الرابع : ديانته
٣١	الباب الخامس : اتصاله بالخلفاء
٥١	الباب السادس : الأخطل وجريه والفرزدق
٥٣	الباب السابع : النقد الذي دار حوله

٥٧	الفصل الثاني : مدائحه
٥٩	الباب الأول : بواعثها وتطوراتها
٦٠	الباب الثاني : مدائحه في يزيد
٨٦	الباب الثالث : مدائحه في سائر الأمويين وولاتهم
١٠١	الباب الرابع : مدائحه في عبد الملك بن مروان
١١٣	تحليل نموذج من مدائحه السياسية : خف القطين
١٤٠	الباب الخامس : مدائحه في بشر بن مروان
١٦٤	الباب السادس : مدائحه في خالد بن أسيد

- ١٧٦ الباب السابع : مدائمه في الوليد بن عبد الملك
٢٠٤ الباب الثامن ✓ : الخصائص الفنية العامة لمدايح الأخطل

٢٢١ الفصل الثالث : أهاجيه

- ٢٢٣ الباب الأول ✓ : هجاء جرير
٢٥١ الباب الثاني : أهاجيه في القيسيين وأحلافهم
٢٧٦ الباب الرابع : سائر أهاجيه

٣٢٧ الفصل الرابع : مفاخره

- ٣٢٩ الباب الأول ✓ : الفخر العام
٣١١ الباب الثاني : مفاخرة القيسيين
٣٢٧ الباب الثالث : الفخر بجيل بني تغلب
٣٤٣ الباب الرابع : الفخر بالضيافة التغلبية

٣٥٩ الفصل الخامس : الوصف

- ٣٦١ الباب الأول ✓ : وصف الحمرة
٣٨٥ الباب الثاني : الطلل والمرأة والغزل
٤٥٢ الباب الثالث : الناقة والحمار الوحشي وأتته
٤٧٦ الباب الرابع : الناقة والثور الوحشي
٤٩٤ الباب الخامس : سائر موضوعات وصفه

- ١ - المطايا . ٢ - الغراب والذئب . ٣ - الهقلة .
٤ - القطا . ٥ - الصقر والقطا . ٦ - السفن . ٥١٠

الفصل السادس : الطباع الفنية العامة

٥١٩	تمهيد
٥١٩	طبيعة الانفعال الشعري
٥٢١	أ - السرد
٥٢٢	ب - التقرير
٥٣٧	ج - الجمل الأنشائية :
٥٤٦	١ - الاستفتاح والنداء
٥٤٦	٢ - الاستفهام والتعجب
٥٤٧	٣ - التحضيض
٥٤٨	د - التشبيه
٥٥٢	١ - تشبيه غلو
٥٥٥	٢ - تشبيه محاكاة
٥٥٧	٣ - تأليف المحاكاة والغلو
٥٥٨	٤ - تشبيه تمثلي
٥٦٠	٥ - تشبيه انتراضي
٥٦١	٦ - تشبيه محاكاة
٥٦٣	هـ - الكناية
٥٦٦	التقليد والتجديد
٥٦٨	أ - مظاهر التقليد
٥٨٣	ب - مظاهر التجديد
٥٩٢	رأي القلماء في شعره
٦٠٥	مختارات
٦٥٨	المصادر

كتب صدرت للمؤلف

- ١٩٦٩ فن الخطابة وتطوره عند العرب — دار الثقافة
- ١٩٦٩ فن الشعر الحمري وتطوره عند العرب — دار الثقافة
- ١٩٧٠ فن المهجاء وتطوره عند العرب — دار الثقافة
- النابعة ، سيرته ونفسيته وفنه ، دار الثقافة ١٩٦٩ ، وهي معدلة ومزودة
- الخطيئة — سيرته ونفسيته وفنه — دار الثقافة ١٩٦٩
- امرؤ القيس — سيرته ونفسيته وفنه — دار الثقافة ١٩٦٩
- الأحطل — سيرته ونفسيته وفنه — دار الثقافة ١٩٧٩